

الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّةُ

عَوامِلُ الازدِهارِ وَتَداعِياتُ الانهِيارِ

الدكتور علي محمد الصلابي

المجلد الثاني

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّةُ

عَوَامِلُ الازْدِهَارِ وَتَدَاعِيَاتُ الانْهِيَارِ



الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّة

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

الدكتور علي محمد الصلابي

المجلد الثاني

دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-85-003-8

الطبعة الثانية
1429 هـ - 2008 م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

الفصل الثامن

الفتوحات الإسلامية في عهد عبد الملك والوليد وسليمان

وتجدر الإشارة في هذا الفصل إلى أننا سوف نجمع الفتوحات في عهد عبد الملك والوليد وسليمان لكي نعطي صورة متكاملة عنها بسبب ترابطها ببعضها.

المبحث الأول

الفتوحات في بلاد الروم

في أواخر عام 73هـ شعر عبد الملك أن الدولة استعادت قوتها، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلي إرادتها، وكانت العلاقات قد ساءت بين دولة الروم والدولة الإسلامية في هذه الفترة، وأخذ الروم يتأهبون للانقضاض فكان عبد الملك لهم بالمرصاد وقد أحكم إعداده، فعين أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينية ليكون القائد في هذه الجبهة، ومنع عبد الملك إرسال النقود التي كان يدفعها وقت الضرورة فأثار هذا حنق الأمبراطور الروماني البيزنطي، فأعلن الحرب، وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينية، فلاقاه محمد ابن مروان بجيشه ودارت موقعة عنيفة هزم فيها الروم على كثرة عددهم هزيمة شنيعة وفر الإمبراطور بنفسه وانفض عنه أكثر جنوده وكان ذلك عام 74هـ، فزعزعت هذه الوقعة الدولة البيزنطية[1]، واستغل عبد الملك هذا النصر وواصل ضغطه على الدولة البيزنطية عبر الحدود وانتظمت غزوات الصوائف والشواتي وشرع في التوغل داخل الأراضي البيزنطية القريبة، فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضي يقودها محمد بن مروان أو غيره من أمراء بني أمية. وفي عام 81 هـ بعث عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك ففتح «قاليقالا» وهي إحدى مدن الروم الكبيرة، وفي عام 84 هـ تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية داخل دولة الروم في آسيا الصغرى، وهي مدينة «المصيصة» فبنى حصنها، ووضع بها حامية من ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون يسكنوها من قبل وبنى مسجدها وهكذا اندفعت قوة المسلمين إلى الأمام تفتح المعاقل وتستولي على الحصون

---

(1) عبد الملك بن مروان، محمد ضياء الدين، ص: 208.

داخل أرض العدو في دولة الروم، منذ تحققت الوحدة في عهد عبد الملك[1]. ولقد أثبت عبد الملك بعد إعادة الوحدة السياسية أن الدولة الموحدة قادرة على التفوّق وإحراز السيادة، وتحقيق النصر على البيزنطيين، وأن قوتها الموحدة قادرة على الاندفاع في الجبهات كافة[2]، واستمرت الجيوش الإسلامية في جهادها طوال مدة الوليد ثم سليمان، وقد برز مسلمة بن عبد الملك في تلك الحروب كقائد فذ، ومقاتل عظيم، فكان في كل سنة يفتح بلداً أو حصناً من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لتأمين سلامة بلادهم والمحافظة عليها من غارات الأعداء، وكان يغزو معه هذه الغزوات - في عهد الوليد - فتح هذه الفتوح العباس بن الوليد ابن عبد الملك ومن الحصون التي فتحها: حصن عمورية وهرقلية وقمونية، وحصن طوانة وسمطية والمرزبانين وطروس، وكثير غير هذه الحصون[3].

ففي جمادى الآخرة سنة 88هـ - 707م فتح مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد حصن طوانة وشتوا بها، وهزم المسلمون الأعداء حتى صاروا إلى كنيستهم ثم رجعوا فانهزم الناس، وبقي العباس ومعه نُفير، منهم ابن محيريز الجُمحي، فقال العباس لابن محيريز: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟ فقال ابن محيريز: نادهم يأتوك. فنادى العباس: يا أهل القرآن، فأقبلوا جميعاً فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة[4]. وهكذا لا تمر سنة وإلا ويغزو المسلمون أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم، ومن الجدير بالذكر أن معظم الذين كانوا يقودون هذه الحملات هم من أبناء البيت الأموي، أولاد الخليفة الوليد نفسه وأخوه مسلمة الذي لم يكد يتخلف سنة واحدة عن غزو أرض الروم، وهذا أمر له مغزاه، فقد كان مسلمة هو الذي قاد الجيش الذي حاصر القسطنطينية الحصار الأخير في عهد سليمان - كما سنذكر قريباً بإذن الله - ومعنى هذا أن اشتراكه المستمر في غزو بلاد الروم كان مقصوداً ليزداد معرفة وخبرة بالطرق والمسالك إلى عاصمة البيزنطيين، التي كانت إحدى الأهداف الرئيسية من هذه الغزوات[5].

أولاً: البيزنطيون يرصدون تحركات المسلمين العسكرية:

من الطبيعي أن تكون عيون البيزنطيين دائماً مفتوحة على حدودهم مع المسلمين، فجبهة الحدود دائماً ملتهبة والغزو الإسلامي لا يكاد يتوقف، ولكي يتأكد البيزنطيون من نوايا المسلمين وأهدافهم من وراء هذا النشاط العسكري المستمر، أرسل الإمبراطور البيزنطي أنسطاس 713 - 716م سفارة إلى دمشق لتستطلع الأخبار عن كثب، وتعرض على الخليفة

(1) المصدر نفسه، ص: 209.
(2) تجديد الدولة الأموية، ص: 149.
(3) الأمويين بين الشرق والغرب (1/ 420).
(4) تاريخ الطبري (7/ 334).
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 256.

الوليد مشروع عقد هدنة بين الدولتين، ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق، شاهدت عظمة المسلمين في عاصمتهم ونشاط الخليفة في إعداد الجيوش لتوجيهها إلى القسطنطينية وعاد السفير إلى الإمبراطور يؤكد صدق عزيمة المسلمين على الجهاد وينصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن العاصمة فأخذ أسنطاس برأي سفيره، وأعلن في القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته، ثم ملأ الخزائن الإمبراطورية بكميات كبيرة من القمح وغيره من الحاجيات التي يتطلبها المدافعون عن المدينة، واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة لاسيما الجهات المطلة منها على المياه، حيث كان التداعي قد دب فيها، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع[1]، وبينما يمضي الخليفة الوليد في استعداداته للزحف على العاصمة البيزنطيّة إذ وافته منيته سنة 96هـ، فخلفه أخوه سليمان ليواصل جهوده في هذا الميدان[2].

ثانياً: سليمان بن عبد الملك وحصاره للقسطنطينية:

يبدو أن اهتمام الخلفاء بفتح القسطنطينية، إنما يرجع لرغبتهم الشديدة في أن يكونوا المقصدين بقوله ﷺ: **«لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»**[3]، ويضاف إلى ذلك رغبة سليمان الشديدة في وضع حد للهجمات البيزنطية المتكررة على الشواطئ الشامية والمصرية، والتي من شأنها بث حالة من عدم الاستقرار في تلك النواحي وبالتالي المساس بسيادة الدولة الإسلامية، فقد هاجم البيزنطيون ساحل جند حمص، وسبوا امرأة وجماعة، وللمرأة فيهم ذكر إذ ذاك، فغضب سليمان وقال: ما هو إلا هذا نغزوهم ويغزوننا، والله لأغزونهم غزوة أفتح فيها القسطنطينية، أو أموت دون ذلك[4].

1 - الاستعداد للحملة:

شملت الاستعدادات للحملة معظم العالم الإسلامي، فقد ضمت الحملة البرية نحو مائة وعشرين ألفاً من الشام والجزيرة والموصل، وضمت الحملة البحرية ألف مركب من أهل مصر وإفريقيا[5]ويبدو أن تقدير المسلمين بحصانة القسطنطينية، وطول أمد الحرب، تقدير

(1) الأمويون والبيزنطيون، نقلاً عن العالم الإسلامي، ص: 256.
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 256.
(3) مسند أحمد (رقم 1969).
(4) الوافي بالوفيات (15/ 403)، خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 177.
(5) البداية والنهاية، نقلاً عن خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 181.

سليم وقوي، حيث أنهم أدركوا أن حصارها يتطلب قوات كبيرة ووقتاً طويلاً وأسلحة متنوعة لذلك جمعوا: آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك[1].

2 - سير الحملة:

تجاذبت قادة المسلمين العسكريين خطتان حول سير الحملة، الأولى طرحها موسى بن نصير، وفحواها أن على المسلمين احتلال المدن والحصون التي دون القسطنطينية، لتجريدها من المواقع الحصينة المحدقة بمسالكها، والتي قد تعيق حركة الجيش الإسلامي، ويستمر الأمر بهذه الخطة حتى تفتح القسطنطينية، وأما الخطة الثانية، فطرحها مسلمة بن عبد الملك والذي ارتأى أن اتباع خطة موسى، يحتاج إلى أمد بعيد جداً حتى يتحقق حصار القسطنطينية وفتحها، لذلك أشار بضرورة التوجه مباشرة إلى القسطنطينية دون التعرض للمدن والحصون المحدقة بجانبي الطريق إلا ما كان ضرورياً، ويبدو أن رأي مسلمة لقي قبولاً لدى الخليفة ومستشاريه العسكريين لذلك تقرر سير الحملة حسب خطته[2].

وسار سليمان من القدس إلى دمشق ومضى حتى نزل دابق[3]، وأقسم ألا ينتقل منها حتى يفتح القسطنطينية، فأقام بها[4]، وفي سنة 98هـ تحركت الحملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك من سوريا براً، وبحراً باتجاه القسطنطينية واستمر مسلمة في سيره ووصلت الحملة البرية القسطنطينية عام 98هـ ووصلها الأسطول في عام 99هـ، وضرب المسلمون الحصار على المدينة، وقاتلوا الروم قتالاً شديداً واستبسلوا في جهادهم، ورغم المصابرة التي استمرت قرابة سنة، فإن المحاولة فشلت وخسر المسلمون خسارة كبيرة في العدد والعدة[5]، وقد وصفت المصادر الإسلامية الحالة السيئة التي آل إليها الجيش الإسلامي في الفترة الأخيرة من الحصار، فالبسوي يقول: وقد كان الناس لقوا جهداً من القسطنطينية من الجوع[6]، ويقول الطبري: فلقي الجند ما لم يلق جيش، حتى كان الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده، وأكل الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب[7]، كما أن البيزنطيين داخل القسطنطينية كانوا في حالة سيئة أيضاً ولعل من الشواهد التاريخية على ذلك ما يأتي:

أ - إن مخاطرة السفن البيزنطية في الخروج لجلب القمح من شواطئ البحر الأسود وخروج المراكب الصغيرة لجلب الطعام وصيد الأسماك، دليل قوي على الضنك الاقتصادي عند أهل القسطنطينية بالرغم من انكسار حدة القتال.

(1) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 181.
(2) البداية والنهاية (12/ 632).
(3) المصدر نفسه (12/ 633).
(4) تاريخ الطبري (7/ 433).
(5) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 261.
(6) المعرفة والتاريخ (1/ 618).
(7) تاريخ الطبري (7/ 433).

ب - سعي البيزنطيين إلى عقد صلح مع مسلمة، حيث عرض بِطْريقهم دفع دينار عن كل رجل محتلم في القسطنطينية، دليل آخر على سوء الأوضاع الداخلية.

ج - الصلح الذي تم إبرامه بين المسلمين والبيزنطيين، قبيل انسحاب الجيش الإسلامي، وتعهد البيزنطيين بموجبه المحافظة على المسجد الذي بناه مسلمة[1].

3 - انسحاب الجيش الإسلامي:

لما مات سليمان بن عبد الملك تولى عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة، فوجه إلى مسلمة وهو محاصر للقسطنطينية وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، وكان عدد الخيل التي وجهها لمسلمة خمسمائة فرس[2]، لأنه كان قد أصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك[3]، وكان قرار عمر بن عبد العزيز بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً، لا لأنّ عمر غير ميال إلى حروب الفتح والاستيلاء[4] بل لأنّ موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميئوساً منه، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم، بعد أن بلغ بهم الجهد[5]، إذ لم يغفل عمر أبداً عن غزو الروم دفاعاً عن حدود أرض الشام الشمالية الغربية[6]، لقد أحسن عمر بن عبد العزيز في قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية، لأن الموقف العسكري كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار، ولو كانت كفة المسلمين راجحة في حينه لكان من المستحيل عليه الأمر بانسحاب المسلمين، ولكن هناك مسوِّغ للادعاء بأن عمر بن عبد العزيز غير ميال لحروب الفتح دون تمحيص للموقف العسكري الراهن[7].

4 - أسباب فشل الحملة:

أ - غدر وخيانة: تناولت الأخبار غزوة القسطنطينية وذكرت أن ليو حاكم - بطريق - عمورية اتصل بسليمان بن عبد الملك وحرّضه على حرب تيودوسيوس - تيدوس - ووعد ليو سليمان أن يقف إلى جانب المسلمين ويسلمهم أرض الروم، وقيل الذي عرض التحالف على الآخر هو سليمان بن عبد الملك، وقيل مسلمة بن عبد الملك عرض ذلك أثناء حصار القسطنطينية وهو يتظاهر أمام مسلمة أنه يحاول إقناعهم في النزول على رغبة مسلمة، وكان مسلمة حسب هذه الأخبار طلب إليهم ليرحل عنهم أن يملكوا حليفه ليو عليهم، وأما ليو فكان في حقيقة الحال يطلب الملك لنفسه ويريد أن ينقذ البلد من خطر المسلمين، ولما اطمأن الأساقفة والبطارقة إليه وحلف لهم انقادوا له واستوى له الأمر، فخرج إلى مسلمة وأشار عليه

---

(1) عيون المعارف للقضاعي، ص: 358.
(2) تاريخ الطبري (7/ 457).
(3) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 256.
(4) المصدر نفسه، ص: 256.
(5) خطط الشام (1/ 552).
(6) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 257.
(7) المصدر نفسه، ص: 259.

أن يحرق ما عنده من الطعام ليبأسوا من المطاولة ويصح عندهم عزم مسلمة على المناجزة فيعطوا ما بأيديهم، وقيل: أشار عليه أيضاً أن يأذن لأهل القسطنطينية لليلة واحدة أن يحملوا مما عنده من الغلال ليروا حسن رأيه فيهم وأن أمره وأمر ليو واحد وانطلت الخديعة على مسلمة وأطاع ليو، وأما ليو فقد استولى على الحكم وأعلن الحرب على مسلمة في الوقت الذي صار مسلمة في حال لا يحسد عليه من سوء الأحوال الجوية وقلة الميرة لجنده حتى لقوا من الشدة ما لم يلق أحد قط، واضطروا إلى أكل الدواب والجلود والميتة وأصول الشجر وغير ذلك[1]، وخلاصة القول، أن هذه الأخبار تلقي مسئولية الفشل على عاتق مسلمة بن عبد الملك الذي كان عندها شجاعاً فحسب ولم يكن من ذوي الرأي والبصيرة في الحرب، ولم يكن له رأي فيها يرجع إليه[2]، ولو صدقنا هذه الأخبار لكانت الدولة أي سليمان بن عبد الملك ابتداء، ومسلمة بن عبد الملك قائد الجيوش تالياً ربطا مصير فتح القسطنطينية ومصير الجند المسلمين هناك بوعود شخص هو ليو مظنة كذب وخديعة، وهو حال يتناقض واستعدادات الدولة في هذا الوجه[3].

وقد علق الأستاذ محمود شيت خطاب على حصار القسطنطينية فقال: وإذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة في معركة حصار القسطنطينية فهو عدم استفادته كما ينبغي من الصفة الأولى من صفات حصار «القسطنطينية» وهي صفة «المبادرة» في التركيز بالهجوم على المدينة المحاصرة وإدامة زخم الهجوم عليها أولاً، وثقته غير المحدودة بحليفه «ليو» لأن الذي يخون بلاده وقومه أولى به أن يخون غير بلاده وغير قومه، فكانت هذه الثقة العمياء في هذا العميل لا مسوّغ لها ثانياً، فالحرب من القضايا المصيرية، ولا بدّ من إدخال أسوأ الاحتمالات في كلّ ما يؤثر في نتائجها من قريب أو بعيد[4].

ب - ضراوة الشتاء: بخصوص ضراوة الشتاء عام 99هـ قيل أن الثلج غطى وجه الأرض، وهلك فيه كثير مما كان مع المسلمين من الجمال والخيل والبغال، ولابدّ أن المسلمين في هذه الأحوال الجوية القاسية أتوا على أكثر ما كان معهم من الطعام وأصبحوا في نقص من الميرة وعضّهم الجوع، ولذلك قيل: استطاع ليو أن يفخر بأن ديسمبر (كانون الأول) ويناير (كانون الثاني) وفبراير (شباط) كانوا أعظم قواده[5].

ج - مناعة أسوار المدينة وتحصيناتها الدفاعية: أخذ حكام بيزنطة في تحصين أسوار

---

(1) أخبار القضاة لوكيع (3/ 213) دراسة في تاريخ الأمويين، ص: 261.

(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 262.

(3) المصدر نفسه، ص: 262.

(4) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 261.

(5) الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان (2/ 85، 91).

القسطنطينية وتسليحها بالمجانيق، منذ علموا بعزم المسلمين على غزوها، وزادها ليو الذي تقلد الحكم فيها زمن الحصار تحصناً، وأمر حكام بيزنطة بتخزين الطعام بالقدر الذي يكفي أهلها لثلاث سنوات ومنعوهم من أن يغادروها[1].

د - استخدام سلاح جديد ضد المسلمين: «النار الإغريقية»: استخدم البيزنطيون النار اليونانية فأثرت في جيش المسلمين وكبّدتهم خسائر في الأرواح والسفن والمعدات، وتاريخ الحرب في جميع العصور يقرر أن من أهم أسباب عوامل النصر هو استخدام سلاح فتاك جديد لا يتوقعه الخصم أو استخدام أسلوب قتالي جديد لا يتوقعه الخصم، أو استعمالهما معاً في الزمن والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم، وكل ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخطته المرسومة، والمباغتة كما هو معروف هي أهم مبادئ الحرب على الإطلاق[2] ومن الإنصاف أن نضيف إلى عوامل انتصار الروم في الدفاع عن القسطنطينية عاملاً آخر هو: كفاية (ليو الثالث) المتميزة في القيادة، وتشبعه بمزية إرادة القتال[3].

هـ - التيارات المائية: واجه المسلمون في البحر صعوبات كثيرة فقد جعلت التيارات المائية المنحدرة من البحر الأسود إلى بحر مرمرة حركة السفن الإسلامية بطيئة، وأدى تغير الريح إلى اضطرابها، ونالت النار الإغريقية منها وألحقت بها أضراراً كثيرة[4].

و - المصالحة بين البيزنطيين والبلغار والخزر: صالح ليو الحاكم البيزنطي أعداءه الخارجين عليه من الخزر والبلغار، وبذلك ضمن الجبهة الشمالية مما جعله يصب جل اهتمامه على القوات الإسلامية لغرض تدميرها وإيقاف زحفها على المدينة[5].

ز - الاستعجال وعدم التريث: ويبدو أن المسلمين لو تريثوا حتى أتموا فتح البر الآسيوي البيزنطي، ثم تقدموا إلى القسطنطينية من مواقع مجاورة وبأحوال جوية مماثلة ومألوفة للمقاتلة وخطوط ومواصلات قصيرة وإمدادات قريبة وأعداد بشرية كثيرة فربما وجدوا المهمة أيسر، ولكنهم عمدوا إلى صقع من البلاد في محيط من الأعداء حصين وبعيد فاستعصى عليهم[6].

ح - ضعف خبرة مسلمة العسكرية: كان مسلمة بن عبد الملك القائد الأموي في حصار القسطنطينية صغيراً في السن وأقل تجربة من عظماء الفتح الإسلامي في ذلك العهد مما أثر في فشل الحصار.

---

(1) الحدود الإسلامية، فتحي عثمان (2/ 85، 91).
(2) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 260.
(3) المصدر نفسه، ص: 260.
(4) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 264.
(5) العلاقات العربية - البيزنطية في العصر الأموي، ص: 64.
(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 264.

5 - نتائج الحملة:

ترتب على حملة القسطنطينية العديد من النتائج ولعل من أبرزها ما يلي:

أ - تأكد للمسلمين أنهم لا يستطيعون فتح القسطنطينية دون فتح المناطق المجاورة لها، وتثبيت أقدامهم فيها حتى تكون عوناً لهم لا عليهم في حالة حصار القسطنطينية، وبالرغم من ذلك فقد كانت للمسلمين سيطرة واضحة على العديد من موانئ البحر الأبيض المتوسط خاصة في حوضه الغربي.

ب - تخلي أباطرة البيزنطيين عن فكرة استعادة شمال إفريقيا، وعدوا الدفاع عن هذه المنطقة في المرتبة الثانية بعد الدفاع عن عاصمتهم، وبالتالي أصبحت منطقة شمال إفريقيا ركناً هاماً من أركان الدولة الإسلامية قوية الأوتاد[1].

جـ - ولعل من أهم النتائج المباشرة لغزو القسطنطينية، ازدياد نشاط الأسطول البيزنطي في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط فقد هاجم البيزنطيون بالإغارة على تِنِّيس[2] في خلافة يزيد بن عبد الملك[3].

6 - من خطب عبد الملك في التحريض على قتال الروم:

علم عبد الملك بتحرك الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم على غزو المسلمين ومفاجأتهم فنادى بالنفير العام، وحين اجتمع لديه جند المسلمين قام فيهم محرضاً فقال لهم بعد أن حمد الله عَزَّوَجَلَّ وأثنى عليه: أيها الناس إنكم قد علمتم ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه من فضل الجهاد وما وعد الله عليه من الثواب، ألا وإني قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة على أليون صاحب الروم فإنه طغى وبغى، وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعاً كثيرة وعزم على غزوكم ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومبدد شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه وقد جمعتكم من كل بلد وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعة والشدة، وأنتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته، وهذا ابني مسلمة وقد أمرته عليكم، فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور، فقال الناس جميعاً: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين[4]، وعندما سير عبد الملك بن مروان ابنه مسلمة لمحاربة الروم أوصاه بالعسكر بقوله: فكن يا بنيَّ بالمسلمين باراً رحيماً وأميراً حليماً ولا تكن عنيداً كفوراً ولا مختالاً فخوراً[5]، كما أوصى عبد الملك قائداً آخر سيره إلى أرض الروم: أنت تاجر الله لعباده فكن

---

(1) خلافة سليمان بن عبد الملك، علي إبراهيم، ص: 200.

(2) تِنِّيس: جزيرة في بحر مصر، قريبة من البر.

(3) ولاة مصر للكندي، ص: 91، خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 200.

(4) الفتوح لابن أعثم (4/ 123).

(5) المصدر نفسه (4/ 123).

كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تاجر، وإلا احتفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك[1].

7 - من أشهر قادة المسلمين ضد الروم: مسلمة بن عبد الملك:

مسلمة بن عبد الملك الأمير الضرغام، قائد الجيوش، أبو سعيد الأموي الدمشقي، ويلقب بالجرادة الصفراء[2]، له مواقف مشهودة مع الروم، وهو الذي غزا القسطنطينية وكان ميمون النقيبة، وقد ولي العراق لأخيه يزيد ثم أرمينية[3]، قال عنه الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته[4]، وقد ظهرت مزايا مسلمة وألمعيته مبكراً وهو صغير السن، فركز أبوه عبد الملك عليه وبخاصة في وصيته أبناءه وبنيه وهو على فراش الموت فقال فيه: . . وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي عنه تفترون ومِجنّكم الذي عنه ترمون[5]. فهو قائد من قواد الفكر وقائد من قادة الجهاد بالنسبة لبني أمية، لا يخالفون له رأياً، ولا يعصون له أمراً، ويلجأون إليه في أيام المحن والحروب[6]، ومسلمة هذا عُرف في التاريخ مع قصة صاحب النقب، حيث حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلى نَقْب منه، فما دخله أحد فجاء رجل من عُرض الجيش، فدخله ففتحه الله عليهم: فنادى مسلمة: أين صاحب النَّقب؟ فما جاء أحد. فنادى: إني قد أمرت الإذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء، فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النَّقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال: إن صاحب النَّقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟ قال مسلمة: فذاك له، قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب[7]. وكان مسلمة في جهاده يحرص على سلامة جنده، وفي قتاله للخزر تكالب عليه الأعداء مما اضطره إلى خداعهم بإشعال النيران ليوهمهم بمكوثه وجعل خيامه مضروبة بعد العشاء الآخرة. جعل مسلمة يطوي المراحل طياً في العودة فقد جعل كل مرحلتين في مرحلة غير أنه قدم الضعفاء بين يديه واهتم بهم وجعل الأقوياء أهل الجلد والشجاعة على الساقة، فلم يزل كذلك حتى جاوز الخطر[8]. وكان يمقت العجز ويمدح الحزم، فقد قال: ما حمدت نفسي على ظفر ابتدأته

(1) نهاية الإرب (6/ 170).
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 241).
(3) المصدر نفسه (5/ 241).
(4) المصدر نفسه (5/ 241).
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 289.
(6) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 289.
(7) عيون الأخبار (1/ 172).
(8) الفتوح لابن أعثم (4/ 283).

بعجز ولا ذممتها على مكروه ابتدأته بحزم[1]، ومن أقواله في الزهد: إن أقل الناس هماً في الدنيا أقلهم هماً في الآخرة[2]. وكانت تجربته العملية غنية إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبد الملك بن مروان ومع إخوته من بعده، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشاراً يتعلمون منه أكثر مما يتعلم منهم، إلا إذا حزبهم أمر يهدد أمن الدولة ومصيرها تهديداً خطيراً، فيبعثونه ليقضي على الثورات، وليقمع الاضطرابات، وليعيد الأمن والاستقرار[3]. وكان مسلمة مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية ويدين بالولاء المطلق للخلفاء، ولم يكن يطمح لتولي الخلافة لأن بني أمية لم يكونوا يبايعون لبني أمهات الأولاد، ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابناً أسدَّ رأياً ولا أذكى عقلاً، وأشجع قلباً، وأسمح نفساً ولا أسخى كفاً من مسلمة، وإنما تركوه لهذا المعنى[4]. وكانت بني أمية لا تستخلف بني الإماء، وقالوا: لا تصلح لهم العرب[5]. ولم يكن لمسلمة أمل في تولي الخلافة مع أنه - كما قال الذهبي -: كان أحق بالملك من سائر إخوته[6]. وكان ذا عقل راجح ورأي سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً على رص الصفوف والوحدة، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمة لا (غاية) من أجل أطماع شخصية، وأمجاد أنانية، وهو بحق خدم الأمة أجل الخدمات، وبذلك حقق (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية)[7]، وكان ﷺ جميل الصورة حسن الوجه صبيحاً، من أجمل الناس، وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام[8]، توفي 120هـ[9].

8 - أبو محمد البطال:

من أبطال المسلمين وأمرائهم الشاميين، كان مع جيش مسلمة بن عبد الملك وكان مقره بإنطاكية أوطأ الروم خوفاً وذلاً. ولكن كذب عليه أشياء مستحيلة في سيرته الموضوعة، وعن عبد الملك بن مروان أنه أوصى مسلمة: أن صير على طلائعك البطال ومره فليعس بالليل، فإنه أمير شجاع مقدام[10]، وعقد مسلمة للبطال على عشرة آلاف وجعلهم طلائع للجيش[11]، ومن نوادر ما يحكى عن البطال أنه قال: اتفق لي أنا أتينا قرية لنغير، فإذا بيت فيه سراج وطفل صغير يبكي، فقالت أمه: اسكت، أو لأدفعنك إلى البطال فبكى، وقالت: خذه يا بطال،

(1) الشهب اللامعة، ص: 476.
(2) المعرفة والتاريخ (2/ 226).
(3) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 305.
(4) العقد الفريد (6/ 131) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 310.
(5) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 310.
(6) سير أعلام النبلاء (5/ 241).
(7) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 311.
(8) سير أعلام النبلاء (5/ 241).
(9) المصدر نفسه (5/ 241).
(10) المصدر نفسه (5/ 241).
(11) المصدر نفسه (5/ 269).

فقلت: هاتيه. وجرت له أعاجيب وفي الآخر أصبح في معركة مثخوناً وبه رمق فجاء الملك ليون، فقال: أبا يحيى، كيف رأيت؟ قال: وما رأيت؟ كذلك الأبطال تقتل ولا تُقتل، فقال: عليَّ بالأطباء، فأتوا فوجوده قد أنفذت مقاتله، فقال: هل لك حاجة؟ قال: تأمر من يثبت معي بولايتي وكفني والصلاة عليَّ ثم تطلقهم، ففعل، قتل 112هـ، وقيل 113هـ[1]. قال عنه ابن العماد: . . وله حروب ومواقف ولكن كذبوا عليه، فأفرطوا، ووضعوا له سيرة كبيرة، تقرأ كل وقت، يزيد فيها من لا يستحي من الكذب[2].

9 - عامر الشعبي سفير عبد الملك لعظيم الروم:

وجه عبد الملك بن مروان الشعبي إلى ملك الروم - يعني رسولاً - فلما انصرف من عنده قال: يا شعبي، أتدري ما كتب به إليّ ملك الروم؟ قال: وما كتب به يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أتعجب لأهل ديانتك، كيف لم يستخلفوا عليهم رسولك. قلت: يا أمير المؤمنين لأنه رآني ولم يرك، وفي رواية: يا شعبي، إنما أراد أن يغريني بقتلك. وبلغ ذلك ملك الروم فقال: لله أبوه، والله ما أردت إلا ذاك[3]. وفي هذا ما يدل على أن الروم لم تكن نياتهم سليمة مع المسلمين حتى في زمن السلم والمراسلات وعقود الصلح، وأنهم يستخدمون الكيد والمكر لشق الصفوف، والتخلص من الأفذاذ.

المبحث الثاني

الفتوحات في الشمال الإفريقي والأندلس

أولا: فتوحات حسان بن النعمان الغساني:

استشهد زهير البلوي وأصحابه في معركة مع البيزنطيين في مدينة درنة بشرق ليبيا ودفن مع أصحابه، وقبورهم هناك معروفة إلى اليوم تسمى مقبرة الشهداء وكان ذلك 71هـ[4]، وكان وقع استشهاد زهير بن قيس البلوي ورفاقه عظيماً على الخليفة عبد الملك بن مروان، لذلك ما إن انتهى من حربه مع ابن الزبير حتى أولى اهتماماً خاصاً إلى الوضع في شمال إفريقيا، لذلك نراه يجهز جيشاً كبيراً قوامه نحو أربعين ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام، وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني الذي كان رجلاً ورعاً تقياً، يدل على ذلك تسميته بـ«الشيخ الأمين»[5]، وقد أقر الخليفة حسان بن النعمان أن يقيم بمصر استعداداً لإنجاز مهمته وكتب إليه: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس، واخرج

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 269).
(2) شذرات الذهب (2/ 93).
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 304).
(4) مصر في العصر الأموي، ص: 140.
(5) تاريخ إفريقيا والمغرب، ص: 67.

إلى جهاد إفريقيا على بركة الله[1]. وقد وصف ابن الأثير عظمة هذا الجيش من حيث تعداده وعدته بقوله: لم يدخل إفريقيا جيش مثله[2]، وكان بداية الغزو في عام 74هـ[3]، وقد تمكن هذا الجيش من فتح المناطق التي مر بها، وكان على مقدمته كل من: محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي[4]، ووجود هذا الأخير كقائد على مقدمة جيش حسان يشير إلى مشاركة البربر بشكل كبير في هذه الحملة[5].

1 - فتح قرطاجنة:

وصل حسان القيروان ودخلها دون أن يواجه أي مقاومة ثم توجه بعد ذلك إلى الشمال حيث قرطاجنة القاعدة البيزنطية على الساحل[6]، وسار حسان إلى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة[7]، ولم تطل المعركة مع البيزنطيين ودخل حسان قرطاجنة عنوة، ولم يكد حسان ينصرف منها عائداً إلى القيروان حتى عاد أهلها للاعتصام بها مرة أخرى، مما اضطر حسان لفتحها مرة ثانية[8]، فهدم المسلمون ما أمكنهم منها[9]، لكي لا يعود إليها من يطمع بالتحصن بها. ثم أعقب حسان حملته هذه بحملة على ططفورة وبنزرت فافتتحها، ولم يتبع المنهزمين من الروم الذين تحصنوا في مدينة باجة ولا البربر الذين تحصنوا في مدينة بونة[10]. وعاد حسان إلى القيروان، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا[11].

2 - هزيمة حسان أمام الكاهنة:

وبعد ضرب الروم التفت حسان إلى زعامة البربر، فقال: دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية؟ فدلوه على امرأة تملك البربر وتعرف بالكهانة[12]، والتقى حسان بن النعمان بالكاهنة عند نهر يدعى نيني أو مسكيانة على مرحلة من باغاي ومجانة، فانتصرت الكاهنة وقتل من المسلمين خلق كثير، وانسحب حسان إلى قابس[13]، وقامت الكاهنة بالهيمنة على المغرب كله بعد حسان خمس سنين، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلا آخر الدهر[14]، واستجاب لها

---

(1) نهاية الإرب في فنون الأدب (24/ 34).
(2) مصر في العصر الأموي، ص: 143.
(3) الكامل في التاريخ (3/ 82).
(4) فتوح مصر والمغرب، ص: 270.
(5) مصر في العصر الأموي، ص: 143.
(6) نهاية الإرب (22/ 19).
(7) الكامل في التاريخ (3/ 82).
(8) رياض النفوس (1/ 32).
(9) نهاية الإرب (22/ 19).
(10) الكامل في التاريخ (3/ 82).
(11) المصدر نفسه (3/ 82).
(12) المصدر نفسه (3/ 82).
(13) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 151).
(14) المصدر نفسه (1/ 153).

قومها من جراوة الذين كان يغلب عليهم الطابع البدوي فذهبوا إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون[1] . . فكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً وقرى متصلة فأخرجت جميع ذلك[2]، وقد أضر هذا التخريب بالبرانس والأفارقة حتى ألجأهم إلى الفرار وطلب المساعدة، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية[3]، وملكت الكاهنة إفريقية وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم[4].

3 - استعادة البيزنطيين قرطاجنة وانسحاب حسان إلى سرت بليبيا:

كان لسقوط قرطاجنة بيد المسلمين أثر بالغ على البيزنطيين ووجدوا في خروج حسان من إفريقية والفوضى التي عمّت البلاد مجالاً لإعادة نفوذهم في الشمال الإفريقي، فجهز الإمبراطور ليونتوس - الذي خلف جستنيان الثاني - سنة 695م حملة كبيرة بقيادة البطريق يوحنا إلى إفريقية، وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إليها، فتمكنت القوة البيزنطية من استعادة قرطاجنة سنة 78 هـ دون مقاومة تذكر، واضطر أبو صالح نائب حسان عليها أن ينسحب منها مع من كان معه من المسلمين ودخلها البطريق يوحنا[5]، ويتضح من دراسة حركة الفتح أن مصير المغرب كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأوضاع في المشرق، وأقام حسان في منطقة طرابلس قرب سرت في المكان المسمى قصور حسان خمس سنين، وحين استقرت الأوضاع في المشرق سارع عبد الملك بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقية في أواخر سنة 81هـ[6].

4 - مقتل الكاهنة 82هـ:

كان خالد بن يزيد العبسي أسيراً عند الكاهنة، فأرسل إلى حسان: إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم فَاطْوِ المراحل وجُدَّ في السير[7]. ودارت المعركة بين الكاهنة وحسان على مقربة من قابس وانتهت بنصر كبير للمسلمين، وبمقتل الكاهنة عند بئر سمي بئر الكاهنة[8]، وبعد هذا الانتصار عاد حسان إلى القيروان في سنة 82هـ، ومنها زحف إلى قرطاجنة وأعاد فتحها[9]. وبهذا النصر المزدوج خلصت أرض إفريقية للمسلمين، تلت ذلك فترة استقرار ثم انطلاق لفتح ما تبقى من المغرب[10].

(1) الكامل في التاريخ (3/ 83).
(2) نهاية الإرب (22/ 21).
(3) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 154).
(4) الكامل في التاريخ (3/ 83).
(5) فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس، ص: 370.
(6) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 155).
(7) الكامل في التاريخ (3/ 83).
(8) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 157).
(9) رياض النفوس (1/ 37) الإسلام والتعريب (1/ 158).
(10) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 158).

5 - سياسة حسان مع البربر:

أ - إدخالهم في قيادة الجيوش: نهج حسان نفس السياسة التي سار عليها أبو المهاجر وهي تأليف البربر وإشراكهم في الفتوح، ولعله توسع في ذلك بإدخالهم في الجيش على نطاق واسع[1]، فكانت سياسته خطوة كبيرة في اكتساب ولاء البربر وإخلاصهم، ففي حملته الأولى عين هلال بن شروان اللواتي قائداً على مقدمته مع اثنين من العرب هما محمد بن بكير وزهير ابن قيس[2]، كما استعان بالبربر كعيون فقد أرسل أحد رجالهم الذي أسلم طوعاً ليأتيه بالأخبار عما يجري في معسكر الكاهنة[3]، ورحب بولدي الكاهنة وولى أكبرهما قيادة الجيش في منطقة الأوراس واثقاً بإخلاصه وحسن إسلامه، مما أدى إلى إسلام نفر كبير من البتر[4]. ويبدو نجاح سياسته من استغاثة أهل قابس وقفصه وأهل نقراوة به فسره ذلك[5].

ب - المساواة بين البربر والعرب المسلمين: حين جند حسان البربر ساوى بينهم وبين العرب المسلمين وذلك وفقاً لمبادئ المساواة في الإسلام، ففرض لهم ومنحهم نصيبهم من الغنائم[6]. ثم خطا خطوة كبرى بأن قسم المغرب خططاً للبربر[7]. ويبدو أن حساناً اعتبر أرض المغرب أرضاً أسلم عليها أهلها[8].

ج - الاهتمام بالتنظيم الإداري: كان حسان قد اعتنى بالتنظيم الإداري في المغرب خلال مدة إقامته (82هـ - 86هـ). فقد أنشأ الديوان أو ديوان الجند، وهو سجل يحفظ فيه أسماء المقاتلين وأنسابهم وصفاتهم ومقدار أعطياتهم، ونظم ديوان الخراج بأن عني بتحديد الجزية والخراج. يقول ابن عذاري: فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[9]، وكان عامتهم من البرانس إلا قليلاً من البتر[10].

وقام حسان ببناء دار لصناعة السفن، وأنشأ مدينة إسلامية ثانية وهي تونس أصبحت رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناءً جديداً للبلاد. وصارت تونس ثانية العواصم الإفريقية حين أولاها حسان اهتمامه[11]، واهتم بالقيروان فجدد بناء مسجدها أحسن مما كان عليه أيام عقبة[12]، واهتم بتعليم البربر مبادئ الإسلام، وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم[13]، وبث الدعاة في مختلف القبائل لنشر الإسلام بين البربر،

---

(1) فتوح مصر وأخبارها، ص: 201.
(2) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 158).
(3) تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 59، 60، الرقيق.
(4) فتوح مصر وأخبارها، ص: 201.
(5) رياض النفوس (1/ 35).
(6) المصدر نفسه (1/ 36).
(7) المصدر نفسه (1/ 36).
(8) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 160).
(9) البيان المغرب (1/ 38).
(10) فتوح مصر وأخبارها، ص: 201، البرانس والبتر من قبائل البربر.
(11) الإسلام والتعريب (1/ 164).
(12) رياض النفوس (1/ 37) الإسلام والتعريب (1/ 162).
(13) البيان المغرب (1/ 43) الإسلام والتعريب (1/ 162).

فبنوا المساجد، واستلموا المنابر ومن ذلك بناؤهم لمسجد أغمات سنة 85هـ[1]، وانتشرت الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين مبادئ القراءة والكتابة[2].

6 - عزل حسان عن ولاية إفريقية:

في سنة 85هـ عزل حسان بن النعمان من قبل والي مصر عبد العزيز بن مروان، ويذكر أن خلافاً نشب بين حسان وعبد العزيز على ولايتي برقة وطرابلس إثر تعيين عبد العزيز والياً منفصلاً عليها، فلم يوافق حسان على هذا الأمر[3]، ويبدو أن المشكلة هي أن حسان رأى أنه تابع للخليفة مباشرة وأن إفريقية ولاية[4]، بينما رأى أمير مصر أنها تابعة له وأن حسان يجب أن يراجعه ولذلك أخذ أغلب الغنائم والهدايا الثمينة التي كان حسان ينوي أن يحملها إلى الخليفة في دمشق، فحين وصل حسان إلى دمشق شكاه للخليفة وأعطاه ما تبقى من الغنائم[5]، وواضح من شكوى حسان أنه يرى أن عبد العزيز يتهمه بالخيانة المالية ظلماً، فحين أراد الخليفة مكافأته برده إلى ولاية إفريقية رفض حسان وأقسم أنه لا يولي لبني أمية أبداً[6]، ولا يستبعد أن عبد العزيز كان يرغب أن تدار إفريقية من قبل أحد رجاله وإصرار عبد العزيز لتولية موسى بن نصير دليل على ذلك[7].

قال الذهبي عن حسان بن النعمان الغسّاني: من ملوك العرب ولي المغرب فهذَّبه وعَمَره وكان بطلاً شجاعاً، مجاهداً لبيباً، ميمون النقيبة كبير القدر، وجهه معاوية في سنة 57هـ فصالح البربر ، ورتب عليهم الخراج وانعمرت البلاد، وله غزوات مشهودة بعد قتل الكاهنة وكان يدعى الشيخ الأمين، توفي سنة 80هـ[8].

ثانياً: فتوحات موسى بن نصير 85 هـ:

لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتولية موسى بن نصير في سنة 85هـ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى[9]، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية ولَّى مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية، وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله:

---

(1) البيان المغرب (1/ 43).
(2) الإسلام والتعريب (2/ 311).
(3) فتوح مصر وأخبارها، ص: 203.
(4) الإسلام والتعريب (1/ 165).
(5) الإسلام والتعريب في الشمال الأفريقي (1/ 165).
(6) المصدر نفسه (1/ 165).
(7) المصدر نفسه (1/ 166).
(8) سير أعلام النبلاء (4/ 140).
(9) الولاة والقضاة، ص: 52، 53، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 296.

وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1]، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه، وأكمل استحضاراته الإدارية وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى الغرب وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب، ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعها مع الأهالي وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر[2]، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلنوا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة[3]ومع وفد مصمودة وغيرهم[4]، ولكن ما إن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعمائهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب. وأعطت سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة[5]، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليها سنة 90 هـ من قبل موسى بن نصير[6]، ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

1 - عتق بعض السبايا: كان موسى بن نصير يعتق بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.

2 - تطبيق مبدأ المساواة: في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم، وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي[7].

3 - التنظيم الإداري: ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحيتها واستبدت بها دون أن تخضع لولاة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي فبدأ ينقل البيزنطيين

---

(1) مصر في العصر الأموي، ص: 155، 156.
(2) البيان المغرب (1/ 42).
(3) الإسلام والتعريب (1/ 172).
(4) البيان المغرب (1/ 42).
(5) المصدر نفسه (1/ 42).
(6) المصدر نفسه (1/ 42).
(7) الإسلام والتعريب (1/ 174).

من المدن الساحلية والنواحي الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

4 - تكوين القوة البحرية: أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

5 - سك النقود: ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو موسى بن نصير سنة 95هـ[1].

وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة[2]، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين[3]، وذكر ابن عذارى أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان[4]. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى[5]. واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقية بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى، وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف بسبب اشتراك أشراف الناس فيها، وكانت وجهتها جزيرة صقلية حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهب[6]. هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر[7]، هذا وقد توجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي بفتح بلاد الأندلس الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود هذين القائدين العظيمين[8].

* - فتح الأندلس وجهود طارق بن زياد:

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيريَّة (إسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً حسب الخطة

---

(1) المصدر نفسه (1/ 176).
(2) فتوح مصر وأخبارها، ص: 205.
(3) البيان المغرب (1/ 42).
(4) المصدر نفسه (1/ 42).
(5) الإسلام والتعريب (1/ 177).
(6) مصر في العصر الأموي، ص: 161.
(7) المصدر نفسه، ص: 161.
(8) المصدر نفسه، ص: 162.

التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المدّ الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار، وبعد أن أرسى موسى بن نصير ومن معه كلمة الإسلام بجهودهم في المغرب الكبير، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس، وقد عمل موسى على إكمال جهود من سبقه من الجند الدعاة - قادة وجيشاً - في ترسيخ قدم الإسلام في الشمال الإفريقي، فقد عمل على تثبيت الإسلام في قلوب الناس ونشط في تعليمهم وتربيتهم على مبادئ الدين الحنيف، وآتت جهوده الدعوية ثمارها الزكية فقد أصبح البربر في تلك الديار من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشر تعاليمه، ولقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الأيبيريَّة من المسلمين البربر، الذين تحمسوا لدعوة الإسلام، حباً لها وتضحية من أجلها، لا طمعاً في مغنم أو حرصاً على جاه، فهذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التي يكفي الاطِّلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الادعاءات وإسقاط المفتريات المزوّرة، التي تشير - تلميحاً أو تصريحاً - إلى اعتبار الغنائم سبب هذا الفتح، وهو أمر عاري من الحجج والبراهين والأدلة، وإنما هي أوهام لا تحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي[1].

1 - فكرة الفتح:

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الأيبيريَّة هي فكرة إسلامية تماماً. بل يُروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان عقبة بن نافع الفهري يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع، وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ إسبانيا الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهي مَيورْقة ومَنورقة واليابسة، يذكر الذهبي أنه في سنة 89هـ جهز موسى بن نصير ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي مَيورْقة ومَنورقة[2]، أما الاتصال بيُليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الإسبان فإنها جاءت مواتية على ما يبدو وفي الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح، ولكن كيف تم الاتصال بالجانب الإسباني يُلْيَان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم؟ اختلفت الأقوال فيما إذا تم الأمر بالمراسلة أو باللقاء الشخصي وأين؟ إذا كان هذا الاتصال أصلاً قد تمّ وبهذا المستوى على كل حال فإن اتصالات الجانب الإسباني بموسى ومساعداتهم - أثناء عمليات الفتح - ربما كانت عاملاً مساعداً سهّل سير الفتح أو عجّل به. لكن المبادأة ومردّ العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمداً على الله في تحقيق ما يصبو إليه من هداية الناس، وقد

---

(1) التاريخ الأندلسي، ص: 43، 44.

(2) العبر في خبر من غبر (1/ 304) نقلاً عن التاريخ الأندلسي، ص: 45.

استشار موسى الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ) قبل اتصالاته بيُليان، أو اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة - بادئ الأمر - بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك، ولكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تمّ الاتفاق على أن يَسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية[1].

2 - الحملة الاستطلاعية، أو حملة طريف:

نفذ موسى أوامر الوليد بأن جهز حملة استطلاعية مؤلفة من خمسمائة جندي منهم مائة فارس بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زُرعة، وهو مسلم من البربر، وجاز هذا الجيش الزُّقاق - اسم يطلق أحياناً على المضيق[2] - من سبتة بسفن يُلْيان أو غيره، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما في الجانب الإسباني وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد: جزيرة طريف[3]، وكان إبحار هذه الحملة من سبتة في رمضان عام 91هـ (تموز 710م) وقد جال طريف في المدينة والنواحي المحيطة بها واستطلع أخبار العدو في تلك الجهات[4]، وعادت حملة طريف بالأخبار المطَمئنة والمشجعة على الاستمرار في عملية الفتح[5]، فقد درس أحوال المنطقة وتعرّف على مواقعها وأرسل جماعات إلى عدة أماكن - منها جبل طارق - لهذا الغرض فكانت هذه المعلومات عوناً في وضع خُطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل[6].

3 - العبور:

لما رأى موسى بن نصير ما حققته حملة طريف، وصحّ عنده ما نقل إليه من أحوال الأندلس، بعث طارق بن زياد في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم من البربر والموالي وأقلهم من العرب، ولما احتاج طارق إلى أعداد في فترة تالية أمدّه موسى بخمسة آلاف، فتمّ جيش طارق من السفن لنقل الجنود إلى بر الأندلس، وقد حرص القائمون على الحملة لاستكمال عملية نزول الجند أن يُعموا أخبار الحملة على الناس، لذلك أحضر يليان السفن إلى سبتة ليلاً وأخذت تنقل الجنود تباعاً، ويبدو أن عملية إبحار الجند اقتضت أكثر من ليلة، فقيل أن الجند الذين نزلوا بر الأندلس كانوا يكمنون في النهار حتى لا يشعر بهم أحد، وكانت السفن تختلف

(1) التاريخ الأندلسي، ص: 45.
(2) المصدر نفسه، ص: 45 نقلاً عن ابن خلدون.
(3) التاريخ الأندلسي، ص: 46.
(4) الفن العسكري الإسلامي، د. ياسين سويد، ص: 334، 335.
(5) التاريخ الأندلسي، ص: 46.
(6) المصدر نفسه، ص: 46.

بين سبتة والأندلس، وأهل الأندلس لا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت السفن تختلف به من المنافع والمتاجر، ولما علم أهل الأندلس بالحملة كانت عملية الإبحار قد تمت بسلام في رجب من عام اثنين وتسعين للهجرة، ونزل طارق بالجند عند جبل كالبي، وهو الجبل الذي أخذ اسم طارق وصار يعرف بجبل طارق، وقيل لما ملك رئيس الموحدين عبد المؤمن الأندلس وعبر جبل طارق أمر ببناء مدينة على الجبل وسماه جبل الفتح، ولكن الاسم لم يثبت له وظل اسم جبل طارق جارياً على الألسنة[1]، وسار طارق بالجيش نحو الجزيرة الخضراء ففتحها، وكان لذريق في شمال الأندلس مشغولاً في محاربة البشكنس، وقيل: في محاربة الفرنسيين، فأرسل خليفته تدمير يُعْلِمُه بالهجوم الإسلامي، فعاد لذريق مسرعاً لصده، وفي طريقه لقتال المسلمين عرّج على العاصمة طليطلة دون أن يدخلها وصالح أسرة غيطشة ودعاهم والقوط المخالفين له إلى الانضمام إليه في حرب العدو المشترك فساروا معه، وقيل أن لذريق عهد بقيادة ميمنة جيشه وميسرته إلى ابني غيطشة[2]، وعلم طارق بالحشود التي حشدها لذريق لمجابهته فكتب إلى موسى ينبئه بضخامتها ويطلب منه مدداً، فأمدّه موسى بخمسة آلاف مقاتل[3]، ويصف المقري - نقلاً عن بعض المؤرخين - جند طارق: لقد أقبلوا وعليهم الزرد وفوق رؤوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسي العربية وقد تقلدوا السيوف وحملوا الرماح، فلما رآهم لذريق دخله منهم الرعب[4]، وذكر ابن الأثير: أن طارقاً لما ركب البحر غلبته عينه فرأى النبي ﷺ - في نومه - ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكّبوا القسيّ، فقال له النبي ﷺ: **«يا طارق تقدم لشأنك»**، وأمره بالرفق بالمسلمين، والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي ﷺ، وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشراً وبشر أصحابه وقويت نفسه ولم يشك في الظفر[5].

4 - معركة وادي لكّة أو العبور إلى الأندلس:

لم يعد بين طارق وخصمه لذريق سوى عاملي الزمن والأرض، وأصبح من الواضح أن طارقاً أكثر حرية من خصمه بعد سقوط ولاية «الجزيرة الخضراء» بيده وهزيمة قائد القوط «بنج» وهلاك فرقته بكاملها على يدي جيش طارق، وأصبح قادراً على اختيار المكان المناسب للقتال، فقد كان اختيار ميدان القتال من قبله من أهم عناصر نجاحه في هذه المعركة[6]، إذ كان قد أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقاً، الممتدة عدة كيلومترات والتي يصب فيها نهر

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 299.
(2) المصدر نفسه، ص: 300.
(3) المصدر نفسه، ص: 300.
(4) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (1/ 226، 227).
(5) الكامل في التاريخ (3/ 209).
(6) الفن العسكري الإسلامي، ص: 339.

البرباط الذي يمرّ بوادي البرباط، وأسند ميسرته إلى الوادي المذكور غرباً، كما أسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال «رتينا» العالية جنوباً، منتظراً أن يأتيه العدو من الشمال بعد أن وضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار[1]، وما أن استكمل لذريق عدة الجيش وعديده حتى تحرك جنوباً لمواجهة طارق وجيشه في المكان الذي اختاره هذا الأخير، فوصله في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام 92هـ وعسكر بجيشه على الجهة الشمالية للوادي[2]، والتقى الجيشان على نهر لكة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان سنة 92هـ، واتصلت الحرب بين الجانبين ثمانية أيام استشهد فيها ثلاثة آلاف من المسلمين، ولكن الهزيمة دارت على لذريق وجيشه، وقيل أن لذريق غرق وقتل كثير من جيشه، ومما يروى عن أبناء غيطشة أنهم خذلوا لذريق وتركوه وأنصاره أمام المسلمين ظناً منهم أن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنائم عادوا إلى بلادهم فبقي الملك لهم[3]، ولعل خذلان آل غيطشة وأنصارهم لذريق كان بدافع الانتقام منه[4]، ولا شك أن هذا الفتح مثل غيره يعود إلى قوة المسلمين بتمكن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم وحرصهم على الشهادة في سبيلها[5].

وبعد هذا النصر العظيم تعقَّب طارق فلول الجيش القوطي التي لاذت بالفرار. وسار الجيش الإسلامي فاتحاً لبقية مناطق الجزيرة الأيبيريّة[6].

5 - الدروس المستخلصة من معركة وادي لكّة:

أ - أسلوب «الحذر واليقظة» تجاه الحلفاء: لم يكتف موسى بن نصير بقول يليان ووعده بالعون والمساعدة في فتح الأندلس بل كلفه مهمة استطلاعية في تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان يليان صادقاً بما قال ووفياً لما تعهد به، كما كان موسى حذراً ويقظاً ونبهاً.

ب - أسلوب الاستطلاع قبل الإنزال: أراد موسى أن يستطلع البيئة التي سوف يقتحمها والعدو الذي سوف يقاتله والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وما إن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول حتى اطمأن إلى سلامة قراره فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح[7].

ج - الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة: رغم ما سبق من اختبار سواء بواسطة الحملة التي قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار فقال

(1) الفن العسكري الإسلامي، ص: 339.
(2) المصدر نفسه، ص: 341.
(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 300.
(4) المصدر نفسه، ص: 301.
(5) التاريخ الأندلسي، ص: 55.
(6) المصدر نفسه، ص: 57.
(7) الفن العسكري الإسلامي، ص: 349.

لموسى: خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال[1]. ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصر الخليفة قائلاً: وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه[2]. وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها وتأمين الفوز للمسلمين بدل أن يغرر بهم في بحر شديد الأهوال. وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والاقتحام سهّل عملية الفتح إلى حد كبير وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمّن لهم عملية «المباغتة» لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبداً[3].

د - أسلوب المباغتة: إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى الساحل الأندلسي منفذاً تعليمات الخليفة، كان أسلوباً بارعاً إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة بل أبحر بهم على دفعات متتالية وفي مراكب تجارية، وما أن التأم شمل المسلمين في تلك البلاد، حتى فوجئوا بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين ومقتل أحد أهم قادتهم «بنج» ابن أخت مليكهم لذريق، فانتزع المسلمون بهذه المباغتة وهذا الانتصار المبادرة من يد أعدائهم وأسقط في يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدراً محتوماً[4].

هـ - تنفيذ أسلوب «رأس الجسر»: نفذ طارق فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسي، أسلوب «رأس الجسر» وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سوّرها وحماها وانطلق منها في فتوحاته، تماماً كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه[5].

و - اختيار ميدان القتال: لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال وفرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هي جهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار.

ز - المبادرة بالقتال: كان طارق في هذه المعركة هو البادئ بالقتال بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام ثم شن عليه بعد ذلك هجوماً عاماً انتهى بهزيمته.

ح - صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود: كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يليان وأبناء غيطشة، فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم واحترموا تعهداتهم ليليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن اعتنقت سلالة كل من يليان وأبناء غيطشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفي سنة 226 هـ) وسليمان (توفي سنة 379 هـ) وأحمد (توفي سنة 388 هـ) من

---

(1) نفح الطيب (1/ 253).
(2) البيان المغرب (2/ 5) التاريخ الأندلسي، ص: 46.
(3) الفن العسكري الإسلامي، ص: 350.
(4) الفن العسكري الإسلامي، ص: 350.
(5) المصدر نفسه، ص: 350.

سلالة يليان، ومثل أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية، صاحب كتاب: تاريخ افتتاح الأندلس، وهو من سلالة سارة بنت المنذر بن غيطشة آخر ملوك القوط[1].

ط - استثمار النصر: طبّق طارق بالبداهة، مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة وهو استثمار النصر، إذ أنه ما إن هزم لذريق في وادي لكّة حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالاً للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفاً أساسياً هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ أنه يعرف ولا شك، أنه باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيّتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه، ولكن طارقاً مع ذلك لم ينس أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكي يحتل المواقع الاستراتيجية فيها، فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالاً نحو قرطبة، وكانت قصبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقاً، على الساحل الجنوبي للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالاً بشرق نحو غرناطة، وكانت تشكل موقعاً استراتيجياً هاماً في البلاد، ثم توجه بنفسه شمالاً إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطي من جراء ذلك شديداً طريداً في أنحاء الأندلس إلى أن سقط[2].

6 - الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

يعتقد كثير من المؤرخين أن طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة: «أيها الناس، أين المفر؟ البحر ورائكم، والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوِّكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوَّضت القلوب من رُعْبها... وجاء في الخطبة: وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات بالدّر والمرجان والحُلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله إلى إعلاء كلمته... إلخ الخطبة[3]، **وبالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة:**

---

(1) الفن العسكري الإسلامي، ص: 352.

(2) المصدر نفسه، ص: 352.

(3) وفيات الأعيان (5/ 321، 322).

أ - لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر القرن الأول الهجري، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة.

ب - إن المعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم وروح الإسلام العالية، التي توفرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك، فهي لا تشيد بدوافع الفتح وأهدافه - وهي معروفة مألوفة - التي أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية، عاملة على ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: 39].

ج - يلاحظ في الخطبة العديد من الأخطاء ويلاحظ فيها التناقض في المعاني، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تاريخية، كاستعمال «اليونان» التي ربما جاء ذكرها للسجع فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الروم[1]، وكذلك العلوج والعجم أو المشركين والكفار[2]، وليس لدينا نص يحتوي مثل هذا الاستعمال، غير أن ابن خلكان - وهو مشرقي - أورد هذا الاستعمال في غير الخطبة[3]. ثم... «وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين..» فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد[4].

د - كان من المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين ﷺ، أو وصايا وأحداث ومعانٍ إسلامية أخرى تناسب المقام كالمعهود[5]. وغير ذلك من الملاحظات.

وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام، وأنه خطب جنده يحثُّهم على الجهاد[6]، ويروي المَقَّري أبياتاً قالها طارقاً بهذه المناسبة:

ركبنا سَفيناً بالمجاز مُقَيَّرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنَّة ... إذا ما اشتهينا الشيء منها تيسَّرا
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذي كان أجْدرا[7]

وقال ابن بشكوال: إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه[8]. ووجهة هذه الأبيات

---

(1) نفح الطيب (1/ 264) التاريخ الأندلسي، ص: 60.
(2) نفح الطيب (1/ 259، 261، 263، 270).
(3) التاريخ الأندلسي، ص: 60 وفيات الأعيان (5/ 223).
(4) المصدر نفسه، ص: 60.
(5) التاريخ الأندلسي، ص: 61.
(6) المصدر نفسه، ص: 61.
(7) المصدر نفسه، ص: 61.
(8) نفح الطيب (1/ 231) التاريخ الأندلسي، ص: 61.

تغاير وجهة الخطبة، فهي منسجمة والمعاني الإسلامية ومستمدة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: 111].

وأما موضوع حرق طارق للسفن التي عبر بها المضيق، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة، فيستميت في الدفاع؟ فقد ذكر بعض المؤرخين ذلك، لماذا يحرق طارق السفن، سواء امتلكها المسلمون أم يُلْيان؟ وكان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة وإنهم في ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق متأكد من هذه المعاني، فإذا كانت السفن ليُلْيان فليس من حق طارق التصرف بها، وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد[1]، كما أن طارقاً كان قادراً على إعادتها إلى الساحل الإفريقي. إن الدوافع الإسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله أقوى في الاندفاع من أي سبب آخر، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله، بل لذلك أتوا، والمصادر الأندلسية - لاسيما الأولى - لا تشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة[2].

7 - عبور موسى بن نصير إلى الأندلس:

كان موسى بن نصير من التابعين - رحمهم الله تعالى - وقد روى تميم الداري رضي الله عنه : أنه كان عالماً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى[3]، وكان من رجال العلم حزماً ورأياً وهمّة ونبلاً وشجاعة وإقداماً[4]، وحين وجّه طارقاً لفتح الأندلس كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث منذ بداياتها، ويُهيئ المتطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير، بهمة المؤمن وإخلاص التقي، ويدعو الله أن ينزل نصره على المسلمين[5]. فهو يعتقد اعتقاداً كبيراً في أهمية الدعاء والتضرع لتحقيق النصر على الأعداء ويعتبر الدعاء من أسباب النصر التي أرشد إليها القرآن الكريم ومارسها رسول الله ﷺ. يقول ابن الكردبوس: وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مُكِبّاً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما عُلم أنه هزم له جيش قط[6]، وكان طارق بن زياد على صلة بقائده موسى بن نصير، يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته، ويخبره عن كل شيء أولاً بأول منذ بداية الفتح، ويستشيره فيما يحتاج إليه وقد

(1) التاريخ الأندلسي، ص: 62.
(2) المصدر نفسه، ص: 62.
(3) وفيات الأعيان (5/ 318 - 319).
(4) العبر في خبر من غبر، للذهبي (1/ 116).
(5) التاريخ الأندلسي، ص: 67.
(6) المصدر نفسه، ص: 68.

رأينا كيف طلب المدد قبل معركة وادي لكّة وكان موسى على علم تام بأحوال الفتوح، وبعد سنة تقريباً من عبور طارق وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت - خاف طارق أن يُغلب وأن يُستغل القوط قلة جيشه، فأرسل إلى موسى يستنجده واستخلف موسى على القيروان ولده عبد الله. . ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم[1]، وتحرك موسى بجيشه نحو شذونة فكانت أول فتوحاته، ثم توجه إلى مدينة قرمونة وليس بالأندلس أحصن منها، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيان، دخلوا إليهم كأنهم فُلّال وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب، وأوقعوا بالأحراس، فملكت المدينة[2] فافتتحها. وتوجه بعد ذلك: إلى إشبيلية جارتها فحاصرها وهي أعظم مدائن الأندلس. . . فامتنعت شهراً على موسى ثم فتحها الله عليه، . . ثم سار إلى مدينة ماردة وفتح في طريقه إليها لَبْلَة وباجة ثم فتح ماردة صلحاً بعد قتال وجهاد عظيم[3]، وأقام موسى في ماردة زيادة على شهر يرتب أحوالها وينظم أمورها ويريح الجند من العناء ويستعد لاستئناف السير[4]، ووجه موسى ابنه عبد العزيز من ماردة إلى إشبيلية، وكانت فلول القوط من لبلة وباجة قد اجتمعت فيها وقتلوا العديد من المسلمين، منتهزين فرصة انشغال موسى بحصار ماردة، وبلغه الخبر خلال الحصار، فأعاد عبد العزيز فتح إشبيلية ثم فتح لبلة وباجة[5]، وأصبحت المدن والقرى تتساقط أمام جيوش الفاتحين كتساقط الأوراق من على الأشجار في فصل الخريف.

8 - لقاء موسى وطارق:

في بداية ذي القعدة سنة 94هـ ابتدأ موسى بالسير صوب طليطلة - وكتب إلى طارق بالتوجه إليه في مجموعة من جيشه فجاءه طارق. ذكر البعض أن لقاءهما كان عند طليطلة أو قرطبة، ورجح الدكتور الحجي العالم البارز في تاريخ الأندلس: بأن اللقاء كان خارج مدينة طلبيرة التي تبعد 150 كم غرب طليطلة[6]، ووصل موسى وطارق إلى طليطلة ذو القعدة - ذي الحجة أواخر سنة 94 هـ وأقاما بالجيش الإسلامي فصل الشتاء أو جله في طليطلة يرتبون أحوالها وينظمون شؤونها، ويستريحون ويتهيأون ويخططون لفتح شمال شبه الجزيرة الأيبيريَّة، وكتب موسى والقادة الآخرون إلى الخليفة الوليد - وربما ليس لأول مرة - أخبار الفتح، وضربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس، وقام بالدعوة إلى الله وتعليم الناس حقائق الإسلام وشرحه لهم ودعوتهم إليه بعد أن رآه أهل البلاد عملياً في خلق الفاتحين. ولعلهم أرسلوا فرقاً

(1) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص: 68.
(2) نفح الطيب (1/ 231) التاريخ الأندلسي، ص: 74.
(3) التاريخ الأندلسي، ص: 74 إلى 76.
(4) المصدر نفسه، ص: 78.
(5) المصدر نفسه، ص: 78.
(6) التاريخ الأندلسي، ص: 83.

إلى بعض المناطق، فقد كان طارق خَبُر أحوال طليطلة لاسيما شمالها، إذ كان قد وصل إلى المدينة المائدة (في منطقة وادي الحجارة)[1].

وأما ما تحدثت عنه المصادر عن قصة الخلاف الذي قيل إنه حدث بين القائدين الكبيرين موسى وطارق، وتبالغ هذه المصادر فترجع أمر هذا الخلاف إلى حسد دب في نفس موسى على مولاه طارق وعلى ما حققه من نجاح، وتنسب إلى موسى أنه أهان طارقاً بأن وضع السوط على رأسه[2]، فهذه روايات ناقشها عدد من الباحثين وأبانوا ضعفها وسقوطها وتفاهتها، كمحمود شيت خطاب[3]، وعبد الله عنان[4]، ود. عبد الرحمٰن الحجي[5]، ود. محمد بطاينة[6]، ود. عبد الشافي محمد عبد اللطيف[7]، وغيرهم، وإن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الإيغال والتقحم في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وسارا بعده - سوية إخوة مجاهدين - ينشرون دين الله ويُعلون كلمته ويبلغون للناس شريعته[8]، كما لا ننسى أن طارقاً جندي من جنود موسى، والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية[9].

وعند انتهاء الشتاء وحلول الربيع سنة 95هـ تهيأ الجيش الإسلامي لترك طليطلة، ثم أوغل شمالاً ففتح مدن لاردة ووشقة وطركونة وبرشلونة، كما فتح بلنسية وطرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس وفي هذا الوقت وصل مغيث الرومي مبعُوثاً من جانب الخليفة الوليد عبد الملك يحمل إلى موسى بن نصير أمر الخليفة بالقدوم إلى دمشق، ولكن فتح الأندلس لم يكن قد اكتمل بعد، لذلك لاطف موسى مغيثاً وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في دخول بلاد جليقية وأشتوريس ويكمل فتح الأندلس ويكون مغيث شريكه في الأجر والغنيمة - أي يصبح له سهماً في القيمة - ففعل مغيث ومشى في ركاب موسى إلى جليقية والأشتوريس ففتحها وتعقب موسى وطارق فلول القوط حتى اضطرّ هؤلاء إلى الفرار إلى جبال كنتبرية في أقصى الشمال الغربي من الأندلس[10]، ولما تأخرت أخبار موسى قلق الخليفة الوليد على مصير الجيش

---

(1) المصدر نفسه، ص: 85.
(2) البيان المغرب (2/ 16)، العالم الإسلامي، ص: 316.
(3) قادة فتح المغرب (1/ 251 - 255).
(4) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص: 91 - 92.
(5) التاريخ الأندلسي، ص: 90.
(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 303.
(7) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 316.
(8) التاريخ الأندلسي، ص: 90.
(9) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 303.
(10) نفح الطيب (1/ 275) التاريخ الأندلسي، ص: 96 - 98، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 308.

الذي مضى على وجوده في البعوث ما يقارب أربع سنين، لذلك أرسل الوليد رسولاً ثانياً، فوصل الرسول الأندلس وموسى في مدينة لَكْ بحُليقية يُوجِّهُ السرايا والبعوث التي بلغت صخرة بلاك التي تقع في الشمال الغربي على البحر الأخضر - خليج بسكاي - من المحيط الأطلسي، فاستجاب موسى إلى الرسول وعاد إلى طليطلة ثم غادرها إلى قرطبة ومنها إلى أشبيلية حيث استخلف فيها ولده عبد العزيز والياً واتخذ منها عاصمة للبلاد، ولكن أشبيلية لم تمكث طويلاً عاصمة للبلاد وإنما استعيض عنها بقرطبة منذ عام 97هـ، وظلت قرطبة مركز الديار الأندلسية حتى نهاية عهد الخلافة في الأندلس[1]، ويبدو أن موسى اختار أشبيلية عاصمة في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس لوقوعها في منطقة تتساوى عندها احتمالات الخطر والسلامة، وواجبات الحفاظ على البلاد وحمايتها، فهي لم تخرج إلى الأطراف بعيداً عن الوسط،ولم تقترب من خطوط المواجهة مع الأعداء بعيداً عن بلاد المغرب وإمداداتها[2].

9 - رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق:

غادر ركب موسى وطارق بن زياد الأندلس في ذي الحجة عام 95 هـ يحمل معه الأسرى والغنائم الوفيرة والهدايا الثمينة وغيرها من الكنوز، فلما بلغ طنجة ترك ابنه عبد الملك فيها حاكماً، ثم انصرف منها إلى القيروان فأقرّ ابنه عبد الله الذي كان قد استخلفه في أثناء غيابه في الأندلس[3]، ثم سار من هناك يريد دمشق فوصلها في عام 96 هـ قبل وفاة الوليد وقيل إن سليمان بن عبد الملك بعث إلى موسى بن نصير أن لا يدخل دمشق يريد أن ينتظر وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك ثم يدخلها، فتكون علامات الفتح ودلائل النصر من الأسرى والغنائم والهدايا فاتحة عهده فيعظم مقامه عند الناس ولكن موسى خالف سليمان ودخل، فلما ولي سليمان الخلافة حقد على موسى وعزله وحبسه وأغرمه أموالاً كثيرة[4]، ويبدو أن تدخل يزيد ابن المهلب وعمر بن عبد العزيز لصالح موسى، لدى سليمان بن عبد الملك أثمر عن رضا سليمان عن موسى وأصبح فيما بعد عظيم المنزلة، وكان سليمان يستشيره في بعض الأمور العسكرية، كما هو الحال في الخطة العسكرية الواجب اتباعها في سير الحملة المتجهة إلى القسطنطينية كما أن سليمان كان يخرج إلى بعض أمواله متنزهاً وبرفقته موسى بن نصير[5]، ويبدو أن سعة البلاد التي صارت إلى نظر موسى وتحت سلطانه وكانت تمتد من غرب مصر إلى جنوب فرنسا، وقيام موسى بتوزيع الحكم فيها على أبنائه، كان مما يثير الشكوك في نفوس

---

(1) نفح الطيب (3/ 14).
(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 308.
(3) المصدر نفسه، ص: 308.
(4) الكامل في التاريخ (3/ 212).
(5) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 122.

أولي الأمر، لذلك بادر سليمان حرصاً على وحدة الدولة وسلامتها من الانقسام إلى عزل موسى بن نصير عما كانت تحت يده من الأعمال[1]، ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكز ارتباطه واستمداده وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك حتى بين له موسى ألا داعي للخوف[2]، ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوروبا كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قدر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقرائهم النظام الدولي وقتئذٍ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذا لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى ولم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوروبا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها، ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهي معركة «بلاط الشهداء»[3]، وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة وهو ما أغلق أوروبا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أُغلقت أمامهم من الغرب، ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير، فبعضهم قائل إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تقويض هدف مصيري للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوروبا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية[4].

---

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 309.

(2) دولة الإسلام في الأندلس (1/ 54) التاريخ الأندلسي، ص: 113.

(3) الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص: 44.

(4) الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص: 44.

10 - خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى:

تخبطت الروايات في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران وفي هذه الروايات غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة[1]، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ثم رضي عنه سليمان وقرّبه منه وأصبح من خاصته[2]، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال: الدعاء والصَّبْر، قال: فأي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشُقْر، قال: فأي الأمم أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف، قال: قال: فأخبرني عن الرُّوم، قال: أُسْدٌ في حصونهم عِقبان على خيولهم، نساء في مَراكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأَوْا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية، غير أنهم أغدر الناس قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمَّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدِّد لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور[3] زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحير سليمان[4]، وقد وصف الذهبي موسى بن نصير بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمٰن اللخمي، متولي إقليم المغرب، وفاتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم[5]، وكان من أصحاب الهمم الكبيرة فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أُوقعهم على رُومية ثم ليفتحنَّها الله على يدي[6]، وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل على الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة[7]، وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة - على سكانها أفضل الصلاة والسلام - أو في «وادي القرى» العُلا حالياً

---

(1) التاريخ الأندلسي، ص: 126.
(2) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 123.
(3) التور: الإناء
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 499).
(5) المصدر نفسه (4/ 496، 497).
(6) المصدر نفسه (4/ 500).
(7) المصدر نفسه (4/ 499) الشرف والتسامي، ص: 279.

أواخر سنة 97هـ[1] وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (في سنة 97هـ)[2]، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج وكان قد سأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه[3]، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك[4]، لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن نصير ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبو عبد الله علي بن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب رياض النفوس: أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إليَّ يهنئني في كتابه وأمر بقراءة الكتاب، فهنئ بذلك، وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم علي بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم، وأمر بالكتاب فقرىء فهنئ بذلك، وكان علي بن رباح ساكت فقال له موسى: مالك يا علي لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير، قد قال القوم فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول - وأنا أنصح القائلين لك - إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى بن نصير وخشع وفرق جواري عدة.

وقال صاحب الرياض: ونفعه الله عَزَّوَجَلَّ بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة[5]، فرضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي[6]، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده - بقيادة المد الإسلامي المبارك - وديان المغرب الإسلامي «الشمال الإفريقي والأندلسي» وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحاري والوديان والسهول والجبال وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممتطياً جواده يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وأحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة،

---

(1) تاريخ علماء الأندلس (2/ 146) التاريخ الأندلسي، ص: 127.

(2) نفح الطيب (1/ 283).

(3) معالم الإيمان (1/ 20) التاريخ الأندلسي، ص: 128.

(4) الشرف والتسامي للصَّلاَّبي، ص: 281، قادة فتح المغرب (1/ 221 - 309).

(5) رياض النفوس (1/ 119، 120).

(6) قادة فتح المغرب (1/ 221 - 309).

وهمة الإيمان الفتي[1]، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين.

أما عن البطل الكبير طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق، غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في تولية طارق الأندلس[2]، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغموراً[3] فهل عاد إلى المغرب والأندلس؟ أم بقي في دمشق ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب[4]، كان طارق من البربر وعامّة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القرآن الكريم وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالإسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم[5].

11 - الأندلس بعد موسى بن نصير:

تولى الأندلس منذ عودة موسى بن نصير إلى دمشق وحتى قيام الإمارة الأموية سنة 138 حوالي عشرين أميراً، كان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ألقى أبوه بزمام الأندلس بين يديه، وكان خير خلف لخير سلف، فقط ضبط الأمور وسد الثغور وافتتح مدائن كثيرة وكان من خيرة الولاة[6]، ولكن لم تطل مدة عبد العزيز في حكم الأندلس، فقد قتله بعض جنده غيلة لأشياء ونقموها عليه، وكان ذلك في مستهل رجب سنة 97هـ[7]، وأعقب مقتل عبد العزيز بن موسى فترة من الاضطراب، ومكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم والٍ. حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير[8]، وكان أيوب رجلاً صالحاً فاضلاً ولكن مدة ولايته لم تطل، ويبدو أن الناس هناك هم الذين نصبوه ليدبر الأمور حتى تعين الخلافة والياً من قبلها، وقد عينت الحر بن عبد الرحمٰن الثقفي الذي كان أهم أعماله نقل مقر إمارة الأندلس من إشبيلية - حيث كان يحكم عبد العزيز بن موسى - إلى قرطبة[9]. كما كانت له غزوات تجاوز بها حدود بلاد الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحي أربونة، فسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم[10]، وقد أدى انشغال الحر الثقفي بالغزو في الشمال الشرقي إلى

---

(1) التاريخ الأندلسي، ص: 128.
(2) نفح الطيب (3/ 13).
(3) نفح الطيب (3/ 14) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 309.
(4) التاريخ الأندلسي، ص: 128.
(5) فاتح الأندلس طارق بن زياد، ص: 45، 46.
(6) البيان المغرب (2/ 24) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 320.
(7) البيان المغرب (2/ 24).
(8) المصدر نفسه (2/ 25).
(9) المصدر نفسه (2/ 25).
(10) المسلمون في المغرب والأندلس (1/ 193) د. محمد زينون.

انتعاش حركة المقاومة المسيحية - في المنطقة التي لم يتمكن المسلمون من فتحها وهي المنطقة الشمالية الغربية بزعامة بلاي[1]، مما اضطره إلى العودة للقضاء على تلك المقاومة، وبينما هو مشغول بذلك عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز 99 - 101هـ، وعين مكانه السمح بن مالك الخولاني 100هـ - 102هـ[2].

المبحث الثالث

فتوحات المشرق

أولاً: فتوحات المهلب بن أبي صفرة:

كوفئ المهلب بن أبي صفرة على إخلاصه للدولة وتفانيه في محاربة الخوارج أميراً على خراسان عام 78 هـ بناء على توصية الخليفة عبد الملك، فنزل العاصمة مرو، ثم أخذ يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد، ولأول مرة بعد أربع عشرة سنة، تمّ إرسال جحافل المسلمين من جديد نحو الشرق إلى بلاد تركمان 80 هـ[3]، فعبر المهلب بنفسه نهر «بلخ» «سيحون» ونزل كش[4]، ثم جعل يغزو البلاد غزواً متواصلاً لا يفتر عن الجهاد، فخيل له بسمرقند، وأخرى ببخارى وثالثة بطخارستان ورابعة ببست[5]، وكان كلما فتح فتحاً أخرج الخمس لبيت المال وأرسله إلى الحجّاج ويقسم الباقي بين أصحابه[6]، وكان على مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف وهو في خمسة آلاف، ووجه المهلب ابنه يزيد إلى بلاد الختل، وملكها الشبل بناء على ترغيب ابن عم الملك، وفي بلاد الختل تمكن الملك الشبل من ابن عمه فقتله، أما يزيد بن المهلب، فقد استطاع تحقيق أهداف الحملة، فقد اضطره إلى المصالحة ودفع الفدية، بعد أن هزمه عسكرياً وقام. بمضايقته في حصار قلعة الشبل، وأرسل ابنه الثاني حبيب إلى رابنجن، فوافى صاحب بخاري في أربعين ألفاً، فقام قسم من أهالي بخارى بالهروب والاختباء بإحدى القرى فاجتثهم وعاد حبيب إلى أبيه منتصراً[7].

1 - وفاة المهلب:

كان المهلب من التابعين، فقد ولد عام الفتح الذي كان سنة ثمان للهجرة، ومات سنة 82هـ

(1) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. مختار العبادي، ص: 40 - 41.
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 321.
(3) الكامل في التاريخ (3/ 138).
(4) المصدر نفسه (3/ 138).
(5) بست : مدينة عظيمة من سجستان وهراة، تقويم البلدان (3/ 625).
(6) الفتوح لابن أعثم (7/ 58).
(7) الكامل في التاريخ (3/ 138)، تجديد الدولة الأموية، ص: 167.

في ولاية خراسان وكان يقال: ساد الأحنف بحلمه ومالك بن مسمع بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه وساد المهلب بهذه الخلال جميعاً[1]. وكان سيداً جليلاً نبيلاً خطيباً شجاعاً فقيهاً، وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم، ومما يدل على كرمه أنه أقبل يوماً في بعض غزواته فتلقته امرأة فقالت له: أيها الأمير إني نذرت إن أقبلت سالماً أن أصوم شهراً وتهب لي جارية وألف درهم، فضحك المهلب وقال: قد وفينا نذرك فلا تعودي لمثله، فليس كل أحد يفي لك به[2]. ووقف رجل فقال: أريد منك حُويجة. فقال المهلب: أطلب لها رُجَيْلاً، يعني أن مثلي لا يسأل إلا عن حاجة عظيمة[3]، وكان حليماً ومن أخبار حلمه، أنه مرّ يوماً بالبصرة، فسمع رجلاً يقول: هذا أعور قد ساد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم، فبعث إليه المهلب بمائة درهم وقال: لو زدتنا في الثمن زدناك في العطية[4]، وكان قد فقئت عينه بسمرقند[5]، وكان بليغاً في كلامه حكيماً في آرائه، له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل، ومن ذلك قوله: الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيَّ غداً إذا مت[6]، وقيل يوماً للمهلّب: ما خير المجالس؟ فقال: ما بعد فيه مدى الطرف وكثر فيه فائدة الجليس. وقال يوماً: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسرّ إليه[7].

2 - وصيته لأبنائه حين حضرته الوفاة:

دعا ابنه حبيباً ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت ثم قال: أفترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا. فقال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله ، وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلّة، فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم لا تختلفوا، وتبارّوا تجتمع أموركم. إن بني الأم يختلفون فكيف ببني العَلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحبّ للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللّسان فإن الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلّته ويزلّ لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود

(1) قادة فتح السند وأفغانستان، ص: 192.
(2) قادة الفتح السند وأفغانستان، ص: 192.
(3) البخلاء للجاحظ، ص: 133، نقلاً عن قادة فتح السند، ص: 192.
(4) قادة فتح السند، نقلاً عن سرح العيون، ص: 107.
(5) وفيات الأعيان (4/ 434) قادة فتح السند، ص: 193.
(6) وفيات الأعيان (4/ 434).
(7) قادة فتح السند وأفغانستان، ص: 193.

على البخل، وأحبوا العرب واصطنعوا العرف، فإن الرجل من العرب تَعده العِدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟ عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فَحُمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكن القضاء غالب، وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم[1].

وبعد وفاة المهلب ولي الحجّاج ابنه يزيد خراسان، فقام يزيد عام 84 هـ بفتح قلعة باذنجس[2]، التي كان ينزلها ينزك، بعد أن وضع عليه العيون، وتأكد من خلو القلعة بخروج ينزك منها فسار إليها وحاصرها فتم له فتحها، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر وكانت القلعة على جانب كبير من المنعة بحيث أن صاحبها ينْزك كان يسجد لها[3]، وعزل الحجّاج يزيد بن المهلب وعين أخاه المفضل على ولاية خراسان عام 85 هـ فولى المفضل البلاد تسعة أشهر قام خلالها بغزو باذنجس، ففتحها وأصاب منها مغنماً فقسم المغانم بين المقاتلين، فأصاب كل رجل منهم ثمانمائة درهم ثم غزا المفضل آخرون وثومان، فظفر وغنم، وكان يقسم الأموال مباشرة لعدم وجود بيت مال عنده[4].

وفي عام 86 هـ عين الحجّاج قتيبة بن مسلم على خراسان[5] وقبل الحديث عن قتيبة وفتوحاته لابد من الإشارة إلى فتوحات سجستان.

3 - سجستان:

ولى الخليفة عبد الملك: أمية بن عبد الملك بن خالد بن أسيد بن أبي العيص فوجه هذا ابنه عبد الله فصالحه رتبيل القائم على ثلاثمائة ألف درهم، ولما بلغ الخليفة ذلك عزله، ثم ولى الحجّاج عام 78 هـ عبيد الله بن أبي بكرة فلبث سنة بلا غزو، وفي السنة التالية تحرك لمناجزة رتبيل الذي كان مصالحاً، ولكنه يؤدي الخراج حيناً ويمنع حيناً آخر، فقام عبيد الله بن أبي بكرة عام 79 هـ، ومضى إليه غازياً حتى دخل بلاده، فأصاب منها الغنائم وهدم الحصون وغلب على أرض من أرضيهم وهرب أتباع رتبيل من الترك أمام جحافل المسلمين، حتى اقتربوا من عاصمتهم كابل، فأخذ الترك على المسلمين الشعاب والمسالك، فسقط في أيديهم المسلمين حتى شعر الجنود المسلمين بالضيق والهلاك، مما دفع عبيد الله بن أبي بكرة إلى مصالحة رتبيل ليمكن المسلمين الخروج من أرض الترك سالمين[6]، وكان بين المقاتلين أحد

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 251).
(2) المصدر نفسه (7/ 252) (7/ 284).
(3) المصدر نفسه (7/ 285).
(4) تجديد الدولة الأموية، ص: 168، تاريخ الطبري (7/ 291).
(5) تاريخ الطبري (7/ 323).
(6) تاريخ الطبري (7/ 219).

الزهاد ممن يعشق الجهاد، ويعرف باسم: شريح بن هانيء، فقام شريح ودعا الجنود إلى الاستمرار في القتال لطلب الشهادة ومما جاء في دعوته: يا أهل الإسلام، من أراد منكم الشهادة فإلي، فاتبعه أُناس من المتطوعة وفرسان الناس، وأهل الحفاظ فقاتلوا الترك حتى أصيبوا إلا قليلاً، وعادوا من بلاد رتبيل فاستقبلهم الناس بالأطعمة، فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات، وبذلك لم تحقق هذه الغزوة أهدافها العسكرية مما دفع الحجّاج إلى استئذان الخليفة عبد الملك بإرسال جيش جديد[1]، يعيد للدولة هيبتها ومكانتها[2]، فأعد الحجّاج في عام 80 هـ جيشاً قوياً من أهل الكوفة بلغ عدد عسكره أربعين ألفاً، عشرون ألفاً من الكوفة ومثلهم من البصرة، وتشجيعاً للجنود ورفعاً لروحهم المعنوية أعطاهم أعطياتهم مسبقة، وأنفق فيها الأموال، وأنجدهم بالخيل والسلاح، حتى سمي هذا الجيش «جيش الطواويس» فقد بلغت الأموال التي أنفقها على تجهيزه سوى الأعطيات مليوني درهم[3]، واختار لهذا الجيش الكبير عبد الرحمٰن بن الأشعث الذي سار بهم حتى وصل سجستان[4]. وقد تحدثنا عن هذا الجيش وما قام به من حروب أهلية عند دراستنا لثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث.

ثانياً: فتوحات قتيبة بن مسلم في بخارى وسمرقند وغيرها:

هو قتيبة بن مسلم الباهلي الأمير أبو حفص، أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوي الحزم والدهاء والرأي والغَنَاء، وهو الذي فتح خوارزم وبخارى وسمرقند وكانوا قد نقضوا وارتُدوا. ثم أنه افتتح فرغانه، وبلاد الترك في سنة 95هـ[5]، ولي خراسان عشر سنين وله رواية عن عمران بن حصين، وأبي سعيد الخدري[6]، ولم ينال قتيبة أعلى الرتب بالنسب، بل بكمال الحزم والعزم والإقدام والسَّعد، وكثرة الفتوحات ووفور الهيبة[7].

تولى قتيبة خراسان بعد المفضل بن المهلب، وكان من الأبطال الشجعان ذوي الحزم والدهاء والرأي والغناء، ويعتبر بحق من أعظم القادة الفاتحين، الذين عرفهم التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ الدولة الأموية خاصة[8]، ففي عشر سنين فتح أقاليم شاسعة: وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عز وجل[9]، وكانت بداية فتوحاته عندما وصل لخراسان، فقد جمع الناس وخطبهم قائلاً: إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو - وقماً - أي ذلاً -

---

(1) المصدر نفسه (7/ 223).
(2) المصدر نفسه (7/ 224) تجديد الدولة الأموية، ص: 169.
(3) المصدر نفسه (7/ 224) تجديد الدولة الأموية، ص: 169.
(4) تاريخ الطبري (7/ 224).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 410).
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 410).
(7) المصدر نفسه (4/ 411).
(8) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 341.
(9) البداية والنهاية، نقلاً عن العالم الإسلامي، ص: 341.

ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: 9]. ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٢١﴾ [التوبة: 120-121] ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق، فقال: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: 169] فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياي والهويني»[1]، بهذه الخطبة الموجزة ذكر قتيبة المسلمين برسالتهم، ومسئولياتهم تجاهها، وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقة في سبيل الله وأن يسيروا في طريق إسلامهم طريق الجهاد، والعزة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة[2]، وشرع قتيبة في الفتوحات وفتح منطقة ما وراء النهر ثم عبر نهر سيحون وفتح أقاليم كبرى، حتى وصل كاشغر متاخماً بذلك حدود الصين، **وأهم المراحل الكبرى في هذه الفتوحات:**

المرحلة الأولى: استعادة الطالقان[3] والصغانيان وطخارستان[4]:

عرض قتيبة جنده وحثّهم على الجهاد وسار غازياً، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين (بلخ) وساروا معه، فقطع نهر «جيحون» فتلقاه ملك (الصغانيان) بهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه إلى بلاده وسلّمها إليه، لأنّ ملك شومان[5] وأخرون[6]، كان يسيء جواره، وسار قتيبة منها إلى أخرون وشُومان وهما من الصَغَانيان، فصالحه ملكها على فدية أداها إليه، فقبلها قتيبة ثم انصرف عائداً إلى (مرو) واستخلف على جنده أخاه صالح بن مسلم، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة (كاشان)[7] وأورشت[8]، وفتح أخسيكت[9]وهي مدينة (فرغانة)[10] القديمة[11]، بهذا الفتح الكبير، استهل قتيبة ولايته لخراسان سنة 86 هـ[12].

---

(1) تاريخ الطبري (3/ 323).

(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 343.

(3) بلد في خراسان بين مرو الروذ وبلخ.

(4) طخارستان : ولاية واسعة تشمل عدة بلاد وهي من نواحي خراسان.

(5) شومان : بلد الصغانيان من وراء نهر جيحون، معجم البلدان (5/ 310).

(6) أخرون : الظاهر مدينة قريبة من شومان.

(7) كاشان : مدينة فيما وراء، معجم البلدان (7/ 207).

(8) أورشت : مدينة من مدن فرغانة.

(9) أخسيكت: اسم مدينة بما وراء النهر.

(10) فرغانة : مدينة متاخمة لبلاد تركستان

(11) معجم البلدان (2/ 85).

(12) قادة الفتح الإسلامي في ما وراء النهر، ص: 378.

المرحلة الثانية: فتح إقليم بخارى 87 - 90هـ:

كانت أول مدينة غزاها في هذا الإقليم، وهي مدينة بيكند، يقول الطبري: إن قتيبة لما صالح نيزك، أقام إلى وقت الغزو ثم غزا في تلك السنة 87 هـ فقطع النهر وسار إلى بيكند، وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل قريباً منها استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم، فأتوهم في جمع كثير، وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول، ولم يعرف له خبر شهرين، وأبطأ خبره على الحجّاج، فأشفق الحجّاج على الجند، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون كل يوم، فكانت بين الناس مشاولة[1]، ثم تزاحفوا والتقوا وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر، ثم منح الله المسلمين أكتافهم فانهزموا يريدون المدينة واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاءوا واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليها رجلاً من بني قتيبة[2]، ولكنهم سرعان ما نقضوا الصلح، وقتيبة منهم على خمس فراسخ فرجع إليهم، وقتل من كان في المدينة، وغنم غنائم كثيرة، ورجع قتيبة إلى مرو، وقوى المسلمون فاشتروا السلاح والخيل.. وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة[3]، واستمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى في هذه المرحلة بصفة منظمة كل سنة، وكان غزوه يتم في فصل الصيف فإذا دخل الشتاء عاد إلى مروه وفي سنة 88 هـ ترك أخاه بشاراً على مرو وعبر النهر ففتح نومشكت ورامثنة من أعمال بخارى صلحاً بناء على طلب أهلها[4]، ولكن هاله حلف من أهل فرغانة والصغد في مائتي ألف عليهم ابن أخت ملك الصين - كور مغايون - وواضح من هذا التجمع الكبير أن الأمم في هذه المناطق قد تداعت وتحالفت على المسلمين، ولكن الله نصر قتيبة وجنده على هذا الحلف، ثم عاد إلى مرو[5]، وفي عام 89 هـ استأنف قتيبة فتوحاته وقصد بخارى هذه السنة بناء على أوامر الحجّاج، فلقيه في طريقه جمع من أهل كش ونسف فظفر بهم ومضى إلى بخارى، فتصدى له ملكها - وردان خذاه - فلم يستطع الاستيلاء عليها، فرجع إلى مرو، وكتب إلى الحجّاج يخبره فطلب منه الحجّاج أن يصورها له فبعث إليه بصورتها، فنصحه وأمده وعرفه الموضع الذي يأتيها منه، وأمره بالمسير إليها، فسار إليها سنة 90هـ ومع أن وردان خذاه كان قد استجاش الصغد والترك ليساعدوه في التصدي لقتيبة، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم بعد معارك شرسة، واستولى على بخارى، وكتب بالفتح إلى الحجّاج[6]، وبهذا استكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله في ثلاث سنوات.

---

(1) المشاولة: القتال بالرماح.
(2) تاريخ الطبري (7/ 331).
(3) المصدر نفسه (7/ 332).
(4) المصدر نفسه (7/ 336، 337).
(5) المصدر نفسه (7/ 337).
(6) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي، ص: 346.

المرحلة الثالثة من 90 - 93 هـ فتح سمرقند:

وهي المرحلة التي فرض فيها قتيبة السيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون وتوج عمله فيها بالاستيلاء على مدينة سمرقند، أعظم المدائن في بلاد الصغد، وكان طرخون ملك الصغد، قد أرسل إلى قتيبة بعد انتصاره في معركة بخارى سنة 90 هـ يطلب الصلح[1]، فأجابه قتيبة وصالحه، ورجع قتيبة[2]، وفي سنة 91 هـ كان غدر نيزك - صاحب قلعة بادغس - وتأليبه ملوك طخارستان ورتبيل ملك سجستان على المسلمين، وقد نكل به قتيبة سجستان من الشمال وربما كانت تلك أول مرة يغزو فيها قتيبة سجستان وربما كان قد أراد تأديب رتبيل ملكها لانضمامه إلى نيزك في غدره، ولكن رتبيل قدر العواقب وطلب الصلح فقبل قتيبة وصالحه، وانصرف عائداً إلى مرو، وترك عبد ربه بن عبد الله بن عمير الليثي عاملاً على سجستان[3]، وقد توج قتيبة فتوحاته في هذه المرحلة بفتح سمرقند، وهي أعظم مدائن ما وراء النهر والذي دعاه إلى ذلك أن طرخون ملكها كان قد نقض الصلح الذي أبرمه معه قتيبة سنة 90 هـ، وامتنع عن دفع ما كان صالح عليه، فقرر قتيبة أن يضع حداً لهذا العبث، فجمع جنده وأخبرهم بنقض طرخون الصلح وبعزمه على فتح سمرقند بالقوة وجهز أخاه عبد الرحمٰن بن مسلم في عشرين ألف مقاتل وأمره بالسير أمامه، ثم تبعه هو في أهل خوارزم وأهل بخارى وضرب عليها الحصار وقال: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[4]، متيمناً بقول: رسول الله ﷺ عندما حاصر خيبر، فلما رأى أهل سمرقند أن مدينتهم قد حوصرت خافوا طول الحصار فكتبوا إلى ملوك الشاش وفرغانة يستغيثوهم، ويحرضونهم على المسلمين وقالوا لهم: إن العرب إذا ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم[5]، استجاب هؤلاء الملوك لنداء أهل سمرقند واختاروا عدداً من أولادهم ومن أهل النجدة والبأس من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال وأمروهم أن يفاجأوا قتيبة في معسكره، وهو مشغول بحصار سمرقند، ولكن قتيبة كان يقظاً باثاً عيونه ولم يغب عن باله حدوث مثل هذه المفاجآت، فعلم بخبرهم، وأرسل لهم فرقة من جنده بقيادة أخيه صالح بن مسلم، فبدد شملهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلا الشريد، وغنم السلمون أمتعتهم وأسلحتهم[6]، فلما رأى الصغد ما حل بهؤلاء انكسروا، وضيق عليهم قتيبة الخناق ونصب المنجنيق على المدينة واستطاع إحداث

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 346.
(2) تاريخ الطبري (7/ 344، 345).
(3) تاريخ الطبري (7/ 369).
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 348.
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 348 نقلاً، عن تاريخ الطبري.
(6) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 348 نقلاً، عن الكامل في التاريخ.

ثلمة فيها وصاح صيحة الأسد: حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان، أما والله لئن أصبحت لأحاولنّ من أهلك أقصى غاية، فلما أصبح أمر الناس بالجد في القتال فقاتلوهم، واشتد القتال، وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا، فأرسل الصغد إلى قتيبة، فقالوا له: انصرف عنا اليوم، حتى نصالحك غداً، فقال: لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة.. فصالحهم من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس وأن يخلو له المدينة فلا يكون فيها مقاتل، فيبني فيها مسجداً، ويدخل ويصلي ويخطب ويتغذى ويخرج[1]. دخل قتيبة سمرقند وحطم ما بها من الأصنام ولم يعبأ بما خوفه منها حيث قال له أحدهم مدعياً نصيحته: لا تتعرض لهذه الأصنام فإن منها أصناماً من أحرقها أهلكته، فقال له: أنا أحرقها بيدي، فأمر بإشعال النار، وكبر ثم أحرقها، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال[2]، وبعد أن أتمّ قتيبة هذا الفتح العظيم عاد إلى مرو لكي يستريح، ثم يستعد لجولته الأخيرة التي سيفتح فيها المناطق السيحونية[3].

المرحلة الرابعة: أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر 94 هـ - 96 هـ:

وهي المرحلة التي فتح الله فيها على يديه أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر وقد بدأ هذه المرحلة سنة 94 هـ، حيث سار في موعد غزوه - في الصيف - ومعه عشرون ألفاً من أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم[4]، فوجه قسماً منهم إلى الشاش وتوجه هو بالقسم الآخر إلى فرغانه، حيث دار بينه وبين الترك قتال عنيف حول مدينة خجنده، ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة، حيث توجه قتيبة إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجنده وهناك أتاه جنوده الذين كان أرسلهم إلى الشاش، ويبدو أن قتيبة قد وجد مقاومة شرسة من الأتراك في هذه البلاد، فقد كتب إلى الحجّاج يطلب مدداً، فأرسل إليه جيشاً من العراق[5]، ثم أمر محمد بن القاسم الثقفي أن يوجه إليه من السند مدداً[6] أيضاً، فإمداد قتيبة بهذه الجيوش من العراق ومن السند[7] فوق ما معه من قوات كبيرة، يدل على قوة المقاومة التي لقيها في أقاليم سيحون، كما يدل على قوة عزم المسلمين في الجهاد، وأنه أراد أن يكون متفوقاً عليهم حتى يحقق هدفه، وقد نجح بالفعل وفتح أقاليم الشاش وفرغانة 95 هـ[8]، وبعد أن أتم هذا الفتح الكبير، جاءته الأخبار بموت الحجّاج في شوال في تلك السنة، فاغتم لموته، لما كان يجد منه من التأييد والتشجيع والمساندة وقفل راجعاً إلى مرو، وتمثل قول الحطيئة:

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 377).
(2) المصدر نفسه (7/ 377).
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 349.
(4) تاريخ الطبري (7/ 385).
(5) تاريخ الطبري (7/ 386).
(6) تاريخ الطبري (7/ 387).
(7) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 349.
(8) تاريخ الطبري (7/ 394).

لعمري لنعم المرء من آل جعفر   بحوران أمس أعلقته الحبائل
فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت   فما في حياة بعد موتك طائل[1]

عاد قتيبة إلى مرو وقد ترك حاميات من جنده في بخارى وكش ونسف، وانتظر ما تأتي به الأقدار بعد موت الحجّاج. وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجّاج وقتيبة، وأن للحجّاج دوراً كبيراً في نجاح قتيبة في مهمته، فقدر وقوع نبأ موت الحجّاج عليه، لذلك واساه وأرسل إليه رسالة كلها تشجيع وثناء وتزكية، قال له فيها: . قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فأتمم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه[2].

ـ فتح كاشغر وغزو الصين:

أحدثت رسالة الخليفة الوليد بن عبد الملك أثراً طيباً في نفس قتيبة، وأعطته دفعة قوية من العزم والتصميم فتوجه من مرو ليواصل فتوحاته، فقصد مدينة كاشغر التي يقول عنها الطبري: إنها أدنى مدائن الصين[3]، ومع أن الوليد بن عبد الملك قد توفي في جمادى الآخرة سنة 96هـ، وصل نبأ وفاته إلى قتيبة وهو في فرغانة[4]، وقبل أن يصل إلى كاشغر، إلا أنه واصل سيره حتى فتحها، وهنا جاءه رسول ملك الصين يطلب منه أن يوجه إليه وفداً ليعرف خبرهم، فاختار قتيبة عشرة - وقيل اثني عشر - من خيرة رجاله برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي، فأرسلهم إلى ملك الصين، ويقص الطبري خبر هذه السفارة في حديث طويل، نكتفي منه بما انتهى إليه الحوار مع ملك الصين، حيث قال لهم مهدداً. فانصرفوا إلى صاحبكم، وقولوا له ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، فرد عليه هبيرة في شجاعة المؤمن وعزته فقال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك، وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه، ولا نخافه. أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنه أمام قوم لا يجدي معهم التهديد ولا الوعيد فاعتدل في كلامه، وقال لهبيرة: فما الذي يرضي صاحبكم؟ قال: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويعطي الجزية، قال: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها قال: فدعا بصحائف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 394).
(2) المصدر نفسه (7/ 395).
(3) المصدر نفسه (7/ 401).
(4) المصدر نفسه (7/ 401).

فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمان وردهم، ووطئ التراب[1]، وهكذا انتهت هذه المرحلة من فتوحات قتيبة، التي طوى فيها أقاليم ماوراء جيحون، ثم عبر نهر سيحون، وفتح فرغانة والشاش، وأشروسنه، وكاشغر، وفرض سيادة الإسلام على ملك الصين، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وكان قتيبة قائداً عسكرياً فذا، وبطلاً سياسياً بارعاً، قهر الصعاب وتغلب على كل المشاكل التي واجهته، ولم يثنه عن عزمه لا صعوبة الطرق ووعورتها ولا قسوة المناخ وشدته، فقد كان عزمه حديداً، وكان هدفه رشيداً، وغايته عظيمة، والعون من الله مكفول للمخلصين لهذا الدين العظيم[2].

1 - جهود قتيبة في نشر الإسلام:

كان قتيبة ومن معه من الفاتحين يحرصون على دعوة الناس للإسلام، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، فكان قتيبة يهتم ببناء المساجد في المدن والقرى والأرياف ويضع فيها العلماء والفقهاء لتربية الناس وتعليمهم الإسلام، وقام بتسكين المسلمين بين السكان الأصليين، ليطلعوا على تعاليم الإسلام وعادات المسلمين وأخلاقهم عن طريق الاحتكاك بهم، مثل ما حدث مع أهل بخارى[3] فأظهر الإسلام بهذه الطريقة، وأزال آثار الكفر ورسم المجوسية، وبنى ببخارى المسجد الجامع وأمر المسلمين بأداء صلاة الجمعة فيه، ومن أساليب قتيبة في ترغيب الناس في الدخول في الإسلام، كان يأمر بمنادٍ كل يوم يقول: بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة يُعطى درهمين[4]، ويعد هذا العمل طريقة جديدة في ذلك العهد في تأليف قلوب الناس للإسلام والحفاظ على الذين اعتنقوه[5]، وكان في جيشه مجموعة من العلماء، كمحمد بن واسع، والقاضي يحي بن يعمر والضحاك بن مزاحم صاحب التفسير، فقد ساهم أمثال هؤلاء في نشر الإسلام، وكان محمد بن واسع ينافس قتيبة في بناء المساجد وقد صاحب عمليه انتشار الإسلام بين سكان ما وراء النهر سرعة تعلمهم اللغة العربية، حيث كان قتيبة يصدر أوامره ببناء المساجد ولم تكن تقتصر على إقامة شعائر الصلاة فقط وإنما فيها حلقات الدرس في تعليم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكان للمسجد والعلماء الذين أشرفوا عليها دور عظيم في تعليم السكان اللغة العربية[6]، وقد قال ابن كثير عن قتيبة: أنه ما انكسرت له راية، وكان من المجاهدين في سبيل الله واجتمع له من العسكر ما لم يجتمع لغيره[7]. وكان من نتائج الجهود التي بذلها قتيبة في نشر الإسلام، أن

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 404).
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 352.
(3) قتيبه بن مسلم الباهلي، غانم السلطاني، ص: 138.
(4) تاريخ بخارى ص: 74، للنرشخي.
(5) قتيبة بن مسلم الباهلي، ص: 138.
(6) المصدر نفسه، ص: 140.
(7) البداية والنهاية، نقلاً عن قتيبة بن مسلم الباهلي، ص: 140.

أصبحت بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ونشر الإسلام في آسيا الوسطى، كما كانت مرو ونيسابور في خراسان، ومنها أيضاً دخول كثير من أهالي ما وراء النهر في دين الله أفواجا، فظهر بينهم عدد من الكتاب والمحدثين والفقهاء والمؤرخين، ممن لا يزال ذكرهم خالد، وآثارهم عظيمة في تاريخ الإسلام[1].

2 - من حكم قتيبة وأقواله المأثورة:

قوله: ملاك الأكثر في السلطان الشدة على المذنب واللين للمحسن[2]، وكان يقول: الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة لا تخطئ والفرقة لا تصيب[3]، وخاطب قتيبة الحجاج حين ظفر بأصحاب ابن الأشعث فأراد قتلهم: أن الله قد اعطاك ما تحب من الظفر، فأعطه مايحب من العفو[4]. وقال: الكامل المروءة من أحرز دينه ووصل رحمه، وتوقّى ما يلائم عليه[5].

3 - مدح الشعراء له:

قال نهار بن توسعة يذكر انتصار قتيبة على الأتراك:

أراك الله في الأتراك حكماً ... كحكم في قريظة والنفير
قضاء من قتيبة غير جور ... به يُشفي الغليلُ من الصدور[6]

وقال كعب الأشقري يمدح قيادة قتيبة:

كل يوم يخوي قتيبة نهباً ... ويزيد الأموال مالاً جديداً
باهليٌ قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مفارق كنّ سُودا
دوّخ (السُّغد) بالكتائب حتى ... ترك (الصُّغد) بالعراء قُعودا
فوليد يبكي لفقد أبيه ... وأب موجع يبكي الوليدا
كلما حلّ بلدة أو أتاها ... تركت خيله بها أخدودا[7]

ونهار بن توسعة هو القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا هتفوا ببكر أو تميم[8]

---

(1) قتيبة بن مسلم الباهلي، ص: 140.
(2) بهجة المجالس، ابن عبد البر (1/ 334).
(3) المصدر نفسه (1/ 455).
(4) قتيبة بن مسلم الباهلي، ص: 198.
(5) المصدر نفسه، ص: 199.
(6) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ماوراء النهر، ص: 419.
(7) المصدر نفسه، ص: 419، نقلاً عن تاريخ الطبري.
(8) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 537).

4 - مقتل قتيبة ونهايته: 96هـ

انتهت حياة هذا المجاهد الكبير نهاية حزينة أليمة، فقد مات الخليفة الوليد وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك 96 - 99هـ، وكانت العلاقة بين سليمان والحجاج ورجاله، ومنهم قتيبة غير حسنة، قيل لأنهم كانوا وافقوا الوليد على خلع أخيه سليمان، وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد[1]، فخشي قتيبة أن يعزله سليمان، فأرسل إليه رسائل يعزيه في الوليد ويهنئه بالخلافة، ويختبر نواياه ونحوه، لكن سليمان لم يعزله، بل أرسل له عهداً بولاية خراسان[2]، مع رسول خاص من عنده تكريماً له، ولكن قتيبة تعجل وخلع طاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد، فغضب الناس واستنكروا خلع سليمان وثار الجند على قتيبه فقتلوه[3].

يقول الذهبي: ولما بلغه موت الوليد، نزع الطاعة، فاختلف عليه جيشه، وقام عليه رئيس تميم وكيع بن حسَّان، وألَّب عليه، ثم شَدَّ عليه في عشرة في فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة سنة ستٍّ وتسعين، وعاش ثمانياً وأربعين سنة[4]، وقال ابن كثير في سبب مقتل قتيبة بن مسلم: وذلك أنَّه جمع الجند والجيوش، وعزم على خلع سليمان وترك طاعته وذكر لهم همّته وفتوحه وعدله فيهم ودفعه الأموال الجزيلة إليهم، فلما فرغ من مقالته، لم يجبه أحد منهم، فشرع في تأنيبهم وذمِّهم قبيلة قبيلة وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرَّقوا، وعملوا على مخالفته وسعوا في مقتله وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له: وكيع بن أبي سُود، فجمع له جموعاً كثيرة، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذي الحجة من هذه السنة، وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته، ولم يبق سوى ضرار بن مسلم وكانت أُمُّه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن سعد بن زُرارة، فحمته أخواله - وعمرو بن مسلم، وكان عامل الجوزجان وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح، وبشار، وهؤلاء أبناء مسلم وأربعة من أبنائهم فقتلهم كلهم وكيع بن أبي سُود[5]، وقد كان قتيبة بن مسلم من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يُحصيهم إلا الله فأسلموا ودانوا لله عز وجل، وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً، كما تقدم ذلك مفصَّلاً مبيَّناً، والله سبحانه لا يضيِّعُ سعيه ولا يخيِّبُ تعبه وجهاده، ولكن زلَّ زلة كان فيه حتفه وفعل فعلة رغم فيها أنفه، وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية، وفارق الجماعة، فمات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفرُ الله بها عنه من سيئاته، ويمحو عنه من خطاياتِه والله يسامحه ويعفو عنه ويتقبَّلُ منه، ما كان يكابده من مُناجرة الأعداء[6].

---

(1) البداية والنهاية (12/ 613).

(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن العالم الإسلامي ص 352.

(3) الكامل في التاريخ (3/ 238).

(4) سير أعلام النبلاء (4/ 410).

(5) البداية والنهاية (12/ 615).

(6) البداية والنهاية (12/ 616).

5 – بين قتيبة بن مسلم ومحمد بن واسع: أصبعه أحب إلى قتيبة من ألف سيف شهير:

لما صافَّ قتيبة بن مسلم للترك وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بأصبعه نحو السماء. قال: تلك الأصبع أحب إليّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير[1]، وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأسباب النصر، ألا وهو التوكل على الله تعالى، وتوثيق الصلة به واستلهام النصر منه، ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القُوَى بمراحل عديدة ولما كان محمد ابن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه واطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده قال تلك الكلمات الإيمانيه الرفيعة: تلك الإصبع أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير[2]. إن قوى الأرض كلها بيد الله تعالى، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع، إنما هو حسابات البشر، والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة، وإن من أهم استجلاب نصر الله تعالى دعاء الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيراً حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء، وهذا الفهم الرفيع من قتيبة رحمه الله يبين لنا سبباً مهماً من أسباب انتصاراته الباهرة، التي ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات فبالرغم من كونه بطلا لا يُشَقُّ له غبار، وقائداً مخططاً يضع للأمور أقرانها، وسياسياً محنكاً لا يُخدع، فإنه لم يغتر بكل ذلك بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه بالله تعالى فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح حصل له اليقين وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل بضعف الصلة بالله تعالى[3].

إن محمد بن واسع رحمه الله تعالى معدود من العلماء الربانيين المشهورين بالزهد والورع والخشوع، وهو مدرسة في معالجة أمراض النفوس وتطهير القلوب، ومن أقواله النيِّرة في الزهد والورع واليقين: إني لأغبط رجلاً معه دينه وما معه من الدنيا شيء وهو راض[4]. وإذا كان محمد بن واسع يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا فما أكثر من يغبطون أصحاب الأموال، وما أبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين[5]. وقيل إنه قال لرجل: هل أبكاك قط سابق علم الله فيك[6]؟ يعني أن المقربين مع ما يقومون به من الورع والعمل الصالح

(1) سير أعلام النبلاء (6/ 121).
(2) المصدر نفسه (6/ 121).
(3) التاريخ الإسلامي (19/ 99,200).
(4) سير أعلام النبلاء (6/ 121).
(5) التاريخ الإسلامي (19/ 93).
(6) سير أعلام النبلاء (6/ 121).

يخشون من سابق قدر الله فيهم، حيث يخافون من سوء الخاتمة، فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن جل جلاله يقلبها كيف يشاء، وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: قريباً أجلي بعيداً أملي سيئاً عملي[1]. وهذا من عمق الإدراك وقوة تصور ما بعد الموت، وإذا كان محمد بن واسع الذي قيل عنه إنه أفضل أهل البصرة في زمنه يتهم نفسه بطول الأمل وسوء العمل فكيف بحال المقصرين[2] أمثالي. وذات يوم قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني، قال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة، قال: كيف؟ قال: ازهد في الدنيا[3]. وهذه وصية نافعة من طبيب ماهر في طب القلوب فهذا الرجل يطلب الوصية من محمد بن واسع فيوصيه بأعلى مرتبة تطمح لها النفوس عادة، وهي أن يكون ملكاً في الدنيا والآخرة، فيتعجب الرجل لأنه لم يرد الدنيا حينما طلب منه الوصية، ثم كيف يجمع بين الأمرين، فيكون ملكاً في الدنيا ولآخرة، فلذلك استفهم منه استفهام تعجب، فكان جواب ابن واسع له: ازهد في الدنيا[4]، ومن كلامه التربوي العميق قوله: ما آسى على الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قوَّمني، وصلاة في جماعة يُحمَل عني سهوُها وأفوز بفضلها، وقوتٍ من الدنيا ليس لأحد منه فيه منّة ولا لله عليَّ فيه تَبِعة[5]. فهذا العالم الرباني كان من ضمن جنود الفاتحين الذين نفع الله بهم شعوب المشرق، كأهل بخارى وسمرقند وخراسان وغيرها.

6 - المشرق بعد مقتل قتيبة بن مسلم:

لم تحدث فتوحات إسلامية فيما تبقى في عهد الدولة الأموية في هذه الجهات بعد فتوحات قتيبة، وتوقفه عن كاشغر على حدود الصين، ذلك لأن الظروف التي مرت بها الدولة الأموية منذ هذا التاريخ، وحتى سقوطها سنه 132هـ - لم تكن تسمح بذلك. فقد انشغلت بالثورات التي بدأت تهب في وجهها من جديد مثل ثورات الخوارج وثورة يزيد بن المهلب في عهد يزيد ابن عبد الملك 101 - 105 هـ كما أن الخلافات نشبت من جديد بين العرب في خراسان، وفي هذا الجو بدأت الدعوة السرية للرضا من آل محمد وهي الدعوة التي كان يوجهها العباسيون لمصلحتهم بكتمان ومقدرة رائعة، والتي نجحت في النهاية في الإطاحة بالدولة الأموية، كما أن التناحر والتنافس والنزاع قد احتدم بين أبناء البيت الأموي أنفسهم، وأصبحوا يقاتل بعضهم البعض، مما أضعف هيبة الدولة في عيون الناس، كما أن هذه البلاد نفسها التي فتحها قتيبة لم تكف عن التمرد والثورة ونقض العهود، فأصبح جهد الخلفاء والولاة منصبًا - بعد مرحلة قتيبة - على إخضاع الثائرين والمتمرِّدين وردهم إلى الطاعة

(1) البداية والنهاية (6/ 121).
(2) التاريخ الإسلامي (19/ 94).
(3) سير أعلام النبلاء (6/ 121).
(4) المصدر نفسه (6/ 120).
(5) التاريخ الإسلامي (19/ 394).

والنظام[1]، وقد نجحت الدولة الأموية في ذلك، فهي وإن كانت لم تضف جديداً إلى فتوحات قتيبة في هذا الجزء من العالم، إلا أنها لم تتراجع ولم تخسر أرضا واحتفظت بمواقعها، ونهض الولاة في هذه المناطق بمسؤولياتهم، وهيأوها لقبول الإسلام، وجعلها جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي[2].

ثالثاً: محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند: 89 - 96 هـ:

كان انتصار المسلمين في معركة القادسية في عهد عمر بن الخطاب إيذاناً لهم بفتح السند، فقد استنجد كسرى الفرس ببعض ملوك البلاد المجاورة ومنها مملكة السند، حيث أمده ملك السند بالمال والرجال، الأمر الذي اضطر المسلمين بمهاجمة السند رداً على تدخلهم ضدهم في معركة[3] القادسية، ولذلك فإن البلاذري يحدثنا عن حملات إسلامية مبكرة على السند كان أولها في عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانيها في عهد علي بن أبي طالب، كما نفهم من رواية البلاذري أن عثمان بن عفان كان أيضاً مهتماً بتقصي تحركات السند[4]، كما أن البلاذري يوضح الأسباب التي حولت هذه الحملات إلى فتح منظم للسند في الأسباب الآتية:

* - اكتشاف تحالف آخر بين السند والترك حيث لقي المهلب في عهد معاوية بن أبي سفيان ثمانية عشر فارساً من الترك ببلاد القيقان بالهند[5]، لذلك تلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة بن المحبق الهذلي على الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها[6].

* - أعمال القرصنة البحرية التي كان يقوم بها الهنود حيث يذكر البلاذري أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف، فنادت امرأة من تلك النسوة وكانت من يربوع: يا حجاج! وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك، فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فقال: أخذهن لصوص لا أقدر عليهم[7]، لذلك أرسل الحجاج بن يوسف عبيد الله بن نبهان إلى الديبل «كراتشي اليوم»

---

(1) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 523 - 527.
(2) العالم الإسلامي في عصر الأموي، ص: 353.
(3) العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية، محمد النجرامي، ص: 30.
(4) الحضارة الإسلامية، محمد عاد، ص: 299، فتوح البلدان، ص: 420.
(5) المصدر نفسه ص: 299، فتوح البلدان، ص: 421.
(6) فتوح البلدان، ص: 423, الحضارة الإسلامية، ص: 299.
(7) فتوح البلدان، ص: 423, 424.

فقتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل، لكن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضا[1].

1 - تعيين محمد بن القاسم على ثغر الهند وتجهيزات الحجاج لجيشه:

تبدّى للحجاج مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فاختار محمد بن القاسم وكان بفارس، وكان قد أمره أن يسير إلى (الريّ)، فردّه إليه[2]، وعقد له ثغر (السند)، وضمّ إليه ستة آلاف من جند أهل الشام، وجهّزه بكلّ ما احتاج إليه - حتى الخيوط والإبر والمال - وأمره أن يقيم بشيراز حتى يكمل حشد رجاله ويوافيه ما أعدّ له[3]، واهتمّ الحجاج اهتماما بالغاً في إنجاز استحضارات جيش محمد بن القاسم حتى بلغ بذلك حدّ الروعة حقاً فلم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال استحضارات هذا الجيش، حتى إنه عمد إلى القطن المحلوج فنُقع في الخل الأحمر الحاذق، ثم جُفِّف في الظل وقال لهم: إذا صرتم إلى (السِّند) فإن الخل بها ضيِّق، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثم اطبخوا به واصطبغوا. ويقال: إن محمداً لما صار إلى ثغر السِّند، كتب يشكو ضيق الخلّ عليهم، فبعث الحجاج إليه بالقطن المنقوع في الخل.

2 - المعارك التي خاضها محمد بن القاسم:

مضى محمد إلى مكران فأقام بها أياماً، ثم أتى فنزبور[4] ففتحها، ثم أتى أرمائيل[5] ففتحها أيضا، فقدم (الديبل) يوم جمعة، فوافته هناك سفنه التي كانت تحمل الرجال والسِّلاح والعتاد والمهمات، فخندق حيث نزل (الديبل) وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقاً يقال له: العروس، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوي الكفاية المدربين على استخدامه، فدكّ بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر (البد)[6]، وكان على هذا البد دقل عظيم، وعلى الدقل راية حمراء إذا هبّت الريح أطافت المدينة[7]، وحاصر محمد الديبل وقاتل حماتها بشدّة فخرجوا إليه، ولكنه هزمهم حتى ردهم إلى البلد، ثم أمر بالسلالم فنصبت وصعد عليها الرجال، وكان أولهم صعوداً رجل من بني مراد من أهل الكوفة ففتحت المدينة عنوة فاستباحها

(1) فتوح البلدان، ص 424، الحضارة الإسلامية، ص: 299.
(2) فتوح البلدان، ص: 424، قادة فتح السند، ص: 210.
(3) فتوح البلدان، ص: 424، قادة فتح السند، ص: 211.
(4) فنزبور: مدينة بين مكران والديبل.
(5) أرمائيل: مدينة كبيرة بين مكران والديبل من أرض السند.
(6) البد: هو المعبد وكل شيء عظموه من طريق العبادة فهو عندهم (بد).
(7) فتوح البلدان، ص: 424.

محمد ثلاثة أيام، ولكنّ عامل (داهر) ملك السند عليها هرب عنها سالماً[1]، فأنزل فيها محمد ابن القاسم أربعة الآف من المسلمين وبنى عليها جامعها، فكان أول جامع بُني في هذه المنطقة[2]، وسار محمد عن الديبل إلى النيرون[3]، وكان أهلها بعثوا إلى الحجّاج فصالحوه، فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح[4]، وسار محمد عن (نيرون) وجعل لايمر بمدينة إلّا فتحها حتى عبر نهراً دون مهران[5]، فأتاه أهل (سربيدس)[6]، وصالحوه ففرض عليهم الخراج وسار عنهم إلى (سهبان)[7]، ففتحها ثم سار إلى نهر (مهران) فنزل في وسطه، وبلغ خبره (داهر) فاستعدّ لمجابهته[8]، وبعث محمد إلى (سدوستان)[9]، فطلب أهلها الأمان والصلح، فأمنهم محمد وفرض عليهم الخراج أيضا[10].

3 – مقتل داهر ملك الهند:

عبر محمد بن القاسم نهر (مهران) مما يلي بلاد الملك (راسل) ملك (قصة) من الهند على جسر عقده، و (داهر) مستخف به لاهٍ عنه، ولقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة فاشتد القتال بشكل لم يسمع بمثله وترجّل (داهر) وقاتل حتى قتل عند المساء، فانهزم أصحابه وقتلهم المسلمون كيف شاءوا فقال قاتل داهر[11]:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غيرُ مَعرد[12] حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلا متعفر الخدين غير موسّد

فلما قتل (داهر) غلب محمد على بلاد السند وفتح (راوَر)[13]عنوة، وكان بها امرأة[14]

(1) المصدر نفسه، ص: 424، 425.
(2) تاريخ الإسلام في الهند، ص: 74، قادة فتح السند، ص: 212.
(3) نيرون : مدينة تقع على مسافة (75) ميلاً عن مكران.
(4) فتوح البلدان، ص: 425.
(5) مهران : موضع على نهر السند، معجم البلدان (8/ 209).
(6) سربيدس : مدينة بالقرب من مهران على نهر السند.
(7) سهبان : مدينة في منطقه سربيس على نهر السند.
(8) فتوح البلدان، ص: 425.
(9) قادة فتح السند وأفغانستان، ص: 213.
(10) فتوح البلدان، ص: 425.
(11) هو القاسم بن ثعلبة بن عبد الله الطائي، فتوح البلدان، ص: 426.
(12) معرد : عرد الرجل عن الطريق إذا انحرف عنه.
(13) راور : مدينة كبيرة بالسند، معجم البلدان (4/ 214).
(14) هي راني باي، كانت أختاً لداهر بنى بها.

لداهر فحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها[1]، وتقدم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا (برهمنآباد)[2] العتيقة على فرسخين من المنصورة[3] وكان موضعها غيضة، وكان المنهزمون من أصحاب داهر بها، ففتحها محمد وقتل بها بشراً كثيراً وخرّبها[4]، وسار محمد يريد (الرور) و(بغرور)[5]، فلقيه أهل ساوندري[6]، وسألوه الأمان فأعطاهم إياه، واشترط عليهم ضيافة المسلمين، فأسلم أهلها من بعد ذلك[7] ، وتقدم نحو (بسمد)[8]، على مثل صلح (ساوندري) فسار عنها حتى انتهى إلى (الرور) وهي من مدائن السند تقع على جبل فحاصرها شهوراً ثم فتحها صلحاً[9]، وسار محمد إلى (السكة)[10]، فتحها ثم عبر نهر (بِياس)[11] رافد نهر السند إلى مدينة (المُلْتان)[12]، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه، فامتنعت عليه شهوراً وقاتله أهلها، فانهزموا فحصرهم، فأتاه رجل مستأمن دلّه على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان، فقطعه عليهم، فنزلوا على حكمه، فقتل محمد المقاتلة وسبى الذرية وسبى سدنة (البد) وهم ستة آلاف، وأصاب مالاً كثيراً جمعه في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه في كوّة في وسطه، فسميت (الملتان) فرج[13] بيت الذهب[14]. وكان (بد) الملتان (بداً) تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ويحجّ إليه السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ويزعمون أنه صنماً فيه هو أيوب النبي عليه السلام [15]، وعظمت فتوح محمد، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة، فكانت ستين ألف ألف درهم فقال: شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر[16]. لقد أنجز محمد هذا الفتح كله في المدة بين سنة تسع وثمانين الهجرية وأربع وتسعين الهجرية[17].

---

(1) فتوح البلدان، ص: 425، 426.

(2) برهمنآباد : مدينة تقع على نهر السند بين كراجي والبنجاب.

(3) المنصورة : مدينة كبيرة يحيط بها خليج نهر مهران.

(4) فتوح البلدان، ص: 226.

(5) الرور : ناحية بالسند تقرب من (الملتان) في الكبر.

(6) مدينة في منطقة الرور، قادة فتح السند، ص: 214.

(7) فتوح البلدان، ص: 426، قادة فتح السند، ص: 214.

(8) مدينة في منطقة الرور، قادة فتح السند، ص: 214.

(9) قادة فتح السند، ص: 214.

(10) السكة : مدينة في منطقة الرور.

(11) بياس : نهر عظيم بالسند مفضاه إلى الملتان.

(12) الملتان : مدينة من الهند قرب بها صنم يعظمه الهنود.

(13) الفرج : الثغر.

(14) فتوح البلدان، ص: 427.

(15) فتوح البلدان، ص: 427، قادة فتح السند، ص: 215.

(16) قادة فتح السند، ص: 215، فتوح البلدان، ص: 427.

(17) تاريخ اليعقوبي (3/ 32) قادة فتح السند، ص: 216.

4 - نهاية محمد بن القاسم:

بينما محمد بن القاسم يدبر أمر السند وينظِّم أحواله بعد الفتح ويستعد لفتح إمارة قنوج وهي أعظم الإمارات في شمال الهند توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة 96هـ وتولى أخوه سليمان 96 - 99 هـ الذي بدأ يغير ولاة الحجّاج، فعين على العراق رجلاً من ألد أعداء الحجّاج، وهو صالح بن عبد الرحمٰن، الذي كان الحجّاج قد قتل أخاً له اسمه آدم بن عبد الرحمٰن كان يرى رأي الخوارج[1]، فقرر صالح بن عبد الرحمٰن أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجّاج وهو محمد بن القاسم، فعزله عن السند وولى رجلاً من صُنَّاعه وهو يزيد بن أبي كبشة، وأمره بالقبض على محمد، فقبض عليه وأرسله إليه، فحبسه في واسط في رجال من آل أبي عقيل[2]، وقد ادعت ابنة ملك السند الذي قتله ابن القاسم أنه راودها عن نفسها أو نالها قسراً، ولذا فقد سجن في واسط وعذب، ثم تضاربت الروايات بشأنه فقيل إنه مات تحت العذاب، وقيل إنه أطلق سراحه ثم قتل، وقيل بل قتل بدسائس من أتباع داهر فاتهم به الخليفة، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كانت كاذبة في ادعائها[3]، وهكذا انتهت حياة هذا البطل وهذا الفاتح الكبير هذه النهاية الأليمة، وحرمت الأمة الإسلامية من هذه العبقرية الشابة، فإن محمداً حقق هذه الأمجاد وهو في مقتبل العمر حتى قال فيه الشاعر:

إن الشجاعة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وقد ساس الجيوش وقادها وعمره سبع عشرة سنة، قال فيه الشاعر يزيد بن الأعجم:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك في أشغال

فغدت بهم أهواؤهم وسمت به ... همم الملوك وسورة الأبطال

وكان محمد بن القاسم يهتف في أعماق سجنه وفي ظلماته:

أتنسى بنو مروان سمعي وطاعتي ... وإني على ما فاتني لصبور

فتحت لهم ما بين (سابور)[4] بالقنا ... إلى الهند منهم زاحف ومغير

فتحت لهم ما بين جُرجان[5] بالقنا ... إلى الصين ألقى مرة وأغير[6]

وما وطئت خيل السكاسك عسكري ... ولا كان من (عك) عليّ أمير[7]

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 362، نقلاً عن فتوح البلدان.

(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 362.

(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 209.

(4) مدينة مشهورة بأرض فارس.

(5) مدينة مشهورة في خراسان معجم البلدان (3/75).

(6) قادة فتح السند، ص: 211.

(7) قادة فتح السند، ص: 221.

مات محمد بن القاسم بالتعذيب، أو قتل بعد تعذيبه، دون أن يشفع لهذا القائد الشاب بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولا مهارته الفذة في القيادة والإدارة ولا انتصاراته الباهرة في السند، ولكنَّ آثاره الخالدة وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر، ولم يختره الله إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كلِّ لسان وفي كل قلب، رمزاً للجهاد الصادق والتضحية الفذّة والصبر الجميل. أما الذين عذبوه فقد ماتوا وهم أحياء ولا نزال حتى اليوم نذكر محمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزي والاشمئزاز[1]، رحم الله محمد القاسم الشاب المظلوم، الأمير العادل الإداري الحازم، لقد بكاه أهل السند من المسلمين، لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ويعدل بالرعية ولأنه نشر الإسلام في ربوعهم فأرسل دعاته شرقاً وغرباً يجوبون البلاد التي فتحها وكان أكثر من هداهم الله إلى الإسلام من أهل السند على يديه[2]، فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها التي كان بها الأسرى من الجنود والتجار المسلمين والنساء المسلمات وقتل حرّاس القلعة بناء على أوامر الحجّاج انتقاماً لشهداء المسلمين، عندئذ جاء مدير السجن الذي كان به المسلمون طالباً العفو عنه لأنه كان محسناً للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة، فلما تأكد محمد بن القاسم من صدقه عفا عنه، بل فوض إليه مهمة الإشراف على الشئون الاقتصادية بمدينة الديبل ثم أعلن الرجل إسلامه، فقربه محمد أكثر، وعينه مترجماً لرئيس الوفد الذي أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه[3]، وعندما تقدم محمد بن القاسم في السند، بعد فتح الديبل، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول في الإسلام، فاستجاب له كثيرون وبصفة خاصة من البوذيين[4]، وقد كان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب، واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام، أثر كبير في جذب الأهلين إلى الإسلام، فلم يكن محمد القاسم يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجداً[5]، فقد بنى مساجد في الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرها من المدن السندية[6]، فرحمة الله على هذا الفاتح الكبير.

5 - السند بعد محمد بن القاسم:

توقفت الفتوحات في هذه الجبهة عند الحدود التي وصل إليها محمد بن القاسم، ولم يستطع ولاة بني أمية - فيما تبقى من عمر دولتهم - أن يضيفوا جديداً، ولكنهم استطاعوا المحافظة على ما تحقق من فتوحات، وبذلوا قصارى جهدهم في تثبيت أقدام الإسلام في

---

(1) قادة فتح السند، ص: 222.
(2) المصدر نفسه، ص: 221.
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 445.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 446.
(5) المصدر نفسه، ص: 447.
(6) المصدر نفسه، ص: 447.

إقليم السند، ووقفوا بالمرصاد لكل حركات التمرد والثورات التي قام بها الأمراء الهندوس، بعد رحيل محمد بن القاسم، فقد حاول هؤلاء الأمراء استرداد إماراتهم، وبصفة خاصة ابن داهر المسمى حليشة أو جيشبة، الذي حاول الرجوع إلى برهمنآباذ ولكن حبيب بن المهلب الذي ولاه سليمان بن عبد الملك السند، لم يمكنه من ذلك[1].

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد عبد الملك والوليد وسليمان

أولاً: بماذا انتصر المسلمون؟

إن ما حدث في عهد عبد الملك من فتوحات هي امتداد طبيعي للأسس المتينة والقواعد الراسخة لفقه النهوض الذي أسسه رسول الله ﷺ وأكمل بناؤه الخلفاء الراشدون، وكانت الأمة وكثير من حكامها يعيشون لأجل العقيدة والدعوة الإسلامية، وقد انتصر المسلمون بالإسلام نفسه، فهم قد فهموه فهماً صحيحاً دقيقاً وطبقوه على أنفسهم فأنشأ منهم خلقاً جديداً، غير النفوس والقلوب والعقول، وحررها من الوثنية وعبادة غير الله وفتح أمامهم آفاق الإيمان والعمل فاندفعوا يحملون رسالة التوحيد إلى الإنسانية كلها فأقاموا أمة وأنشأوا دولة كبرى وأعلنوا كلمة الله في الأرض حقاً وصدقاً[2]، لقد صيغت هذه الأمة منذ عهد الرسول ﷺ على أساس واضح من الترابط بين الإسلام والإيمان، والعقيدة والعمل، وفق أصفى مفهوم للتوحيد وأصدق فهم لإقامة المجتمع الإنساني واجتمع لها في إيمانها: العقيدة والشريعة والأخلاق دون أن ينفصل أحدها عن الآخر، وتكامل لها مفهوم المعرفة القائم على القلب والعقل[3]، وقد ظلت سيرة الرسول ﷺ بكل دقائقها وتفاصيلها أمام المسلمين قدوة صادقة وأسوة حسنة وقد كانت المثل الأعلى أمام القادة والمصلحين والأبطال والمجاهدين وما زالت وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد انتصر المسلمون بقيم ومقومات ومثل كثيرة تعلموها وتربوا عليها من القرآن الكريم وهدي الرسول الأمين ﷺ، ومن أبرز هذه القيم والمقومات: عقيدة سليمة، عبادة صحيحة، كتاب منير، أسوة حسنة، شريعة عادلة، أخلاق حميدة، جهاد في سبيل الله، تربية صالحة مستمرة، مفهوم شامل للحياة والمجتمع، بطولة في المواقف، وصمود في وجوه[4] العدو وغير ذلك من القيم والمقومات.

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 364.
(2) بماذا انتصر المسلمون، أنور الجندي، ص: 5.
(3) بماذا انتصر المسلمون، ص: 6.
(4) المصدر نفسه، ص: 7 إلى 9.

ثانياً: أسباب دخول الإسلام في البلاد المفتوحة:

كانت هناك عدة أسباب أدت إلى هذا منها:

1 - عالمية الدعوة:

الحقيقة الثابتة التي تؤيدها النصوص القاطعة أن الإسلام دين عالمي، ورسالته للجنس البشري كله، لا لأمة دون أمة، ولا لشعب دون شعب، فمحمد رسول الله إلى الناس كافة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي توضح أن الرسالة الإسلامية للناس كافة، وأنها خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض، فليس بعد القرآن الكريم كتاب من الله، وليس بعد محمد ﷺ رسول ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40] وقد قام بالتبشير بعالمية الدعوة ودعوة الأمم قادة وعلماء كموسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم وغيرهم كثير.

2 - المعاملة السمحة الكريمة:

إن النماذج التي خرَّجها الإسلام من القادة والجنود قد اتصفوا بأخلاق حميدة وقيم سامية، فرفعت من المستوى الإنساني عند معتنقيها، فكان لها أثر كبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، فكم من أفواج من البربر دخلوا في الإسلام وقاتلوا في سبيله في عهد موسى بن نصير، وكذلك في الهند وبخارى وسمرقند وغير ذلك من البلدان فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها، ويحرروهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهم أصحاب رسالة خالدة، تحمل للناس العدل والإنصاف وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، وبمجرد ما عرف الناس في البلاد المفتوحة أهداف المسلمين الحقيقية وتكشفت لهم حقيقة الإسلام أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة - كما سنعرفه فيما بعد - ولقد حرص المسلمون على الوفاء بكل ما التزموا به، ولم يكن هذا من حسن السياسة فقط فالوفاء بالعهد ليس تبرعاً من المسلمين يمنون به على الناس ولكنه مسئولية واجبة عليهم[1]، قال تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40] ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: 34].

3 - إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم:

كانت سياسة المسلمين منذ بداية الفتوحات من سعة الأفق والمرونة بحيث أدركوا أن

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 378.

استتباب الأمن وسير الأمور سيراً حسناً في البلاد المفتوحة بما يحقق خير أهلها ومصالحهم يكمن في الأسلوب الإداري الذي سيسيرون عليه، فلم يترددوا في الاستفادة من النظم الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة سواء كانت خاضعة للبيزنطيين مثل الشام ومصر، أو خاضعة للفرس مثل العراق وبلاد فارس نفسها، واستفادوا من الجهاز الإداري وطبقة الموظفين الذين كانوا يسيّرون دولاب العمل في البلاد، فقد كان الوالي في العهد الأموي يتمتع بكل السلطات والصلاحيات الإدارية والمالية والعسكرية في إقليمه، وكان المسلمون يحتفظون بمناصب القضاء والشرطة والحسبة أما ما عدا ذلك من الوظائف الإدارية فكان المجال فيها متسعاً أمام أبناء البلاد المفتوحة في الإدارة، بل إن كثيراً منهم وصلوا إلى مناصب إدارية في ظل الحكم الإسلامي كانوا محرومين منها في ظل حكومات ما قبل الإسلام كما هو الحال في مصر، فقد كان البيزنطيون يستحوذون على معظم المناصب الإدارية، بالإضافة إلى المناصب العسكرية العليا ولا يتركون للمصريين إلا أقل القليل[1]، وقد توسع الأمويون في استخدام أهل الذمة في الإدارة، مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان تجاه الدولة، فبدأوا يقبلون على اعتناق الإسلام لترتفع مكانتهم أكثر فأكثر[2].

4 - الوضع الديني في البلاد المفتوحة:

ومما جعل أبناء البلاد المفتوحة يقبلون على الإسلام بسرعة، فساد الأديان في بلادهم وانحلالها وفساد رجالها، سواء كانت هذه الأديان سماوية كاليهودية والمسيحية، أو وضعية كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها من الأديان الوثنية التي كانت سائدة في تلك البلاد[3].

هذه هي أهم العوامل والأسباب التي ساعدت في دخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام.

ثالثاً: تفسير حركة التعريب بين الشعوب المفتوحة:

نعني بالتعريب تحول لسان الأهالي في البلاد المفتوحة إلى اللسان العربي وهجر لغاتهم المحلية، وقد حدث هذا في عهد الخلافة الراشدة والدولة الأموية في المنطقة المحصورة بين الخليج والمحيط والمعروفة حالياً بمنطقة الدول العربية، فقد هجر أهالي تلك البلدان لغاتهم الأعجمية وحلت اللغة العربية محل الآرامية والسريانية في الشام والعراق، والقبطية في مصر، والبربرية في بلدان المغرب، ومن أهم أسباب التعريب[4]:

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 383.
(2) المصدر نفسه، ص: 384.
(3) المصدر نفسه، ص: 384.
(4) الحضارة الإسلامية، ص: 127.

1 - انتشار الإسلام:

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الإسلام بتلك السرعة والسهولة اللتين تم بهما جاء ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ، ذلك أنه لم تكد تنقضي على وفاة الرسول - ﷺ - مائة سنة حتى كان الإسلام قد ثبتت ركائزه في بلاد ممتدة من المحيط الأطلسي وشبه جزيرة أيبيريا غرباً حتى بلاد الهند وحدود الصين شرقاً، وكان لا بد أن يأتي انتشار الإسلام مصحوباً بالتعريب، لأن معتنقيه كانوا مطالبين بأداء فروضه، ومن الواضح أن النطق بالشهادتين يتطلب نطق بعض الألفاظ العربية وفهم معناها، فضلاً عن أن أداء شعائر الصلاة يتطلب معرفة فاتحة الكتاب وحفظ بعض قصار السور من القرآن الكريم، ثم إن الإسلام يطلب من المسلم الإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ على مسمع منه وترتيله وتدبر ما فيه من آيات بينات، وهذه كلها أمور ترتبط بمعرفة اللغة العربية وفهمها. وطبيعي أن يكون من المتعذر على اللغات المحلية أن تستمر فأخذت تتقلص تدريجياً، وتنكمش دائرة استعمالها لتفسح المجال أمام العربية[1].

وهناك حالات ترتبط ببلاد فتحها المسلمون وحكموها بضعة قرون ومع ذلك لم تعرب أي منهم، ونعني بهذه البلاد فارس والتركستان، فالفرس اعتنقوا الإسلام ولكنهم احتفظوا بلغتهم، وإن جاء هذا الاحتفاظ جزئياً غير كامل حيث إن اللغة الفارسية غدت تكتب وتدون بأحرف عربية من ناحية، كما أن كثيراً من الألفاظ العربية، وخاصة تلك المرتبطة بالإسلام وعلوم الدين دخلت الفارسية من ناحية أخرى[2]، وأما التركستان، فقد كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموي التي مكنت السيادة الإسلامية في ما وراء النهر، وأضافوا إلى هذه الجهود جهوداً أخرى في ميدان الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة العربية في البلاد، وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول، فقد كان قتيبة بن مسلم يبني المساجد في بخارى وسمرقند ولم تكن المساجد دُوراً للعبادة فحسب إنما كانت مدارس الثقافة العربية الإسلامية، وأتبع ذلك بتوطين القبائل العربية في المدن الكبرى، وتتابعت الجهود في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أسقط الجزية عمن أسلم وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام واستمرت هذه الجهود بعد عمر وخاصة في عهد الوالي أشرس بن عبد الله السلمي (108 - 110هـ) إذ كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية في البلاد[3].

ومع كل ذلك فإن اللغة العربية لم تستطع أن تنتشر رغم إسلام الأتراك وحماسهم الشديد له، وكل ما عمله الأتراك أنهم انتحلوا الخط العربي بحيث لا تجد تركياً على شيء من التعليم

---

(1) الحضارة الإسلامية، ص: 129.

(2) الإسلام والتعريب، سعيد عاشور، ص: 251.

(3) الإسلام والحضارة العربية، ص: 129 - 130 حسن أحمد محمود.

لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن في سهولة[1]، وهنا لا بد أن نأتي إلى تلك النتيجة المنطقية وهي أن انتشار الإسلام قد أدى إلى انتشار اللغة العربية ولكنه لم يؤد بالضرورة إلى التعريب[2] في المناطق الفارسية والتركية وغيرها.

2 - هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة:

ساعد على تعريب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة استقر معظمهم فيها، ولم يستمروا طويلاً في حالة عزلة وإنما أخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين، ولعل أول موجة نذكرها جاءت إلى مصر مع عمرو بن العاص واستمرت الهجرة في العهد الأموي وأخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين[3].

3 - تعريب الدواوين:

ومن الأمور التي ساعدت على حركة التعريب، ما قام به عبد الملك من حركة التعريب في الدواوين، فقد أدى هذا الفعل إلى تعريب اللسان ونشر الخط العربي في كل البلدان التي توالى فيها بعد ذلك نقل دواوينها إلى اللغة العربية، ذلك أن استخدام اللغة العربية في الشئون الإدارية كان وسيلة فعالة كبرى إلى نشر العلم بطراز معهود في الكتابة العربية، ومن الثابت أيضاً أن هذا الطراز لم يتم تطوره الكامل بتحقيق حروف الهجاء من أواخر القرن الأول بعد الهجرة[4].

4 - تفوق الحضارة الإسلامية:

ساعد ازدهار الحضارة الإسلامية واتساع نطاقها وتنوع آفاقها على حركة التعريب فهذه الحضارة ساهمت في كافة الميادين ذات الخبرة الإنسانية، سواء الدراسات القطرية والعملية والأطعمة والأشربة والعقاقير والأسلحة والفنون والصناعات والنشاط التجاري والبحري، وكانت اللغة العربية أداة تلك الحضارة العظيمة[5]، وقد استفاد العرب من حضارات الأمم الأخرى وقد أدى تفوق الحضارة الإسلامية إلى انتشار اللغة العربية في ربوع العالم ولكنه لم يؤد إلى التعريب[6].

5 - لغة الغالبين الفاتحين:

كانت اللغة العربية هي لغة الغالبين الفاتحين، سادة البلاد وحكامها الجدد، وثمة علاقات متبادلة بين الحاكم والمحكوم تتطلب قدراً من التفاهم المشترك الذي لا يتحقق إلا داخل إطار

---

(1) الإسلام والتعريب، ص: 255.
(2) الحضارة الإسلامية، ص: 132.
(3) المصدر نفسه، ص: 134.
(4) المصدر نفسه، ص: 136.
(5) المصدر نفسه، ص: 137.
(6) المصدر نفسه.

لغة متفق عليها بين الطرفين، ولما كان الحكام الجدد لا يعرفون لغة إلا العربية، فلم يبق أمام الشعوب التي خضعت لهم سوى تعلم العربية، هذا فضلاً عما يقال من أن ثمة عقدة نفسية عند البشر تجعل الضعيف شغوفاً بمحاكاة القوي، والمغلوب مولعاً دائماً أبداً بتقاليد الغالب[1]، وهذا القول ليس على إطلاقه فهناك أمثلة عديدة في التاريخ قبل حركة الفتوح الإسلامية وبعدها تثبت أن تحول شعوب بأكملها إلى لغة الحكام الفاتحين ونبذها لغة الآباء والأجداد ليست القاعدة في التاريخ، فاللغة العربية وإن كانت لغة غالب الفاتحين فإن ذلك لم يؤد إلى تعريب كل الشعوب، وإن أدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية في تلك البلاد المفتوحة وذلك أن الإسلام لا يجبر الشعوب على ترك لغتها وأعرافها وعاداتها ما لم تخالف الشرع[2]. هذه هي أهم الأسباب التي ساهمت في انتشار اللغة العربية وحركة التعريب في بعض البلدان المفتوحة.

رابعاً: الحرص على سلامة الجيوش:

كان عبد الملك بن مروان يوصي قادته بالحذر من البيات والتيقظ والحرص على سلامة العسكر بإقامة الحرس فكان قادته لا يسيرون ولا ينزلون إلا على تعبئة ويتخذون في نزولهم الخنادق والمسالح بكل مكان مخوف والأرصاد على العقاب والشعاب[3]، واهتم عبد الملك بجمع الأخبار عن العدو، فلا يسير له جيش إلا وقد سبقته العيون لترصد أخبار العدو، واستطاع قادته استمالة بعض أبناء البلاد المفتوحة ليكونوا عيوناً لهم يقدمون لهم المعلومات الصحيحة عن تحركات العدو، واستعانوا أيضاً بالتجار في هذه المهمة[4]، فكل قادة الفتح لهم عيون يجمعون لهم المعلومات على الأعداء، وهذا دليل على حرص القيادة على سلامة جنودها وجيوشها.

خامساً: أهمية الشورى في إدارة الصراع:

ومما أوصى به الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز عندما أبقاه على ولاية مصر قوله: «وإذا انتهى إليك مشكل، فاستظهر عليه بالمشورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة، واعلم أن لك نصف الرأي ولأخيك نصفه ولن يهلك امرؤ عن مشورة»[5]. كما أوصى أحد قواده بقوله: «لا تستعن في أمر دهمك برأي كذاب ولا معجب، فإن الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب، وأما المعجب فليس له رأي صحيح ولا رواية تسلم»[6]، ومما قاله عبد

---

(1) الحضارة الإسلامية، ص: 138.
(2) المصدر نفسه، ص: 139.
(3) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 198).
(4) المصدر نفسه (1/ 407).
(5) تاريخ ابن خلدون، نقلاً عن الإدارة العسكرية (1/ 282).
(6) المنهج المسلوك للشيرازي، ص: 490.

الملك في المشورة: «لأن أخطئ وقد استشرت أحب إليّ من أن أصيب وقد استبددت برأي وأمضيته من غير مشورة، لأن المقدم على رأيه يزري به أمران: تصديقه رأيه الواجب عليه تكذيبه وتركه من المشورة ما يزداد به بصيرة»[1]، وعندما تحركت الروم بأرض القسطنطينية حيث عزموا على غزو المسلمين وبلغ أمرهم عبد الملك بن مروان نادى في أهل الشام وجمعهم في المسجد الأعظم ثم صعد المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن العدو قد كلب عليكم وطمع فيكم وهنتم عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي[2]؟ وهنا نجد أن الخليفة عبد الملك بن مروان شاور المسلمين في مرحلة الإعداد والإقرار، فيبرز بذلك مبدأ الشورى في اتخاذ القرار العسكري في الإدارة العسكرية الأموية وأخذ قادة الخليفة عبد الملك بن مروان يعملون بالمشورة فيما بينهم في إدارتهم للمعارك الحربية وبين القيادة العليا المركزية[3]، وحين حضرت الخليفة عبد الملك الوفاة أوصى أبناءه بقوله: «وانظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز فاصدروا عن رأيه ولا تَخَلَّوا عن مشورته اتخذوه صاحباً لا تجفوه، ووزيراً لا تعصوه فإنه من علمتم فضله ودينه وذكاء عقله فاستعينوا به على كل مهم، وشاوروه في كل حادث»[4]. وبانتقال الخلافة إلى ابنيه الوليد وسليمان سلكا نهجه في إدارتهما العسكرية بمبدأ الشورى وأخذهما بها لدى فتوحاتهم الإسلامية في مرحلة الإعداد والإقرار أو التخطيط والتنفيذ[5].

سادساً: الاهتمام بالحدود البرية:

اهتم الخليفة عبد الملك بالحدود البرية، فقام ببناء عسقلان وحصّنها ورمَّم قيسارية، وبنى بها بناءً كثيراً وبنى مسجدها، وقام بتجديد وترميم صور وعكا وأردبيل وبرذعه لما لهذه الثغور من أهمية حربية[6]، وبنى واليه الحجّاج بن يوسف مدينة واسط كقاعدة عسكرية تتوسط بين الأهواز والبصرة والكوفة بمقدار واحد قدره خمسون فرسخاً وذلك أنه كان حينما يريد غزو خراسان ينزل جيش الشام على أهل الكوفة فكانوا يتأذون منهم فبنى واسطا كمعسكر لهم ولقد لعبت دوراً مهماً في عملية الإمداد لثغور المشرق[7]، وفي عهد عبد الملك فتح حصن سنان[8] من بلاد الروم حيث استفاد منه بشحنه بالجند لحماية الحدود[9]، واهتم عبد الملك في إدارته

(1) المنهج المسلوك للشيرازي، ص: 481، الإدارة العسكرية (1/ 283).
(2) الفتوح لابن أعثم (4/ 122).
(3) الإدارة العسكرية (1/ 283).
(4) المصدر نفسه (1/ 284).
(5) الإدارة العسكرية (1/ 284).
(6) شذرات الذهب (1/ 95) الإدارة العسكرية (2/ 479).
(7) الإدارة العسكرية (2/ 479).
(8) حصن في بلاد الروم فتحه عبد الله بن عبد الملك.
(9) الإدارة العسكرية (2/ 480).

العسكرية بحملات الصوائف والشواتي، فكان يوليها كبار رجالات البيت الأموي، مما يدل على حرصه وعنايته في حماية وتأمين حدود الدولة الإسلامية ضد هجمات الأعداء، وكان من هؤلاء الأمراء ابنه الوليد، ومن أمراء البيت الأموي الذين تولوا حملات الصوائف والشواتي لعدة سنوات أخو الخليفة عبد الملك محمد بن مروان والذي له الأثر الجميل في مباشرة تحصين وإنشاء حصن المصيصة وشحنه بالجند وبنائه لطرندة وتعزيزه إياها بالعسكر، وابنه مسلمة بالإضافة إلى كبار القادة أمثال: يحي بن الحكم وعثمان بن الوليد وغيرهما[1]، واهتم الخليفة الوليد بالحدود البرية وقام بتحصينات ثغرية كالتي أنشأها بالثغور الشامية على الخط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط لحماية حدود الدولة الإسلامية من هجمات الروم واستحداثه لأربع نقاط حصينة هي حصن سلوقية[2]، وإقطاعه الجند للأراضي بها لتعميرها وإلصاقهم بالثغر وحصن بغراس وعين السلور[3]، وبحيرتها والإسكندرونة[4]، فأصبح هذا الخط الساحلي أكثر مناعة وحصانة في عهده من قبل[5]،وقام بفتح حصون كثيرة ثم شحنها بالجند المرابطين منها حصن طوانة[6] وغيرها من الحصون، واهتم الوليد بالطرق الموصلة إلى الثغور وقام بتسهيلها وتأمينها وبنى بها القناطر لعبور الجند عليها في حملاتهم الصائفة والشاتية[7] واستمر والي العراق من قبل الوليد الحجّاج بن يوسف بتحصين ثغور المشرق وعمل المراصد بها وبناء القواعد العسكرية فيها كخوارزم[8]، وشيراز وخراسان وغيرها من ثغور المشرق[9]، واستمر الخليفة سليمان على نهج والده وأخيه في الاهتمام بالحدود البرية[10].

سابعاً: الأثر الاقتصادي والاجتماعي للفتوحات:

من الآثار الاقتصادية والاجتماعية في عهد الخليفة عبد الملك للفتوحات ظهور التجار برفقة العسكر لشراء بعض ما يغنمه الجند من العدو، فبذلك تنشط الحركة التجارية وتزدهر، كما أنه أثناء سير العسكر نحو العدو وحين يصادف مرورهم بالمدن والقرى المتواجدة في طريقهم يقومون بشراء احتياجاتهم[11] منها، وكان والي مصر عبد العزيز بن مروان ومن قبل

---

(1) تاريخ اليعقوبي (2/ 281) الإدارة العسكرية (2/ 481).
(2) سلوقية : حصن عند الساحل بأرض الروم (تركيا).
(3) عين السلور: قرب أنطاكية، السلور: السمك البحري.
(4) إسكندرونة : مدينة شرق انطاكية.
(5) الإدارة العسكرية (2/ 483).
(6) طوانة : بلد بثغور المصيصة، معجم البلدان (4/ 45).
(7) الإدارة العسكرية (2/ 483).
(8) المصدر نفسه (2/ 485).
(9) المصدر نفسه (2/ 486).
(10) المصدر نفسه (2/ 487).
(11) تاريخ الطبري، نقلاً عن الإدارة العسكرية (2/ 775).

عبد الملك يحفر الخلجان بها، وكانت له بمصر ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ومائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على عجل من أجل الإطعام[1]، وحين انتقلت الخلافة إلى الوليد كانت إدارته من أفضل الإدارات في تقديم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع، وسيأتي عنها الحديث في محلها بإذن الله تعالى. هذه هي أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد عبد الملك وبنيه.

المبحث الخامس

ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها ووصية عبد الملك لأولاده ووفاته

أولاً: ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها:

عقد مروان بن الحكم ولاية العهد لابنيه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز بعد عودته من مصر، وبعد وفاته سنة 65هـ تولى عبد الملك الحكم، وكانت العلاقة التي تربط بين الخليفة وأخيه وولي عهده عبد العزيز يسودها الصفاء، ولم يتوان الأخير عن خدمة الخلافة طيلة حياته وبعد أن مضى ما يقارب عشرين سنة على هذه الحال بدأت تظهر فكرة تحويل ولاية العهد من عبد العزيز إلى الوليد وأخيه سليمان ابني الخليفة، وقد تباينت الروايات في ذكرها لمن أشار بأمر الخلع ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فعلى ما يبدو أن الخليفة عبد الملك بعد أن ظهرت هذه الفكرة لديه كتب إلى أخيه يطلب منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، فأبى عبد العزيز وأراد عبد الملك أن ينتقم من عبد العزيز ويضيق عليه[2]، فكتب عبد العزيز إلى أخيه: يا أمير المؤمنين إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً. وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولاً فإن رأيت ألا تغثث علي بقية عمري فافعل. فقال الخليفة عبد الملك: لعمري لا أغثث عليه بقية عمره، وقال لابنيه: إن يرد الله أن يعطيكموها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك[3]، وحسم موت عبد العزيز الخلاف مع أخيه وعقد عبد الملك بيعة ولاية العهد للوليد وسليمان من بعده، وأمر ولاته في جميع الأمصار بأخذ البيعة لهما، فكان موقف سعيد بن المسيب هو الامتناع عن البيعة لأن ذلك التزام بسنة النبي ﷺ في نظره لأنه نهى عن البيعة لاثنين، فلا بد من تنفيذ ذلك، مهما كلفه الامتناع من ثمن باهظ. قال عمران بن عبد الله: دعي سعيد للبيعة للوليد وسليمان بعد عبد

---

(1) الولاة للكندي، ص: 313، الإدارة العسكرية (2/ 776).

(2) عبد العزيز بن مروان، بديع محمد الدليمي، ص: 206 إلى 209.

(3) تاريخ الطبري (7/ 313).

الملك بن مروان فقال: لا أبايع لاثنين ما اختلف الليل والنهار. قال: فقيل له: أدخل من الباب واخرج من الباب الآخر، قال: والله لا يقتدي بي أحد من الناس[1].

وكان حجة سعيد بن المسيب في امتناعه عن البيعة أنه لا يجوز أن يبايع لاثنين بالخلافة في آن واحد[2]. وقال عبد الرحمٰن بن عبد القاري، لسعيد بن المسيب حين قدمت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة من بعد أبيهما: إني مشير عليك بخصال ثلاث، قال: وما هي؟ قال: تعتزل مقامك، فإنك هو وحيث يراك هشام بن إسماعيل - والي المدينة - قال: ما كنت لأغيّر مقاماً قمته منذ أربعين سنة. قال: تخرج معتمراً؟ قال: ما كنت لأنفق مالي، وأجهد بدني في شيء ليس فيه نيّة. قال: فما الثالثة؟ قال: تبايع. قال: أرأيت إن كان الله أعمى قلبك، كما أعمى بصرك. قال: فما علي![3] - وكان أعمى - قال رجاء بن جميل الإيلي: فدعاه هشام إلى البيعة، فأبى فكتب فيه إلى عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك: مالك ولسعيد؟، ما كان علينا منه شيء نكرهه، فأما إذا فعلت فاضربه ثلاثين سوطاً، وألبسه تُبَّان[4] شعر، وأوقفه للناس[5].

وكان للفقيه الكبير قبيصة بن ذؤيب دور في ندم الحكام على صنيعهم، ولام الخليفة على ما فعل بابن المسيب وتم إخلاء سبيله من السجن من قبل والي المدينة الذي سجنه وجلده[6].

فهذا هو موقف سعيد بن المسيب وتمسكه بفتواه فقد رفض بشدة الخضوع للسلطان وخداع الأمة، فهو يرى أن امتناعه عن البيعة، إذا لم يعلمه الناس فلا جدوى منه فلا بد للعالم والفقيه أن يبين ما يحدد موقفه[7]، وكان سعيد بن المسيب عنده أمر عظيم من بني أمية وسوء سيرتهم وكان لا يقبل عطاءهم[8]، وقد اختلف المؤرخون في أمر سعيد بن المسيب، بأن والي المدينة هو الذي عرض سعيد للعقوبة بدون أمر عبد الملك، والبعض الآخر قال: بأن عبد الملك هو الذي أمر، فالذي يهمنا هنا هو موقف سعيد من ولاية العهد للوليد وسليمان وتعرضه للعقوبة والمحنة، مما زاد من حدة الخلاف بينه وبين بني مروان وأسهم في توسيع الفجوة في علاقته بهم وولاتهم[9]، وكانت له مواقف صلبة أمام عبد الملك وابنه الوليد من بعده[10]، ويلحظ المتمعن في خلاف سعيد بن المسيب رحمه الله لبني أمية

(1) سعيد بن المسيب سيد التابعين، ص: 157، سير أعلام النبلاء (4/ 231).
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 231).
(3) المصدر نفسه (4/ 231).
(4) التبان : سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 231).
(6) سعيد بن المسيب سيد التابعين، ص: 161.
(7) الفقهاء والخلفاء، سلطان حثلين، ص: 70.
(8) سير أعلام النبلاء (4/ 228).
(9) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 378.
(10) سير أعلام النبلاء (4/ 226، 227).

وولاتهم التزامه بآداب جمة يجدر الوقوف عندها وتأملها للإفادة منها، ومن أهم تلك الآداب ما يلي:

1 - إنه على الرغم مما حدث بينه وبين بعض خلفاء بني أمية وولاتهم فإنه يعترف بإمامتهم وشرعية خلافتهم، فهو يعترف لعبد الملك بن مروان وابنه الوليد بإمرة المؤمنين، كما ورد ذلك في قوله لحاجب عبد الملك حين دعاه لمقابلة عبد الملك فقال سعيد: ما لأمير المؤمنين[1] حاجة. وكذلك قالها للوليد حين قدم المدينة ودخل المسجد مع عمر بن عبد العزيز ودار فيه مع عمر حتى قربا من سعيد بن المسيب ووقفا عليه، فقال الوليد لسعيد: كيف أنت أيها الشيخ؟ فقال سعيد: خير والحمد لله. فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فقال عمر: أجل يا أمير المؤمنين[2]. كما أنه على الرغم من ما صنع به والي المدينة - هشام بن إسماعيل - فإنه كان يصلي خلفه، وكل ما فعله مقابل إساءته له أن قال: الله بيني وبين من ظلمني أو منهم انصرني من هشام[3]، وكان يمتثل أوامرهم فيه، فحين أخرج من السجن نهوا أن يجالسه أحد، فكان إذا أراد أحد أن يجالسه قال: إنهم قد جلدوني، ومنعوا الناس أن يجالسوني[4].

2 - ومن أدب خلافه أنه لم يشغل نفسه بسب بني أمية أو ولاتهم، أو التعرض لهم بالقدح وإثارة الناس عليهم، فحين قيل له: ادع على بني أمية، قال: اللّهم أعز دينك وأظهر أولياءك وأخز أعداءك في عافية لأمة محمد ﷺ[5].

3 - كما لم يدفعه كرهه لبني أمية أن يضع يده مع كل معارض لهم ويسعى لتأييده نكاية بالأمويين.

4 - وعلى الرغم من كرهه القرب من خلفاء بني أمية - لاسيما بني مروان منهم - وربما انتقاده لبعض العلماء الذين خالطوهم كقبيصة بن ذؤيب والزهري، على الرغم من ذلك لم يمتدّ كرهه لهذا العمل من العلماء ليشمل نظرته وتقويمه لهم، بل كان يقدر لهم عملهم واجتهادهم، فروى عنه قوله في الزهري: ما مات من ترك مثلك[6]. فانظر إلى هذا الأدب في الخلاف بين العلماء حين يختلفون في قضية من القضايا أو موقف من المواقف، فإنه لا يمتد هذا الخلاف ليفسد ذات بينهم أو يشعل فتيل التهم فيما بينهم[7].

وقد استطاع عمر بن عبد العزيز حين تولى الحجاز في عهد الوليد أن يحسن التعامل مع العلماء بشكل عام وقدر لهم قدرهم وجعلهم مستشاريه، وخص سعيداً بمزيد من التقدير

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 227).
(2) تاريخ الإسلام للذهبي، نقلاً عن أثر العلماء، ص: 389.
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 230) الطبقات (5/ 126).
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 232).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 232).
(6) سير أعلام النبلاء (5/ 337).
(7) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 390.

والاحترام، ونتيجة لحسن معاملة عمر بن عبد العزيز له تجاوب سعيد معه، قال ابن كثير: وكان سعيد لا يأتي أحد من الخلفاء وكان يأتي عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة، ومرة أرسل عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى سعيد ليسأله في مسألة فأخطأ الرسول فدعاه فلما جاء سعيد قال عمر: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك[1]. فانظر كيف كان حرص عمر على تقديره، وانظر أيضاً كيف سارع سعيد إلى المجيء إليه تقديراً له[2]. كان عالم المدينة وسيد التابعين مدرسة في الأخلاق والقيم والمبادئ ومن حياته يستفاد دروس وعبر وفوائد منها:

1 - تزويجه ابنته:

خطب عبد الملك ابنة سعيد لابنه الوليد، فأبى عليه[3]، وزوّج سعيد ابنته لابن أبي وداعة أحد تلاميذه، فعن ابن أبي وداعة - قال: كنت أجالس سعيد بن المسيِّب ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: تُوُفِّيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها، ثم قال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوِّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا، فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، ثم تحمَّد وصلَّى على النبي ﷺ وزوّجني على درهمين - أو قال: ثلاثة، فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلي وجعلت أتفكر فيمن أستدين. فصليتُ المغرب، ورجعت إلى منزلي، وكنت وحدي صائماً، فقدمت عشائي أُفطر وكان خبزاً وزيتاً، فإذا بابي يقرع فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. فأفكرت في كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيِّب، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجت، فإذا سعيد، فظننت أنه قد بدا له فقلت: يا أبا أحمد ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ قال: لا أنت أحق أن تؤتى، إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب، وردَّ الباب. فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم وضعت القصعة في ظلِّ السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران، فجاؤوني فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم. ونزلوا إليها وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أُصلحها إلى ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج، فمكثت شهراً لا آتي سعيد بن المسيب ثم أتيته وهو في حلقته فسلَّمت، فردَّ عليَّ السلام، ولم يُكلمني حتى تقوَّض المجلس، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خير يا أبا محمد، على ما يحب الصديق، ويكره العدو، قال: إن رابك شيء فالعصا. فانصرفت إلى منزلي، فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم[4].

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن أثر الحياة السياسية، ص: 392.

(2) أثر الحياة السياسية، ص: 392.

(3) سير أعلام النبلاء (4/ 233).

(4) سير أعلام النبلاء (4/ 234).

2 - معرفته بتأويل الرؤى:

كان سعيد من أعبر الناس للرؤيا أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر الصِّديق وأخذته أسماء عن أبيها[1]، وعن عمر بن حبيب بن قُليع قال: كنت جالساً عند سعيد بن المسيِّب يوماً، وقد ضاقت بي الأشياء ورهقني دين، فجاءه رجل، فقال: رأيت كأنّي أخذت عبد الملك بن مروان، فأضجعته إلى الأرض، وبطحته فأفندت في ظهره أربع أوتاد. قال: ما أنت رأيتها قال: بلى. قال: لا أخبرك أو تخبرني قال: ابن الزبير رآها، وهو بعثني إليك قال: لئن صدقت رؤياه قتله عبد الملك، وخرج من صُلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة. قال: فرحلت إلى عبد الملك بالشام فأخبرته، فسُرَّ، وسألني عن سعيد بن المسيِّب وعن حاله فأخبرته وأمر بقضاء ديني وأصبت منه خيراً[2]. وعن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: قال رجل: رأيت كأنّ عبد الملك بن مروان يبول في قبلة مسجد النبي ﷺ أربع مرار. فذكرت ذلك لسعيد بن المسيِّب، فقال: إن صدقت رؤياك قام فيه من صلبه أربعة خلفاء[3]. وعن عمران بن عبد الله، قال: رأى الحسن بن علي كأن بين عينيه مكتوب ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فاستبشر به، وأهل بيته، فقصُّوها على سعيد بن المسيِّب، فقال: إن صدقت رؤياه فقلَّما بقي من أجله، فمات بعد أيام[4].

3 - من كلام سعيد بن المسيب:

قال: ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء[5]، ثم قال لنا سعيد - وهو ابن أربع وثمانين سنة - قد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: ما شيء أخوف عندي من النساء[6]، وقال: لا تقولوا مصيحف ولا مسيجد، ما كان لله فهو عظيم حسن جميل[7]، وقال: لا خير في من لا يُريد جمع المال من حلِّه، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس[8]، فقال: من استغنى بالله، افتقر الناس إليه[9]. وقال برد مولى بن المسيب لسعيد بن المسيب: ما رأيت ما أحسن ما يصنع هؤلاء! قال سعيد: وما يصنعون؟ قال: يصلي أحدهم الظهر، ثم لا يزال صافاً رجليه حتى يصلي العصر. فقال: ويحك يا برد أما والله ما هي العبادة، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والكف عن محارم الله[10]. وقال: ما خفت على نفسي شيئاً مخافة النِّساء، قالوا: يا أبا محمد إنَّ مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء، فقال: هو ما أقول لكم. وكان شيخاً كبيراً أعمش[11].

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 235).
(2) المصدر نفسه (3/ 235).
(3) المصدر نفسه (3/ 236).
(4) المصدر نفسه (3/ 237)
(5) المصدر نفسه (3/ 237).
(6) المصدر نفسه (3/ 237).
(7) المصدر نفسه (3/ 238).
(8) المصدر نفسه (3/ 238).
(9) المصدر نفسه (3/ 239).
(10) المصدر نفسه (3/ 241).
(11) المصدر نفسه (4/ 241).

4 - دعاء مستجاب:

عن علي بن يزيد قال: قال لي سعيد بن المسيِّب: قل لقائدك يقوم فينظر إلى وجه هذا الرجل وإلى جسده، فقام، وجاء فقال: رأيت وجه زنجيٍّ وجسده أبيض. فقال سعيد: إن هذا سبَّ طلحة والزبير وعلياً ﷺ، فنهيته فأبى، فدعوت الله عليه، قلت: إن كنت كاذباً فسود الله وجهك، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه[1].

توفي رحمه الله عام 94هـ، وسميت السنة التي مات فيها سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها[2]. ولما اشتد به الوجع دخل عليه نافع بن جبير يعوده، فأغمي عليه فقال نافع: وجِّهوه، ففعلوا، فأفاق فقال: من أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة، أنافع؟ قال: نعم. قال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة والله لا ينفعني توجيهكم فراشي[3].

ثانيا: وصية عبد الملك لأولاده ووفاته:

لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصاراً - أي: غسالاً - بالوادي، فقال: ما هذا قالوا: قصار، فقال: يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي، فلما بلغ ذلك سعيد بن المسيِّب قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موته يفرون إلينا ولا نفر إليهم[4].

1 - ولما حضره الموت جعل يندم ويندب ويضرب بيده على رأسه ويقول: وددت لو أكتسب قوتي يوماً بيوم واشتغلت بعبادة ربي[5].

2 - وقيل له لما حضره الموت: كيف تجدك؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[6] [الأنعام: 94].

3 - وقيل إنه لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم فقال: الحمد لله الذي لا يسأل أحداً من خلقه صغير أو كبيراً، ثم أنشد:

فهل من خالد إما هالكنا ... وهل بالموت للباقين عار

وقيل: إنه قال: ارفعوني، فرفعوه حتى شم الهواء وقال: يا دنيا ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنا بك لفي غرور، ثم تمثل بهذين البيتين:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب ... عذاباً لا طوق لي بالعذاب

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 242).
(2) المصدر نفسه (4/ 245).
(3) المصدر نفسه (4/ 245).
(4) البداية والنهاية (12/ 395).
(5) المصدر نفسه (12/ 395).
(6) المصدر نفسه (12/ 394).

أو تـجـاوز فـأنـت رب صـفـوح عـن مـسـيء ذنـوبـه كـالـتـراب[1]

وخطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة، ثم قطعها وبكى بكاءً شديداً، ثم قال: يا رب إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي، فبلغ ذلك لقول زاهد العراق الحسن البصري فبكى وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا لكلام[2]، وقال الشعبي: خطب عبد الملك، فقال: اللهمّ إن ذنوبي عظام وهي صغار في جنب عفوك يا كريم، فاغفرها لي[3].

4 - جاء ابنه الوليد بباب المجلس وهو غاص بالنساء، فقال: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ قيل له: يُرجى له العافية وسمع عبد الملك ذلك فقال:

وكـم سـائـل عـنـا يـريـد لـنـا الـرَّدى وكـم سـائـلات والـدمـوع ذوارف

ثم أمر النساء فخرجن وأذن لبني أمية فدخلوا عليه وفيهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية فقال لهما: يا بني يزيد أتحبان أن أقيلكما بيعة الوليد؟

قالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين. قال: لو قلتما غير ذلك لأمرت بقتلكما على حالتي هذه. ثم خرجوا عنه واشتد وجعه، فتمثل ببيت أمية بن الصَّلت:

لـيـتـنـي كـنـت قـبـل مـا قـد بـدا لـي فـي قـلال الـجـبـال أرعـى الـوعـولا[4]

*** وصية عبد الملك لابنه الوليد عند موته تدل على حزمه:**

لما احتضر عبد الملك دخل ابنه الوليد فبكى، وقال له عبد الملك: ما هذا؟ أن حنين الجارية والأمة، إذا مت فشمر واتزر، والبس جلد النمر وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشاً:

1 - يا وليد: اتّقِ الله فيما استخلفك فيه، واحفظ وصيتي.

2 - انظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه.

3 - وانظر إلى أخي محمد فأمِّره على الجزيرة ولا تعزله عنها.

4 - انظر إلى ابن عمنا علي بن عباس، فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمه، واعرف حقه.

5 - وانظر إلى الحجّاج بن يوسف فأكرمه، فإنه هو الذي مهد لك البلاد، وقهر الأعداء، وخلص لك الملك وشتت الخوارج.

(1) البداية والنهاية (12/ 396).
(2) المصدر نفسه (12/ 391).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 249).
(4) الأخبار الطوال، ص: 296.

6 - وأنهاك وإخوتك عن الفرقة، وكونوا أولاد أمٍ واحدة، وكونوا في الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه، ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل، ولله در القائل:

إن الأمــور إذا اجـتـمـعـنـا فـرامـهـا بـالـكـسـر ذو حـنـقٍ وبـطـشٍ مـفـنـد
عـزت فـلـم تـكـسـر وإن هـي بـددت فـالـكـسـر والـتـوهـيـن لـلـمـتـبـدد

7 - ثم قال: إذا أنا مت فادعو الناس إلى بيعتك، ومن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك فأكرمهن، وأحبهن إليَّ فاطمة، وكان قد أعطاها قرطي ماريا، والدرة اليتيمة، ثم قال: اللهم احفظني فيها[1]، وكان قد تزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها.

ـ وصيته لبنيه:

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة دعا بنيه، فأوصاهم فقال:

1 - يا بني: أوصيكم بتقوى الله، فإنها أحصن كهف وأزين حلة، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير.

2 - وإياكم والاختلاف والفرقة، فإنها بها هلكة الأولون قبلكم، وذل ذو العدد والكثرة.

3 - وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه جنتكم الذي به تستجنون، ونابكم الذي عنه تفترون.

4 - أكرموا الحجّاج، فإنه وطأ لكم المنابر، وكونوا عند القتال أحراراً وعند المعروف مناراً، وكونوا بني أم بررة، احلولوا في مرارة ولينلوا في شدة، ثم رفع رأيه إلى الوليد فقال:

5 - يا وليد: لأعرفنكم إذا وضعتني في حفرتي تمسح عينيك وتعصرهما فعل الأمة، ولكن إذا وضعتني في حفرتي فشمر واتزر، والبس جلد النمر، ثم اصعد المنبر فادعو الناس إلى البيعة، من قال كذا فقل كذا[2].

★ وفاته ودفنه:

كان عبد الملك يقول: ولدت في رمضان، وفطمت في رمضان، وختمت القرآن في رمضان، وأتتني الخلافة في رمضان، وأخشى أن أموت في رمضان، فلما دخل شوال وأمن مات[3]، مات بدمشق سنة 86 هـ يوم الجمعة وقيل الأربعاء، وصلى عليه ابنه الوليد ولي عهده

(1) البداية والنهاية (12/ 392، 393).
(2) المعمرون والوصايا، ص: 160، نقلاً عن وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة، ص: 97، تاريخ ابن عساكر (66/ 126).
(3) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (2/ 22).

من بعده، وكان عمره يوم مات ستين سنة، وقيل ثلاث وستين سنة وقيل ثمان وخمسين سنة[1]، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير[2]، وكان نقش خاتمه (آمنت بالله مخلصاً)[3]، وانفرد بالخلافة منذ مقتل ابن الزبير إلى وفاته، والصحيح أنه لما مات كان عمره ستين سنة حيث ولد عام ستة وعشرين هجرية[4].

المبحث السادس

خلافة الوليد بن عبد الملك: ٨٦ إلى ٩٦هـ

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، الأموي الدمشقي، بويع بعهد من أبيه، وكان مترفاً دميماً، قليل العلم نهمته في البناء، أنشأ جامع بني أمية وأنشأ أيضاً مسجد رسول الله ﷺ وزخرفه ورزق في دولته سعادة، ففتح بوابة الأندلس وبلاد الترك، وكان لُحَنَةً وحرص على النحو أشهراً فما نفع، وغزا الروم مرات في دولة أبيه وحج، وقيل كان يختم في كل ثلاث، وختم في رمضان سبعة عشرة ختمة، وكان يقول: لولا أن الله ذكر قوم لوط ما شعرت أن أحداً يفعل ذلك. وكان فيه عسف وجبروت، وقيام بأمر الخلافة، وقد فرض للفقهاء والأيتام والزّمنى والضعفاء وضبط الأمور[5].

أولاً: أهم أعماله الحضارية والإنسانية:

1 - توسيع المسجد النبوي:

كان الوليد بن عبد الملك من أشهر خلفاء بني أمية، وهو أكثرهم عناية بالبناء والعمران حتى لقب مهندس بني أمية، وأراد الوليد أن يبني المسجد النبوي ويشيده بما يليق به وبعظمة الخلافة في عهده، فصمم على تنفيذ ذلك المشروع وهو توسعة المسجد النبوي، وأدخل حجر أمهات المؤمنين وحجرة فاطمة وحجرة عائشة رضي الله عنهن جميعاً في المسجد، إضافة إلى أن المؤرخين قد ذكروا أن بعض جدران الحجرة قد بدأ فيه الخلل نتيجة القدم[6]، وعندما وصل خطابه بذلك إلى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء العشرة[7] ووجوه الناس وأخبرهم بما أمر به الوليد فأنكروا ذلك وكرهوه، ورأوا أن بقاء بيوت النبي ﷺ على حالها أدعى للعبرة والاتعاظ[8]،وقد قال الفقهاء: هذه حجر قصيرة السقوف وسقوفها من

(1) البداية والنهاية (12/ 396).
(2) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (2/ 23).
(3) تاريخ القضاعي، ص: 347.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 246).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 348، 349).
(6) الشامل في تاريخ المدينة (1/ 396)، القبورية في اليمن، ص: 71.
(7) البداية والنهاية (12/ 414).
(8) البداية والنهاية (12/ 414).

جريد النخل وحيطانها من اللبن وعلى أبوابها المسوح، وتركها على حالها أولى ينظر فيها الحُجّاج والزوار والمسافرون إلى بيوت النبي ﷺ فينتفعوا بذلك ويعتبرون به، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة، وهو ما يستر ويكن، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما من أفعال الفراعنة والأكاسرة، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها. فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة المتقدم ذكرهم، فأرسل إليه يأمره بتجديد البناء، كما أراد الوليد، ويحكى أن سعيد بن المسيِّب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجداً[1]. ومن الأعمال التي مهدت للبدع حول القبور من البناء عليها والصلاة إليها ودعاء الأموات، إدخال حجرة النبي ﷺ في ناحية المسجد في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وزخرفته وتزيينه بالفسيفساء[2]، ثم تدرج الحال إلى إدخال جميع الحجرة في المسجد، ثم البناء عليها، وبناء القبة، ثم اتخاذها مصلى واتخاذها ذريعة للبناء على القبور واتخاذها مساجد، والوقوع فيما حذر فيه الرسول ﷺ في قوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذر مما صنعوا[3]. وقال ﷺ: «**ألا لا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[4]، وقد بنى التابعون على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر في المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدي إلى المحظور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن من استقبال القبر[5]. هذا ما فعله أهل العلم وأولو الأمر عندما اضطروا إلى ذلك ستراً للقبر ستراً كاملاً، فلا ينظر، ولا يتمكن أحد من الصلاة إليه، وما ذلك إلا أنهم فهموا الأحاديث الناهية عن الصلاة على القبور وإليها وعن اتخاذ القبور مساجد، وفهم العلة في ذلك النهي فعملوا على إزالة تلك العلة وفي هذا أبلغ رد على شبهة بعض الناس الذين يحتجون بأن قبر النبي ﷺ في مسجده[6]، وقد كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجري ماءها ففعل، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته[7].

2 - بناء المسجد الأموي:

قال ابن كثير في حوادث عام 96هـ: فيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق، وهم

(1) البداية والنهاية (12/ 415).
(2) دراسة في الأهواء والفرق والبدع، ص: 250.
(3) البخاري، رقم: 435، 436.
(4) مسلم، رقم: 532.
(5) شرح مسلم (5/ 12 إلى 13).
(6) القبورية في اليمن، ص: 73.
(7) البداية والنهاية (12/ 415).

الذين وضعوها وعمروها أولاً . . . ثم إن النصارى حولوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظماً عند اليونان، فجعلوه كنيسة واستمر النصارى على دينهم هذا بدمشق وغيرها نحو ثلاثمائة سنة حتى - جاء الإسلام - وعندما صارت الخلافة إلى الوليد عزم على تحويلها إلى مسجد، بعد أن تفاوض مع النصارى وقام بترضيتهم مقابل عروض مغرية[1]. ثم أمر الوليد باحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء من رؤساء الناس وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن. فقال: أنا أحب أن أجن في الله عَزَّوَجَلَّ والله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي[2]، ثم صعد المنارة ثم إلى أعلى مكان من الكنيسة وضرب بها في أعلى حجر فألقاه، فتبادر الأمراء إلى الهدم[3]، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى في تربيع هذا المكان من المذابح والأبنية. . ثم شرع في بنائه وقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثير من الصناع والمهندسين والفعلة، وكان المستحث على عمارته أخوه، وولي عهده من بعده سليمان بن عبد الملك[4]، وقد أنفق في مسجد دمشق أربعمائة صندوق في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وفي رواية: في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار. قلت: فعلى الأول يكون ذلك خمسة آلاف وألف دينار وستمائة ألف دينار، وعلى الثاني يكون المصروف في عمارة الجامع الأموي أحد عشر ألف ألف دينار، ومائتي ألف دينار[5]، وقد نقل إلى الوليد بأن الناس يقولون: أنفق الوليد أموال بيت المال في غير حقها، فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد الوليد المنبر وقال: إنه بلغني عنكم إنكم قلتم: أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها. ثم قال: يا عمر بن مهاجر، قم فاحضر أموال بيت المال، فحملت على البغال إلى الجامع وبسطت الأنطاع تحت القبة ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيباً وفضة خالصة حتى صارت كوماً حتى كان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر وهذا شيء كثير، فوزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، وفي رواية: ستة عشرة سنة مستقبلة، ولو لم يدخل للناس شيء بالكلية - ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عَزَّوَجَلَّ على ذلك، ثم قال الوليد: يا أهل دمشق إنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع فاحمدوا الله تعالى. وانصرفوا شاكرين داعين[6]. ولم يكن على وجه الأرض بناء أحسن من الجامع الأموي حين كمل بناؤه، ولا أبهى ولا أجل منه، بحيث أنه إذا نظر الناظر إليه، أو إلى أي جهة منه، أو إلى أي بقعة أو مكان منه، تحير فيما ينظر إليه لحسنه جميعه، ولا يمل ناظره، بل كلما أدمن النظر، بانت له أعجوبة ليست كالأخرى[7].

(1) البداية والنهاية (12/ 566 - 567).
(2) المصدر نفسه (12/ 569).
(3) المصدر نفسه (12/ 569).
(4) المصدر نفسه (12/ 570).
(5) البداية والنهاية (12/ 575).
(6) المصدر نفسه (12/ 576).
(7) المصدر نفسه (12/ 579).

3 - المستشفيات في عهد الوليد:

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك أول من أسس مستشفى خاصاً بالمجذومين وذلك سنة 88هـ، وجعل فيه أطباء مهرة، وأجرى عليهم الأرزاق، وأمر بعزلهم عن الأصحاء كي لا تنتقل العدوى من المصابين إلى الأصحاء، وهذا ما يعرف في التاريخ بدور المجذومين[1]. يقول الأستاذ الدكتور أحمد شوكت الشطي: . . أول مؤسسة عرفت هي مجذمة الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة 88هـ، ثم تعددت الملاجئ بعد ذلك في مختلف البلاد العربية لبذل العناية الإنسانية لهؤلاء التعساء، وتعد المجاذم العربية أول دور عولج فيها المصابون بالجذام معالجة فنية[2]، ويقول أحمد عيس بكر: قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي: إن أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى الوليد بن عبد الملك وهو سادس خلفاء بني أمية. . وقال رشيد الدين بن الوطواط: أول من عمل البيمارستان وأجرى الصدقات على الزَّمْنَى والمجذومين والعميان والمساكين واستخدم لهم الخدام الوليد بن عبدالملك. وقال تقي الدين المقريزي: أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك، وهو أيضاً أول من أنشأ دار الضيافة وذلك سنة 88هـ وجعل في البيمارستان أطباء، وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق، ولم يصل إلينا أي علم أو إشارة عن المكان الذي أنشأ فيه الوليد البيمارستان[3].

4 - كفالة الدولة للمحتاجين وتطوير الطرق:

كان الوليد يخصص الأرزاق للفقهاء والضعفاء والفقراء ويحرم عليهم سؤال الناس، ويفرض لهم ما يكفيهم كما فرض على العميان والمجذومين[4]، فقد أعطى المجذومين وقال: لا تسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً، وفتح في ولايته فتوح عظام[5]، وقد اهتم الوليد بتعبيد الطرق وبخاصة تلك التي تؤدي إلى الحجاز لتيسير سفر الحُجاج إلى بيت الله الحرام، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وعمل الفوارة في المدينة وأمر لها بقوام يقومون عليها وأن يسقى منها أهل المساجد[6].

---

(1) المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، ص: 80، الأمويون وآثارهم المعمارية، ص: 97.

(2) المستشفيات الإسلامية، ص: 80.

(3) المصدر نفسه، ص: 188.

(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 158.

(5) البداية والنهاية (12/ 609).

(6) تاريخ الطبري (7/ 337).

ثانياً: ديوان المستغلات:

يعتبر عهد الوليد امتداد لأبيه في النظام السياسي والاقتصادي والإداري وغيرها، ويبدو أن ديوان المستغلات ظهر ذكره في عهد الوليد، وكان هذا الديوان ينظر في إدارة أموال الدولة غير لمنقولة من أبنية وعمارات وحوانيت، ولأول مرة ترد إشارة ديوان المستغلات في عهد الوليد حيث ذكر أن نفيع بن ذؤيب تقلد للوليد بن عبد الملك ديوان المستغلات، وأن اسمه مكتوب على لوح في سوق السراجين بدمشق[1]. وهذا يدل على أن الديوان كان قائماً في خلافة لوليد، ولعله أحدث قبل هذا الوقت، وأن وجود اسمه على لوح في سوق دمشق له دلالته على وجود أملاك عائدة إلى الدولة، وأن نفيع كان يشرف على جباية وارداتها[2].

ثالثاً: الوليد والقرآن الكريم:

أخذ الخلفاء الأمويون والأمراء أنفسهم بتلاوة القرآن وختمه من وقت لآخر، وقد شب لوليد على حب القرآن الكريم والإكثار من تلاوته وحث الناس على حفظه وإجازتهم على ذلك، حدث إبراهيم بن أبي عبلة قال: قال لي الوليد بن عبد الملك يوماً: في كم تختم لقرآن؟ قلت: كذا وكذا، فقال: أمير المؤمنين على شغله يختمه في ثلاث - وقيل في سبع - قال: وكان يقرأ في شهر رمضان سبعة عشرة ختمة، قال إبراهيم: رحم الله الوليد، وأين مثله؟ بنى مسجد دمشق، وكان يعطيني قطع الفضة، فأقسمها على قرّاء بيت المقدس[3]، وروى لطبري أن رجلاً من بني مخزوم سأل الوليد قضاء دين عليه. فقال: نعم إن كنت مستحقاً لذلك، قال: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أكون مستحقاً لذلك مع قرابتي؟ قال: أقرأت القرآن؟ قال: لا، قال: ادن مني فدنا منه، فنزع عمامته بقضيب كان في يده وقرعه قرعات بالقضيب، وقال للرجل: ضم إليك هذا فلا يفارقك حتى يقرأ القرآن، فقام إليه عثمان بن يزيد بن خالد فقال: يا أمير المؤمنين إن علي ديناً، فقال: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، فاستقرأه عشر آيات من لأنفال، وعشر آيات من براءة، فقرأ، فقال: نعم نقضي عنكم، ونصل أرحامكم على هذا[4].
وقال عنه ابن كثير: . . فقد كان صيناً في نفسه حازماً في رأيه، يقال: إنه لا تعرف له صبوة، ومن جملة محاسنه ما صح عنه أنه قال: لولا أن الله قص علينا قصة لوط في كتابه ما ظننت أنَّ ذكراً يأتي ذكراً كما تؤتى النِّساءُ[5].

---

(1) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 200.
(2) المصدر نفسه، ص: 200.
(3) البداية والنهاية (12/ 607).
(4) تاريخ الطبري (7/ 397، 398).
(5) البداية والنهاية (12/ 403).

رابعاً: عروة بن الزبير في ضيافة الوليد:

عروة بن الزبير بن العوام، ابن حواري رسول الله ﷺ، الإمام، عالم المدينة، المدني، الفقيه، أحد الفقهاء السبعة[1]، كان عروة يقرأ القرآن كل يوم في المصحف نظراً ويقوم به الليل فما تركه إلا ليلة قطعت رجله، وقصة ذلك أن عروة خرج إلى الوليد بن عبد الملك حتى إذا كان بوادي القُرى، وجد في رجله شيئاً، فظهرت به قرحة، ثم ترقّى به الوجع، وقدم على الوليد وهو في محمل، فقال: يا أبا عبد الله اقطعها، قال: دونك. فدعا له الطبيب وقال: اشرب المُرْقد[2]. فلم يفعل، فقطعها من نصف الساق فما زاد أن يقول: حسٍّ[3] حسٍّ، فقال الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا. وأصيب عُرْوة بابنه محمد في ذلك السفر، في اصطبل[4] الوليد فضربته الدواب بقوائمها فقتلته، فأتى عروة رجل يعزيه فقال: إن كنت تُعزِّيني برجلي فقد احتسبتها، قال: بل أُعَزِّيك بمحمد ابنك، قال: وما له؟ فأخبره فقال: اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابناً وتركت أبناء[5]، وجاء في رواية: اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحداً، وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة، فأخذت طرفاً، وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت[6]. وجاء في رواية عن ابنه عبد الله: نظر أبي إلى رجله في الطست، فقال: إنَّ الله يعلم أنِّي ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم[7]، ولما قدم المدينة أتاه ابن المنكدر فقال: كيف كنتَ؟ قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: 62].

وجاء عيسى بن طلحة إلى عروة بن الزبير حين قدم، فقال عروة لبعض بنيه: اكشف لعمك رجلي، ففعل، فقال عيسى: إنا والله يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع، ولا للسباق، ولقد أبقى الله منك لنا ما كُنَّا نحتاج إليه، رأيك وعلمك. فقال: ما عزَّاني أحد مثلك[8]، قال ابن خلِّكان: كان أحسن من عزّاه إبراهيم بن محمد بن طلحة فقال: والله ما بك حاجة إلى المشي، ولا أربٌ في السَّعي، وقد تقدّمك عضو من أعضاك وابن من أبنائك إلى الجنَّة، والكل تبع للبعض إن شاء الله، وقد أبقى الله لنا منك ما كنَّا إليه فقراء من علمك ورأيك، والله وليُّ ثوابك والضمين بحسابك[9]، وقد توفي عروة وهو ابن سبع وستين سنة، سنة 93 هـ[10].

خامساً: الوليد يطلب من الحجّاج أن يكتب له سيرته:

كتب الوليد إلى الحجّاج أن يكتب إليه بسيرته، فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 421).
(2) المرقد: شيء يُشرب فينوّم من يشربه ويرقده.
(3) حس: تقال عند الألم.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 433).
(5) المصدر نفسه (4/ 433).
(6) المصدر نفسه (4/ 431).
(7) المصدر نفسه (4/ 431).
(8) المصدر نفسه (4/ 434).
(9) المصدر نفسه (4/ 434).
(10) المصدر نفسه (4/ 434).

وأدنيت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً يعطيه حظاً من نظري ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى النَّطِف[1] المسيء، والثواب إلى المحسن البريء[2]، فخاف المذنب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب[3].

سادساً: أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك:

هي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان الأموية أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك، كانت إحدى فضليات النساء في عصرها، وقد ذكرها أبو زرعة في طبقاته فيمن حدَّث بالشام من النساء فقال: أم البنين ابنة عبد العزيز بن مروان وروى عنها ابن أبي عَبْلة[4]. وكانت رحمها الله - دائمة الذكر لله سبحانه وتعالى موصولة القلب بكتابه الكريم، تتعاهد القرآن صباح مساء فلا تكاد ترى إلا وهي تالية للقرآن خاضعة لذكر الرحمٰن، وكانت تسابق زوجها الوليد في تلاوة القرآن ولها مواقف وأقوال محمودة منها:

1 - خشيتها لله عز وجل:

كانت تختلف عما كانت عليه عامّة النساء، فإذا ما ذكر الله عز وجل، استشعرت خشيته ومهابته في قلبها، ورأت بنور بصيرتها أنَّ السعداء هم الذين يخافون الله، ومن أقوالها في هذا: ما تحلّى المتحلّون بشيء أحسن عليهم من عظيم مهابة الله عز وجل في صدورهم، وكانت تتقرّب إلى الله عز وجل بكل ما يرضيه ويقرّبها إليه. ومن صور حياتها المضيئة ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله أنَّها كانت تعتق في كل جمعة رقبة، وتحمل على فرس في سبيل الله عز وجل [5]، وبلغت هذه التابعية درجة عالية من الورع والخوف من الله تعالى فقد كانت تتحرى أمورها بدقة وتعقل، فلا تكاد تقبل عرضاً أو مالاً جاء إلا من وجه شرعي وترفض كل هدية جاءت من أي مصدر غير مشروع، وإليك هذه القصة: حجَّ الوليد بن عبد الملك، وحجّ محمد بن يوسف من اليمن وحمل هدايا للوليد، فقالت أم البنين للوليد - زوجها -: يا أمير المؤمنين اجعل لي هدية محمد بن يوسف، فأمر بصرفها إليها، فجاءت رسل أم البنين إلى محمد بن يوسف فيها فأبى وقال: ينظر فيها أمير المؤمنين، فيرى رأيه، وكانت هدايا كثيرة: فقالت يا أمير المؤمنين إنك أمرت بهدايا محمد بن يوسف أن تُصرف إليَّ، ولا حاجة لي بها، قال: ولم؟ قالت: بلغني أنّه غصبها الناس، وكلَّفهم عَمَلها وظَلَمهم، وحمل محمد بن يوسف المتاع إلى الوليد. فقال له الوليد: بلغني أنّك أصبتها غصباً. قال: معاذ الله، فأمر الوليد، فاستُحلف بين الرُّكن

(1) الشهب اللامعة، ص: 635: النطف: المريب المتهم.
(2) الشهب اللامعة، ص: 636.
(3) المصدر نفسه، ص: 636.
(4) تهذيب التهذيب (1/ 142، 143) نساء من عصر التابعين، ص: 191.
(5) نساء من عصر التابعين (2/ 159).

والمقام خمسين يميناً لله ما غصب شيئاً منها، ولا ظلم أحداً ولا أصابها إلا من طَيّب، فحلف، فقبلها الوليد ودفعها إلى أم البنين، فمات ابن يوسف باليمن[1].

2 - جودها وكرمها:

قيل لأمّ البنين - رحمها الله -: ما أحسن شيء رأيت؟ قالت: نعم الله مقبلة عليّ[2]. ومن أقوالها في ذم البخل والبخلاء: لو لم يدخل على البخلاء في بخلهم إلا سوء ظنّهم بالله عَزَّوَجَلَّ لكان عظيماً. ومن أخبار جودها أنها كانت تدعو النّساء إلى بيتها، وتكسوهن الثياب الحسنة، وتعطيهن الدنانير وتقول: الكسوة لكُنَّ والدّنانير أقسمتها بين فقرائكن - تريد بذلك أن تعلمهن وتعودهن على البذل والجود. وكانت تقول: أفٍ للبخل والله لو كان ثوباً ما لبسته ولو كان طريقاً ما سلكته[3]، وكانت تقول: البخل كل البخل من بخل عن نفسه بالجنة[4]، ويبدو أن أم البنين قد أحبت بذل المال، وإنفاقه في طرق مشروعة لتشعر بنعمة الله عليها، ولم تكن الدراهم والدنانير تعرف إلى بيتها سبيلاً فسرعان ما تنفقها، ولله در الشعر فكأنه عناها بقوله:

وإنـي امـرؤ لا تـسـتـقـر دراهـمـي   عـلـى الـكـف إلا عـابـرات سـبـيـل[5]

وكانت تقول: جُعل لكل قوم نهمة في شيء وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء، والله للصّلة والمواساة أحب إليّ من الطعام الطيب على الجوع ومن الشراب البارد على الظمأ[6]، ولشدة حرصها على الإنفاق، ووضعه في مواضعه واصطناع آيات المعروف كانت - تقول.: ما حسدت أحداً قط على شيء إلا أن يكون ذا معروف، فإني كنت أحب أن أشركه في ذلك. ومن الروائع أقوالها في هذا: وهل ينال الخير إلا باصطناعه[7]؟ فمن جملة اصطناعها للمعروف، والإعانة عليه ما ورد أن الثريا بنت علي بن عبد الله، لما مات زوجها سهيل بن عبد الرحمٰن بن عوف عنها - أو طلقها - خرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة بدمشق في دين كان عليها، فبينما هي عند زوجه أمّ البنين بنت عبد العزيز، إذ دخل عليها الوليد، فقال: من هذه عندك؟ قالت أم البنين: الثُّريا بنت علي جاءتني أطلب إليك في قضاء دين عليها وحوائج لها. فقضيت حوائجها وانصرفت شاكرة لأمّ البنين وزوجها الوليد[8].

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 399).
(2) بهجة المجالس للقرطبي (1/ 119) نقلاً عن نساء التابعين (2/ 160).
(3) تاريخ دمشق، نقلاً عن نساء من عصر التابعين (2/ 162).
(4) المحاسن والمساوئ للبيهقي، ص: 186.
(5) نساء من عصر التابعين (2/ 162).
(6) زهر الآداب للحصري (1/ 258)، بتصرف يسير نقلاً عن نساء من عصر التابعين (2/ 163).
(7) نساء من عصر التابعين (2/ 163).
(8) زهر الآداب للحصري (1/ 258)، بتصرف يسير نقلاً عن نساء من عصر التابعين (2/ 163).

3 - أم البنين والحجّاج:

تذكر كتب التاريخ أن الحجّاج بن يوسف قدم على الوليد بن عبد الملك، فأذن له بالدخول، فدخل عليه، وعليه عمامة سوداء وقوس عربية، وكنانة. فبعثت إليه أمّ البنين فقالت: من هذا الأعرابي المستلئم - المتسلح - في السّلاح عندك، وأنت في غِلالة غررٌ؟، فأرسل إليها أنه الحجّاج بن يوسف الثقفي. فراعها ذلك وأوجست خيفة في نفسها وقالت: والله، لأن يخلو بك ملك الموت، أحب إليَّ من أن يخلو بك الحجّاج بن يوسف وقد قتل الخلق وأهل الطاعة ظلماً وعدواناً، فعرف الحجّاج رأي أم البنين، فقال للوليد: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليس بقهرمانة، ولا تطلعهن على أمرك أو سرّك، ولا تستعملهن لأكثر من زينتهن، وإياك ومشاورتهن، فإنّ رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ولا تطل الجلوس معهن، فإنَّ ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك. ثم نهض الحجّاج وخرج من عند الوليد، فدخل الوليد على أم البنين، فأخبرها بمقالة الحجّاج ورأيه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أحبُّ أن يأمره أمير المؤمنين بالتسليم علي غداً، قال: أفعل، فغدا الحجّاج على الوليد فقال: ائت أم البنين، فسلم عليها. فقال: أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين، فقال الوليد: لتفعلنّ، فلا بدّ من ذلك، وأسقط في يد الحجّاج، فهو يعلم رأيها فيه وفي أخيه محمد بن يوسف من قبل، واللقاء معها لا يبشر بخير، ولكن ليس في الأمر حيلة، ولا مخرج له من هذا الموقف المحرج. فمضى وأتى مكانها فحجبته طويلاً، ثم أذنت له، وتركته قائماً ولم تأذن له في الجلوس، ثم قالت له: أنت الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ ثم ذكرت له قتل عبد الله بن الزبير، وعددت له فظائعه وأنكرت عليه قوله بالأمس - بالنساء - مع زوجها الوليد، وذكرت له قبح منظره وسوء خلقه، ثم قالت تعرّض به: قاتل الله الذي يقول وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة ربداء تنفر من صفير الصّافر

إلى آخر الأبيات: ثم أمرت جارية لها، فأخرجته مقبوحاً مذموماً مدحوراً، فلما دخل على الوليد سأله فقال: ما كنت فيه يا أبا محمد؟ قال: والله يا أمير المؤمنين، ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلي من ظهرها، فضحك الوليد وقال: يا حجّاج إنها ابنة عبد العزيز بن مروان[1]، وأما ما ينسب إلى أم البنين في قصتها المكذوبة مع وضاح اليمني، فهي ليس لها نصيب من الصحة[2]، وماذكرته كتب الأدب من الأكاذيب والأباطيل في حق هذه التابعية لا ينظر إليه ولا يعتمد في تقرير الحقائق التاريخية.

---

(1) وفيات الأعيان (2/ 44، 45) نساء في عصر التابعين (2/ 169).

(2) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص: 418.

سابعاً: المراسلات بين الوليد وملك الروم:

كانت هناك مراسلات بين الوليد وبين ملك الروم ولا سيما حينما هدم الوليد كنيسة دمشق، فكتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كان صواباً فقد أخطأت، وإن كان خطأ فما عذرك؟. فكتب إليه الوليد:

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: 78-79] . وحين قرر الوليد بن عبد الملك فتح القسطنطينية وأعد العدة لذلك، أرسل قيصر الروم سفيراً يدعى دانيا حاكم مدينة سينوب إلى دمشق للتداول مع الخليفة حول إمكانية عقد هدنة بين الطرفين وزوده بتعليمات سرية ترمي إلى الوقوف على مدى استعدادات المسلمين لحصار القسطنطينية، وعند رجوعه أطلعهم على استعداد العرب للحملة وحث الروم على اتخاذ التدابير الكفيلة لمواجهة الموقف[1]، وهذا يدل على أن الروم كانوا يتخذون من السفراء والوفد وسيلة لجمع المعلومات في الدولة الإسلامية واستعداداتهم تجاه الروم والتجسس على الدولة الإسلامية، مستغلين كونهم رسلاً بين الدولتين، مستفيدين من طبيعة المهمة السلمية التي يقومون بها، وكانت هناك مراسلات وتبادل هدايا بين الخليفة الوليد بن عبد الملك وبين ملوك الروم حين أراد بناء الجامع الأموي، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما أهداه الوليد إلى ملك الروم من كميات الفلفل قدرت قيمتها بعشرين ألف دينار[2]، وهناك روايات كثيرة تشير إلى أن التعامل السلمي وتبادل الخبرات كان موجوداً بين الوليد وقيصر الروم، فقد أراد الوليد الاستفادة من خبرات الروم في صناعة الفسيفساء والبناء والعمران[3]، وكانت هناك مراسلات متعلقة بالأسرى والرهائن بين الطرفين، فقد كانت من المسائل المهمة جداً، وكانت المفاوضات بشأنها تجري إما في دمشق أو في القسطنطينية، وليس في مدن محلية صغيرة[4].

ثامناً: محاولة نزع سليمان من ولاية العهد ووفاة الوليد عام ٩٦ هـ:

وفي سنة 96 هـ كان الوليد يريد الشخوص إلى أخيه سليمان لخلعه، وأراد البيعة لابنه من بعده، وذلك قبل مرضته التي مات فيها، فقد أراد من سليمان أن يبايع لابنه عبد العزيز فأبى سليمان، فأراده على أن يجعله من بعده فأبى، فعرض عليه أموالاً كثيرة فأبى، فكتب إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز - ابنه - ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه أحد إلا الحجّاج وقتيبة

---

(1) السفارات في التاريخ الإسلامي، يونس السامرائي، ص: 409.
(2) العلاقات العربية - البيزنطية، ص: 130.
(3) المصدر نفسه، ص: 139.
(4) العلاقات العربية - البيزنطية، ص: 143.

وخواصٌ من الناس[1]، وطلب الوليد ذلك من عمر بن عبد العزيز، فامتنع عمر وقال: سليمان في أعناقنا بيعة، فغضب الوليد، وطيَّن على عمر، ثم فتح عليه بعد ثلاث، وقد ذبل ومالت عنقه وقيل: خنق بمنديل حتى صاحت أمُّ البنين أخت الوليد، فلذلك شكر سليمان لعمر وأعطاه الخلافة من بعده، وقد حج عبد العزيز بن الوليد بالناس وكان لبيباً عاقلاً، دعا إلى نفسه بالخلافة - بعد موت سليمان - فلمّا سمع باستخلاف خاله سكن، ودخل في الطاعة[2].

وأصرّ الوليد على بيعة ابنه وخلع أخيه سليمان وكتب إليه يأمره بالقدوم فأبطا، فاعتزم الوليد المسير إليه وعلى أن يخلعه، فأمر الناس بالتأهب وأمر بحُجَره فأخرجت، فمرض ومات قبل أن يسير وهو يريد ذلك[3]، وكان آخر ما تكلم به الوليد عند موته: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، وكان نقش خاتمه: يا وليد إنك ميت[4]، وكان عمر بن عبد العزيز ممن حضر دفنه قال: لتنزلنه غير موسد ولا ممهد، قد خلفت الأسباب وفارقت الأحباب، وسكنت التراب، وواجهت الحساب، فقيراً إلى ما تقدم عليه غنيًا عما يخلف[5].

وكانت وفاة الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين في قول جميع أهل السير[6]، واختلف في قدر مدة خلافته واخترت قول الزهري في ذلك: ملك الوليد عشر سنين إلا شهراً[7]، واختلف في سنه لما مات فقيل: ست وأربعين سنة وأشهر، وقيل توفي وهو ابن خمس وأربعين سنة، وقيل: وهو ابن اثنتين وأربعين سنة وأشهر، وقيل: سبع وأربعين سنة[8]، وقيل صلى عليه عمر بن عبد العزيز وكان له: تسعة عشر ابناً: عبد العزيز ومحمد والعباس، وإبراهيم، وتمام، وخالد، وعبد الرحمٰن، ومبشر، مسرور، وأبو عبيدة، وصدقة، ومنصور، ومروان، وعنبسة، وعمرو، وروح، وبشر، ويزيد، ويحي، . وأم عبد العزيز ومحمد أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وأم أبي عبيدة فزارية، وسائرهم لأمهات شتى[9].

المبحث السابع

خلافة سليمان بن عبد الملك: ٩٦هـ ٩٩هـ

هو سليمان بن عبد الملك بن أبي العاص بن أمية، الخليفة، أبو أيوب القرشي الأموي، بويع بعد أخيه الوليد سنة ست وتسعين، وكان له دار كبيرة مكان طهارة جيرون[10]، وكان ديناً

(1) تاريخ الطبري (7/ 399).
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 148، 149).
(3) تاريخ الطبري (7/ 400).
(4) تاريخ دمشق (66/ 129).
(5) تاريخ ابن عساكر (66/ 132).
(6) تاريخ الطبري (7/ 396).
(7) المصدر نفسه (7/ 396).
(8) المصدر نفسه (7/ 396).
(9) المصدر نفسه (7/ 397).
(10) سير أعلام النبلاء (5/ 111).

فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو[1]، وكان جميلاً ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله واتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية[2]، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عُمّال الحجّاج. وكتب: إن الصلاة قد أميتت فأحيوها بوقتها، وهمَّ بالإقامة ببيت المقدس، ثم نزل قنسرين للرباط وحجّ في خلافته[3]، وعن ابن سيرين قال: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلاف عمر[4]، وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء[5].

أولاً: سياسته العامة:

كان عهد سليمان يمثل بداية المرحلة الجديدة من مراحل الخلافة الأموية، وعلى الأخص المروانية منها، لما امتاز به من خصائص جديدة وتغير في أسلوب الحكم عن سابقيه منهم، إذ اتسمت سياسته بإيثار السلامة والعافية والنزوع إلى الموادعة والأخذ برأي أهل العلم والفضل من باب العمل بمفهوم الشورى والتمسك بالتعاليم والأحكام الإسلامية، والحرص على تنفيذها، وهي الأمور التي وضَّحها في خطبته التي خطبها بعد استخلافه، وبين فيها سياسته التي سينتهجها في الحكم[6].

1 - حض الناس على الرجوع إلى القرآن الكريم:

إذ يقول: اتخذوا كتاب الله إماماً وارضو به حكماً واجعلوه قائداً فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده[7].

2 - مفهومه للخلافة:

وقال في موضع آخر من خطبته مؤكداً على تمسكه بتعاليم الإسلام ورغبته بالموادعة والمسالمة ومبيناً مفهومه للخلافة، وما يترتب على ذلك: جعل الله الدنيا داراً لا تقوم إلا بأئمة العدل، ودعاة الحق، وإن لله عباداً يملّكهم أرضه، ويسوس بهم عباده، ويقيم بهم حدوده ورعاة عباده. . . ولولا أن الخلافة تحفة من الله كفر بالله خلعها، لتمنيت أني كأحد المسلمين يضرب لي بسهمي، فعلى رسلكم بني الوليد، فإني شبل عبد الملك، وناب مروان لا تضلعني حمل النائبة ولا يفزعني صوت الأجفر[8]، وقد وليت من أمركم ما كنت له مكفياً وأصبحت خليفة وأميراً وما هو إلا العدل أو النار. . فمن سلك المحجة حُذي نعل السلامة، ومن عدل

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 111).
(2) البداية والنهاية (12/ 642).
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 112).
(4) المصدر نفسه (7/ 112).
(5) المصدر نفسه (7/ 112).
(6) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 95.
(7) البيان والتبيين للجاحظ (1/ 244) خلافة سليمان، ص: 95.
(8) صوت الأجفر: أي صوت الجمال الصغيرة.

عن الطريق وقع في وادي الهلكة والضلالة، ألا فإن الله سائل كلاً عن كل، فمن صحت نيته ولزم طاعته، كان الله له بصراط التوفيق وبرصد المعونة، فكتب له سبيل الشكر والمكافأة فاقبلوا العافية فقد رزقتموها، والزموا السلامة فقد وجدتموها، فمن سلمنا منه سلم منا، ومن تاركنا تاركناه، ومن نازعنا نازعناه فارغبوا إلى الله في صلاح نياتكم وقبول أعمالكم وطاعة سلطانكم، فإني غير مبطل لله حداً ولا تارك له حقاً، أنكثها عثمانية عمريه[1]. أي الشدة واللين[2].

3 - مفهوم الشورى عند سليمان:

وتأكيداً على مفهوم الشورى الذي جعله سليمان أحد دعائم حكمه، وصفة لنهجه الجديد قال: وقد عزلت كل أمير كرهته رعيته، ووليت على أهل كل بلد من أجمع عليه خيارهم واتفقت عليه كلمتهم[3]. ويقول: رحم الله امرءاً عرف سهو المغفل عن مفروض حق واجب فأعان برأي[4]. ويقول أيضاً في موقع آخر: أيها الناس رحم الله من ذُكِّرَ فاذّكر فإن العظة تجلو العماء[5]. هذا النهج الجديد. مخالف لما نهجه عبد الملك والوليد في سياسة الدولة، القائمة على بسط النفوذ والسلطة بالقوة والتضييق على الناس[6]، فعبد الملك بن مروان يقول في إحدى خطبه: والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه[7]، وكان عبد الملك بن مروان أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وكان الناس قبله يراجعون الخلفاء ويعترضون عليهم فيما يفعلون[8]، ولما حضرته الوفاة قال للوليد وكان يبكي عليه عند رأسه: يا وليد، لا ألفينك إذا وضعتني في حفرتي أن تعصر عينيك كالأمة الورهاء[9]، بل ائتزر وشمر، والبس جلد النمر، وادع الناس إلى البيعة ثانياً، ومن قال برأسه كذا، فقل بالسيف كذا[10]، وقد سار الوليد بن عبد الملك على هذا النهج، فمن خطبته عندما تولى الخلافة قوله: . . أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي في عيناه ومن سكت مات بدائه[11]. فهذا النهج الذي وضحه سليمان في خطبته وسار عليه في خلافته تنبه عدد من المؤرخين القدامى إليه وأشاروا إلى جوانبه المختلفة في كتاباتهم فوصفه بعضهم بأنه من خيار بني أمية[12]، وحتى المؤرخ الشيعي المسعودي وصفه إلى إشارة السلامة والعافية ونزوعه إلى

---

(1) المنتظم (7/ 14 - 15).
(2) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 96.
(3) المنتظم (7/ 14 - 15).
(4) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 96.
(5) المنتظم (7/ 13).
(6) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 96.
(7) فوات الوفيات لابن شاكر (2/ 404).
(8) المصدر نفسه (2/ 404).
(9) الوره: الحمق في كل عمل ويقال الخرق في العمل.
(10) الأخبار الطوال، ص: 325.
(11) تاريخ الطبري، نقلاً عن خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 97.
(12) فوات الوفيات (2/ 68)، خلافة سليمان، ص: 97.

الموادعة واستشارة أهل العلم بقوله: كان سليمان لين الجانب. . لا يعجل إلى سفك الدماء ولا يستنكف عن مشورة النصحاء[1]، ووصفه ابن كثير بقوله: يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، وإتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله[2]، ووصفه لسان الدين الخطيب بقوله: وكان قائماً برسوم الشريعة[3]. وأما ابن قتيبة فيقول: افتتح بخير وختم بخير لأنه رد المظالم إلى أهلها، ورد المسيرين وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة واستخلف عمر بن عبد العزيز وأغزى أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى مات[4]، وأما أبي زرعة الدمشقي، فقد عد خلافة سليمان، وخلافة عمر بن عبد العزيز واحدة، حيث يقول: كانت خلافة سليمان بن عبد الملك كأنها خلافة عمر بن عبد العزيز، كان إذا أراد شيئاً قال له: ما تقول يا أبا حفص؟ قالا جميعاً[5]

ثانياً: سياسة سليمان في اختيار الولاة:

راعى سليمان اختيارات عدة في اختيار ولاته على الأمصار ونظراً لحساسية هذا الموضوع، فقد أوضح جانباً من سياسته تلك في خطبته التي خطبها بعد استخلافه، حيث قال: قد عزلت كل أمير كرهته رعيته ووليت أهل كل بلد، من أجمع عليه خيارهم واتفقت عليه كلمتهم[6].

1 - استشارة العلماء والنصحاء من ذوي الخبرة:

ولعل من هذه الاعتبارات استشارة العلماء والنصحاء من ذوي الخبرة في كل أمور الأمصار، فقد اتخذ عمر بن عبد العزيز وزيراً ومستشاراً[7]، وقد صدر سليمان عن رأيه في عزل عمال الحجاج[8]، وممن كان يستشيرهم رجاء بن حيوة الكندي، فقد ولى سليمان محمد ابن يزيد الأنصاري - ويقال القرشي - إفريقية بمشورته[9].

2 - اختيار العلماء وأهل الصلاح:

ومن هذه الاعتبارات في اختيار الولاة أيضاً اختيار الفقهاء وأهل الصلاح والزهد، آملاً من ذلك استبدال الظلم بالعدل، وبالتالي تغيير نظرة المجتمع الإسلامي آنذاك إلى الخلافة

---

(1) التنبية للمسعودي، ص: 319 نقلاً عن خلافة سليمان، ص: 98.
(2) البداية والنهاية (12/ 642).
(3) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 98.
(4) المعارف، ص: 360، خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 98.
(5) تاريخ أبو زرعة (1/ 193 - 194) نقلاً عن خلافة سليمان، ص: 99.
(6) المنتظم (7/ 13، 14، 15).
(7) المصدر نفسه (7/ 13، 14، 15) خلافة سليمان، ص: 148.
(8) الوافي بالوفيات (15/ 403) خلافة سليمان، ص: 148.
(9) فتوح مصر، ص: 213، خلافة سليمان، ص: 149.

لأموية، وكسب الرأي العام لصالحها، ومن هؤلاء أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم لأنصاري على المدينة، وهو أحد فقهائها وكان ثقة كثير الحديث[1]، وكذلك الأمر مع عروة بن محمد بن عطية السعدي[2]، الذي ولاه سليمان اليمن وكان من الزهاد[3]وولى اليمن أيضاً في عهدي عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك[4]، وخرج من اليمن وما معه إلا سيفه ورمحه ومصحفه[5]، ويروى أنه لما دخل اليمن قال: يا أهل اليمن هذه راحلتي فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق[6]، والشيء ذاته يمكن أن يقال عن عبد الملك بن رفاعة الفهمي والي مصر، حيث اتصف بحسن السيرة والتدين والعفة عن الأموال والعدل في الرعية بالإضافة إلى كونه ثقة أميناً فاضلاً[7]، وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد بن يزيد والي إفريقية، حيث اتصف بحسن السيرة والعدل بين الرعية[8].

3 - مصلحة الدولة فوق كل الاعتبارات:

في سنة 96هـ جمع سليمان بن عبد الملك العراق ليزيد بن المهلب حربها وصلاتها[9]، وأضيفت له خراسان حربها وصلاتها سنة 97هـ[10]، ويمكن رد أسباب تولية يزيد لعدة عتبارات منها:

أ - انقطاع يزيد بن المهلب إلى سليمان، بعد أن أجاره سليمان من الحجاج والوليد، وتعاظم ما بينهما لدرجة كبيرة جداً فالطبري يقول: وكان لا تأتي يزيد بن المهلب هدية إلا بعث بها إلى سليمان، ولا تأتي سليمان هدية ولا فائدة إلا بعث بنصفها إلى يزيد بن المهلب، كما أن من دلائل تعاظم حظوة يزيد عند سليمان، أن يزيد كان يجلس على سريره[11].

ب - اتخذ سليمان يزيداً مستشاراً له فيما يخص المشرق الإسلامي، ويعزز هذا الرأي أن يزيد كان في خراسان في حياة أبيه ووالياً بعد وفاة أبيه حتى عزله الحجاج عن خراسان، وبالتالي فإن الحجاج باعتباره قائداً عسكرياً وإدارياً كبيراً أحدث بوفاته فراغاً كبيراً ووجد سليمان أن يزيد هو الأفضل لملء الفراغ الذي أحدثه وفاة الحجاج[12]، وكانت مصلحة

---

(1) تهذيب التهذيب (12/ 39).
(2) تهذيب الكمال للمزي (2/ 32) خلافة سليمان، ص: 150.
(3) مرآة الزمان نقلاً عن خلافة سليمان، ص: 150.
(4) تهذيب الكمال (20/ 340)، خلافة سليمان، ص: 150.
(5) خلافة سليمان، ص: 150.
(6) تهذيب التهذيب (7/ 187) خلافة سليمان، ص: 150.
(7) النجوم الزاهرة (1/ 296) خلافة سليمان، ص: 150.
(8) تاريخ إفريقية للرقيق القيرواني، ص: 58 خلافة سليمان، ص: 150.
(9) تاريخ الطبري (7/ 424).
(10) تاريخ الطبري (5/ 425).
(11) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 151، الوزراء والكتاب، ص: 50.
(12) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 151.

الدولة عند سليمان تفوق كل اعتبار في تولية الولاة فقد ولى يزيد بن المهلب حرب العراق وصلاته، إلا أنه لم يوله الخراج وإنما عهد بأمره إلى أهل المعرفة والكفاية والدراية في أمور الخراج في العراق وهو صالح بن عبد الرحمٰن - مولى تميم[1]، كما أنه أقر تولية وكيع بن حميد الدوسي على خراج خراسان، وهو من أهل المعرفة والكفاية والدراية في هذا المجال[2].

ثالثاً: سياسة سليمان تجاه حركات المعارضة:

1 - الخوارج:

لم يعد لهم قوة تذكر وكل ما كان منه في عهد سليمان لا يعدو عن كونه عصيان مجموعات صغيرة أو قل كبيرة فردية لا تكاد تقوم لها قائمة بمجرد إعلانها، ويذكر لسليمان بأنه كان أقل شدة من سابقيه في تعامله مع الخوارج غير الثائرين، فاكتفى بسجن من يسبون الخلفاء منهم[3]، وكان يستشير عمر بن عبد العزيز في أمرهم ويصدع لحكمه فيهم، معلماً سليمان عدم وجود سبة تحل دم المسلم غير سبة الأنبياء[4]، وكان عمر يرى حبسهم أو العفو عنهم[5].

2 - الهاشميون:

أما بالنسبة لعلاقة سليمان بالعلويين فقد اتسمت بالمودة والهدوء، حيث كان يقرِّب العلويين ويقضي حوائجهم[6]، وليس من الثابت أن سليمان تحامى أبا هاشم - عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب ت 98هـ - وأرصد له من سمه، ويبدو لنا من دراسة تلك الروايات المتعلقة بهذه القصة أنها موضوعة للأسباب التالية:

أ - تختلف الروايات اختلافاً بيناً في تحديد اسم الخليفة الذي دبر حادثة السم، وبعضها تنسب ذلك إلى الوليد بن عبد الملك، وبعضها تنسب إلى سليمان بن عبد الملك، أما الجاحظ فقد حمّل الأمويين مسئولية سم أبي هاشم دون تحديد الشخص المسؤول عن ذلك.

ب - وحتى هذه المصادر التي صرحت بأن سليمان سمَّ أبا هاشم، فإنها تختلف في تحديد كيفية وحيثيات هذه المؤامرة.

جـ - لا تجمع المصادر التي بين أيدينا على أن أبا هاشم توفي مسموماً، فهناك عدة مصادر يستشف منها أن وفاته كانت طبيعية[7].

---

(1) المنتظم (7/ 18) خلافة سليمان، ص: 152.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة سليمان، ص: 152.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 112.
(4) المصدر نفسه، ص: 112.
(5) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 131.
(6) المصدر نفسه، ص: 132.
(7) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 134.

د - وهناك عدة رجال وافتهم المنية بعد عودتهم من عند الخليفة سليمان أو أثناء إقامتهم عنده[1]، ولا يمكن اعتبار وفاة هؤلاء الرجال جميعاً أو أحدهم، من تدبير الخليفة لمجرد وفاتهم وهم في صحبته، أو أثناء عودتهم من عنده. والذي يبدو أن وفاة أبي هاشم كانت طبيعية وليست بالسم، وأن ادعاء السم ما هي إلا روايات موضوعة[2].

3 - الزبيريون:

اتسمت علاقة سليمان بالزبيريين بالمودة، كان يسأل عن أحوالهم ويتفقدهم، حيث قضى دين جعفر بن الزبير، عندما علم به[3]، وتَردُّ المصادر قوة علاقة سليمان بالزبيريين إلى يد سلفت لعبد الله بن الزبير على سليمان، ففي أثناء الصراع بين عبد الله بن الزبير والأمويين أتى إليه بسليمان بن عبد الملك من الطائف، وكان يومئذ غلاماً صغيراً فكساه وجهزه إلى أبيه في الشام، بعد أن وصله ووصل جميع من كان معه، فكان سليمان يشكر ذلك لعبد الله بن الزبير، فلما ولي أحسن إلى جميع ولده وكثيراً ما يأتونه فيبرهم ويصلهم، وكان يعظِّم ثابت بن عبد الله من بينهم[4]. إن عهد سليمان اتسم بهدوء نسبي إلى درجة كبيرة، فلم يشهد حركات معارضة عنيفة، فكانت حركات الخوارج صغيرة ولم تهدد كيان الدولة، ووادع الهاشميين وأحسن إليهم، كما وادع الزبيريين مكافأة لهم باليد التي كانت لعبد الله بن الزبير عليه[5].

رابعاً: سليمان والعلماء:

تميز سليمان بن عبد الملك بحرصه على تقريب العلماء وقبول نصيحتهم والاستماع إليهم، ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين كانوا مستشارين، رجاء بن حيوه، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم..

1 - رجاء بن حيوة:

أبو نصر الكندي، والإمام القدوة، الوزير العادل، الفقيه، من جلة التابعين، حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت وطائفة[6]، قال عنه مسلمة بن عبد الملك أمير السرايا: برجاء بن حيوة وبأمثاله ننصر[7]. وهو من العلماء الذين كان لهم قرب وحظوة عند خلفاء بني أمية، قال عنه صاحب الحلية: مشير الخلفاء والأمراء[8]، وقد بدأ اتصاله بهم منذ عهد عبد الملك وقد بلغت مشاركة رجاء وتأثيره السياسي في عهد سليمان بن عبد الملك الذروة، فقد اتخذه سليمان وزير صدق له يستشيره في كثير من الأمور والقضايا المتعلقة

(1) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 134.
(2) المصدر نفسه، ص: 134.
(3) المصدر نفسه، ص: 136.
(4) المصدر نفسه، ص: 137.
(5) المصدر نفسه، ص: 138.
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 557).
(7) المصدر نفسه (4/ 561).
(8) الحلية (5/ 170).

بسياسة الدولة وإدارتها فقال عنه سعيد بن صفوان: وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان ابن عبد الملك ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه[1]، وقد كان رجاء ملازماً لسليمان حتى في سفره بدليل أنه كان معه حين خرج إلى دابق[2]، وكان يخلو معه في مجلسه وأشرف بنفسه على تمريضه حتى مات[3]، على أن أكبر تأثير سياسي لرجاء في عهد سليمان يظهر في إشارته عليه باستخلاف عمر بن عبد العزيز من بعده والتخطيط الدقيق لتنفيذ ذلك بحكمة وحنكة[4]، وسيأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله. لقد كان لموقف رجاء في استخلاف عمر أثر سياسي كبير غير مجرى التاريخ الأموي بصفة خاصة، والإسلامي بصفة عامة وفي عهد عمر ابن عبد العزيز ظل رجاء يتبوأ مكانة كبيرة ومنزلة عالية من خلال قربه من عمر وملازمته له، حيث جعله عمر من خواصه وسُمَّاره يستشيره ويستنصحه في أمور العامة والخاصة[5]، وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز أقبل على شأنه وترك القرب من الخلفاء وذلك حين رأى أنه لم يعد لقربه من الخليفة ما كان يهدف إليه من تحقيق المصالح وبذل الخير لعامة الأمة[6].

2 - سليمان ونصيحة أبي حازم:

حج سليمان بالناس سنة 97 هـ فمرّ على المدينة وهو يريد مكة فقال: أهاهنا أحد يذكّرنا؟ فقيل له: أبو حازم، فأرسل إليه فدعاه، فلما دخل عليه قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ قال: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل ولا أنا رأيتك، فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب وقال: أصاب الشيخ وأخطأت أنا. فقال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، فكيف القدوم على الله عز وجل غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما أنا عند الله؟ قال: يا أمير المؤمنين، اعرض عملك على كتاب الله عز وجل ، قال: وأين أجده؟ قال:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: 13-14] قال: يا أبا حازم، فأي عباد الله أفضل؟ قال: أولو المروءة والتقى، قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال: فأي الدعاء أسمع؟ قال: دعوة المحسن للمحسن، قال: فأي الصدقة أزكى؟ قال: صدقة السائل البائس وجهد من مقلّ ليس فيها منٌّ ولا أذى، قال: فأي

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 146.
(2) دابق: قرية قرب حلب.
(3) تاريخ الطبري (7/ 453، 454).
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 147.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 560).
(6) أثر الحياة السياسية، ص: 156.

القول أعدل؟ قال: قول الحق عند من يخافه أو يرجوه، قال: فأي الناس أحمق؟ قال: رجل انحط من هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره. قال: صدقت، فما الذي تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين تعفيني من ذلك؟ قال: لا، ولكن نصيحة تلقيها إليّ، قال: إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضى حتى قتلوا عليه مقتلة عظيمة، وارتحلوا عنها، فلو سمعت ما قالوا وما قيل لهم، فغشي على سليمان، فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم، قال أبو حازم: كذبت يا عدو الله إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيّنُنّه للناس ولا يكتمونه، فأفاق سليمان فقال: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح للناس؟ قال: تدع الصلف وتستمسك بالمروّة وتقسم بالسويّة، قال سليمان: كيف المأخذ به؟ قال: أن تأخذ المال من حله وتضعه في أهله، قال سليمان: هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله يا أمير المؤمنين! قال: ولِمَ؟ قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات، قال: يا أبا حازم ارفع إليّ حوائجك، قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة، قال: ليس ذلك إليّ، قال: فلا حاجة لي غيرها، قال: فادع لي الله يا أبا حازم، قال: اللهمّ إن كان سليمان وليّك فيسّره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى، قال سليمان: زدني، قال: يا أمير المؤمنين قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي لي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر، قال: أوصني يا أبا حازم، قال: سأوصيك وأوجز: عظّم ربك ونزّهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك من حيث أمرك، ثم قام، فبعث إليه سليمان بمائة دينار وكتب إليه أن أنفقها ولك مثلها كثير فردها عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً وردّي عليك باطلاً، فوالله ما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي؟ يا أمير المؤمنين، إن كانت هذه المائة عوضاً لما حدثتك فالميتة ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلُّ من هذه، وإن كانت هذه حقاً لي في بيت المال فلي فيها نظر، فإن سويت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، قال له جلساؤه: يا أمير المؤمنين أيسرّك أن يكون الناس كلهم مثله؟ قال: لا والله[1].

خامساً: إكرام سليمان لأهل الوفاء ووفاة ابنه أيوب:

1 - إكرام سليمان لأهل الوفاء:

دعا سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم وهو موثوق في الحديد، وكان صاحب أمر الحجّاج، فلما دخل عليه ازدراه حين رآه ونبت عنه عيناه، وقال: ما رأيت كاليوم، وكان يزيد لا يملأ العين منظره، ثم قال له سليمان: لعن الله رجلاً أقادك رسَنه وحكمك في أمره، فقال له يزيد: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، إنك ازدريتني والأمر عني مدبر، وعليك مقبل، ولو رأيتني

---

(1) وفيات الأعيان (2/ 423).

والأمر عليّ مقبل، لاستعظمت من أمري ما استحقرت واستكبرت منه ما استصغرت، فقال له سليمان: صدقت، ثكلتك أمك اجلس فجلس في قيوده، فقال له سليمان: عزمت عليك يا ابن أبي مسلم، لتخبرني عن الحجّاج، أتراه يهوى في جهنم، أم قد قرّبها، قال: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا في الحجّاج، وقد بذل لكم النصيحة، وأخفر دونكم الذمة، وآلى وليكم وأخاف عدوكم وإنه يوم القيامة لعن يمين عبد الملك ويسار الوليد، فجعله حيث شئت، وصاح سليمان استكراهاً لكلامه وأمر باخراجه، ثم التفت إلى جلسائه وقال: ثكلته أمه، ما أحسن بديهته، وأحد قريحته، وأجمل تزيينه لنفسه ولأصحابه، لقد أحسن المكافآت على الصنيعة، وراعى اليد الجميلة، خلو سبيله، وأمر بحل قيوده ولم يتعرض لمضرته[1].

2 - وفاة أيوب بن سليمان:

لما حضر أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة - وكان ولي عهد أبيه - دخل عليه أبوه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عقبة ورجاء بن حيوه، فجعل سليمان ينظر في وجه أيوب، فخنقته العبرة، ثم قال: إنه ما يملك العبد نفسه أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة، والناس في ذلك أصناف: فمنهم المحتسب، ومنهم من يغلب صبره وجزعه، فذلك الجلد الحازم، ومنهم من يغلب جزعه صبره فذلك المغلوب والضعيف، وإني أجد في قلبي لوعة إن أنا لم أبردها خفت أن يتصدع قلبي كمداً، فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، الصبر أولى بك فلا يحبطن أجرك، قال سعيد بن عقبة: فنظر إلي وإلى رجاء بن حيوه نظر المستغيث يرجو أن نساعده على ما أدركه من البكاء، فأما أنا فكرهت أن آمره أو أنهاه، وأما رجاء فقال: يا أمير المؤمنين، إني لا أرى بذلك بأساً ما لم يأت الأمر المفرط، وإني قد بلغني أن النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه، فقال: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**». فبكى سليمان حين اشتد بكاؤه فظننا أن نياط قلبه قد انقطع، فقال عمر بن عبد العزيز لرجاء بن حيوه: بئس ما صنعت بأمير المؤمنين، فقال: دعه يا أبا حفص يقضي من بكائه وطراً، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى خفت أن يأتي عليه، ثم أمسك عن البكاء، ودعا بماء فغسل وجهه، وقضى الفتى، فأمر بجهازه، وخرج يمشي أمام جنازته، فلما دفن وقف ينظر إلى قبره ثم قال:

وقفت على قبر مقيم بقفرة ... متاع قليل من حبيب مفارق

ثم قال: السلام عليك يا أيوب، وقال:

كنت لنا أنساً ففارقتنا ... فالعيش من بَعدك مرُّ المذاق

ثم قال: يا غلام ادن دابتي مني، فركب وعطف دابته إلى القبر، وقال:

(1) الشهب اللامعة، ص: 455.

فإن صبرت فلم ألفظكَ من شبع ... وإن جزعت فعلقٌ منفسٌ ذهبا

فقال عمر: بل الصبر أقرب إلى الله عز وجل، قال: صدقت، وانصرف[1].

سادساً: سليمان والأكل والغناء ومدح الشعراء له:

1 - سليمان والأكل:

قدمت المصادر الشيعية وصفاً للعديد من مناقب سليمان، حيث ذكرت محاسنه الخلقية[2]، ووصفته بالفصاحة[3]، والتوقف عن سفك الدماء، وباستشارة النصحاء[4]، ورد المظالم[5]، وبتوالي الفتوحات في أيامه[6]، وعلى النقيض من ذلك، فإن رواة الشيعة لما لم يجدوا ما يقدح بسيرة سليمان ومنجزاته، نجدهم يركزون جل اهتمامهم على وصفه بالشراهة وبالغوا في ذلك أيما مبالغة، فتارة يصفونه بأنه لا يكاد يشبع[7]، وتارة يصفونه بأنه المصيبة العظمة في الأكل[8]، وتارة يصفونه بأنه أكولاً نهماً نكاحاً[9]. ويبدو أن الروايات الموالية للعباسيين، والروايات الشيعية تناست صعوبة - وربما استحالة - أن من جمع بين هذه المحاسن أن تكون همته مصروفة إلى النكاح والطعام، ولو كان الأمر على ما يقولون، فلن ينصف سليمان للمظلومين، ولن يعير السياسة الداخلية، والخارجية أي اهتمام، ولكان انكفأ على تلبية ملذاته ورغباته، ولكن سيرته وسياسته ومنجزاته العمرانية والعسكرية كفيلة بالرد على هذا الاتهام[10]، وقد ذكرت قصص في هذا الميدان، تشبه الأساطير كالتي ذكرها ابن أبي الحديد: وكان سليمان بن عبد الملك المصيبة الكبرى في الأكل، حيث أكل ثلاثين خروفاً بثمانين رغيفاً ثم أكل مع الناس كأنه لم يأكل شيئاً[11]، وغيرها من القصص الغريبة والعجيبة ويتبين للدارس المحقق أن المبالغة واضحة جلية في تصوير شره سليمان لعدة أسباب:

أ - مخالفتها للطبيعة البشرية التي لا تستطيع التهام هذا الكم الهائل من الطعام، مع ملاحظة أن المصادر تصفه بنحافة البدن[12] مما يتعارض وشرهه الموصوف في هذه الروايات.

---

(1) وفيات الأعيان (2/ 302).
(2) تاريخ اليعقوبي (2/ 299).
(3) تاريخ اليعقوبي (2/ 229)، مروج الذهب، (3/ 190).
(4) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 207.
(5) شرح البلاغة لابن أبي الحديد، نقلاً عن خلافة سليمان، ص: 207.
(6) خلافة سليمان، ص: 207، نقلاً عن الفخري، ص: 128.
(7) خلافة سليمان، ص: 207، نقلاً عن الفخري، ص: 128.
(8) شرح البلاغة لابن أبي الحديد نقلاً عن خلافة سليمان، ص: 207.
(9) خلافة سليمان، ص: 207.
(10) المصدر نفسه، ص: 208.
(11) شرح ابن أبي الحديد (5/ 465)، خلافة سليمان، ص: 65.
(12) تاريخ اليعقوبي (2/ 299)، خلافة سليمان 69.

ب - أن هذه الروايات جاءت من طريقين هما:

- المؤرخون ذو الميول الشيعية مثل: اليعقوبي، والمسعودي، وابن أبي الحديد، وابن الطقطقا.

- المؤرخون ذو الميول العباسية مثل: الواقدي، والمدائني، ويبدو أن الأمر لم يعد كونه وجود شهية قوية للأكل عند سليمان، واستغل خصوم الأمويين من عباسيين وشيعة هذا الأمر وضخموه[1].

2 - موقفه من الغناء:

كان ينهى الناس عن الغناء[2]، لوجود شواهد تؤيد ذلك، ويضاف إلى ذلك أن روايات الأصفهاني التي قالت بحب سليمان للغناء اتسم سندها بالضعف، حيث ضم سندها محمد بن زكريا الغلابي[3]، وهو ضعيف[4]، وهناك مسألة أخرى متصلة بالغناء، وهي خصي المخنثين كنتيجة مترتبة على الغناء، وهناك من يرى أن سليمان قد أمر بإخصاء المخنثين فتدخل عمر بن عبد العزيز موضحاً بأن هذا العمل مثلة ولا يحل فارتجع عن ذلك[5].

3 - مدح الشعراء له:

قال جرير في مدحه:

سليمان المبارك قد علمتم ... هو المهدي وقد وضح السبيل
أجرت من المظالم كل نفس ... وأديت الذي عهد الرسول[6]

وقال الفرزدق:

يداك يد الأسرى التي أطلقتهم ... وأخرى هي الغيث المغيث نوالها
وكم أطلقت كفاك من قيد بائس ... ومن عقدة ما كان يرجى انحلالها
كثيراً من الأسرى التي قد تكنعت ... فككت وأعناقاً عليها غلالها[7]

سابعاً: ولاية العهد ووفاة سليمان ٩٩هـ:

ذكر الفضل بن المهلب وغيره، أنه لبس في يوم جمعة حلة صفراء، ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر، وقد بسط ما حوله بالخضرة ثم

(1) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 69.
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 112).
(3) لسان الميزان (5/ 168).
(4) ميزان الاعتدال (3/ 550)، لسان الميزان (5/ 168).
(5) مرآة الزمان سبط ابن الجوزي، نقلاً عن خلافة سليمان 276.
(6) ديوان جرير، ص: 346 - 347.
(7) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 103، ديوان الفرزدق (2/ 76).

نظر في المرآة فأعجبه حسنه وشمر عن ذراعيه وقال: أنا الخليفة الشاب، وقيل: إنه كان ينظر في مرآة من فرقه إلى قدمه ويقول: أنا الملك الشاب[1]، وفي رواية أنه كان ينظر فيها ويقول: كان محمد نبياً ﷺ، وكان أبو بكر صديقاً، وعمر فاروقاً، وكان عثمان حيياً، وكان علي شجاعاً وكان معاوية حليماً، وكان يزيد صبوراً، وكان عبد الملك سائساً، وكان الوليد جباراً، وأنا الملك الشاب[2]، قالوا: فما دار عليه شهر وفي رواية: جمعة حتى مات[3]، ولمّا حُمَّ شرع يتوضأ فدعا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان

ليس فيما علمته فيك عيب ... كان في الناس غير إنك فان

فصاح بها وقال: عزتني في نفسي، وصرفها ثم أمر خاله الوليد بن القعقاع العنسي أن يصب عليه وقال:

قرّ وضوءك يا وليد فإنما ... هذه الحياة تعلة ومتاع

فقال الوليد:

فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً ... فالدهر فيه فرقة وجماع

وكان سليمان بمرج دابق من أرض قنسرين، فأمر خاله فوضّأه، ثم خرج يصلي بالناس، فأخذته لجة في الخطبة ثم نزل وقد أصابته حمى، فاستمر فيها حتى مات في الجمعة المقبلة[4]، وكان قد أقسم أنه لا يبرح دابقاً حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية، أو يموت قبل ذلك، فمات قبل ذلك - رحمه الله وأكرم مثواه - وكان آخر ما تكلم به أن قال: أسألك منقلباً كريماً، ثم قضى[5]. وكان لرجاء بن حيوه أثر كبير في تولية عمر بن عبد العزيز، ولم يكن للشيطان نصيب في قرار سليمان بتولية عمر الخلافة من بعده، وقال عبد الرحمٰن بن حسان الكناني: لما مرض سليمان بن عبد الملك المرض التي توفي فيه، وكان مرضه بدابق، ومعه رجاء بن حيوه، فقال لرجاء بن حيوه: يا رجاء من لهذا الأمر من بعدي، أستخلف ابني؟ قال: ابنك غائب. قال: فالآخر؟ قال: ذاك صغير. قال: فمن ترى؟ قال: أرى أن تستخلف عمر بن عبد العزيز. قال: أتخوف من بني عبد الملك ألا يرضوا. قال: فولي عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختم عليه وتدعوهم إلى بيعة مختومة عليها، قال: لقد رأيت، ائتني بقرطاس. قال: فدعا بقرطاس فكتب فيه العهد لعمر بن عبد

(1) البداية والنهاية (12/ 648).
(2) المصدر نفسه (12/ 648).
(3) المصدر نفسه (12/ 648).
(4) البداية والنهاية (12/ 649).
(5) المصدر نفسه (12/ 650).

العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، ثم ختمه، ثم دفعه إلى رجاء، قال: اخرج إلى الناس فمرهم أن يبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوماً. قال: فخرج إليهم رجاء فجمعهم، وقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب من بعده. قالوا: ومن فيه؟ قال: مختوم، لا تخبرونا بمن فيه حتى يموت، قال: لا نبايع حتى نعلم ما فيه. قال: فرجع رجاء إلى سليمان، قال: انطلق إلى أصحاب الشرطة والحرس، وناد الصلاة جامعة، ومر الناس فليجتمعوا، ومرهم بالبيعة على ما في هذا الكتاب، فمن أبى أن يبايع منهم فاضرب عنقه، قال: ففعل، فبايعوا على ما فيه. قال رجاء: فلما خرجت إلى منزلي، فبينما أنا أسير في الطريق، إذ سمعت جلبة موكب فالتفت فإذا هشام، فقال لي: يا رجاء قد علمت موقعك منا وإن أمير المؤمنين قد صنع شيئاً لا أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني فإن عدلها عني فأعلمني ما دام في الأمر نفس، حتى أنظر في هذا الأمر قبل أن يموت. قال: قلت: سبحان الله، يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه لا يكون ذلك أبداً، فأدارني والاصني[1]، فأبيت عليه، قال: فانصرف، بينما أنا أسير إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر بن عبد العزيز فقال لي: يا رجاء إنه قد وقع في نفسي أمر كثير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون قد جعلها إلي، ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نفس لعلي أتخلص منه ما دام حياً. قلت: سبحان الله، استكتمني أمير المؤمنين أمراً وأطلعك عليه، فأدارني والاصني، فأبيت عليه[2]. قال رجاء: وثقل سليمان، وحجب الناس عنه حتى مات، فلما مات أجلسته وأسندته وهيأته، وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ فقلت: إن أمير المؤمنين أصبح ساكناً وقد أحب أن تسلموا عليه، وتبايعوا على ما في هذا الكتاب، والكتاب بين يديه. قال: فأذنت للناس فدخلوا عليه وأنا قائم عنده فلما دنوا قلت إن أمير المؤمنين يأمركم بالوقوف ثم أخذت الكتاب من عنده[3] ثم تقدمت إليهم فقلت: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا على ما في هذا الكتاب. قال: فبايعوا، وبسطوا أيديهم، فلما بايعتهم على ما فيه أجمعين وفرغت من بيعتهم قلت لهم: آجركم الله في أمير المؤمنين قالوا: فمن؟ فافتتح الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فلما نظرت بنو عبد الملك تغيرت وجوههم[4].

وفي رواية أنه لما انتهى رجاء إلى عمر بن عبد العزيز نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبداً. فقال رجاء: أضرب والله عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه[5]. فلما قرأوا من بعده يزيد ابن عبد الملك كأنهم تراجعوا[6]، وقد توفي سليمان يوم الجمعة لعشر بقين من صفر 99هـ

(1) الاصه : أي راوده

(2) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 152.

(3) سير أعلام النبلاء (5/ 125). أخذت الكتاب من جيبه.

(4) أثر الحياة السياسية، ص: 153.

(5) المصدر نفسه، ص: 153.

(6) سير أعلام النبلاء (5/ 124 - 126).

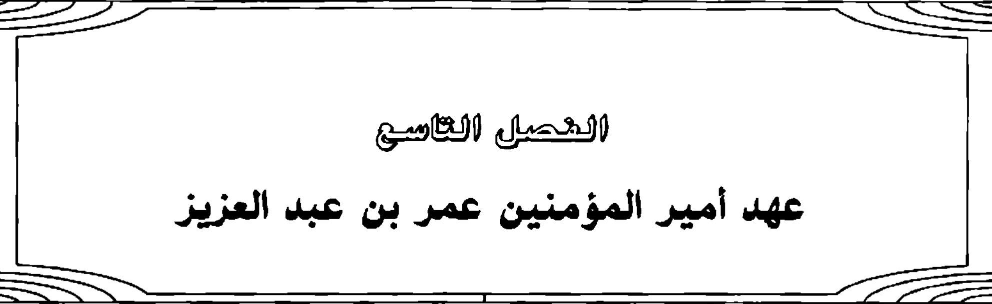
وكانت وفاته بمرج دابق، واختلف المؤرخون بنوع مرضه الذي مات فيه. فقسم منهم قال: إنه أصيب بالتخمة وهذا رأي ضعيف، وقسم آخر قال: إنه أصيب بذات الجنب[1]، وظهرت له أعراض المرض فعرضت له سعلة وهو يخطب فنزل وهو محموم، فما جاءت الجمعة التالية حتى مات، كما روى سبط ابن الجوزي ما نصه: ما زال سليمان بعد وفاة ابنه يذوب وينحل حتى مات كمداً[2]، وقد توفي وعمره على الأرجح 39 سنة[3]، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز[4]. وكان في نقش خاتمه: «آمنت بالله مخلصاً»[5]، وقد حفظ لسليمان بعض أبيات الشعر التي نظمها منها:

ومن شيمتي أن لا أفارق صاحبي ... وإن ملّني إلا سألت له رشدا
وإن دام لي بالود ولم أكن ... كآخر لا يراعى ذماماً ولا عهدا[6]

هذا وقد كانت خلافته ثلاث سنين إلا أربعة أشهر، وقيل: ثلاث سنين، وقيل كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام[7].



(1) تاريخ القضاعي، ص: 358.
(2) مرآة الزمان (12/ 230).
(3) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص: 91.
(4) تاريخ القضاعي، ص: 358.
(5) المصدر نفسه، ص: 359.
(6) خلافة سليمان، ص: 59، نقلاً عن مرآة الزمان (12/ 23).
(7) تاريخ الطبري (7/ 449).



الفصل التاسع

عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

المبحث الأول

من الميلاد إلى خلافته

أولاً: اسمه ولقبه وكنيته وأسرته:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بني أمية[1]، كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين[2]، وكان حسن الأخلاق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيِّد السياسة حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوّاها منيباً، قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوهُ وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أُعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين[3]، وكان رحمه الله فصيحاً مُفوَّهاً[4].

1 - والده:

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وكان من خيار أمراء بني أمية، شجاعاً كريماً بقي أمير لمصر أكثر من عشرين سنة، وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لما أراد الزواج قال لقيمه: اجمع لي أربعمائة ديناراً من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح[5]،

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 144).

(2) المصدر نفسه (5/ 114).

(3) المصدر نفسه (5/ 120).

(4) المصدر نفسه (5/ 136).

(5) الطبقات الكبرى (5/ 331)، الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز، هاني عمر، ص: 11.

فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ وهي حفيدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقيل اسمها ليلى[1]، كما أن زواجه من آل الخطاب ما كان ليتم لولا علمهم بحاله وحسن سيرته وخلقه، فقد كان حسن السيرة في شبابه، فضلاً عن التزامه وحرصه على تحصيل العلم واهتمامه بالحديث النبوي الشريف فقد جلس إلى أبي هريرة وغيره من الصحابة وسمع منهم، وقد واصل اهتمامه بالحديث بعد ولايته مصر، فطلب من كثير بن مرة في الشام أن يبعث إليه ما سمعه من حديث رسول الله ﷺ إلا ما كان من طريق أبي هريرة فإنه عنده[2]، وقد كان والد عمر بن عبد العزيز ذا نفس تواقة إلى معالي الأمور سواء قبل ولايته مصر أو بعدها فحين دخل مصر أيام شبابه تاقت نفسه إليها وتمنى ولايته فنالها[3]، ثم تاقت إلى الجود فصار أجود أمراء بني أمية وأسخاهم[4]، فكانت له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل[5]، ومن جوده كان يقول: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي أعظم من يدي عنده[6]. وقد أكثر المؤرخين من الثناء عليه لجوده وهذا الجود كان ممتزجاً باليقين بأن الله سبحانه وتعالى يخلف على من يرزقه فيقول: عجب لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم أجر وحسن ثناء، وكان ذا خشية من الله، ونستقرأ هذه الخشية من قوله حين أدركه الموت: وددت أني لم أكن شيئاً مذكوراً، ولوددت أني أكون هذا الماء الجاري أو نبتة بأرض الحجاز[7].

2 - أمه:

أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ، ووالدها، عاصم بن عمر بن الخطاب، الفقيه، الشريف أبو عمرو القرشي العدوي ولد في أيام النبوة وحدّث عن أبيه، وأمه هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّة، وكان طويلاً جسيماً وكان من نبلاء الرجال، ديِّناً، خيِّراً، صالحاً، وكان بليغاً، فصيحاً، شاعراً، وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأمّه، مات سنة سبعين، فرثاه ابن عمر أخوه:

فليت المنايا كُنَّ خلَّفن عاصماً   فعشنا جميعاً أو ذهبنا بنا معاً[8]

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطاب ﷺ، فعن عبد الله بن الزبير بن

---

(1) عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره في أحداث العصر الأموي، ص: 58.
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 47).
(3) الولاة وكتاب القضاة للكندي، ص: 54.
(4) معجز الإسلام، خالد محمد خالد، ص: 55.
(5) الخطط للمقريزي (1/ 21)، بدائع الزهور (1/ 28).
(6) عبد العزيز بن مروان، ص: 55.
(7) المصدر نفسه، ص: 56 نقلا عن البداية والنهاية.
(8) سير أعلام النبلاء (4/ 97).

أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو يَعُسُّ[1] بالمدينة إذ أعيا فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمتاه أو ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم، قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر منادياً ، فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنتاه قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم عَلِّم الباب واعرف الموضع، ثم مضى في عسه، فلما أصبحا قال: يا أسلم امض إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها وهل لهم من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها وإذا تيك أمها وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر أخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه.. فقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية، فزوجها من عاصم فولدت لعاصم بنتاً وولدت البنت عمر بن عبد العزيز[2]، ويذكر أن عمر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا، ويقول: ليت شعري من ذو الشين[3] من ولدي الذي يملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً[4]؟ وكان عبد الله بن عمر يقول أن آل الخطاب يرون أن بلال بن عبد الله بوجهه شامة فحسبوه المبشر الموعود حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز[5].

3 - ولادته ومكانها: 61هـ، المدينة:

اختلف المؤرخون في سنة ولادته والراجح أنه ولد عام 61هـ وهو قول أكثر المؤرخين ولأنه يؤيد ما يذكر أنه توفي وعمره أربعون سنة حيث توفي عام 101هـ[6]، وتذكر بعض المصادر أنه ولد بمصر وهذا القول ضعيف لأن أباه عبد العزيز بن مروان بن الحكم إنما تولى مصر سنة خمس وستين للهجرة، بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، فولّى عليها ابنه عبد العزيز ولم يعرف لعبد العزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامته وبني مروان في المدينة[7]، وذكر الذهبي أنه ولد بالمدينة زمن يزيد[8].

(1) العُس: تقص الليل عن أهل الريبة، معجم مقاييس اللغة (4/ 42).
(2) سيرة عمر لابن الحكم، ص: 19 - 20، سيرة عمر لابن الجوزية، ص: 10.
(3) الشين: العلامة.
(4) سير أعلام النبلاء (5/ 122).
(5) المصدر نفسه (5/ 122).
(6) البداية والنهاية (12/ 676).
(7) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 54).
(8) تذكرة الحفاظ (1/ 118 - 120).

4 - أشج بني أمية:

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يلقب بالأشج، وكان يقال له أشج بني مروان، وذلك أن عمر بن عبد العزيز عندما كان صغيراً دخل إلى إصطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل فضربه فرس في وجهه فشجه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد[1]، ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: الله أكبر! هذا أشج بني مروان الذي يملك، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً[2]. وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم في وجهه وما قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه، كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً[3].

5 - إخوته:

كان لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز عشرة من الولد وهم: عمر وأبو بكر ومحمد وعاصم وهؤلاء أمهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وله من غيرها ستة وهم: الأصبغ وسهل وسهيل وأم الحكم وزبّان وأم البنين[4]، وعاصم هو من تكنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فكنيتها: أم عاصم[5].

6 - أولاده:

كان لعمر بن عبد العزيز رحمه الله أربعة عشرة ذكراً منهم: عبد الملك وعبد العزيز وعبد الله وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبكر والوليد وموسى وعاصم ويزيد وزبان وعبد الله[6]، وبنات ثلاثة: أمينة وأم عمار وأم عبد الله. وقد اختلفت الروايات عن عدد أولاد وبنات عمر بن عبد العزيز فبعض الروايات تذكر أنهم أربعة عشر ذكراً كما ذكره ابن قتيبة، وبعض الروايات تذكر أن عدد الذكور اثنا عشر وعدد الإناث ست كما ذكره ابن الجوزي[7]، والمتفق عليه من الذكور اثنا عشر، وحينما توفي عمر بن عبد العزيز لم يترك لأولاده مالاً إلا الشيء اليسير ورُوي أنه أصاب الذكر من أولاده من التركة تسعة عشر درهماً فقط، بينما أصاب الذكر من أولاد هشام

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 20).

(2) المعارف لابن قتيبة، ص: 362.

(3) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 20) د. محمد شقير.

(4) المعارف لابن قتيبة، ص: 362.

(5) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 22).

(6) المصدر نفسه (1/ 23).

(7) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 338، فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 24).

ابن عبد الملك ألف ألف (مليون) وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس في سبيل الله في يوم واحد، وقد رأى بعض الناس رجلاً من أولاد هشام يتصدق عليه[1]. فسبحان الله رب العالمين..

7 - زوجاته:

نشأ عمر بالمدينة وتخلق بأخلاق أهلها، وتأثر بعلمائها وأكب على أخذ العلم من شيوخها، وكان يقعد مع مشايخ قريش ويتجنب شبابهم، ومازال ذلك دأبه حتى اشتهر، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك[2]، وهي امرأة صالحة تأثرت بعمر بن عبد العزيز وآثرت ما عند الله على متاع الدنيا وهي التي قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدها أخت الخلائف والخليفة زوجها

ومعنى هذا البيت أنها بنت الخليفة عبد الملك بن مروان والخليفة جدها مروان بن الحكم، وأخت الخلائف فهي أخت الخلفاء الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والخليفة زوجها فهو عمر بن عبد العزيز رحمه الله، حتى قيل عنها: لا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها[3]. وقد ولدت لعمر بن عبد العزيز إسحاق ويعقوب وموسى، ومن زوجاته لميس بنت علي بن الحارث وقد ولدت له عبد الله وبكر وأم عمار، ومن زوجاته أم عثمان بنت شعيب بن زيان، وقد ولدت له إبراهيم. وأما أولاده: عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله فأمهم: أم ولد[4].

8 - صفاته الخلقية:

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أسمر رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم حسن اللحية، غائر العينين بجبهته أثر نفحة دابة وقد خطه الشيب[5]، وقيل في صفته: أنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية[6].

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 338.

(2) البداية والنهاية (12/ 680).

(3) المصدر نفسه (12/ 680).

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 314 - 315.

(5) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 58).

(6) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 11) الآثار الواردة (1/ 58).

ثانياً: العوامل التي أثرت في تكوين شخصية عمر بن عبد العزيز:

1 - الواقع الأسري:

نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة، فلما شب وعقل وهو غلام صغير كان يأتي عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: يا أمه أنا أحب أن أكون مثل خالي - يريد عبد الله بن عمر - فتؤفف به ثم تقول له: اغرب أنت تكون مثل خالك وتكرر عليه ذلك غير مرة. فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أمير عليها، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها فقال لها: يا ابنة أخي هو زوجك فالحقي به، فلما أرادت الخروج قال لها: خلفي هذا الغلام عندنا - يريد عمر - فإنه أشبهكم بنا أهل البيت، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر، قال لها: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسرّ بذلك عبد العزيز، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر، ثم قدم عمر على أبيه مسلماً[1]، وهكذا تربى عمر رحمه الله تعالى بين أخواله بالمدينة من أسرة عمر بن الخطاب، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة[2].

2 - إقباله المبكر على طلب العلم وحفظه القرآن الكريم:

قد رزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة وكانت يومئذٍ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب[3]، وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ. وقد تأثر كثيراً بالقرآن الكريم في نظرته لله عز وجل والحياة والكون والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الموت وكان يبكي لذكر الموت بالرغم من حداثة سنه، فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه وقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت. فبكت أمه حين بلغها ذلك[4]، وقد عاش طيلة حياته مع كتاب الله عز وجل متدبراً ومنفذاً لأوامره، ومن مواقفه مع القرآن الكريم:

أ - عن ابن أبي ذيب: قال: حدثني من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، وقرأ

---

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 24 - 25.
(2) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 56).
(3) البداية والنهاية (12/ 679).
(4) البداية والنهاية (12/ 678).

عنده رجل: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: 13]. فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس[1]. ومفهوم هذه الآية: إذا ألقي هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكاناً ضيقاً، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. ﴿دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ والثبور في هذا الموضوع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا والإيمان بما جاء به نبي الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة[2].

ب - **وعن أبي مودود قال:** بلغني أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُوا۟ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ [يونس: 61]. فبكى بكاءً شديداً حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة - زوجته - فجعلت تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهم، فجاء عبد الملك، فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون فقال: يا أبه، ما يبكيك؟ قال: خير يا بني، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار[3]. ومعنى الآية: إن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السمٰوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: 59]. فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: 6]، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [الشعراء: 217-219]، ولهذا قال تعالى: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون[4].

ج - **وعن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنزي قال:** رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة ووراءه حبشي يمشي فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال: هكذا رحمكما الله، حتى صعد المنبر، فخطب فقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [التكوير: 1]، فقال: وما شأن الشمس؟ ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير: 2]، حتى انتهى إلى ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣﴾ [التكوير: 12-13] فبكى وبكى أهل المسجد، وارتج

---

(1) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا، رقم 83.
(2) دموع القراء، محمد شومان، ص: 107 نقلاً عن تفسير ابن جرير.
(3) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا رقم 91.
(4) تفسير ابن كثير.

المسجد بالبكاء حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكي معه[1]. وهذه السورة جاءت فيها الأوصاف التي وصف بها يوم القيامة والتي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[2]. بل ثبت مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[3] [الانشقاق: 1]».

د - وعن ميمون بن مهران قال: قرأ عمر بن عبد العزيز ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1] فبكى ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 2] ما أرى المقابر إلا زيارة، ولابد لمن يزورها أن يرجع إلى الجنة أو إلى النار[4].

هذه بعض المواقف التي تبين تأثير القرآن الكريم على شخصية عمر بن عبد العزيز.

3 - الواقع الاجتماعي:

إن البيئة الاجتماعية المحيطة لها دور فعال ومهم في صناعة الرجال وبناء شخصيتهم، فعمر ابن عبد العزيز عاش في زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على طلب العلم والعمل بالكتاب والسنة، فقد كان عدد من الصحابة لا زالوا بالمدينة، فقد حدث عن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحاً شرب منه النبي ﷺ، وأمّ بأنس بن مالك، فقال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى[5]، فكان للإقامة بالمدينة آثار نفسية ومعان إيمانية، وتعلق روحي، وكان لذلك المجتمع قوة التأثير في صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز العلمية والتربوية[6].

4 - تربيته على أيدي كبار فقهاء المدينة وعلمائها:

اختار عبد العزيز والد عمر صالح بن كيسان ليكون مربياً لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تأديبه وكان يلزم عمر الصلوات المفروضة في المسجد، فحدث يوماً أن تأخر عمر بن عبد

---

(1) دموع القراء، ص: 111، 112.

(2) تفسير السعدي 912.

(3) أخرجه الترمذي رقم 3333 والحاكم (2/ 515)،(4/ 576) وصححه ووافقه الذهبي والألباني في صحيحه (3/ 70).

(4) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا، رقم 425.

(5) سير أعلام النبلاء (5/ 114).

(6) الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز، ص: 23.

العزيز عن الصلاة مع الجماعة فقال صالح بن كيسان: ما يشغلك؟ قال: كانت مرجّلتي[1]تسكن شعري، فقال: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟ فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه[2]، وحرص على التشبه بصلاة رسول الله أشد الحرص، فكان يتم الركوع والسجود ويخفّف القيام والقعود، وفي رواية صحيحة: أنّه كان يسبح في الركوع والسجود عشراً عشراً[3]، ولمّا حج أبوه ومرّ بالمدينة سأل صالح بن كيسان عن ابنه فقال: ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام[4]، ومن شيوخ عمر ابن عبد العزيز الذين تأثر بهم: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد كان عمر يجله كثيراً ونهل من علمه وتأدب بأدبه وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة، ولقد عبّر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه فقال: لمجلس من الأعمى: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحب إليّ من ألف دينار[5]، وكان يقول في أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير: لو كان عبيد الله حياً ما صدرت إلا عن رأيه ولوددت أن لي بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا[6]، وكان عبيد الله مفتي المدينة في زمانه، وأحد الفقهاء السبعة[7]، قال عنه الزهري: كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم[8]، وكان يقرض الشعر، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

بسم الذي أنزلت من عنده السور	والحمد لله أمّا بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر	فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المحتوم وارض به	وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئ عيش يُسرُّ به	إلا سيتبع يوماً صفوه كدر[9]

وقد توفي هذا العالم سنة 98هـ، وقيل 99هـ[10].

ومن شيوخ عمر سعيد بن المسيب، وقد تحدثت عن سيرته في عهد عبد الملك بن مروان وكان سعيد لا يأتي أحداً من الأمراء غير عمر[11]، ومن شيوخه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قال فيه سعيد بن المسيب: كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به وكان سالم

(1) مرجلتي: مسرحة شعري.
(2) البداية والنهاية (12/ 678).
(3) المصدر نفسه (12/ 682).
(4) المصدر نفسه (12/ 678).
(5) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 59، الطبقات (5/ 250) تهذيب التهذيب (7/ 22).
(6) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 59.
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 475).
(8) المصدر نفسه (4/ 477).
(9) المصدر نفسه (4/ 477).
(10) المصدر نفسه (4/ 478، 479).
(11) الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر، ص: 25.

أشبه ولد عبد الله به[1]، وكان ابن عمر يحب ابنه سالم وكان يلام في ذلك فكان يقول:

يلومنني في سالم وألومهم   وجلدة بين العين والأنف سالم[2]

كانت أمه أم ولد وقال فيه ابن أبي الزناد: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الغُرُّ السادة علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله ففاقوا أهل المدينة علماً وتقىً وعبادة وورعاً، فرغب الناس حينئذٍ في السراري[3]، وقال عنه الإمام مالك: لم يكن أحد في زمان سالم أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل والعيش منه، كان يلبس الثوب بدرهمين، ويشترى الشمال[4] ليحملها. قال: فقال سليمان بن عبد الملك لسالم ورآه حسن السّحنة: أي شيء تأكل؟ قال: الخبر والزَّيت، وإذا وجدت اللحم، أكلته. فقال له عمر: أو تشتهيه؟ قال: إذ لم أشتهه تركته حتى أشتهيه[5]، وذات يوم دخل سالم ابن عبد الله على سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثّة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال له رجل من أُخريات الناس: ما استطاع خالك أن يلبس ثياباً فاخرة أحسن من هذه، يدخل فيها على أمير المؤمنين؟ وعلى المتكلم ثياب ثريَّة، لها قيمة، فقال له عمر: ما رأيت هذه الثياب التي على خالي وضعته في مكانك، ولا رأيت ثياباً هذه رفعتك إلى مكان خالي ذاك[6]. وتربى وتعلم عمر بن عبد العزيز على يدي كثير من العلماء والفقهاء وقد بلغ عدد شيوخ عمر بن عبد العزيز ثلاثة وثلاثين، وثمانية منهم من الصحابة وخمسة وعشرون من التابعين[7]، فقد نهل من علمهم وتأدب بأدبهم ولازم مجالسهم حتى ظهرت آثار هذه التربية المتينة في أخلاقه وتصرفاته[8] فامتاز بصلابة الشخصية والجدية في معالجة الأمور والحزم وإمعان الفكر وإدامة النظر في القرآن، والإرادة القوية والترفع عن الهزل والمزاح[9].

هذه هي أهم العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته، ومن الدروس المستفادة هو أن العلماء الربانيين يقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة وهي الاهتمام بأولاد الأمراء والحكام وأهل الجاه والمال ففي صلاحهم خير عظيم للأمة الإسلامية.

ثالثاً: مكانته العلمية:

اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين: مالك

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 459).
(2) المصدر نفسه (4/ 460).
(3) المصدر نفسه (4/ 460).
(4) المصدر نفسه (4/ 460).
(5) المصدر نفسه (4/ 460).
(6) المصدر نفسه (4/ 461).
(7) مسند أمير المؤمنين عمر، ص: 33.
(8) الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز (1/ 67).
(9) عمر بن عبد العزيز للزحيلي، ص: 30.

وسفيان بن عيينة وصف إمام[1]، وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلّمنا منه[2]، وقال ميمون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلمَّ العلماء[3]، قال فيه الذهبي: كان إماماً فقيهاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، حافظاً، قانتاً لله أوَّاهاً منيباً يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري وفي العلم مع الزهري[4]، وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك ابن أنس ﷺ وهي رسالة قصيرة وفيها يحتج الليث - مراراً - بصحة قوله، بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله[5]، ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسائل وجعلوا له وصفاً يتميَّز به عن جدّه لأمه: عمر بن الخطاب ﷺ قال القرشي في الجواهر المضيئة: فائدة يقول: أصحابنا في كتبهم في مسائل الخلاف: وهو قول عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور[6]، ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة في تهذيب الأسماء واللغات وقال في أولها: تكرر في المختصر والمهذب[7]. وأما المالكية فيكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكر في» الموطأ« محتجاً بفتواه وقوله في مواضع عديدة في موطئه[8]، وأما الحنابلة فكذلك، يذكرونه كثير، وعمر هو الذي قال فيه الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز وكفاه هذا[9]، وكفانا قول الإمام أحمد أيضاً: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله[10]، ومن أراد أن يتبحر في علم عمر بن عبد العزيز ويعرف مكانته العلمية، فليراجع الكتب الآتية: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة للأستاذ حياة محمد جبر والكتاب في مجلدين، وهي رسالة علمية وكذلك فقه عمر بن عبد العزيز للدكتور

---

(1) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 67).

(2) تهذيب التهذيب (7/ 405) الآثار الواردة (1/ 67).

(3) تاريخ أبي زرعة، ص: 255، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 67).

(4) تذكرة الحفاظ، ص: 118 - 119.

(5) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 70).

(6) الجواهر المضيئة (4/ 552) الآثار الواردة (1/ 71).

(7) المختصر والمهذب من كتب الشافعية المشهورة.

(8) انظر : الموطأ الأرقام الآتية : 305، 592، 594، 614.

(9) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (1/ 72).

(10) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 61.

محمد سعد شقير في مجلدين وهي رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه، وموسوعة فقه عمر بن عبد العزيز لمحمد رواس قلعجي وسوف نرى في بحثنا فقه عمر بن عبد العزيز بإذن الله تعالى في العقائد والعبادات والسياسة الشرعية، وإدارة الدولة، والنظم المالية والقضائية والدعوية وتقيده بالكتاب والسنة والخلفاء الراشدين في خطواته وسكناته.

رابعاً: عمر في عهد الوليد بن عبد الملك:

يعد عمر بن عبد العزيز من العلماء الذين تميزوا بقربهم من الخلفاء وكان لهم أثر كبير في نصحهم وتوجيه سياستهم بالرأي والمشورة ويحتل عمر بن عبد العزيز مكانة متميزة في البيت الأموي، فقد كان عبد الملك يجله ويعجب بنباهته أثناء شبابه مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكره فيه بالمسئولية الملقاة على عاتقه وقد جاء فيها: أما بعد: فإنك راعٍ، وكل مسؤول عن رعيته حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**كل راعٍ مسئولٌ عن رعيته**»[1]. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: 87].

ويقال بأن عمر بن عبد العزيز ولّاه عمه عبد الملك خناصره لكي يتدرب على الأعمال القيادية في وقت مبكر[2]، وقد قيل: إن سليمان بن عبد الملك هو الذي ولاه على خناصره، وهناك من رجح القول وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه وحزن عليه حزناً عظيماً وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: يا مسلمة إني حضرت أباك لما دفن، فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله، راعني وهالني فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت وقد اجتهدت في ذلك[3].

1 - ولايته على المدينة:

في ربيع الأول من عام 87هـ ولّاه الخليفة الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة 91هـ وبذلك صار والياً على الحجاز كلها: واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يعمل في الناس بالحق والعدل ولا يظلم أحداً ولا يجور على أحد في

(1) أثر الحياة السياسية، ص: 159.
(2) الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز (1/ 93).
(3) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز بشير كمال عابدين، ص: 10.

أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة. **الشرط الثاني:** أن يسمح له بالحج في أول سنة لأن عمر كان في ذلك الوقت لم يحج.

الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يخرجه للناس في المدينة. فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة وفرح الناس به فرحاً شديداً[1].

2 - مجلس شورى عمر بن عبد العزيز: مجلس فقهاء المدينة العشرة:

كان من أبرز الأعمال التي قام بها عمر بن عبد العزيز تكوينه لمجلس الشورى بالمدينة، فعندما جاء الناس للسلام على الأمير الجديد بالمدينة وصلّى، دعا عشرة من فقهاء المدينة، وهم: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم ابن عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة ابن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني[2]. لقد عرفت أن عمر بن الخطاب كان يجمع المجلس للأمر يطرأ، فيرى ضرورة الشورى فيه، أما عمر بن عبد العزيز، وهو سبط عمر بن الخطاب، فقد أحدث مجلساً، حدّد صلاحياته بأمرين:

أ - أنهم أصحاب الحق في تقرير الرأي، وأنه لا يقطع أمراً إلا برأيهم. وبذلك يكون الأمير قد تخلى عن اختصاصاته إلى هذا المجلس، الذي نسميه» مجلس العشرة».

ب - أنه جعلهم مفتشين على العمال، ورقباء على تصرفاتهم فإذا ما اتصل بعلمهم أو بعلم أحدهم أن عاملاً ارتكب ظلامة، فعليهم أن يبلغوه وإلا فقد استعدى الله على كاتم الحق. ونلاحظ كذلك على هذا التدبير قد تضمن أمرين:

أحدهما: أن الأمير عمر بن عبد العزيز لم يخصص تعويضاً لمجلس العشرة لأنهم كانوا من أصحاب العطاء، وبما أنهم فقهاء، فما ندبهم إليه داخل في صلب اختصاصهم.

الثاني: إن عمر افترض - غياب أحدهم عن الحضور لعذر من الأعذار ولهذا لم يشترط في تدبيره حضورهم كلهم، وإنما قال: «أو برأي من حضر منكم»[3]، إن هذا المجلس كان

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 63)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 41، 42.

(2) الطبقات (5/ 257) موسوعة فقه عمر، قلعجي، ص: 548.

(3) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 561، 562).

يستشار في جميع الأمور دون استثناء[1]، ونستنتج من هذه القصة أهمية العلماء الربانيين وعلو مكانتهم وأنه يجب على صاحب القرار أن يدنيهم ويقربهم منه ويشاورهم في أمور الرعية، كما أنه على العلماء أن يلتفوا حول الصالح من أصحاب القرار من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن للمصالح وتقليل ما يمكن من المفاسد، كما أن عمر بن عبد العزيز لم يختصر في شوراه على هؤلاء فحسب، بل كان يستشير غيرهم من علماء المدينة، كسعيد بن المسيِّب، والزهري، وغيرهم، وكان لا يقضي في قضاء حتى يسأل سعيد، وفي المدينة أظهر عمر عبد بن العزيز إجلاله للعلماء وإكباره لهم، وقد حدث أن أرسل رحمه الله تعالى رسولاً إلى سعيد بن المسيِّب يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أمير ولا خليفة فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك، فأخذ سعيد نعليه وقام إليه في وقته، فلما رآه عمر قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا، فإنا لم نرسله ليدعوك، ولكنه أخطأ أنما أرسلناه ليسألك[2]، وفي إمارته على المدينة المنورة وسع مسجد رسول الله ﷺ بأمر من الوليد بن عبد الملك، حتى جعله مائتي ذراعاً في مائتي ذراع، زخرفه بأمر الوليد أيضاً، مع إنه رحمه الله تعالى كان يكره زخرفة المساجد[3]، ويتضح من موقف عمر بن عبد العزيز هنا أنه قد يضطر الوالي للتجاوب مع قرارات ممن هو أعلى منه حتى وإن كان غير مقتنع بها إذا قدر أن المصلحة في ذلك أكبر من وجوه أخرى. وفي أمارته على المدينة في سنة 91هـ حج الخليفة الوليد بن عبد الملك فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال، وشاهد الوليد بأم عينيه الإصلاحات العظيمة التي حققها عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة[4].

3 - الحادث المؤسف في ولاية عمر:

قال العلماء في السير: كان خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدَّث عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا بلغ بنو أبي العاص[5] ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً»[6]** وهو حديث ضعيف فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز - واليه على المدينة - يأمره بجلده مائة سوط ويحبسه فجلده عمر مائة سوط، وبرد له ماءً في جرّة ثم صبه عليه في غداة باردة

---

(1) نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق، ص: 391.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه، ص: 23، لابن عبد الحكم.

(3) تفسير القرطبي (12/ 267) موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز، ص: 20.

(4) موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز، ص: 20.

(5) أبي العاص : أي بنو العاص بني أمية الجد الثالث لكل من الوليد وعمر بن عبد العزيز.

(6) الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة (6/ 507)، عن أبي سعيد وأبي هريرة قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر طرق أخرى ورد بها هذا الحديث: وهذه الطرق كلها ضعيفة، انظر البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 98).

فكزّ[1]، فمات فيها. وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه، وندم على ما صنع منه وحزن عمر على موت خبيب، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان أنهم نقلوا خبيباً إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببقيع الزبير واجتمعوا عنده حتى مات، فبينما هم جلوس، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجى بثوبه. وكان الماجشون مع عمر ابن عبد العزيز في ولايته على المدينة. فقال عبد الله بن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبكم في مرية من موته اكشفوا له عنه، فكشفوا عنه، فلما رآه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائماً وقاعداً فقال لي: ما وراءك فقلت: مات الرجل. فسقط على الأرض فزعاً ثم رفع رأسه يسترجع فلم يزل يعرف فيه حتى مات. واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان كلما قيل له: إنك قد صنعت كذا فأبشر فيقول: كيف بخبيب[2] ، ولم يذكرها ويتصورها أمام عينه حتى مات[3]، ومن الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر: ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال: فأتيته في مجلسه الذي يصلي فيه الفجر والمصحف في حجره، ودموعه تسيل على لحيته[4]، وحدّث ابن أبي الزناد عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشيء قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة[5].

4 - عظة مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز له:

حبس عمر رجلاً بالمدينة، وجاوز عمر في حبسه القدر الذي يستحقه فكلمه مزاحم في إطلاقه، فقال له عمر: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرّ، فقال: مزاحم: مغضباً. يا عمر بن عبد العزيز، إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة، وفي صبيحتها تقوم الساعة يا عمر: ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع: قال الأمير قال الأمير. قال عمر: إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهي غطاء[6]. وهذه القصة تبين لنا أهمية الصديق الصالح المخلص الذي يذكرك بالله حين الغفلة.

---

(1) كزّ الرجل: فهو مكزوز أصابه داء الكزاز، وهو يبس وانقباض من البرد.
(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 43، 44.
(3) المصدر نفسه، ص: 42.
(4) المصدر نفسه، ص: 42.
(5) المصدر نفسه، ص: 42، الآثار الواردة (1/ 66).
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز للجوزي، ص: 140.

5 - بين عمر بن عبد العزيز والحجّاج في خلافة الوليد:

ذكر ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة كما مرّ ذكره ولكن ذكر غيره أنه عزل عنها، ففي سنة 92هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب رحمه الله تعالى إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج ولا يطيق أن يراه، لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: إن عمر بن عبد العزيز كتب إليَّ يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحّ عن المدينة[1]، وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه حيث كتب الحجّاج إلى الوليد: إن من قبلي من مراق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن: فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسري، وعزل عمر بن عبد العزيز[2]. وقد كان ميول الوليد لسياسة الحجّاج واضحاً وكان يظن بأنه سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولي عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به[3].

6 - عودة عمر بن عبد العزيز إلى دمشق:

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكي ومعه خادمه مزاحم، فالتفت إلى مزاحم وقال: يا مزاحم، نخشى أن نكون من نفت المدينة[4]، يشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ: **«ألا وإن المدينة كالكير يخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكير خبث الحديد»**[5]. وقال مزاحم: ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظرت فإذا القمر في الدبران[6] - كأنه تشاءم من ذلك - فقال: فكرهت أن أقول ذلك له

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه، ، ص: 24 لابن الحكم.

(2) تاريخ الطبري (7/ 383).

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 165.

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه، ص: 27 لابن الحكم.

(5) مسلم، كتاب: الحج، باب : المدينة تنفي شرارها.

(6) الدبران : نجم بين الثريا والجوزاء ويقال له التابع والتويبع وهو من منازل القمر سمي دبراناً لأنه يدبر الثريا أي يتبعها.

فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة! فنظر عمر فإذا هو بالدبران فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران. يا مزاحم: إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر ولكن نخرج بالله الواحد القهار[1]، وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضي أن تكون إقامته في دمشق، بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلماً، أو يشارك في إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها[2]، ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته في دمشق بجوار الوليد لم تخل من مشاكل، فالوليد يعتمد في تثبيت حكمه على ولاة أقوياء قساة يهمهم إخضاع الناس بالقوة، وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر إن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان ﷺ يقول: الوليد بالشام والحجّاج بالعراق، ومحمد بن يوسف - أخ الحجّاج - في اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك في مصر، .. امتلأت والله الأرض جوراً[3].

7 - نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل:

سلك عمر بن عبد العزيز بعض الطرق والوسائل لإصلاح هذا الوضع، فمن ذلك نصحه للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل، وقد نجح في بادي الأمر في استصدار قرار يمنع أي والٍ من القتل إلا بعد علم الخليفة وموافقته على ذلك، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين إن عندي نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فسلني عنها، قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم، إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم فمكث أياماً ثم قال: يا غلام من بالباب؟ فقيل له ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وأن عمالك يقتلون، ويكتبون إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك. فقال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. عليَّ بكتاب، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم فلم يحرج من ذلك إلا الحجّاج فإنه أمضه، وشق عليه وأقلقه. وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك، فقال: من أين ذهبنا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 27.
(2) البداية والنهاية (12/ 683).
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 146، أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 162.

الذي فعل ذلك فقال: هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره. ثم أن الحجّاج أرسل إلى أعرابي حروري - من الخوارج - جاف من بكر بن وائل، ثم قال له الحجّاج: ما تقول في معاوية؟ فنال منه. قال: ما تقول في يزيد؟ فسبه. قال: فما تقول في عبد الملك؟ فظلمه. قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أجورهم حين ولاك وهو يعلم عداءك وظلمك. فسكت الحجّاج وافترصها منه[1]، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لديني، وأرعى لما استرعيتني وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه. فدخل الحروري على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم فقال له الوليد: ما تقول فيّ؟ قال: ظالم جبار. قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال: جبار عاتٍ. قال: فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريان: اضرب عنقه فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال: يا غلام اردد عليّ عمر، فرده عليه فقال: يا أبا حفص ما تقول بهذا؟ أصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته، فقال الوليد: شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري أفتستحل ذلك؟ قال: لعمري ما أستحله، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مغضباً، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك[2]، وهكذا احتار الحجّاج على الوليد ليصرفه على الأخذ برأي عمر في الحد من سرف الحجّاج وأمثاله في القتل[3].

8 - رأي عمر بن عبد العزيز في التعامل مع الخوارج:

فبالإضافة إلى الموقف الذي مرّ ذكره آنفاً - في شأن الحروري الذي بعث به الحجّاج - وردت روايات توضح الموقف نفسه فعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخبره أن الوليد أرسل إليه بالظهيرة، فوجده قاطباً بين عينيه، قال: فجلست وليس عنده إلا ابن الريان، قائم بسيفه، فقال: ما تقول فيمن يسب الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ فسكت، فانتهرني، وقال: ما لك؟ فسكت، فعاد لمثلها، فقلت: أقتل يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنه سب الخلفاء، قلت: فإني أرى أن ينكل فرفع رأسه إلى ابن الريان، فقال الوليد: إنه فيهم لتائه.

9 - نصحه للوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه:

ومن آخر المواقف التي ذكرت لعمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، فوقف عمر من ذلك موقفاً حازماً حيث لم يستجب لأمر الوليد في ذلك وقال حين أراده على ذلك: يا أمير المؤمنين إنما

---

(1) افترصها: انتهزها.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 119 - 121 أثر العلماء في الحياة السياسية 164.

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 164.

بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك؟ فغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطين عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد ففتح عنه بعد ثلاث وقد ذبل ومالت عنقه[1].

خامساً: عمر في عهد سليمان بن عبد الملك:

في عهد سليمان تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز بقدر كبير فظهرت آثاره في مختلف الجوانب، فبمجرد تولي سليمان الخلافة قرب عمر بن عبد العزيز وأفسح له المجال واسعاً حيث قال: يا أبا حفص إنا ولينا ما قد ترى، ولم يكن بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به[2] وجعله وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته أو سفره وكان سليمان يرى أنه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحداً يفقه عني[3]. وفي موضع آخر قال: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكربني أمر إلا خطرت فيه على بالي[4].

1 - أسباب تقريب سليمان لعمر:

والذي دفع سليمان إلى إفساح المجال أمام عمر بهذه الصورة يعود في نظري إلى عدة أسباب منها:

أ - شخصية سليمان بن عبد الملك: حيث لم يكن مثل أخيه الوليد معجباً بنفسه معتداً برأيه وواقعاً تحت تأثير بعض ولاته، بل كان سليمان على العكس من ذلك غير معتد برأيه خالياً من التأثيرات الأخرى عليه.

ب - قناعة سليمان بما يتمتع به عمر من نظرات وآراء صائبة.

جـ - موقف عمر من محاولة الوليد لخلع سليمان مما جعل سليمان يشكر ذلك لعمر، وقد أشار لهذا الذهبي حيث قال بعد عرضه لموقف عمر: فلذلك شكر سليمان عمر وأعطاه الخلافة بعده[5].

2 - تأثير عمر على سليمان في إصدار قرارات إصلاحية:

فقد كان لعمر أثر كبير على سليمان في إصدار عدد من القرارات النافعة ومن أهمها: عزل ولاة الحجّاج، وبعض الولاة الآخرين، كوالي مكة خالد القسري، ووالي المدينة عثمان بن

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 148، 149) أثر العلماء، ص: 167.
(2) المصدر نفسه نقلاً عن أثر العلماء، ص: 168.
(3) المعرفة والتاريخ للفسوي (1/ 598).
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 28 لابن عبد الحكم، أثر العلماء، ص: 168.
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 149).

حيان[1]، ومنها الأمر بإقامة الصلاة في وقتها، فأورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولي سليمان كتب إلى الناس - عن رأي عمر - أن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها[2] وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها[3].

3 - إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه:

كلمّ عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بني عبد الملك، فقال له سليمان بن عبد الملك: إن عبد الملك كتب في ذلك كتاباً منعهن ذلك، فتركه يسيراً ثم راجعه فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر فقال سليمان لغلامه: ائتني بكتاب عبد الملك، فقال له عمر: أبالمصحف دعوتَ يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمان أيوب، فقال عمر: إن كان جهل فما حلمُنا عنه[4]. فهذا موقف من مواقف الجرأة في قول الحق الذي يُحمد لعمر حيث اعتبر سليمان بن عبد الملك كتابة أبيه شرعاً لا يمكن تغييره فنبهه عمر إلى أن الكتاب الذي لا ينقض ولا يغيّر هو كتاب الله تعالى وحده، وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد الذين ورّثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذي يعتبرون فيه قضاءهم شرعاً نافذاً من غير نظر في موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته، وموقف يذكر لسليمان حيث وبخّ ولده الذي هدد عمر أن قال كلمة الحق، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من سرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له[5].

4 - إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق:

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيماً، فقال لعمر بن عبد العزيز: كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قال: رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم[6]. فهذا تقويم جيد من عمر بن عبد العزيز لعمل سليمان بن عبد الملك، فقد كان سليمان لجهله بدقائق أحكام الشريعة في مجال الإنفاق - يظن أنه بإنفاقه ذلك المال الكثير على الرعية قد عمل صالحاً، فأفاده عمر بن عبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلك المال لغير مستحقيه وحرم منه أهله[7]، فقد بين عمر رحمه الله أهمية التفريق بين بذل الخير وصرفه لمستحقيه.

---

(1) أثر العلماء على الحياة السياسية، ص: 169.
(2) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء على الحياة السياسية، ص: 170.
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 125).
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 31.
(5) التاريخ الإسلامي (15/ 30، 31).
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص: 131.
(7) التاريخ الإسلامي (15/ 29).

5 - حث عمر سليمان على رد المظالم:

خرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر: إنما هذا صوت نعمة فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال سليمان: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك، فجلس سليمان فرد المظالم[1]، ويظهر عند عمر وضوح فقه ترتيب الأولويات فرد المظالم مقدم على بذل الصدقات.

6 - أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً:

أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين، ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: ما تقول يا عمر في هذا؟ قال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسئول عن ذلك كله. فلما اقتربوا من المعسكر، إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبة[2]، فقال له سليمان: ما تقول في هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري. فقال: ما ظنك أنه يقول؟ قال: كأنه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك؟ فقال عمر: أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه[3].

7 - هم خصماؤك يوم القيامة:

لما وقف سليمان وعمر بعرفة جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: هؤلاء رعيّتُك اليوم، وأنت مسئول عنهم غداً، وفي رواية: وهم خصماؤك يوم القيامة فبكى سليمان وقال: بالله أستعين[4].

8 - زيد بن الحسن بن علي مع سليمان:

كان زيد بن الحسن بن علي قد أجاب الوليد بن عبد الملك في مسألة خلع سليمان خوفاً من الوليد، وكتب بموافقته من المدينة إلى الوليد، فلما استخلف سليمان وجد الكتاب، فبعث إلى واليه على المدينة، أن يسأل زيداً عن أمر الكتاب، فإن هو اعترف به فليبعث بذلك إليه، وإن أنكر عليه اليمين أمام منبر رسول الله ﷺ، فلما بعث باعترافه إلى سليمان كتب سليمان إلى والي المدينة أن يضربه مائة سوط ويمشيه حافياً.. فحبس عمر الرسول وقال: لا تخرج حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب في زيد بن حسن لعلي أطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. فجلس

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 33، أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 170.

(2) نعب الغراب: صوّت أو مد عنقه وحرك رأسه في صياحه.

(3) البداية والنهاية (12/ 685).

(4) المصدر نفسه (12/ 685).

الرسول فمرض سليمان، فقال للرسول لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض، فلما توفي سليمان وأفضى الأمر إلى عمر دعا بالكتاب ومزقه[1]. وظل عمر بن عبد العزيز قريباً من سليمان طيلة مدة خلافته يحوطه بنصحه ويشاركه مسئولياته[2].

ويرى الدكتور يوسف العش أن سياسة عمر ابن عبد العزيز ومنطلقاتها بدأت منذ بداية خلافة سليمان، نعم إن سليمان كان يشتط حيناً في سياسته، فيتخذ تدابير لعل عمر لا يقرها، لكن عمر بن عبد العزيز كان بالرغم من ذلك راجح القوة في خلافته وسياسة عمر لم تتغير، فهو في دمشق مثله في المدينة، على أنه في دمشق يستطيع أن يفعل أكثر من المدينة، والأمر المهم عنده هو منع الجور[3]، والظلم والتعسف، ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز تعامل مع سنة التدرج وفق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في رد المظالم ومنعها، وعندما وصل للخلافة ازداد في إحقاق العدل ومحاربة الظلم لأن الصلاحيات المتاحة كانت أكبر، فهو نصح عمه عبد الملك وذكره بالآخرة مع جبروته وظلمه، ولم يتقاعس في عهد ابن عمه الوليد، وتقدم خطوات ووفق حسب الإمكان في عهد سليمان وأتيحت له الفرصة في خلافته وبالتالي لا نقول أن ما حدث لعمر على مستواه الشخصي انقلاب وإنما الانقلاب في توظيف الدولة لخدمة الشريعة في كافة شؤون الحياة ولو كان على حساب العائلة الحاكمة، التي كانت لها مخصصاتها وصلاحياتها والتي اعتبرها عمر بن عبد العزيز حقوق للأمة يجب ردها إلى بيت المال أو إلى أصحابها الأصليين.

سادساً: خلافة عمر بن عبد العزيز:

ومن حسنات سليمان بن عبد الملك قبوله لي نصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي الذي اقترح على سليمان في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب[4]، قال ابن سيرين: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز، وكانت سنة وفاته سنة 99هـ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوش في خاتمه: (اؤمن بالله مخلصاً)[5]، وتعددت الروايات في قصة استخلاف سليمان لعمر ، وقد ذكرت بعضها في حديثي عن عهد سليمان، ومن الروايات أيضاً ما ذكره ابن سعد في طبقاته، عن سهيل بن أبي سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضر من خز ونظر في المرآة فقال: أنا والله

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 104.

(2) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 173.

(3) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 254.

(4) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص: 37 للصَّلاَّبي.

(5) سير أعلام النبلاء (5/ 111، 112).

الملك الشاب فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح، فقال سليمان: كتاب أستخير الله فيه، وأنظر، ولم أعزم عليه، فمكث يوماً أو يومين، ثم خرقه ثم دعاني، فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت. قال: يا رجاء فمن ترى؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين وأنا أريد أن أنظر من يذكر. فقال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً. فقال: هو على ذلك والله لئن وليته، ولم أول أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده - ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم - قال: فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنه ويرضون به، قلت: رأيك قال: فكتب بيده بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا، فيطمع فيكم. وختم الكتاب فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مُرْ أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب، فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم، إنه كتابي ومرهم فليبايعوا من وليت. قال: ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه، وقالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين، قال نعم. فدخلوا فقال لهم سليمان: هذا الكتاب - وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة - هذا عهدي، فاسمعوا، وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب. قال فبايعوا رجلاً. قال: ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء. قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام، إن سليمان كانت لي به حرمة ومودة، وكان بي براً ملطفاً، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلي من هذا الأمر شيئاً، فأنشدك الله وحرمتي ومودتي، ألا أعلمتني إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة. فقال رجاء: لا والله ولا حرفاً واحداً. قال: فذهب عمر غضبان. قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك، فقال: يا رجاء، إن لي بك حرمة ومودة قديمة وعندي شكر، فأعلمني أهذا الأمر إليّ؟ فإن كان إلي علمت، وإن كان إلى غيري تكلمت، فليس مثلي قصر به، ولا نحي عنه هذا الأمر، فأعلمني فلك الله لا أذكر اسمك أبداً. قال رجاء: فأبيت وقلت لا والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسر إلي. ، فانصرف هشام. . ، وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى، وهو يقول: فإلى من إذا نحيت عني؟ أتخرج من بني عبد الملك؟ فوالله إني لعين بني عبد الملك. قال رجاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك، فإذا هو يموت. قال: فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت، حرفته إلى القبلة، فجعل يقول وهو يفأق: لم يأت ذلك بعد يا رجاء. حتى فعلت ذلك مرتين. فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء، إن كنت تريد

شيئاً أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فحرفته ومات، فلما أغمضته سجيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب، وأرسلت إلى زوجته تنظر إليه، كيف أصبح فقلت: نام وقد تغطى، فنظر الرسول إليه، مغطى بالقطيفة فرجع، فأخبرها، فقبلت ذلك وظنت أنه نائم. قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه، ولا يدخل على الخليفة أحداً. قال: فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق فقلت: بايعوا، قالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى! قلت: هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى في هذا الكتاب المختوم، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً. قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان، رأيت أني قد أحكمت الأمر، قلت قوموا إلى صاحبكم فقد مات. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: لا نبايعه أبداً. قال: قلت: أضرب والله عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه. قال رجاء: وأخذت بضبعي عمر، فأجلسته على المنبر وهو يسترجع، لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطاه فلما انتهى هشام إلى عمر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أي حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك، قال فقال عمر: نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلي - لكراهتي له[1]. وقال أبو الحسن الندوي على موقف رجاء ابن حيوة: وكان لرجاء مأثرة لا ينساها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهز الفرصة مثل انتهازه وأسدى للإسلام خدمة مثله[2]، فرحم الله رجاء بن حيوة فقد رسم منهجاً لمن يجلس مع الملوك من العلماء كيف يعز الإسلام ويذكر الخلفاء بالله وينتهز الفرص المناسبة لخدمة دين الله.

1 - منهج عمر في إدارة الدولة من خلال خطبته الأولى:

صعد عمر المنبر وقال في أول لقاء مع الأمة بعد استخلافه: أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك فولّ أمرنا باليمن والبركة. وهنا شعر أنه لا مفر من تحمل مسؤولية الخلافة فأضاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته في سياسة الأمة المسلمة[3]: أما بعد فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاض، ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم غير أن الله جعلني أثقلكم

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 445)، الطبقات (5/ 335 - 338).

(2) رجال الفكر والدعوة للندوي (1/ 40).

(3) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ماجدة فيصل، ص: 102.

حملاً. أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس، و إلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية ولا يعترض فيما لا يعنيه. أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات... وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها ﷺ، ولا في كتابها وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً. ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. وإن من حولكم من الأمصار والمدن فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوال[1]، ثم نزل. وهكذا عقدت الخلافة لعمر ابن عبد العزيز في ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين[2]، ويظهر لنا من هذه الخطبة السياسية التي قرر عمر بن عبد العزيز اتباعها في الحكم وهي:

أ - التزامه بالكتاب والسنة، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أي جدل في مسائل الشرع، والدين على أساس أنه حاكم منفذ وأن الشرع بيّن من حيث تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله ورفضه للبدعة والآراء المحدثة.

ب - حدد لمن يريد أن يتصل به ويعمل معه من رعيته أن يكون اتصاله معه لخمسة أسباب:

◄ - أن يرفع إليه حاجة من لا يستطيع أن يصل إلى الخليفة، أي أنه جعل المقربين منه همزة وصل بينه وبين من لا يستطيعون الوصول إليه، فيعرف بذلك حوائج الناس، وينظر فيها.

◄ - أن يعينه على الخير ما استطاع، أي أن علاقة هؤلاء به تقوم على أساس نزعة الخير يعين الخليفة عليه، وبالتالي يحذره من أي شر.

◄ - فرض على من يقترب إليه فريضة أن يرشده، ويهديه إلى ما فيه خير الأمة، وخير الدين.

◄ - نهى من يريد أن يتقرب إليه، عن أن يغتاب إليه أحد.

◄ - أن لا يتدخل أي متقرب منه في شؤون الحكم، وفيما لا يعنيه عامة.

---

(1) انظر: مع بعض الاختلاف الطبقات (5/ 340)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص: 35، 36، عمر ابن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 104.

(2) البداية والنهاية (12/ 657).

لقد كان يدرك مدى تأثير البطانة والمقربين من الحاكم على الحاكم وعلى الرعية، وعلى أسلوب الحكم، فآثر أن ينبه الناس حتى يتركوه يحكم بما ارتضى في نطاق شرع الله، دون أن يعدهم نهائياً لأنه أجاز لهؤلاء المقربين أن يدلوه على الخير، ويعينوه عليه، وأن ينقلوا إليه حاجة المحتاج[1].

ج - كما أنه حذر الناس من عواقب الدنيا لو أساؤوا فيها، وطلب إليهم أن يصلحوا سرائرهم ويحذروا الموت، ويتعظوا به.

ح - قطع على نفسه عهداً بأن لا يعطي أحداً باطلاً، ولا يمنع أحداً حقاً، وأنه أعطاهم حقاً عليه، وهو أن يطيعوه ما أطاع الله، وأنه لا طاعة له عليهم إذا عصاه سبحانه وتعالى. هذه هي الخطوط العريضة لسياسة عمر، ذكرها في أول لقاء له مع الرعية وأهل الحل والعقد في المسجد، بعد بيعته فدولته قد حدّدها بالسير على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وقد آثر أن لا يدع لأي عامل من عماله حجة عليه بعد ذلك ففصل ما أجمل في خطبته الأولى في كتب أرسلها إلى عماله وقد كانت هذه الكتب نوعين:

- كتب إلى العمال يبصرهم بما يجب عليهم أن يلتزموا به في مسلكهم الشخصي، والخاص - إزاء الرعية - وسوف نتحدث عن ذلك بإذن الله.

- وكتب إلى عماله التي حددت سياستهم، وطريقة تعاملهم مع أفراد الرعية من المسلمين، وغير المسلمين، ممن كانوا يسكنون دار الإسلام وعمر في هذه الكتب - كما سيظهر بإذن الله - تكلم عن موقفه كفقيه متبحر في أصول الدين[2]، وسيأتي الحديث عن منهجه من خلال أعماله.

2 - الحرص على العمل بالكتاب والسنة:

من أهم ما يميز منهج عمر في سياسته، حرصه على العمل بالكتاب والسنة ونشر العلم بين رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة، ومنطلق عمر في ذلك فهمه لمهمة الخلافة، فهي حفظ الدين وسياسة الدنيا به[3]، فهو يرى أن من أهم واجباته تعريف رعيته بمبادئ دينهم وحملهم على العمل بها، فورد عنه أنه قال: في إحدى خطبه: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلأن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[4]. وقال أيضاً: فلو

(1) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 105.
(2) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 106.
(3) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص: 5.
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 60 لابن عبد الحكم.

كان كل بدعة يميتها الله على يدي وكل سنة يعيشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً. وفي موضع آخر قال: والله لولا أن أنعش سنة أو أسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقاً[1]، لهذا بادر عمر في تنفيذ هذه المسئولية المهمة، فبعث العلماء في تعليم الناس وتفقيههم إلى مختلف أقاليم الدولة وفي حواضرها وبواديها، وأمر عماله على الأقاليم بحث العلماء على نشر العلم، فقد جاء في كتابه الذي بعث إلى عماله: ومر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به في مجالسهم[2]، ومما كتب به إلى بعض عماله: أما بعد فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم فإن السنة كانت قد أميتت[3]، كما أمر عماله أن يجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم[4]، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين، فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس والبدو[5]، وذكر الذهبي أن عمر ندب يزيد بن أبي مالك ليفقه بني نمير ويقرئهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن[6]، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقهون أهلها وسيأتي الحديث عنهم بإذن الله، ولم تنحصر مهمة هؤلاء العلماء في التعليم فحسب، بل منهم من أسند إليه بعض الولايات، ومنهم من تولى القضاء وأسهم أكثرهم بالإضافة إلى نشر العلم في مجال الدعوة والجهاد في سبيل الله ، وهذا الاهتمام الذي تميز به منهج عمر لتعليم الناس وتفصيلهم لأمور دينهم له أبعاد سياسية وآثار أمنية، ذلك أن نشر الوعي الديني الصحيح والفقه فيه بين أفراد الرعية له أثر في حماية عقول أبناء الأمة من عبث الأفكار التي ينعكس خطرها على الاستقرار السياسي والأمني، كأفكار الخوارج[7] وغيرهم.

3 - الشورى في دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: 38]. وقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]. وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته، ومن أقواله في الشورى: إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل

---

(1) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت أو ما بين فتح اليد وقبضها على الضرع.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 73.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 76.

(4) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 179.

(5) مختصر تاريخ دمشق (6/ 175) أثر العلماء، ص: 179.

(6) سير أعلام النبلاء (5/ 438).

(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 180.

معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم[1]، وكان أول قرار اتخذه عمر بعدما ولي أمر المدينة للوليد ابن عبد الملك، يتعلق بتطبيق مبدأ الشورى، وجعله أساساً في إمارته، حين دعا من فقهاء المدينة وكبار علمائها، وجعل منهم مجلساً استشارياً دائماً[2] - كما مر معنا - حري بمن جعل الشورى أحد مبادئ إمارته حين كانت مسئوليته جزئية أن يطبقه وقت المسئولية الكاملة، والمهمة العظمى، ألا وهي ولاية أمر المسلمين كافة وقد تبين مبدأ الشورى من أول يوم في خلافته، وقال للناس: أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر، من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، (فاختاروا لأنفسكم) فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك فول أمرنا باليمن والبركة[3]، وبذلك خرج عمر من مبدأ توريث الولاية الذي تبناه معظم خلفاء بني أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتف عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل يهمه رأي المسلمين في الأمصار الأخرى ومشورتهم، فقال في خطبته الأولى - عقب توليه الخلافة -: .. وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال، ثم نزل[4]. وقد كتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها، وممن كتب لهم يزيد بن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنه في الخلافة ليس براغب، فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا[5]. وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله بل امتد الأمر إلى جميع أمصار المسلمين ونستنتج من موقف عمر هذا ما يلي:

أ - أن عمر كشف النقاب عن عدم موافقة الأصول الشرعية في تولي معظم الخلفاء الأمويين.

ب - حرص عمر على تطبيق الشورى في أمر يخصه هو، ألا وهو توليه الخلافة.

جـ - أن من طبق مبدأ الشورى في أمر مثل تولي الخلافة حري بتطبيقه فيما سواه.

وكان عمر يستشير العلماء، ويطلب نصحهم في كثير من الأمور أمثال سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرطبي، ورجاء بن حيوة وغيرهم، فقال: إني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا علي[6]. كما كان يستشير ذوي العقول الراجحة من الرجال[7]، وقد حرص عمر على إصلاح

---

(1) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص: 189.
(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص: 283.
(3) سيرة مناقب عمر بن عبد العزيز، ص: 65.
(4) البداية والنهاية (12/ 657).
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 285.
(6) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص: 16.
(7) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص: 285.

بطانته لما تولى الخلافة، فقرب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح، وأقصى عنه أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة ولم يكتف ﷺ بانتقاء بطانته، بل كان زيادة على ذلك يوصيهم ويحثهم على تقويمه، فقال لعمر بن مهاجر: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني ثم قل: يا عمر ما تصنع[1]؟، وقد كان لهذا المسلك أثر في تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها، حيث كان لبطانته أثر في شد أزره، وسداد رأيه وصواب قراره[2]، فمن أسباب نجاح عمر بن عبد العزيز تقريبه لأهل العلم والصلاح وانشراح صدره لهم ومشاركتهم معه لتحمل المسئولية فنتج عن ذلك حصول الخير العميم للإسلام والمسلمين.

4 - العدل في دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: 90] وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء: 135] وللعدل صورتان: صورة سلبية بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم، أي بمنع انتهاك حقوق الناس المتعلقة بأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وإزالة آثار التعدي الذي يقع عليهم وإعادة حقوقهم إليهم ومعاقبة المعتدي عليها فيما يستوجب العقوبة[3]. وصورة إيجابية: وتتعلق أكثر ما تتعلق بالدولة، وقيامها بحق أفراد الشعب في كفالة حرياتهم وحياتهم المعاشية، حتى لا يكون فيهم عاجز متروك، ولا ضعيف مهمل، ولا فقير بائس، ولا خائف مهدد، وهذه الأمور كلها من واجبات الحاكم في الإسلام[4]. وقد قام أمير المؤمنين عمر بهذا الركن العظيم والمبدأ الخطير على أتم وجه وكان يرى أن المسئولية والسلطة في نظر عمر هي القيام بحقوق الناس والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة[5]، وقد أحب الاستزادة من فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة الفريدة الحميدة فكتب إلى الحسن البصري يسأله في ذلك فأجابه الحسن: الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتب لهم في حياته ويدخرهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البّرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 175 إلى 177.

(2) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 178.

(3) عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، عبد الستار الشيخ، ص: 222.

(4) المصدر نفسه، ص: 222، نظام الإسلام محمد المبارك، ص: 45 - 46.

(5) عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء عبد الستار، ص: 223.

أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى، وخازن المساكين يربي صغيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد، وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرَّق ماله[1].

أ - سياسته في رد المظالم: - أمير المؤمنين يبدأ بنفسه: تنفيذاً لما أراده عمر من رد المظالم مهما كان صغيراً أو كبيراً بدأ بنفسه، روى ابن سعد: أنه لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم قال: إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي[2]. وهذا الفعل جعله قدوة للآخرين، فنظر إلى ما في يديه من أرض، أو متاع، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم. فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب فخرج منه[3]. وكان ذلك لإصراره على قطع كل شك بيقين، وحتى يطمئن إلى أن ما في يده لا شبهة فيه لظلم أو مظلمة حتى ولو كان ورثه، خصوصاً وأن القصص والحكايات كانت كثيرة يتناقلها الناس عن مظالم ارتكبت على عهد خلفاء بني أمية، وعمالهم وقد بلغ به حرصه على التثبت أنه نزع حلي سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، قال عبد العزيز بن عمر: كان سيف أبي محلى بفضة فنزعها وحلاه حديداً[4]، وكان خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعدة طرق كالبيع، ذلك أنه حين استخلف نظر إلى مكان له من عبد، وإلى لباسه وعطره وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان به عنه غني، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار، فجعله في السبيل[5]. أو عن طريق ردها إلى أصحابها الأصليين، وهذا ما فعله بالنسبة للقطائع التي أقطعه إياها قومه، يروي ابن الجوزي عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز حتى تفرق الناس ودخل إلى أهله للقائلة فإذا منادٍ ينادي: الصلاة جامعة. قال: ففزعنا فزعاً شديداً مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه أو حدث. قال جويرية: وإنما كان أنه دعا مزاحماً فقال: يا مزاحم، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إلي ليس علي فيه دون الله محاسب. فقال له مزاحم: يا أمير المؤمنين، هل تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فذرفت عيناه، فجعل يستدمع ويقول: أكِلهم إلى الله؟ قال: ثم

(1) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 224.
(2) الطبقات (5/ 341).
(3) المصدر نفسه (5/ 341 - 342).
(4) المصدر نفسه (5/ 355) عمر وسياسته في رد المظالم، ص: 205.
(5) المصدر نفسه (5/ 345) عمر وسياسته في رد المظالم، ص: 205.

انطلق مزاحم من وجهه ذلك حتى استأذن على عبد الملك، فأذن له - وقد اضطجع للقائله - فقال له عبد الملك: ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حدث حدث؟ قال: نعم أشد الحدث عليك وعلى بني أبيك. قال: وما ذاك؟ قال: دعاني أمير المؤمنين - فذكر له ما قاله عمر - فقال عبد الملك: فما قلت له؟ قال: قلت له يا أمير المؤمنين، تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا قال: فما قال لك؟ قال: جعل يستدمع ويقول: أَكِلهم إلى الله تعالى. قال عبد الملك: بئس وزير الدين أنت يا مزاحم. ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر، فاستأذن عليه، فقال له الآذن: أما ترحمونه ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة؟ قال عبد الملك: استأذن لي، لا أم لك. فسمع عمر الكلام، فقال: من هذا؟ قال: هذا عبد الملك. قال: ائذن له. فدخل عليه - وقد اضطجع عمر للقائلة - فقال: ما حاجتك يا بني هذه الساعة؟ قال: حديث حدثنيه مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيي على إنفاذه. قال: فرفع عمر يديه. ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. نعم يا بني أصلي الظهر، ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر. قال عمر: قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة، فقال عبد الملك: تأمر مناديك ينادي: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس. فنادى المنادي: الصلاة جامعة. قال: فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها وما كان لنا أن نقبلها. وإن ذلك قد صار إلي ليس علي فيه دون الله محاسب، ألا وإني قد رددتها، وبدأت بنفسي وأهل بيتي: اقرأ يا مزاحم، قال - وقد جيء بسفط قبل ذلك، أو قال جرنة - فيها تلك الكتب. قال: فقرأ مزاحم كتاباً منها، فلما فرغ من قراءته ناوله عمر - وهو قاعد على المنبر وفي يده جلم - قال: فجعل يقصه بالجلم. واستأنف مزاحم كتاباً آخر فجعل يقرؤه، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصه ثم استأنف كتاباً آخر فما زال حتى نودي بصلاة الظهر[1] ومن بين مارده عمر مما كان في يده من القطائع جبل الورس باليمن وقطائع باليمامة[2]، إلى جانب فدك وخيبر[3]، والسويداء، فخرج منها جميعاً إلا السويداء، فقد قال عمر فيها: ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء فإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط، فعملتها من صلب عطائي الذي يجمع لي مع جماعة المسلمين وقد جاءت غلتها مائتا دينار[4]. وأما قرية فدك - التي تقع شمال المدينة - فقد كانت تغل في السنة عشرة آلاف دينار تقريباً، فلما ولي عمر الخلافة سأل

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 107 - 108.

(2) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 207.

(3) المصدر نفسه، ص: 207.

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 40.

عنها وفحصها، فأخبر بما كان من أمرها في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان. . . فكتب - بناء على ذلك - إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاباً قال فيه: أما بعد فإني نظرت في أمر فدك وفحصت عنه، فإذا هو لا يصلح لي، ورأيت أن أردها على ما كانت عليه في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان، وأترك ما حدث بعدهم، فإذا جاءك كتابي هذا فاقبضها وولها رجلاً يقوم فيها بالحق والسلام[1]. وأما الكتيبة فهي حصن من حصون خيبر، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز كتب على عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يقول: افحص لي عن الكتيبة، أكانت من خمس رسول الله ﷺ من خيبر أم كانت لرسول الله خاصة؟ قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن فقالت: إن رسول الله لما صالح بني أبي الحقيق جزأ النطاة والشق خمسة أجزاء فكانت للكتيبة جزءاً منها، وأعادها عمر بن عبد العزيز إلى ما كانت إليه في عهد رسول الله[2]، كما أرجع عمر للرجل المصري الذي أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيز قد ظلم المصري فيها، وحتى الدار التي كان والده عبد العزيز بن مروان قد اشتراها من الربيع بن خارجة الذي كان يتيماً في حجره، ردها عليه، لعلمه أنه لا يجوز اشتراء الولي ممن يلي أمره، ثم التفت إلى المال الذي كان يأتيه من جبل الورس باليمن، فرده إلى بيت مال المسلمين رغم شدة حاجة أهله إلى هذا المال، لكنه كان يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، كما أمر عمر بن عبد العزيز مولاه مزاحماً برد المال الذي كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله[3]. وهكذا بدأ عمر بنفسه يضرب المثل ويكون الأسوة أمام رعيته حين رد من أملاكه كل ما شابته شائبة الظلم، أو الشك في خلاص حقه فيه، فرد كل ذلك إلى أصحابه، انطلاقاً من تمسكه بالزهد، وإيمانه برد المظالم إلى أصحابها تقوى الله، ووضعاً للحق في نصابه، بعد أن انتهى من رد كل مال شك بأنه ليس له فيه حق اتجه إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك - وكان لها جوهر - فقال لها عمر: من أين صار هذا المال إليك؟ قالت: أعطانيه أمير المؤمنين، قال: إما أن ترديه إلى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت[4]، وقد أوضح عمر لها سبب كرهه له بقوله: قد علمت حال هذا الجوهر وما صنع فيه أبوك، ومن أصابه، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجلعه في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه، وإن خلصت إليه أنفقته، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك. قالت له: افعل ما شئت وفعل ذلك. فمات رحمه الله

---

(1) الطبقات (5/ 389) عمر وسياسته في رد المظالم، ص: 208.

(2) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 209.

(3) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 212.

(4) المصدر نفسه، ص: 212، الطبقات (5/ 293).

ولم يصل إليه، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت من أخذه، وقالت: ما كنت لأتركه ثم آخذه، وقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه[1].

- **رد مظالم بني أمية:** وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه في رد المظالم فقد ثنى في ذلك بأهل بيته وبني عمومته وبإخوته من أفراد البيت الأموي، وفور فراغه من دفن ابن عمه سليمان بن عبد الملك، فقد رأى ما أذهله وهو أن أبناء عمه من الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التي لم تكن موجودة على عهد النبي ﷺ، أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم ومن تلك المظاهر المراكب الخلافية التي تتألف من براذين وخيول وبغال، ولكل دابة سائس، ومنها أيضاً تلك السرادقات والحجرات والفرش والوطاءات التي تعد من أجل الخليفة الجديد وفوجىء بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد، وهذا كله إسراف وتبذير لا مبرر له يتحمله بيت مال المسلمين، وهو بأمس الحاجة لكل درهم فيه لينفق في وجهه الصحيح الذي بيّنه الله ورسوله، وهنا أمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين[2]. ولقد كانت لعمر بن عبد العزيز سياسة محددة في رد المظالم من أفراد البيت الأموي تكون لديه خطوطها فور تسلمه زمام الخلافة، حين وفد عليه أفراد البيت الأموي عقب انصرافه من دفن سليمان يسألونه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله، وحين أراد عبد الملك أن يرد أفراد البيت الأموي عن أبيه كشف له أبوه عن سياسته تلك حين قال له: وما تبلغهم؟ قال: أقول أبي يقرئكم السلام ويقول لكم: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: 13]. ثم أوضحها له مرة أخرى حين جاءه يطالبه بالإسراع باستخلاص ما بأيدي الأمويين من مظالم، فقال: يا بني، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يهراق في سببي محجمة من دم أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين[3]؟ ثم زاد في توضيح سياسته تلك حينما قال له ولده عبد الملك: ما يمنعك أن تمضي الذي تريد؟ فوالذي نفسي بيده ما أبالي لو غلت بك وبي القدور، قال: وحق هذا منك، قال: نعم والله، قال عمر: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على أمر ديني إني لو باهت الناس بالذي تقول لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بداً من السيف ولا خير

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 52، 53.

(2) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 213.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 260 - 263.

في خير لا يجيء إلا بالسيف، يا بني، إني أروض الناس رياضة الصعبة، فإن بطأ بي عمر أرجو أن ينفذ الله مشيئتي وأن تعدو منيتي فقد علم الله الذي أريده[1]. وهكذا يتبع عمر أسلوب الحكمة والحسنى في تنفيذ سياسته وتطبيقاً لهذه السياسة فإنه قد مهد لهذه الخطوة الحاسمة، والخطيرة بخطوات تسبقها خروجه هو أولاً مما بيده من مظالم وردها إلى أصحابها، أو بيت المال، ثم اتجه إلى أبناء البيت الأموي فجمعهم وطلب إليهم أن يخرجوا مما بأيديهم من أموال وإقطاعات أخذوها بغير حق[2]. وشهدت الأيام الأولى من خلافة عمر تجريداً واسع النطاق لكثير من أموال وأملاك بني أمية، ظلت تنمو في الماضي وتتضخم لكونهم العائلة الحاكمة ليس إلا . . وها هي الآن ترد إلى بيت مال المسلمين لكي يأخذ العدل مجراه، وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين، لا يستأثر بها أحد دون أحد، ولا حزب دون حزب. . أموال وأملاك من شتى الصنوف والأنواع، جمعت بمختلف الطرق وسائر الأساليب جرد عمر بني أمية منها ومزق مستنداتها واحدة واحدة، وردها إلى مكانها الصحيح: مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطاع، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة بلغت في تقدير عمر شطراً كبيراً من أموال الأمة جاوزت النصف[3]، ولا تمضي سوى أيام معدودات حتى يجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع، فيضجون ضد سياسة عمر هذه ويعلنون معارضتهم الصارمة لها، فماذا يكون جواب عمر. انظروا: والله لوددت أن ألا تبقى في الأرض مظلمة إلا رددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد ألمه ثم يعود كما كان حياً، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسي عندها[4]، ولكن بني أمية لم ييأسوا من هذا الحزم والعزم إزاء حقوق الأمة، وهم الذين ما خطر ببالهم يوماً أن يجردوا هذا التجريد فاجتمعوا وطلبوا من أحد أولاد الوليد وكان كبيرهم ونصيحهم، أن يكتب إلى عمر، فكتب إليه: أما بعد فإنك أنسيت ممن كان قبلك من الخلفاء وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم نقصاً لهم لأعمالهم، وشاتماً لمن كان بعدهم من أولادهم ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله أن يوصل، وعملت بغير الحق في قرابتك وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتهم بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً فاتّق الله يا ابن عبد العزيز وأرجعه، فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك إن خصصت ذوي قربتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذي خص محمد ﷺ بما خصه من الكرامة لقد ازددت

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 262 - 263.
(2) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 215.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 115.
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 147 - 151.

من الله بعداً في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاء عليك، وهي كذلك، فاقتصد في بعض ميلك وتحاشيك[1]، ويظهر في هذا الكتاب مآخذ الأمويين على سياسة عمر وهي:

- خالف سيرة من قبله من الخلفاء وأزرى بهم وعاب أعمالهم.
- أساء إلى أولاد من قبله من الخلفاء.
- لم يكن عمله منسجماً مع الحق.
- إن قطيعة أهل بيته يهدد مكانه من الخلافة.

ولا ريب أن سياسة عمر بن عبد العزيز تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف مراكز قوتها، وقد تؤدي إلى دفعها لاتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم، وفي هذا خطر كبير عليه وعلى الخلافة[2]، وكان رد عمر حمم من نار الحق تتفجر في كل كلمة فيها: . . ويلك وويل أبيك ما أكثر طلابكما وخصمائكما يوم القيامة. . . رويدك فإنه لو طالت بي حياة ورد الله الحق إلى أهله، تفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمت على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وراءكم[3]. .

- **بنو أمية يلجأون إلى أسلوب الحوار الهادي:**

وما أن يأس بنو أمية من صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه، لجأوا إلى أسلوب الحوار الهادي، علهم يصلون عن طريقه إلى ما يشتهون فيتكلمون معه يوماً مستشيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم، فيجيبهم: أن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال - أي المال العام - فحقكم فيه كحق أي رجل من المسلمين. والله أني لا أرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله[4]ودخل عليه هشام بن عبد الملك يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما جئت لأعلمك به أنهم يقولون: إستأنف العمل برأيك فيما تحت يدك وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم، وببديهة يجيب عمر: أرأيت أن أتيت بسجلين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك فبأي السجلين آخذ؟ قال هشام: بالأقدم. فأجاب عمر: فإني وجدت كتاب الله الأقدم، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وفيما سبقني[5].

(1) المصدر نفسه، ص: 126 - 127، عمر بن عبد العزيز صالح العلي، ص: 194.
(2) عمر بن عبد العزيز، صالح العلي، ص: 195.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 147 - 151.
(4) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 114 - 115.
(5) المصدر نفسه، ص: 118 - 119، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز د. عماد الدين خليل، ص: 117، 118.

- بنو أمية يرسلون عمة عمر بن عبد العزيز:

فعندما عجز الرجال من بني أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم، لجأوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، وكانت عمته هذه لا تحجب عن الخلفاء ولا يرد لها طلب أو حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل استخلافه، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادته وألقى لها وسادة لتجلس عليها. فقالت: إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك قال: ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم فقالت: إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره. قال: فدعا بدينار، وجنب، ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفخ على الدينار إذا احمر تناوله بشيء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر فقال: أي عمه أما ترثين لابن أخيك من هذا[1]؟ وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر، وتلتفت إلى عمر طالبة منه أن يستمر في الكلام واسمعوه يقول وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التي جاء بها الإسلام لكي يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء ثم ولي أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك وابنه الوليد وسليمان أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر إلي وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت: حسبك، قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه[2] وجاء في رواية: إنها قالت لهم:.. أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده: فسكتوا[3].

- تلاشي المعارضة الجماعية لبني أمية:

وسرعان ما تلاشت السمة الجماعية لمعارضة بني أمية بعد ما رأوا من جد عمر إزاء أموال الأمة وقالوا: ليس بعد هذا شيء[4]. ومن ثم أخذ كل منهم يسعى على انفراد ليسترد ما يستطيع استرداده من الأموال، ولكن عمر الذي وقف تجاه رغباتهم مجتمعين، أحرى به الآن أن يتصدى لكل واحد منهم على انفراد ويعلمه أنّ حق الأمة لا يمكن أن يكون موضع مساومة في يوم من الأيام[5].

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 117.

(2) الكامل في التاريخ (3/ 270).

(3) المصدر نفسه (3/ 271).

(4) عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 58، 59، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ص: 119.

(5) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر، ص: 119.

أ - رد الحقوق لأصحابها: لم يقف عمر عند حد استرداد الأموال من بني أمية وردها إلى بيت المال، بل يخطو خطوة أخرى ويعلن لأبناء الأمة الإسلامية أن كل من له حق على أمير أو جماعة من بني أمية أو لحقته منهم مظلمة، فليتقدم بالبينة لكي يرد عليه حقه.. وتقدم عدد من الناس بظلامتهم وبيّناتهم وراح عمر يردها واحدة بعد الأخرى: أراضٍ ومزارع وأموال وممتلكات[1]، ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصب أرضه فرد عمر هذه الأرض إليه ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إلي؟ قال: يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مائة ألف؟ فأجابه عمر: إنما رددت عليك حقك، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهماً كتعويض له عن نفقات سفره[2]، وقد قال ابن موسى: ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات[3]، وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت[4]، قد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحاً برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فردع رجل منهم وأخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً فإن لم يرد الحوانيت إلى أصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم[5] وردّ عمر أرضاً كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله ﷺ:.. **«من أحيا أرضاً ميتة فهي له»**[6]، ولقد أحبّ آل البيت وأعاد إليهم حقوقهم وقال مرة لفاطمة بنت علي بن أبي طالب ﷺ: يا بنت علي والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليَّ منكم ولأنتم أحب إليَّ من أهل بيتي[7].

ب - عزله جميع الولاة والحكام الظالمين: لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة عمد إلى جميع الولاة والحكام المسؤولين الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، ومنهم خالد بن الريان وصاحب حرس سليمان بن عبد الملك الذي كان يضرب كل عنق أمره سليمان بضربها، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصاري فقال عمر بن عبد العزيز: يا خالد ضع هذا السيف عنك، اللّهم إني قد وضعت لك خالد بن الريان اللّهم لا ترفعه أبداً، ثم قال لعمرو بن مهاجر: والله! إنك لتعلم يا عمرو، إنه ما بيني وبينك قرابة إلا قربة الإسلام ولكني سمعتك تكثر تلاوة

---

(1) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر، ص: 120.
(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 146، 147.
(3) الطبقات لابن سعد (5/ 341).
(4) الحوانيت: جمع حانوت وهو محل التجارة.
(5) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 60.
(6) صحيح الجامع للألباني رقم 2766.
(7) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي، ص: 131 السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص: 45.

لقرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة خذ هذا السيف قد وليتك حرسي[1]. وهكذا يعزل عمر الظالمين وهذا أسلوبه في اختيار الولاة والقضاة والكتاب وغيرهم، إنه يبحث عن أصلح الناس ديناً وأمانة، ولما انتقد أحد ولاته الذين اختارهم نكت بين عينيه بالخيزرانة في سجدته وقال: هذه غرتني منك. يريد سجدته أي أثر السجود في وجهه، فهذه علامة من علامات صلاح الرجل وهي دليل على كثرة السجود، ومن أجل ذلك اختاره عمر بن عبد العزيز، وعمر لا يكتفي بمظهر الرجل ولكنه يختبره أيضاً، فقد رأى رجلاً كثير الصلاة، وأراد أن يمتحنه ليوليه، فأرسل إليه رجلاً من خاصته فقال: يا فلان إنك تعلم مقامي عند أمير المؤمنين فما لي لو جعلته يوليك على أحد البلدان؟ فقال الرجل: لك عطاء سنة، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان من هذا الرجل، فتركه لأنه سقط في الاختبار[2] وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز: أسامة بن زيد التنوخي وكان على خراج مصر، لأنه كان غاشماً ظلوماً يعتدي في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل، يقطع الأيدي في خلاف - دون تحقق شروط القطع - فأمر به عمر بن عبد العزيز أن يحبس في كل جُنُد[3] سنة ويقيد ويحل عنه القيد عند كل صلاة ثم يرد في القيد، فحبس بمصر سنة، ثم فلسطين سنة ثم مات عمر وولي يزيد بن عبد الملك الخلافة فردّ أسامة على مصر في عمله[4]، وكتب عمر بن عبد العزيز بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية وكان عامل سوء يظهر التأله والنفاد لكل ما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور، والمخالفة للحق، وكان في هذا يكثر التسبيح والذكر ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول: سبحان الله والحمد لله شد يا غلام موضع كذا وكذا، لبعض مواضع العذاب وهو يقول: لا إله إلا الله والله أكبر، شد يا غلام شد موضع كذا وكذا، فكانت حالته تلك شر الحالات، فكتب عمر بعزله[5]، وهكذا استمر عمر في عزل الولاة الظلمة وتعيين الصالحين وسيأتي الحديث عن فقه عمر في تعامله مع الولاة في محله بإذن الله تعالى.

ج - رفع المظالم عن الموالي: تعرض الموالي قبل عمر بن عبد العزيز للمظالم فقد فرضت الجزية على من أسلم منهم، كما منعوا من الهجرة مثلما حدث للموالي في العراق ومصر وخراسان وفي عهد عبد الملك أوقع الحجّاج بالموالي ظلم عظيم، فقد عمل على إبقاء الجزية على من أسلم منهم، وحرمهم من الهجرة من قراهم وهذا ما دفعهم للاشتراك في ثورة ابن

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 50.
(2) فقه عمر بن عبد العزيز د. محمد شقير (1/ 91).
(3) الجند: المدينة وقيل مدن الشام.
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 32.
(5) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 32 - 33.

الأشعث ضد الحجّاج، كما وقع الظلم على الموالي في مصر وخراسان، فلما تولى عمر بن عبد العزيز أزال تلك المظالم التي لحقت بهؤلاء الموالي وكتب إلى عماله يقول: . . فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزيرة اليوم فخالط المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها فإن له للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه غير أرضه وداره إنما هي من فيء الله على المسلمين عامة، ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للمسلمين كانت لهم، ولكنها فيء الله على المسلمين عامة[1]، وكتب إلى عامله على مصر حيان بن شريح - يقول: وأن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: 5] وقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة: 29]. إلا إن هذا العامل أرسل إلى عمر يقول: أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن نابتة عشرون ألف دينار أتممتها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل[2]. وجاء رد عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي يضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عن من أسلم - قبح الله رأيك - فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري ولعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على دينه[3]. وفي رواية ابن سعد: أما بعد، فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل[4]. ولم يكن عامل عمر على مصر هو الوحيد الذي طلب من عمر السماح له في أخذ الجزية ممن أسلم، فها هو عامله على الكوفة - عبد الحميد بن عبد الرحمٰن - يسأله أخذ الجزية المتراكمة على اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا، فجاءه رد عمر الواضح أيضاً يقول: كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة، وتستأذنني في أخذ الجزية منهم، وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة ولا جزية عليه، وميراثه ذوي رحمه إذا كان منهم يتوارثون أهل الإسلام،

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكيم، ص: 78 - 79.
(2) الخطط للمقريزي (1/ 78) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 233.
(3) الخطط للمقريزي (1/ 78) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 233.
(4) الطبقات (5/ 384).

وإن لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام[1]. كما كتب إليه عامله على البصرة - عدي بن أرطأة - يقول: أما بعد، فإن الناس كثروا في الإسلام وخفت أن يقل الخراج. فكتب إليه عمر: فهمت كتابك، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا[2]. هذا إلى جانب إبطاله لمظلمة المنع من الهجرة التي أوقعها الحجّاج بالموالي في العراق، وهكذا أبطل عمر تلك المظالم التي أصابت الموالي، فترتب على ذلك أن أعاد إليهم حقوقهم المسلوبة والهدوء والطمأنينة إلى نفوسهم، وباتوا يتعمون بالمساواة والعدل مع غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية[3].

د - **رفع المظالم عن أهل الذمة:** زاد عبد الملك في عهده الجزية على أهل قبرص وكان معاوية بن أبي سفيان غزا قبرص بنفسه وصالحهم صلحاً دائماً على سبعة آلاف دينار وعلى النصيحة للمسلمين، وإنذارهم عدوهم من الروم ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان، فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى عهد عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم[4]، كما أصابت الزيادة فيما يجبى من جزية أهل الذمة في العراق وقد وضعها عنهم عمر بن عبد العزيز كسياسة عامة التزم بها في أن يرفع المظالم عن أهل الذمة حتى يدعهم يتعمون بحياتهم في ظل الشرائع الإسلامية السمحة ويؤيد ذلك ما جاء في كتابه إلى عامله على البصرة - عدي بن أرطأة: أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتيًّا[5]، وخسراناً مبيناً، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحاً لمعاش المسلمين، وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة ممن قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه[6]، كما بلغت سياسة عمر بن عبد العزيز في وضع

---

(1) الخراج لأبي يوسف، ص: 142، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 234.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 99 - 100 لابن الجوزي.

(3) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 234.

(4) فتوح البلدان، ص: 159، عمر وسياسته في رد المظالم، ص: 240.

(5) عتيًّا: العاتي المجاوز للحد في الاستكبار.

(6) الأموال لأبي عبيد، ص: 57.

المظالم عن الناس ومساعدتهم أيضاً حين كتب إلى عامله على الكوفة يقول: انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوي به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[1]، وقد أمر عمر ولاته بالأخذ بالرحمة والرأفة بالناس، فقد منع تعذيب أهل البصرة وغيرهم لاستخراج الخراج منهم، وعندما أرسل إليه عامله على البصرة عدي بن أرطأة يقول: إن أناساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شيء من العذاب فكتب إليه عمر: أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر كأني جنة لك من عذاب الله، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله، وإذا أتاك كتابي هذا فمن أعطاك فاقبله عفواً وإلا فأحلفه، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلي من أن ألقاه بعذابهم. والسلام[2]. ومما أصاب أهل الذمة من المظالم قبل عهد عمر بن عبد العزيز سبي بنات ونساء من لواتة بشمال أفريقية ولكن عمر رد هذه المظلمة يذكر أبو عبيد: أن عمر بن عبد العزيز كتب في اللواتيات: من أرسل منهن شيئاً فليس من ثمنها شيء وهو ثمن فرجها الذي استحلها به - أو كلمة تشبه الثمن - قال: ومن كانت عنده امرأة منهن فليخطبها إلى أبيها، وإلا فليردها إلى أهلها قال أبو عبيد: قوله اللواتيات هن من لواتة: فرقة من البربر، يقال لهم لواتة أراه قد كان لهن عهد، وهم الذين كان ابن شهاب يحدث: أن عثمان أخذ الجزية من البربر، ثم أحدثوا بعد ذلك فسبوا. فكتب عمر بن عبد العزيز بما كتب به[3]، كما أرجع عمر بن عبد العزيز إلى أهل الذمة كل أرض أو كنيسة أو بيت اغتصب منهم[4]، ومما رفعه عمر عن أهل الذمة من المظالم السخرة التي على أساس أنه يحل للمسلمين أن يسخروا أهل الذمة لمصالحهم الشخصية طالما أن هذا غير موجود في صلحهم[5]. فكتب إلى عماله يقول: . . . ونرى أن توضع السخرة عن أهل الأرض، فإن غايتها أمر يدخل فيه الظلم[6]، وهكذا رد عمر بن عبد العزيز ما أصاب أهل الذمة من مظالم، فترتب على ذلك أن أعاد السكينة والطمأنينة والهدوء إليهم، وأوضح لهم، إن بإمكانهم أن يعيشوا في ظل الإسلام آمنين مطمئنين تشملهم سماحة الدين ويظلهم عدله، وتستقيم أمورهم وشؤونهم في كنفه، لا يضارون ولا يستضعفون ولا يستعبدون لهم حقوقهم المعلومة وعليهم واجباتهم المحددة ضمنها لهم الشارع الحكيم، وما تأسس من أحكام كتاب الله وسنة رسوله الكريم[7].

---

(1) الأموال لأبي عبيد، ص: 320 عمر وسياسته في رد المظالم، ص: 241.
(2) الخراج لأبي يوسف، ص: 129.
(3) فتوح البلدان، ص: 226 - 227.
(4) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 245.
(5) المصدر نفسه، ص: 245.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 83.
(7) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 248.

هـ - إقامة العدل لأهل سمرقند: لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة إلى سكان ما وراء النهر، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبي السرّي: إن قتيبة غدر بنا، وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة. فأذن لهم سليمان، فوجهوا منهم قوماً فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري: إن أهل سمرقند، قد شكوا إليّ ظلماً أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابي، فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم[1] إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة. فأجلس سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضي فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل الصُغد[2]: بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حرباً، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأي: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمنونا وأمنّاهم، فإن حكم لنا عدْنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا[3]. أية دولة في القرن العشرين تحني رأسها هكذا للعدل كي يأخذ مجراه وللحق كي يعود إلى أصحابه؟ وأي حاكم في تاريخ الشعوب التي لم تعرف الله، استجاب هكذا لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم كهذه الاستجابة السريعة الحاسمة من عمر بن عبد العزيز؟ ألا أنه المسؤول الذي نذر نفسه للدفاع عن قيم الحق والعدل في أقطار الأرض، فبدونهما تفقد شريعة الله مقوماتها وأهدافها العليا[4]. فهذا مثل رفيع من عدل عمر وإننا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور:

- أن الناس يقبلون على التظلم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجد وسينظر فيها بعدل، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان، فلما رأوا عدل عمر بن عبد العزيز رفعوا قضيتهم.

- أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسؤولين، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

---

(1) يعني المسلمين الغزاة.

(2) الصُغد: قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر.

(3) تاريخ الطبري (7/ 472).

(4) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ص: 68.

- أن أولئك القوم قد أسقط في أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين، سواء حكم لهم أو عليهم، وأن مصلحتهم في بقائهم على ما هم عليه، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي[1].

و - **الاكتفاء باليسير من البينات في رد المظالم:** نظراً لمعرفة عمر بن عبد العزيز بغشم الولاة قبله وظلمهم للناس حتى أصبحت المظالم كأنها شيء مألوف، فإنه لم يكلف المظلوم بتحقيق البينة القاطعة على مظلمته، وإنما يكتفي باليسير من البينة، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها إليه دون أن يكلفه تحقيق البينة، فقد روى ابن عبد الحكم وقال: قال أبو الزناد: كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، وكان يكتفي باليسير، إذ عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة، لما يعرف من غشم الولاة قبله على الناس، ولقد أنقذ بيت مال العراق في رد المظالم حتى حُمل إليه من الشام[2]. فما أحسن ما فعله عمر بن عبد العزيز وما أحسن التيسير على الناس قدر المستطاع لأن فيه اختصار للوقت وتوفيراً للجهود[3]، كما أن هذا العمل نستنبط منه قاعدة هامة في التفريق بين أصول التحقيق في القضاء العادي وبين أصول التحقيق في القضاء الإداري، وضعها عمر بن عبد العزيز، فالبينة القاطعة قد تستحيل إقامتها، وجمع عناصرها، فإذا كان الظلم واضحاً، اكتفى قاضي المظالم بالبينة اليسيرة[4].

ز - **وضع المكس**[5]: لما كان المكس من الظلم والبخس، لأنه جباية أو ضريبة تؤخذ من الناس بغير وجه شرعي، ولما كانت الزكاة على المسلم والجزية والعشور والخراج على الذمي كافيه عما سواها، فقد نهى عمر عن المكس وشدد في ذلك ومنعه كما يأتي: عن محمد بن قيس قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض ووضع الجزية عن كل مسلم[6] وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة أن ضع عن الناس... والمكس ولعمري ما هو بالمكس ولكنه البخس الذي قال الله فيه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85]. فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يأت فالله حسيبه[7]،

---

(1) التاريخ الإسلامي (15، 16/ 62).
(2) سيرة عمرة بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 106 - 107.
(3) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 558).
(4) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 565).
(5) المكس : دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية أو هي الجباية.
(6) الطبقات الكبرى لابن سعد(5/ 345).
(7) الطبقات الكبرى لابن سعد(5/ 383).

وكتب إلى عامله عبد الله بن عوف على فلسطين: أن اركب إلى البيت يقال له: المكس، فاهدمه ثم احمله إلى البحر فانسفه في اليم نسفاً[1]. نعلم مما سبق أن المكس دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق وأن ذلك يصدق على الجمارك التي تؤخذ على السلع عند استيرادها في هذا الزمان، وأن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك من الظلم فمنعه[2]. والحجة فيما فعله عمر بن عبد العزيز قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: 183].

ح - **رد المظالم وإخراج زكاتها:** قرر عمر بن عبد العزيز رد المظالم التي في بيوت المال، وأخذ زكاتها لسنة واحدة[3]، عن مالك بن أنس عن أيوب السختياني أن عمر بن عبد العزيز رد مظالم في بيوت الأموال فرد ما كان في بيت المال وأمر أن يزكي لما غاب عن أهله من السنين، ثم كتب بكتاب آخر: إني نظرت فإذا هو ضمار[4] لا يزكي إلا لسنة واحدة[5]، وعن عمرو بن ميمون قال: أخذ الوالي في زمن عبد الملك مال رجل من أهل الرقة يقال له أبو عائشة عشرين ألفاً فأدخلت في بيت المال، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أتاه ولده فرفعوا مظلمتهم إليه، فكتب إلي ميمون: ادفعوا إليهم أموالهم، وخذوا زكاة عامه هذا، فلولا أنه كان مالاً ضماراً أخذنا منه زكاة ما مضى[6].

هذا هو عمر بن عبد العزيز في دولته التي أقامها على العدل وكان رحمه الله يعلم ولاته أنه بالعدل تستقيم الحياة بكل شؤونها فلما أرسل إليه بعض عماله يقول: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يرى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصّنها بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم، فإنَّه مرمَّتها والسلام[7]، وكتب إلى بعض عماله: إن قدرت أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلكم في الجور والعدوان والظلم، فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله[8]، وكتب إلى أبي بكر بن حزم: أن استبرئ الدواوين، فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فردَّه إليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم[9]. وكان رحمه الله يواجه في تنفيذ ما يريده من العدل مصاعب ومشقات ومقاومة، وعقبات، فكان ينفق بعض المال في سبيل تهدئة بعض النفوس، لإنفاذ الحق ونشر العدل، ورفع الظلم، دخل عليه ابنه عبد الملك ذات يوم، فقال: يا أبتِ ما يمنعك أن تمضي

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 113.
(2) فقه عمر بن عبد العزيز د. محمد شقير (2/ 561).
(3) المصدر نفسه (2/ 566).
(4) المال الضمار: أي الذي لا يرجى رجوعه.
(5) الطبقات الكبرى لابن سعد (5/ 342).
(6) مصنف ابن أبي شيبة (3/ 202).
(7) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 23، عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص: 226.
(8) الطبقات (5/ 383 - 384).
(9) المصدر نفسه (5/ 342 - 343).

لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك؟ قال: يا بني، إنما أروِّض الناس رياضة الصَّعْب، إني لأريد أن أحيي الأمور من العدل، فأوفِّر ذلك حتى أُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا لهذا ويسكنوا لهذه[1]، وقام برصد الجوائز لمن يدل لمن يدل على خير، أو ينبه على خطأ، أو يشير إلى وقوع مظلمة لم يستطع صاحبها إبلاغها فكتب كتاباً أمر أن يُقرأ على الحجيج في المواسم وفي كل المحافل والمجامع جاء فيه: أما بعد، فأيما رجل قدم علينا في رد مظلمة، أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، بقدر ما يرى من الحسبة، وبعد الشقة. رحم الله أمراً لم يَتَكَّاءده بعد سفر، لعل الله يحيي به حقاً، أو يمت به باطلاً أو يفتح من ورائه خيراً[2]. ولاستعذابه حلاوة العدل ورحمته وتنعم الناس بتفيّؤ ظِلاله كان يقول: والله لوددت لو عدلت يوماً واحداً وأن الله تعالى قبضني[3]، ومع أنه رأى ثمرات العدل التي قطف منها جميع الناس في خلافته إلا أن نفسه التوّاقة لكل شامخ ورفيع كانت تطمح للمزيد ولقد عبر عن ذلك بقوله: «لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت العدل»[4]. وحتى الحيوانات نالهن عدله وإنصافه ورفع الظلم عنه وإليك هذه المشاهد:

- **النهي عن نخس الدابة بالحديدة وعن اللجم الثقال:** فقد أكد عمر بن عبد العزيز على الرفق بالحيوان وعدم ظلمه أو تعذيبه قال أبو يوسف: حدثنا عبيد الله بن عمر: أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يجعل البريد في طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة، ونهى عن اللجم الثقال[5]، وقد أصدر أوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال، كما منع استخدام المناخس ذات الرؤوس الحديدة[6].

- **في تحديد حمولة البعير بستمائة رطل:** وحين بلغه أن قوماً يحملون على الجمال ما لا تطيق وذلك في مصر كتب إلى واليها يحدد أقصى حمولة للبعير بستمائة رطل وطلب منه إبلاغ قراره هذا الناس وأمره بتنفيذه[7].

- هذه بعض الملامح السريعة على إقامة العدل في دولة عمر بن عبد العزيز، إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع الذي تسود فيه قيم العدل ورفع الظلم، ومحاربته بكافة أشكاله وأنواعه وهذا ما قام به عمر بن عبد العزيز ﷺ.

---

(1) عمر بن عبدالعزيز، عبدالستار الشيخ، ص: 226.
(2) المصدر نفسه، ص: 227، تَكَأَّدَهُ: شقَّ عليه وصعب.
(3) تهذيب الأسماء واللغات (2/ 23).
(4) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار، ص: 227.
(5) مصنف ابن أبي شيبة (12/ 332) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 573).
(6) ملامح الانقلاب الإسلامي، ص: 71.
(7) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 575) محمد شقير.

5 - المساواة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. وقال رسول الله ﷺ: **«أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»**[1]، وقد قام عمر بن عبد العزيز بتطبيق هذا المبدأ في دولته، وكان أول مؤشر على رغبته في تطبيق مبدأ المساواة، حين أقسم أنه يودُّ أن يساوي في المعيشة بين نفسه ولحمته التي هو منها وبين الناس[2]، فقال: أم والله لوددت أنه بُدئ بي، وبلحمتي، التي أنا منها، حتى يستوي عيشنا وعيشكم، أم والله، أم والله لو أردت غير هذا من الكلام، لكان اللسان به منبسطاً ولكنت بأسبابه عارفاً[3]. وقال في خطبة له: . . . وما منكم من أحد تبلغنا حاجته إلا أحببت أن أسد من حاجته، ما قدرت عليه[4]. كما أن عمر اتخذ مبدأ المساواة بين الناس، في الحقوق والواجبات في كافة مجالات الحياة، فلم يميز بين الناس في حقهم في تولي الوظائف والولايات، ولم يعط أحداً كائناً من كان شيئاً ليس له فيه حق، فقد ساوى بين أمراء وأشراف بني أمية وبين الناس، فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة، وقال لهم حين كلموه في ذلك: لن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال - يقصد المال الذي في بيت مال المسلمين - فإنما حقكم فيه كحق رجل، بأقصى برك الغماد[5]، فكانت سياسته المالية تقوم على مبدأ المساواة، فبيت المال لجميع المسلمين ولكل واحد منهم حق أن يأخذ منه أسوة بغيره، فلا يكون حكراً على فئات معينة من الناس، ومن أعماله التي تدل على ترسيخه بمبدأ المساواة بين الناس ما أعلنه عندما رأى أمراء بني أمية قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض وجعلوها حمى، يحرم من الاستفادة منها عامة الناس، فقال: إن الحمى يباح للمسلين عامة. . وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما الغيث ينزله الله لعباده، فهم فيه سواء[6]. كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود وبين المسلمين، وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم، فقال: . . . فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي، من أهل الجزية اليوم، فخالط عمّ المسلمين في دارهم وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه[7]، ويروي ابن سعد:

---

(1) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص: 297.
(2) المصدر نفسه.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 112.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن النموذج الإداري من إدارة عمر، ص: 297.
(5) بلد باليمن وهو أقصى حجر باليمن، وقيل موضع بمكة.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 81 لابن عبد الحكم.
(7) المصدر نفسه، ص: 79.

أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً[1]، وفي مجال المساواة بين الناس أمام القضاء، وأحكام الإسلام، نكتفي بهذا الدليل الذي كان عمر فيه أحد أطراف النزاع أمام القاضي، وتفصيل ذلك أنه: أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد العزيز - يقصد والد عمر - أخذ أرضي ظلماً، قال: وأين أرضك يا عبد الله؟ قال: حلوان، قال عمر: أعرفها ولي شركاء - أي شركاء في حلوان - وهذا الحاكم بيننا، فمشى عمر إلى الحاكم فقضى عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها، قال القاضي: ذلك بما نلتم غلتها، فقد نلتم منها مثل نفقتكم، فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما وليت لي أمراً أبداً، وأمر بردها[2]. وكان عمر يقيم وزناً لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى في الأمور العامة، ومن ذلك أمره بأن لا يخص أناس بدعاء المسلمين والصلاة عليهم، فكتب إلى أمير الجزيرة يقول: . . وقد بلغني أن أناساً من القصاص قد أحدثوا صلاة على أمرائهم، عِدل ما يصول على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا، فمر القصاص، فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعو ما سوى ذلك[3]، ومن ذلك يتضح اهتمام عمر بالمساواة بين عامة الناس حتى في الدعاء لهم، ولا يختص أحد بدعاء، فالمسلمون عامة في حاجة دعوة الله عز وجل لهم والله سبحانه وتعالى جدير بالإجابة[4]، وقد طبق مبدأ المساواة بينه وبين عامة الناس، فقد حصل أن شتمه رجل بالمدينة لسبب أو لآخر، فلم يكن ما أمر به سوى ما قد يأمر به كما لو كان المشتوم أحد أفراد الأمة، ذلك ما حدث حين حُكم رجل في مسجد رسول الله ﷺ وأبو بكر بن محمد بن حزم والي عمر على المدينة في صلاته - فقطع عليهم الصلاة، وشهر السيف، فكتب أبو بكر إلى عمر، فأتي بكتاب عمر، فقرئ عليهم، فشتم عمر، والكتاب ومن جاء به، فهمَّ أبو بكر بضرب عنقه، ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه، وأنه همَّ بقتله: فكتب إليه عمر: لو قتلته لقتلتك به، فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد إلا أن يُشتم النبيُّ ﷺ، فإذا أتاك كتابي فاحبس على المسلمين شره، وادعه إلى التوبة في كل هلال، فإذا تاب فخلِّ سبيله[5]، ولم يكتف عمر بالأخذ بمبدأ المساواة بنفسه فحسب، بل كان يأمر عماله وولاته بذلك، فقد كتب إلى عامله على المدينة يقول له: اخرج للناس فآسي بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد الناس آثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل

---

(1) الطبقات (5/ 375).

(2) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 298.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 273.

(4) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 299.

(5) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 142.

بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم[1]. كانت تلك بعض مواقف عمر، وإن كانت متفاوتة، إلا أن فيها دلالة واضحة على أخذ عمر بمبدأ المساواة في دولته[2]. .

6 - الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز:

إن مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في دولة عمر بن عبد العزيز، ويقضي هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحريات العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها، فقد اهتم عمر بكافة صور الحرية الإنسانية، فجاء مستعرضاً لأنواع وصور الحرية، فأقر ما كان فيها موافقاً لتعاليم الإسلام، وأعاد ما لم يكن كذلك إلى دائرة التعاليم الإسلامية، وإليك بعض التفاصيل عن الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز.

أ - الحرية الفكرية والعقدية: حرص عمر بن عبد العزيز على تنفيذ قاعدة حرية الاعتقاد في المجتمع وكان سياسته حيال النصارى واليهود تلتزم بالوفاء بالعهود والمواثيق وإقامة العدل معهم ورفع الظلم وعدم التضييق عليهم في معتقدهم ودينهم انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256] وكان عمر ينهج أسلوب الدعوة مع ملوك الهند، والقبائل الخارجة عن الإسلام وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى، ولم يكره عمر أحداً من النصارى أو غيرهم على الدخول في الإسلام، وأما حرية الفكر من حيث الرأي والتعبير، فقد أخذت نطاقاً واسعاً في إدارة الدولة، وقيادته لعماله ورعيته، فقد أتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمه وأطلق للكلمة حريتها، وترك للناس حرية أن يقول كلٌّ ما يريد وقد عبر عن هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق بقوله: اليوم ينطق كل من كان لا ينطق[3]. إذا لم يخالف الشرع.

ب - الحرية السياسية: كما أعلن عمر استئناف الحرّية السياسية التي منحها الإسلام للمسلمين إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى وإن كان حاكما أو والياً، فقد أعلن عمر في أول يوم من أيام حكمه الحرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منكراً على الناس واقعهم المظلم، وأن الإسلام لا يرضى السكوت عن الظلم، فقد خطب الناس يوماً فقال: . . . ألا لا إسلام لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه: العاصي، إلا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم[4]، ومما يدل على إعطاء عمر للناس الحرية السياسية، أن أول إجراء اتخذه عقب إعلان العهد له

---

(1) الطبقات (5/ 343)، النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 301.
(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 301.
(3) الطبقات لابن سعد (5/ 344).
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 240 لابن الجوزي.

بالخلافة تنازله في الخلافة وطلب من الناس أن يختاروا خليفة، فإذا كانت الحرية السياسية تتجلى في ممارستها في موضعين: أولهما المشاركة في اختيار الحاكم، عن طريق أهل الحل والعقد، وبيعة المسلمين ورضاهم، وثانيهما: إبداء الرأي والنصح للحكام، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام[1]، فإن عمر قد مارس الحرية السياسية في هذين الموضعين فجعل لهم الخيار في توليه الخلافة قبل الوعظ والنصح[2]، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله.

ج - **الحرية الشخصية:** عمل عمر بن عبد العزيز على تحقيق وتدعيم الحرية الشخصية لأفراد الأمة الإسلامية، إذ بدا له بعض القيود على الهجرة أو ما يسمى بحرية التنقل، أو الغدو والرواح، فاتخذ إجراء فتح فيه باب الهجرة لمن يريد، إذ قال: . . وأما الهجرة فإنا نفتحها لمن هاجر من أعرابي فباع ماشيته، وانتقل من دار أعرابيته إلى دار الهجرة وإلى قتال عدونا، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم[3]، كما قال في كتابه لعماله: . . وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة[4]، وإذا كان ذلك موقفه من حرية الناس في الهجرة والتنقل فقد تجلى حرصه على مبدأ حرية الإنسان في أمر قل من يراعيه، أو يهتم به، أمر يخص من هم في ملكه، ألا وهو تخييره لجواريه عقب تولي الخلافة بين العتق والإمساك على غير شيء، فقد علم أن لهنّ عليه حقوقاً لن يستطيع الإيفاء بها بعد توليه الخلافة، فترك لهنّ حرية الإقامة معه من غير شيء أو العتق، فتكون الواحدة منهنّ حرة حرية شخصية كاملة[5]، فقد روى ابن عبد الحكم أن عمر خيّر جواريه، فقال: إنه قد نزل بي أمر شغلني عنكنّ فمن اختارت منكنّ العتق أعتقتها، ومن أمسكتها لم يكن لها مني شيء، فبكين بكاءً شديداً يأساً منه[6].

د - **حرية التجارة والكسب:** أما في حرية التجارة والكسب وابتغاء فضل الله في البر والبحر، كجزء من الحرية الاقتصادية، فقد أكد في كتاب له إلى عماله على ضرورة منح الناس حرية استثمار أموالهم، والاتجار بها في البر والبحر على حد سواء، فقد كتب إلى عماله: . . وإن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يدعى الناس إلى الإسلام كافة، . . . وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر والبحر، ولا يمنعون ولا يحبسون[7]. وكتب أيضاً: . . وأما البحر، فإنا نرى سبيله سبيل البر، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية: 12]، فأذن أن يتجر فيه من شاء، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه، فإن البر والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله، فكيف نحول

(1) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 312.
(2) المصدر نفسه، ص: 212.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 79.
(4) المصدر نفسه، ص: 78.
(5) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 310.
(6) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 121.
(7) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 94.

بين عباد الله وبين معايشهم[1]. ويقول عمر في موضع آخر: . . أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها دون جعل[2]، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به[3]، وأما عن الأسعار والتسعير زمن عمر، فقد قال أبي يوسف: حدثنا عبد الرحمن بن شوبان عن أبيه قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، ولم يكونوا يجدون بداً من أن يبيعوا ويكسروا ما في أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته، فباع الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سعَّرت، قال: ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر إلى الله[4].

وتشدد عمر في أمر السلع المحرمة، ومنع التعامل بها فالخمر من الخبائث التي لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين، لحرمتها ولضررها حيث يؤدي شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام[5]، ويقول عمر: فإنا من نجده يشرب منه شيئاً بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة في ماله ونفسه ونجعله نكالاً لغيره[6]. ولقد أثمرت سياسة عمر في رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والإنتاج، وأزالت العوائق التي تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة ونمو التجارة أدى إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة الزكاة، مما يؤدي إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة، وارتفاع قوتها الشرائية والتي ستتوجه إلى الاستهلاك وبالتالي إلى زيادة الطلب على السلع والخدمات وهذا كله يؤدي إلى انتعاش الاقتصاد، وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[7]. لقد كانت الحرية في دولة عمر بن عبد العزيز مصونة ومكفولة ولها حدودها وقيودها، ولذلك ازدهر المجتمع وتقدم في مدار الرقي، فالحرية حق أساسي للفرد والمجتمع، ليتمتع بها في تحقيق ذاته وإبراز قدراته وسلب الحرية من المجتمع سلب لأهم مقوماته فهو أشبه بالأموات، إن الحرية في الإسلام إشعاع داخلي ملأ جنبات النفس الإنسانية بارتباطها بالله، فارتفع الإنسان بهذا الارتباط إلى درجة السمو والرفعة، فأصبحت النفس تواقة لفعل الصالحات، والمسارعة في الخيرات ابتغاء رب الأرض والسمٰوات، فالحرية في

---

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 98.

(2) الجعل: من الجعالة وهو ما يجعل للشخص على عمله.

(3) الإدارة الإسلامية محمد كرد، ص: 105.

(4) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص: 48.

(5) المصدر نفسه، ص: 48.

(6) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 103.

(7) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص: 48، سياسة الإنفاق العام في الإسلام، عوف محمد الكفراوي، ص: 372.

المجتمع الإسلامي دعامة من دعائمه تحققت في دولة عمر بن عبد العزيز في أبهى صورة انعكست أنوارها على صفحات الزمن[1].

المبحث الثاني
أهم صفاته ومعالم تجديده

أولاً: أهم صفاته:

إن شخصية عمر بن عبد العزيز تعتبر شخصية قيادية جذابة، وقد اتصف رحمه الله بصفات القائد الرباني، ومن أهم هذه الصفات: إيمانه الراسخ بالله وعظمته، وإيمانه بالمصير والمآل، وخوفه من الله تعالى والعلم الغزير، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة والشجاعة والمروءة والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، وقدرته على التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يقوم بمشروعه الإصلاحي ويجدد كثيراً من معالم الخلافة الراشدة التي اندثرت أمام زحف الملك العضوض، واستطاع أن يتغلب على العوائق في الطريق، وتوجت جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد والمجتمع والدولة وأصبح منهج عمر بن عبد العزيز الإصلاحي التجديدي مناراً للعاملين على مجد الإسلام وقد ترسم نور الدين زنكي خطوات عمر بن عبد العزيز في عهده، فحقق نجاحاً كبيراً للأمة في صراعها مع الصليبيين، وكان الفضل لله ثم للشيخ أبي حفص عمر محمد الخضر المتوفى عام 570هـ والذي كان أحد شيوخ نور الدين زنكي حيث كتب لنور الدين كتابه الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز لكي يسير عليها نور الدين زنكي في خطواته وجهاده، وإن من أهم الصفات التي تجسدت في شخصية عمر بن عبد العزيز هي:

1 - شدة خوفه من الله تعالى:

كانت ميزته الكبرى والسمة التي اتسم بها ودافعه إلى كل ذلك هو إيمانه القوي بالآخرة وخشية الله والشوق إلى الجنة، وليس لغير هذا الإيمان القوي، الذي امتاز به عمر بن عبد العزيز أن يحفظ إنساناً في مثل شباب عمر بن عبد العزيز، وقوته وحريته وسلطانه - من إغراءات مادية قاهرة - ومن تسويلات الشيطان، والنفس المغرية، وتفرض عليه المحاسبة الدقيقة للنفس، والاستقامة على طريق الحق[2]، فقد كان مشتاقاً إلى الجنة مؤثراً الآخرة على

---

(1) المجتمع الإسلامي، محمد أبو عجوة، ص: 245 مع التصرف.

(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 140 نقلاً عن رجال الفكر للندوي.

الدنيا، مؤمناً بقوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر: 39] فأدرك عمر بفطرته السليمة وعقيدته الصحيحة، أن آخرة المسلم أولى باهتمامه من دنياه، يقول عمر في كتاب له إلى يزيد بن المهلب: .. لو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج، واعتقال أموال، كان في الذي أعطاني من ذلك، ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، ولكنّي أخاف - فيما ابتليت به - حساباً شديداً، ومسألة عظيمة، إلا ما عافى الله ورحم[1]، كما كان عمر شديد الخوف من الله تعالى، تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك: والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صياماً، ولكن والله ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليصبحَنَّ الناس ولا خليفة لهم[2]، وقال مكحول: لو حلفت لصدقت، ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر ابن عبد العزيز[3]، ولشدة خوفه من الله، كان غزير الدمع وسريعه، فقد دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار، فقال: عظني. قال: يا أمير المؤمنين ما ينفعك من دخل الجنة، إذا دخلت أنت النار، وما يضرّك من دخل النار، إذا دخلت أنت الجنة، قال: فبكى عمر[4] حتى طفئ الكانون الذي بين يديه من دموعه، وقد كان جلّ خوفه رحمه الله من يوم القيامة، فيدعو الله، ويقول: اللّهم إن كنت تعلم إني أخاف شيئاً دون القيامة، فلا تؤمن خوفي[5]، ذلك اليوم الذي أحدث تغيراً جذرياً في مجرى حياته ذلك اليوم الذي يقول عنه عمر: « .. لقد عنيتم بأمر، لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى أحداهما[6]، نعم إن الخوف من الله، والرؤية الواضحة للحياة، والفناء والخلود، والإحساس بيوم الحساب، والانفعال بمشاهد الجنة والنار، هي التي تضع المسؤولين، وتجعلهم يرتعدون خوفاً إن هم انحرفوا قيد شعرة عما يريد الله[7]، فالوعي والإحساس بيوم الحساب، وغيرها من الصفات الاعتقادية، تجعل القائد لا يخطو خطوة، ولا يقول قولاً، ولا يفعل فعلاً، إلا ربط ذلك بما يرضي الله عز وجل، وتلك الصفات والجوانب، لم تعط حقها من البحث والتحرى في الدراسات القيادية الحديثة وهي أساس النجاح في القيادة، وأهم الصفات القيادية التي ينبغي للقائد أن يتحلى بها، وإن من أهم صفات عمر بن عبد العزيز، الإيمان الراسخ بالله واليوم الآخر، وشدة خوفه من الله والوجل من يوم القيامة[8].

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن النموذج الإداري، ص: 140.
(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 42.
(3) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 221.
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 90.
(5) تاريخ الخلفاء، ص: 224.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 232.
(7) ملامح الانقلاب، ص: 45 عماد الدين خليل.
(8) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 142.

2 - زهده:

فهم عمر بن عبد العزيز من خلال معايشته للقرآن الكريم ودراسته لهدي النبي الأمين ﷺ ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وإنها مزرعة للآخرة، ولذلك تحرّر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها وخضع وانقاد وأسلم لربه ظاهراً وباطناً، وكان وصل إلى حقائق استقرت في قلبه ساعدته على الزهد في هذه الدنيا ومن هذه الحقائق:

أ - **اليقين التام بأننا:** في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابري سبيل، كما قال النبي ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**[1].

ب - **وأن هذه الدنيا:** لا وزن لها ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله - تبارك وتعالى - إذ يقول النبي ﷺ: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**[2].

ج - **وأن عمرها قد قارب على الانتهاء:** إذ يقول النبي ﷺ: **«بعثت أنا والساعة كهاتين بالسبابة والوسطى»**[3].

د - **وأن الآخرة هي الباقية وهي دار القرار،** فلهذه الأمور وغيرها زهد عمر بن عبد العزيز في الدنيا وأول الزهد الزهد في الحرام، ثم الزهد في المباح، وأعلى مراتب الزهد أن تزهد في الفضول وكل ما لك عنه غنى[4]، وكان زهد عمر بن عبد العزيز مبني على الكتاب والسنة ولذلك ترك كل أمر لا ينفعه في آخرته فلم يفرح بموجود وهي الخلافة، ولم يحزن على مفقود من أمور الدنيا، وقد ترك ما هو قادر على تحصيله من متاع الدنيا انشغالاً بما هو خير في الآخرة ورغبة في ما عند الله عزوجل [5]، قال مالك بن دينار: الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها[6]، قال ابن عبد الحكم: ولما ولي عمر بن عبد العزيز زهد في الدنيا، ورفض ما كان فيه وترك ألوان الطعام، فكان إذا صنع له طعام هيىء على شيء وغطي، حتى إذا دخل اجتذبه فأكل[7]، فكان لا يهمه من الأكل إلا ما يسد جوعه ويقيم صلبه وكانت نفقته وعياله في اليوم كما في الأثر، فعن سالم بن زياد: كان عمر ينفق على أهله في غدائه وعشائه كل يوم درهمين[8]، وكان لا يلبس من الثياب إلا

---

(1) الترمذي، كتاب: الزهد رقم 2333 وهو حديث صحيح.

(2) الترمذي، كتاب: الزهد رقم 2320.

(3) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة رقم 132-135.

(4) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 148.

(5) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 146).

(6) حلية الأولياء (5/ 257).

(7) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 43.

(8) المصدر نفسه، ص: 38.

الخشن، وترك مظاهر البذخ والإسراف التي سادت قبله وأمر ببيعها وأدخل أثمانها في بيت مال المسلمين[1]، وهكذا فعل بالجواري والعبيد حيث رد الجواري إلى أصحابهن إن كن من اللاتي أخذن بغير حق ووزع العبيد على العميان وذوي العاهات وحارب كل مظاهر الترف والبذخ، والإسراف[2]، وأما ما قيل عن زهده بالنسبة للنكاح، فقد روى ابن عبد الحكم فقال: وقالت فاطمة زوجته ما اغتسل من جنابة منذ ولي حتى لقي الله غير ثلاث مرات، ويقال: ما اغتسل من جنابة حتى مات[3]، فهذا ينافي ما اشتهر به عمر بن عبد العزيز من حبه الشديد لهدي الرسول ﷺ، فيستبعد منه رحمه الله أن يترك السنة، وأن يقع في ظلم زوجاته وحقوقهن، فإن ترك الزواج وتحريم ذلك لا علاقة له بالزهد الإسلامي الذي بينه رسولنا ﷺ وهو دخيل على المجتمع المسلم، وهو ما تفتخر به بعض الفرق المنحرفة عن الإسلام وتدعي أنه من الزهد الإسلامي، ولهم في ذلك حكايات لا يشك من تأملها أنها لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولهم في ذلك وصايا عجيبة وتوجيهات غريبة، فمن أقوالهم:

- من ترك النساء والطعام فلابد له من ظهور كرامة.
- من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته، فاحذروا من التزويج.
- لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلام.
- من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.
- من تزوج فقد ركن إلى الدنيا[4]. إلى غير ذلك من العجائب والغرائب وهذا المفهوم يخالف الإسلام دين التوسط والاعتدال، فقد قال رسول الله ﷺ: **«فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[5]. وجملة القول أن زهد عمر بن عبد العزيز كان مقيداً بالكتاب والسنة وأن كثيراً مما نسب إليه في هذا الباب لا يصح لمخالفته هدي النبي ﷺ، ومن زهد عمر بن عبد العزيز في جمع المال، فقد كان على النقيض ممن يلي منصباً في وقتنا الحاضر فقد كانت غلته حين استخلف أربعين ألف دينار، ثم أصبحت حين توفي أربعمائة دينار، ولو بقي لنقصت[6]، حيث لم يرتزق رحمه الله من بيت المسلمين شيئاً[7]، فقد كان رحمه الله من زهاد زمانه إن لم يك أزهدهم، فكان يقول: إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تسر قليلاً وتحزن طويلاً[8]. وأخباره في

---

(1) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 155).
(2) المصدر نفسه (1/ 155).
(3) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 50.
(4) الطبقات للشعراني (1/ 34).
(5) فتح الباري على صحيح البخاري (9/ 104).
(6) حلية الأولياء (5/ 257).
(7) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 1861
(8) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 151.

الزهد كثيرة ذكر منها الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء حوالي ثمانية وعشرين أثراً[1]، لقد وصل عمر بن عبد العزيز إلى مرحلة متقدمة في الزهد والتحلي بصفات الزاهدين، وذلك ما لا يستطيع الوصول إليه أصحاب العيش في الظروف المادية في وقتنا الحاضر، الذي طغت فيه المادة على كل شيء في الحياة، وأصبح الناس يقيسون بعضهم البعض بما يملك من الدنيا وحطامها، حسبنا من قادة وزعماء هذا العصر المادي إن لم يتصفوا بصفة الزهد، على أقل تقدير، أن يكفوا أنفسهم عن الطمع، والجشع، وأن يسعوا إلى الكسب الحلال وأن يعملوا على قهر رغباتهم الدنيوية، لينالوا ما تاقت إليه نفس عمر بن عبد العزيز إلى ما هو أسمى من الدنيا. . إلى جنات النعيم[2]، ونختم حديثنا عن الزهد عند عمر ابن عبد العزيز بهذا الأثر فقد قال لمولاه مزاحم: إني قد اشتهيت الحج، فهل عندك شيء؟ قال: بضعة عشر ديناراً. قال: وما تقع مني؟ ثم مكث قليلاً، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تجهّز، فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف ديناراً من بعض مال بني مروان، قال: اجعلها في بيت المال، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حراماً فكفانا ما أصابنا منها قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقل ذلك علي قال: ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شيء صنعته لله، فإن لي نفساً توّاقة لم تَتُق إلى منزلة، فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة[3].

3 - تواضعه:

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63]. قال ابن القيم: أي يمشون بسكينة ووقار متواضعين[4]. وقال ﷺ: **«إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد»**[5]. وهذه الصفة الحميدة كانت إحدى الصفات الأساسية التي تميز بها عمر بن عبد العزيز، فقد أدى زهد عمر إلى تواضعه، لأن شرط الزهد الحقيقي هو التواضع لله[6]، وقد كان تواضع عمر في جميع أمور حياته ومعاملاته، فذلك ما يتطلبه الأمر من قائد خاف الله، ورجاء ما عنده، وأراد الطاعة والولاء من رعيته[7]، ومما يذكر من تواضع عمر جوابه لرجل ناداه: يا خليفة الله في الأرض، فقال له عمر: مه: إني لما

(1) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 366إلى378).
(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 151.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 62.
(4) مدارج السالكين (2/ 340).
(5) مسلم رقم 2865.
(6) عمر بن عبد العزيز للزحيلي، ص: 105.
(7) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 152.

ولدت اختار لي أهلي اسماً فسموني عمر، فلو ناديتني: يا عمر، أجبتك، فلما اخترت لنفسي الكُنى فكنيت بأبي حفص، فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك، فلما وليتموني أموركم سميتموني: أمير المؤمنين، فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك، وأما خليفة الله في الأرض، فلست كذلك ولكن خلفاء الله في الأرض داوود والنبي ﷺ وشبهه[1]، مشيراً على قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: 26] . ومن تواضعه أن نهى الناس عن القيام له، فقال: يا معشر الناس: إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وكان يقول للحرس: لا تبتدئوني بالسلام، إنما السلام علينا لكم[2]، وكان متواضعاً حتى في إصلاح سراجه بنفسه، فقد كان عنده قوم ذات ليلة في بعض ما يحتاج إليه، فغشي سراجه، فقام إليه فأصلحه فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا نكفيك؟ قال: وما ضرني؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[3]، ومن تواضعه أيضاً قال يوماً لجارية له: يا جارية روّحيني قال: فأخذت المروحة فأقبلت تروحه، فغلبتها عينها فنامت، فانتبه عمر، فإذا هو بالجارية قد احمّر وجهها، وقد عرقت عرقاً شديداً - وهي نائمة - فأخذ المروحة وأقبل يروحها، قال: فانتبهت، فوضعت يدها على رأسها فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحر ما أصابني، فأحببت أن أروحك مثل الذي روحتني[4]، وكان يمتنع عن كثرة الكلام - وهو العالم الفصيح المفوّه - خشية على نفسه من المباهاة بما عنده، أو يظن الناس به ذلك، فكان يقول: إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة[5]، ودخل عليه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زيناً، وأنت زين الخلافة، وإنما مثلك كما قال الشاعر:

وإذا الــدرّ زان حــســن وجــوه ... كــان لــلــدرّ حــســن وجــهــك زيــنــاً

فأعرض عنه[6]. وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال: لا بل جزى الله الإسلام عني خيراً[7]، ودخل عليه رجل، وهو في ملأ من الناس فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: عُمّ سلامك[8]، وهكذا أمير المؤمنين عمر، يخفض الجناح للمؤمنين، ولا يتكبر على أحد من عباد الله، ولم تزده الخلافة إلا تواضعاً ورأفة ورحمة، ولم يحمله المنصب إلا على الإخبات والخضوع لسلطان الحق، يصلح سراجه بنفسه، ويجلس بين يدي الناس على الأرض، ويأبى أن يسير الحراس والشُّرط بين يديه، ويعنّف

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 46.
(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 34، 35.
(3) المصدر نفسه، ص: 39.
(4) أخبار أبي حفص للآجري، ص: 86.
(5) المصدر السابق، ص: 84.
(6) سير أعلام النبلاء (5/ 36) الحلية (5/ 329).
(7) سير أعلام النبلاء (5/ 147) الحلية (5/ 331).
(8) الطبقات (5/ 384).

من يعظمه أو يخصه بسلام من بين الجالسين، ويتأبى أن يتميز على الناس بمركب، أو مأكل، أو ملبس، أو مشرب[1].

4 - ورعه:

من صفات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الورع، والورع هو الإمساك عما قد يضر، فتدخل المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه[2]، والورع في الأصل الكف عن المحارم والتحرج منها، ثم استعير للكف عن الحلال المباح[3]. وللدلالة على ما كان يتصف به عمر من الورع، وتحري السلامة من الشبهات، فقد روي أنه كان: يعجبه أن يتأدم بالعسل، فطلب من أهله يوماً عسلاً فلم يكن عنده، فأتوه بعد ذلك بالعسل، فأكل منه، فأعجبه، فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ قالت امرأته بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد، فاشتراه لي، فقال: أقسمت عليك لما أتيتني به، فأتته بُعكَّة[4]، فيها عسل، فباعها بثمن يزيد على الدينارين، ورد عليها مالها وألقى بقيته في بيت مال المسلمين وقال: انصبت دواب المسلمين في شهوة عمر[5]. ومن ورعه أنه كان له غلام يأتيه بقمقم[6]، من ماء مسخن، يتوضأ منه، فقال للغلام يوماً: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين، فتجعله عنده، حتى يسخن، ثم تأتي به؟ قال: نعم أصلحك الله، قال: أفسدته علينا، قال: فأمر مزاحماً أن يغلي ذلك القمقم، ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام التي كان يغليه فيها، فيجعله حطباً في المطبخ[7]. ومن أمثلة ورعه كان لا يقبل أي هدية من عماله أو من أهل الذمة خوفاً من أن يكون ذلك من باب الرشوة، فعن عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحاً فقال: لو كانت لنا أو عندنا - شيء من التفاح، فإنه طيب الريح طيب الطعم فقام رجل من أهل بيته فأهدى إليه تفاحاً، فلما جاء به الرسول، قال عمر: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام، فأقرئ فلاناً السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب، فقلت يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة قال: ويحك؟ إن الهدية كانت للنبي هدية وهي لنا اليوم رشوة[8]، ومن ورعه أنه كان لا يرى لنفسه أن تشم رائحة مسك أتته من أموال المسلمين،

---

(1) عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار الشيخ، ص: 123.

(2) الفتاوى (10/ 615).

(3) لسان العرب (8/ 288).

(4) العكة: وعاء من جلد ماعز يدبغ ويخصص للسمن والعسل.

(5) أخبار أبي حفص للآجري، ص: 54.

(6) القمقم: هو ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره.

(7) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 40.

(8) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 197.

فعندما وضعت بين يديه مسكة عظيمة فأخذ بأنفه، فقيل يا أمير المؤمنين إنما هو ريح قال: وهل ينتفع منها إلا بريحها[1]، وكان يحترز من استعمال أموال المسلمين العامة، فكان يسرج السراج من بيت إذا كان في حاجة المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ثم أسرج عليه سراجه الخاص به من ماله الخاص[2]، وقد ذكر المؤرخون كثيراً من الأمثلة التي تدل على ورعه، فقد اعتبر أن البعد عن أموال المسلمين حتى في الأشياء اليسيرة القليلة هو من باب الابتعاد عن الشبهة، فكان بعيد عن الشبهات[3] احتياطاً لدينه، وذلك أن الأمور ثلاثة كما قال هو بنفسه:

1 - أمر استبان رشده فاتبعه.
2 - وأمر تبين خطؤه فاجتنبه.
3 - وأمر أشكل عليك فتوقف عنه[4].

وكان رحمه الله ورعاً حتى في الكلام فعندما قيل له: ما تقول في أهل صفين؟ قال: تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لساني بها[5]، وهكذا يتضح أن ورع عمر كان في شأنه كله، في مأكله وحاجته وشهوته، ومال المسلمين وفي كافة أمور حياته، ذلك الورع النابع مع الإيمان القوي، والشعور بالمسئولية واستحضاره الآخرة، فقد كانت صفة الورع من صفاته الجلية، فقد بلغ به مبلغاً جعله يشتري مكان قبره الذي سيوارى فيه، فلا يكون له من الدنيا شيء دون مقابل حتى موضع قبره[6].

5 - حلمه وصفحه وعفوه:

ومن الصفات التي تجسدت في شخصية عمر بن عبد العزيز الحلم والصفح والعفو، فعن شيخ من الخناصريين قال: كان لعمر بن عبد العزيز ابن له من فاطمة، فخرج يلعب مع الغلمان فشجه غلام فاحتملوا ابن عمر والذي شجه فأدخلوهما على فاطمة، فسمع عمر الجلبة وهو في بيت آخر فخرج، وجاءت امرأة فقالت: هذا ابني وهو يتم قال: أله عطاء؟ قالت: لا. قال: فاكتبوا في الذرية فقالت فاطمة: فعل الله به وصن إن لم يشجه مرة أخرى فقال عمر: إنكم فزعتموه[7]. وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يوماً غضباً شديداً

---

(1) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 200، كتاب الورع لابن أبي الدنيا، ص: 74 وقال محقق الكتاب إسناد الأثر.
(2) الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 164).
(3) المصدر نفسه (1/ 165).
(4) العقد الفريد (4/ 397) الآثار الواردة (1/ 165).
(5) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 195.
(6) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 156.
(7) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 207 الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (2/ 423).

على رجل، فأمر به فأحضر وجرِّد وشُدَّ في الحبال وجيء بالسياط فقال: خلُّوا سبيله ثم قال: أما أني لولا أن أكون غضباناً لسُؤْتُك. وتلا: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 134]، وعن عبد الملك قال: قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار[1]، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يُحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت عمر فوقع في وجهه فشجه. قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار وأمر له بحاجته وخلَّى سبيله[2]وروى أن رجلاً نال من عمر فلم يجبه. فقيل له: ما يمنعك منه؟ قال: التقيُّ مُلجم[3]، وعن حاتم بن قدامه أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو يخطب فقال له: أشهد أنك من الفاسقين. فقال له عمر: وما يدريك؟ وأنت شاهد زور فلا نجيز شهادتك[4]، وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة خرج ليلة في السحر إلى المسجد ومعه حرسي فمرا برجل نائم على الطريق فعثر به عمر. فقال له: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا فهمَّ الحرسي به. فقال له عمر: مه، فإنه سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا[5]. وروي أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو على المنبر فنال منه وأغضبه، فقال له عمر يا هذا أردت أن يستفزني الشيطان مع عزة السلطان أن أفعل بك اليوم ما تفعل بي غداً مثله. اذهب غفر الله لي ولك[6]. وقيل: أتى ولد لعمر بن عبد العزيز وهو يبكي، فقال له: ما شأنك؟ فقال: ضربني فلان العبد. فجيء به. فقال له: ضربته؟ قال: نعم. فقال له: اذهب فلو أني معاقب أحداً على الصدق لعاقبتك اذهب ولم يكلمه[7]. والمواقف في حلمه وصفحه وعفوه كثيرة وهذا غيض من فيض.

6 - صبره:

ومن صفاته رحمه الله الصبر والشكر، روى أنه لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حضر عند قبره فقال: لا تعمقه فإن ما علا من الأرض أفضل مما سفل منها[8]، وروي أن حين مات عبد الملك ولده، وسهل بن عبد العزيز أخوه ومزاحم مولاه، قال رجل من أهل الشام: والله لقد ابتلي أمير المؤمنين ببلاء عظيم: مات ولده عبد الملك لا والله إن رأيت ولداً كان أنفع لوالده منه، ثم أصيب أمير المؤمنين بأخ لا والله ما رأيت أخاً أنفع لأخ منه. قال: وسكت عن مزاحم. فقال عمر بن عبد العزيز: لم سكت عن مزاحم، فوالله ما هو أدنى الثلاثة عندي، رحمك الله يا مزاحم مرتين أو ثلاثاً والله لقد كنت كفيت كثير الدنيا، ونعم الوزير كنت في أمر

---

(1) الطومار: صحيفة مطوية.
(2) حلية الأولياء (5/ 311).
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 208.
(4) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (2/ 424).
(5) المصدر نفسه 2/ 425.
(6) المصدر نفسه 2/ 425.
(7) المصدر نفسه 2/ 425.
(8) المصدر نفسه 2/ 427.

الآخرة[1]، وعن حفص بن عمر قال: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جعل أبوه يثني عليه عند قبره فقال مسلمة: أرأيت لو بقي أكنت تولِّيه؟ قال: لا. قال: فأنت تثني عليه بهذا الثناء؟! قال: إني أخاف أن يكون زيِّن لي من المحبة له ما يزين في عين الوالد من حبِّ ولده[2]. وخطب عمر في خطبته فقال: ما من أحد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، إلا كان الذي أعطاه الله من الأجر فيها أفضل مما أخذ منه، وقال: الرضى قليل والصبر معتمد المؤمن. وقال: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن لم يَعدَّ كلامه من عمله كثرت خطاياه، والرضا قليل ومعول المؤمن على الصبر[3]. وكان من أجل ما صبر عليه عمر في حياته: أمر الخلافة، فقد قال: والله ما قعدت مقعدي هذا إلا خوفاً أن يثبت عليه من ليس بأهل، ولو أني أطاع فيما أعمل لسلمتها إلى مستحقيها - يعني الخلافة - ولكنني أصبر حتى يأتي الله بأمر من عنده، أو يأتي بالفتح[4].

7 - الحزم:

لقد اتسم عمر بن عبد العزيز بهذه الصفة، في وقت أكثر ما يكون فيه أمر الأمة والخلافة في حاجة إلى الحزم، وبخاصة فيما يتعلق بالولاة والأمراء والعمال وللدلالة على تحلّي عمر بصفة الحزم وضبط الأمور، وعدم التهاون فيما يراه ضرورياً لخدمة الصالح العام، وما يصلح به أمر المسلمين، ولقد أخذ حزم عمر صوراً مختلفة ومجالات عدة، كحزمه مع أمراء وأشراف بني أمية ومع الذين يريدون شق عصا المسلمين والخروج على جادتهم وإثارة الفتن وسفك الدماء وغير ذلك من الأمور، فقد كان أول مؤشر على حزمه موقفه من بني مروان، إذ قال لهم: أدوا ما في أيديكم ولا تُلجئوني إلى ما أكره، فأحملكم على ما تكرهون، فلم يجبه أحد منهم. فقال: أجيبوني، فقال رجل منهم: والله لا نخرج عن أموالنا التي صارت إلينا من آباتنا، فنُفقِّر أبناءنا ونكفر آباءنا، حتى تتزايل رؤوسنا، فقال عمر: أما والله لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له، لأضرعت خدودكم عاجلاً، لكني أخاف الفتنة، ولئن أبقاني الله لأردَّنَّ إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله[5]، وكان إذا وقع في أمر مضى فيه، وجاءه يوماً كتاب من بعض بني مروان فأغضبه فاستشاط[6] ثم قال: إن لله من بني مروان يوماً - وقيل - وذبحاً - وأيم الله، لئن كان ذلك الذبح على يدي، فلما بلغهم ذلك، كفوا وكانوا يعلمون

---

(1) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (2/ 427).
(2) المصدر نفسه 2/ 428).
(3) المصدر نفسه 2/ 428).
(4) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 144.
(5) العقد الفريد (5/ 173).
(6) استشاط الرجل: أي احتدّ واحتدم كأنه التهب في غضبه.

صرامته، وأنه إذا وقع في أمر مضى فيه[1]، وأما فيما يتعلق بمن يريد شق عصا المسلمين والخروج عليهم، فقد اتبع معهم أسلوب الحوار والمناظرة - وهم الخوارج - الذين ثاروا ضد بني أمية بقيادة شوذب الخارجي 100هـ ليقف على ما دفعهم إلى ذلك ويرى إن كان الحق معهم نظر في أمره، وإلا فليدخلوا فيما دخل فيه الناس، إلا أنه في الوقت نفسه قرن إجراءاته تلك بشيء من الحزم والصلابة، عندما يصل الأمر إلى مرحلة سفك دماء المسلمين أو الإفساد، إذ كتب إلى عامله على العراق يقول: ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فخل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً طيباً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً، وأوصه بما أمرتك به[2]، وهكذا كان عمر في حزمه، فقد أخذ الإجراءات والمواقف الحازمة والتي كانت على درجة كبيرة من الأهمية والحساسية وكان لذلك الحزم مردوداً إيجابياً كبيراً على سير الأمور وتنفيذ ما كان يسعى لتحقيقه من العدل والطمأنينة ومعالم الخلافة الراشدة[3].

8 - العدل:

إن صفة العدل من أبرز صفات عمر بن عبد العزيز القيادية على الإطلاق - وقد تحدث عن العدل في دولته وسياسته في رد المظالم فيما مضى، ولقد أجمع العلماء قاطبة على أنه - أي عمر بن عبد العزيز - من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين[4]، ولعل عدل عمر من أهم أسبابه يرجع إلى إيمانه بأن العدل أحد نواميس الله في كونه ويقينه التام بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان، وأنه من صفات المؤمنين المحبين لقواعد الحق وإلى إحساس عمر بوطأة الظلم للناس في خلافة من سبقه من الخلفاء والأمراء الأمويين بالإضافة إلى السبب الأهم وهو: ما أمر الله به من العدل والإحسان، وأنهما الأسس العامة لأحكام الشرائع السماوية، وما نماه الإسلام في نفس عمر، من حب للعدل وإحياء لقيمه[5]، وإليك هذه الصور من عدله والتي لم أذكرها فيما مضى، وهو ما رواه الآجري من أن رجلاً ذمّياً من أهل حمص قدم على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين: أسألك كتاب الله عز وجل، قال: وما ذاك، قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك: اغتصبني أرضي - والعباس جالس - فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لي بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل. فقال عمر: كتاب

(1) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 158.
(2) تاريخ الطبري (7/ 459).
(3) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 163.
(4) البداية والنهاية، نقلاً عن النموذج الإداري، ص: 163.
(5) النموذج الإداري، ص: 163، 164.

لله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فاردد عليه يا عباس ضيعته فردّها عليه[1].
ومن مواقفه العادلة ما حدّث به الحكم بن عمر الرعيني، قال: شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة[2]، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد، وخصماؤك بين يدي، ولكن وكّل بخصومتك من شئت، وإلا فجاثي القوم بين يدي، فوكل مولى له بخصومته - يعني مسلمة - فقضى عليه بالناعورة[3]، وهذا قليل من كثير، مما أوردته كتب السير عن عدل عمر.

9 - تضرعه ودعاؤه واستجابة الله لدعائه:

كان عمر بن عبد العزيز كثير التضرع والدعاء، فقد كان يقول: يا رب خلقتني ونهيتني ووعدتني بثواب ما أمرتني، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه وسلطت علي عدواً أسكنته صدري وأجريته مجرى دمي، إن أهمّ بفاحشة شجعني وإن أهم بصالحة ثبطني، لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، ينصب لي في الشهوات، ويتعرض لي في الشبهات، وإلا تصرف عني كيده يستذلني، اللهم فاقهر سلطانه علي بسلطانك عليه حتى أحبسه بكثرة ذكري لك فأكون مع المعصومين بك، ولا حول ولا قوة إلا بالله[4]، وكان يقول: اللهم أصلح صلاح أمة محمد ﷺ، اللهم أهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ[5]، وكان يدعو بهذا: اللهم ألبسني العافية حتى تهنّيني المعيشة، واختم لي بالمغفرة حتى لا تضرني الذنوب، واكفني كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين[6]، وكان يقول: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك بأبغض الأشياء إليك وهو الشرك، فاغفر لي ما بينهما[7]. وكان يقول: اللهم أني أعوذ بك أن أُبّدل نعمتك كفراً، أو أن أكفرها بعد موتها، أو أن أنساها فلا أثني بها[8]. وكان كثيراً ما يدعو بها: اللهم رضني بقضاك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخّرته، ولا تأخير شيء عجلته[9]. وكان رحمه الله مستجاب الدعوة، فروى ابن الحكم أن ابن الريان كان سيافاً للوليد بن عبد الملك، فلما ولي عمر

(1) أخبار أبي حفص، ص: 58.
(2) الناعورة: موضع بين حلب وبالس يبعد عن حلب ثمانية أميال.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 91 لابن الجوزي.
(4) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 341).
(5) المصدر نفسه (1/ 342).
(6) المصدر نفسه (1/ 343).
(7) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 230.
(8) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 343).
(9) المصدر نفسه (1/ 344).

الخلافة قال: إني أذكر إباءه وتيهه، ثم قال: اللهم إني قد وضعته لك فلا ترفعه، فما رئي شريف قد خمد ذكره مثله حتى لا يذكر[1]، وقد دعا عمر رحمه الله حين حج وأخبر قبل دخوله إلى مكة بقلة الماء فيها، فدعا عند ذلك، فأجاب الله دعاءه، فسقوا وهذا حين كان أمير على المدينة[2]، كما دعا على غيلان القدري حين ناظره فقال: اللهم إن كان عبدك غيلان صادقاً وإلا فاصلبه، فصلب بعد في خلافة هشام بن عبد الملك[3].

ثانياً: معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز:

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين والمهتمين بدراسة الحركة التجديدية، إجماعاً تاماً على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز المجدد الأول في الإسلام[4]، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: يروى في الحديث إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز[5]، وتتابع العلماء على عدّه أول المجددين وذكر بعض أهل العلم هو من المقصودين بحديث رسول الله ﷺ: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»**[6]. ولا شك أن عمر بن عبد العزيز خليق بأن يكون ممن يحمل عليه هذا الحديث، فقد كان عالماً عاملاً، همه كله وعزمه وهمته آناء الليل والنهار إحياء السنن وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، والسنن[7]، يقول ابن حجر العسقلاني: إن إجماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي، وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل[8]. ومع أن بعض العلماء رأى أن مقام المجدد الكامل لا يستحقه إلا مهدي آخر الزمان، وأنه لم يولد في الأمة المسلمة مجدد كامل حتى الآن، وإن كان عمر بن عبد العزيز

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 30.
(2) البداية والنهاية، نقلاً عن الآثار الواردة (1/ 183).
(3) الشريعة للآجري (1/ 438).
(4) عون المعبود (11/ 393) العظيم آبادي، جامع الأصول (11/ 322).
(5) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 74.
(6) المجددون في الإسلام، ص: 57 للصعيدي، موجز تاريخ للمودودي، ص: 63.
(7) الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (1/ 177).
(8) فتح الباري (13/ 295).

أوشك أن يبلغ مرتبة المجددية الكاملة لو أنه استطاع إلغاء طريقة الحكم الوراثية، وإعادة انتخاب الخليفة عن طريق الشورى[1]. وسواء استحق عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكامل أم لا، فإن الأعمال التجديدية التي قام بها، والجهود الكبيرة التي بذلها لاستئناف الحياة الإسلامية، وإعادتها إلى نقائها وصفائها زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين تجعله على رأس المجددين الذين جاد بهم الزمان حتى يومنا هذا، وقد ساعده على ذلك موقعه الذي تبوأه على رأس خلافة قوية، منيعة الجانب، مترامية الأطراف، ولكي ندرك حجم الأعمال التجديدية التي اضطلع بها هذا الخليفة، وقدر الإصلاح الذي أحدثه، ينبغي أن نقف على حجم الانحرافات التي طرأت على الحياة الإسلامية والتغيّر والانقلاب الذي حدث للخلافة الإسلامية، ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا حصرنا الانحراف في ذلك الوقت بنظام الحكم، وما نتج عن ذلك مظالم وفساد وأما الحياة العامة فكانت أنوار النبوة لازالت ذات أثر بالغ فيها وكان الدين صاحب السلطان الأول في قلوب الناس[2].

1 - من إصلاحات عمر وأعماله التجديدية:

أ - الشورى: قد مرّ معنا أن عمر بن عبد العزيز في أول لقاء له مع الناس حمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فَلِ أمرنا باليُمن والبركة[3]. وبهذا يكون عمر قد قام بأول عمل تجديدي، حيث أعفى الناس من الملك العضوض، ولم يجبرهم على القبول بمن لم يختاروه، بل رد الأمر إليهم وجعله شورى بينهم[4].

ب - الأمانة في الحكم وتوكيل الأمناء: فقد تواترت النقول المفيدة أنه بلغ من حرصه على ذلك أقصى المراتب فقد استشعر عظم المسؤولية وضخامة الحمل منذ اللحظة الأولى لاستلامه الخلافة، فقال لمن سأله: مالي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني[5]. وقال: لست بخير من أحد منكم، ولكن أثقلكم حملاً[6]. وكان يطالب عمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأناً من شؤون المسلمين، فقد كتب إلى أحد عمّاله: لا تولين شيئاً من أمر

---

(1) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي، ص: 69.
(2) عمر بن عبد العزيز للندوي، ص: 10.
(3) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي، ص: 65.
(4) التجديد في الفكر الإسلامي د. عدنان محمد، ص: 79.
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 586).
(6) المصدر نفسه (5/ 586).

المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيها استرعى[1]، ولم تكن سياسته في التورع عن أموال المسلمين سياسة طبقها على خاصة نفسه فقط بل أزم بها عمّاله وولاته، فقد كتب إلى عامله أبي بكر بن حزم: أن أدق قلمك، وقارب بين أسطرك، فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالاً ينتفعون به[2]، وقد ساس رعيته سياسة رحيمة، وأمَّن لهم عيشاً رغيداً وكفاهم مذلة السؤال، فقسم فضول العطاء في أهل الحاجات[3]، وقسم في فقراء أهل البصرة ثلاثة دراهم لكل إنسان، وأعطى الذمي خمسين خمسين[4]، وطلب من عماله أن يجهزوا من أراد أداء فريضة الحج[5]، وكتب إلى عماله: أن اعملوا خانات في بلادكم فمن مر بكم من المسلمين، فأقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علّة فأقروهم يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[6]، وقد عزّ في زمن عمر وجود من يقبل الزكاة، يقول عمر بن أسيد: والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح يرجع بماله كله، قد أغنى عمر الناس[7]، وكانت حرمة المسلمين فوق كل الأموال فقد كتب إلى عماله: أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[8]، ولاتزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على كل أولئك الذين يشككون في إمكانية إقامة نظام اقتصادي إسلامي، وبرهاناً ساطعاً على أن الاحتكام للشريعة الربانية هو وحده الذي يكفل للناس السعادة في الدنيا والآخرة[9].

ج - **مبدأ العدل:** فقد كان فيه لعمر القدح المعلاّة، وكان بحق وارثاً فيه لجدّه لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ضرب فيه على النقود عبارة: أمر الله بالوفاء والعدل[10]، وطلب أن لا يقام على أحد حد إلا بعد علمه[11]، وكتب لعامله الجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان:

---

(1) تاريخ الطبري، نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 81.
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 595).
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 81.
(4) تاريخ الطبري (7/ 474).
(5) تاريخ الطبري (7/ 474).
(6) المصدر نفسه (7/ 472).
(7) سير أعلام النبلاء (5/ 588).
(8) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 120.
(9) خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز، ص: 41 - 42.
(10) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 98.
(11) تاريخ الطبري (7/ 474).

يا ابن أم جراح، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها[1]. وأنصف أهل الذمة وامر أن لا يُعتدى عليهم أو على معابدهم، وكتب إلى عماله: لا تهدموا كنيسة ولا بيعة، ولا بيت نار صولحتم عليه[2]، وقد رفع المكس وحطّ العشور والضرائب التي فرضتها الحكومات السابقة، وأطلق للناس حرية التجارة في البر والبحر، وقد تبرأ من المظالم التي كان يرتكبها بنو أمية وتبرأ من الحجّاج وأفعاله و أنكر على عمّاله الاستنان بسنته[3].

د - إحياؤه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أخذت الخلافة تتراجع عن الغاية التي قامت من أجلها وهي حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ ورفع لواءه وأعلى شأنه وجعله المهيمن والمقدّم على ما سواه وما حقق عمر ما حققه من أعمال وإنجازات إلا انطلاقاً من خوفه الشديد من الله، وطلبه فيما فعله مرضاته، وقد ساعده على ذلك أنه كان من أجلة العلماء التابعين وأئمة الاجتهاد[4] حتى قال عنه عمر بن ميمون: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة[5]، وقد كان لسلامة دينه وصدق عقيدته الأثر البالغ في تجديده وإصلاحاته، فقد حارب الأهواء والبدع، وشدد النكير على أهلها[6] - وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى. وقد نقل عنه الإمام الأوزاعي قوله: إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة[7]. وكان يرى أنه لا قيمة لحياته لولا سنة يحييها، أو بدعة يميتها[8]، وقد اهتم اهتماماً شديداً بديانة الناس وأخلاقهم، فكتب إلى عمّاله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشدّ تضييعاً[9]. والناظر في رسائل عمر وخطبه ومواعظه وهي أكثر من أن تحصى يرى إيماناً قوياً، ومراقبة جلية وخوفاً من يوم يقف فيه الناس بين يدي رب العالمين، وقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيراً بالغاً في حياة العامة وميولهم وأذواقهم ورغباتهم[10] يدل على ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه مقارناً عهد عمر بعهود من سبقه من الحكام السابقين: كان الوليد صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون في زمانه، فكان يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 464).
(2) المصدر نفسه (7/ 477).
(3) سيرة ومناقب عمر، ص: 108.107.
(4) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 85.
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 518).
(6) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 86.
(7) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص: 83 لابن الجوزي.
(8) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 86.
(9) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص: 221 لابن الجوزي.
(10) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 86.

التزويج والجواري، فلمّا ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم، ومتى ختمت، وما تصوم من الشهر[1]؟ ولم يكتف عمر بإقامة الدين داخل دولته، بل وجّه عنايته إلى غير المسلمين، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، وراسل ملوك الهند وملوك ما وراء النهر، ووعدهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فأسلم الكثير منهم وتسموا بأسماء[2] العرب، ولعل من أجّل الأعمال التي خدم بها هذا الدين أمره بتدوين العلوم الإسلامية وخاصة علم الحديث، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى، كل هذه الأعمال العظيمة والإصلاحات الجليلة حققها عمر في مدة خلافته الوجيزة، فغدا درة للأمة، ومنارة يستهدي بنورها الملتمسون دروب التجديد والإصلاح[3].

2 - من شروط المجدد وصفاته:

نستطيع أن نحدد أهم شروط المجدد والصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه حتى يعد من المجددين من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

أ - أن يكون المجدد معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج: وذلك لأن من أخص مهمات التجديد إعادة الإسلام صافياً نقياً من كل العناصر الدخيلة، وهذا لا يحصل إلا إذا كان المجدد من السائرين على منهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام، ومن الطائفة الناجية المنصورة التي جاء وصفها بأنها فرقة من ثلاث وسبعين فرقة وأنها تلتزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في عقيدته، ومنهجه وتصوراته[4] وهذا الشرط قد توفر في عمر بن عبد العزيز، وسوف نوضحها في آثاره العقدية عند دراستها بإذن الله تعالى.

ب - أن يكون عالماً مجتهداً: وهذا الشرط تحقق في عمر بن عبد العزيز فقد واجه المشكلات التي تولدت في عصره واجتهد في وضع الحلول الشرعية لها، وفي الحقيقة أن رتبة الاجتهاد ليست عسيرة إلى الحد الذي تصوره بعض كتب أصول الفقه وممن ذهب إلى وضع شروطاً يكاد يكون من المحال الإحاطة بها، حيث أوجبوا أن يحيط المجتهد بعلوم الآلة كلها من نحو ولغة وبلاغة وبعلوم الشريعة من تفسير وحديث وأصول فقه وعلوم قرآن ومصطلح حديث وسيرة، وبعلمي المنطق وعلم الكلام، وغير ذلك مما يصعب الإحاطة به[5]، والصواب أن الاجتهاد سهل ميسور، لمن كانت عنده أهلية النظر، والمهم أن نعلم أن المجدد

---

(1) تاريخ الطبري، نقلا عن التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 87.

(2) خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز، للندوي، ص: 30.

(3) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 87.

(4) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 46.

(5) عون المعبود (11/ 392).

يشترط فيه أن يكون محيطا بمدارك الشرع، قادراً على الفهم والاستنباط مطَّلعاً على أحوال عصره، فقيهاً بواقعه[1]، يقول المناوي: إن على المجدد أن يكون: قائماً بالحجة، ناصراً للسنة، له ملكة رد المشتبهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والنظريات، من نصوص الفرقان وإرشاداته ودلالاته واقتضاءاته من قلب حاضر وفؤاد يقظان[2]ويقول العظيم آبادي: إن المجدد للدين لا بد أن يكون عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصراً للسنة، قامعاً للبدعة[3]، ويقول المودودي: من الخصائص التي لا بد أن يتصف بها المجدد هي: الذهن الصافي، والبصر النفاذ، والفكر المستقيم بلا عوج والقدرة النادرة على تبيين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط، ومراعاة الاعتدال بينهما، والقوة على التفكير المجرد عن تأثير الأوضاع الراهنة، والعصبيات الراسخة على طول القرون، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف[4]، ويقول في تعداده لعمل المجدد: الاجتهاد في الدين، والمراد به أن يفهم المجدد كليات الدين، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرقي العمراني في عصره ويرسم طريقاً لإدخال التعبير والتعديل على صورة التمدن القديمة المتوارثة، يضمن للشريعة سلامة روحها وتحقيق مقاصدها، ويمكّن الإسلام من الإمامة العالمية في رقي المدينة الصحيح.

ج - **أن يشمل تجديده ميداني الفكر والسلوك في المجتمع**: وذلك لأن تصحيح الانحراف من أخص المهمات التي ينبغي أن يقوم بها المجدد، ومعلوم أن الانحراف يطرأ على السلوك كما يطرأ على الفكر، بل إن غالب الانحرافات السلوكية منشؤها الخرافات الفكرية، فيقوم المجدد بتصويب الأفهام والأفكار، وتخليصها مما داخلها من شكوك وشبهات، ويحيي العلم النافع والفهم الصحيح للإسلام، ويبثه بين الناس، وينشره بالتدريس، وتأليف الكتب، وغير ذلك من الوسائل المتاحة، ثم يعمد إلى إصلاح سلوك الناس وتقويم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وإبطال التقاليد المخالفة للشريعة، وإعلان الحرب على البدع والخرافات، والمنكرات المتفشية في حياة الناس، ومواجهة الفساد بمختلف أشكاله وصوره، وخاصة الفاسد في الحكم والإمارة، بهذا يكون المجدد قد جمع بين القول والفعل، والعلم والعمل، قد أثار السلف إلى هذا الشرط بقولهم عن المجدد إنه ينصر السنة ويقمع البدعة[5].

د - **أن يعم نفعه أهل زمانه**: وذلك لأن المجدِّد رجل مرحلة زمنية، تمتد قرناً من الزمن، فلا بد إذن من أن يكون منارة يستضيء بها الناس ويسترشدون بهداها، حتى مبعث المجدد الجديد على الأقل، وهذا يقتضي أن يعم علم المجدد ونفعه أهل عصره، وأن تترك جهوده الإصلاحية أثراً بيناً في فكر الناس وسلوكهم، وغالباً ما يتم تحقيق ذلك عبر من يربيهم من

---

(1) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 46.
(2) فيض القدير للمناوي (1/ 14).
(3) عون المعبود (11/ 319).
(4) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي، ص: 52.
(5) عون المعبود (11/ 391)، التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 48.

تلامذة، وأصحاب أوفياء، يقومون بمواصلة مسيرته الإصلاحية وينشرون كتبه وأفكاره ويؤسسون مدارس فكرية تترسم خطاه في الإصلاح والتجديد[1].

3 - قول رسول الله ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها[2]. والدروس والعبر والفوائد المستنبطة منه:

يعد هذا الحديث إحدى البشائر بحفظ الله لهذا الدين مهما تقادم الزمان وبكفالته سبحانه إعزاز هذه الأمة ببعثة المجددين الربانيين الذين يحيونها بعد موات، ويوقظونها من سبات، بما يحملونه من الهدى والنور، وأن هذا الحديث يمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد، بأن المستقبل للإسلام مهما تكاثرت قوى الشر، وتعاظم طغيان أهل الباطل، وبأن النور سيسطع مهما احلولك الليل، واشتد الظلام، ونحن في الوقت الحاضر بحاجة ماسّة لتأكيد هذا المعنى، ونشره بين الناس، حتى نقاوم موجات اليأس والقنوط التي عمَّت النفوس، فجعلتها تستسلم للذل والخضوع والخنوع، بحجة أننا في آخر الزمان وأنه لا فائدة ولا رجاء من كل جهود الإصلاح التي تبذل، لأن الإسلام في إدبار والكفر في إقبال، وها قد ظهرت علامات الساعة الصغرى، ونحن في انتظار العلامات الكبرى التي سيعقبها قيام الساعة، وقد يستدل أصحاب هذا الاتجاه ببعض الأحاديث، ويفهمونها على غير الوجه المراد منها، من ذلك استدلالهم ببعض الأحاديث، ويفهمونها على غير الوجه المراد منها[3]. من ذلك استدلالهم بحديث أنس ﷺ عند البخاري: **«لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم»**[4]، وحديث **«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»**[5]. وينسون أنه لا يجوز أن نفهم هذه الأحاديث بمعزل عن الأحاديث الأخرى التي تحمل البشرى والأمل للأمة، مثل حديث: **«مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أو آخره»**[6]، وفي قوم دون غيرهم، وفي زمن دون زمن، كما ذكر ابن القيم[7] ولذلك شهد التاريخ الإسلامي حقباً من الظهور والإشراق كعهد عمر بن عبد العزيز[8]، ونور الدين، وصلاح الدين، ويوسف بن تاشفين، ومحمد الفاتح، وغيرهم، وتجب الإشارة هنا إلى أن حديث التجديد الذي نحن بصدد شرحه، وكذا الأحاديث التي تحمل البشرى بعودة الإسلام إلى واجهة الحياة، وإن كانت أخباراً يقينية صدرت عن الصادق المعصوم، ولا بد أن تتحقق كما أخبر، إلا أنها تحمل في مضمونها تكليفاً واستنهاضاً لعزمات المسلمين بوجوب السعي الدؤوب لتحقيق نصر الله لهذا الدين وإعزاز أهله كما هي سنة الله في ترتيب المسببات على الأسباب[9].

---

(1) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 48.
(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 151).
(3) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 55.
(4) البخاري رقم 6541، كتاب: الفتن.
(5) مسلم، كتاب: الإيمان رقم 208.
(6) سنن الترمذي رقم 2795 صحيح.
(7) مدارج السالكين (3/ 196).
(8) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 56.
(9) الاجتهاد للتجديد، عمر عبيد حسنة، ص: 7.

أ - في قوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة»[1]: إن هذا المبعوث لم يعد همه نفسه فقط، بل تجاوز ذلك ليعيش لهذه الأمة، فهو صاحب عزيمة وهمة يعيش هموم أمته ويبذل قصارى جهده مواصلاً عمل النهار بالليل، لينقذ هذه الأمة من وهدتها، ويعيد لها ثقتها بدينها، ويردها إلى المنهج الصحيح، مصابراً على ما يعترض سبيله من عقبات ومغالباً كل المشقات والتحديات، ليصل إلى رفعة هذه الأمة وعودة مجدها[2].

ب - قوله: على رأس كل مائة سنة[3]: الرأس في اللغة يمكن أن يراد به أول الشيء، كما أن يمكن أن يراد به آخره[4]، وقد اختلف العلماء في المراد من الرأس في هذا الحديث، فقال بعضهم: المراد: أول المائة، وقال آخرون: المراد آخرها[5]، وهذا ما اختاره ابن حجر[6]، والطيبي[7]، والعظيم آبادي[8]، وقد احتج العظيم آبادي لاختياره بكون الإمامين الزهري وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة المتقدمين والمتأخرين، اتفقوا على أن من المجددين على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ﷺ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي ﷺ، وقد توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة، وله أربعون سنة، ومدة خلافته ستتان ونصف، وتوفي الشافعي سنة أربع ومائتين[9]، ولا يمكن عد عمر بن عبد العزيز مجدد المائة الأولى لأنه لم يكن مولوداً أوّلها، فضلاً عن أن يكون مجددها، وكذا الإمام الشافعي لم تكن ولادته بداية المائة الثانية فضلاً عن أن يكون مجددها[10].

ج - هل يشترط لعد المجدد أن تقع وفاته على رأس المائة؟ يشترط بعض العلماء لاستحقاق المجدد هذا الوصف أن تقع وفاته على رأس القرن، إلا أن هذا الرأي مرجوح لأن كلمة (البعث) في الحديث تدل على الإرسال والإظهار والموت قبض وزوال، فالمقصود من الحديث: أن المجدد من تأتي عليه نهاية القرن وقد ظهرت أعماله التجديدية، واشتهر بالصلاح وعمّ نفعه، ولا يشترط أن تقع وفاته قبيل نهاية القرن أو أن يبقى حياً حتى يدخل عليه القرن التالي[11].

د - هل مجدد القرن واحد أو متعدد؟ أثار قوله ﷺ: **«من يجدد لها دينها»** سؤالاً في الماضي والحاضر، هو: هل المقصود بلفظة (من) الواردة في الحديث فرداً واحداً من أفراد

---

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 151).
(2) التجديد في الإسلام، نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 57.
(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 151).
(4) عون المعبود (11/ 386).
(5) المصدر نفسه (11/ 386).
(6) فتح الباري (13/ 295).
(7) عون المعبود (11/ 389).
(8) المصدر نفسه (11/ 387).
(9) المصدر نفسه (11/ 387).
(10) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 58.
(11) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 61.

الأمة وأفذاذها يحيي الله بها دينها، أم المراد بها ما هو أوسع من ذلك فيشمل الأفراد والجماعات، وذهب كثير من العلماء إلى أن المجدد فرد واحد، ونسب السيوطي هذا الرأي إلى الجمهور فقال في أرجوزته عن المجددين:

وكونه فرداً هو المشهور قد نطق الحديث والجمهور[1]

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن كلمة (من) في الحديث للعموم في أصل وضعها اللغوي[2]، فتشمل الواحد والجماعة على حد سواء[3]، ومن هؤلاء العلماء ابن حجر وابن الأثير والذهبي وابن كثير والمناوي والعظيم آبادي[4]، ويتبين من خلال البحث أن حمل لفظة (من) في الحديث عن العموم أولى، لأن التاريخ والواقع يثبت وجود أكثر من مجدد رأس كل قرن من القرون الخوالي، ولأن مهمة التجديد مهمة ضخمة واسعة لكونها لا تقتصر على جانب من جوانب الدين، ولأن رقعة الأمة الإسلامية تمتد على مساحة شاسعة يصعب معها على فرد بل مجموعة أفراد أن يقوموا بعملية التجديد الشامل المطلق[5].

هـ - المجدد هو دين الأمة وليس الدين نفسه: يلاحظ المتأمل في قوله ﷺ: «**من يجدد لها دينها**» أنه أضاف الدين إلى الأمة ولم يقل يجدد لها الدين، وذلك لأن الدين بمعنى المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وما اشتمل عليه من عقائد وعبادات وأخلاق وشرائع تنظم علاقة العبد بربه وعلاقته بغيره من بني جنسه، ثابت كما أنزله الله لا يقبل التغيير ولا التجديد، وأما دين الأمة بمعنى علاقة الأمة بالدين ومدى تمسكها وتخلقها به وترجمتها له واقعاً ملموساً على الأرض، فهو المعنى القابل للتجديد ليعيد الناس إلى المستوى الذي ينبغي أن يكونوا عليه بعلاقتهم مع الدين[6].

المبحث الثالث

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

اهتم عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة وحرص على تعلمها وتعليمها وبثها بين الناس، وتناثرت أقواله في عقائد أهل السنة بين المراجع والمصادر الإسلامية من عقائد وتفسير وحديث وفقه وغيرها، وقام الأستاذ حياة بن محمد بن جبريل بجمع الكثير منها ونال بهذا الجهد العلمي رسالة الماجستير والكثير ممن كتب عن حياة عمر بن عبد العزيز لم يسلط

---

(1) عون المعبود (11/ 394).
(2) التجديد في الفكر الإسلامي، ص: 61.
(3) المصدر نفسه، ص: 61.
(4) المصدر نفسه، ص: 62، 63.
(5) المصدر نفسه، ص: 65.
(6) من أجل صحوة إسلامية للقرضاوي، ص: 26-27.

الأضواء على هذا البعد المهم في حياته والمتعلق بحرصه على توعية الناس وتعليمه المعتقد الصحيح الذي جاء ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن أهم الجوانب العقائدية التي تحدث فيه عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

أولاً: توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية أساس دين الإسلام، بل هو أساس كل دين سماوي، به أرسل جميع الرسل وأنزلت عليهم جميع الكتب، وهو الذي دعا إليه كل رسول من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ بل هو الغاية من خلق الجن والإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. وكان سلف هذا الأمة رحمهم الله يهتمون بهذا النوع من التوحيد وممن كان له إسهام في هذه المسألة عمر بن عبد العزيز[1]، وقبل بيان ما أثر عنه فمن الأهمية بمكان بيان المقصود من توحيد الألوهية عند إطلاقه: فعرف بأنه: استحقاق الله سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له[2]. وعرفه بعض الباحثين بأنه: توحيد الله بأفعال العباد وهو المعبر عنه بتوحيد الطلب والقصد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ومحبته وخوفه ورجاءه والتوكل عليه والرهبة والرغبة منه وإليه وحده، والتقرب إليه بسائر العبادات البدنية والمالية دون إشراك أحد أو شيء من خلقه[3]، وقد ورد عن عمر بن عبد العزيز آثار في الدعاء والتبرك والخوف والرجاء والتوكل والشكر:

1 - الدعاء:

أ - مر عمر بن عبد العزيز برجل في يده حصاة يلعب بها وهو يقول: اللهم زوجني من الحور العين، فقام إليه فقال: بئس الخاطب أنت، ألا ألقيت الحصاة، وأخلصت إلى الله الدعاء[4].

وفي هذا الأثر بين عمر بن عبد العزيز أن من شروط الدعاء الإخلاص وحضور القلب، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: 14] وقال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»[5].

ب - قال عمر بن عبد العزيز: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الكفر فاغفر لي ما بينهما[6]. فهنا توسل عمر بن عبد

---

(1) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 199).

(2) شرح العقيدة الطحاوية (1/ 29).

(3) رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام للباحث حامد عبد القادر الأحمدي، ص: 7، مطبوع على الآلة الكاتبة نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (1/ 200).

(4) الحلية (5/ 287) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 84.

(5) سنن الترمذي (5/ 483) صحيح سنن الألباني رقم 2766.

(6) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن القيم الجوزية، ص: 242.

العزيز بالطاعة والتوحيد وطلب الغفران من الله تعالى، ولا شك أن التوسل بالأعمال الصالحة مشروع كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار[1]، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب الله دعاءهم ويفرج كربتهم، وقد توسل المؤمنون بأعمالهم الصالحة من الإيمان وقدموه قبل الدعاءة قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: 193]، فإنهم قدموا الإيمان قبل الدعاء وأمثال ذلك كثير[2].

ج - حصلت زلزلة بالشام، فكتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد: فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله به العباد، وقد كتب إلى أهل الأمصار أن يخرجوا يوم كذا من شهر كذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق[3]. قال الله عز وجل:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: 14-15] وقولوا كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23]، وقولوا كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: 47] وقولوا كما قال يونس عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: 87]، فقد أمر رحمه الله الرعية بالالتجاء إلى الله تعالى والتصدق والاستغفار والخروج إلى المصلى عندما حصلت الزلزلة بالشام[4].

د - قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز: فكثر بكاؤه ومسألته ربه الموت، فقلت: لم تسأل الموت، وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً، أحيا بك سنناً، وأمات بك بدعاً؟! قال: أفلا أكون مثل العبد الصالح حين أقر الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: 101]. وقد طلب الدعاء له بالموت على الإيمان ودعا به اقتداء بالصالحين، فهذا الدعاء من سنن المرسلين وهو من شعار الصالحين، وقد يكون أيضاً دعا به رحمه الله خوفاً من الفتنة في الدين لاسيما عند وفاة أعوانه: ابنه عبد الملك ومولاه مزاحم وأخيه سهل، كما جاء في بعض الروايات[5]

---

(1) مسلم رقم 2743.
(2) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 219).
(3) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 64 الحلية (5/ 304، 305).
(4) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 220).
(5) العقد الفريد (4/ 396) الآثار الواردة (1/ 224).

2 - الشكر:

عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال: ذكر النعم شكرها[1]، وقال عمر بن عبد العزيز: شيدوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى[2]، وكتب إلى بعض عماله قال: .. أوصيك بتقوى الله وأحثك على الشكر فيما عندك من نعمته وآتاك في كرامته فإن نعمه يمدها شكره ويقطعها كفره[3]، وحث عمر بن عبد العزيز على شكر الخالق تبارك وتعالى على نعمه الكثيرة وآلائه الجسيمة، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: 172] وقال عز وجل: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: 152]. والشكر يستلزم المزيد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: 7] وما أثر عن عمر - رحمه الله تعالى - في هذا الجانب يبين منهج السلف في التعامل مع النعم التي ينعمها الخالق على عباده[4].

3 - التوكل:

قال الحكم بن عمر: كان لعمر بن عبد العزيز ثلاثمائة حرسيّ وثلاثمائة شرطي فشهدته يقول لحرسه: إن لي عندكم بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله[5]. ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظر مولاه مزاحم إلى القمر فإذا القمر في الدبران[6]، قال: فكرهت أن أقول ذلك له فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة، فنظر عمر فإذا هو بالدبران فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر ولكننا نخرج بالله الواحد القهار[7]. يظهر حرص عمر على التوكل مع الأخذ بالأسباب المشروعة، والتوكل هو الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب، وهو أصل من أصول التوحيد قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123] وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]. والتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويدفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها[8].

4 - في الخوف والرجاء:

عن يزيد بن عياض بن جعدبة، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبي كريمة: إن أحق العباد بإجلال الله والخشية منه من ابتلاه بمثل ما ابتلاني به، ولا أحد أشد حساباً ولا

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة (8/ 240).
(2) ابن أبي الدنيا، كتاب الشكر لله تعالى، ص: 19.
(3) ابن أبي الدنيا، ذم الدنيا، ص: 81.
(4) الآثار الواردة (1/ 230).
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 136).
(6) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 235).
(7) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 32.
(8) مدارج السالكين (2/ 125).

أهون على الله إن عصاه مني فقد ضاق بما أنا فيه ذرعي وخفت أن تكون منزلتي التي أنا بها هلاكاً إلا أن يتداركني الله منه برحمة، وقد بلغني أنك تريد الخروج في سبيل الله، فأحب يا أخي إذا أخذت موقفك أن تدعو الله أن يرزقني الشهادة فإن حالي شديدة وخطري عظيم، فاسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني به أن يرحمني ويعفو عني[1].

وقال ربيع بن سبرة لعمر بن عبد العزيز وقد هلك ابنه وأخوه ومولاه مزاحم في أيام.: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلاً أصيب في أيام متوالية بأعظم من مصيبتك، ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى، قال: فنكس ساعة ثم قال لي: كيف قلت يا ربيع؟ فأعدتها عليه. فقال: لا والذي قضى عليهم الموت ما أحب أن شيئاً من ذلك كان لم يكن من الذي أرجو من الله فيهم[2]، وعن قتادة أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ولي العهد من بعده: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك: السلام عليك: فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو أما بعد: فإني كتبت إليك وأنا دنف[3] من وجعي، وقد علمتني أني مسؤول عما وليت يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: 7] فإن يرضى عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط علي فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته وأن يمن علي برضوانه والجنة[4]. ومن كلام عمر يتبين لنا جمعه بين الخوف والرجاء ولا شك أن الجمع بين الخوف والرجاء هو من عقيدة السلف الصالح، وهو توسط المؤمن بين الأمن من مكر الله واليأس من روح الله، فالسلف كانوا يخافون ربهم، ويرجون رحمته[5] وهم سائرون على ما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 57]. وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: 9].

ثانياً: معتقد عمر بن عبد العزيز في أسماء الله الحسنى:

أسماء الله الحسنى: هي كلماته الدالة على ذاته المتضمِّنة إثبات صفات الكمال له بلا مماثلة وتنزيهه عن صفات النقص والعيب[6]. والأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله

(1) الطبقات (5/ 394 - 395) الآثار الواردة (1/ 240).
(2) المعرفة والتاريخ للفسوي (1/ 610) الآثار الواردة (1/ 241).
(3) دنف الرجل من مرضه: براه المرض حتى أشرف على الهلاك.
(4) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 244.
(5) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 245).
(6) منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله، خالد عبد اللطيف (2/ 391).

بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي تقتضي المدح والثناء بنفسها[1]، ولا شك أن كل قارئ للقرآن الكريم وللأحاديث النبوية، يجد أن الله تبارك وتعالى في كتابه قد سمى نفسه بأسماء، وأن رسوله ﷺ قد سمى ربه بأسماء ومن المعلوم أن السلف الصالح يثبتون لله تعالى من الأسماء ما أثبته الله نفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله ﷺ وأسماء الله تعالى كلها حسنى، وهي أعلام، وأوصاف وهي أسماؤه حقيقة دالة على ذاته وصفاته وهي توقيفية، وغير محصورة بعدد معين، وغير مخلوقة، ولا يجوز الإلحاد فيها[2]، ومن خلال رسائل وخطب عمر بن عبد العزيز نوضح بعض أسماء الله تعالى التي ذكرها في رسائله وخطبه، ومنهج عمر بن عبد العزيز هو منهج الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وقد قعد أهل السنة قواعد في أسماء الله تعالى يمكن استنتاج بعضها من كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله فمن هذه القواعد ما يلي:

- أن أسماء الله تعالى أزلية، قال عمر بن عبد العزيز: . . ولقد أعظم بالله الجهل من زعم أن العلم كان بعد الخلق بل لم يزل الله وحده بكل شيء عليماً، وعلى كل شيء شهيداً قبل أن يخلق شيئاً وبعد ما خلق[3]فبين عمر أن الله له الأسماء الحسنى وهي العليم، والشهيد أزلاً وهذا معتقد أهل السنة والجماعة[4].

- أن أسماء الله تعالى توقيفية، وهذا منهج أهل السنة والجماعة وهو ما تبين بالاستقراء من كلامه حيث لم يذكر حسب اطلاعي إلا أسماء الله الواردة في الكتاب والسنة، وهو الحق إذ لا يجوز أن يسمى الله إلا بما سمى به نفسه في كتابه الكريم أو على لسان نبيه ﷺ[5].

- أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، أعلام باعتبار دلالتها على الذات وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني وهي بالاعتبار الأول - أي أعلام - مترادفة، وبالاعتبار الثاني - أي أنها أوصاف - متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص، فالحي الرحمٰن الرحيم كلها أسماء لمسمى واحد لكن معنى الحي غير معنى الرحمٰن هكذا[6]. وقد خالف معتقد السلف الصالح في توحيد الأسماء الحسنى بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام، فالجهمية[7] أنكرت الأسماء الحسنى وذلك لظنهم أن التوحيد نفي محض، وأن إثبات الأسماء الحسنى إثبات

---

(1) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 276).

(2) المصدر نفسه (1/ 287).

(3) الحلية (5/ 348)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 304).

(4) الآثار الواردة (1/ 305).

(5) المصدر (1/ 305).

(6) القواعد المثلى، ص: 8.

(7) الجهمية : سيأتي الحديث عنها في محاورات عمر لأهل الفرق.

لأعراض حادثة ولم يثبتوا من الأسماء الحسنى غير اسم (القادر والخالق) لأن الجهم لا يسمي أحداً من المخلوقين قادراً لنفيه استطاعة العباد ولا يسمي أحداً خالقاً غير الله تعالى، لأن عنده أن كل صفة أو اسم يجوز أن يسمي أو يتصف به غير الله فلا يجوز إطلاقه على الله تعالى[1]، وعلى هذا يجب على المسلم الوقوف عندما ثبت وترك الابتداع، والتحريف والتأويل المفضي إلى الإلحاد[2] فإن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف: 180].

وقد وردت في رسائل عمر بن عبد العزيز وخطبه كثير من أسماء الله الحسنى، كالله عز وجل، والرب، والرحمٰن والرحيم، المليك والخبير، والكريم، والحي، والرقيب، والشهيد والواحد القهار، والعلي العظيم، والعفو الغفور، والعزيز الحكيم، والوارث، والخالق، والعليم[3]، وسنتحدث عن بعض هذه الأسماء.

1 - في اسمه تعالى «الرب»:

كان عمر يقول: يا رب انفعني بعقلي[4]. والرب من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾ [سبأ: 15]. ومعنى الرب: المصلح للشيء. ورب الشيء: مالكه فالله عز وجل مالك العباد ومصلحهم ومصلح شئونهم[5] ومصدر الرب الربوبية، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، يقال: هذا رب الدار، ورب الصنيعة ولا يقال: الرب: معرفاً بالألف واللام مطلقاً إلا لله عز وجل لأنه مالك كل شيء[6].

2 - في اسمه تعالى «الحي»:

كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأخبر أنه قد مات فجاء إلى أهله يعزيهم، فصرخوا في وجهه، فقال لهم عمر: إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت[7]. فالحي اسم من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]. وحياته تعالى لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، الحياة المستلزمة لكمال الصفات في العلم والقدرة والسمع والبصر، وغيرها[8].

(1) منهاج السنة (2/ 526) الآثار الواردة (1/ 306).
(2) الآثار الواردة (1/ 306).
(3) الآثار الواردة (1/ 279 إلى 306).
(4) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 68 الآثار الواردة (1/ 281).
(5) الآثار الواردة (1/ 281).
(6) اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي، ص: 32، 33، الآثار الواردة (1/ 281).
(7) الحلية (5/ 330)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 288).
(8) اشتقاق أسماء الله الحسنى، ص: 102 للزجاجي.

3 - في اسميه: الواحد القهار:

قال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار[1]. من أسماء الله الحسنى: الواحد القهار قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: 48]، والواحد القهار أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتدبيره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه[2].

4 - في اسميه تعالى: العلي العظيم:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد رسالة واختتمها بقوله: . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[3]، العلي العظيم من الأسماء الحسنى قال تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255]. والعلي: بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته،[4] والعظيم: الذي تتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة[5].

فهذه بعض أسماء الله الحسنى التي جاءت في الرسائل أو الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز وهي للمثال وليست للحصر.

ثالثاً: معتقد عمر بن عبد العزيز في صفات الله تعالى:

صفات الله عز وجل هي نعوت الكمال القائمة بالذات الإلهية، كالعلم والحكمة، والسمع، والبصر، واليدين والوجه، وغيرها مما أخبر الله تعالى بها عن نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ. وتوحيد الله عز وجل في صفاته هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ نفياً وإثباتاً، فيثبت ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه[6]. فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله نفياً وإثباتاً فيثبت ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: 180]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 32.
(2) تفسير السعدي، ص: 428.
(3) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 81.
(4) تفسير السعدي، ص: 110.
(5) تفسير السعدي، ص: 110.
(6) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (3/874).

يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: 40]. فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه، وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] رد للإلحاد والتعطيل[1]. وقد جاءت الآثار عن عمر بن عبد العزيز في باب الصفات، فأثبت ما أثبته الله لنفسه، وتحدث عن إثبات صفة النفس، والوجه، والعلم، والكبرياء والقدرة، والعلو، والمعية والقرب، وصفة المشيئة والإرادة وصفة الغضب، والرضى، وصفة الرحمة[2]، وإليك الحديث عن بعضها:

1 - صفة النفس:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن رسالة فقال: أما بعد فإن الله عز وجل جعل الإسلام الذي رضي به لنفسه ومن كرم عليه من خلقه لا يقبل ديناً غيره[3]. وهذا الأثر يبين إثبات صفة النفس وهو ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]. وقال ﷺ في ثنائه على ربه: «.. **لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[4]، فنفسه تعالى هي ذاته المقدسة، كما تبين ذلك من الكتاب والسنة[5]. فنفسه تعالى هي ذاته المتصفة بصفاته وليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة الذات[6].

2 - صفة الوجه لله تعالى:

كتب عمر إلى الخوارج رسالة وفيها: .. وإني أقسم لكم بالله لو كنتم أبكاري من ولدي.. لدفقت دماءكم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة[7]. صفة الوجه من الصفات الخبرية الذاتية دل عليها الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: 22]. وكان رسول الله ﷺ يسأل ربه ما لا يجوز، ففي سؤاله ربه لذة النظر إلى وجهه يقول: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك**»[8].

---

(1) مجموع الفتاوى (3/ 8).
(2) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 313 إلى 359).
(3) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 86، الآثار الواردة (1/ 313)
(4) مسلم رقم 486.
(5) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 314).
(6) الفتاوى نقلاً عن الآثار الواردة (1/ 314).
(7) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 75.
(8) صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (1/ 280 - 281).

3 - صفة القدرة لله تعالى:

كتب عمر إلى بعض عماله: أما بعد، فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم، فاذكر قدرة الله عليك في نفاذ ما يأتي إليهم وبقاء ما يأتي إليك[1]. وقال في رسالته في الرد على القدرية وفيها: . . فالله أعز في قدرته وأمنع من أن يملك أحداً إبطال علمه[2]. يتبين من خلال الأثرين السابقين إثبات عمر بن عبد العزيز صفة القدرة لله تبارك وتعالى وهي من الصفات التي دل عليها السمع والعقل قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: 20]. ومن السنة حديث أبي مسعود البدري لما ضرب غلامه قال له النبي ﷺ: «**اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام**»[3].

هذه بعض الآثار التي تدل على إثبات عمر بن عبد العزيز لصفات الله تعالى على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

رابعاً: نهيه عن اتخاذ القبور مساجد:

عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «**قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقى - أو قال -: لا يجتمع دينان بأرض العرب**»[4]، حدثنا حصين، أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يبنى القبر بآجر وأوصى بذلك[5]. والحديث الذي أرسله عمر رحمه الله يبين تحذير رسول الله ﷺ لأمته من اتخاذ القبور مساجد وبين أن ذلك فعل اليهود والنصارى والمسلم منهي عن الاقتداء بهؤلاء الضلال المغضوب عليهم بنص القرآن، ولا شك أن اتخاذ القبور مساجد والبناء عليها وتجصيصها مما أجمع على منعه سلف هذه الأمة كما مر عن عمر بن عبد العزيز حيث نهى أن يبنى القبر بآجر وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره[6]، ولما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء المسجد النبوي حين كان عمر عاملاً له على المدينة وإدخال حجرات الرسول ﷺ ومنها حجرة عائشة رضي الله عنها. التي فيه قبر الرسول ﷺ وصاحبيه كان عمر بن عبد العزيز هو الذي جعل مؤخر القبر محدداً بركن، لئلا يستقبل قبر النبي ﷺ فيصلى إليه، جعل ذلك حين انهدم جدار البيت فبناه على هذا فصار للبيت خمسة أركان[7]، والمقصود أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد سد منافذ الشرك بعلمه وحكمته

---

(1) سيرة عمر، ص: 125 لابن الجوزي.

(2) الحلية (5/ 347).

(3) مسلم رقم 1659.

(4) البخاري رقم 1330 مصنف عبد الرزاق (10/ 359 - 360).

(5) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 346.

(6) الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (1/ 264).

(7) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 265).

كما تبين من نقل من شاهدوا بناء المسجد النبوي في عهد ولايته على المدينة النبوية، ولا شك أن نهي النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً كان خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، بل ربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية[1]. وقد منع عمر من اتخاذ البناء لقبره وأوصى بذلك مع أنه كان في الزمن الذي فيه العقيدة صافية نقية إذا قورن ذلك الزمان بما بعده، ولكن لفهمه الصحيح لمقاصد السنة ولاتباعه المنهج الصحيح منهج النبي ﷺ وأصحابه وفقه الله تعالى للوصية بأن لا يبني على قبره خشية أن يتخذ مسجداً فحسم الموقف قبل أن يستفحل، ولا شك أن ما ذهب إليه عمر هو ما يدل عليه الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبني عليه»[2].

خامساً: مفهوم الإيمان عند عمر بن عبد العزيز:

قال عدي بن عدي: كتب إليّ عمر بن عبد العزيز أما بعد: فإن الإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[3]، وعن جعفر ابن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز أما بعد: فإن عرى الدين وقوائم الإسلام الإيمان بالله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فصلوا الصلاة لوقتها[4]. بين عمر بن عبد العزيز أن الإيمان فرائض أي: أعمالاً مفروضة كالصلاة والحج والصوم، وشرائع أي: عقائد دينية كالإيمان بالله وملائكته، وحدوداً أي: منهيات ممنوعة كشرب الخمر والزنا، وسنناً أي مندوبات كإماطة الأذى عن الطريق، وغيرها من المندوبات فهذه الأمور كلها من الإيمان[5]، وهذا المأثور عن عمر هو الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، فالإيمان عند أهل الحق: قول اللسان، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان[6]، فمن الأدلة الدالة على أن الإيمان قول باللسان قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: 136]. وقوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله»**[7]. ومن الأدلة على أن

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (2/ 185).
(2) مسلم رقم 970.
(3) فتح الباري على صحيح البخاري (1/ 45).
(4) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 72، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 543).
(5) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 545).
(6) المصدر نفسه (1/ 544).
(7) مسلم رقم 32.

أعمال القلوب من الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]. والوجل من أعمال القلوب. وقد سمي في الآية إيماناً، ومن الأدلة على أن أعمال الجوارح من الإيمان قوله تعالى: ﴿...وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ...﴾ [البقرة: 143]. يبين ذلك سبب نزول الآية حين سئل ﷺ: أرأيت الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿...وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ...﴾. وفي هذا دلالة على أنه تعالى سمى صلاتهم إلى بيت المقدس إيماناً، فإذا ثبت ذلك في الصلاة ثبت ذلك في سائر الطاعات[1]، وكتب عمر بن عبد العزيز رسالة وفيها.. أسأل الله برحمته وسعة فضله أن يزيد المهتدي هدى، وأن يرجع بالمسيء التوبة في عافيته[2]، وفي قوله عن الحديث عند الإيمان،...فمن استكملهن فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملهن لم يستكمل الإيمان[3]. فهذه الآثار تبين أن الإيمان يزيد وينقص وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة والآثار عن السلف الصالح. قال تعالى: ﴿تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ۝٢﴾ [الأنفال: 2]. وقال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[4]، ومن أقوال سلف الأمة قول البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص[5].

سادساً: الإيمان باليوم الآخر:

الحديث عن الإيمان باليوم الآخر يشتمل على أمور كثيرة، فكل ما أخبر به الله ورسوله مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وما يكون من البعث والنشور، وما يكون في يوم القيامة من ثواب وعقاب وجنة ونار... إلخ وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن هذه الأمور منها:

1 - عذاب القبر ونعيمه:

قال عمر بن عبد العزيز لرجل: يا فلان قرأت البارحة سورة فيها زيارة ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: 1-2]. فكم عسى يلبث عند المزور حتى ينكفي إما إلى جنة وإما إلى نار[6]. وخطب مرة فقال: أيها الناس ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وفي بيوت الميتين وفي دور الظاعنين جيراناً كانوا معكم بالأمس أصبحوا في دور خامدين، بين آمن

(1) الاعتقاد للبيهقي، ص: 95، 96 الآثار الواردة (1/ 545).
(2) الطبقات (6/ 313)، الآثار الواردة (1/ 550).
(3) فتح الباري (1/ 45).
(4) الإيمان لابن أبي شيبة، ص: 5 وصححه الألباني، الآثار الواردة عن عمر (1/ 553).
(5) البخاري مع الفتح (1/ 47).
(6) الحلية (5/ 317)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (1/ 336).

روحه إلى يوم القيامة وبين معذب روحه إلى يوم القيامة[1]. وخطب مرة أخرى بخناصرة فقال: . . في كل يوم تشيعون غادياً إلى الله ورائحاً قد قضى نحبه وانقضى أجله ثم تغيبونه في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد قد فارق الأحباب وخلع الأسباب وواجه الحساب وسكن التراب مرتهناً بعمله غنياً عما ترك فقيراً إلى ما قدم[2]، وما قاله عمر بن عبد العزيز يدل على إثبات عذاب القبر ونعيمه وهو معتقد أهل السنة والجماعة وبهذا دلت النصوص من الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]. فقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر[3]. وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: 46].

2 - الإيمان بالمعاد ونزول الرب لفصل القضاء:

خطب عمر بن عبد العزيز بخناصرة فقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله تبارك وتعالى للحكم فيه والفصل بينكم[4]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله، أما بعد: فكأن العباد قد عادوا إلى الله فينبئهم بما عملوا ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[5]، وعن جرير بن حازم قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي: . . . اعلم أن أحداً لا يستطع إنفاذ قضايا ما بين الناس حتى لا يبقى منها شيء لابد أن تتأخر قضايا ليوم الحساب[6]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة، أما بعد: فإني أذكرك ليلة تمخض بالساعة وصباحها القيامة فيا لها من ليلة ويا له من صباح كان على الكافرين عسيراً[7]. وكتب إلى بعض الأجناد أما بعد: أوصيكم بتقوى الله ولزوم طاعته. . فمن كان راغباً في الجنة أو هارباً من النار، فالآن في هذه الأيام الخالية، والتوبة مقبولة، والذنب مغفور قبل نفاذ الأجل وانقضاء المدة وفراغ الله عز وجل للثقلين ليدينهم بأعمالهم في موطن لا تقبل فيه فدية، ولا تنفع فيه الحيلة تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يرده الناس جميعاً بأعمالهم، ويتفرقون منه أشتاتاً إلى منازلهم، فطوبى يومئذٍ لمن أطاع الله عز وجل وويل يومئذٍ لمن عصى الله عز وجل [8]، إن الإيمان بالمعاد والبعث والنشور

(1) سيرة عمر، ص: 260.259 لابن الجوزي.
(2) سيرة عمر، ص: 260.259 لابن الجوزي.
(3) الروح لابن القيم، ص: 144.
(4) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 42.
(5) ذم الدنيا 81 لابن أبي الدنيا.
(6) في الزهد، هناد السرى (1/ 300.299)، الآثار الواردة (1/ 448).
(7) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 115 أبو حفص الملاء (1/ 206).
(8) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 116.115 أبو حفص الملاء (1/ 266).

وأن الله تبارك وتعالى يجمع كل الخلائق وبيان الحكمة من ذلك وبيان شدة هذا اليوم على الكفار هو مدلول الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى هنا، ولا شك أن الإيمان بالمعاد من أهم العقائد التي تميز بها الإسلام، وقد تحدث القرآن الكريم عن الإيمان بالمعاد، إما تصريحاً وتأكيداً أو تلميحاً وإشارة وقد بين الله تبارك في كثير من آيات الكتاب وجوب الإيمان بالبعث وبين في بعضها الرد على من ينكر حشر الأجساد بحجج عقلية لا يمكن للمنكرين إلا الإذعان لها أو المكابرة[1]، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: 11] وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: 15-16] وقال في منكري البعث ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: 77-79]. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: 36-40]. كما ثبت في أحاديث الإيمان بالبعث منها عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبةً ولا ولداً**»[2]. ومضمون هذه النصوص هو المأثور عن عمر[3].

3 - الميزان:

قال عمر بن عبد العزيز: أو ما رأيتم حالات الميت؟ وجهه مفقود وذكره منسي، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ ولم يعمر الديار: واتقوا يوماً لا يخفي فيه مثقال ذرة في الموازين[4]. قال: . . أعوذ بالله أن أمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عولتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين منصوبة[5].

وعن بجدل الشامي عن أبيه وكان صاحباً لعمر بن عبد العزيز قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يتلو هذه الآية ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47] حتى ختمها فمال على أحد شقيه يريد أن يقع[6]. فهذه الآثار تدل على أن بعد القيام من القبور والذهاب إلى المحشر، ونزول الرب تبارك وتعالى - يليق بجلاله - لفصل القضاء ينصب الميزان، وهو

---

(1) الآثار الواردة في العقيدة (1/ 451).
(2) البخاري رقم 3093.
(3) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 452).
(4) سيرة عمر، ص: 255 لابن الجوزي.
(5) الحلية (5/ 291) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 234 - 244.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 248).

ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة[1]، قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكِفَّتان ويميل بالأعمال. وأنكرت المعتزلة الميزان وغيرهم وقالوا: هو عبارة عن العدل فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليري العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين[2]، وهذا الميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47].

4 - الحوض:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى صاحب دمشق أن سل أبا سلام عما سمع من ثوبان مولى رسول الله ﷺ في الحوض فإن كان يثبته فاحمله على مركبة من البريد[3]. وفي رواية: بعث عمر بن عبد العزيز إلى أبي سلام الحبشي يحمل على البريد، فلما قدم عليه قال: لقد شق علي، قال: عمر: ما أردنا ذلك، ولكنه بلغني عنك حديث ثوبان في الحوض، فأحببت أن أشافهك به فقال: سمعت ثوبان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء[4] ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين»**[5]. ولا شك أن الإيمان بالحوض هو عقيدة أهل السنة والجماعة استناداً إلى النصوص الصريحة بذلك وأدلة إثبات الحوض في السنة بلغت حد التواتر.

5 - الصراط:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ له: يا أخي إنك قد قطعت عظيم السفر وبقي أقله، فاذكر يا أخي المصادر والموارد، فقد أوحي إلى نبيك ﷺ في القرآن أنك من أهل الورود ولم يخبر أنك من أهل الصدور والخروج، وإياك أن تغرك الدنيا فإن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له[6]. وهذا الأثر الوارد عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يدل على الإيمان بالصراط، وذلك أنه بعد الخروج من عرصات القيامة في اليوم العصيب يمر الناس على الصراط، وهو جسر ممدود على متن جهنم، أدق من الشعرة، وأحد من السيف، يردوه الأولون والآخرون من أتباع الرسل الموحدون وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق فتلقى عليهم الظلمة قبل الصراط وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين

(1) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 457).
(2) فتح الباري (13/ 538).
(3) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (1/ 462).
(4) الآثار الواردة (1/ 463).
(5) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 37.
(6) سيرة عمر لابن الجوزي، ، ص: 257.

ويتخلفون عنهم ويسبقهم المؤمنون ويُحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم، ويعطى كل مؤمن نوره بقدر عمله يضيء له الطريق فيمرون على الصراط، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، وكالريح، ومنهم من يرمل رملاً حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تَخِرّ يدٌ وتعلق يد وتخر رجل وتصيب جوانبه النار[1] وقد دل الكتاب والسنة على المرور على الصراط. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: 71] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: 72]. وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71] فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: 72]». أشار إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله. فالمؤمنون يمرون فوق النار على الصراط ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً، فبين ﷺ أن الورود هو الورود على الصراط[2]، والحق أن الورود على النار وردان: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك في ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود: 98]. أي بئس المدخل المدخول، والورود الثاني: ورود الموحدين وهو مرورهم[3] على الصراط وهو ما عناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الأثر الماضي.

6 - الجنة والنار:

بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم الصبر قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله فريق في الجنة وفريق في السعير، ثم صرخ وغشي عليه[4]. وعن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز يوماً ساكتاً وأصحابه يتحدثون فقالوا له: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت مفكراً في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها ثم بكى[5]. وكتب إلى بعض الأجناد.. واعلم أنه ليس يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر وبلاء، وأنه لن ينفع عبداً صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصاب في الدنيا من نعمة أو رخاء. وما يجد أهل الجنة من مكروه

---

(1) شرح الطحاوية، ص: 470، الآثار الواردة (1/ 468).

(2) شرح الطحاوية، ص: 471.

(3) القيامة الكبرى للأشقر، ص: 278.

(4) الرقة والبكاء، ص: 76.

(5) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 154.

أصابهم في دنياهم وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم كل شيء من ذلك لم يكن[1] وعن الفضل بن ربيع قال: سمعت فضيل بن عياض يقول: بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر طول سهر أهل النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك. لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى[2]، ومعتقد عمر بن عبد العزيز في الجنة والنار هو ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: 13]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: 75-76]. وقال ﷺ: **«إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»**[3].

7 - رؤية المؤمنين ربهم في الجنة:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أمراء الأجناد: أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله والتمسك بأمره والمعاهدة على ما حملك الله من دينه، ، واستحفظك من كتابه، فإن بتقوى الله نجا أولياؤه من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته، وبها وافقوا[4] أنبياءه وبها نضرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم[5]. وهذا المعتقد الذي كان يعتقده عمر بن عبد العزيز في رؤية الله تعالى في الجنة من أعظم النعم بعد نعمة التوفيق والهدايا قال تعالى في وصف المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: 22-23] وقال جل شأنه ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: 26]، وعن صهيب قال: قيل لرسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ينادي منادٍ يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فقالوا: ألم تبيض وجوهنا وتثقل موازيننا وتجرنا من النار. قال: فيكشف الحجاب فينظروا إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»**[6].

---

(1) سيرة عمر، ص: 250 - 251، الآثار الواردة (1/ 473).

(2) سيرة عمر، ص: 124 - 125 لابن الجوزي، الآثار الواردة (1/ 474).

(3) مسلم رقم 2866.

(4) في الحلية وابن الجوزي والملاء : رافقوا بدل وافقوا.

(5) الرد على الجهمية للدارمي، ص: 103، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 479).

(6) مسلم رقم 297.

سابعاً: الاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين:

1 - اتباع الكتاب والسنة:

لما ولي عمر بن عبد العزيز كتب: أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله ولزوم كتابه والاقتداء بسنة نبيه وهديه[1]، وليس لأحد في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ أمر ولا رأى إلا إنفاذه والمجاهدة عليه[2]. . . فإن الذي في نفسي وبقيتي في أمر أمة محمد صلى الله عليه ومسلم أن تبعوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأن تجتنبوا ما مالت إليه الأهواء والزيغ البعيد، من عمل بغيرهما فلا كرامة ولا رفعة له في الدنيا والآخرة، وليعلم من عسى أن يذكر له ذلك، ولعمري لأن تموت نفسي في أول نفس أحب إلى من أن أحملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم التي عاش عليها من عاش وتوفاه الله عليها حين توفاه - إلا أن يأتي علي وأنا حريص على تباعه - وإن أهون الناس علي تلفاً وحزناً لمن عسى أن يريد خلاف شيء من تلك السنة[3].
وقال عمر بن عبد العزيز: إن الله فرض فرائض وسنّ سنناً من أخذ بها لحق ومن تركها محق[4]. وقال: يا ليتني عملت فيكم بكتاب الله وعملت به، فكلما عملت فيكم بسنة وقع مني عضو، حتى يكون آخر شيء منها، خروج نفسي[5]، وكتب إلى الخوارج: . . . فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ [6]. وقال: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً، الأخذ بها الاعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها، من اهتد بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولآه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[7]. فهذه الآثار توضح اتباع عمر للكتاب والسنة ولزومهما، وبذل الجهد، والطاقة في تطبيقها، وإن أدى ذلك إلى قطع الأعضاء، وإزهاق النفس وما ذهب إليه عمر هو أصل الدين وأساسه قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65] وقال ﷺ: **«يا أيها الناس: إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي»**[8].

---

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 65، الكتاب الجامع لسيرة عمر (1/ 284).
(2) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 68، الكتاب الجامع لسيرة عمر (1/ 287).
(3) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 71، الآثار الواردة (2/ 601).
(4) محق: أهلكه وأباده، سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 39.
(5) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 130، الآثار الواردة (2/ 602).
(6) الآثار الواردة (2/ 602).
(7) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 40.
(8) موطأ مالك (3/ 93) والحاكم (1/ 93).

2 - الاعتصام بسنة الخلفاء الراشدين:

عن حاجب بن خليفة البرجمي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب الناس وهو خليفة فقال في خطبته: ألا إن ما سن رسول الله ﷺ وصاحباه فهو دين نأخذ به وننتهي إليه وما سن سواهما فإنا نرجئه[1]، وكتب إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: من عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله أما بعد: فقد ابتليت بما ابتليت به من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني، ولا إرادة يعلم الله ذلك، فإذا أتاك كتابي هذا، فاكتب به سيرة عمر بن الخطاب في أهل القبلة وأهل العهد، فإني سائر بسيرته إن أعانني على ذلك والسلام[2]، وعن عون بن عبد الله، قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: أعدلان عندك عمر وابن عمر؟ قال: قلت: نعم، قال: إنهما لم يكونا يكبران هذا التكبير[3]. وعن الأزهري، قال: قال رجل لعمر بن عبد العزيز: طلقت امرأتي وأنا سكران، قال الزهري، فكان رأي عمر بن عبد العزيز أن يجلده ويفرق بينه وبين امرأته حتى حدثه أبان بن عثمان (عن أبيه): ليس على المجنون ولا السكران طلاق، فقال عمر: تأمروني وهذا يحدثني عن عثمان بن عفان؟ فجلده وردّ إليه امرأته[4]، وقال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، قوة على دين ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[5]، إن عمر بن عبد العزيز تمسك بسنة رسول الله وخلفائه الراشدين وأعاد للخلافة الراشدة معالمها وملامحها وسار على هديها وعض على سننهم بالنواجز ورجع إلى أقوالهم عند النزاع وأخذ بها في الحكم على أهل القبلة وأهل العهد، كما أخذ بها في العبادات والمعاملات وقد أولى الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر جل اهتمامه، وعدّ الأخذ بسنتهم أخذاً بسنة رسول الله ﷺ، كما أخذ بسنة الخليفة الثالث فور سماعه وطبّق تلك السنة، واعتصم بسنة الخليفة الرابع في معاملة الخوارج حيث ناظرهم وكتب إليهم فلما تمادوا حاربهم، وحكم على أموالهم وذراريهم وأسراهم بقضاء الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه[6]، بل يرى عمر بن عبد العزيز أن من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين رضي الله عنهم فهو خارج عن سبيل المؤمنين، وهو من الفرقة الهالكة، وكل ما سنه الخلفاء

---

(1) الحلية (5/ 298) جامع العلوم والحكم، ص: 288.

(2) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 108.

(3) مصنف عبد الرزاق (2/ 66) الآثار الواردة (2/ 66).

(4) المصدر (4/ 31) الآثار الواردة (2/ 633).

(5) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 40.

(6) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (2/ 637).

الراشدون فإنه من سنته ﷺ لأنهم إنما سنوه بأمره ولا يكون في الدين واجباً إلا ما أوجبه ولا حراماً إلا ما حرمه ولا مستحباً إلا ما استحبه ولا مكروهاً إلا ما أكرهه ولا مباحاً إلا ما أباحه واتباع سنة الخلفاء الراشدين في العقائد والأحكام هو ما عليه السلف الصالح وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: 115]. وقال ﷺ: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[1]. وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ جلوساً فقال: «**إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي**» وأشار إلى أبي بكر وعمر»[2].

3 - التمسك بما تدل عليه الفطرة:

عن جعفر بن رقان، قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن شيء من الأهواء فقال: الزم دين الصبي في الكُتّاب والأعرابي، والهَ عما سوى ذلك[3]. وعمر بن عبد العزيز هنا يرى أن العباد مخلوقون على الدين القويم، وأن الانحراف عنه طارئ وحادث، وهذا ما دل عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ۝٣٠﴾ [الروم: 30]، وقال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء[4]، هل تحسون فيها من جدعاء**»[5]، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم»[6]. فالفطرة السليمة تقر بخالقها وتحبه وتتذلل له وتخلص له الدين وفيها قوة موجبة لذلك، وكذلك تقرّ بشرعه وتؤثر هذا الشرع على غيره، فهي تعرف هذا الشرع وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه وتفصله لها وتبينه وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتضائها أثرها[7].

ثامناً: موقفه من الصحابة والخلاف بينهم:

عن عبد الرحمٰن بن القاسم، عن أبيه أنه قال: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنه لو كان قولاً واحداً كان الناس في ضيق وإنهم

---

(1) سنن الترمذي (5/ 44) حديث حسن صحيح.

(2) سنن الترمذي (5/ 610) صحيح سنن الترمذي للألباني (3/ 200).

(3) الطبقات (5/ 374) شرح اعتقاد أهل السنة رقم 250.

(4) جمعاء: سليمة من العيوب في الأعضاء كاملتها فلا جدع ولا كي.

(5) جدعاء: أي مقطوعة الأطراف أو واحدها.

(6) البخاري رقم 1358.

(7) شفاء العليل، ص: 629 - 630.

أئمة يقتدى بهم ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة[1]. قال أبو عمر ﷺ هذا فيما كان طريقه الاجتهاد[2]، وسئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان وصفين وما كان بينهم فقال: تلك دماء كف الله يدي عنها وأنا أكره أن أغمس لساني فيها[3]. وعن محمد بن النضر قال: ذكروا اختلاف أصحاب محمد ﷺ عند عمر بن عبد العزيز فقال: أمر أخرج الله أيديكم منه ما تعملون ألسنتكم فيه[4]. وعمر بن عبد العزيز كغيره من علماء السلف الصالح حريص على إبراز فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ولم لا يكون ذلك وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18] ومعتقد أهل السنة: بأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب[5]، وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً وأن المصيب يؤجر أجرين[6]، ومضمون الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز توضح معتقده في الصحابة وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

تاسعاً: موقفه من أهل البيت:

قال ابن القيم أن العلماء اختلفوا في تحديد المراد بأهل البيت على أقوال، قال ﷺ: واختلف في آل النبي ﷺ على أربعة أقوال: فقيل هم الذين حرمت عليهم الصدقة وفيهم ثلاثة أقوال:

1 - أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

2 - أنهم بنو هاشم خاصة.

3 - أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب.

والقول الثاني: أن آل النبي ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة.

والقول الثالث: أن آله أتباعه إلى يوم القيامة.

والقول الرابع: أن آله هم الأتقياء من أمته[7]. ثم رجح ﷺ القول الأول وهو أن آله ﷺ

---

(1) جامع بيان العلم (2/ 901 - 902) الآثار الواردة (1/ 410).

(2) الآثار الواردة (1/ 410).

(3) الطبقات (5/ 394) الآثار الواردة (1/ 412).

(4) الطبقات (5/ 382) الآثار الواردة (5/ 382).

(5) الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة أبي زيد، ص: 23.

(6) فتح الباري (13/ 34).

(7) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ص: 109.

هم الذين حرمت عليهم الصدقة[1]. هذا ويرى الشيعة أن آل النبي ﷺ هم: علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما، وقولهم هذا مخالف للنصوص الصحيحة ولا تؤيده اللغة ولا العرف، لأن لفظة أهل البيت وردت في القرآن الكريم في سياق الخطاب لأزواج النبي ﷺ قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33] وقد تحدثت عن هذه الآية ورددت على أفهام الشيعة الإمامية لها في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. هذا وقد عرف عمر بن عبد العزيز حقوق أهل البيت المادية والمعنوية وأداها إليهم كافة مستوفاة كاملة بدون بخس ولا شطط[2]، وأزال عنهم المظالم التي وقعت عليهم وأحسن إليهم غاية الإحسان المعنوي والمادي، فعن جويرية بن أسماء قال: سمعت فاطمة بنت علي بن أبي طالب ذكرت عمر بن عبد العزيز، فأكثرت الترحم عليه، وقالت: دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذٍ فأخرج عني كل خصي وحرسي، حتى لم يبق في البيت غيري وغيره ثم قال: يا بنت علي والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلي منكم ولأنتم أحب إلي من أهل بيتي[3]، وعن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب قال: أول مال قسمه عمر بن عبد العزيز لمال بعث به إلينا أهل البيت فأعطى المرأة منا مثل ما يعطي الرجل وأعطى الصبي مثل ما تعطي المرأة قال: فأصابنا أهل البيت ثلاثة آلاف دينار وكتب لنا: إني إن بقيت لكم أعطيتكم جميع حقوقكم[4]، وعن حسين بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون فلان وقال قائلون فلان، فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب رضي الله عنه [5]، فعمر بن عبد العزيز كغيره من السلف الصالح كان قائماً بأداء حقوق أهل بيت النبي ﷺ امتثالاً لما أمر به ﷺ: . . . **«وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»**[6]، وقال ابن تيمية: وإن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت النبي ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ وآل بيته ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها فإن الله جعل لهم حقاً في الخمس والفيء وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ [7]. والحقوق التي ذكرها ابن تيمية رحمه الله هي التي حرص عمر بن عبد العزيز رحمه الله على أدائها على الوجه المطلوب شرعاً فرد على آل رسول الله ﷺ فدك كما قام برد خمس الخمس عليهم كما أطعمهم في الفيء[8]، وقام رحمه الله بالاهتمام بحقوق أهل بيت النبي ﷺ المادية

---

(1) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ص: 110 - 119 الآثار الواردة (1/ 428).
(2) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 429).
(3) الطبقات (5/ 388).
(4) المصدر نفسه (5/ 392).
(5) سيرة عمر، ص: 292 لابن الجوزي.
(6) مسلم رقم 2408.
(7) الفتاوى (3/ 407).
(8) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (1/ 433).

والمعنوية، حرصاً منه على اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه وحباً منه لاتباع السلف الصالح[1] رضوان الله عليهم. وأما ما تذكره كتب التاريخ أن ولاة بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون عليًّا وهذا الأثر الذي ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا علي ابن محمد، عن لوط بن يحيى قال: كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون عليًّا رضي الله عنه، فلما ولي هو - عمر بن عبد العزيز - أمسك عن ذلك فقال كثير عزة الخزاعي:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... برياً ولم تتبع مقالة مجرم

تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم

فصدَّقت معروف الذي قلت ... بالذي فعلت فأضحى راضياً كل مسلم[2]

فهذا الأثر واهٍ، فعلي بن محمد هو المدائني فيه ضعف وشيخه لوط بن يحيى واهٍ بمرة، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث وقال الدارقطني: أخباري ضعيف ووصفه صاحب الميزان: أخباري تالف لا يوثق به[3]. وعامة رواته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل[4]. وقد اتهم الشيعة معاوية رضي الله عنه بحمل الناس على سب علي رضي الله عنه ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذي يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المُسلَّمات التي لا مجال لمناقشتها علماً بأنها لم تثبت قط في رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء في كتب الدميري، واليعقوبي، وأبي الفرج الأصفهاني، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[5]، ومن احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين علي وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن علي على منابر بني أمية لا تتفق مع منطق الحوادث ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبني أمية، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك أبداً، وإنما نجده في كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم في عصر بني العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بني أمية في نظر الجمهور الإسلامي وقد كتب ذلك المسعودي في مروج الذهب وغيره من كتّاب الشيعة وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية صحيح، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية رضي الله عنه بعيد

(1) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 435).
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 147).
(3) الميزان (3/ 419).
(4) دفاعاً عن السلفية، ص: 187.
(5) الحسن والحسين، محمد رضا، ص: 18 كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب.

عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله في الدين، وكان محمود السيرة في الأمة أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير[1]. وقد ثبت هذا في حق معاوية ـ ﷺ ـ كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن علي ﷺ على المنابر، وهو من هو في الفضل، ومن علم سيرة معاوية ـ ﷺ في الملك وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية ﷺ في الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال[2]. وقد تحدثت عن هذه الفرية بنوع من التوسع في كتابي خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب. وقد بينت فيه علاقة معاوية بأولاد علي ﷺ بعد استقلاله بالخلافة وما كان بينهم من الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم، كما أن المجتمع في عمومه مقيد بأحكام الشريعة حريصاً على تنفيذها ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذيء. وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة ﷺ - مرفوعاً - «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»[3].

المبحث الرابع

موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج والشيعة والقدرية، والمرجئة والجهمية

أولاً: الخوارج:

برزت هذه الفرقة أثناء خلافة علي بن أبي طالب ﷺ وبالتحديد عام 37هـ بعد معركة صفين وقبول علي ﷺ تحكيم الحكمين وقد تحدثت عن هذه الفرقة بشيء من التفصيل في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ومن أهم آرائهم الاعتقادية:

1 - تكفير علي بن أبي طالب ﷺ وعثمان بن عفان ﷺ والحكمين ﷺ أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص.

2 - القول بالخروج على الإمام الجائر.

3 - قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار[4].

(1) الانتصار للصحب والآل، ص: 367 للزحيلي.

(2) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب، ص: 303.

(3) البخاري رقم 6516.

(4) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص: 291.

هذه المبادئ الثلاثة هي جوهر اعتقاد الخوارج، وليس بينهم في ذلك خلاف إلا خلافاً لبعضهم في تطبيق هذه المبادئ[1]. يقول أبو الحسن الأشعري في حكاية ما أجمع عليه الخوارج من الآراء: أجمعت الخوارج على إكفار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن حكم وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا؟

وأجمعوا على: أن كل كبيرة كفر إلا النجدات[2]، فإنها لا تقول ذلك. وأجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى يعذب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلا النجدات أصحاب نجدة[3]، وقال المقدسي في ذلك: وأصل مذهبهم: إكفار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والتبرؤ من عثمان بن عفان، والتكفير بالذنب، والخروج على الإمام الجائر[4].

استمر الخوارج في حربهم للدولة الأموية أحياناً ينشطون وفي الغالب تتغلب عليهم الدولة بالقوة وتكسر شوكتهم، إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز فدخل معهم في محاورات ونقاشات واستخدم معهم القوة عند اللزوم، وكان عمر بن عبد العزيز يذم الجدال المذموم ويناظر ويجادل بالتي هي أحسن، فقد قال: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل[5]. وقال: احذروا المراء فإنه لا تؤمنه فتنة ولا تفهم حكمته[6]، وقال: قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع[7]، فقد كان رحمه الله ينهى عن المراء العقيم ويحث على الجدال بالتي هي أحسن وقد كان لعمر بن عبد العزيز مواقف مشهورة وأقوال مأثورة في التعامل مع الخوارج ومناظرتهم ودحض شبهاتهم بالحجة وآرائهم بالدليل وإيضاح الحق لهم ودليله حباً منه للسنة واتباعاً للسلف الصالح رحمة الله عليهم[8].

1 - موقفه من خروج الخوارج عليه:

عن هشام بن يحيى الغساني، عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه في الخوارج: إن كان من رأي القوم أن يسيحوا في الأرض من غير فساد على الأئمة ولا على أحد من أهل الذمة. ولا يتناولون أحداً، ولا قطع سبيل من سبل المسلمين فليذهبوا حيث شاءوا وإن كان رأيهم القتال فوالله لو أن أبكاري من ولدي خرجوا رغبة عن جماعة المسلمين لأرقت دماءهم ألتمس

(1) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص: 291.
(2) النجدات: اتباع نجدة بن عامر الحنفي المقتول 69هـ فرقة من فرق الخوارج.
(3) المقالات (1/ 167 - 168).
(4) البدء والتاريخ (5/ 135) وسطية أهل السنة في الفرق، ص: 292.
(5) ابن أبي الدنيا، كتاب: الصمت وآداب اللسان، ص: 116 الطبقات (5/ 371).
(6) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 293، الحلية (5/ 325).
(7) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 291 الآثار الواردة (2/ 671).
(8) الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (2/ 693).

بذلك وجه الله والدار الآخرة[1]. وجاء في رواية: أقسم بالله لو كنتم أبكاري من أولادي ورغبتم عما فرشنا للعامة فيما ولينا لدفقت دماءكم أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، فإنه يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]، فهذا النصح إن أحببتم وإن تستغشوني فقديماً ما استغش الناصحون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2]. يتبين من الآثار السابقة منهج عمر بن عبد العزيز في التعامل مع الخوارج، فمع خروجهم عليه وهو الخليفة الحق لم يحركهم، وإنما كتب إليهم وحذرهم من الخروج عن الجماعة الذين هم أهل الحق، لقد أمر الله تبارك بالاجتماع ونهى عن التفرق وأمر بلزوم الجماعة ونهى عن الخروج عنها وجعل إجماع هذه الأمة حجة فإذا اجتمعوا على أمير وجب طاعته وحرم الخروج عليه ما لم يأمر بمعصية ولم يظهر كفراً بواحاً[3]، والآثار المروية عن عمر بن عبد العزيز هنا تبين منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع الخوارج الذين هم أوائل الفرق ظهوراً في الإسلام فمع خروجهم عليه وهو الخليفة الحق لم يحركهم، ولم يرسل عليهم الحملة تلو الحملة، وإنما عاملهم معاملة أتاحت لهم الفرصة في الرجوع إلى الحق مستناً بسنن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في معاملة الخوارج حين خرجوا عليه[4].

2 - مناظرته للخوارج:

تبين موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج عموماً فيما سبق وفي هذا المبحث يتضح موقفه من الذين كتبوا إليه وكتب إليهم طالباً المناظرة معهم، إذا كانوا مستعدين لذلك، وقد وجد من بعضهم استجابة قال ابن عبد الحكم: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الخوارج: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى هذه العصابة، أما بعد: أوصيكم بتقوى الله فإنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: 2-3]. أما بعد: فقد بلغني كتابكم والذي كتبتم فيه إلى يحيى بن يحيى، وسليمان بن داود الذي أتى إليهما وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: 7]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]، وقال تعالى ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: 35]. وإني أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 75، سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 99 - 100.

(2) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (2/ 695).

(3) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (2/ 695).

(4) المصدر نفسه (2/ 696، 697).

الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأدعوكم أن تدعو ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا بغير قوة ولا تشنيع، وأذكركم بالله أن تشبهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه، ونحن ندعوكم إليهما. هذه نصيحة منا نصحنا لكم فإن تقبلوها فذلك بغيتنا، وإن تردوها على من جاء بها فقديماً ما استغش الناصحون، ثم لم نر ذلك وضع شيئاً من حق الله قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝﴾ [هود: 3]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [يوسف: 108] [1]. وجاء في رواية: وكتب عمر كتاب إلى الخوارج فلما قرؤوها قالوا: نوجه رجلين يكلمانه فإن أجابنا فذاك، وإن أبا كان الله من ورائه، فأرسلوا مولى لبني شيبان يقال له عاصم ورجلاً من بني يشكر من أنفسهم فلما دخلا عليه قالا: السلام عليكم وجلسا، وقال لهما عمر: أخبراني ما أخرجكما مخرجكما هذا؟ وأي شيء نقمتم علينا؟ قال عاصم وكان حبشياً: ما نقمنا عليك في سيرتك لتحري العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من المسلمين ومشورة أم ابتززتهم إمرتهم؟، قال: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم على مشيئتهم وعهد إليّ رجل عهداً لم أسأله قط لا في سر ولا علانية فقمت به ولم ينكره عليّ أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فأنزلوني ذلك الرجل فإن خالفت الحق وزغت عنه فلا طاعة لي عليكم، قالا: بيننا وبينك أمر إن أعطيتناه فأنت منا ونحن منك، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك. قال عمر: وما هو؟ قالا: رأيتك خالفت أعمال أهل بيتك وسلكت غير طريقهم وسميتها مظالم، فإن زعمت إنك على هدى وهم على ضلال فابرأ منهم والعنهم، فهو الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق، قال: فتكلم عمر عند ذلك، فقال: إني قد عرفت أو ظننت أنكم لم تخرجوا لطلب الدنيا، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها. وأنا سائلكم عن أمر فبالله لتصدقاني عنه فيما بلغكم علمكما. قالا: نفعل. قال: أرأيتم أبا بكر وعمر أليسا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهما بالنجاة؟ قالا: بلا. فقال: هل تعلمون أن العرب ارتدت بعد رسول الله ﷺ فقاتلهم أبا بكر فسفك الدماء وسبى الذراري وأخذ الأموال؟ قالا: قد كان ذاك. قال: فهل تعلمون أن عمر لما قام بعده رد تلك السبايا إلى عشائرهم؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل برئ أبو بكر من عمر أو عمر من أبي بكر؟ قالا: لا قال: فهل تبرؤون من واحد منهما؟ قالا: لا. قال: أخبراني عن أهل النهروان أليسوا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: بلا؟ قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا إليهم كفوا أيديهم فلم يخيفوا أمناً،

---

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 79 – 80 وسيرة عمر لابن الجوزي، ص: 99، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (2/ 701).

ولم يسفكوا دماً، ولم يأخذوا مالاً؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل تعلمون أن أهل البصرة حين خرجوا إليهم مع عبد الله بن وهب الراسبي[1]، واستعرضوا الناس فقتلوهم وعرضوا لعبد الله بن خباب[2]، صاحب رسول الله فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم صبحوا حياً من العرب يقال لهم بنو قطيعة فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والولدان حتى جعلوا يلقون الأطفال في قدور الإقط وهي تفور بهم، قالا: قد كان ذلك. قال: فهل برئ أهل الكوفة من أهل البصرة؟ أو أهل البصرة من أهل الكوفة؟ قالا: لا. قال: فهل تبرؤون من طائفة منهما. قالا: لا. قال عمر: أخبراني أرأيتم الدين واحداً أم اثنين؟ قالا: بل واحد. قال: فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني؟ قال: لا. قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى كل واحد منهما صاحبه وقد اختلفت سيرتهما؟ أم كيف وسع أهل الكوفة أن تولوا أهل البصرة وأهل البصرة أهل الكوفة وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: في الدماء والفروج الأموال، ولا يسعني بزعمكما إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم، فإن كان لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لابد منها فأخبرني عنك أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون، ويقال: بلعن هامان؟ قال: ما أذكر متى لعنته. قال: ويحك فيسعك ترك لعن فرعون، ولا يسعني بزعمك إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم؟ ويحك أنهم قوم جهال. أردتم أمراً فأخطأتموه، فأنتم تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله ﷺ وتردون عليهم ما قبل منهم، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده. قال: ما نحن كذلك. قال: بلى تقرون بذلك الآن. هل علمتم أن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن فعل ذلك حقن دمه وأمن عنده، وكان أسوة المسلمين ومن أبى ذلك جاهده؟ قالا: بلى. قال: أفلستم أنتم اليوم تبرؤون ممن يخلع الأوثان وممن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وتلعنونه وتقتلونه وتستحلون دمه وتلقون من يأبى ذلك من سائر الأمم من اليهود والنصارى فتحرمون دمه ويأمن عندكم؟ فقال الحبشي: ما رأيت حجة أبين ولا أقرب مأخذاً من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنني بريء ممن خالفك. وقال للشيباني: فأنت ما تقول؟ قال: ما أحسن ما قلت وأحسن ما وصفت ولكن أكره أن أفتات على المسلمين بأمر لا أدري ما حجتهم فيه حتى أرجع إليهم فلعل عندهم حجة لا أعرفها. قال: فأنت أعلم. قال: فأمر للحبشي بعطائه وأقام عنده خمس عشرة ليلة ثم مات ولحق الشيباني بقومه فقتل معهم[3]. وجاء في رواية: ودخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز فقالا: السلام عليك يا إنسان، فقال: وعليكما السلام يا إنسانان، قالا: طاعة الله

(1) الآثار الواردة (2/ 703).
(2) المصدر نفسه.
(3) أنساب الأشراف (8/ 211 - 215) الآثار الواردة (2/ 704).

أحق ما اتبعت. قال: من جهل ذلك ضل. قالا: الأموال لا تكون دولة بين الأغنياء. قال: قد حرموها. قالا: مال الله يقسم على أهله. قال: الله بين في كتابه تفصيل ذلك. قالا: تقام الصلاة لوقتها. قال: هو من حقها. قالا: إقامة الصفوف في الصلوات. قال: هو من تمام السنة. قالا: إنما بعثنا إليك. قال: بلغا ولا تهابا. قالا: ضع الحق بين الناس. قال: الله أمر به قبلكما. قالا: لا حكم إلا لله. قال: كلمة حق إن لم تبتغوا بها باطلاً. قالا: ائتمن الأمناء. قال: هم أعواني. قالا: احذر الخيانة. قال: السارق محذور. قالا: فالخمر ولحم الخنزير. قال: أهل الشرك أحق به. قالا: فمن دخل في الإسلام فقد أمن. قال: لولا الإسلام ما أمنا. قالا: أهل عهود رسول الله ﷺ. قال: لهم عهودهم. قالا: لا تكلفهم فوق طاقاتهم. قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. قالا: ذكرنا بالقرآن. قال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: 281]. قالا: تردنا على دواب البريد. قال: لا هو من مال الله لا نطيبه لكما. قالا: فليس معنا نفقة. قال: أنتما إذن ابنا سبيل على نفقتكما[1]. وعن أرطأة بن المنذر قال: سمعت أبا عون يقول: دخل ناس من الحرورية على عمر بن عبد العزيز فذاكروه شيئاً، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي فخرجوا على ذلك فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلا تكوينه أبداً[2]. وجاء في رواية: عندما خرج شوذب واسمه بسطام من بني يشكر على عبد الحميد بن عبد الرحمن بالعراق في خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان مخرجه بجوخي[3] في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً صليباً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً. وأوصه بما أمرتك به، فعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين من أهل الكوفة، وأمره بما أمره به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه. وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يحركه ولا يهيجه، فكان في كتاب عمر إليه: إنه بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه، ولست بأولى بذلك مني. فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك، فلم يحركِ بسطام شيئاً وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك قال أبو عبيدة: معمر بن المثنى: الرجلين اللذين

---

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 147، الآثار الواردة (2/ 677).

(2) سيرة عمرة لابن الجوزي، ص: 81، الآثار الواردة (2/ 705).

(3) جُوخى: بضم والكسر وقد يفتح: نهر بالجانب الشرقي من بغداد.

بعثهما شوذب إلى عمر مخدوج مولى بني شيبان، والآخر من صلبية بني يشكر - قال: فيقال: أرسل نفراً فيهما هذان، فأرسل إليهم عمر: أن اختاروا رجلين فاختاروهما، فدخلا عليه فناظراه، فقالا له: أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيره غيري، قالا: أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك، ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمن[1]، وتذكر الروايات تخميناً: إن بني مروان خافوا أن يخرج عمر ما عندهم وما في أيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد بن عبد الملك، فدسوا عليه من سقاه سماً، فلم يلبث أن مات في اليوم الذي تقرر أن يعطي فيه جوابه للمتفاوضين[2]. يتضح من الآثار السابقة أن عمر بن عبد العزيز سلك معهم المسلك الصحيح الذي تبعه سلفنا الصالح كابن عباس وأمير المؤمنين علي ﷺ ويبدو أن عمر قد طمع في رجوع هؤلاء الخوارج ولذلك لم يترك لهم شبهة إلا كسرها وبين زيفها وكشف عوارها[3]، ولم يجادلهم في الحق الذي معهم ولكنه طلب مهلة إلا أنه مات قبل انتهائها، وعندما استخدم خوارج العراق القوة ضد واليه عبد الحميد وتمكن الخوارج من دحر جيش الوالي، أسرع عمر بن عبد العزيز فأرسل إلى الخوارج مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش من أهل الشام، وكتب إلى عبد الحميد: قد بلغني ما فعله جيشك، جيش السوء، وقد بعثت مسلمة فخل بينه وبينهم، وتقدم مسلمة على رأس قواته إلى حيث عسكر الخوارج ودارت معركة بين الطرفين انتهت بانتصار جيش الخلافة[4]. إن اضطرار عمر إلى استخدام القوة إزاء فئة من الخوارج، لم يدفعه أبداً إلى تطبيق أسلوب الشدة تجاه كل الخوارج، فما دام خصمه مستعداً للحوار، فلا داعي أبداً لإراقة الدماء[5].

3 - السبب المفضي لقتال الخوارج:

لم يأمر عمر بن عبد العزيز بقتال الخوارج لما اختلفوا معه في الرأي ولا عندما عارضوه وسبوه، بل صبر عليهم لعل الله أن يهديهم إلى الصواب، ثم لما وصلوا إلى مرحلة خطيرة وهي أخذ المال وإخافة السبيل وسفك الدماء عند ذلك أمر بقتالهم[6].

4 - رد متاع الخوارج إلى أهليهم:

لم يَسْبِ عمر بن عبد العزيز نساء الخوارج وذراريهم ولم يستحل أموالهم، بل أمر برد

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 460).
(2) المصدر نفسه (7/ 460) ملامح الانقلاب الإسلامي، ص: 97.
(3) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (2/ 711).
(4) الطبقات (5/ 358) ملامح الانقلاب الإسلامي، ص: 94.
(5) ملامح الانقلاب الإسلامي، ص: 94.
(6) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 469) د. محمد شقير.

متاعهم إلى أهليهم، فقد كتب إلى عامله في الخوارج: فإن أظفرك الله بهم وأدلك عليهم فرد ما أصبت من متاعهم إلى أهليهم[1]، وهذا رأي علي بن أبي طالب فيهم في عدم سبي ذرية ونساء الخوارج وعدم استحلال أموالهم[2].

5 - حبس أسرى الخوارج حتى يحدثوا خيراً:

فلما قاتلهم، فقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر، أمر عمر بن عبد العزيز بسجنهم حتى يحدثوا خيراً، من الرجوع إلى الحق والتخلي عن أفكارهم الضالة[3]، فلقد مات عمر بن عبد العزيز وفي حبسه منهم عدة[4]. فهذا منهج وفقه عمر بن عبد العزيز في التعامل مع المعارضين من الخوارج.

ثانياً: الشيعة:

تذكر في الاصطلاح: كاسم لكل من فضل علياً رضي الله عنه على الخلفاء الراشدين قبله رضي الله عنهم جميعاً ورأى أهل بيته أحق بالخلافة[5]، وقد تحدثت عن الشيعة بالتفصيل في كتابي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. والشيعة فرق عديدة: منهم الغلاة الذين خرجوا عن الإسلام وهم يدعونه ويدعون التشيع، ومنهم دون ذلك ومن أهم فرقهم: الكيسانية، والسبئية والإمامية وغيرها. وكان لعمر ابن عبد العزيز أقوال في الشيعة الغلاة، فقد قال عمر بن عبد العزيز: إني لأعرف صلاح بني هاشم وفسادهم بحب كُثيِّر[6]، فمن أحبه منهم فهو فاسد، ومن أبغضه فهو صالح لأنه كان خشبياً يؤمن بالرجعة[7]، وجاء عمر بن عبد العزيز كتاب من عامله على الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها فرد عمر: لا تطلب طاعة من خذل علياً رضي الله عنه وكان إماماً مرضياً[8]. وعن إسحاق ابن طلحة بن أشعث قال: بعثني عمر بن عبد العزيز إلى العراق فقال: أقرئهم ولا تستقرئهم وحدثهم ولا تسمع منهم، وعلمهم ولا تتعلم منهم. فقد كان عمر بن عبد العزيز على معرفة بعقيدة كُثيِّر الشاعر ويؤيدها ما يروى أن «كثير عزة» له أبيات يثبت فيها عقيدته الفاسدة في الغلو في أهل البيت مثل قوله:

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 471) د. محمد شقير.
(2) المصدر نفسه (2/ 471).
(3) المصدر نفسه (2/ 473).
(4) الطبقات (5/ 5/ 358 - 359) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 473).
(5) مقالات الإسلاميين، ص: 65، الآثار الواردة (2/ 727).
(6) تاريخ الإسلام، نقلاً عن الآثار الواردة (2/ 728).
(7) المصدر نفسه (2/ 728).
(8) تاريخ دمشق، نقلاً عن الآثار الواردة (2/ 729).

ألا إن الأئـمـة مـن قـريـش ... ولاة الـحـق أربـعـة سـواء
عـلـي والـثـلاثـة مـن بـنـيـه ... هـم الأسـبـاط لـيـس بـهـم خـفـاء
فـسـبـط سـبـط إيـمـان وبـر ... وسـبـط غـيـبـتـه كـربـلاء
وسـبـط لا يـذوق الـمـوت حـتـى ... يـقـود الـخـيـل يـقـدمـهـا الـلـواء[1]

قال الذهبي قال الزبير بن بكار عن كثير: كان شيعياً يقول بتناسخ الأرواح ويقرأ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 8] قال: وكان خشبياً يؤمن بالرجعة يعني رجعة علي رضي الله عنه إلى الدنيا[2]. ولم يهتم عمر بالرد على ما كان يراه كثير وغيره من الشيعة الغلاة كما اهتم بالرد على القدرية والخوارج، وحذر عمر بن عبد العزيز من مخالطة ومجالسة أصحاب البدع والأهواء[3]، ومن أشهر آراء الشيعة الغلاة:

- القول بوجوب إمامة علي رضي الله عنه، وتقديمه وتفضيله على سائر الصحابة وأن الرسول نص على إمامته.
- القول بعصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر.
- القول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً، أي تولي علي رضي الله عنه والتبري من أصحاب رسول الله ﷺ ولاسيما الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم[4]، ومن أراد الرد على هذه المعتقدات فليراجع كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثالثاً: القدرية في عهد عمر بن عبد العزيز:

1 - تعريف القدرية في الاصطلاح:

للقدرية إطلاقان، خاص وعام:

أ - فالقدرية بالمعنى الخاص: هم المنكرون للقدر: أي المكذبون بتقدير الله تعالى لأفعال العباد أو بعضها أي: الذين قالوا: لا قدر (من الله) والأمر أنف أي مستأنف ليس لله فيه تقدير سابق كما سيأتي بيانه بإذن الله.

ب - القدرية بالمعنى العام: هم الخائضون في علم الله تعالى وكتابته ومشيئته وتقديره وخلقه بغير علم، وبخلاف مقتضى النصوص وفهم السلف[5].

---

(1) الفرق بين الفرق نقلاً عن الآثار الواردة (2/ 734).
(2) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (2/ 734) والخشبية فرقة من الشيعة سموا بذلك لقولهم إنا لا نقاتل بالسيف إلا مع إمام معصوم فقاتلوا بالخشب، منهاج السنة (1/ 36).
(3) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (2/ 733، 734).
(4) وسطية أهل الشيعة بين الفرق، ص: 293، 294.
(5) القدرية والمرجئة د. ناصر العقل، ص: 19.

2 - نشأة القول بالقدر في الإسلام:

عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث أخاف على أمتي الاستسقاء بالأنوار، وحيف السلطان، وتكذيب بالقدر»**[1]، كما حذر النبي ﷺ من المراء والجدل في الدين عموماً وفي القدر على جهة الخصوص، وعن ضرب آيات الله والأحاديث الصحيحة بعضها ببعض، وعن إثارة الشبهات والمعارضات في نصوص القدر من ذلك ما رواه أحمد في المسند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال: فكأنما تفقأ في وجهه حبّ الرمان من الغضب قال: فقال لهم: **«ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»**[2].

أ - تتابع الفرق ومقالاتها في القرن الأول إلى ظهور القدرية: بعد ظهور الفرق الأولى سنة (37 - 40هـ) الخوارج والشيعة بقي الحال على هذا إلى ما بعد سنة (62هـ) حيث بزغ نجم القدرية النصرانية والمجوسية حين نبغ بها بعد معبد الجهني ثم توالت المقولات على منوالها تترى، أو كما قال ابن تيمية: فالبدع تكون في أولها شبراً ثم تكثر في الأتباع حتى تصير أذراعاً وأميالاً وفراسخ[3].

ب - ظهور القدرية الأولى: وتتمثل في مقولات معبد الجهني ت(80)هـ وأتباعه، ثم غيلان الدمشقي وأتباعه (105)هـ وتتلخص بأن الله تعالى (بزعمهم) لم يقدِّر أفعال العباد ولم يكتبها، وأن الأمر أنف (أي مستأنف) لم يكن في علم الله ولا تقديره السابق، وكانت بدايات كلامهم في هذا بعد سنة 63هـ وهو تاريخ نشأة القدرية الأولى، إذن فالقدرية الأولى هم: الذين أنكروا علم الله السابق، وزعموا أنه تعالى لم يقدر أفعال العباد سلفاً ولم يعلمها ولم يكتبها في اللوح المحفوظ، وأن الأمر أنف (أي مستأنف) ليس بتقدير سابق من الله تعالى مع استقل العباد بفعلها وهذه مقولة غالية في القدر حيث تنكر العلم والكتابة وتقدير عموم أفعال المكلفين خيرها وشرّها فيما يظهر، هذا أول أمرهم، فلما أنكر الأئمة هذا القول صار جمهور القدرية يقرون بالعلم المتقدم والكتاب السابق، لكن ينكرون عموم مشيئة الله وقدرته وخلقه لأفعال العباد فأنكروا أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد أو بعضها وقالوا: إن الله لا يخلق الشر، هذا ما استقرت عليه القدرية الثانية وعلى رأسهم المعتزلة[4].

وكانت مقالات القدرية الأولى تتخلص في قولين:

---

(1) مسند أحمد (5/ 90) صححه الألباني في سلسلة الصحيحة رقم 1127.

(2) مسند أحمد (2/ 178، 196) قال صاحب الزوائد: هذا إسناد رجاله ثقات.

(3) الفتاوى (8/ 425).

(4) القدرية والمرجئة، ناصر العقل، ص: 25.

- إن الأمر أنف «أي مستأنف» ويعنون بذلك أفعال المكلفين[1]، فيزعمون أن الله تعالى لم يقدرها ولم يعلمها إلا أثناء حدوثها من المكلف ويفسره الثاني.

- قولهم: إن الله تعالى لم يقدر الكتابة (أي في اللوح المحفوظ) ولا الأعمال[2]، في السابق.

ج - رؤوس القدرية الأولى:

- **معبد الجهني ت(80)هـ:** ساق ابن حجر في تهذيب التهذيب أقوال بعض أهل الجرح والتعديل فيه فقال: وقال أبو حاتم: كان صدوقاً في الحديث وكان أول من تكلم في القدر بالبصرة وكان رأساً في القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناساً[3].

وقال الدارقطني: حديثه صالح ومذهبه رديء[4]، وقال محمد بن شعيب بن شابور عن الأوزاعي: أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن، وكان نصرانياً، فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد[5]. وكان مسلم بن يسار يقعد على هذه السارية فقال: إن معبداً يقول بقول النصارى.

- **غيلان الدمشقي المقتول (105)هـ:** غيلان الدمشقي هو الرجل الثاني بعد معبد الجهني، من رؤوس بدعة القدرية وقد ظهرت مقولته بالشام وافتتن بها خلق[6]، ولم يقتصر غيلان على مقولات معبد، بل تكلم في الصفات فنفى بعض الصفات، كالاستواء[7]، ونسب إليه كذلك القول بأن الإيمان هو المعرفة، وأن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان والقول بخلق القرآن[8]، وهي أصول الجعد بن درهم بعده، ثم أصول الجهمية والمعتزلة، حيث وضعوا بها القواعد والأصول وناظروا فيها وتوسعوا في هذه البدع[9]، ويقال إن أول من أنكر استواء الله على عرشه وأوله بالاستيلاء غيلان الدمشقي (قتل 105هـ) أو الجعد بن درهم (قتل 124هـ)، وقيل الجهم بن صفوان (قتل 128هـ). وإنكار الاستواء ينسجم مع قاعدة الجعد الخبيثة في التعطيل التي أنكر بها الكلام والخلة، والأرجح أن أول من حفظ عنه أنه قال بأن الله تعالى ليس على العرش حقيقة: الجعد، ثم أخذها عنه الجهم وأظهرها[10]، وإنكار الاستواء وتأويله هو الشرارة الأولى لأهل الأهواء والتي فيها خاضوا في صفات الله - تعالى - نفياً

---

(1) الفتاوى (7/ 385).
(2) المصدر السابق، نقلاً عن القدرية والمرجئة، ص: 30.
(3) تهذيب التهذيب (10/ 225).
(4) تهذيب التهذيب (10/ 225) سير أعلام النبلاء (4/ 186).
(5) المصدر نفسه.
(6) القدرية والمرجئة، ناصر العقل، ص: 32.
(7) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص: 251.
(8) المصدر نفسه، ص: 250.
(9) المصدر نفسه، ص: 251.
(10) الفتاوى (5/ 20) دراسات في الأهواء والفرق، ص: 251.

وتعطيلاً وتأويلاً، ذلك أن الاستواء مرتبط بالعلو والفوقية، فالرؤية ثم صفات الله الفعلية، ومنها تجرؤوا على بقية الصفات الخبرية كاليد والعين والوجه وهلم جراً[1].

3 - موقف عمر بن عبد العزيز من غيلان الدمشقي:

عن عمرو بن مهاجر قال: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول في القدر، فبعث إليه فحجبه أياماً، ثم أدخله عليه فقال: غيلان ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال عمرو بن مهاجر: فأشرت إليه أن لا يقول شيئاً، قال: فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: 1-3]. قال اقرأ آخر السورة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ۝٣١﴾ [الإنسان: 30-31] ثم قال: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول: قد كنت أعمى فبصرتني وأصم فأسمعتني وضالاً فهديتني[2]. وفي رواية: دعا عمر بن عبد العزيز غيلان فقال: يا غيلان بلغني أنك تتكلم في القدر! فقال: يا أمير المؤمنين إنهم يكذبون علي؟ فقال: يا غيلان اقرأ أول ﴿يسٓ ۝١﴾ فقرأ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: 1-2] حتى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس: 8-10]. فقال غيلان: يا أمير المؤمنين، والله لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم، أشهدك يا أمير المؤمنين أني تائب مما كنت أقول، فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فثبته وإن كان كاذباً فاجعله آية للمؤمنين[3]، وجاءت روايات كثيرة في محاورة عمر بن عبد العزيز لغيلان الدمشقي وكان له حديث طويل في معتقد أهل السنة في مسألة الإيمان بالقدر، وقد ناقش عمر بن عبد العزيز القدرية وسألهم عن العلم وذلك بسؤالهم عن علم الله، فإذا أقروا به خصموا وإن جحدوا كفروا فقال لغيلان الدمشقي: ما تقول في العلم. قال: قد نفد العلم. قال: فأنت مخصوم اذهب الآن فقل ما شئت ويحك يا غيلان إنك إن أقررت بالعلم خصمت وإن جحدته كفرت، إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر[4]. ولعل عمر بن عبد العزيز أول من نهج هذا النهج في سؤال القدرية عن العلم، ثم صار هذا المنهج منهجاً لأهل السنة بعده، وقد استدل رحمه الله في ردوده على غيلان بآيات صريحة في الرد على المكذبين بالقدر كما جاء في بعض الروايات - وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾ [الصافات: 161-163]. قال ابن حجر رحمه الله في تفسير هذه الآيات: يقول تعالى: فإنكم أيها

---

(1) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص: 251.
(2) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (2/ 750).
(3) الإبانة (2/ 235) الآثار الواردة (2/ 749).
(4) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (2/ 429).

المشركون بالله وما تعبدون من الآلهة والأوثان ما أنتم عليه بفاتنين أي بمضلين أحداً إلا من سبق في علمي أنه صال الجحيم[1]. وقد بين عمر في خطبه ورسائله أن الله تبارك وتعالى هو الهادي وهو المضل، وهذا ما جاء في الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: 39]. وغيرها من الآيات، وقد كانت القدرية تنكر أن يكون الله تعالى هو الهادي وهو الفاتن. وإنما العبد هو الذي يهدي نفسه إذا شاء ويضلها إذا شاء، فلعل رسائل عمر وخطبه في الجمع من الردود على هؤلاء المبتدعة وسواء قصدهم عمر بخطبه أو ألقاها بدون قصد الرد عليهم تبقى ردوداً قوية على كل من انحرف في باب القدر عن منهج الكتاب والسنة، وقد بين عمر بن عبد العزيز أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى مقدرة له مكتوبة على عباده، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96]. وقال ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[2]. وقد بين عمر بن عبد العزيز - كما جاء في خطبه - أن العبد إذا أذنب فعليه أن يتوب ويستغفر الله تعالى ولا يحتج على الله بالقدر ولا يقول أي ذنب لي وقد قدر علي هذا الذنب، بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته، إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وخلقه، كما رد عمر على القدرية القائلين بأن العبد له مشيئة مستقلة يستطيع بها رد علم الله، فبيَّن أن العبد له قدرة ومشيئة ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى[3].

4 - بيان مراتب القدر:

إن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تدل بمجموعها على الإيمان بالقدر، كما تدل على الإيمان بمراتب القدر الأربعة التي اتفق السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - ومن سار على نهجهم على أنه لا يتم الإيمان بالقدر، إلا بالإيمان بها كلها. وهي: العلم، والكتابة والمشيئة والخلق، وكانت القدرية الموجودون في زمن عمر بن عبد العزيز ينكرون العلم والكتابة وهؤلاء هم الذين تبرأ منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب بقوله: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني[4]. ومن كلام عمر بن عبد العزيز في بيان مراتب القدر رده على الرجل الذي كتب إليه فجاء في رسالته: . . كتبت تسأل عن الإقرار بالقدر فعلى الخبير بإذن الله وقعت، وما أعلم ما أحدث الناس من محدثة ولا ابتدعوا من بدعة هي أبين أثراً ولا أثبت أمراً من الإقرار بالقدر، لقد كان ذكره في الجاهلية الجهلاء يتكلمون به في

---

(1) تفسير الطبري (23/ 109).

(2) مسلم رقم 2655.

(3) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (2/ 769، 770).

(4) مسلم، كتاب: الإيمان، باب القدر (1/ 36، 37).

كلامهم وفي شعرهم يعزون به أنفسهم على ما فاتهم، ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شدة، ولقد ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث ولا حديثين، وقد سمعه منه المسلمون فتكلموا به في حياته، وبعد وفاته يقيناً وتسليماً، لربهم وتضعيفاً لأنفسهم أن يكون شيء لم يحط به علمه ولم يحصه كتابه ولم يمض فيه قدره وأنه مع ذلك لفي محكم كتابه: منه اقتبسوه ومنه تعلموه، ولئن قلتم لم أنزل الله آية كذا ولم قال كذا، لقد قرأوا منه ما قرأتم وعلموا من تأوليه ما جهلتم، وقالوا بعد ذلك كله بكتاب وقدر وكتب الشقاوة وما يقدر يكن وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا[1]. ومن خلال رسائل وخطب عمر بن عبد العزيز يتضح معتقد عمر بن عبد العزيز في القدر وفي بيانه لمراتبه، فأول مراتبه:

أ - العلم: والمقصود أن الله تبارك وتعالى قد علم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون قبل أن يخلقهم بعلمه القديم الذي هو صفة من صفات ذاته وأنه يعلم أهل الجنة وأهل النار قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59].

ومن السنة: قوله ﷺ لرجل سأله بقوله: يا رسول الله أعُلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال ﷺ: «**نعم**». قال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: «**كل مسير لما خلق له**»[2].

ب - مرتبة الكتابة: خطب عمر بن عبد العزيز فقال: أيها الناس من عمل منكم خيراً فليحمد الله تعالى ومن أساء فليستغفر الله، ثم إن عاد فليستغفر الله فإنه لابد لأقوام أن يعملوا أعمالاً وضعها الله في رقابهم وكتبها عليهم[3]. وخطب يوماً فقال: إن الدنيا ليست بدار قرار، دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها منها الظعن[4]. فهذا هو المأثور عن عمر من كتابة الله مقادير الخلائق قبل خلقهم وإحصائه كل ذلك وعلمه جزائيات كل[5] شيء. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: 22] وقال رسول الله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»[6].

---

(1) الإبانة لابن بطة (2/ 231، 232، 233)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 510).
(2) مسلم رقم 2649.
(3) الآثار الواردة (1/ 519) نقلا عن الشريعة للآجري.
(4) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 244.
(5) الآثار الواردة (1/ 519).
(6) مسلم رقم 2653.

ج - **المشيئة:** والمقصود بها: أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا حركة ولا سكون في السمٰوات والأرض إلا بمشيئته سبحانه وتعالى فلا يكون في ملكه إلا ما يريد، وقد حرص عمر بن عبد العزيز على توضيح هذه المرتبة والرد على من أنكرها ففي رسالته إلى عامله يقول: وما يقدر يكن وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وكان يقول: لو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس[1]، وناظر غيلان الدمشقي وأفحمه حين بين له خطأه في الاحتجاج بأوائل الآيات من سورة الإنسان فطلب منه أن يقرأ آخر السورة وقال له: ويحك أما تسمع الله يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]. وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 39] وقال رسول الله ﷺ: **«قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء»**. ثم قال: **«يا مصرف القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك»**[2].

د - **الخلق:** المقصود بها: إن الله تعالى هو خالق الخلق وخالق كل شيء، فهو الذي خلق الكون وأوجده، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق[3]، ولعمر بن عبد العزيز في تقرير هذه المرتبة أبلغ البيان، فقد كتب في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۝١١٩﴾ [هود: 118-119]. قال: الذين لا يختلفون خلقهم الله للرحمة[4]. فهذه الآية تضمن خلق العباد وأعمالهم[5]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۝١١٩﴾ [هود: 118-119]. وكتب إلى عدي بن أرطأة أما بعد: فإن استعمالك سعد بن مسعود على عمان من الخطايا التي قدر الله عليك وقدر أن تبتلى بها[6]، وهذا الذي قرّره عمر بن عبد العزيز دلّ عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62] وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: 96] وقال رسول الله ﷺ: **«كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»**[7].

5 - الفرق بين القضاء والقدر في الاصطلاح:

قيل المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ۝١٢﴾ [فصلت: 12]. أي خلقهن في القضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه[8]. وقيل: إن القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل،

---

(1) الآثار الواردة (1/ 524).
(2) مسلم رقم 2654.
(3) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 525).
(4) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 74.
(5) مصنف عبد الرازق (11/ 122).
(6) مصنف عبد الرزاق (11/ 122).
(7) مسلم رقم 2655.
(8) النهاية لابن الأثير (4/ 78).

والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق[1]، وقال ابن حجر: وقالوا - أي العلماء -: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله[2]. وقيل: إذا اجتمعا افترقا بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول يحسب ما مر في القولين السابقين، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر[3]، قياساً على ما جاء في التفريق بين الإيمان والإسلام والفقير والمسكين ونحو ذلك، ولعل هذا التعريف توفيق بين من يرى التفرقة بين القضاء والقدر وبين من لا يرى ذلك. والذي يظهر أنه ليس هناك فرق واضح بين القضاء والقدر[4] ولا فائدة من هذا الخلاف، لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهما يطلق على الآخر وعند ذكرهما معاً فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل على الآخر[5].

6 - الرضا بالقضاء والقدر:

قال عمر بن عبد العزيز: ما أصبح لي اليوم في الأمور هوى إلا في مواقع قضاء الله فيها[6]، وكان يدعو بهذا الدعاء: اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت. وكان عمر يقول: ما برح بي هذا الدعاء حتى لقد أصبحت ومالي في شيء من الأمور هوى إلا في موضع القضاء[7]. وقال حين دفن ابنه عبد الملك: رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره والحمد لله رب العالمين[8]. ولما عزي في ابنه عبد الملك قال: وأنا أعوذ بالله أن يكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله فإن ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي وإحسانه إلي[9].

تحث الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في هذا المبحث على الرضا بالقضاء، والمقصود بالقضاء الذي قدره الله على عبده من المصائب التي ليست ذنوباً، فإن الصبر على المصائب واجب وأما الرضا بها فهو مشروع لكن هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهما أصحها أنه مستحب ليس بواجب[10]. ولا شك أن الرضا بالقضاء

(1) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 494).
(2) فتح الباري (11/ 486).
(3) القضاء والقدر لمحمد بن إبراهيم الحمد، ص: 29، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 494).
(4) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (1/ 494).
(5) القضاء والقدر عبد الرحمن المحمود، ص: 44.
(6) الطبقات (5/ 372) الآثار الواردة (1/ 535).
(7) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 97.
(8) الآثار الواردة (1/ 536).
(9) الحلية (5/ 358، 357) الآثار الواردة (1/ 537).
(10) مجموع الفتاوى (8/ 191).

من تمام الإيمان بالقضاء والقدر، وهو دليل على الثقة بما عند الله تعالى، فلا يندم على ما فات، ولا يفرح بما هو آت مما قدره الله تعالى له، فهو يرضى به على وفق قضاء الله له[1].

رابعاً: المرجئة:

نسبة إلى الإرجاء، وهو تأخير العمل عن الإيمان[2].

والإرجاء على معنيين:

أحدهما: بمعنى التأخير في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111] أي: أمهله وأخّره. والثاني: إعطاء الرجاء[3].

والمرجئة في الاصطلاح فقد عرفهم الإمام أحمد بقوله: هم الذين يزعمون أن الإيمان مجرد النطق باللسان وأن الناس لا يتفاضلون في الإيمان وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحد، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأن الإيمان ليس فيه استثناء وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقاً[4]. والمرجئة الخالصة: وهم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ومن هؤلاء جهم وأصحابه[5]، وأول من تكلم في الإرجاء الذي هو تأخير الأعمال عن الإيمان غيلان الدمشقي، كما يقول الشهرستاني[6]، وأما الإرجاء المنسوب إلى أبي محمد الحسن بن محمد المعروف بابن الحنفية فليس هو الإرجاء في الإيمان، وإنما هو إرجاء أمر المقاتلين من الصحابة إلى الله عز وجل[7]، وقال ابن سعد في ترجمته وهو أول من تكلم في الإرجاء - ويذكر كذلك - أن زاذان وميسرة دخلا عليه فلاماه على الكتاب الذي وضع في الإرجاء فقال لزاذان: يا أبا عمر لوددت أني كنت مت ولم أكتبه[8]، فهذا الكتاب إنما فيه إرجاء أمر المشتركين في الفتنة التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر إلى الله عز وجل[9]، وقد ذكر ابن حجر: أنه اطلع على هذا الكتاب الذي ألفه الحسن بن محمد وقال: المراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن

---

(1) الآثار الواردة (1/ 538).

(2) الفرق بين الفرق للبغدادي، ص: 202 وسطية أهل السنة، ص: 294.

(3) الملل والنحل للشهرستاني (1/ 139).

(4) موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع (1/ 152).

(5) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص: 294.

(6) الملل والنحل (1/ 139).

(7) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص: 295.

(8) الطبقات (5/ 328) قضية الثواب والعقاب، د. السميري، ص: 30.

(9) قضية الثواب والعقاب للسميري، ص: 30.

محمد فيه غير الإرجاء الذي عنيه أهل السنة: المتعلق بالإيمان[1]، وأهم أقوالهم التي فاقوا فيها أهل السنة:

- قولهم بتأخير الأعمال عن مسمى الإيمان.
- وقول الخالصة منهم: أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة[2].

وقد جاءت عن عمر بن عبد العزيز آثار خاصة تدل على زيادة الإيمان وإدخال الأعمال فيه. وهذه الآثار رد على المرجئة ولاسيما وأن أهل العلم قد ذكروا هذه الآثار في معرض ردودهم على المرجئة. كما ورد عنه - رحمه الله تعالى - التحذير عن البدع كلها ولا بدعة أظهر من بدعة الإرجاء[3]، وها هي الآثار الواردة عنه في هذا المبحث، فقد مرّ معنا قوله: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان فإن أَعِشْ أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص[4]. وقال: لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها يحسب أنها هدى[5]. وقال: فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدي وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً[6]. يتبين مما سبق أن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - كان حريصاً على رد البدع كلها، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحّي بأعضائه كلها وقد بين في تلك الآثار القول الصحيح في الإيمان وأنه يشمل العبادات كلها وأولى عناية خاصة بشعبه، ووعد بأنه إن عاش فسيحمل رعيته عليها، ففي هذا المأثور عنه بيان للقول الصحيح في الإيمان، وقد وضحت مفهومه للإيمان عند الحديث عن اهتمامه بعقائد أهل السنة، كما أن فيه الرد على بدعة الإرجاء لأن إحقاق الحق إبطال للباطل، وهذا المأثور عنه هو الحق الثابت عنه في مسألة الإيمان[7].

وأما ما رواه ابن سعد في الطبقات أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة جاءه راحلاً إليه عون بن عبد الله وموسى بن أبي كثير وعمر بن حمزة، وفي بعض المراجع عمر بن ذر، فكلموه في الإرجاء وناظروه فزعموا أنه وافقهم ولم يخالفهم في شيء منه[8]، فهذا لا يثبت عنه لما يلي:

---

(1) تهذيب التذهيب (2/ 320)، قضية الثواب والعقاب، ص: 30.
(2) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص: 295.
(3) الآثار الواردة (2/ 813).
(4) سيرة عمر لابن الحكم، ص: 40، الآثار الواردة (2/ 813).
(5) الآثار الواردة (2/ 814).
(6) الطبقات (5/ 343).
(7) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (2/ 814).
(8) الطبقات (6/ 339) سير أعلام النبلاء (5/ 104).

- لأن ابن سعد رواه بدون سند فهو إذا منقطع.
- ولأنه زعموا فيه صيغة التمريض (زعموا).
- وأيضاً إن مثل هذا الزعم والادعاء لا يعول عليه لأن رواته متهمون بالإرجاء[1].

هذا وعلى فرض تسليم تلك الرواية فإن عون بن عبد الله قد تاب عن الإرجاء. وقد روى تلك اللالكائي بسنده عن نوفل الهذلي عن أبيه قال: كان عون بن عبد الله بن مسعود من آداب أهل المدينة وأفقههم وكان مرجئاً ثم رجع فأنشد يقول:

لأول ما نفارق غير شك ... نفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من أهل جور ... وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال ... وقد حرمت دماء المؤمنين[2]

فثبت أن عون بن عبد الله رحمه الله قد رجع عن القول بالإرجاء ولعل قوله بالإرجاء كان قبل اتصاله بعمر - رحمه الله تعالى - اتصالاً وثيقاً وكونه من المقربين عنده[3].

خامساً: الجهمية:

تنتسب الجهمية إلى الجهم بن صفوان من أهل خراسان ومولى لبني راسب، تتلمذ على الجعد بن درهم، وكان كاتباً للحارث بن سريح[4] الذي أثار الفتن ضد الدولة الأموية في خراسان، وكان جهم يقرأ سيرته ويدعو إلى توليته[5]، ويحرص الناس على الخروج معه، وفي سنة 128هـ وقعت معركة بين جيش أمير خراسان - نصر بن سيار - وجيش الحارث بن سريح، وكان جهم بن صفوان في جيش الحارث، فطعنه رجل في فمه فقتله، وقيل بل أسر وأوقف بين يدي سلم بن أحوز[6] فأمر بقتله[7]، وأهم أصول الجهمية:

1 - تبنى الجهم آراء الجعد بن درهم والتي هي نفي صفات الله عز وجل، والقول بخلق القرآن ثم زاد عليها بدعاً أخرى.

2 - القول بالجبر، حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور على أفعاله.

---

(1) الآثار الواردة (2/ 815).
(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (5/ 1077).
(3) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (2/ 816).
(4) حقيقة البدعة وأحكامها (1/ 115).
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن حقيقة البدعة (1/ 115).
(6) البداية والنهاية، نقلاً عن حقيقة البدعة وأحكامها (1/ 115).
(7) البداية والنهاية، نقلاً عن حقيقة البدعة (1/ 116).

3 - القول بأن الإيمان هو المعرفة، حيث زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط وأن الكفر هو الجهل به فقط.

4 - القول بفناء الجنة والنار حيث زعم أنهما تفنيان بعد دخول أهلها فيهما، إذ لا يتصور على حسب زعمه حركات لا تتناهى.

5 - القول بأن علم الله حادث، حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه[1]. فنفي الصفات أخذها الجهم من الجعد ومن الفلاسفة والسمنية[2]، وذلك أن الجهم كان فصيح اللسان ولم يكن له علم ولا مجالسة لأهل العلم فكلم السمنية فقالوا له: صف لنا ربك عز وجل الذي تعبده، فدخل البيت ولم يخرج ثم خرج إليهم بعد أيام فقال: هو هذا الهواء مع كل شيء وفي كل شيء ولا يخلو منه شيء، وروى الإمام أحمد يرحمه الله مناظرة وقعت بين الجهم والسمنية في إثبات الله عز وجل انتهى فيها الجهم إلى أن شبه الله فيها بالروح التي لا ترى ولا تحس ولا تسمع[3]. ويقول ابن تيمية: إن الجعد بن درهم قيل أنه من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة... ومذهب النفاه من هؤلاء في الرب: إنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منها... فيكون الجعد قد أخذها من الصابئة والفلاسفة[4]، وكان الجهم قد أخذ بمعتقدات الجعد[5]. وأما القول بالجبر فقد قاله المشركون من العرب قبله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٥﴾ [النحل: 35]. فيخبر الله تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك محتجين بالقدر، فمضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه[6]، وأما القول بأن الإيمان هو المعرفة فقد قالت بهذا القول المرجئة قبله، وأما القول بفناء الجنة والنار فمصدره الإسماعيلية[7] والباطنية وأهل الكلام واليهود، يقول ابن أبي

---

(1) تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة (1/ 131).

(2) السمنية : قوم من الزنادقة الهنود لهم فلسفة خاصة ومدرسة فكرية ضالة. ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (2/ 392).

(3) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد، ص: 44، 45.

(4) الفتاوى (5/ 21، 22) تناقض أهل الأهواء والبدع (1/ 131).

(5) تناقض أهل الأهواء والبدع (1/ 131).

(6) تفسير القرآن العظيم (2/ 626).

(7) الإسماعيلية: منسوبون إلى محمد بن إسماعيل وهو ابن جعفر الصادق، يقولون بالتفسير الباطني وإن الله عز وجل اختص بالعلم علي بن أبي طالب، ويقولون بكفر من خالف علياً، الفرق بين الفرق، ص: 42، تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة (1/ 132).

العز - يرحمه الله - عن الجهم بن صفوان: وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة وليس له سلفاً قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة. . . وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث وهو عمدة أهل الكلام المذموم[1]. وأهل الكلام المذموم عامتهم لا يرون قطعيَّة شيء من دلالة الكتاب والسنة، دلالتها كلها عندهم ظنية، فالمتكلمون قد أخذوا علومهم ومصطلحاتهم من الفلاسفة والمناطقة[2]، الذين يرجعون في أصولهم إلى المجوس والنصارى واليهود. وأما القول بأن علم الله حادث فقد اقتبسه الجهم من معبد، ومعبد أخذه من سوسن النصراني، فدل ذلك على مدى تأثر كبار الفرق وأخذه من الأمم الهالكة ، فما بالك بمن جاء بعدهم[3].

وما جاء من الآثار عن عمر بن عبد العزيز تعتبر ردوداً عامة على الجهمية وقد أوردها علماء السلف ضمن ردودهم عليهم كالإمام أحمد والدارمي، وغيرهما من علماء السلف. فعن جعفر بن برقان، قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن بعض الأهواء فقال: انظر دين الأعرابي والغلام في الكتاب فاتبعه والْهَ عما سوى ذلك[4]. وقال: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنَّم وساءت مصيراً[5]. قال عبد الله بن عبد الحكم، فسمعت مالكاً يقول: وأعجبني عزم عمر في ذلك[6]. وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل[7]. وهذه الآثار عن عمر بن عبد العزيز أوردها علماء السلف في ردهم على الجهمية، ولا شك أنها تعتبر رداً على جميع المبتدعة، وذلك في أمره رحمه الله بالتمسك بما تدل عليه الفطرة من إثبات ما للخالق من صفات الكمال ونعوت الجلال، كإثبات الفوقية والعلو، وغير ذلك مما تدل عليه الفطرة السليمة. وكذلك أمره بالنهي عن الخصومات في الدين بغير علم، ولم يقع جهم فيما وقع فيه إلا بسبب الخصومات فيما لا علم له به، فضل وأضل. وكان السلف الصالح يستدلون بما أثر عن عمر بن عبد العزيز في الأخذ بسنن رسول الله ﷺ، وسنن الخلفاء الراشدين من بعده في ردهم على الجهمية مثلما فعله ابن تيمية في الفتوى الحموية حيث ذكر أن أبا القاسم الأزجي

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 420.
(2) تناقض أهل الأهواء والبدع (1/ 133).
(3) المصدر نفسه (1/ 133).
(4) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (2/ 819).
(5) المصدر نفسه (2/ 820).
(6) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 40.
(7) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (2/ 425).

روى بإسناده عن طرف بن عبد الله، قال: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبد العزيز ويذكر الأثر عن رسول الله وولاة الأمر من بعده..
وقال الشاطبي متحدثاً عن هذا الأثر: إنه كلام مختصر جمع أصولاً حسنة من السنة منها قطع مادة الابتداع جملة، ومنها المدح لمتبع السنة وذم لمن خالفها ومنها أن سنة ولاة الأمر وعملهم تفسير لكتاب الله وسنة رسوله فقد جمع كلام عمر أصولاً حسنة وفوائد مهمة[1]، وقد أورد الإمام أحمد في كتابه «الرد على الجهمية» أثر عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر[2] التنقل، وقد أخذت المعتزلة من الجهمية نفي صفات الله والقول بخلق القرآن، وهذا الاتفاق بين الجهمية والمعتزلة على نفي صفات الله والقول بخلق القرآن جعل كثيراً من محققي علماء المسلمين يسمون المعتزلة جهمية، ولهذا لا بد من الحذر عند إطلاق أسماء الفرق بعضها على بعض، لأنه لا يكاد توجد فرقة إلا وتشترك مع أخرى في جانب من الاعتقاد، فلو تجوزنا في إطلاق اسم هذه الفرقة على من شاركها لحصل الالتباس وما استقام المنهج أبداً، إذن لا بد من إطلاق اسم الفرقة على المسمى الصحيح بحيث لا يستعار لغيرها البتة وهذا من ناحية علمية أدق وأسلم[3].

سادساً: المعتزلة:

اسم يطلق على تلك الفرقة التي ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني على يد واصل ابن عطاء[4]، وسلكت منهجاً عقلياً صرفاً في بحث العقائد، وقررت أن المعارف كلها عقلية حصولاً ووجوباً، قبل الشرع وبعده، وهم أرباب الكلام، وأصحاب الجدل[5].

1 - نشأة المعتزلة وسبب التسمية:

دخل رجل على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون مصير أصحاب الكبائر لأمر الله تعالى، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ ففكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام لفوره

---

(1) الاعتصام، نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (2/ 822).
(2) الرد على الجهمية الإمام أحمد، ص: 69.
(3) قضية الثواب والعقاب بين مدارس الإسلاميين، ص: 34.
(4) أبو حذيفة واصل بن عطاء البصري، الغزّال المتكلم، كان من أجلاد المعتزلة وسمع الحسن البصري، له من التصانيف كتاب: أضاف المرجئة، وكتاب: معاني القرآن، وهو من الطبقة الرابعة من طبقات المعتزلة ت 131هـ.
(5) التنبيه والرد للملطي، ص: 50، تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، عبد اللطيف الحفظي، ص: 1.

واعتزل حلقة شيخه إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة[1]، وهذا القول يكاد يجمع عليه مؤرخي الفرق[2]، ولا علاقة بتسمية المعتزلة بالصحابة الكرام لا من قريب ولا بعيد، فالصحابة الذين اعتزلوا الفتنة بين علي ومعاوية وفي الجمل ﷺ لم يسموا معتزلة بالمعنى الاصطلاحي الذي يفهم من مدلول هذه الكلمة وإنما بالمعنى اللغوي، يؤيد ذلك أن المعتزلة الذين نحن بصدد الحديث عنهم إنما سموا بذلك لاعتزالهم مذهب أهل السنة والجماعة، وأصحاب رسول الله ﷺ هم أئمة أهل السنة والجماعة، فكيف يُجعلون سلفاً للمعتزلة الذين اقتفوا أثر العقل دون الشرع؟ وبذلك يعلم خطأ من جعل أصحاب رسول الله سلفاً لهؤلاء المعتزلة، فإن المعتزلة جعلوا الاعتزال ديناً لهم يتعبدون الله تعالى على أساس تعاليمه، وأما أولئك الصحابة اعتزلوا الفتنة طلباً للسلامة من الإثم وصوناً للدماء[3]. وقد تميز المعتزلة عن أهل السنة والجماعة بمدرسة منهجية فكرية خاصة، الهيمنة فيها للعقل وحده بلا منازع وتركوا التمسك بالنصوص الشرعية، التي فيها محض الهدى والعصمة من الانحراف والضلال[4].

2 - فرق المعتزلة:

فلمّا كانت القاعدة الرئيسة التي اعتمد عليها المعتزلة هي العقل به يثبتون وبه ينفون، وبسبب انغماس المعتزلة في الفلسفة اليونانية القائمة على الجدل والخصومة دبَّ الخلاف بين رجال هذه الفرقة، وتشعبت آراؤهم، وتفرقوا إلى اثنتين وعشرين فرقة منها: الواصلية والعمروية والهذلية والنظامية... الخ. ولكل فرقة من هذه الفرق بدع خاصة بها، وكلهم يجتمعون على الأصول الخمسة في الجملة، لكنهم يختلفون في جزئيات داخل هذه الأصول، ولا عجب في ذلك ما دام العقل هو المحكِّم عندهم ولكل اهتماماته المختلفة عن الآخر[5].

3 - دور المعتزلة في إحياء عقائد الفرق التي سبقتها:

أخذت المعتزلة عن ثلاث فرق سابقة عليها، وأحيت بدورها تلك العقائد ولكن بشكل آخر، فأخذت عن الخوارج، وعن القدرية الغلاة، وعن الجهمية[6].

ما أخذته من الخوارج:

أ - حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة: يقول البغدادي: ثم إن واصلاً وعمراً، وافقا

(1) الفرق بين الفرق، ص: 118.
(2) آراء المعتزلة الأصولية، د. علي الضويحي، ص: 71.
(3) المصدر نفسه، ص: 72.
(4) آراء المعتزلة الأصولية، ص: 76.
(5) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 18.
(6) المصدر نفسه، ص: 19.

الخوارج في تأييد عقاب صاحب الكبيرة في النار مع قولهما بأنه موحِّد، وليس بمشرك ولا كافر[1]. من هذا النص يظهر لنا أن المعتزلة أحيت عقيدة الخوارج في صاحب الكبيرة في الآخرة، ولكن لم تحكم عليه بالكفر في الدنيا[2].

ب - الخروج على أئمة الجور: إن مما أجمعت عليه الخوارج: وجوب الخروج على الإمام الجائر بالقوة والسلاح لإزالة الظلم والبغي، وإقامة العدل والحق كما يقولون[3]، وصرفوا نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى منازعة الأئمة والخروج عليهم وقتال المخالفين[4]. وقد أخذت المعتزلة هذا المبدأ عن الخوارج وأحيوه نظرياً تحت أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول أبو الحسن الأشعري: أجمعت المعتزلة - إلّا الأصم - على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان، واليد، والسيف، كيف قدروا على ذلك[5]. وقال في موطن آخر: وأوجبوا الخروج على السلطان على الإمكان والقدرة[6].

ج - قضية التأويل[7]: الخوارج هم أول من فتح باب التأويل الباطل في تاريخ الأمة، فأعملوا التأويل في نصوص الحكم بغير ما أنزل الله، ونصوص الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم جاءت الفرق بعدها فورثت هذا المنهج وطبقته في الاستدلال على بدعها التي أحدثتها، ومن تلك الفرق: المعتزلة التي أعملت التأويل في نصوص الصفات لتقرر التعطيل، بينما لم يكن استعماله في نصوص الصفات عند الخوارج[8]. وقال ابن تيمية: ولم يعرف فيهم - الخوارج - الكلام وتأويل الصفات إلا بعد ظهور المعتزلة[9]. واستخدم المعتزلة التأويل في نصوص القدر، ولم يكن هذا عند الخوارج أيضاً وهكذا، فالخلاصة: أن المعتزلة ورثت منهج التأويل من الخوارج، وعضّت عليه بالنواجذ، وأصبح عندهما قاعدة للتعامل مع نصوص الكتاب والسنة.

*** - القدرية:** وأما عن القدرية، فأخذت عن المعتزلة القول بنفي القدر وأحيته، ولكن

---

(1) الفرق بين الفرق، ص: 119، تأثير المعتزلة، ص: 20.
(2) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 20.
(3) مقالات الإسلاميين (1/ 204) الملل والنحل (1/ 115).
(4) الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام ناصر العقل، ص: 37.
(5) مقالات الإسلاميين (1/ 337) تأثير المعتزلة، ص: 21.
(6) مقالات الإسلاميين (2/ 157) تأثير المعتزلة، ص: 21.
(7) التأويل البدعي: صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره من غير قرينة.
(8) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 22.
(9) المصدر نفسه، ص: 22.

ليس بشكله الغالي الذي يتضمن نفي علم الله تعالى وهو الذي كان عليه القدرية الأوائل، فإن هذا القول قد تلاشى وسقط لسببين:

- قلة عدد القائلين بالقدر على هذا النحو.

- وقوف الصحابة الذين أدركوا هذه المقالة وعلماء التابعين ضد هذه المقولة بحزم، تارة بالبراءة من أهلها كما فعل ابن عمر ﷺ، فقد قال لمن جاء بخبرهم: فأخبرهم إني بريء منهم، وإنهم برآء مني[1]، أو بإهانتهم واحتقارهم، كما فعل طاووس بن كيسان مع معبد الجهني حين رآه في المطاف حيث التفت إلى الناس وقال: هذا معبد فأهينوه[2]، أو بقتلهم وقطع دابر فتنتهم بعد تكفيرهم كما فعل بغيلان الدمشقي حين أصر على هذه العقيدة الفاسدة[3]. لكن المعتزلة أحيت هذه العقيدة بطريقة خففت فيها من غلو السابقين فأثبتت لله تعالى العلم والكتابة، وأنكرت مرتبتي الإرادة والخلق حيث قرروا أن العباد هم الخالقون بأفعالهم، وأنهم يفعلونها بمحض مشيئتهم دون مشيئة الله تعالى[4]. ولهذا لم يكفرهم العلماء كما كفروا القدرية الغلاة السابقين، قال ابن تيمية: وأما القدرية الذين ينفون الكتابة والعلم فكفروهم ولم يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال[5].

* - **الجهمية:** مهد التعاصر والتزامن بين الفرقتين والاتصالات الشخصية التي كانت بين جهم وبعض أصحاب واصل لأخذ المعتزلة من الجهمية عقيدتهم في التوحيد والتي تضمنت:

أ - نفي الصفات: يقول ابن تيمية: ثم أن أصل هذه المقالة - مقالة التعطيل للصفات - إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين.. فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام.. هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه[6]. ثم إن المعتزلة ورثت هذه البدعة من الجهمية وأحيتها ولكن بشكل خففت فيه من غلو الجهمية، فإن الجهمية كانت تنفي عن الله الأسماء والصفات[7]، كما ذكر ابن تيمية: أن الجهم زاد نفي الأسماء على نفي الصفات[8]، أما المعتزلة فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات[9].

---

(1) مسلم، شرح النووي، ك الإيمان (1/ 156).

(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (4/ 637).

(3) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 24.

(4) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص: 117.

(5) الفتاوى نقلاً عن تأثير المعتزلة، ص: 24.

(6) الفتوى الحموية الكبرى تحقيق شريف هزاع، ص: 47، 48.

(7) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 25.

(8) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 25، نقلاً عن الفتاوى.

(9) المصدر نفسه، ص: 25.

ب - القول بخلق القرآن، ونفي رؤية الله تعالى مطلقاً: قال ابن تيمية في المعتزلة: وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك، قالوا: إن الله لا يرى وأن القرآن مخلوق[1]. فهذه جملة ما أخذه المعتزلة عن الفرق السابقة عليها وهم الخوارج والقدرية والجهمية، وقد ظهر دورهم في إحيائها وقد غير المعتزلة في كثير منها حتى تخف الوطأة عليها، كما أنها جمعت لتلك العقائد الأدلة العقلية الفلسفية، ثم جاءت الفرق فأخذت تلك العقائد بصورتها عن المعتزلة واستدلت بأدلة المعتزلة عليها[2].

4 - أصول المعتزلة الخمسة:

اتفق جميع المعتزلة فيما بينهم على أصول خمس عقدية، جعلوها أساساً مهماً لمذهبهم الاعتزالي، وهذه الأصول هي: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]. ومصطلح الأصول الخمسة لم يظهر عند واصل بن عطاء، وإنما أخذ عن تلاميذه واكتمل عند أبي الهذيل العلاف، والذي وصلت به الفرقة إلى ذروة الاعتزال، واكتملت على يديه موضوعاته، وقد كتب في الأصول الخمسة بعض فصول كتبه، ثم تتالت الكتب التي تحمل هذا المصطلح على يد جعفر بن حرب، والقاضي عبد الجبار وغيرهما من رجال المعتزلة[4]، ومع بداية الدولة العباسية نشطت حركة المعتزلة، وبدأوا يرسلون الرسل في الآفاق للدعوة إلى مذهبهم ومعتقدهم، وقد حظي مذهبهم بتأييد بعض الخلفاء العباسيين وخاصة في عهد المأمون، ونترك مناقشة أصول الاعتزال وموقف أهل السنة منها عند حديثنا عن الدولة العباسية بإذن الله تعالى.

المبحث الخامس

حياته الاجتماعية والعلمية والدعوية

أولاً: الحياة الاجتماعية:

اهتمامه بأولاده وأسرته:

أشرف عمر بن عبد العزيز على تربية وتعليم أولاده بنفسه ولم تشغله مسئولياته عن تنشئتهم التنشئة الصالحة، المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي ونستشف ذلك من خلال رسائله لهم، ولمن أوكل إليه تأديبهم.

---

(1) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 26، نقلاً عن الفتاوى.
(2) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 26.
(3) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 26، آراء المعتزلة الأصولية، ص: 79.
(4) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د. النشار (1/ 417) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص: 27.

1 - ربطهم بالقرآن الكريم:

ربط عمر بن عبد العزيز أولاده بالقرآن الكريم وكان يأذن لهم يوم الجمعة بالدخول عليه قبل أن يأذن للناس ليتدارس معهم القرآن الكريم: فإذا قال: إيها[1] قرأ الأكبر منهم، ثم إذا قال: إيها، قرأ الذي يليه حتى يقرأ طائفة منهم[2].

2 - تعهدهم بالنصيحة:

فقد أرسل في العام الذي استخلف فيه إلى ابنه عبد الملك، وهو إذ ذاك في المدينة يقول فيما قال فيها: . . . فمن كان راغباً في الجنة وهارباً من النار - يقصد عبد الملك وأخوته - فالآن التوبة مقبولة، والذنب مغفور، قبل نفاذ الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ من الله للمنقلبين ليدنيهم بأعمالهم في موضع لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المعذرة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يردده الناس بأعمالهم، ويصدرون عنه أشتاتاً إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله، وويل يومئذ لمن عصى الله[3]. وفي موضع آخر من هذه الوصية يحث ولده على ذكر الله وشكره عَزَّوَجَلَّ ومراقبته في القول والعمل، فيقول: . . فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميداً، وتسبيحاً، وتهليلاً فافعل، فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً حمد الله وشكره، وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمداً لله وذكره[4].

3 - الحث على التسامح وحسن الظن:

كان رحمه الله يحثهم على التسامح وحسن الظن في الناس، فإن بعض الظن إثم، فيروى قال مرة لابنه عبد العزيز: إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم، فلا تحملها على شيء من الشر.

4 - الأسلوب اللين والمحاورة العاقلة:

كان رحمه الله يتعامل معهم بالأسلوب اللين، دون أن ينصرف إلى التدليل الذي يفسد الأبناء ويحاورهم محاورة العقلاء ويستخدم أسلوب الإقناع والمنطق في التفاهم معهم، وتلبية طلباتهم[5]، فيروى أن ابنه عبد الله استكساه ذات مرة وهو خليفة، فأرسله إلى الخيار بن رباح البصري وقال له: خذ مما عنده لي من ثياب. فلم تعجبه فعاد إلى أبيه وقال: يا أبتاه استكسيتك، فأرسلتني إلى الخيار بن رباح، فأخرج لي ثياباً ليست من ثيابي ولا من ثياب

---

(1) قوله: (إيها) إشارة البدء في القراءة وكذلك الذي يليه.

(2) سياسة عمر بن عبد العزيز في رد المظالم، ص: 52.

(3) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 298.

(4) المصدر نفسه، ص: 298.

(5) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص: 101.

قومي، فقال: ذاك ما لنا عند الرجل. فانصرف عبد الله، فما كان عمر رَحِمَهُ اللهُ الأب المربي، إلا أن اتخذ موقفاً وسطاً مقنعاً، فجمع بين إجابة طلب ولده، وأنه لا يتوفر كل مطلوب أو مرغوب دائماً: فناداه قبل أن ينصرف وقال له مخيراً إياه: هل لك أن أسلفك من عطائك مئة درهم؟ قال: نعم يا أبتاه، فأسلفه مائة درهم فلما خرج عطاؤه حُوسب بها فأخذت منه[1]، ومما يروى أيضاً في حسن إجابته لأولاده وإقناعهم، أن ابنة له بعثت إليه بلؤلؤة وقالت له: إن رأيت أن تبعث لي بأخت لها حتى أجعلها في أذني، فلم يرد عليها بالإجابة ولا بالرفض، وإنما الأمر مرتبط بصبرها على الجمر، إذ أرسل لها بجمرتين وقال لها: إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت إليك بأخت لها[2]، فكان جواباً مقنعاً لها[3].

5 - حرصه على العدل بينهم:

وما يذكر من حسن معاملته رَحِمَهُ اللهُ لأولاده، حرصه على العدل بينهم مع كثرتهم، حتى لا يحقد أحدهم على الآخر أو يبغضه، فقد تحرى رَحِمَهُ اللهُ العدل حتى إيثاره لابن الحارثية أن ينام معه، إذ تركه خشية أن يكون جوراً[4]، وفي هذا الصدد يروى عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قوله: كان عمر بن عبد العزيز له ابن من امرأة من الحارث بن كعب، وكان يحبه وينام في بيته، قال: فتعرضت له ذات ليلة، فقال: أعبد العزيز؟ قلت: نعم. قال: شرٌّ ما جاء بك؟ ادخل، فجلست عند شاذكونته[5]، وهو يصلي.. فأتاني فقال: ما لك؟ فقلت: ليس أحد أعلم بولد الرجل منه، وإنك تصنع بابن الحارثية ما لا تصنع بنا، فلست آمن أن يقال ما هذا إلا من شيء تراه عنده ولا تراه عندنا. فقال: أعلمك هذا أحد؟ فقلت: لا. قال: فأعد عليّ. فأعدت عليه. فقال: ارجع إلى بيتك. فرجعت، فكنت أنا وإبراهيم وعاصم وعبد الله - وهم من أخوانه - نبيت جميعاً فإذا نحن بفراش يحمل وتبعه ابن الحارثية - وهو أخوهم - فقلنا: ما شأنك؟ قال: شأني ما صنعت بي، قال: كأنه خشي أن يكون جوراً[6].

6 - تنمية الأخلاق الفاضلة عندهم:

كان يحرص على تنمية الأخلاق الفاضلة عند أولاده ويتحين الفرص لتحقيق ذلك ما استطاع، ففي سياق رسالته رَحِمَهُ اللهُ إلى ولده عبد الملك، وهو في المدينة ينهاه عن التفاخر

---

(1) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي، ص: 312.
(2) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 134.
(3) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 101.
(4) المصدر نفسه، ص: 102.
(5) الشاذكونة: هي ثياب غلاظ مضربة تعمل باليمن.
(6) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 52، 53.

والمباهاة في الكلام، والإعجاب بالنفس، والغرور والتعالي على الناس، فيقول له: . . وإياك أن تفخر بقولك، وأن تعجب بنفسك أو يخيل إليك أن ما رزقته لكرامة لك على ربك، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك[1].

7 - تربية أولاده على الزهد والاقتصاد في المعيشة:

تتجلّى شخصية عمر رحمه الله التربوية بقدرته على جعل أولاده يتقبلون التحول من فترة النعيم إلى فترة الزهد والتقشف، وأن يقنعهم بالعيش كعامة الناس، بدلاً من حياة الترف والرفاهية، فمن أول إجراءاته أن جاء في سياق رسالته التربوية لابنه عبد الملك وهو في المدينة والتي جاء فيها: . . فإن ابتلاك الله بغنى اقتصد في غناك، وضع لله نفسك، وأد إلى الله فرائض حقه من مالك - يقصد الزكاة والصدقة وعدم الإسراف - وقل كما قال العبد الصالح: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 40]. وكانت هذه الرسالة عقب توليه الخلافة مباشرة، في حين لا تزال فترة النعيم والرفاهية قائمة، إذ اتبع أسلوباً تربوياً رائعاً في ذلك، حيث أخذ الأمر بالتدرج، فأشعره بأن الغنى وكثرة المال ابتلاء من الله عز وجل، ثم أمره بالاقتصاد فيما هو فيه من الغنى، ثم قرن الأمر بالتواضع لله وأخيراً أكد على ضرورة أداء حق الله، من زكاة الأموال والصدقات وامتثال أمر الله عز وجل [2]. وفي موقف آخر، إذ بلغه رحمه الله أن ابناً له اتخذ خاتماً، واشترى لهذا الخاتم فصاً بألف درهم، فكتب إليه عمر: أما بعد: فقد بلغني أنك اشتريت فصّاً بألف درهم، فبعه، وأشبع ألف جائع، واتخذ خاتماً من حديد صيني، واكتب عليه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه[3]. ونلاحظ أن عمر ربط أمره ببيع الفص بوجود جائعين وحاجتهم للإشباع ليكون ذلك أجدى لإدراك مغزى الأمر، والتحري في إنفاق الأموال مستقبلاً، وليكن أمر الفقراء والمساكين نصب أعين أبنائه دائماً[4]، وذات يوم طلب أحد أبناء عمر بن عبد العزيز إلى أبيه أن يزوجه، وأن يُصدق عنه من بيت المال - وقد كان لابنه ذلك امرأة - فغضب رحمه الله لذلك، وكتب يقول: لقد أتاني كتابك تسألني أن أجمع لك بين الضرائر من بيت المال، وأبناء المسلمين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها، فلا أعرفن وما كتبت بمثل هذا. . ثم كتب إليه أن انظر إلى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا فبعه، واستعن بثمنه على ما بدا لك[5]. ولم يقتصر الأمر على الذكور من أولاده، بل شمل الذكور والإناث، ويُروى أن ابنة لعمر بن عبد العزيز يقال لها

---

(1) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص: 314.

(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص: 106.

(3) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 298.

(4) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 106.

(5) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 106.

«أمينة» مرت به يوماً، فدعاها عمر: يا أمينة، فلم تجبه فأمر بها، فقال: ما منعك أن تجيبي؟ فقالت: إني عارية - أي ملابسها ليست حسنة - فقال: يا مزاحم انظر إلى تلك الفرش التي فتقناها، فاقطع لها منها قميصاً[1]، هذا عن كساء بنات عمر، أما عن طعامهن، فيروى ابن عبد الحكم أن عمر: كان يصلي العتمة[2]، ثم يدخل على بناته فيسلم عليهن، فدخل عليهن ذات ليلة فلما أحسنَّه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب، فقال للحاضنة: ما شأنهن؟ فقالت: إنه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن، فبكى عمر. ثم قال لهن: يا بناتي ما ينفعكن أن تعشين الألون، ويمر بأبيكن على النار، فبكين حتى علت أصواتهن ثم انصرفن[3]. وكان عمر بدأ الانتقال بأهل بيته من فترة الرفاه والتنعيم إلى فترة القناعة والزهد في الدنيا، بأن وضع حلي ومجوهرات زوجه فاطمة بنت عبد الملك في بيت المال، إذ قال لها: اختاري، إما أن تردي حليَّك إلى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد. قالت: لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه إن كان لي[4].

* - **اهتمامه بتعليم أولاده:** أولى عمر رحمه الله تعليم وتأديب أولاده جانباً من الاهتمام، إذ اتبع إجراءات تعليمية جعل منها منهجاً جديراً يلبي حاجات الناشئ المسلم،ليكون موحد الذات والأهداف، غير منقسم على نفسه بين القول والعمل، أو بين الواقع والمثال[5]، حيث تتضح معالم ذلك المنهج في رسالته ﷺ إلى معلمهم ومؤدبهم مولاه سهل بن صدقة، إذ قرر اختياره وتكليفه بمهام تعليم وتأديب أولاده، ثم حدد الطريقة المثلى للتأديب[6]، فقد قال: من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى سهل مولاه. أما بعد: فإني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك من غيرك من مواليّ وذوي الخاصة بي، فحدثهم بالجفاء، فهو أمعن لإقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك، فإن كثرته يميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم، أن حضور المعازف[7] واستماع الأغاني واللهج[8] بها ينبت النفاق في القلب، كما ينبت العشبَ الماء، ولعمري لتوقي ذلك بترك

---

(1) حلية الأولياء (5/ 261) النموذج الإداري، ص: 108.
(2) العتمة : هي الثلث الأول من الليل، والعتمة : وقت صلاة العشاء.
(3) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 48، 49.
(4) الطبقات (5/ 330) النموذج الإداري، ص: 109.
(5) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 110.
(6) المصدر نفسه، ص: 110.
(7) المعازف : هي الملاهي والآلات مما يضرب. العازف: اللاعب والمغني.
(8) اللهج بالشيء : الولوع به والاعتماد عليه.

حضور تلك المواطن، أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت في قراءته، فإذا فرغ، تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض[1] حافياً، فرمى سبعة أرشاق[2] ثم انصرف إلى القائلة[3]، فإن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول: يا بَني قيلوا، فإن الشياطين لا تَقيل[4]. ونلاحظ من هذه التوجيهات الأمور الآتية:

1 - اختيار المعلم والمؤدب الصالح:

فالمعلم أو المربي يعد حجر الزواية في عملية التعليم، فقد اختار معلم أولاده من خاصته ومواليه وعلى علم به وثقة فيه، ولم يكتف عمر بمولاه سهل لتأديبهم وتعليمهم بل عهد بتأديبهم أيضاً إلى أستاذه ومؤدبه الأول صالح بن كيسان[5]. ولم يقف حرص عمر رحمه الله على تعليم أولاده وأدبهم عند هذا الحد، بل اختار من كبار علماء عصره من يختبر عقل أولاده وأدبهم عند هذا الحد، فقد كلف ميمون بن مهران أن يأتي ابنه عبد الملك فيستشيره وينظر إلى عقله. قال ميمون: فأتيناه - يعني عبد الملك بن عمر - فاستأذنت عليه فقعدت عنده ساعة، فأعجبت به[6].

2 - تحديد المنهج التعليمي:

حدد عمر بن عبد العزيز المنهج التعليمي والمقررات الدراسية التي يريد لأولاده أن يتعلموها، حيث يتكون من القرآن الكريم وعلومه، وبقية العلم من العلوم الأخرى، والتدريب على الجهاد والقتال والصبر عليه، وكذلك التمرين على الرماية ودقة الإصابة وممارسة الرياضة البدنية بالسير إلى الأهداف حفاة ليعتادوا على ذلك مع ما يحتويه المنهج من أوقات للراحة، أما حجم المقرر اليومي فجزء واحد من القرآن الكريم بتثبت ووعي بالإضافة إلى ما يتناسب مع ذلك الجزء من علوم الدين الأخرى، وكذلك الرمي بسبعة أرشاق مع ما يتطلبه ذلك من السير إلى أغراض والسير بينها فكان منهج ذا أهداف سامية، إذ يجمع بين الدين والدنيا، ويراوح بين البدن والروح، والقول والعمل[7]، تلك أهداف ارتدت عنها خائبة جلّ برامج التعليم والتربية الحديثة[8].

---

(1) الغرض: هو الهدف الذي ينصب فيرمي فيه، والجمع أغراض.

(2) الرشق: هو الرمي بالسهم والنبل، والرشق: هو الشوط من الرمي.

(3) القائلة: هي الظهيرة أو نصف النهار، والقيلولة: الاستراحة عند نصف النهار.

(4) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 296، 297.

(5) تذكرة الحفاظ (1/ 148).

(6) سيرة ومناقب عمر بن العزيز لابن الجوزي، ص: 302.

(7) النموذج الإداري، ص: 113.

(8) النموذج الإداري، ص: 114.

3 - تحديد طريقة التأديب والتعليم:

لم يقف عمر بن عبد العزيز عند اختيار معلم أولاده، وتحديد مواد المنهج التعليمي، بل امتد الأمر إلى رسم الطريقة التي ينبغي لمؤدب أولاده اتباعها، وكيفية التنفيذ ودقة الأداء وإتقان العمل، ففي سياق رسالته ﷺ. طلب إلى سهل أن يلتزم الجد في قوله لهم، فذلك أمعن لإقدامهم وأحرز لانتباههم، وطلب إليه كمؤدب لهم أن يترك صحبتهم، فإن عادتها تكسب الغفلة، ولتبقى مكانته عندهم، فليس للمعلم أن يتخذ من تلاميذه أصدقاء وأصحاب له يودعهم أسراره، ويشاركهم وقته وحياته، فقد لا تعجبهم مواقفه، فيكون ذلك، أدعى للاستهانة به، وعدم الاستجابة لما يطلب منهم[1]، وربما يؤدي ذلك إلى عدم الاكتراث بالمعلم، والغفلة عما يقوله من العلم، كما طلب عمر إلى مؤدب أولاده أن يكون في أدبه لهم ما يصرفهم عن الملاهي وحضور المعازف وسماع الغناء، لما لها من الأثر السيء في حياة المسلم، ويلاحظ أن عمر لا يصدر أمراً، أو يحدد طريقة أو أسلوباً حتى يوضح ما دفعه لذلك، وما فائدته وجدواه[2].

4 - تحديد أوقات وأولويات التعليم:

ومما اشتمل عليه المنهج الذي حدده عمر بن عبد العزيز في رسالته لمؤدب أولاده ما يسمى بإدارة الوقت، إذ حدد برنامجاً يومياً يبدأ الأولاد ومؤدبهم في تنفيذه من الصباح الباكر بجزء من القرآن الكريم، فكان البدء بالقرآن في الفترة الصباحية، ولما فيها من صفاء ذهن التلميذ، بعد أخذ قسطاً من الراحة في ليلته، فجعل أولوية القرآن الكريم في وقت صفاء الذهن والاستعداد الجيد للمتعلم، كما ربط الانتقال إلى المادة الأخرى من البرنامج اليومي بالتثبت والإتقان، ثم جاء توقيت الخروج بين الأغراض وممارسة متطلبات الرماية، ويكون الخروج للرمي بعد العلم، وهم في شوق إليه، فيتحقق لهم بذلك أعلى درجات الكفاءة والإتقان، ويأتي في ختام البرنامج اليومي فترة القيلولة، تلك الفترة الضرورية لراحة البدن والنفس والعقل[3].

5 - مراعاة المؤثرات التعليمية:

راعى عمر بن عبد العزيز كل ما له ارتباط بالعلم، وما له تأثير على الفهم وحسن التلقي، وما يزيد من إدراك العقل من قريب أو بعيد، فكان أول أمر اهتم به وبتأثيره على علم أولاده وأخلاقهم وأدبهم هو: معلمهم وجدوى علمه، واقتداؤهم بأدبه وخلقه، والأمر الثاني:

---

(1) النموذج الإداري، ص: 114.

(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 117.

(3) المصدر نفسه، ص: 118.

مراعاة ما قد يسببه اللين وعدم التزام الجد في القول، وإكثار الضحك، والهزل واللعب أحياناً، من التباطؤ في أداء متطلبات التعليم، من إقدام وعلوّ همة، وفهم وإدراك بالكفاءة المطلوبة، والثالث: ما ينجم عن تيار المجون والملاهي والغناء، وحضور المعازف، من ضياع وقت أولى أن يكون للعلم، وتبلد الإحساس العلمي، ورابعها: مراعاة النواحي النفسية للناشئين، وما قد يصيبهم من الملل، وتأثير ذلك على المستوى المطلوب من الفهم، وضرورة الترويح عن النفس ساعة بعد ساعة، وجعل وقتاً للراحة بين الحين والآخر، وأخيراً الاهتمام بالمردود الإيجابي للرياضة وممارسة الرماية والسير بين الأغراض على الجسم وصحته والعقل وسلامته والذهن وصفائه[1].

● - من نتائج منهج عمر بن عبد العزيز في تربية أولاده: ابنه عبد الملك:

من نتائج منهج عمر في تربية أولاده ذلك النموذج الرباني المتمثل في ابنه عبد الملك، ويعتبر عبد الملك نموذجاً للشباب الذي عاش في رغد العيش، وسعة الرزق، ورفاهية الحياة، فحياته مثال لكثير من أبناء المسلمين الذين كانوا على شاكلته وإليك شيء من مواقفه:

1 - عبادته وبكاؤه: عن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان، وهو ابن أخي عمر ابن عبد العزيز قال: وفدت إلى سليمان بن عبد الملك، ومعنا عمر بن عبد العزيز، فنزلت على ابنه عبد الملك وهو عزب، فكنت معه في بيت فصلينا العشاء، وأوى كل رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه، ثم قام يصلِّي، حتى ذهب بي النوم، فاستيقظت فإذا هو في هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: 205-207]. فبكى، ثم يرجع إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك، حتى قلت: سيقتله البُكاءُ، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله، كالمستيقظ من النوم لأقطع ذلك عليه، فلما سمعني سكت فلم أسمع له حِسًّا[2] رحمه الله.

2 - علمه وفقهه وفهمه: جمع عمر بن عبد العزيز الناس واستشارهم في رد مظالم الحَجّاج، فكان كلما استشار رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، ذاك أمر كان في غير سلطانك ولا ولايتك، فكان كلما قال له رجل ذلك أقامه، حتى خلص بابنه عبد الملك، فقال له ابنه عبد الملك: يا أبَهْ ما من رجل استطاع أن يردَّ مظالم الحجّاج إن لم يردها أن يشركه فيها. فقال عمر: لولا أنك ابني، لقلت أنك أفقه الناس، وهذا الذي قاله عبد الملك، ومدحه عليه أبوه، وهو الصواب، فإن الإمام إذا قدر على رد مظالم من قبله من الولاة وجب عليه ذلك بحسب الاستطاعة[3].

(1) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 119.

(2) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (2/ 479).

(3) المصدر نفسه (2/ 481).

وقد كان عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك من العلماء الذين جمعوا بين العلم بالله الذي يقتضي خشيته ومحبته والتبتل إليه، وبين العلم بالله الذي يقتضي معرفة الحلال والحرام والفتاوى والأحكام[1].

3 - تذكيره والده بالموت: مات ابن لعمر بن عبد العزيز، فجاء عمر فقعد عند رأسه، وكشف الثوب عن وجهه فجعل ينظر إليه ويستدمع، فجاء عبد الملك ابنه فقال: أشغلك يا أمير ما أقبل من الموت إليك؟ بل هو في شغل عما حل لديك، فكأن قد لحقت به وساويته تحت التراب بوجهك. فبكى عمر ثم قال: رحمك الله يا بني، فوالله، إنك لعظيم البركة ما علمتك على أبيك نافع الموعظة لمن وعظت، وأيم الله، إن كان الذي رأيت من جزعي على أخيك، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل داري فراعني دخوله، فكان الذي رأيت، ثم أمر بجهازه[2].

4 - صلابته في الدين وقوته في تنفيذ الحق: قال ميمون بن مهران قال: بعث إليّ عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبي قلابة فقال: ما ترون في هذه الأموال التي أخذت من الناس ظلماً؟ فقال مكحول يومئذٍ قولاً ضعيفاً، فكرهه فقال: أرى أن تستأنف فنظر إليَّ عمر كالمستغيث بي، فقلت: يا أمير المؤمنين، ابعث إلى عبد الملك، فأحضره. فإنه ليس بدون من رأيت. فلما دخل عليه قال: يا عبد الملك، ما ترى في هذه الأموال التي أخذت من الناس ظلماً، وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها؟ قال: أرى أن تردّها فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها[3].

5 - مرضه وموته رحمه الله: دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه في وجعه - من الطاعون - فقال: يا بني، كيف تجد؟ قال: أجدني في الحق. قال: يا بني، إن تكن في ميزاني أحبُّ علي من أن أكون في ميزانك. فقال ابنه: وأنا يا أبه لئن أكون ما تحب أحب إليّ من أن يكون ما أحب[4]. وحين دفن ابنه خطب على قبره فقال: رحمك الله يا بني، فلقد كنت برًّا بأبيك، وما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً، ولا والله ما كنت أشدَّ سروراً ولا أرجى لحظي من الله فيك، منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليه، فرحمك الله وغفر ذنبك وجزاك الله بأحسن عملك وتجاوز عن مسيئه، ورحم كلَّ شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب، رضينا بقضاء الله وسلّمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين. ثم انصرف[5]. ثم كتب إلى نائبه على الكوفة

---

(1) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (2/ 487).
(2) المصدر نفسه (2/ 481).
(3) المصدر نفسه (2/ 488).
(4) المصدر نفسه (2/ 495).
(5) المصدر نفسه (2/ 495).

كتاباً ينهى أن يناح على ابنه، كما كانت عادة الناس حينئذٍ في الناحية على الملوك وأولادهم وفي ذلك الكتاب كان فيه: أن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبداً من عباد الله، أحسن الله إليه في نفسه، وأحسن إلى أبيه فيه، أعاشه الله ما أحبّ أن يعيشه، ثم قبضه إليه حين أحب أن يقبضه، وهو فيما علمت بالموت مرتبط، نرجو فيه من الله، رجاء حسناً، فأعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله فإن خلاف ذلك لا يصح في بلائه عندي وإحسانه إلي ونعمته علي، ثم قال: أحببت أن أكتب إليك بذلك وأعلمكه من قضاء الله فلا أعلم، من ينوح عليه في شيء من قبلك، ولا اجتمع على ذلك أحد من الناس، ولا رخصت فيه لقريب ولا بعيد، واكفني في ذلك بكفاية الله ولا ألومنَّك فيه - إن شاء الله - والسلام عليك[1]. وجاء في رواية: لما هلك عبد الملك بن عمر قال أبوه: يا بني، لقد كنت كما قال الله عز وجل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46]. وإني لأرجو أن تكون اليوم من الباقيات الصالحات التي هي خير ثواباً وخير أملاً. والله ما يسرني أني دعوتك فأجبتني[2].

وقد توفي عبد الملك بن عمر وكان عمره تسع عشرة سنة[3]. وكان عمر بن عبد العزيز يثني على ولده، وقال لابنه ذات يوم: يا عبد الملك إني أخبرك خبراً: لا والله ما رأيت فتى ماشياً قط أنسك منك نسكاً ولا أفقه فقهاً ولا أقرأ منك، ولا أبعد في صبوة في صغير ولا كبير[4]. وقال عمر بن عبد العزيز: والله لولا أن يكون بي زينة من أمر عبد الملك ما يُزين في عين الوالد من ولده لرأيت أنه أهل للخلافة[5]، وجاء في رواية: إن عبد الملك لما توفي جعل أبوه يثني عليه عند قبره، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، لو بقي كنت تعهد إليه؟ قال: لا، قال: لم وأنت تثني عليه؟ قال: أخاف أن يكون زُيِّن في عيني منه ما يُزيِّن في عين الوالد من ولده، وقال ميمون بن مهران: ما رأيت ثلاثة في بيت خيراً من عمر بن العزيز، وابنه عبد الملك، ومولاهم مزاحم. هذا من نتائج المنهج التربوي والعلمي الذي سار عليه عمر في تربية أولاده.

● - حياته مع الناس:

1 - اهتمامه بإصلاح المجتمع:

كان اهتمامه بإصلاح المجتمع كبيراً وعمل على إزالة ما يتفشى فيه من المنكرات، وقد كتب في ذلك إلى أحد ولاته كتاباً طويلاً بليغاً، نورد بعض فقراته للأهمية وعظيم الفائدة، وفيه يقول: أما بعد فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله

(1) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (2/ 496).
(2) المصدر نفسه (2/ 496).
(3) المصدر نفسه (2/ 498).
(4) المصدر نفسه (2/ 499).
(5) المصدر نفسه (2/ 499).

بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنَّقمات ما قمع فيهم أهل الباطل، واستخفي فيهم بالمحارم، فلا يظهر من أحد منهم محرَّم إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي والمداهنين لهم، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم، فإني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزَّل من كتابه عند مَثُلَة أهلك بها أحداً نجَّى أحداً من أولئك، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصبهم من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقم، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر وبالظالم من الظالم، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين، أو أن يجعلنا مداهنين للظالمين، وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم وأمن الفسَّاق في مدائنكم وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله تعالى من فعله، ولا يرضى المداهنة فيه، كان لا يُظهِر مثلَه علانية قوم يرجون لله وقاراً ويخافون منه غيراً، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم، بل كانوا كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]. ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54]. ولعمري إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء، وإنما سبيل الله طاعته، ولقد بلغني أنه بطأ الكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال: فلان حسن الخلق قليل التكلُّف، مقبل على نفسه، وما يجعل الله أولئك أحسانكم أخلاقاً، بل أولئك أسوأكم أخلاقاً، وما أقبل على نفسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولا سلم من الكلفة لها بل وقع فيها، إذ رضي لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

ففي هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التي لا تتخلف، وهي أن أيَّ مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم فلا بد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث - أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدي من يشاء من عباده، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار، أو يصيبهم الله بالخوف والجوع والذل وأنواع النِّقم والمصائب. ويبين عمر في هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصي المجاهرين ليس من عمل الصحابة ﷺ، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصي، ويذكر أن من الجهاد في سبيل الله تعالى الغلظة على منتهكي محارم الله والإنكار عليهم بالأيدي والألسن وإن كانوا من أقرب الأقارب، وهذا التوسع في معنى الجهاد له أدلته

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 160.

الشرعية مثل قول الله جل وعلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم: 9]. وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة في معاملتهم[1]، ويصحح عمر في هذا الكتاب مفهوماً خاطئاً عند بعض الناس، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه، حيث يبين أن هذا سيء الخلق، حيث يتعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم، ويرد على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجتها في الجنة بل أقبل على هلكتها، حيث أن السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها وقد توررده إلى النار، وإذا كان في مفهوم الناس أن الساكت قليل التكلف فإنه قد تكلف أمراً عظيماً حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]، وكانت كتب عمر بن عبد العزيز كلها في إصلاح المجتمع كما جاء في خبر إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: ما كان يقدم على أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قَسْم أو تقدير عطاء أو خير، حتى خرج من الدنيا[3].

2 - تذكيره الناس بالآخرة:

خطب عمر بن عبد العزيز ذات يوم فقال: إني لم أجمعكم لأمر أحدثته، ولكني نظرت في أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون فوجدت المصدِّق به أحمق، والمكذب به هالكاً، ثم نزل[4]. وهذه خطبة بليغة على قصرها، فإنها تذكرة حية بمصير الإنسان بعد الموت، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم، ثم لا يعد العدة الكافية لذلك اليوم يعتبر حقاً أحمق حيث لم يستعمل عقله في الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه[5]، ومن خطبه في تذكير الناس بالموت والآخرة، فقد بين عمر في بعض خطبه أن الإنسان خلق للأبد ولكنه من دار إلى دار قال عمر: إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون[6]. وقال في إحدى خطبه: يا أيها الناس، لا تغرنكم الدنيا والمهلة فيها، فعن قليل عنها تنقلون وإلى غيرها ترحلون، فالله الله عباد الله في أنفسكم فبادروا بها الفوت قبل حلول الموت، ولا يطل بكم الأمد، فتقسوا قلوبكم فتكونوا كقوم دعوا إلى حظهم فقصروا عنه بعد المهلة، فندموا على

---

(1) التاريخ الإسلامي (15، 16/ 130).
(2) المصدر نفسه (15، 16/ 130).
(3) طبقات ابن سعد (5/ 342).
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 42.
(5) التاريخ الإسلامي (15، 16/ 118).
(6) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (2/ 448).

ما قصروا عند الآخرة[1]، وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن الموت والآخرة والاستعداد للقاء الله كثيراً في خطبه ومواعظه رحمه الله.

3 - تصحيح المفاهيم الخاطئة:

قال عمر في إحدى خطبه: أما بعد أيها الناس فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يستعتب من شيء ولا يزيد في حسن، ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره ثم قال: إنه لحبيب عليّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولا قوة إلا بالله[2]. ففي هذه الخطبة يُذكر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة، فإن من وافته منيته قامت قيامته، فلينظر إلى الموت الذي قد يفاجئه في أية لحظة، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التي سوّد بها صحيفته، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبَّض به صحيفته، ويندم حينما لا ينفع الندم على ما فاته في حياته يوم أن كان قادراً على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح، ثم يبين أن السلامة كل السلامة في اتباع سنة رسول الله ﷺ، وهذا بيان لأحد عنصري العمل الصالح وهم الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة، وهو بهذا يعالج واقعاً لا ينقص العمل فيه الإخلاص وإنما ينقصه اتباع السنة، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضي الله عنهم، وفساد بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التي لا تتفق مع أهوائهم، ثم بين أحد العواصم التي تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة حيث قال: ولا طاعة لمخلوق في معصية الله. فإذا كان بعض الولاة قد تسوّل لهم نفوسهم الأمارة بالسوء أو مجاملة الآخرين بأن يأمروا الناس بمعصية الله، أو يمهدوا السبل لذلك، فإنه لا طاعة لهم، وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات وهو ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة، فإذا تحددت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد في المجتمع وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح. ثم يبين أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصياً ليس له اعتبار في النظر الشرعي لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التي يتخذها للخلاص من الظلم، وأولى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم، وكون عمر يبين هذا وهو في أعلى موقع من المسئولية - كخليفة - دليل على تجرده من حظ النفس ومن العصبية للقرابة، وإخلاصه لله تعالى ثم يصف

---

(1) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (2/449).

(2) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 43.

الواقع الاجتماعي الذي اختلطت فيه العادات بالدين والبدع بالسنن، ونشأ عليه أفراد المجتمع، وتربّى على توجيهه من أسلم من العجم، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبوه هو الدين، وحينما يختلط العرف الاجتماعي فيتسرب إلى العرف الإسلامي بعض الأعراف الجاهلية فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع وتتشربه قلوبهم لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائرة، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلّصوا العرف الاجتماعي الإسلامي من تلك الأخلاط المتسرّبة المتراكمة على مر الزمن، لأن كل انحراف له أنصاره ومؤيدوه، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاحهم ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات، لأن كونها موروثات يعطيها في نظر بعض الناس شيئاً من القداسة، ولكن حينما ينبع الإصلاح من أعلى قمة في المسئولية كما هو الحال في عهد عمر بن عبد العزيز فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول، لأن معه ما خوله الله تعالى من طاعة الرعية ما دام في طاعة الله تعالى إلى جانب قوة السلطان المعهودة(1).

4 - إنكاره العصبية القبلية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمٰن، وكان مما جاء في كتابه: إن ما هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية، ورجال أمروا حديثاً، ظاهر جفاؤهم قليل علمهم بأمر الله اغتروا فيه بالله غرة عظيمة، ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً، وغيروا فيه نعمه تغييراً لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه وذكر لي أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضر وإلى اليمن، يزعمون أنهم ولاية على من سواهم، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر، قاتلهم الله أية منزلة نزلوا، ومن أي أمان خرجوا، أو بأي أمر لصقوا ولكن قد عرفت أن الشقي بنيته يشقى، وأن النار لم تخلق باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قول الله في كتابه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: 10]. وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3]. وقد ذكر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، لا حلف في الإسلام قال: وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصناً أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، تحذيراً بعد تحذير،

(1) التاريخ الإسلامي (15، 16/ 121).

وأذكرهم تذكيراً بعد تذكير وأشهد عليهم الذي آخذ بناصية كل دابَّة، والذي هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد، وإني لم آلُكم بالذي كتبت به إليكم نصحاً مع إني لو أعلم أن أحداً من الناس يحرّك شيئاً ليُخذله به أو ليدفع عنه - أحرص - والله المستعان - على مذلته من كان: رجلاً أو عشيرة أو قبيلة أو أكثر من ذلك، فادع إلى نصيحتي وما تقدمت إليكم به، فإنه هو الرشد ليس له خفاء، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عوناً بألسنتهم، وإن كثيراً من الناس لا يعلمون: نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وأُلفتنا وذات بيننا والسلام[1]. في هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافاً خطيراً طرأ على المجتمع الإسلامي آنذاك، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تعمر أفكارهم بالعلم الشرعي، فقد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التي تقوم على القبائل والعشائر، فيعطي الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو بالباطل وسواء بالعدل أو بالظلم، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها، حتى أصبحوا بها إخوة في الله متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وسادوا بجماعتهم العالم، وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين يتحاربون بينهم بدعوى قبلية، مما سبب تأخراً في تقدم الجهاد، وجرأ أصحاب البلاد المفتوحة على الانتقاض على المسلمين مرة بعد مرة، ووصلت الحال في بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة في تلك البلاد قرب أفراد قبيلته وقواهم وتقوى بهم، فتحدث الفتنة وتثور القبائل الأخرى، وما ذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التي هي نعمة كبرى على المسلمين، واتخاذ الروابط الجاهلية بديلاً عنها[2].

5 - رفضه للقيام بين يديه:

لما ولي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه، فقال: يا معشر المسلمين إن تقوموا نقم وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وإن الله فرض فرائض وسن سنناً، من أخذ بها لحق ومن تركها مُحِق[3]. أراد عمر أن يقضي على العادات الموروثة التي أشبه بها الولاة آنذاك الأكاسرة والقياصرة، وعزم صارم على العودة بالأمة إلى منهج الخلفاء الراشدين، وعمر هنا يحجِّم دافعين قويين يدفعانه إلى مجاراة عشيرته في مظاهرهم.. أولهما طموح النفس نحو الظهور وفرض السلطة والهيبة في قلوب الناس، وثانيهما رغبة عشيرته الملحة في الإبقاء على هذه المظاهر، وتشنيعهم عليه في مخالفة ما كان عليه أسلافه، ولكنه تغلب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوي، وكان الدافع الذي يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص: 103 - 106.
(2) التاريخ الإسلامي (15، 16/ 124).
(3) تاريخ دمشق، نقلاً عن التاريخ الإسلامي (15/ 114).

الدنيوية هو خوفه من الله تعالى ورغبته فيما عنده، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل الدنيوي، وكان هذا الدافع أقوى بكثير من الجواذب الأرضية، فنجح في إلجام نفسه عن هواها وإسكات أصحاب المظاهر الخادعة، وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن تكون عليه الولاة والعلاقة بينهم وبين الرعية. وفي قوله: إن الله فرض فرائض بيان لأسباب السعادة والشقاوة الحقيقية في الدنيا والآخرة، فمن طبقها لحق بركب المتقين في الدنيا، وأكرم به من رفقة صالحة ، وسيق يوم القيامة إلى رضوان الله تعالى والجنة وأكرم به من مآل وعاقبة[1].

6 - تقديره أهل الفضل:

ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فقال له: من أنت؟ فقال مرتجلاً:

أنا ابن الذي سالت على الخدِّ عينه فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الرَّدِّ

فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حُسْنَها عيناً ويا حُسْنَ ما رَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله وأحسن جائزته ﷺ[2]. ففي هذا الخبر موقف لأمير عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيه ﷺ في هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز في المجال الأخلاقي، وذلك بتقدير أهل الفضل، والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ما حدث لقتادة ﷺ من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله في القتال وتعرضه للمهالك، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية[3]. ومن تقديره لأهل الفضل ما قام به لزياد مولى ابن عياش، فقد قدم عليه زياد مولى ابن عياش، وأصحاب له، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم، فدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخلافة، ثم ذكر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: والأولى لم تضرني، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال: إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد، فلما قضي زياد ما يريد خرج، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلَّطَ عليه - وهو به غير عارف - ففعل

(1) التاريخ الإسلامي (15، 16/ 115).
(2) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 96، التاريخ الإسلامي (15، 16/ 22).
(3) التاريخ الإسلامي (15، 16/ 23).

الخازن ما أمر به، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعاً وثمانين درهماً أو بضعاً وتسعين درهماً، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال[1].

ففي هذا الخبر صور من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله وتقديره للعلماء الربانيين فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى لقب عند المسلمين، والمناصب لها فتنة يقع في حبائلها من اغتروا بالجاه والمنزلة الدنيوية، أما أقوياء الإيمان فإن شخصيتهم لا تتغير بعد المنصب بل يظلون على ما هم عليه من التواضع، وربما زادوا تواضعاً في مقابلة احترام الناس لهم. ثم هو ثانياً نزل من مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الرباني زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وكون ذلك العالم من الموالي لا ينزل من قدره ابن عمر، فإن العبرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب، وموقف كريم لهذا العالم الرباني حيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مكن منه، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع، وحين ما تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعف عن متاع الدنيا الذي يتنافس عليه الصغار، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة الخالد الذي يتنافس فيه الكبار[2].

7 - المرء بأصغريه قلبه ولسانه:

كان بين وفد المهنئين لعمر بالخلافة من أهل الحجاز غلام صغير وكان الوفد قد اختار الغلام ليتكلم عنهم، وهو أصغرهم، فلما بدأ بالكلام قال له عمر: مهلاً يا غلام ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد استجاد له الحلية[3]، يا أمير المؤمنين لو كان التقدم بالسن لكان في الأمة من هو أسن منك - أي أحق بمجلسك هذا ممن هو أكبر منك سناً[4].. فقال عمر: تحدث يا غلام، قال: نعم يا أمير المؤمنين، نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة[5]، قدمنا إليك من بلدنا، نحمد الله الذي منَّ بك علينا لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا، وأما الرهبة فقد أمّننا الله بعدلك من جورك[6]، فأعجب عمر بفصاحة الغلام وعلمه، وسداد رأيه، فما كان من عمر إلا أن شجعه على ذلك، وزاده ثقة بنفسه وجراءة ليكون هذا الحادث موقفاً تربوياً يتعلم فيه الغلام في حضرة خليفة المسلمين، فطلب منه الموعظة فقال: عظنا يا غلام وأوجز، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن أناساً من الناس غرهم

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 53 التاريخ الإسلامي (15/ 24).
(2) التاريخ الإسلامي (15/ 24).
(3) استجاد له الحلية : استحق أن يتكلم.
(4) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص: 79.
(5) الإرتزاء : انتقاص الشيء والمرزئة : الرزيئة وهي المصيبة.
(6) مروج الذهب (3/ 197).

حلم الله عنهم، وطول أملهم وحسن ثناء الناس عليهم، فلا يغرنك حلم الله عنك، وطول أملك وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك، ثم نظر عمر في سن الغلام فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة، فأنشأ يقول:

تعلم فليس المرء يولد عالماً　　وليس أخو علم كمن بات جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده　　صغير إذا التفت عليه المحافل[1]

8 - امرأة مصرية مسكينة تشتكي لعمر:

كان عمر يتابع أمور المسلمين ويفتح الأبواب على مصرعيها لسماع أخبارهم، فقد كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحداً من الناس إذا خرج كتاباً إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتاباً تذكر فيه أن لها حائطاً قصيراً، وأنه يقتحم عليها فيسرق دجاجها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرتِ من قصر حائطك وأنه يدخل عليك فيسرق دجاجك، فقد كتبت كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل - وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها - آمره بأن يبني لك ذلك يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصنه لها[2].

9 - اهتمامه بفداء الأسرى:

كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية: أما بعد: فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أنني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه وأني قد بعثت إليكم خمسة دنانير ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حركم ومملوككم بما سئل به، فأبشروا ثم أبشروا والسلام عليكم[3]. وفي هذا الكتاب يتجلى سمو أخلاق عمر وعظيم شعوره بالمسئولية كنموذج راقٍ لحاكم مسلم الذي يخاف الله فيراعيه، ويتقي الله في حقوق رعيته بمنتهى الإخلاص والأمانة حيث واسى أسرى

(1) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص: 98.
(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 163 - 164، التاريخ الإسلامي (15/ 77).
(3) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 163، 164.

المسلمين لدى الروم، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي أمدهم به، وأزاح الهمّ عنهم وبما أخبرهم به من كفالة أسرهم في حال غيبتهم، كما أنه وعدهم جميعاً بمفاداتهم لفك أسرهم، وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره[1].

10 - قضاء ديون الغارمين:

كتب إلى عماله: أن اقضوا عن الغارمين فكتب إليه: إن نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الأثاث في بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم، فاقضوا عنه ما عليه من الدين[2]، ففي هذا الخبر يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة، والاهتمام بشئون الرعية، وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة، حيث يغنون بها فقيرها ويجبرون به كسيرها، ويفكون بها أسيرها، ويقضون به عن معسرها، ويسدون به خلة معوزها[3].

11 - خبر الأسير الأعمى عند الروم:

أرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولاً، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمر بموضع فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام - مرتين أو ثلاث - ثم سلم عليه فقال له: وأنّى بالسلام في هذا البلد، فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم، قال له: ما شأنك؟ فقال: إني أُسرت في موضع كذا وكذا، فأتى بي إلى صاحب الروم، فعرض علي النصرانية فأبيت، وقال لي: إن لم تفعل سملت عينيك، فاخترت ديني على بصري، فسمل عيني وصيرني إلى هذا الموضع، يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة آكلها، فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل، قال: فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلّت ما بين يديه، ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم: أما بعد، فقد بلغني خبر فلان بن فلان، فوصف له صفته، وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثنَّ إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك وآخرها عندي. ولما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به، قال: فأقمت أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل

---

(1) التاريخ الإسلامي (15/ 77).

(2) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 163، 164.

(3) التاريخ الإسلامي (15/ 77).

عن سريره أعرف في وجهه الكآبة، فقال: تدري لم فعلت هذا؟ فقلت: لا - وقد أنكرت ما رأيت - فقال: إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات، ولذلك فعلت ما فعلت، ثم قال: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلاً حتى يخرج من بين أظهرهم. فقلت له: أتأذن لي أن أنصرف - وأيست من بعثه الرجل معي فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه الرجل[1].

12 - المرأة العراقية التي فرض لبناتها من بيت المال:

قدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا فَلِجِي إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها، وفي يدها قطن تعالجه، فَسَلمت فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلي، فلما جلست المرأة رفعت بصرها ولم تر شيئاً له بال، فقالت: إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب فقالت لها فاطمة: إنما خرب هذا البيت لِعمارة بيوت أمثالك، قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئر في ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت - وهو يكثر النظر إلى فاطمة - فقالت لها المرأة: استتري من هذا الطيّان فإني أراه يديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين. قال: ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته، فمال إلى مصلى كان له في البيت يصلي فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هي هذه، فأخذ مكتلاً له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ثم أقبل عليها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسْلٌ كُسْد، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهنَّ، فجعل يقول: كسل كسد، ويبكي، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي العراق، فقال: سمي كبراهنّ، فسمتها ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففرض لهنّ، فلما فرض للأربعة استفزها الفرح فدعت له فجزته خيراً، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهنّ حيث كنت تولين الحمد أهله، فمري هؤلاء الأربع يفضن على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق، فدفعته إلى والي العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه في شيء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها[2].

13 - إحياؤه لسنة العطاء:

قال عمر بن عبد العزيز: إنه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم فارفعوهم إلينا واكتبوا لنا كل

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 168.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 169.

منفوس[1] نفرض له[2]. وفي رواية أخرجها ابن سعد من خبر أبي بكر بن حزم قال: كنا نخرج ديوان أهل السجون فيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز، وكتب إليّ: من كان غائباً قريب الغيبة فأعط أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة، فأعزل عطاه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه، أو يوكل عندك بوكالة ببينة على حياته فادفعه إلى وكيله[3]. وبهذا أحيا عمر بن عبد العزيز سنة العطاء الإسلامي التي كانت في عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية ﷺ ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم، فلما قسم عمر بن عبد العزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقفه[4] وإصلاحاته التجديدية.

14 - إغناؤه المحتاجين عن المسألة:

قدم على عمر بن عبد العزيز بعض أهل المدينة فجعل يسأله عن أهل المدينة، فقال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه يا أمير المؤمنين، قال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه وأغناهم الله. قال: وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط للمسافرين[5]، فالتمس ذلك منهم بعد، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز[6]. وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِمَت القلة المتمكنة من الإسراف وأصبح ما يصرف لفرد من هذه الفئة يصرف لعشرات المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات من لم يكن يصل إليها قبل فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التي كانت تُدِرُّ عليهم مبالغ زهيدة[7].

15 - دفع المهور من بيت المال:

اهتمّ عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك، فقال أبو العلاء: قُرِئَ كتاب عمر بن عبد العزيز ﷺ في مسجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[8]. وهذا قرار مهم في إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية، وقد يكون المهر عائقاً لبعض الفقراء دون الزواج،

---

(1) أي مولود في حال نفاس أمه.
(2) طبقات ابن سعد (5/ 346).
(3) المصدر نفسه (5/ 348).
(4) التاريخ الإسلامي (15، 16/ 138).
(5) الخبط نوع من ورق الشجر تأكله الإبل.
(6) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 151).
(7) التاريخ الإسلامي (15/ 138).
(8) طبقات ابن سعد (5/ 374).

خصوصاً في حال غلاء المهور، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك فإنها تسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب[1].

16 - جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع:

قال يونس بن أبي شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد وقد جاء أشراف الناس حتى حُفُّوا بالمنبر وبينهم وبين الناس فرجة، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم، فلما رأى الفرجة أومأ إلى الناس: أن تقدموا فتقدموا حتى اختلطوا بهم[2]. لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية ﷺ على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك، وسرى ذلك في الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلاً للجلوس مع أفراد الطبقات المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم «الأشراف». ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى في المساجد التي من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام لما في ذلك من زيادة الثواب، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجلِّ اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع، فذلك بأن يضع من سمعة الطبقات العالية وأن يزيل كبرياءهم، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة وأن يقوي معنوياتهم ويزيل شعورهم بالضعف، فكان من جهوده في ذلك المساواة بينهم في العطاء ولا شك أن المال له أهمية كبرى في الرفع من شأن الناس وخفضهم، وهذا الخبر يبين لنا اهتمامه في هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقتربوا من الخاص، ويختلطوا بهم حتى تزول تلك الفجوة بين المسلمين التي خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم[3].

17 - شعوره الكبير بالمسئولية تجاه أفراد المجتمع:

قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر:.. إن عمر ﷺ كان قد فَرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، وكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته، إلى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه، فدعا بسراجه الذي كان من ماله، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائماً، فدنوت منه فقلت: يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال: أجل فعليك بشأنك وخلِّني وشأني، قالت: فقلت إني أرجو أن أتّعظ، قال: إذاً أخبرك، إني نظرت فوجدتُني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير،

---

(1) التاريخ الإسلامي (15/ 139).

(2) طبقات ابن سعد (5/ 387).

(3) التاريخ الإسلامي (15/ 140).

وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائلي عنهم، وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم، فخفت أن لا يقبل الله تعالى مني معذرة فيهم، ولا تقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة، فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني، ووجع لها قلبي، فأنا كلما ازددت لها ذكراً ازددت منها خوفاً، فاتَّعظي إن شئت أو ذَرِي[1]. وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسئولية التي تحملها حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات، بالرغم مما يبذله من جهد متواصل في التعرف على أحوال الأمة، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشي أن يكون قد لقي من المسلمين من لم تُرفع إليه حاجته، فيكون مسئولاً عنه في تذكره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد، فأصبح ذلك دامعاً له إلى العدل والرحمة، والمبالغة في تفقد أحوال الأمة وفي بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل، وقد عصمه الله تعالى لهذا الخوف، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات، وقوي أمام جميع التحديات، فكلما عظم عليه خَطْبٌ خَطَبَ بالناس وذكر بالنار والحساب فهان عليه كل خطب عظيم وصغر في نظره كل أمر جسيم[2].

18 - في الإنفاق على الذمي إذا كبر ولم يكن له مال:

الإسلام دين العدالة والسماحة والاهتمام بالضعيف، والإسلام يهتم بكل من يعيش على أرضه ولو كان على غير دين الإسلام، وعمر بن عبد العزيز يُجَسِّد هذه القيم الرفيعة بتطبيقه أحكام هذا الدين فيقرر أن الذمي إذا كبر ولم يكن له مال ولا حميم ينفق عليه فإن نفقته في بيت مال المسلمين[3]، فقد روى ابن سعد: قال عمر بن بهرام الصرّاف: قرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطأة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه[4].

19 - أكله مع أهل الكتاب:

كان عمر بن عبد العزيز يجعل كل يوم من ماله درهماً في طعام المسلمين ثم يأكل معهم، وكان ينزل بأهل الذمة فيقدمون له من الحلبة المنبوتة والبقول وأشباه ذلك مما

(1) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 170، التاريخ الإسلامي (15/ 107).
(2) التاريخ الإسلامي (15/ 108).
(3) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 353).
(4) الطبقات الكبرى (5/ 380).

كانوا يضعون من طعامهم فيعطيهم أكثر من ذلك ويأكل معهم، فإن أبوا أن يقبلوا ذلك منه لم يأكل منه[1].

20 - عمر والشعراء:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، فبينما هم كذلك وقد أزمعوا على الرحيل إذ مر بهم رجاء بن حيوة - وكان من خطباء أهل الشام - فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

يا أيها الرجل المرخي عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، ثم مرّ بهم عدي بن أرطأة، فقال له جرير:

يا أيها الرجل المرخي مطيته هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أنّي لدى الباب كالمصفود في قرن
لا تنس حاجتنا لقّيت مغفرة قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدي مالي وللشعراء، قال: أعز الله أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ أسوة، قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أو تروي من قوله شيئاً؟ قال: نعم، فأنشده يقول:

رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونورت بالتبيان أمراً مدلساً وأطفأت بالقرآن ناراً تضرماً

قال: ويحك يا عدي، من بالباب منهم، فذكر له أسماء الشعراء، عمر بن عبد الله بن ربيعة، والفرزدق، والأخطل وجرير، فرد الجميع إلا جرير فسمح له بالدخول، فدخل جرير وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة للإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه حتى أرعوى فأقام ميل المائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل

فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقل إلا حقاً[2]، فأنشأ جرير يقول:

---

(1) حلية الأولياء (5/ 315 - 316) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 356).

(2) المنتظم (7/ 37).

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني بما بُلِّغْتَ من خبري
كم باليمامة من شعثاءَ أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنَّظَرِ
ممن يعدُّكَ تكفي فقد والِدِه ... كالفَرْخَ في العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأنَّ به ... خبلاً من الجِنِّ أو مساً من البشر
خليفة الله ماذا تأمرون بنا ... لسنا إليكم ولا في حار منتظر
ما زلت بعدك في هم يُؤرقني ... قد طال في الحيِّ إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يعود لنا بادٍ على حضر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً ... كما أتى ربَّهُ موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضَّيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا ... بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: يا جرير ما أرى لك فيما ها هنا حقاً، قال: بلى يا أمير المؤمنين أنا ابن سبيل ومنقطع. فأعطاه من صلب ماله مائة درهم... ثم خرج، فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيت رُقَى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا[1]

وهذا منهج جديد في عهد الدولة الأموية للتعامل مع الشعراء فقد كان الشعراء يمدحون الملوك والأمراء طلباً لرفدهم، ويدخلون في قصائدهم المبالغات والكذب إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فقصدوه، فكان موقفه من الشعراء كما تبين من الخبر المذكور، فقطع تلك العادة التي تفسد بنية المجتمع وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة من الكذب والتغرير والنفاق، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته[2]، ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين[3].

21 - تأثره بشعر الزهد وعلاقته بسابق البربري:

قرّب عمر بن عبد العزيز من الشعراء من التزم شعر الزهد وذكر الموت والخوف من الآخرة

(1) المنتظم (7/ 99).
(2) التاريخ الإسلامي (15/ 174).
(3) التاريخ الإسلامي (15/ 174).

ويبدو أن أقرب الشعراء لقلب عمر هو سابق البربري[1]، فكان يعظ عمر وينشده الشعر فيتأثر عمر ويبكي، وذات يوم دخل سابق البربري وهو ينشد شعراً فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات:

فكم من صحيح بات للموت آمناً ... أتته المنايا بغتة بعدما هَجَع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة ... فراراً ولا منه بقوَّتِهِ امتنع
فأصبح تبكيه النساء مُقَنَّعاً ... ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
وقُرِّبَ من لحدٍ فصارَ مقيله ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع

قال الرواي ميمون بن مهران: فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غشي عليه فقمنا، فانصرفنا عنه[2].

وقد قال سابق البربري قصيدة طويلة فيها مواعظ وحكم، تأثر بها عمر بن عبد العزيز تأثراً بالغاً. وهي:

بسم الذي أنزلت من عنده السُّوَرُ ... والحمد لله أما بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المجلوب وارض به ... وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئٍ عيش يُسَرُّ به ... إلا سيتبع يوماً صفوه كدر
واستخبر الناس عما أنت جاهله ... إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر
قد يرعوي المرء يوماً بعد هفوته ... وتحكم الجاهلَ الأيام والعبر
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته ... وطالب الحق قد يُهدى له الظَّفرُ
وفي الهدى عبرٌ تشفى القلوبُ بها ... كالغيث ينضُر عن وسميِّه[3] الشجر
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ماله بَصرُ
والرُّشد نافلة تُهدى لصاحبها ... والغيُّ يكره منه الوِرْدُ والصَّدر[4]
وقد يوبق[5] المرءَ أمرٌ وهو يحقره ... والشيءُ يا نفسُ ينمى وهو يُختَصرُ
لا يشبع النفس شيء حين تحرزه ... ولا يزال لها في غيره وطر
ولا تزال، وإن كانت لها سعة ... كما تُغيِّرُ لون اللمة الغِيَر[6]

---

(1) شاعر من الزهاد له كلام في الحكمة والرقائق وهو من موالي بني أمية، والبربري لقلب له ولم يكن من البربر سكن الرقة، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز، الأعلام (3/ 69).

(2) الكتاب الجامع لسيرة عمر (2/ 612) سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال حمزة، ص: 184.

(3) الوسمي: المطر في أول الربيع.

(4) الورد: الماء الذي يورد والقوم يردون الماء، الصّدر: الرجوع عن الماء.

(5) يوبق: يُهلك من وبق.

(6) الغِيَر: كما تغير الأحداث.

وكل شيء له حال تغيره ... لها إلى الشيء لم تظفر به نظر
والذكرُ فيه حياة للقلوب كما ... يحيي البلاد إذا ما ماتت المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يُجلّي سوادَ الظلمةِ القَمَرُ
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً ... وهل يلين لقول الواعظ الحجر؟
والموت جسرٌ لمن يمشي على قدم ... إلى الأمور التي تخشى وتُنتظَرُ
فهم يمرّون أفواجاً وتجمَعُهم ... دار إليها يصير البدو والحَضَرُ
من كان في معقل للحِرز[1] أسلمه ... أو كان في خمر لم ينجه خَمَرُ
حتى متى أنا في الدنيا أخو كَلَفٍ ... في الخير مني لَذَّاتِها صَعَرُ[2]
ولا أرى أثراً للذكرِ في جسدي ... والماء في الحجر القاسي له أثَرُ
لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي ... كما يُؤرِقني للعاجل الشَّهَرُ
إذا لداويت قلباً قد أضرّ به ... طول السقام ووهن العظم ينجبرُ
ما يلبثُ الشيءُ أن يبلى إذا اختلفت ... يوماً على نقضه الروحات والبَكَرُ[3]
والمرءُ يصعد ريعان الشباب به ... وكل مصعدة يوماً ستنحدر[4]
وكل بيت خراب بعد جِدَّتِهِ ... ومن وراء الشباب الموت والكِبَرُ
بينا يُرى الغُصن لَدْناً[5] في أرومته ... ريان أضحى حُطاماً جوفه نَخِرُ
وكم من جميع أشَتَّ الدهر شملَهُمُ ... وكل شمل جميع سوف ينتثِرُ
وربَّ أصيد سامي الطرف معتصب ... بالتاج نيرانه للحرب تستعر
يظل مفترِشَ الديباج محتجباً ... عليه تبني ثباب الملكِ والحَجرُ
قد غادرته المنايا وهو مستلب ... مُجَدَّل ترب الخدين منعفِر[6]
أبعد آدم ترجون البقاء وهل ... تبقى فروع لأصل حين ينعقر
لهم بيوت بمستن السيول وهل ... يبقى على الماء بيت أُسُّه مَدَرُ
إلى الفناءِ – وإن طالت سلامتهم ... مصير كل بني أنثى وإن كثروا
إنَّ الأمور إذا استقبلتَها اشتبهت[7] ... وفي تدبرها التبيان والعِبَرُ

---

(1) الحِرز: المكان المنيع يُلجأ إليه.
(2) صَعَر: صعر خده، أماله كبراً.
(3) الروحات والبكر: روحة من الرواح ويقابله الصباح البكر: أول النهار.
(4) أي بعد كل صعود نزول: ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.
(5) لدنا: طرياً ليناً.
(6) مُجَدَّلٌ: جَدَّل: صرع، وفي حديث علي ﷺ: يعز علي أبا محمد أن أراك مجدّلاً تحت النجوم.
(7) اشتبهت: اشتبه اختلط الأمر عليه.

والمرء ما عاش في الدنيا له أملٌ ... إذا انقضى سفر منها أتى سفر
لها حلاوةُ عيشٍ غيرُ دائمة ... وفي العواقب منها المرُّ والصَّبْرُ
إذا انقضت زمر آجالها نزلت ... على منازلها من بعدها زُمر[1]
وليس يزجرُكُم ما توعظون به ... والبُهْمُ يزجرها الراعي فتنزجر[2]
أصبحتم جَزَراً للموت يقبضكم ... كما البهائم في الدُّنيا لها جزر
لا تبطروا واهجروا الدُّنيا فإن لها ... غِباً وخيماً، وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالأُلى كانوا لكم غُرَرا ... وليس من أمة إلا لها غُرَرُ[3]
حتى تكونوا على منهاج أولكم ... وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا
مالي أرى الناس والدنيا مولية ... وكل حبل عليها سوف ينبتر[4]
لا يشعرون بما في دينهم نَقَصوا ... جهلاً وإن نقصا دنياهم شعروا[5]

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتمثل بالشعر كثيراً ومن تلك الأبيات التي ترنّم بها:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له ... من الله في دار القرار نصيب[6]

ومن ذلك أيضاً:

تُسَرُّ بما يَبْلى[7] وتفرح بالمنى ... كما اغتر باللذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلُكُ نوم والرّدَى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبَّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم[8]

وذات يوم نظر عمر بن عبد العزيز، وهو في جنازة إلى قوم قد تلثَّموا من الغبار والشمس، وانحازوا إلى الظلِّ، فبكى وأنشد:

من كان حين تصيب الشمسُ جبهته ... أو الغبارُ يخاف الشَّينَ والشعثا
ويألف الظلَّ كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوماً راغماً جدَثا
في قعر مُظلمةٍ غبراء موحشةٍ ... يطيل في قعرها تحت الثَّرى لُبْثا

---

(1) الزمر: مفردها زمرة وهي الفوج والجماعة.
(2) انزجر: انقاد - أي أن الحيوانات تنقاد لراعيها إذا دعاها.
(3) الغُرر: غُرّة: وغرة القوم: شريفهم وسيدهم.
(4) ينبتر: انبتر: انقطع.
(5) سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال، ص: 187، الكتاب الجامع لسيرة عمر (1/ 81).
(6) البداية والنهاية (12/ 707).
(7) يبلى: يفنى.
(8) البداية والنهاية (12/ 707).

تـجـهَّـزي بـجـهـاز تـبـلُـغـيـن بـه يا نفس قبل الرّدى لم تُخلقي عبثا[1]

22 - بين الشاعر دكين بن رجاء وعمر بن عبد العزيز:

قال دكين: امتدحت عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائم صعاب[2]، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنتشر عليَّ، ولم تطب نفسي ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مُضر، فسألتهم الصحبة، فقالوا: إن خرجت في ليلتك، فقلت: إنّي لم أودِّع الأمير، ولا بدَّ من وداعه، قالوا: إنّه لا يحتجب عن طارق ليل، فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت وعنده شيخان أعرفهما، فودّعته. فقال لي: يا دكين، إنَّ لي نفساً توّاقة فإن أنا صرت إلى أكثر ممّا أنا فيه، فبعَيْنٍ ما أرَيَنَّك، فقلت: أشهد لي عليك بذلك، فقال: أُشهد الله به، قلت: ومن خلقه؟ قال: هذين الشخصين، فأقبلت على أحدهما فقلت: من أنت أعرفُك؟ قال: سالم بن عبد الله، قلت: لقد استسمنت الشاهد، وقلت للآخر: من أنت؟ قال: أبو يحي مولى الأمير[3]، فخرجت بهنَّ إلى بلدي، فرمى الله في أذنابهنَّ بالبركة حتى اعتقدت منهنَّ الإبل والغلمان فإني لبصحراء فلج[4]، إذ ناعٍ ينعى سليمان بن عبد الملك، قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز، فتوجهتُ نحوه، فلقيني جرير بالطريق جائياً من عنده، فقلت: يا أبا حزرة من أين؟ فقال: من عند من يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، ولكن عوِّل عليه في مال ابن السبيل، فانطلقت فإذا هو في عرصة داره[5] قد أحاط به الناس، فلم يمكنّي الرِّجْل إليه، فناديت:

يـا عـمـر الـخـيـرات والـمـكـارم وعُـمـر الـدَّسـائـع الـعـظـائـم[6]
إنِّـي امـرؤٌ مـن قـطـن بـن دارم أطـلـب دَيْـنِ مـن أخ مـكـارم
إذ نـنـتـجـي والله غـيـر نـائـم فـي ظـلـمـة الـلـيـل ولـيـل عـاتـم[7]

عند أبي يحيي وعند سالم:

فقام أبو يحيي فقال: يا أمير المؤمنين، لهذا البدوي عندي شهادة عليك، قال: أعرفها: ادنُ منّي يا دُكين، أنا كما ذكرت لك، إنَّ نفسي لم تنل أمراً إلا تاقت إلى ما هو فوقه، وقد نلت

(1) البداية والنهاية (12/ 706).
(2) الصعاب: جمع صعبة، وهي نقيض الذلول: والصعبة التي لم
(3) الشعر والشعراء لابن قتيبة (2/ 611).
(4) فلج: موضع في الصحراء.
(5) عرصة الدار: وسطها.
(6) الدسائع: العطايا والرغائب الواسعة.
(7) ننتجي: نتناجى.

غاية الدنيا، فنفسي تتوق إلى الآخرة، والله ما رزأت من أموال الناس شيئاً فأعطيك منه، وما عندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدهما، فأمر لي بألف، فوالله ما رأيت ألفاً كان أعظم بركة منه[1]. ودكين هو القائل:

إذا المرء لم يدنس من اللُّؤم عِرضُهُ ... فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يُضرع عن اللُّؤم نَفْسَهُ ... فليس إلى حسن الثَّناء سبيل[2]

● - من معالم عمر بن عبد العزيز في التغيير الاجتماعي:

ومن خلال حياة عمر بن عبد العزيز الاجتماعية يمكننا معرفة معالم منهجه في التغيير الاجتماعي والتي من أهمها:

1 - القدوة:

حيث ضرب من نفسه مثالاً رائعاً في الزهد والورع ومحاسبة النفس والأهل والعشيرة وإقامة الشرع على نفسه ومن حوله.

2 - التدرج والمرحلية:

حيث أخذ بسنة التدرج في الإصلاح الإجتماعي، وإماتة البدع وإحياء السنن، كما مرّ معنا.

3 - فهم النفوس البشرية:

ولهذا كان يتبع مع الناس أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، ويرغّب ويرهب، ويعطي شيئاً من الدنيا لتهدئة النفوس ثم أخذها للحق وإقامة العدل وإزالة الظلم.

4 - ترتيب الأولويات:

فقد قدم رد المظالم على غيرها من الأعمال، ولهذا انتهج سياسة واضحة في رد المظالم، بدأ بنفسه، ثم أهله وعشيرته، وعزل الولاة الظلمة وعين الأخيار من أهل الكفاءة والأمانة والعلم، لإقامة العدل وتطبيق الشرع.. الخ.

5 - وضوح الرؤية في خطواته الإصلاحية:

حيث جدّد مفهوم الشورى وبيعة الحاكم وحق الأمة في الاختيار، عمل على توكيل الأمناء على الولايات، نشره للعدل في كافة الدولة، إحياؤه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حرصه على سلامة معتقد الأمة الصحيح ومحاربته للمعتقدات الفاسدة، اهتمامه بالعلماء وتوظيفه لخدمة الإسلام من خلال الدعوة والعلم والتعليم والتزكية، . . .الخ من الأعمال في

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (2/ 612). (2) المصدر نفسه (2/ 612).

مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع، حيث كان يملك رؤية إصلاحية تجديدية شاملة، كما سوف يتضح من خلال هذا الكتاب.

6 - التقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية:

وهدي الخلفاء الراشدين في رؤيته الإصلاحية، وبذلك يمكننا القول بأن وضوح الرؤية انبثق من خلال ثوابت راسخة متمثلة في المرجعية الشرعية للرؤية الإصلاحية الشاملة التي قام بها عمر بن عبد العزيز، والتي من جوانبها الحياة الإجتماعية.

ثانياً: عمر بن عبد العزيز والعلماء:

كانت أيام سليمان بن عبد الملك بداية لمشاركة العلماء في مسؤوليات الدولة وقربهم من مصدر القرار السياسي وتأثيرهم فيه، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز - أصبحت مشاركة العلماء في إدارة شؤون الدولة قوية فعالة، وشاملة متنوعة، فعلى رأس الدولة عمر وهو يعد من أبرز العلماء وكبار الفقهاء وساس الدولة، كعالم وليس كملك، وتوسعت دائرة مشاركة العلماء في عهده فبدأت في مركز اتخاذ القرار في العاصمة حيث أحاط عمر نفسه بجملة من العلماء للإشارة عليه ومعاونته وأبعد من سواهم، فأصبحوا فرسان الحلبة وحدهم، فساهموا في صياغة سياسة الدولة صياغة شرعية خالصة، وامتدت مشاركتهم في المسئولية إلى بقية مرافق الدولة، فأسندت إليهم مختلف المناصب والأعمال، ولا يعدو القول الحقيقة إذا قلنا إن الدولة في عهد عمر بن عبد العزيز كانت دولة العلماء، فهي نموذج لما ينبغي أن تكون عليه الدولة الإسلامية اتحدت فيها السلطة التشريعية مع السلطة التنفيذية على أحسن حال[1]، وقد اتسعت مشاركة العلماء في عهد عمر بن عبد العزيز بشكل لم يسبق له مثيل في الدولة الأموية، ويرجع السبب في ذلك إلى أمور أهمها: حرص عمر على تقريب العلماء وجعلهم بطانته ووزراءه وأعوانه، ويتعلق السبب الآخر بالعلماء حيث لم ير أحد من العلماء لنفسه أي مبرر في البعد عن عمر والمشاركة في أعماله، فمن كان منهم اعتزال الخلفاء والأمراء من منطلق أن على العلماء أن يصونوا العلم ولا يذهبوا للسلاطين ابتداء بل على السلاطين أن يقدروا العلم والعلماء ويسعوا إليهم، من كان يرى ذلك فقد تحقق له شرطه حيث كان عمر يقصد العلماء ويبعث إليهم، ومن كان يرى اعتزال الخلفاء والأمراء خوفاً على دينه من مخالطتهم لم يعد لهذا المحذور وجود حيث إن مجالس عمر ومخالطته تعين المرء على دينه، لهذا أخبر العلماء على عمر ورأوا أن من الواجب عليهم تحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقه، ولم يعد لمعتذر عذر، بل أقبلوا عليه[2]، وقالوا كما ذكر ابن عساكر: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 114. (2) المصدر نفسه، ص: 196.

حتى يخالف فعله قوله[1]. فهذا ميمون بن مهران الذي يقول: لا تدخل على سلطان وإن قلت آمره بطاعة والذي يقول: لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه ومع هذا لا يجد لنفسه بداً من العمل عند عمر بن عبد العزيز ومشاركته[2]. وتتجلى مشاركة العلماء في عهد عمر في عدة مظاهر أهمها:

1 - قربهم من الخليفة وشد أزره للسير في منهجه الإصلاحي:

أسهم العلماء في مساعدة عمر بن عبد العزيز في السير في منهجه الإصلاحي حيث أيدوه فيما اتخذه من قرارات إصلاحية، كما كان لبعضهم أثر في اتخاذ عمر لبعض تلك القرارات. فمن ذلك ما أثر عن العالم العامل عراك بن مالك[3]، فقد ذكر ابن عمه أنه كان من أشد أصحاب عمر بن عبد العزيز على بني مروان في انتزاع ما حازوا من الفيء والمظالم من أيديهم، وقد تعرض بسبب هذا الموقف لغضب بني أمية فيما بعد فنفاه يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة إلى دهلك[4]. وكان عراك بن مالك الغفاري شيخاً كبيراً ومحدثاً تابعي ثقة من خيار التابعين، وكان زاهداً عابداً وقد انتفع به أهل تلك الجزيرة التي نفي إليها[5]، وكان هذا التابعي الجليل يسرد الصوم قال فيه عمر بن عبد العزيز: ما أعلم أحداً أكثر صلاة من عراك بن مالك، وقد مات في منفاه رحمه الله في إمرة يزيد بن عبد الملك عام 104هـ[6]، وكان ميمون ابن مهران من المقربين من عمر بن عبد العزيز فقد روى ابنه عمر بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: ما زلت ألطف في أمر الأمة وأنا وعمر بن عبد العزيز حتى قلت له: ما شأن هذه الطوامير التي تكتب فيها بالقلم الجليل وهي من بيت المال، فكتب إلى الآفاق لتركه فكانت كتبه نحو شبر[7]. وميمون بن مهران قال عنه الذهبي: الإمام الحجة عالم الجزيرة ومفتيها[8]، وقال عنه عمر بن عبد العزيز: إذا ذهب هذا وضرباؤه، صار الناس بعده رجراجة[9]، وكان يكبر عمر بن عبد العزيز بعشرين سنة[10]، وكان ميمون بن مهران من علماء السلف وله مواقف وأقوال في

---

(1) مختصر تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 197.

(2) البداية والنهاية، نقلاً عن أثر العلماء، ص: 197.

(3) عراك بن مالك الغفاري المدني، أحد العلماء العاملين.

(4) جزيرة في بحر اليمن ضيقة حرجة كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها، سير أعلام النبلاء (5/ 64).

(5) انتشار الإسلام في القرن الإفريقي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص: 38، 39.

(6) سير أعلام النبلاء (5/ 64).

(7) سير أعلام النبلاء (5/ 133).

(8) سير أعلام النبلاء (5/ 71).

(9) رجراجة: رعاع الناس وجهالهم، سير أعلام النبلاء (5/ 72).

(10) سير أعلام النبلاء.

نصرة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن أقواله: لا تجالسوا أهل القدر، ولا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، ولا تَعَلَّموا النجوم[1]. وكتب ذات يوم إلى عمر بن عبد العزيز: إني شيخ كبير رقيق، كلَّفتني أن أقضي بين الناس، وكان علي الخراج والقضاء بالجزيرة، فكتب إليه: إني لم أكَلِّفك ما يُعنِّيك اجْبِ الطَّيِبَ من الخراج، واقضي بما استبان لك، فإذا لُبس عليك شيء، ارفعه إليّ، فإن الناس لو كَبُر عليهم أمرٌ تركوه لم يقم دين ولا دنيا[2].

ومن أقوال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه[3]. وقال: ثلاثة تُؤدَّى إلى البرِّ والفاجر: الأمانة، والعهد وصلة الرحم[4]. قال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، قال: أقبل على شأنك، ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم[5]، وقال: من أساء سراً، فليتب سراً، ومن أساء علانية، فليتب علانية، فإن الناس يعيرون ولا يغفرون، والله يغفر ولا يعيّر[6]. وعن جعفر بن برقان: قال لي ميمون بن مهران: يا جعفر قل في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره[7]، وعن أبي المليح قال: قال ميمون: إذا أتى رجل باب سلطان، فاحتجب عنه، فليأت بيوت الرحمٰن، فليصلي ركعتين، وليسأل حاجته[8]، وعن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تبلون نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان، وإن قلت: آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت: أعلمها كتاب الله[9]. وقال: ما نال رجل من جسيم الخير - نبي ولا غيره - إلا بالصبر[10]. وتوفي ميمون رحمه سنة سبع عشرة ومائة[11]، وقيل سنة ست عشرة.

2 - تعهدهم عمر بالنصح والتذكير بالمسئولية:

يعتبر عمر بن عبد العزيز أكثر خليفة وجهت إليه النصائح والتوجيهات في عهد بني أمية، فقد شهد أكبر عدد من الرسائل بين الخليفة والعلماء، ولو استعرضنا أولئك العلماء الذين وجهوا النصح والتذكير لعمر وما كتبوه من رسائل لطال بنا الحديث، ولكن نذكر منهم على سبيل المثال، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظي، وأبا حازم سلمة ابن دينار، والقاسم بن مخيمرة وحسن البصري وغيرهم، وكانت نصائح العلماء تتضمن عدداً

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 73).
(2) المصدر نفسه (5/ 74).
(3) المصدر نفسه (5/ 74).
(4) المصدر نفسه (5/ 74).
(5) المصدر نفسه (5/ 75).
(6) المصدر نفسه (5/ 75).
(7) المصدر نفسه (5/ 75).
(8) المصدر نفسه (5/ 75).
(9) المصدر نفسه (5/ 77).
(10) المصدر نفسه (5/ 78).
(11) المصدر نفسه (5/ 78).

من التوجيهات التي لها صلة بمنهج عمر السياسي، مما يؤكد أن عمر بن عبد العزيز استقى منهجه من المنهل الذي نبعث منه هذه التوجيهات[1]، فمما جاء في موعظة محمد بن كعب القرظي: . . يا أمير المؤمنين افتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم[2]، وبمثل هذا المعنى جاءت موعظة القاسم بن مخيمرة حيث قال لعمر: . . بلغنا أن من ولي على الناس فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه. قال عمر: فما تقول: ثم أطرق طويلاً وبرز للناس[3]، وجاء في إحدى رسائل الحسن البصري لعمر: . . . أما بعد يا أمير المؤمنين فكن للمثل أخاً وللكبير ابناً وللصغير أباً، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتدخل النار[4]، وقد كان عمر كما سلف يحرص على تطبيق مثل هذا التوجيه ويأمر عماله بذلك[5]، ومما جاء في رسالة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ المليئة بالتوجيهات: . . فإنه قد كان قبلك رجال عملوا وأحيوا ما أحيوا وأتوا ما أتوا حتى ولد في ذلك رجال ونشؤوا فيه وظنوا أنها السنة فسدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها باباً إلا فتح الله عليهم باب بلاء، فإن استطعت - ولا قوة إلا بالله - أن تفتح على الناس أبواب الرخاء فافعل، فإنك لن تفتح باباً إلا سد الله الكريم عنك باب بلاء يمنعك من نزع عامل أن تقول لا أحد يكفيني عمله، فإنك إذا كنت تنزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعواناً فأتاك بهم. وجاء فيها أيضاً: . . فمن بعثت من عمالك إلى العراق فانهه نهياً شديداً بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها المال. المال يا عمر والدم فإنه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره[6]. وهذه التوجيهات هي عين سياسة عمر في السعي لإغناء رعيته وانتقائه لعماله ومحاسبته لهم[7].

3 - مشاركتهم في تولي مختلف مناصب الدولة وأعمالها:

لم تقتصر مشاركة العلماء لعمر بن عبد العزيز على الإشارة عليه وتقديم النصح له، بل تعدت ذلك إلى تولي عدد من المناصب في مختلف الأقاليم وأهم هذه المناصب وأكثرها أثراً في سياسة الدولة: الإمارة على الأقاليم، وبيت المال[8]، وحين نتتبع ولاة عمر على الأقاليم

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 199.
(2) المصدر نفسه، ص: 199.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 113، لابن الجوزي.
(4) المصدر نفسه، ص: 103.
(5) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 199.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 103.
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 199.
(8) المصدر نفسه، ص: 200.

نجد أن جلهم من العلماء فمن ذلك: الإمام الثقة والأمير العادل عبد الحميد بن عبد الرحمٰن ابن زيد بن الخطاب على ولاية الكوفة[1]، والعالم القدير أبو بكر بن عمر بن حزم على المدينة[2]، والإمام الكبير إسماعيل بن أبي المهاجر على إفريقية[3]، والفقيه المحدث عدي ابن عدي الكندي على الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان[4]، والإمام القاضي عبادة بن نسي على الأردن[5]، والثقة الصالح عروة بن عطية السعدي على اليمن[6]، والقاضي الفاضل سالم ابن وابصة العبدي على الرقة[7]، وأما بيت المال فقد تولى العمل فيه عدد من العلماء ومنهم: العالم الجليل ميمون بن مهران على خراج الجزيرة[8]، والثقة الصالح صالح بن جبير الصدائي على الخراج لعمر بن عبد العزيز[9]، والعالم وهب بن منبه على بيت مال اليمن وأبو زناد وتولى عمر بن ميمون البريد لعمر بن عبد العزيز[10]. ولا شك أنه كان لهذه المشاركة الواسعة من العلماء بتوليهم الإمارة، وبيوت الأموال في مختلف الأقاليم الأثر الكبير في ضبط شئون الدولة الإدارية والمالية وما ترتب على ذلك من آثار حسنة في الحياة السياسية في عهد عمر بن عبد العزيز[11].

ثالثاً: المدارس العلمية في عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

تحدثت في كتابي عن عمر بن الخطاب ﷺ عن المدارس العلمية واتخاذه من عاصمة الدولة مدرسة يتخرج منها العلماء والدعاة والولاة والقضاة، فنشطت المدارس العلمية في مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها، وأشرف الصحابة الكرام على تعليم وتربية الناس فيها، واستطاعت تلك المدارس أن تخرج كوادر علمية وفقهية ودعوية متميزة ساندت المؤسسة العسكرية التي قامت بفتح العراق وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب، واستطاع علماء الصحابة الذين تفرغوا لدعوة الناس وتربيتهم أن ينشئوا جيلاً من العارفين للدين الإسلامي من أبناء المناطق المفتوحة، وقد استطاعوا أن يتغلبوا على مشكلة إعاقة الحاجز اللغوي، بل تعلم الكثير من الأعاجم لغة الإسلام، وأصبح كثير من رواد حركة العلم بعد عصر الصحابة من العجم، لقد أثرت المدارس العلمية والفقهية في المناطق المفتوحة، وشكلت جيلاً من التابعين نقلوا إلى الأمة علم الصحابة وأصبحوا من ضمن سلسلة السند التي نقلت

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 149).
(2) المعرفة والتاريخ (1/ 645).
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 213).
(4) مختصر تاريخ دمشق (16/ 32).
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 323).
(6) تهذيب التهذيب (6/ 186).
(7) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 201.
(8) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 78.
(9) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 202.
(10) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 202.
(11) المصدر نفسه، ص: 202.

للأمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويرجع الفضل - بعد الله - في نقل ما تلقاه الصحابة من علم من الرسول بالدرجة الأولى بعد الله إلى مؤسسي المدارس العلمية بمكة والمدينة والبصرة والكوفة وغيرها من الأقطار[1]. وقد استمرت مدارس التابعين في النشاط العلمي في عهد الدولة الأموية وكثير من العلماء الذين تخرجوا من تلك المدارس أعانوا عمر بن عبد العزيز على مشروعه الإصلاحي التجديدي الراشدي المنضبط بمنهاج النبوة، ومن أهم تلك المدارس:

1 - مدرسة الشام:

تأسست في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأشهر مؤسسيها من الصحابة، معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وعباد بن الصامت ﷺ وحمل التابعون الراية العلمية والتربوية والدعوية بعد الصحابة ومن أشهرهم:

أ - الإمام الفقيه أبو إدريس الخولاني ، عائذ بن عبد الله: قاضي دمشق وعالمها، روى عن أبي الدرداء، وأبي هريرة وابن عباس وخلق غيرهم، كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبي الدرداء قال: أدركت أبي الدرداء ووعيت عنه، وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ووعيت عنهما[2]. كان أبو إدريس ثقة من أهل الفقه في الدين وعلم الحلال والحرام، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن، فعن يزيد بن عبيدة أنه رأى أبا إدريس في زمن عبد الملك ابن مروان، وأن حلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن، يدرسون جميعاً، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد، فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وانصتوا له وسجد بهم جميعاً . . . حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقصُّ[3]. وعن يزيد بن أبي مالك، قال: كنا نجلس إلى أبي إدريس الخولاني فيحدثنا، فحدث يوماً عن بعض مغازي رسول الله ﷺ حتى استوعب الغزاة، فقال له رجل من ناحية المجلس: أحضرت هذه الغزوة؟ فقال: لا، وقال الرجل: قد حضرتها مع رسول الله، ولأنت أحفظ لها مني[4]، وقد عزل عبد الملك بن مروان بلال بن أبي الدرداء عن القضاء - وولى أبا إدريس[5]. ثم أن عبد الملك عزل أبا إدريس عن القصص، وأقره على القضاء، فقال أبو إدريس: عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي[6]. توفي عام 80هـ[7].

ب - الفقيه قبيصة بن ذؤيب الدمشقي: روى عن عمر بن الخطاب، وأبي الدرداء وعبد

(1) الدور السياسي للصفوة، ص: 462 إلى 463.
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 275).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 274).
(4) المصدر نفسه (4/ 275).
(5) المصدر نفسه (4/ 275).
(6) المصدر نفسه (4/ 275).
(7) المصدر نفسه (4/ 276).

الرحمٰن بن عوف وخلق غيرهم. كان قبيصة من علماء التابعين ثقة مأموناً كثير الحديث، قال الشعبي: كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت[1]، قال عنه مكحول: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة[2]، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة[3]، توفي سنة 86 هـ وقيل 87 هـ، وقيل 88 هـ[4]. وقد توسعت في ترجمته عند حديثي عن عبد الملك.

ج - **رجاء بن حيوة الفلسطيني**: من أجلة التابعين وشيخ أهل الشام حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعباد بن الصامت وطائفة[5]، كان شامياً ثقة فاضلاً كثير العلم[6]، ويروى عن رجاء بن حيوة أنه قال: من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرضى من صديقه بالإخلاص له دام سخطه ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوُّه[7]. كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك وعند عمر بن عبد العزيز وأجرى الله على يديه الخيرات، ثم أنَّه بعد ذلك أُخِّر، فأقبل على شأنه[8]، توفي سنة 112[9].

د - **مكحول الشامي الدمشقي**: عالم أهل الشام عداده في أواسط التابعين من أقران الزهري، سمع من واثلة بن الأسقع وواثله آخر من مات من الصحابة بدمشق[10]، وتوفي عام 85 هـ وله ثمان وتسعون سنة[11]، قال عنه الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام[12]. وكان مكحول أفقه أهل الشام، ولم يكن في زمنه أبصر بالفتيا منه[13]توفي 112هـ وقيل 113هـ وقيل غير ذلك[14].

هـ - **عمر بن عبد العزيز**: ومن علماء المدرسة الشامية والمدينة وذلك بعد انتقاله إلى الشام وقيامه بأعباء الخلافة، وكان معروفاً بالفقه بصير بالسنة، يرجع إليه القضاة في الأمور التي يختلفون فيها[15]. وقد بدأت بالمدرسة الشامية لأنها ترعرعت في عاصمة الخلافة الأموية.

و - **بلال بن سعد السكوني**: الإمام الرباني الواعظ أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق كان لأبيه صحبة، كان بليغ الموعظة، حسن القصص نافعاً للعامة وكان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق وكان قارئ أهل الشام جهير الصوت[16]يقول الأوزاعي: لم أسمع واعظاً

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 283).
(2) المصدر نفسه (4/ 283).
(3) المصدر نفسه (4/ 283).
(4) المصدر نفسه (4/ 283).
(5) المصدر نفسه (4/ 559).
(6) الفتوى : نشأتها وتطورها د. حسين الملاح، ص: 85.
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 558).
(8) المصدر نفسه (4/ 560).
(9) المصدر نفسه (4/ 561).
(10) المصدر نفسه (3/ 386).
(11) المصدر نفسه (3/ 386).
(12) المصدر نفسه (5/ 158).
(13) المصدر نفسه (5/ 159).
(14) المصدر نفسه (5/ 159، 160).
(15) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (1/ 54).
(16) سير أعلام النبلاء (5/ 90، 91).

قط أبلغ من بلال بن سعد[1]، ومن مواعظه العميقة: يا أهل التُّقى إنكم لم تُخلقوا للفناء وإنما تُنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار[2]. ومن أقواله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت[3]. وقال الأوزاعي سمعته يقول: والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها[4]. وقد توفي سنة نيف وعشرة ومائة.

2 - المدرسة المدنية:

لما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة في استخراج أحكام إسلامية، تصلح لما جد من شئون في المجتمعات الإسلامية بعد الفتوح التي كثرت، وفي عهد عمر بن الخطاب بلغ فقهاء الصحابة المفتون (130) مائة وثلاثين صحابياً وكان المكثرون منهم سبعة: عمر وعلي وعبد الله بن مسعود، وعائشة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر[5]، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربية والدعوة، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب، وعروة ابن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمٰن بن سعد الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسليمان بن يسار، ونافع مولى ابن عمر[6]، وقد تحدثت عن دور فقهاء وعلماء التابعين بالمدينة في نشأة عمر بن عبد العزيز.

3 - المدرسة المكية:

احتلت هذه المدرسة المكانة في قلوب المؤمنين، الساكنين والثائبين على بلد الله الحرام، الحجاج والعمار والزوار، بل أخذت مكة بألباب كل مؤمن رآها أو تمنى أن يراها، ولقد كان العلم بمكة يسير زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبي نجيح، وابن جريج[7]، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما الذي صرف جل همه وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبع منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس في التفسير،

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 91).
(2) المصدر نفسه (5/ 91).
(3) المصدر نفسه (5/ 91).
(4) المصدر نفسه (5/ 92).
(5) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (2/ 45).
(6) الفتوى، د. حسين الملاح، ص: 81، 82.
(7) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (2/ 48).

وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب أدت إلى تفوق المدرسة المكية في هذا العلم، وأهم هذه الأسباب والأساس فيها إمامة ابن عباس ﷺ وأستاذيته لها[1]، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة المكية:

أ - مجاهد بن جبر المكي: أخذ الفقه والتفسير عن ابن عباس وغيره من الصحابة، كان فقيهاً عالماً ثقة من أوعية العلم[2]، وعن مجاهد قال: عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أقِفُه عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت[3]، وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد[4]، وقال مجاهد: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني[5]، وقدم مجاهد على سليمان بن عبد الملك ثم على عمر بن عبد العزيز، وشهد وفاته وعن مجاهد قال. قال لي عمر بن عبد العزيز في مرض وفاته: يا مجاهد ما يقول الناس فيّ قلت: يقولون مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال: ويحك، ما حملك على أن سقيتني السُّمُّ؟ قال: ألف دينار أُعطيتها وأن أُعتق، قال: هاتها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال وقال: اذهب حيث لا يراك أحد[6]، وقال مجاهد: ما أدري أي النعمتين أعظم، أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء[7]. قال الذهبي معلقاً على قول مجاهد: مثل الرّفض والقدر والتجهّم[8]. وعن عبد الوهاب بن مجاهد، قال: كنت عند أبي فجاء ولده يعقوب فقال: يا أبتاه، إن لنا أصحاب يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد. فقال: يا بني ما هؤلاء بأصحابي، لا يجعل الله من هو منغمس في الخطايا كمن لا ذنب له[9]، ومات مجاهد سنة اثنتين ومائة وهو ساجد[10]، وكان عمره ثلاث وثمانين سنة[11].

ب - عكرمة مولى ابن عباس: كان مكياً تابعياً ثقة من أعلم التابعين، روى عن ابن عباس، وعائشة وأبي هريرة وابن عمر، وابن عمرو، وعقبة بن عامر، وعلي بن أبي طالب[12]، قال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس بالدار، وعن عكرمة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له: انطلق فأفت الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هذا الناس ومثلهم مرتين لأفتيتهم. قال ابن عباس: انطلق فأفتهم فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤونة الناس[13]، وكان عكرمة كثير الأسفار ونزل على

(1) تفسير التابعين (1/ 371) د. محمد الخضري.
(2) الفتوى، د. حسين الملاح، ص: 80.
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 451).
(4) المصدر نفسه (4/ 451).
(5) المصدر نفسه (4/ 452).
(6) المصدر نفسه (4/ 453).
(7) المصدر نفسه (4/ 455).
(8) المصدر نفسه (4/ 455).
(9) المصدر نفسه (4/ 455).
(10) طبقات ابن سعد (5/ 467) سير أعلام النبلاء (4/ 455).
(11) سير أعلام النبلاء (4/ 456).
(12) المصدر نفسه (5/ 13).
(13) المصدر نفسه (5/ 15).

عبد الرحمٰن الحسّاس الغافقي، وصار إلى إفريقية[1]، وقد اتهم عكرمة بالصفرية فرقة من فرق الخوارج ولم تثبت هذه التهمة بسند صحيح وإنما بصيغة يقال[2]، وقد دافع علماء الجرح والتعديل عن عكرمة، كأبي حاتم الرازي، وابن حبان، والعجلي، وابن منده وابن عبد البر ونقل ذلك ابن حجر في مقدمة الفتح وقال: لا تثبت عنه بدعة[3]. وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا هو يحتج بعكرمة[4]، توفي سنة 105هـ[5].

ج - **عطاء بن أبي رباح:** مفتي الحرم وأحد الفقهاء الأئمة روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة وعائشة ورافع بن خديج وزيد بن أرقم وابن الزبير، وابن عمرو وابن عمر وجابر ومعاوية وأبي سعيد وعدة من الصحابة[6]. وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، انتهت إليه فتوى أهل مكة. قال عنه ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون علي وعندكم عطاء، ولسعة علمه وجلالة قدره كانوا في عهد بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح توفي سنة 115 هـ[7]. هؤلاء بعض علماء التابعين من المدرسة المكية الذين نهضوا بعبء الدعوة والتعليم وإتمام البناء العلمي[8].

4 - المدرسة البصرية:

وهي منافسة للكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين وأنس بن مالك وغيرهم، ويعتبر أنس بن مالك ﷺ شيخ السادة من علماء التابعين أمثال الحسن البصري، وسليمان التيمي، وثابت البناني، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبي ميسرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم[9]. ومن أشهر علماء المدرسة البصرية:

أ - **محمد بن سيرين البصري:** كان مولى أنس بن مالك، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة وخلق سواهم[10]، وعن حبيب بن الشهيد قال: كنت عند عمرو بن دينار فقال:

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 15).
(2) براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف في الاعتقاد، ص: 39.
(3) مقدمة الفتح، ص: 428.
(4) سير أعلام النبلاء (5/ 31).
(5) المصدر نفسه (5/ 34).
(6) المصدر نفسه (5/ 79).
(7) الفتوى د. حسين الملاح، ص: 81، سير أعلام النبلاء (5/ 78).
(8) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (1/ 41).
(9) تفسير التابعين (1/ 4239) عمر بن الخطاب للصَّلَّابِيّ، ص: 260.
(10) سير أعلام النبلاء (4/ 606).

والله ما رأيت مثل طاووس، فقال أيوب السختياني وكان جالساً: والله لو رأى محمد بن سيرين لم يقله[1]، وقال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء من ابن سيرين[2]. وكان الحسن البصري يقدمه على غيره، فعن ثابت البُناني، قال: كان الحسن متوارياً من الحجّاج فماتت بنت له، فبادرت إليه رجاء أن يقول لي صلّ عليها، فبكى حتى ارتفع نحيبه، ثم قال لي: اذهب إلى محمد بن سيرين، فقل له ليُصل عليها، فعرف حين جاء الحقائق، أنه لا يعدل بابن سيرين أحداً[3]. وكان محمد بن سيرين يصوم يوماً ويفطر يوماً[4]، وكان قد اشتهر بتفسير الأحلام وهو أشهر من أن يعرف في هذا الباب قال عنه الذهبي: قد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب، وكان له في ذلك تأييد إلهي[5]. وكان يلبس الثياب الثمينة والطيالس والعمائم[6]، وكان صاحب ضحك ومزاح[7]، وكان باراً بأمه قالت حفصة بنت سيرين: كانت والدة محمد حجازية وكان يعجبها الصبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوباً اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد، صبغ لها ثياباً وما رأيته رافعاً صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغي إليها[8]، وعن ابن عون، أن محمداً كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل لا يعرفه ظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها[9]. وقال ابن عون: كانوا إذا ذكروا عند محمد رجلاً بسيئة ذكره هو بأحسن ما يعلم. وجاءه ناس فقالوا: إنا نلنا منك فاجعلنا في حلّ، قال: لا أُحلّ لكم شيئاً حرّمه الله[10]. توفي ابن سيرين بعد الحسن البصري بمئة يوم، سنة عشر ومئة[11].

ب - **قتادة بن دعامة السدوسي**: كان من أوعية العلم، روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين وكان ثقة حجة في الحديث[12]، قال عنه أحمد بن حنبل: كان قتادة عالماً بالتفسير وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ وقال: قلما تجد من يتقدمه[13]. وقال: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها[14]. قال سلام بن مطيع: كان قتادة يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث[15]. قال عنه الذهبي: حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين[16]، كان رأساً

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 608).
(2) المصدر نفسه (4/ 608).
(3) المصدر نفسه (4/ 610).
(4) المصدر نفسه (4/ 615).
(5) المصدر نفسه (4/ 618).
(6) المصدر نفسه (4/ 619).
(7) المصدر نفسه (4/ 613).
(8) المصدر نفسه (4/ 619).
(9) المصدر نفسه (4/ 620).
(10) المصدر نفسه (4/ 620).
(11) المصدر نفسه (4/ 621).
(12) الفتوى د. حسين الملاح، ص: 84.
(13) سير أعلام النبلاء (4/ 276).
(14) المصدر نفسه (4/ 277).
(15) المصدر نفسه (4/ 276).
(16) المصدر نفسه (4/ 270).

في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها[1]، وكان من تلاميذ الحسن البصري، وجالسه اثنتي عشرة سنة وصلى معه الصبح ثلاث سنين[2]، توفي سنة ثماني عشرة ومائة[3].

5 - المدرسة الكوفية:

نزل الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر ﷺ أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة ووجه إليها عبد الله بن مسعود، واجتهد ابن مسعود في إيجاد جيل يحمل دعوة الله فهماً وعلماً، وكان له الأثر البالغ في نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوى منهم، علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلماني، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفي[4] وغيرهم، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة الكوفية:

أ - عامر بن شرحبيل الشعبي: كان علامة عصره ومن أفقههم، روى عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر وجمهرة غيره حتى قيل أنه أدرك خمسمائة من الصحابة[5]، لذلك كان صاحب آثار كثير العلم والفقه. قال محمد بن سيرين: لقد رأيته يستفتي والصحابة متوافرون بالكوفة ورغم هذا العلم الواسع فقد كان ينقبض عند الفتوى، وكثيراً ما يقول: لا أدري، لأنه كان يعتبرها نصف العلم[6]. وقد قال الشعبي: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنّا سمعنا الحديث فرويناه ولكن الفقهاء من إذا علم عمل[7]، ومن نكاته اللاذعة، ما رواه الأعمش قال: أتى رجل الشعبيَّ، فقال: ما اسم امرأة أبليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته[8]، توفى سنة أربع ومائة وقيل ست ومائة وقيل خمس ومائة[9].

ب - حمّاد بن أبي سلمة: فقيه أهل العراق، روى عن أنس بن مالك وتتلمذ على يدي إبراهيم النخعي وهو أنبل أصحابه وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة[10]. وكان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجمُّل[11]، وكان أفقه أهل الكوفة عليّ وابن مسعود وأفقه أصحابها علقمة، وكان أفقه أصحابه إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد، وأفقه أصحاب حماد أبو حنيفة، وأفقه أصحابه أبو يوسف، وانتشر أصحاب أبي

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 277).
(2) المصدر نفسه (4/ 283).
(3) المصدر نفسه (4/ 283).
(4) فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص: 264.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 298).
(6) الفتوى د. الملاح، ص: 83.
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 303).
(8) المصدر نفسه (4/ 312).
(9) المصدر نفسه (4/ 318).
(10) الفتوى د. الملاح، ص: 83.
(11) سير أعلام النبلاء (4/ 231).

يوسف في الآفاق، وأفقههم محمد، وأفقه أصحاب محمد أبو عبد الله الشافعي[1] رحمهم الله تعالى. وقد توفي حماد سنة عشرين ومائة[2].

6 - المدرسة اليمنية:

من أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا في دخول الإسلام فيها معاذ بن جبل، علي ابن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وغيرهم ، ومن أراد التوسع فليراجع الرسالة العلمية للدكتور عبد الله الحميري، الحديث والمحدثون في اليمن في عصر الصحابة، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة اليمنية:

أ - طاووس بن كيسان: فقيه أهل اليمن وقدوتهم، وأعلمهم بالحلال والحرام من سادات التابعين، روى عن ثلة من الصحابة الكرام، كزيد بن ثابت وأبي هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس وهو معدود من كبراء أصحابه[3]. وروى عن معاذ مرسلاً[4]. كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له[5]، كان فقيهاً جليلاً بركة لأهل اليمن[6]. أدرك خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ [7]. قال له عمر بن عبد العزيز في عهد سليمان: ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين. قال: ما لي إليه حاجة فكأن عمر عجب من ذلك[8]. ومن أقواله: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج[9]. وقال: البخل أن يبخل الرجل بما في يديه، والشح أن يحب أن يكون له ما في أيدي الناس[10]. وقال عنه قيس بن سعد: الطاووس فينا مثل ابن سيرين فيكم. وقال ابن المديني: كان سفيان لا يعدل من أصحاب ابن عباس بطاووس أحد[11]. وكان رحمه الله معتزلاً الأمراء والسلاطين إلا إذا أكره على عمل لهم، وإذا طلب أداء نصيحة فإنه لا يجامل أحداً ويصدع بالحق، توفي بمكة سنة ست ومائة للهجرة[12].

ب - وهب بن منبه: أبو عبد الله وهب بن منبه من أبناء فارس كان ينزل ذمار[13]. وكان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهادة[14]. وقال عنه الذهبي: الإمام العلامة، الأخباري القصصي. وقال العجلي: تابعي ثقة كان على قضاء صنعاء وذكره الشيرازي في فقهاء التابعين باليمن[15]. وكان صاحب حكمة وفطنة، وكان له أثر في محاربة

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 236).
(2) المصدر نفسه (4/ 236).
(3) المصدر نفسه (5/ 39).
(4) المصدر نفسه (5/ 39).
(5) المصدر نفسه (5/ 38).
(6) الفتوى نشأتها وتطورها - أصولها وتطبيقاتها، ص: 85.
(7) سير أعلام النبلاء (5/ 43).
(8) المصدر نفسه (5/ 41).
(9) المصدر نفسه (5/ 42).
(10) المصدر نفسه (5/ 48).
(11) الطبقات (5/ 541) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 666.
(12) سير أعلام النبلاء (5/ 49).
(13) ذمار : مدينة باليمن على مرحلتين من صنعاء.
(14) علماء الأمصار للبستي، ص: 123.
(15) طبقات الفقهاء، ص: 66.

الخوارج في اليمن وتحذير الناس من آرائهم[1]، وإليك حواره مع أبي شمَّر الخولاني لما دخل على وهب بن منبه برفقة داود بن قيس، وتكلم داود لوهب وقال عن صاحبه أبي شمّر الخولاني إنه من أهل القرآن والصلاح، والله أعلم بسريرته، فأخبرني أنه عرض له نفر من أهل حروراء - يعني الخوارج - فقالوا له: زكاتك التي تؤديها إلى الأمراء لا تجزئ عنك، لأنهم لا يضعونها في موضعها، فأدها إلينا، ورأيت يا أبا عبد الله أن كلامك أشفى له من كلامي، فقال: يا ذا خولان أتريد أن تكون بعد الكبر حرورياً تشهد على من هو خير منك بالضلالة؟ فماذا أنت قائل لله غداً حين يقفك الله ومن شهدت عليه، فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى وأنت عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله وشهادتك شهادة الله أخبرني يا ذا خولان ماذا يقولون لك؟ فتكلم عن ذلك وقال لوهب: إنهم يأمرونني أن لا أتصدق إلا على من يرى رأيهم ولا أستغفر إلا له، فقال: صدقت، هذه محنتهم الكاذبة، فأما قولهم في الصدقة، فإنه قد بلغني أن رسول الله ﷺ ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار في هرة ربطتها[2]، أفإنسان مما يعبد الله يوحده ولا يشرك به أحب إلى الله أن يطعمه من جوع أو هرة؟ والله يقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: 8]. وأما قولهم لا يستغفر إلا لمن يرى رأيهم أهم خير أم الملائكة، والله يقول: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: 5] فوالله ما فعلت الملائكة ذلك حتى أمروا به ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: 27]. وجاء ميسراً ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7]، واستمر معه في الحوار والنقاش إلى أن قال ذو خولان: فما تأمرني؟ قال: انظر زكاتك فأدها إلى من ولاه الله أمر هذه الأمة، وجمعهم عليهم، فإن الملك من الله وحده وبيده يؤتيه من يشاء فإذا أديتها إلى والي الأمر برئت منها، وإن كان فضل فصل به أرحامك ومواليك وجيرانك والضيف، فقال: اشهد أني نزلت عن رأي الحرورية[3]. توفي وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة عشر ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك[4]، وقيل إن يوسف بن عمر والي اليمن ضربه حتى قتله[5]، ولعل ذلك بسبب موقف وهب من جور يوسف بن عمر المشهور بعنفه وظلمه[6].

7 - المدرسة المصرية:

تكونت في مصر مدرسة كان شيوخها من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح ونزلوا في

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 667.
(2) مسلم رقم 2242.
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 555) الحرورية : الخوارج.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 556) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 667.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 556).
(6) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 667.

موضع الفسطاط والإسكندرية، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، عبد الله بن عمرو بن العاص، الزبير بن العوام، وكان من أكثر الصحابة تأثيراً في مصر عقبة بن عامر رضي الله عنه [1]، وغير ذلك من الصحابة يرجع إليهم الفضل في دعوة الناس وتوجيههم نحو دينهم[2]، وجاءت طبقة التابعين، وكان منهم أئمة ودعاة، ومن هؤلاء:

يزيد بن أبي حبيب: الإمام الحجة، مفتي الديار المصرية أبو رجاء الأزدي، كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود[3]. قال عنه الليث بن سعد: يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا[4]. توفي سنة ثمان وعشرين ومائة[5].

8 - مدرسة شمال إفريقيا:

دخل القادة الفاتحون شمال إفريقيا وكان على رأسهم عمرو بن العاص ثم عبد الله بن سعد ابن أبي السرح رضي الله عنه، ثم تابع معاوية بن حديج فتح إفريقية، وولى معاوية بن أبي سفيان على مصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهري فاختط مدينة القيروان، وسار في الناس سيرة حسنة وكان من خيار الولاة والدعاة، الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة ثم قام على إفريقية ولاة صالحون ساروا على النهج نفسه[6]. وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل بن أبي المهاجر والياً على إفريقية سنة مائة، فكان داعية إلى الإسلام بلسانه وأعماله وأخلاقه، فأحبه الناس، وأحبوا دينه، وحرص على دعوة البربر إلى الإسلام، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا على يديه، واهتم إسماعيل بتعليم الناس أحكام الشريعة، وتفقيههم في الحلال والحرام، وكان عمر بن عبد العزيز قد بعث معه عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل، وأهل إفريقية يومئذ من الجهل بحيث لا يعرفون أن الخمر حرام حتى وصل هؤلاء فعلموا الناس الحلال والحرام[7]، وسيأتي الحديث عن الفقهاء العشرة في محله بإذن الله ومن خلال ما سبق من الحديث عن المدارس العلمية يظهر أهمية توريث العلم والخبرات الدعوية عند السلف وامتداد ذلك يشمل أقاليم الدولة الإسلامية ونستفيد أيضاً أهمية تفريغ مجموعة من أذكياء الأمة للتعلم والتعليم والإفتاء والإرشاد والوعظ ونشره بين الناس.

(1) عمر بن الخطاب للصلاّبي، ص: 270.
(2) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (1/ 57).
(3) سير أعلام النبلاء (6/ 31).
(4) المصدر نفسه (6/ 32).
(5) المصدر نفسه (6/ 32).
(6) البيان المغرب للمراكشي (1/ 19) الدعوة إلى الله (1/ 61).
(7) المصدر نفسه (1/ 48) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (1/ 62).

رابعاً: منهج التابعين في تفسير القرآن الكريم:

سلك التابعون منهجاً واضحاً في تفسير القرآن الكريم، فكانوا يفسرون القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، والقرآن بأقوال الصحابة، واللغة العربية، والاجتهاد وقوة الاستنباط.

1 - تفسير القرآن بالقرآن:

تعددت طرق التابعين في تفسير القرآن بالقرآن ومن هذه الطرق:

أ - نظائر القرآن الكريم: كتفسير الآية بآية أخرى تحمل الموضوع نفسه وإن اختلف اللفظ وقد أكثر التابعون من ذلك، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 37]. قال: قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23]. حتى فرغ منها[1]. وجاء عن عكرمة، والحسن في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: 110]. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى يجهر بصلاته، فآذى ذلك المشركين بمكة حتى أخفى صلاته هو وأصحابه، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: 110]. وقال في الأعراف: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: 205]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: 94]. قال قتادة: وذلك أنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: 111]. وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]. فقيل لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾[2] [البقرة: 94].

ب - الأشباه: والمراد بالأشباه تفسير الآية بما يشبهها من الآيات كتفسير الآية بالآيات التي تحمل بعض معناها مع تقارب اللفظ[3]، فمن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير النفس بالغير، فإنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴿١٢﴾﴾ [النور: 12]. قال لهم خيراً، ألا ترى أنه يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: 29]. يقول: بعضكم بعضاً، و﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴿٦١﴾﴾ [النور: 61]. قال: يسلم بعضكم على بعض[4]. ففسر مجاهد هنا النفس بالغير واستدل بورود ذلك في آيات متشابهة في القرآن تدل على هذا الجزء من المعنى[5].

---

(1) تفسير الطبري (1/ 545) زاد المسير (1/ 69).

(2) فتح القدير (1/ 116) تفسير التابعين (2/ 614).

(3) تفسير التابعين (2/ 615).

(4) تفسير الطبري (18/ 96) تفسير التابعين (2/ 615).

(5) تفسير التابعين (2/ 616).

ج - **الدلالة على التفسير بالسياق:** وفي هذا النوع يلحظ المفسّر منهم سياق الآية فيربطها بما قبلها، أو بما بعدها سواء كان ذلك في الآية نفسها، أو في مجموعة من الآيات[1]، مثل تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۝٨٣﴾ [الأنعام: 83]. قال مجاهد في تفسيرها: هي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ۝٨٢﴾[2] [الأنعام: 82].

د - **بيان المجمل:** وفي هذا الطريق يقوم المفسر بالنظر في آيات القرآن التي فيها إجمال، وينظر في الآيات الأخرى التي يمكن أن تكون بياناً لهذا الإجمال، كحمل المجمل على المبين ومن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح: 14] قال: من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه[3]. فأشار بقوله إلى الآيات التي فيها ذكر ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: 12-14].

هـ - **تفسير العام بالخاص:** وفي هذا يعمد المفسر منهم إلى آية ظاهرها العموم فيحملها على معنى آخر ذكرت فرداً من أفراد العموم[4]، كقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ۝١٢٣﴾ [النساء: 123]. قال الحسن البصري: الكافر ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: 17] قال: من الكفار[5]. وفي رواية عنه قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ يعني الكفار، لا يعني بذلك أهل الصلاة[6]. فالآية الأولى جاء فيها العموم في لفظة «من» ليعم المؤمن والكافر، فجاء الحسن فبين أنها خاصة بالكافر مستدلاً بأسلوب الحصر في الآية الثانية[7]. وأصرح من ذلك ما جاء عنه في تفسير الآية نفسها أنه قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ۝١٢٣﴾ [النساء: 123] إنما ذلك لمن أراد الله هوانه، فأما من أراد كرامته، فإنه من أهل الجنة ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: 16][8].

و - **التفسير باللازم:** المراد بالتفسير باللازم أن المفسر لا يذكر صراحة تفسيراً للآية التي هو بصددها، بل يذكر شيئاً من لوازم ذلك، ويربطه بآية أخرى، فمن ذلك ما جاء عن سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة: 156]، فقد قال: لو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب، ألم تسمع: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ۝٨٤﴾ [يوسف: 84] [9]. أنه لم يكن يعرف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة: 156]، وإلا لقالها، بدلاً من تأسفه على ذهاب يوسف[10].

---

(1) تفسير التابعين (2/ 617).
(2) تفسير الطبري (11/ 505).
(3) تفسير الطبري (29/ 26) الدر المنثور (8/ 291).
(4) تفسير التابعين (2/ 621).
(5) تفسير الطبري (9/ 237) زاد المسير (2/ 210).
(6) تفسير الطبري (9/ 238).
(7) تفسير التابعين (2/ 623).
(8) تفسير التابعين (2/ 623).
(9) تفسير الطبري (3/ 224).
(10) تفسير التابعين (2/ 623).

ز - توضيح المبهم: ومن طرق التفسير التي اتبعها التابعون - أيضاً - إيضاح مبهم آية بآية أخرى لإزالة الإبهام[1]، ومن ذلك ما قام به عكرمة من رفع الإبهام الواقع في لفظه «الحين» استدل بالآية التي تبين أن المراد منه سنة، فعنه أنه قال: أرسل إليّ عمر بن عبد العزيز فقال: يا مولى ابن عباس: إني حلفت أن لا أفعل كذا وكذا حيناً، فما الحين الذي تعرف به؟ قلت: إن من الحين حيناً لا يدرك، ومن الحين حين يدرك، وأما الحين الذي لا يدرك فقول الله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: 1]. والله ما يدري كم أتى له إلى أن خلق، وأما الذي يدرك فقوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: 25]. فهو ما بين العام إلى العام المقبل، فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت[2].

ح - بيان معنى (لفظ)، أو إيضاح مشكلة: وقد كثر هذا النوع في تفسير التابعين فصاروا يتناولون آيات القرآن بالتفسير بآيات أخرى تبين هذا المعنى، وتلكم الألفاظ[3]، ومثال ذلك كتفسير الحسن البصري ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾ [النازعات: 6]. قال: النفختان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحيي الموتى ثم تلا الحسن: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾[4] [الزمر: 68]. والأمثلة كثيرة على تفسير التابعين للقرآن بالقرآن، ومن أراد المزيد فليراجع تفسير التابعين[5].

2 - تفسير القرآن بالسنة:

لا شك أن السنة مبينة للقرآن موضحة له قال الشاطبي: وهي راجعة في معناها إلى الكتاب، فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله، وبسط مختصره[6]، وذلك لأن النبي ﷺ هو أعلم بكلام الله وأكثر قدرة على فهم نصوص الآيات من غيره مع ما أوحاه الله تعالى من المعاني، فهو ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: 3-4]، وقال ﷺ: ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه[7]. يقول ابن تيمية: فإن قال قائل، فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن. . . إلى أن يقول - فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: 105]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

---

(1) تفسير التابعين (2/ 624).
(2) تفسير الطبري (16/ 581).
(3) تفسير الطبري (2/ 626).
(4) تفسير الطبري (30/ 31)، تفسير التابعين (2/ 627).
(5) تفسير التابعين (2/ 608 إلى 627).
(6) المصدر نفسه (2/ 628) الموافقات (4/ 12).
(7) سنن أبي داود رقم 4604.

[النحل: 64] [1]. وقد اتفق العلماء على أن الأخذ بالسنة واجب والعمل بها حتم وتحكيمها فرض بل جاء عن مكحول التابعي أنه قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن[2]. وقد كثر عن التابعين النقول التي تدل على شدة متابعتهم للسنة، قال ربيعة للزهري: إذا سُئلت عن مسألة فكيف تصنع؟ قال: أحدث فيها بما جاء عن النبي ﷺ فإن لم يكن، فعن أصحابه، فإن لم يكن عن أصحابه اجتهدت رأيي[3]، ومما يدل على عظيم احتفائهم وعنايتهم بالمروي عنه ﷺ أنه قل أن نجدهم يخالفون ما صح عنه ﷺ من تفسيره وفيما يلي بعض الأمثلة الدالة على ذلك:

أ - فمن هذا ما جاء عنه ﷺ في تفسير قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 7]. قال ﷺ: **«اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال»**[4]. وبذلك فسرها: مجاهد[5]، وسعيد بن جبير[6] وغيرهما. قال ابن حاتم: لا أعلم خلافاً بين المفسرين في تفسير ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود، و ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالنصارى[7].

ب - ومنه أيضاً ما صح عنه ﷺ في بيان قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۝١٨٧﴾ [البقرة: 187]. قال ﷺ: **«هو سواد الليل وبياض النهار»**[8]، ولم يخالف في ذلك أحد من التابعين وبه قال الحسن[9] وقتادة[10].

جـ - من ذلك ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في تفسير معنى الظلم الذي ورد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ۝٨٢﴾ [الأنعام: 82]. قال ﷺ حين شق ذلك على أصحابه فقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: ليس بذلك ألم تسمعوا قول لقمان: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[11]». وهذا هو المنقول عن التابعين قال به: إبراهيم النخعي، وقتادة، ومجاهد، وسعيد بن جبير[12].

(1) الفتاوى (13/ 363).

(2) تفسير التابعين (2/ 629) تفسير القرطبي (1/ 30).

(3) جامع بيان العلم وفضله (2/ 75) تفسير التابعين (2/ 637).

(4) موار الظمآن في زوائد ابن حبان رقم 224.

(5) تفسير الطبري (1/ 188).

(6) الدر المنشور (1/ 41).

(7) تفسير ابن أبي حاتم رقم22، تفسير التابعين (2/ 638).

(8) البخاري، كتاب: التفسير الفتح (8/ 182).

(9) تفسير الطبري (3/ 510).

(10) تفسير الطبري (3/ 510).

(11) البخاري، كتاب: التفسير الفتح (8/ 294).

(12) تفسير التابعين (2/ 639).

د - ومنه ما جاء عنه ﷺ في تفسير للسبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]. قال ﷺ لأبي سعيد بن المعلى: **«ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟»** فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته، فقال: **«الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»**[1]. وهذا التفسير هو المروي عن سعيد بن جبير والحسن، ومجاهد، وقتادة[2].

هـ - ومن ذلك بيانه ﷺ لمعنى: الأمة الوسط، التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143]. ففي الحديث عن النبي ﷺ في قوله: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال «عَدُولاً»[3] وبهذا التفسير قال: مجاهد، وعطاء وقتادة[4]. هذه بعض الأمثلة التي اعتمدها التابعون في تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية.

3 - تفسير القرآن بأقوال الصحابة:

إن التابعين ما علموا كيفية التلقي من الكتاب والسنة وكذلك الاجتهاد، ونحو ذلك إلا بسبب تربيتهم على أيد الصحابة وخبرتهم بمناهجهم الاستدلالية، وتعلمهم لطرق الاستنباط وتلقيهم الرواية النبوية، ورؤيتهم التطبيق العملي لذلك كله ولقد استوعب التابعون رسالة الصحابة وعرفوا فضلهم، فها هو مجاهد يقول: العلماء أصحاب محمد ﷺ[5]، وكان التابعون يقدمون قول الصحابي على قولهم يقول الشعبي: إذا اختلف الناس في شيء فانظر كيف صنع عمر؟ فإن عمر لم يكن يصنع شيئاً حتى يشاور، فقال أشعث - راوي الأثر - فذكرت ذلك لابن سيرين فقال: إذا رأيت الرجل يخبرك أنه أعلم من عمر فاحذره[6]، وكان منهج التابعين في الأخذ عن الصحابة يدور حول:

أ - إذا كان تفسير الصحابي يرفعه للنبي ﷺ، فهذا هو المطلب الرئيس، والغاية القصوى، وليس بعده قول، وكذلك ما كان من تفسير الصحابي، وهو وارد في سبب النزول بالصيغة الصريحة[7]، وكذلك فيما لا مجال للرأي فيه، فهذا يقف عنده لا يجاوزونه، لأن الصحابي شاهد التنزيل، ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: 61]. فقد قال فيها ابن عباس رضي الله عنهما: إن لملك الموت أعواناً من

---

(1) البخاري، كتاب: التفسير الفتح (8/ 381).

(2) تفسير التابعين (2/ 641).

(3) مجمع الزوائد (6/ 316)رواه أحمد (3/ 9) صحيح.

(4) تفسير التابعين (2/ 641).

(5) إعلام الموقعين (1/ 15)، تفسير التابعين (2/ 651).

(6) الحلية (4/ 320)، تفسير التابعين (2/ 653).

(7) أي سبب نزول كذا هو كذا وكذا أو حدث كذا ونزل كذا.

الملائكة رواه عنه إبراهيم[1]. ولذا جاءت الرواية من تفسير إبراهيم نفسه بالاقتصار على قول ابن عباس ولم يزد عليه شيئاً فقال: أعوان ملك الموت[2]، وكذا جاء عن قتادة، ومجاهد والربيع[3].

ب - وإذا كان التفسير الوارد عن الصحابي من باب الاجتهاد، وجار على مقتضى اللغة، فإنهم في الغالب لا يخالفونه، فإن الصحابة أهل اللسان والبيان والفهم، ولأجل ذلك اعتمد مجاهد تفسير ابن عباس دون غيره عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۝٩٨﴾ [الأنعام: 98]. فقد قال ابن عباس: المستقر بالأرض والمستودع عند الرحمن[4]. وجاءت رواية عن ابن عباس: أن المستقر في الرحم، والمستودع في الصلب[5]، موافقة للرواية الثانية، وهكذا كان حال ابن جبير في تفسير الآية[6].

ج - إذا تعارضت الأقوال المنقولة في الصحابة، فإن التابعين يسلكون مسلك الترجيح بينها، والترجيح قد يكون باللغة، أو بالحديث أو بقول صحابي آخر يجمع بين الأقوال، فمن الأول ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ۝٧٨﴾ [الإسراء: 78]. جاء عن ابن عباس في تفسيرها أن دلوكها غروبها[7]، وجاء عنه أن دلوكها: زيغها بعد نصف النهار[8]، وجاء عن ابن مسعود أن دلوكها غروبها[9]، وجاء عنه أيضاً أن دلوكها ميلها يعني: الزوال[10]. فاختار قتادة أن دلوكها زوالها، ففسرها به[11]، مع أنه نقل القول بغروبها عن ابن مسعود[12]، ولعل سبب هذا الاختيار هو أن اللغة تدل على أن الدلوك هو الميل، فيكون المراد صلاة الظهر، ورجحه ابن جرير، وناقش الأول[13]، وقد يكون الترجيح لأثر مرفوع، ومنه ما جاء عن قتادة وهو يحدث عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى، وشبك بين أصابعه[14]، فرجح الحسن أنها صلاة العصر[15]، متابعاً في ذلك عدداً من الصحابة ﷺ، والمرجح هنا هو الأثر المرفوع الذي رواه الحسن عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «**الصلاة الوسطى صلاة العصر**»[16]. وقد يكون الترجيح بقول صحابي آخر يقدِّم به عموم الآية على ما ورد في خصوصها، ويجمع به بين الأقوال، فمن ذلك

(1) تفسير الطبري (11/ 410)، زاد المسير (3/ 55).
(2) تفسير الطبري (11/ 410).
(3) تسير التابعين (2/ 658).
(4) تفسير التابعين (2/ 658).
(5) تفسير الطبري (11/ 570)، زاد المسير (3/ 92).
(6) تفسير الطبري (11/ 570).
(7) تفسير الطبري (15/ 134).
(8) فتح القدير (3/ 254).
(9) زاد المسير (5/ 72).
(10) فتح القدير (3/ 254).
(11) زاد المسير (5/ 72).
(12) زاد المسير (5/ 72).
(13) تفسير الطبري (15/ 136، 137).
(14) زاد المسير (1/ 282).
(15) تفسير التابعين (2/ 661).
(16) تفسير الطبري (5/ 194) رقم 5438.

تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: 1]. فقد جاء تفسير الكوثر عن جمع من الصحابة أنه نهر في الجنة[1]، وعن ابن عباس أنه الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه[2]، وتابعه على ذلك سعيد بن جبير، فقال أبو بشر لسعيد: إنا كنا نسمع أنه نهر في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[3] فهنا رجح ابن جبير العموم في الآية مستنداً لقول ابن عباس، ولم يذهب إلى الخصوص الأثر الوارد في ذلك، أما إذا لم يكن ثمة مروي عن الصحابة في ذلك، فعندئذٍ يدخل منهم من يدخل في باب الاجتهاد[4]. وقد أدت الرواية عن الصحابة والاعتماد عليها في التفسير إلى ظهور نتائج وآثار ترتبت على ذلك منها، حفظ أخبار الصحابة ومعرفة دقيق أحوالهم والتمييز بينهم، والالتزام بمناهجهم والإفادة منها، وتبني أقوالهم[5].

4 - اللغة العربية:

لقد تنوعت مشارب التابعين في اعتمادهم على اللغة وجعلها مصدراً من مصادر التفسير وذلك لعدة أسباب منها معرفة لغة العرب ومعرفة عادات العرب وأخبارهم، والإلمام بأشعار العرب، ومعرفة فقه اللغة من الاشتقاق، والإيجاز والحذف، والتقديم والتأخير، وغير ذلك من الأسباب[6].

5 - الاجتهاد:

ظهرت اجتهادات التابعين في التفسير، حتى إبان عهد الصحابة، وشملت اجتهاداتهم مواطن كثيرة، غالبها مما سكت عنه الصحابة ومن أهمها:

أ - بيان المراد من النص، وذلك، إذا كان النص خفي الدلالة بسبب إجمال في اللفظ أو التركيب.

ب - استنباط بعض الأحكام من النصوص القرآنية.

ج - بيان الفروق بين ما تشابه من الكلمات، والمعاني، والتفسير بين النظائر.

س - العناية الفائقة بدقائق من علم الكتاب العزيز، كمباحث عدد الآيات، والكلمات في القرآن الكريم[7] وغيرها، وقد كان لاجتهاد التابعين في تفسير الآيات مميزات منها:

- تنوع عبارات الاجتهاد وتعددها.

- الإيجاز غير المخل.

---

(1) زاد المسير (9/ 248).
(2) الدر المنثور (8/ 649).
(3) زاد المسير (9/ 248).
(4) تفسير التابعين (2/ 661).
(5) المصدر نفسه (2/ 672 إلى 677).
(6) المصدر نفسه (2/ 689 إلى 707).
(7) تفسير التابعين (2/ 711).

- عمق التأمل ودقة التفسير.

- قوة الاستنباط.

خامساً: جهود عمر بن عبد العزيز والتابعين في خدمة السنة:

نهى رسول الله ﷺ عن كتابة غير القرآن في أول الأمر، مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف فنسخ الأمر، وصار الأمر إلى الجواز[1]. وقد ثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصلون بكتابة الحديث وحفظه[2]. وقام الجهابذة من أهل العلم، والغيورين من المسلمين بجهود جبارة لتدوين السنة المطهرة وجمع الحديث النبوي، وتنقيته من شوائب الوضع، وبذلوا في ذلك مهجهم وأوقاتهم، فأسهروا ليلهم، وضربوا في الأرض نهارهم، وأصّلوا لذلك أصولاً، وقعّدوا قواعد، حتى أثمرت تلك الجهود المباركة هذه الدواوين العظيمة، التي يعكف المسلمون على قراءتها وحفظها والعمل بها والفضل كل الفضل لله - ثم لأولئك البررة الذين كانوا السبب في جمعها، وليس لهم مكافأة أعظم من أجر الله الجزيل لهم يوم القيامة إن شاء الله تعالى[3]، ولعل طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي، الذين قامت به جهة مسؤولة في الدولة الإسلامية، كان على يدي عبد العزيز بن مروان - والد عمر - عندما كان أميراً على مصر كما مرّ معنا، بيد أن التدوين الذي آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك، فمن إرشاداته قوله: أيها الناس قيدوا العلم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة[4]، لكن أمير المؤمنين عمر لم يكتف بهذا الإرشاد العام والحض على حفظ العلم بكتابته، بل سعى - بحكمه خليفة المسلمين - إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين في إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علماً كثيراً، فخشي عمر على ضياعه، خاصة وأنه ليس دائماً تتوفر الحفظة الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار وثمة سبب آخر يضاهي سابقه في الأهمية، وهو فشوّ الوضع ودسّ الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبي ﷺ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابه[5]. ورأي

---

(1) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 74.

(2) المصدر نفسه، ص: 75.

(3) المصدر نفسه، ص: 75.

(4) المصدر نفسه، ص: 76.

(5) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 77.

الزهري هذا كان رأي كثير من أئمة ذلك العصّر، حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بالخليفة الورع العالم المجتهد أمير المؤمنين عمر، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة[1]. وإليك خطواته ومجهوداته في هذا الشأن:

1 - كتب إلى الإمام الثبت أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء: أبي بكر بن حزم، يأمره بذلك، ففي صحيح البخاري: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، فاكتبه، فإن خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً[2]، وروى ابن سعد عن عبد الله بن دينار - قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة بن عبد الرحمن، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله[3].

2 - كذلك وجه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري: فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز، بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً[4]، وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة في مصارف الزكاة الثمانية، فلبى الزهري أمره، وكتب له كتاباً مطولاً يوضح ذلك بالتفصيل[5]. ومن هنا قال ابن حجر: وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فللّه الحمد[6].

3 - بل إن عمر وجه أوامره إلى أهل المدينة جميعاً يأمرهم ويحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ، يشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله[7].

---

(1) أصول الحديث، محمد عجّاج الخطيب، ص: 176 - 177. 186.
(2) فتح الباري (1/ 194 - 195).
(3) الطبقات، أصول الدين، ص: 177 - 179.
(4) جامع بيان العلم (1/ 91 - 92).
(5) الأموال، ص: 231 - 232.
(6) فتح الباري (1/ 208)، أصول الحديث، ص: 178، 180.
(7) سنن الدارمي (1/ 137).

4 - ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّمَ أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ، وما سمعه من أصحابه الكرام[1]، وروى: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء[2].

وقد اهتم عمر رضي الله عنه باللغة العربية: فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلمّها وإتقانها، وكان يغدق عليهم - لذلك - العطايا، كما أنه يعاقب من يلحن بالعربية وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية في فهم كتاب الله والسنة النبوية الشريفة[3].

● - منهج عمر بن عبد العزيز وطريقته في التدوين:

اتبع عمر في جمع الحديث النبوي وتدوينه منهجاً سديداً قويماً وسلك فيه شروطاً صارمة ووضع له أبعاداً هادفة مفيدة. ويتجلى ذلك في أربع أمور:

1 - حسن اختياره للقائمين بهذا الأمر:

فأبو بكر بن حزم هو أحد أوعية العلم ومن أعلام عصره قال فيه الإمام مالك: ما رأيت مثل ابن حزم أعظم مروءة ولا أتمَّ حالاً، ولا رأيت من أوتي مثل ما أوتي: ولاية المدينة، والقضاء، والموسم. وقال: كان رجل صدق، كثير الحديث. وقال ابن سعد: كان ثقة عالماً كبير الحديث توفي 120هـ[4]. وأما الزهري، فهو العالم العَلَم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق، قال فيه الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب، محدث في الترغيب والترهيب، فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا. وإن حدّث عن القرآن والسنة، كان حديثه وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه[5].

2 - أنه طلب ممّن يدوّن له السنة جمع الأحاديث مطلقاً وتدوينها:

وتتبع أناس مخصوصين لما امتازوا بتدوين أحاديث معينة لأهميتها: فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عَمْرَة بنت عبد الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة والسيدة عائشة

---

(1) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 79.
(2) فتح الباري (1/ 195)، أصول الحديث، ص: 178.
(3) عمر بن عبد العزيز للشرقاوي، ص: 178.
(4) سير أعلام النبلاء (5/ 313 - 314).
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 328)، عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 80.

هي أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشؤونه الخاصة داخل بيته ومع أهله[1]، وعمرة هذه هي: عمرة بنت عبد الرحمٰن بن سعد بن زُرارة الأنصارية النّجارية المدنية الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، وجدّها سعد من قدماء الصحابة، وهو أخو النقيب الكبير أسعد بن زرارة، ذكرها ابن المديني فضخَّم أمرها وقال: عمرة إحدى الثقات العلماء بعائشة، الأثبات فيها[2]. وقال الزهري: أتيتها فوجدتها بحراً لا يُنْزَف[3]. توفيت عام 98 هـ وقيل 106 هـ[4]. وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع التدوين حديث عمر بن الخطاب. وذلك لما يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق وأقضيته وسياسته في الصدقات، وكتبه إلى عماله فيها وقد طلب ذلك أيضاً من سالم بن عبد الله بن عمر. وكل ذلك واضح من النهج الذي سلكه عمر ابن عبد العزيز في الإقتداء بجده ﷺ[5]. كذلك كتب إلى آل عمرو بن حزم أن ينسخوا له كتاب النبي ﷺ لهم في الصدقات، كي يسير عليه في خلافته وفي تسيير أمور رعيته[6].

3 - أنه ألزم من يدوّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم:

ويتحرى الثابت من الحديث، وذلك واضح في رواية الدارمي حيث يقول عمر لابن حزم: اكتب إليَّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمر. وعند الإمام أحمد في العلل: أكتب إلي من الحديث بما ثبت عندك من رسول الله ﷺ وحديث عَمْرَة[7]. وهذه نقطة عظيمة الأهمية في تأسيس منهج التدوين على أسس راسخة، ثابتة صحيحة، قويمة مستقيمة[8].

4 - تثبته من صحة الحديث والتحديث:

فعمر من كبار العلماء، وليس بأقل شأناً في العلم ممن أمرهم بالتدوين، لذلك قام بمشاركة العلماء في مناقشة بعض ما جمعوه، زيادة في التثبيت[9]، من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله ابن ذكوان القرشي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء الذي ليس العمل عليه قال: هذه زيادة ليس العمل عليها[10].

● - ثمرة هذا التدوين:

لقد آتت هذه الجهود الباكرة المباركة بعض أُكُلها، وتمثل ذلك بتلك الدفاتر التي جمعها

---

(1) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 81.
(2) المصدر نفسه، ص: 81 تهذيب التهذيب (12/ 466).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 508) نساء لها تاريخ، ص: 155.
(4) المصدر نفسه (4/ 508).
(5) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 81.
(6) المصدر نفسه، ص: 81.
(7) نقلاً عن مقدمة المسند، ص: 20، 23.
(8) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 82.
(9) المصدر نفسه، ص: 82.
(10) أصول الحديث، ص: 82.

الإمام الزهري، فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها عدة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد في دولته الكبيرة دفتراً منها، ويلاحظ أن كثيراً من العلماء جمع لنفسه مسموعاته، ليعود إليها كلما وجد في نفسه الحاجة إلى إتقان حفظها، أما التدوين الرسمي الذي تولّته الدولة، وعممت ثمرته على الأمصار، فكان بأمر عمر بن عبد العزيز، ومن الثمرات الطيبة - أيضاً - ذلك المنهج السديد الذي اتبعه أمير المؤمنين عمر، بوضع الأسس والنقاط الهامة أثناء التدوين، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده، وهذا كله ناتج من دقة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصيرته، وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له، ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصديق بجمع القرآن، ففعل، فكان لهما الفضل الكبير على الأمة. ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هي لهجة قريش، فإن الله سبحانه قد ادّخر لعمر بن عبد العزيز - نحسب ذلك ولا نزكي على الله أحد - تلك المنقبة العظيمة، والمكرمة الجليلة، في إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من الدولة حماية السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع. وهذا من توفيق الله للعظماء، وكبار المصلحين، عندما تخلص سرائرهم، لله يوفقهم الله للحق ويدلهم على الخيرات، ويسدّد خطواتهم، ويهيء لهم من أمرهم رشداً[1].

قال الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي:

فإذا أحب الله باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتّاح
وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد عليه بالأرواح[2]

ويعتبر «التدوين الرسمي» بحق أحد الأعمال العظيمة والإنجازات الكبيرة التي تحققت في عهد عمر بن عبد العزيز[3] رحمه الله.

● - جهود التابعين في خدمة السنة النبوية الشريفة:

تحمل التابعون الحديث النبوي عن الصحابة وضبطوا الإسناد مع الدقة والإتقان، وأصبح الحديث أمانة في أعناقهم عليهم أن يجتهدوا في تبليغها وإيصالها إلى من وراءهم لاسيما وقد ظهر في عصرهم بسبب الخلافات السياسية والكلامية وبسبب الزندقة المتمثلة في التظاهر بالإسلام مع كراهيته، ديناً، ودولة، وبسبب التعصب للجنس، واللغة والقبيلة، والبلد، وبسبب التكسب والارتزاق عن طريق القصاص والوعظ وبسبب الجهل من بعض الزهاد والعباد وغير ذلك من الأسباب، ظهر الكذب والوضع في الحديث، فانبرى هؤلاء يؤدون

(1) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 83.
(2) الثمار الزكية للحركة السنوسية، ص: 198.
(3) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 83.

الأمانة ويقومون بواجبهم في مواجهة الكذابين والوضاعين، وكانت لهم في ذلك جهود ضخمة مشكورة[1] يمكن تلخيصها في الآتي:

1 - الالتزام بالإسناد ومطالبة الغيرية:

أ - قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[2].

ب - جاء عن عتبة بن أبي الحكم: أنه كان عند إسحاق بن أبي فروة وعنده الزهري، قال: فجعل ابن أبي فروة يقول: قال رسول الله ﷺ: . . . فقال له الزهري: قاتلك الله يا ابن أبي فروة ما أجرأك على الله لا تسند حديثك، تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة[3].

2 - عقد الحلقات العلمية:

يقول ابن سيرين: قدمت الكوفة، وللشعبي حلقة علمية عظيمة، والصحابة يومئذٍ كثير[4].

وعن ابن شهاب قال: كان يقص لنا سعيد بن جبير كل يوم مرتين: بعد الفجر، وبعد العصر[5].

3 - الحرص على أداء الحديث على وجهه:

يعني روايته بلفظه، فإن لم يتيسر ذلك رووه بالمعنى مراعين شروطه وضوابطه المعروفة[6].

فعن ابن عون قال: كان إبراهيم، والشعبي، والحسن، يأتون بالحديث على المعاني، وكان القاسم، وابن سيرين، ورجاء يعيدون الحديث على حروفه[7]. وقال ليث بن أبي سليم: كان طاووس يعد الحديث حرفاً حرفاً[8]، وقال جرير بن حازم: سمعت الحسن يحدث بالحديث: الأصل واحد، والكلام مختلق[9].

4 - وضع معايير علمية لمعرفة حال الرواة تجريحاً وتعديلاً:

- **مثل مقابلة روايات الضابطين ببعضها،** كقول ابن شهاب الزهري: إذا حدثني عَمْرَة ثم

---

(1) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي للشايجي، ص: 54 هذه الرسالة مع صغر حجمها ولكنها قيمة.

(2) مسلم في مقدمته، باب بيان الإسناد من الدين (1/ 15).

(3) معرفة علوم الحديث للحاكم، ص: 6.

(4) تاريخ الإسلام، ص: 126 حوادث 104هـ.

(5) سير أعلام النبلاء (4/ 336).

(6) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي، ص: 58.

(7) سير أعلام النبلاء (4/ 559).

(8) سير أعلام النبلاء (5/ 465).

(9) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (2/ 21).

حدثني عروة صدق عندي حديث عمرة حديث عروة، فلما تبحرتهما إذا عروة بحر لا ينزف[1].

- **أو مقابلة حديث الراوي بحديث نفسه ولكن على فترات متباعدة:** كما جاء أن هشام بن عبد الملك أراد التأكد من حفظ الزهري، فاختبره بنفسه حيث سأله أن يملي على بعض ولده فدعا بكتاب، فأملى عليه أربعمائة حديث، ثم إن هشاماً قال له بعد شهر أو نحوه، يا أبا بكر إن ذلك الكتاب ضاع، فدعا بكتاب فأملاها عليه، ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفاً[2].

- **أو بقلب الأسانيد والمتون:** كما جاء عن حماد بن سلمة قال: كنت أسمع أن القصاص لا يحفظون الحديث، فكنت أقلب الأحاديث على ثابت: أجعل أنسا لابن أبي ليلى وبالعكس أشوشها عليه فيجئ بها على الاستواء[3].

- **ومن معرفة المبتدع بإعراضه عن السنة إلى القرآن:** عن أبي قلابة: قال: إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله فاعلم أنه ضال[4].

- **ومن ضرورة حفظ القرآن قبل الاشتغال بالحديث:** عن حفص بن غياث قال: أتيت الأعمش فقلت: حدثني، قال: أتحفظ القرآن؟ قلت: لا قال: اذهب، فاحفظ القرآن، ثمّ هلمّ أحدثك، قال: فذهبت فحفظت القرآن، ثم جئته فاستقرآني، فقرأته، فحدثني.

5 - إجابة المستفتين، والقضاء بين الناس:

كان من جهود التابعين في خدمة أداء إجابة المستفتين، والقضاء به بين الناس، هذا علقمه ابن قيس النخعي يتفقه به أئمة، كإبراهيم، والشعبي، ويتصدى للإمامة والفتيا بعد علي وابن مسعود، وكان يشبه بابن مسعود في هديه، ودله، وسمته وكان طلبته يسألونه ويفقهون به، والصحابة متوافرون[5]. وعن أبي الزناد قال: كان الفقهاء السبعة الذين يسألون بالمدينة، وينتهي إلى قولهم: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، والقاسم، وعبيد الله بن عبد الله وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار[6]. ولا شك أن إجابة المستفتين

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 436).
(2) السنة ومكانتها في التشريع، ص: 209.
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 222).
(4) المصدر نفسه (4/ 742).
(5) المحدث الفاصل : باب أوصاف الطالب وآدابه، ص: 203.
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 438).

والقضاء بين الناس ما كان لهما أن يظهرا على أرض الواقع مع الدعة والراحة والنوم، وإنما تتطلبا جهداً ووقتاً ونفقة للإعداد والتحضير، ثم الأداء[1].

6 - بيان حال الرواة لمعرف من يحتج بحديثه ومن لا يحتج[2]:

كان من جهود التابعين في خدمة الحديث النبوي أداء بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج.

أ - عن محمد بن سيرين قال: أدركت أهل الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور ثنى بعبيدة السلماني، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث، ثم علقمة، ثم مسروق، ثم شريح[3].

ب - وعن قتادة قال: إذا اجتمع لي أربعة لم ألتفت إلى غيرهم، ولم أبال من خالفهم: الحسن، وابن المسيب، وإبراهيم، وعطاء هؤلاء أئمة الأمصار[4].

هذه هي أهم الجهود التي بذلوها في خدمة الحديث النبوي ومن أراد التوسع فليراجع السنة قبل التدوين[5] للدكتور محمد عجاج الخطيب، والتابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي.

سادساً: منهج التزكية والسلوك عند التابعين مدرسة الحسن البصري مثالاً:

● - الحسن البصري في عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

يعتبر الحسن البصري من المعاصرين لعمر بن عبد العزيز، كما أنه كان له تأثير واضح في الحياة الدينية والإجتماعية في عهد الدولة الأموية والحسن البصري هو أبو سعيد الحسن بن يسار - مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه، من كبار التابعين، وإمام أهل البصرة، وحبر الأمة وقتها، وأمه» خيرة» مولاة أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها. ولد عام 21هـ في المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويقال الحسن أرضعته - أم سلمة ـ رضي الله عنها - حيث كانت أمه - خيرة - تخرج لشراء بعض الحاجيات، فيبكي الطفل فتأخذه أم سلمة بين يديها، وتضعه في حجرها، وتلقمه ثديها، فيدر الثدي لبناً، فيرضع الحسن، وبذلك تكون أمه من الرضاعة، وقد كانت فصاحته وعلمه من هذه البركة ومن البديهي أن يتعرف الطفل الصغير على بيوت أمهات المؤمنين وينهل

(1) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي، ص: 64.
(2) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي.
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 91).
(4) المصدر نفسه (5/ 83).
(5) السنة قبل التدوين، ص: 144 إلى 199.

من معينهن، ويتأدب بأدبهن ويتخلق بأخلاقهن، ومن جهة أخرى يتلمذ على كبار الصحابة في مسجد رسول الله ﷺ، كأبي موسى الأشعري، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله ﷺ أجمعين، وانتقل مع أبويه فيما بعد إلى «البصرة» وإليها ينسب فيقال الحسن البصري، وكان عمره وقتها أربع عشرة سنة، فلزم مسجد البصرة ينهل من معين علمائها وخاصة حلقة حبر الأمة وعالمها عبد الله بن عباس ﷺ، وما هو إلا قليل حتى التف الناس حوله، وقصدوه من كل حدب وصوب، وكما قيل فيه كان قوله كفعله، لا يقول ما لا يفعل. سريرته كعلانيته، إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به، وإذا نهى عن منكر كان أنزل الناس له، مستغنياً عما في أيدي الناس، زاهداً به، والناس محتاجون إليه بما عنده[1].

1 - أسباب تأثيره في قلوب الناس:

جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثّر في قلوب الناس، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين في المجتمع، فقد كان واسع العلم غزير المادة في التفسير والحديث، ولم يكن لأحد في ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالإصلاح، إلا إذا كان متوفراً على هذين العلمين وقد أدرك الصحابة وعاصر كثيراً منهم ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة، وأدرك روحه وعرف كيف تطور المجتمع الإسلامي، ومن أين انحرف، وكان واسع الاطلاع، دقيق الملاحظة للحياة ومختلف الطبقات وعوائدها وأخلاقها وعِللها وأدوائها، كطبيب مارس العلاج مدة[2]، وكان مع ذلك غاية في الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير في مستمعيه يقول أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، والحجاج بن يوسف والحسن أفصح منه[3]، وكان آية في اتساع المعلومات ووفور العلم، قال الربيع بن أنس: اختلفت إلى الحسن عشر سنين، وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله. وقال محمد بن سعد: كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً، ثقة مأموناً، عابداً ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً، جميلاً وسيماً، وقدم مكة فأجلس على سرير، واجتمع الناس إليه، وقالوا: لم نرَ مثل هذا قط، وقد وصفه ثابت بن قُرة - كما نقل عنه أبو حيان التوحيدي. فقال: كان من ذراري النجوم علماً وتقوى، وزهداً وورعاً، وعفة ورقّة، وفقهاً ومعرفة، يجمع مجلسه ضروباً

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 563 إلى 588)، حياة الحسن البصري د. روضة الحضري، الحسن البصري إمام عصره وعلامة زمانه، مرزوق علي إبراهيم، الحسن البصري، مصطفى سعيد الخن، الزهد للحسن البصري. د. محمد عبد الرحيم محمد.

(2) رجال الفكر والدعوة (1/ 67).

(3) نظرات في التصوف الإسلامي د. محمد القهوجي، ص: 221.

من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقفُ منه التأويل[1]، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يحكي به الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الوعظ وهو في جميع ذلك كالبحر اللُّجاج تدفقاً، وكالسِّراج الوهاج تألقاً ولا تُنسَ مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عند الأمراء وأشباه الأمرء، بالكلام الفصل واللفظ الجزل[2]، وكان فوق ذلك كله وهو سر تأثيره في القلوب، وسحره في النفوس، وخضوع الناس له - أنه كان صاحب عاطفة قوية، وروح ملتهبة وكان من كبار المخلصين، وكان الذي يقول يخرج من القلب فيدخل في القلب وكان إذا ذكر الصحابة أو وصف الآخرة، أدمع العيون وحرك القلوب[3]، قال عنه مطر الوراق: لما ظهر الحسن جاء كأنَّما كان في الآخرة فهو يخبر عمَّا عاين[4]. وقال عوف: ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن[5]. فقد كان يتذوق الإيمان، ويتكلم عن عاطفة ووجدان، لذلك كانت حلقته في البصرة أوسع الحلقات، وانجذب الناس إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس - وذلك شأن أهل القلوب والإخلاص في كل زمان - وكان من أعظم ما امتاز به هو أنَّ كلامه كان أشبه ما سمع الناس بكلام النبوة وقال الغزالي في إحياء علوم الدين: ولقد كان الحسن البصريُّ ﷺ أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هدياً من الصحابة ﷺ، اتّفقت الكلمة في حقه على ذلك[6]، وكانت نتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة، أنه كان صاحب شخصية قوية جذابة حبيبة إلى النفوس، وكان الناس مأخوذين بسحرها، خاضعين لعظمتها، حتى قال ثابت بن قرّة الحكيم الحرّاني: إن الحسن من أفراد الأمة المحمدية التي تتباهى بهم على الأمم الأخرى[7]. وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصري في المجتمع، ونفوذه في القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس، ونزل أعماق المجتمع، ووصف أمراضه، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق، والناصح الشفيق، لقد كان عصره يغُصُّ بالدعاة والوعاظ، ولكنَّ المجتمع لم يتأثر لأحد كتأثره بالحسن، لأنه كان يَمسُّ قلبه وينزل في صميم الحياة، ويعارض التيار، لأنه كان ينعى على الإخلاد إلى الحياة والانهماك في الشهوات، وقد انتشر هذا المرض في الحياة، إنه كان يذكر بالموت ويستحضر الآخرة، والمترفون يتناسون ذلك ويُعلِّلون نفوسهم بالأماني الكذابة والأحلام اللذيذة، ويتضايقون بذكر ما يكدِّر عليهم الحياة ويُعكِّر صفو عيشهم، فكان دائماً في صراع مع الجاهلية، والجاهلية لا تخضع إلا لمن صارعها، ولا تعترف إلا بوجود الرجل الذي يحاربها وكان الحسن البصري هو ذاك الرجل،

---

(1) التأويل: التفسير.
(2) رجال الفكر والدعوة (1/ 68).
(3) المصدر نفسه (1/ 68).
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 573).
(5) المصدر نفسه (4/ 575).
(6) رجال الفكر والدعوة (1/ 68).
(7) المصدر نفسه (1/ 68).

فعظم تأثيره وكثر التائبون والمُقْلعون عن المعاصي والحياة الجاهلية التي كانوا يعيشونها وانطلقت موجة الإصلاح قوية مؤثرة، لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يُلقيها، بل كان يُعنى بتربية من يتصل به ويجالسه. فكان جامعاً بين الدعوة والإرشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخُلقية والروحية فاهتدى به خلائق لا يحصيهم إلا الله، وذاقوا حلاوة الإيمان وتحلوا بحقيقة الإسلام[1].

2 - ملامح التصوف السني عند الحسن البصري:

يعتبر الحسن البصري من علماء السلوك النادرين وممن اهتموا بأمراض النفوس وعلاجها، وإحياء القلوب وإمدادها بالإيمان والمعاني الربانية السامية، وكان ﷺ سليم العقيدة، متقيد بالكتاب والسنة في تعليمه وتربيته، ولا شك أن الأساس في التصوف السني هو الالتزام بالكتاب والسنة وفق منهج السلف الصالح في العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة وسنرى ذلك من خلال سيرة الحسن، ومن الأمور التي اهتم بها الحسن ﷺ:

أ - قسوة القلب ومواته وإحياؤه:

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي قال: ادنه من الذكر[2]، وقال: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأتبعوه بالتطوع[3]، إن قسوة القلب ذمها المولى عز وجل قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: 74]، ثم بين وجه كونها أشد قسوة، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: 74]. وقال رسول الله ﷺ **«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»**[4]. وأما أسباب القسوة كثيرة منها: كثرة الكلام بغير ذكر الله، نقض العهد مع الله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]، ومنها كثرة الضحك، ومنها كثرة الأكل لاسيما من الحرام، ومنها كثرة الذنوب[5]، وغيرها وقد ذكر الكثير منها الحسن البصري في كلامه. وأما مزيلات القسوة فمتعددة منها:

- **كثرة ذكر الله يتواطأ عليه القلب واللسان.** قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: 23] قال رسول الله ﷺ: **«إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد»**، قيل: فما جلاؤها

---

(1) رجال الفكر والدعوة (1/ 75).
(2) الزهد للحسن البصري، ص: 123.
(3) المصدر نفسه، ص: 124.
(4) سنن الترمذي رقم 2411 حسن غريب.
(5) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (1/ 261، 262).

يا رسول الله قال: **«تلاوة كتاب الله وكثرة ذكره»**[1]. وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: أيها الناس أني أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لها، ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون، وقل المذكرون، ولما وجد من يدعو إلى الله جل ثناؤه، ويرغب في طاعته وينهى عن معصيته ولكن في اجتماع أهل البصائر ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضاً حياة لقلوب المتقين وإذكار من الغفلة، وأمن من النسيان، فالزموا عافاكم الله مجلس الذكر، فرب كلمة مسموعة، ومحتقر نافع، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون[2]. وكان يقول: سبحان من أذاق قلوب العارفين من حلاوة الانقطاع إليه، ولذة الخدمة له ما علق همهم بذكره وشغل قلوبهم عن غيره فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته، ولا أقر إلى أعينهم من خدمته ولا أخف على ألسنتهم من ذكره سبحانه وتعالى مما يقول الظالمون علواً كبيراً[3]، وكان يقول: تفقد الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة والقراءة والذكر، فإن وجدت ذلك فامض وأبشر وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه[4]، ومن أفضل الذكر العمل بالقرآن وتلاوته وكان الحسن البصري يقول: من أحب أن يعلم ما هو فيه، فليعرض عمله على القرآن، ليتبين الخسران من الرجحان[5]، وكان يقول: رحم الله عبداً عرض نفسه على كتاب الله، فإن وافق أمره حمد الله وسأله المزيد وإن خالف استعتب ورجع من قريب[6]، وكان يقول: أيها الناس إن هذا القرآن شفاء للمؤمنين، وإمام للمتقين فمن اهتدى به هُدي، ومن صرف عنه شقي وابتلي[7] وكان يقول: قراء القرآن ثلاثة نفر: قوم اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس، وقوم أجادوا حروفه وضيعوا حدوده استدروا به أموال الولاة واستطالوا به على الناس - وقد كثر هذا الجنس من حملة القرآن - فلا كثر الله جمعهم ولا أبعد غيرهم، وقوم قرءوا القرآن فتدبروا آياته وتداووا به[8]، وأما قيام الليل فكان يقول فيه: إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار فاعلم أنك محروم، قد كبلتك الخطايا والذنوب[9]. وقال له رجل: يا أبا سعيد أعياني قيام الليل فما أطيقه؟ فقال: يا ابن أخي، استغفر الله وتب إليه، فإنها علامة سوء[10]، وقال: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل[11].

---

(1) البيهقي في الشعب رقم 142، العلل المتناهية لابن الجوزي (2/ 832) الحديث فيه ضعف.
(2) الزهد للحسن البصري، ص: 79.
(3) المصدر نفسه، ص: 79.
(4) المصدر نفسه، ص: 79.
(5) المصدر نفسه، ص: 142.
(6) المصدر نفسه، ص: 142.
(7) المصدر نفسه، ص: 147.
(8) المصدر نفسه، ص: 148.
(9) المصدر نفسه، ص: 146.
(10) المصدر نفسه، ص: 146.
(11) المصدر نفسه، ص: 146.

- **كثرة ذكر الموت:** قال رسول الله ﷺ: **«أكثروا ذكر هاذم اللذات»**[1]. وقال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يترك فيها لذي لب فرحاً[2]. وعن صالح بن رسم قال: سمعت الحسن يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس: ابن آدم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك وتحاسب وحدك، ابن آدم وأنت المعنّى وإياك يراد[3]. وقال الحسن: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك في عمله، ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل[4]. وقيل: رأى الحسن شيخاً في جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة، فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول: أي موعظة؟ ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة؟ ولكن لا حياة لمن تنادي[5]. وقال: حقيق على من عرف أن الموت مورده والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الجبار مشهده أن تطول في الدنيا حسرته وفي العمل الصالح رغبته[6]. وكان يقول: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أصبح شكاً لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره[7]. وكان يقول: عباد الله إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت، فعليكم بالمداومة، فإنه جل ثناؤه يقول: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 99]. وكان يقول: ابن آدم إنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، ابن آدم، لو أن الناس كلهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرك معصيتهم، ابن آدم: ذنبك ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك، فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنما هي نار لا تطفأ وجسم لا يبلى، ونفس لا تموت[8]. وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الموت والمرض والفقر وإنه بعد ذلك لوثاب[9]. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: 33] قال: من قال ذا؟ قال: من خلقها وهو أعلم بها[10]. وقال: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[11].

- **زيارة القبور بالتفكر في حال أهلها:** قال رسول الله ﷺ: **«زوروا القبور، فإنها تذكّر**

---

(1) سنن الترمذي رقم 2307، سنن ابن ماجه رقم 4258.
(2) الزهد للحسن البصري، ص: 20.
(3) المصدر نفسه، ص: 21.
(4) المصدر نفسه، ص: 21.
(5) المصدر نفسه، ص: 21.
(6) المصدر نفسه، ص: 22.
(7) المصدر نفسه، ص: 22.
(8) المصدر نفسه، ص: 23.
(9) المصدر نفسه، ص: 24.
(10) المصدر نفسه، ص: 25.
(11) المصدر نفسه، ص: 26.

الموت»[1]، وفي رواية: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة**»[2]، وكان الحسن البصري كثير الزيارة للقبور، فلما ماتت النوار بنت أعين بن ضبعية المجاشعي امرأة الفرزدق، وكانت قد أوصت أن يصلي عليها الحسن البصري، فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن والحسن على بغلته، والفرزدق على بعيره، فسار فقال الحسن للفرزدق، ماذا يقول الناس؟ قال يقولون: شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس يعنونك، وشر الناس يعنوني، فقال له: يا أبا فراس، لست بخير الناس، ولست أنت بشر الناس، ثم قال الحسن: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها فأنشأ الفرزدق يقول:

أخاف وراء القبر إن لم يعافني ... أشد من القبر التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد ... عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دار من مشى ... إلى النار مغلولا القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مسربلا ... سرابيل قطران لباساً مخرقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم ... يذوبون من حرّ الصديد تمزقا

قال: فبكى الحسن حتى بلّ الثرى، ثم التزم الفرزدق وقال: لقد كنت من أبغض الناس إليَّ، وإنك اليوم من أحب الناس إلي[3]. وكان الحسن يتعظ بالمقابر ويتدبر في أحوالها، فعن عوانه قال: قال الحسن: قدم علينا بشر بن مروان - أخو عبد الملك بن مروان الخليفة - أمير المصرين، وأشب الناس، وأقام عندنا أربعين يوماً، ثم طعن في قدميه فمات، وأخرجناه إلى قبره، فلما صرنا إلى الجبان فإذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحباً لهم إلى قبره، فوضعنا السرير فصلينا عليه، ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه، ثم حملنا بشراً إلى قبره وحملوا صاحبهم إلى قبره، ودفنا بشراً ودفنوا صاحبهم ثم انصرفوا وانصرفنا، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي، فلم أر شيئاً قط كان أعجب منه[4]. وقد ذكر العلماء أمور أخرى تزيل قسوة القلوب كالإحسان إلى اليتامى والمساكين، والنظر في ديار الهالكين والاعتبار بمنازل الغابرين[5].

ب - حثه على الإخلاص، وطاعة الله وإصلاح ذات البين والتفكر:

- **الإخلاص**: إن لإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في مكارم الأخلاق، فهو يمد قلب صاحبه

---

(1) مسلم رقم 976.

(2) مسلم (2/ 672) سنن الترمذي 1869.

(3) الحسن البصري د. مصطفى الخن، ص: 345، نقلاً عن البداية والنهاية.

(4) البيان والتبيين (3/ 147) الحسن البصري د. مصطفى الخن، ص: 349.

(5) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (1/ 264 إلى 270).

بقوّة، تجعله ينهض للمكارم ابتغاء وجه الله، غير منتظر من أحد جزاءً ولا شكوراً يشرح صدره للحلم والعفو ومعالي الأخلاق امتثالاً لأمر الله، وطلباً لرضاه والفوز بنعيم الآخرة، فهو إن أبغض فبغضه لله وهكذا في شأنه كله[1]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 162-163]. فكان الحسن يقول: من تزين للناس بما لا يعلمه الله منه شانه ذلك[2]. وكان يقول: روي عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد إخفاء الزهد[3] وقيل وعظ يوماً، فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا ابن أخي ما عساك أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقاً فقد شهرت نفسك، وإن كنت كاذباً فقد أهلكتها ولقد كان الناس يجتهدون في الخفاء وما يسمع لأحدهم صوت، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القرآن فلا يشعر به جاره، ولقد كان الآخر يتفقه في الدين ولا يطلع عليه صديقه، ولقد قيل لبعضهم، ما أقل التفاتك في صلاتك وأحسن خشوعك؟ فقال: يا ابن أخي وما يدريك أين كان قلبي[4]؟ وكان يقول: نظر رجاء بن حيوة إلى رجل يتناعس بعد الصبح، فقال: انتبه عافاك الله لا يظن ظان أن ذلك عن سهر وصلاة فيحبط عملك[5]. وقال الحسن: ولقد حُدثت أن رجلاً مر برجل يقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: 96]. فقال: والله لأعبدن الله عبادة أُذكر بها في الدنيا، فلزم الصلاة واعتكف على الصيام حتى كان لا يفطر ولا يرى إلا مصلياً وذاكراً، وكلما مر على قوم قالوا: ألا ترون هذا المرائي ما أكثر رياءه، فأقبل على نفسه وقال: ثكلتكِ أمك لا أراكِ تذكري إلا بِشرَ ولا أراكِ أُصِبتِ إلا بفساد نيتكِ وفساد معتقدكِ، وإنك لم تردي الله بعملك، ثم بقى على عمله لم يزد عليه شيئاً إلا إن نيته انقلبت[6]، فتغير الحال ووضع الله له القبول - ولا يمر بقوم إلا قالوا: يرحم الله هذا، ثم يقولون: الآن الآن وكان الحسن يقول: أخلصوا لله أعمالكم[7]، وكان يقول: ابن آدم تلبس لُبسة العابدين، وتفعل أفعال الفاسقين، وتخبت أخبات المريدين، وتنظر نظر المغترين، ويحك! ما هذا خصال المخلصين، إنك تقوم يوم القيامة بين يدي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[8]، وكان يقول روي أن سعيد ابن جبير رأى رجلاً متماوتاً في العبادة فقال يا ابن أخي إن الإسلام حيّ فأحيه ولا تمته أماتك الله ولا أحياك وكان يقول: من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها وبئس ما صنع[9].

---

(1) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص: 21.
(2) حياة الحسن البصري، روضة الحصري، ص: 170.
(3) المصدر نفسه، ص: 170.
(4) الزهد للحسن البصري، ص: 159.
(5) المصدر نفسه، ص: 159.
(6) انقلبت: صارت على الضد مما كانت عليه أي حسنت.
(7) الزهد للحسن البصري، ص: 160.
(8) المصدر نفسه، ص: 160.
(9) المصدر نفسه، ص: 160.

- **الحث على طاعة الله**: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: 59]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: 10]. وكان الحسن يقول: في قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ [المؤمنون: 60] قال: يعطون ما أعطوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قال: يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخشون أن لا ينجيهم من عذاب ربهم عز وجل [1]. وعنه أنه قال: إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً في طاعة الله فبغاك وبغاك - أي طلبك مرة بعد مرة - فرآك مداوماً وملّك ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك[2]وعن الحسن: قال هرم بن حيان: ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها[3].

ومن القصص التي حدثت للحسن: لما ولي عمر بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي فأمر لهما ببيت وكانا فيه شهراً - أو نحوه - ثم إن الخادم غدا ذات يوم فقال: إن الأمير دخل عليكما، فجاء عمر يتوكأ على عصا له، فسلم ثم جلس معظماً لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ كتاباً أعرف أن في إنفاذها الهلكة فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله عز وجل ، فهل تريا لي في متابعتي إياه فرجاً؟ فتكلم الشعبي فانحط في حبل ابن هبيرة، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أيها الأمير، قد قال الشعبي ما قد سمعت، قال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أقول يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل ، يا عمر بن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظر تمقت فيغلق بها باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر بن هبيرة إني أخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14] يا عمر بن هبيرة إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه، قال فبكى عمر وقام بعبرته، فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وكثر منه ما للحسن وكان في جائزته للشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن منه شيئاً فجهلته ولكن أردت وجد ابن هبيرة، فأقصاني الله منه[4]. وقال الحسن: لا تخالفوا الله عن أمره، فإن خلافاً عن أمره

---

(1) الزهد للحسن البصري، ص: 74.
(2) المصدر نفسه، ص: 75.
(3) المصدر نفسه، ص: 75.
(4) المصدر نفسه، ص: 76.

عمران دار قد قضى الله عليها بالخراب[1]. وقال الحسن في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: 25] قال: المتوجه بقلبه وعمله إلى الله عز وجل [2]. وكان يقول: رحم الله امرأً كان قوياً فأعمل قوته في طاعة الله، أو كان ضعيفاً فكفَّ عن معاصي الله[3].

- **الاعتبار والتفكر:** قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: 190]. وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: 21]. فالتأمل والتفكر في الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجدات من عظمة الله الخالق الدالة على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها: من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على علم سعة الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره واللهج بذكره، وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره[4]، فعبادة التفكر والاعتبار دعا إليهما الحسن البصري وحث الناس عليها، فقال رحمه الله: إن من أفضل العمل الورع والتفكر[5]، وقال: من عرف ربه أحبه، ومن أبصر الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا فكر حزن[6]. وكان يقول: رحم الله امرأً نظر ففكر، وفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر وأبصر فصبر، لقد أبصر أقوام ثم لم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم، فلم يدركوا ما طلبوا ولا رجعوا إلى ما فارقوا فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين[7]، وقال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[8]، وكان يقول: الفكرة مرآة تريك حسناتك من سيئتك، فمن اعتمد عليها أفلح ومن أغفلها افتضح[9].

- **العلم والعلماء:** وكان يقول: الفهم وعاء العلم، والعلم دليل العمل، والعمل قائد الخير، والهوى مركب المعاصي والمال داء المتكبرين، والدنيا سوق الآخرة، والويل كل الويل لمن قوي بنعم الله على معاصيه[10]، وقال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه، وفي لسانه وبصره وبره[11].

ج - النهي عن طول الأمل وذم الكبر:

- **النهي عن طول الأمل:** قال الحسن: إن المؤمن في الدنيا غريب لا يجزم ذلها ولا ينافس

---

(1) الزهد للحسن البصري، ص: 76.
(2) المصدر نفسه، ص: 77.
(3) المصدر نفسه، ص: 77.
(4) شجرة الإيمان للسعدي، ص: 49، الوسطية في القرآن، ص: 239.
(5) الزهد، للحسن البصري، ص: 82.
(6) المصدر نفسه، ص: 83.
(7) المصدر نفسه، ص: 83.
(8) المصدر نفسه، ص: 83.
(9) المصدر نفسه، ص: 83.
(10) المصدر نفسه، ص: 92.
(11) المصدر نفسه، ص: 92.

أهلها في غرها، الناس منه في راحة، ونفسه منه في شغل طوبى لعبدٍ كسب طيباً، وقدم الفضل ليوم فقره وفاقته ووجهوا هذا الفضل حيث وجهه الله، ولا تلقوها ها هنا فيما يضركم[1]. وكان يقول: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل[2]، ومن درر كلامه قوله: يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك[3].

- **النهي عن الكبر:** قال الحسن: يا ابن آدم، كيف تتكبر وأنت من سبيل البول مرتين[4]، وقيل: رأى الحسن نعيم بن رضوان يمشي مشية المتكبر فقال: انظروا إلى هذا ليس فيه عضو إلا ولله تعالى فيه نعمة وللشيطان لعنة[5].

3 - من تلاميذ الحسن البصري الذين اشتهروا بعلم السلوك:

كان الحسن البصري من علماء أهل السنة واهتم ﷺ بعلم السلوك، وكان له مجلس خاص في منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك[6]، وقد تأثر بمدرسة الحسن البصري مجموعة خيرة، لكوكبة نيرة، ونجوماً ساطعة من علماء أهل السنة، منهم:

أ - أيوب السختياني: هو الإمام الحافظ سيد العلماء، أبو بكر بن أبي تميمة كيسان[7]، كان ثقة ثبتاً في الحديث، جامعاً عدلاً، ورعاً، كثير العلم[8]، وكان إذا سئل عن شيء ليس عنده فيه شيء قال: أسأل أهل العلم، وكان كثيراً ما يقول: لا أدري. حتى قال حماد بن زيد: ما رأيت أحداً أكثر من قول: لا أدري من أيوب ويونس، وكان يحب ستر زهده ويقول: لأن يستر الرجل زهده خير له من أن يظهره[9]، وحج أيوب أربعين حجة، وكان عبيد الله بن عمر يرتاح قلبه في موسم الحج بلقاء أقوام نور الله قلوبهم بالإيمان، منهم أيوب[10]، وكان صديقاً ليزيد بن الوليد بن عبد الملك، فلما تولى يزيد الخلافة قال أيوب: اللهم أنسه ذكري[11]، وكان شديد التبسم في وجوه الناس[12].

● - من مواقف وكلمات أيوب:

- **تعظيمه لأهل السنة:** قال أيوب: إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فكأنما يسقط عضو من أعضائي[13].

---

(1) الزهد للحسن البصري، ص: 81.
(2) المصدر نفسه، ص: 82.
(3) المصدر نفسه، ص: 81.
(4) المصدر نفسه، ص: 90.
(5) المصدر نفسه، ص: 90.
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 579).
(7) سير أعلام النبلاء (6/ 15).
(8) الطبقات (7/ 246).
(9) تاريخ التصوف الإسلامي د. بدوي، ص: 189.
(10) الحلية (3/ 4).
(11) الحلية (3/ 6).
(12) تاريخ التصوف الإسلامي، ص: 189.
(13) الحلية (3/ 9).

- **موقفه من أهل الأهواء والبدع:** قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا ازداد من الله بعد[1]. وعن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن من أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون[2]. قال أيوب: وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب[3].

- **محبته للقاء إخوانه في الله:** قال: إنه يزيدني في حب الموسم وحضوره أن ألقى إخواناً لي فيه لا ألقاهم في غيره[4].

- **عبادته:** كان من العباد المشهورين بحسن العبادة وكثرتها وكان شديد الحرص على إخفائها عن الناس وتصفيتها وإخلاصها لرب الناس[5]، وكان من سادات أهل البصرة، وعبّاد أتباع التابعين وفقهائهم ممن اشتهر بالفضل والعلم والنسك[6]، وكان كثير الحج والعمرة ﷺ لوصية رسول الله بذلك: تابعوا بين الحج والعمرة[7]، وحج أيوب أربعين سنة[8]، وكان يقوم الليل يخفي ذاك، فإذا كان قبل الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[9]

- **الزهد:** قال أيوب: الزهد في الدنيا ثلاث أشياء، أحبها إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمها عند الله تعالى، الزهد في عبادة من عبد دون الله من كل ملك وصنم وحجر ووثن، ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والإعطاء ثم يقبل علينا فيقول: زهدكم هذا يا معشر القراء فهو أخسه عند الله، الزهد في حلال الله عزوجل [10].

- **شهادة الحسن البصري فيه:** قال فيه الحسن: هذا سيد الفتيان[11]، قال: أيوب سيد شباب أهل البصرة[12]، وأما شهادة أيوب في شيخه الحسن فقد قال: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قومٌ من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القيء[13]. وقال: جالست الحسن أربع سنين فما سألته هيبة له[14].

- **وفاته:** بعد عمر قضاه في عبادة الله تعلماً وتعليماً وتربية وخشية لله، وتمسكاً بالسنة وتعظيماً بأهلها وقمعاً لأهل البدع والأهواء وإخلاص العلم والعمل لله توفي في مرض

---

(1) الحلية (3/ 9).
(2) الإمام أيوب السختياني، ص: 47 د.سليمان العربي.
(3) البدع والنهي عنها، ص: 48 لابن وضاح.
(4) الإمام أيوب السختياني، ص: 48.
(5) المصدر نفسه، ص: 50.
(6) مشاهير علماء الأمصار، ص: 150 رقم 1183.
(7) مسند أحمد رقم 167 الحديث صحيح بشواهد.
(8) حلية الأولياء (3/ 5).
(9) المعرفة والتاريخ(2/ 241) الإمام أيوب السختياني، ص: 52.
(10) حلية الأولياء (3/ 7).
(11) طبقات ابن سعد (7/ 247) الإمام أيوب، ص: 75.
(12) حلية الأولياء (3/ 3) الإمام أيوب، ص: 75.
(13) سير أعلام النبلاء (4/ 577).
(14) حلية الأولياء (3/ 11)، الإمام أيوب، ص: 75.

الطاعون بالبصرة عام 131هـ[1]، وروى أبو نعيم بسنده إلى حماد بن زيد قال: غدا علي ميمون أبو حمزة يوم الجمعة قبل الصلاة، وقال: فقال إني رأيت البارحة أبا بكر وعمر في النوم فقلت لهما: ما جاء بكما؟ قالا: جئنا نصلي على أيوب السختياني: قال: ولم يكن علم بموته فقلت له: قد مات أيوب البارحة[2].

ب - مالك بن دينار: علم العلماء الأبرار، معدود من ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، كان من ذلك بلغته[3].

. من مواقفه وأقواله:

- عدم تأثره بالمدح والذم: قال: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم لأن حامدهم مفرط، وذامهم مفرط، إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخراً[4].

- حزن القلب: قال: إذا لم يكن في القلب حزن خرب. وقال: من تباعد من زهرة الدنيا، فذاك الغالب هواه[5].

- جاء يسرق فسرقناه: قيل دخل عليه لص، فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم. قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسئل من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه[6].

- أطيب شيء من الدنيا معرفة الله: قال: خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله.

- محبة أنس بن مالك له: قال مالك بن دينار: أتينا أنساً أنا وثابت ويزيد الرقاشي، فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ لأنتم أحب إلي من عدة ولدي إلا أن يكون في الفضل مثلكم، إني لأدعو لكم في الأسحار[7].

- مصدر كسبه: كان ينسخ المصحف في أربعة أشهر، فيدع أجرته عند البقال فيأكله، وكان أدم مالك بن دينار في كل سنة بفلسين ملح[8].

- وفاته: توفي سنة 127هـ وقيل 130هـ[9]. فمالك بن دينار من علماء أهل السنة ولا ينظر لمن ألصق به آثار واهية نسبها إليه وزعم أنه خلط الروحية الإسلامية بعناصر غير إسلامية

---

(1) الوافي بالوفيات (10/ 54، 55)، الإمام أيوب، ص: 96.

(2) سير أعلام النبلاء (6/ 23).

(3) سير أعلام النبلاء (5/ 362).

(4) المصدر نفسه (5/ 362).

(5) المصدر نفسه (5/ 363).

(6) المصدر نفسه (5/ 363).

(7) المصدر نفسه (5/ 364).

(8) المصدر نفسه (5/ 364).

(9) المصدر نفسه (5/ 364).

وكتابية على وجه التخصيص[1]. بل الثابت من سيرته بأنه من أعلام السلوك ومن تلاميذ الحسن البصري، وأنس بن مالك والأحنف بن قيس وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والقاسم بن محمد[2] وغيرهم من علماء أهل السنة.

ج - **محمد بن واسع**: الإمام الرباني، القدوة[3]، ترجمت له في حديثي عن الفتوحات في عهد عبد الملك، وكان من ضمن جيش قتيبة بن مسلم وقد قام مدة في خراسان[4]. قال عنه مالك بن دينار: القراء ثلاث: فقارئ للرحمن، وقارئ للدنيا، وقارئ للملوك، ويا هؤلاء محمد بن واسع عندي من قراء الرحمن[5]، وكان الحسن البصري يسميه زين القراء[6]، ومن أقواله: إذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد عليه. وقال: يكفي من الدعاء مع الورع يسير[7] العمل، هؤلاء هم أشهر تلاميذ الحسن البصري في علم السلوك والذين كان لهم تأثير كبير في حياة الناس، واليوم نحن في أشد الحاجة لإحياء هذا العلم الذي أصبح نادراً وتصدر له بعد المحسوبين على العلم من أصحاب العقائد الفاسدة والتصورات السقيمة والأفكار المنحرفة، فالأمة في حاجة ماسة لمنهج تربوي سني تستلهم أصوله وفروعه من كتاب الله وسنة رسوله وهدي الصحابة الكرام ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين لكي تقف أمام الهجمة المادية، والطغيان الشهواني، الذي يبث في وسائل الإعلام العالمية والإقليمية والقُطرية، كما أن من عوامل نهوض الأمة كبح شهواتها، وتطهير نفوسها من أمراضها وإحياء القلوب بالمعاني الرفيعة والأعمال القلبية، كالرجاء والخوف والإخلاص والإنابة لله رب العالمين.

4 - براءة الحسن البصري من الاعتزال:

يزعم المعتزلة أن الحسن البصري قال بالقدر على مذهبهم وإنه منهم، فيروون عن داود بن أبي هند أنه قال: سمعت الحسن يقول: كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي[8]. ويوردون رسائل أرسلها إلى عبد الملك بن مروان وفيها قوله بالقدر على مذهب المعتزلة، ويقولون: إن

---

(1) تاريخ التصوف الإسلامي، ص: 207.
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 362).
(3) المصدر نفسه (6/ 119).
(4) تاريخ التصوف الإسلامي، ص: 217، الحلية (2/ 353).
(5) الحلية (2/ 345) تاريخ التصوف الإسلامي، ص: 214.
(6) تاريخ التصوف الإسلامي، ص: 214.
(7) سير أعلام النبلاء (6/ 121).
(8) المنية والأمل لابن المرتضى، ص: 12، القضاء والقدر د. المحمود، ص: 185.

رسائله مشهورة[1]. وقد تحمس الشيخ محمد أبو زهرة ليثبت أن الحسن البصري كان يقول بالقدر على مذهب المعتزلة[2]، والرد على هذه الدعاوى الخالية من الحجج والبراهين والأدلة التالي:

أ - أن المعتزلة أنفسهم لا يقطعون بنسبة الحسن إليهم، ولذا نرى ابن المرتضى لما ذكر الحسن وقوله في القدر قال: فإن قلت: فقد روى أيوب، أتيت الحسن، فكلمته في القدر فكف عن ذلك، قلت: فقد روى أنه خوفه بالسلطان فكف عن الخوض فيه[3]. وهل يخاف الحسن السلطان وهو الرجل الذي يجهر بالحق دائماً.

ب - أما بالنسبة للرسالة المنسوبة إليه فيقول عنها الشهرستاني: ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان، وقد سأله بالقول بالقدر والجبر فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من القرآن الكريم ودلائل من العقل، ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشره من الله - تعالى - فإن هذه الكلمات المجمع عليها عندهم[4]. وهذه الرسالة لم تصح نسبتها إلى الحسن والمعتزلة ينسبون إلى الحسن أقوالاً بروايات منقطعة، فالمرتضى حين ذكر أهل العدل والتوحيد عد منهم الحسن البصري وترجم له ترجمة طويلة، ولما أراد أن يثبت أنه من أهل العدل قال: فمن تصريحه بالعدل، ما رواه علي بن الجعد قال: سمعت الحسن يقول: من زعم أن المعاصي من الله عَزَّوَجَلَّ جاء يوم القيامة مسوداً وجهه وقرأ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: 60]. وعلي بن الجعد الذي يقول: سمعت الحسن لم يسمع منه ولم يلقه[5]، فهذه رواية منقطعة[6].

ج - وابن قتيبة يذكر عن الحسن البصري أنه تكلم في شيء من القدر، ثم رجع عنه، ولكنه يذكر بعد ذلك مباشرة أن عطاء بن يسار ومعبداً الجهني كانا يأتيان الحسن، فيسألانه ويقولان: يا أبا سعيد إن الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله، فقال: كذب أعداء الله[7]، قال ابن قتيبة: فتعلق

---

(1) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص: 186.
(2) تاريخ الجدل، ص: 321 - 322.
(3) المنية والأمل، ص: 15.
(4) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ص: 186.
(5) المصدر نفسه، ص: 187.
(6) المصدر نفسه، ص: 187.
(7) المصدر نفسه، ص: 187.

عليه بمثل هذا وأشباهه[1]. ويشبه هذا ما يورى عن الحسن أنه قال - وهو محق في قوله - إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله ويقولون: إن الله سبحانه قد شاء ما نحن فيه وحملنا عليه وأمرنا به، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: 28] [2]. فهل كلام الحسن رحمه الله في الروايتين دل على أنه قدري؟ إن الجواب على ذلك واضح بداهة لأنه يرد على الذين يحتجون بالقدر على كفرهم ومعاصيهم ولا شك أن هذا الاحتجاج باطل وكلام الحسن حق[3]. وقد أشار ابن تيمية إلى أنه قال: قد اتهم بمذهب القدر غير واحد، ولم يكونوا قدرية، بل كانوا لا يقبلون الاحتجاج على المعاصي بالقدر، كما قيل للإمام أحمد: كان ابن أبي ذؤيب قدرياً، فقال: الناس كل من شدد عليهم بالمعاصي قالوا: هذا قدري. وقد قيل: لهذا السبب نسب إلى الحسن القدر[4].

د - وهناك روايات تنفي هذا الزعم، فعن عمر مولى غفرة قال: كان أهل القدر ينتحلون الحسن بن أبي الحسن، وكان قوله مخالفاً لهم كان يقول: يا ابن آدم، لا ترض أحداً بسخط الله ولا تطيعنّ أحداً في معصية الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله، ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله، إن الله خلق الخلق والخلائق، فمضوا على ما خلقهم عليه فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه في رزقه فليزداد بحرصه في عمره، أو يغير لونه، أو يزيد في أركانه أو بنانه[5].

هـ - ومعلوم أن المعتزلة أجمعوا على أصولهم الخمسة، والحسن البصري يعتبر القول بالمنزلة بين المنزلتين بدعة تخرج صاحبها عن عقيدة الجماعة، ولذلك اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن لما خالفه في هذا الأصل، فكيف مع هذا يعتبر الحسن من علمائهم المنتسبين إليهم[6]؟.

و - وقد اشتهر عن بعض المعتزلة القدرية أنهم يكذبون على الحسن البصري، فقد ذكر عبد الله بن أحمد في كتاب السنة عدة روايات تدل على ذلك، فمن ذلك ما رواه عن حميد قال: قدم الحسن مكة فقال فقهاء مكة: الحسن بن مسلم وعبد الله بن عبيد: لو كلمت الحسن فأخلانا يوماً. فكلمت الحسن فقلت: يا أبا سعيد إخوانك يحبون أن تجلس لهم يوماً، قال: نعم ونعمة عين، فواعدهم يوماً فجاءوا فاجتمعوا، وتكلم الحسن وما رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم، فسألوه عن صحيفة طويلة فلم يخطئ فيها شيئاً إلا في مسألة، فقال له

---

(1) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص: 187.
(2) المصدر نفسه، ص: 188.
(3) المصدر نفسه، ص: 188.
(4) منهاج السنة (1/ 362) القضاء والقدر، ص: 188.
(5) الطبقات الكبرى لابن سعد (7/ 175).
(6) موقف المعتزلة من السنة النبوية، ص: 27.

رجل: يا أبا سعيد من خلق الشيطان؟ قال: سبحان الله، سبحان الله، وهل من خالق غير الله ثم قال: إن الله خلق الشيطان وخلق الشر والخير فقال رجل منهم: قاتلهم الله يكذبون على الشيخ[1]. وقال حميد لمن نقل عن عمرو بن عبيد حديثاً رواه الحسن: لا تأخذ عن هذا فإنه يكذب على الحسن[2]. وروى عبد الله بن أحمد عن حماد بن زيد قال: قيل لأيوب: إن عمراً «أي عمرو بن عبيد» روى عن الحسن أنه قال: لا يجلد السكران من النبيذ، قال: كذب، أنا سمعت الحسن يقول: يجلد السكران من النبيذ[3]. فهذه الروايات وغيرها، تدل على أن دعوى أن الحسن البصري ﷺ كان قدرياً أو كان يقول بقولهم ليست صحيحة[4]. وإنما غرض المعتزلة هو التشرف بانتسابه إليهم، وإلا فكيف عدّوه منهم[5]. والمعتزلة ذكروا مع الحسن غيره، بل وعدّوا من الطبقة الأولى من طبقاتهم الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة[6]. وواضح إن إدراج هؤلاء ضمن المعتزلة إنما قصد به بيان أن المعتزلة هي أتقى الفرق وأبرها[7]. ومعلوم لدى طلاب العلم وعموم المسلمين أن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام براء من تهمة الاعتزال وإنما هم سادة علماء أهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهاج النبوة.

5 - الإمام العادل في نظر الحسن البصري:

عندما جاء عمر بن عبد العزيز للخلافة نجد الحسن البصري قريباً من الخليفة الجديد يتعهده بالوعظ والإرشاد ويرسم له منهاجاً للإمام العادل وهذا دور إيجابي من الحسن ﷺ يبين العمل المطلوب من العالم الرباني الذي يسعى لمساعدة المصالحين من أصحاب القرار لنصرة الإسلام وهذا يدلنا على تكامل شخصية الحسن الإسلامية فقد شارك في الجهاد والتعليم والتربية، وكان رائد مدرسة الإصلاح الاجتماعي بين الناس في حياتهم، واهتم بأمراض القلوب، وعلاجها، وكانت له مواقفه السياسية من الثورات، ومن الحكام الظالمين، وهنا تتجلى شخصيته السياسية أكثر من قربه من عمر بن عبد العزيز وشد أزره والوقوف بجانبه والتنظير لمعالم الإصلاح والتجديد الراشدي الذي قاده عمر بن عبد العزيز، فقد جاء في رسالته التي كتبها إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل

---

(1) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (2/ 126).
(2) المصدر نفسه (2/ 131).
(3) المصدر السابق (2/ 132).
(4) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ص: 191.
(5) المصدر نفسه، ص: 189.
(6) المصدر نفسه، ص: 189.
(7) مذاهب الإسلاميين، عبد الرحمٰن بدوي (1/ 40).

قوّام كل مائل وقصد كل جائر، وصلاح كل مفسد، وقوة كل ضعيف ونصفة[1] كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويزودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر[2].

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغيراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها: حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين: يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح: تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدل المال وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله. واعلم يا أمير المؤمنين إن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه: فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر واعلم يا أمير المؤمنين، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويُسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه واذكر، يا أمير المؤمنين، إذا بعثر ما في القبور، وحُصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن، يا أمير المؤمنين، وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل - لا تحكم، يا أمير المؤمنين، في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ[3]، ولا ذمة فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغُرنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيّباتك في آخرتك. لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم، إني يا أمير، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، فلم آلك[4] شفقة ونصحك فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية

---

(1) النصفة : اسم من الإنصاف.

(2) القر : البرد.

(3) الإل: العهد.

(4) أي لم أقصر.

الكريهة لما يرجو له من ذلك من العافية والصحة والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[1]. والمعاني الرئيسية في هذه الرسالة:

أ - أن أهم صفة في الإمام هي العدل ولكنه عدل ممزوج بالرحمة الأبوية.

ب - وأن أولى الناس باتباع حدود الله هو الإمام، لأنه إن لم يتبعها، فأجدر بالرعية ألا يتبعوها.

ج - وأن الإمام هو المنفذ للقصاص، فلا يحق له أن يقتل أحداً بغير حق، إن في القصاص حياة، فكيف يقضي على الحياة من وُكل إليه أمر توفير الحياة؟.

ح - أن صلاح الرعية بصلاح الإمام وفسادها بفساده، فمسؤوليته عن أفعاله هي في الوقت نفسه مسؤوليته عن أفعال كل رعيته، فما أعظم مسؤوليته إذن.

س - وتظهر هذه المسؤولية خصوصاً في تعيين الولاة، فما يرتكبه ولاة الإمام وعُمّاله الإمام هو أول مسؤول عنها، ولهذا يجب على الإمام ألا يسلط المستكبرين على المستضعفين، لأن المتكبرين لا يرعون الحرمات ولا يراقبون الله في أعمالهم وأحكامهم، فإذا عيّن الإمام واحداً من هؤلاء، فقد تحمّل مع أوزاره الخاصة أوزارهم[2].

6 - الحسن البصري يصف الدنيا لعمر بن عبد العزيز:

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز واصفاً له الدنيا: أما بعد: يا أمير المؤمنين فإن الدنيا دار ظعن وانتقال وليست بدار إقامة على حال، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها، وتفرق من جمعها، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، الصبر على لوائها، أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها، ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطابها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، وهي والذي بعث محمداً بالحق لأزواجها قاتلة، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤد إلى الهلكة والعناء واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله، وحذر ما حذره، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء فعند الموت

---

(1) الحسن البصري لابن الجوزي، ص: 56، العقد الفريد لابن عبد ربه (1/ 12) تاريخ التصوف السني، ص: 179.

(2) تاريخ التصوف الإسلامي، ص: 180.

يأتيه اليقين، الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الدواء، لما يرجو من العافية، ويخاف من سوء عاقبة الدار والدنيا وأيم الله يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فإن تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده وقال: يرحم الله الحسن فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، ولله دره من مشفق ما أنصحه وواعظ ما أصدقه وأفصحه. وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: وصلت مواعظك النافعة فاستشفيت بها، ولقد وصفت الدنيا بصفتها، والعاقل من كان فيها على وجل، فكأن كل من كتب عليه الموت من أهلها قد مات والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، فلما وصل كتابه إلى الحسن قال: لله درّ أمير المؤمنين من قائل حق وقابل وعظاً لقد أعظم الله جل ثناؤه بولايته المنة، ورحم بسلطانه الأمة، وجعله بركة ورحمة[1]. وكتب إليه: أما بعد: فإن الهول الأعظم، والأمر المطلوب أمامك، ولا بد من مشاهدتك ذلك، إما بنجاة أو بعطب[2].

7 - موقفه من الثورات التي حدثت في عهده:

كان يرى أن تغيير الفساد لا يكون بالسيف وإنما يكون بالتوبة والرجوع إلى الله والنصح لأصحاب الأمور وقد قال: وما أعجب أمر من يحاول أن يغير بالسيف، فإن التغيير لا يكون إلا بالتوبة[3]وقد قال رسول الله ﷺ في وجوب الصبر على ما تكرهه منهم: **«من رأى من أمير شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»**[4]. ويرى بعد فقهه لهذا الحديث وأمثاله أن تسلط الحكام عقوبة من الله تعالى تحتاج لصبر ويقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قِبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يُفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه فوالله ما جاءوا بيوم خير قطّ[5]. وكان موقفه من ثورة ابن الأشعث كما مر معنا وكان يرى أن ولاة الأمور طالما أنهم يقيمون الجمعة والجماعة والفيء، والثغور[6]والحدود، فلا يجوز

(1) الزهد للحسن البصري، ص: 169.

(2) المصدر نفسه، ص: 169.

(3) الطبقات الكبرى (7/ 125، 131).

(4) البخاري رقم 6724، مسلم رقم 1849.

(5) شذرات الذهب (1/ 137) حياة الحسن البصري د. روضة، ص: 191.

(6) حياة الحسن البصري، ص: 194، روضة الحصري.

الخروج عليهم[1]، وقد علق المودودي على منهج الحسن البصري في التعامل مع الثورات بأنه كان يشك بجدوتها[2]، وكان موقفه من ثورة يزيد بن المهلب ينظر إليها بقلق شديد خصوصاً وأن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز كان قد حبس يزيد بن المهلب لفساده ولأنه إن تولى أموال المسلمين[3] فسينفقها في ملذاته، ويرى الحسن أن غضبة ابن المهلب غضبة لنفسه ومطامعه، فيذهب الحسن إلى حيث اجتمع الناس في الجامع يتوكأ على عاتق معاذ بن سعد وهو يقول له: انظر هل ترى رجلاً نعرفه؟ وسر الحسن عندما لم ير في المجموع رجلاً من أصحابه[4]. وتزداد جرأة الحسن وصدعه بالحق، ويتقدم من المنبر ويزيد يخطب. وقال بصوت مرتفع يخاطب ابن المهلب: «والله لقد رأيناك والياً ومولى عليك فما ينبغي لك ذلك. ويقف موقفاً أشد جرأة من سابقه فقد خرج على الناس وقد نصبوا الرايات، واصطفوا صفين، وهم ينتظرون خروج يزيد بن المهلب، ويقولون: يدعونا لسنة العمرين، فقال الحسن: إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يسرح بهم إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم، فلما غضب غضبة نصب قصباً، ثم وضع عليها خرقاً ثم قال: إني قد خالفتهم فخالفوهم وقال: أدعوكم إلى سنة العمرين، وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد إلى السجن ويوضع في جبة[5]. وتزداد مواعظ الحسن وكراهيته للثورة فيخطب الناس ويقول: أيها الناس، الزموا رحالكم وكفوا أيديكم، واتقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير، ليس لأهلها بباق، وليس عنهم فيما اكتسبوا براض، إنه لم يكن إلا كان أكثر أهلها الخطباء، والسفراء والسفهاء، وأهل التيه والخيلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي، والمعروف التقي[6]. وعلى أثر هذه الخطبة، يهدد مروان ابن المهلب خليفة يزيد في الثورة فيقول: لقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي يثبط الناس، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه، والله ليكُفنّ عن ذكرنا وعن وجهه علينا سقاط الأبلة[7]، وعلوج فرات البصرة، أو لأنخين عليه مبرداً خشناً[8]. ووقف الناس مع الحسن وقالوا له: لو أرادوك ثم شئت لمنعناك، فأجابهم بقوله: فقد خالفتكم إذا إلى ما نهيتكم عنه، آمركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني[9]؟ هذا هو موقف الحسن من كل فتنة يسعى لجمع شمل المؤمنين وينهى عن كل فرقة

(1) حياة الحسن البصري، ص: 194.
(2) الخلافة والملك للمودودي، ص: 149.
(3) حياة الحسن البصري، ص: 196 للحصري.
(4) تاريخ الطبري (7/ 491).
(5) وفيات الأعيان (3/ 280) حياة الحسن البصري، ص: 197.
(6) تاريخ الطبري (7/ 498).
(7) أبُلّته : بضمتين ولام مشددة أصحابه وقبيلته.
(8) تاريخ الطبري (7/ 498).
(9) المصدر نفسه (7/ 499).

بينهم[1]وعن سلم ابن أبي الذّيّال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال: يا أبا سعيد ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ قال: نعم ولا مع أمير المؤمنين[2]وقد سلك الحسن منهج السلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يؤيد الثورة المسلحة لأسباب:

أ - أن الدعوة إلى الخروج عليهم يتبعها فوضى في أمور، واضطراب الأمن وفساد الأحوال، وفوضى ساعة يرتكب فيها المظالم ما لا يرتكب في استبداد السنين.

ب - رأى أن كثرة الخروج على الولاة يضعف الدولة الإسلامية ويجعل بأس المسلمين بينهم شديداً، فيكلب فيهم عدوهم، ويخرب عليهم حقوقهم.

ج - ولأنه رأى أن الدماء تراق في الخروج بدون حق يقام، ومظلمة تدفع والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم.

د - وجد أن الطريق المعبّد لإصلاح هذا، إصلاح فساد المحكومين إذا تعذر عليه إصلاح فساد الحاكم، رأى أن الفساد عمّ الاثنين وتغلغل في الفريقين، فاعتقد أن الحكام ما لم يتغير الشعب والملازمة ثابتة بينهما[3].

8 - كيف يضل قوم هذا فيهم؟

قال خالد بن صفوان: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة؟ قلت: أصلحك الله، أُخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جانبه وجليسه في مجلسه وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أشرك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم[4]. ومن أقوال الحسن البصري ما رواه هشام بن حسّان: سمعت الحسن يحلف بالله، ما أعز أحد الدرهم إلا أذلهُ الله[5]، وقال: بئس الرفيقات، الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يُفارقاك[6].

9 - وفاة الحسن البصري:

مرض الحسن البصري مرض الموت وابنه إلى جانبه يمرضه ويعنى به وهو على سريره

---

(1) حياة الحسن البصري، ص: 198 للحصري.

(2) الطبقات الكبرى (7/ 121) حياة الحسن، ص: 198.

(3) تاريخ الجدل، ص: 323.

(4) سير أعلام النبلاء (4/ 576).

(5) المصدر نفسه (4/ 576).

(6) المصدر نفسه (4/ 576).

يسترجع ويكثر من الاسترجاع فيقول له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟ فيجيبه بقوله: يا بني لا أسترجع إلا على نفسي التي لم أصب بمثلها[1]، وعن أبان بن محبر عن الحسن أنه لما حضره الموت دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد زودنا منك كلمات تنفعنا بهن. قال: إني مزودكم ثلاث كلمات، ثم قوموا عني ودعوني ولما توجهت له، ما نهيتهم عنه من أمر، فكونوا من أترك الناس له، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم خطوتان، خطوة لكم وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون وأين تروحون[2]. وقبل أن يسلم الحسن روحه أغمى عليه ثم أفاق إفاقة فقال: لقد نبهتموني من جنان وعيون ومقام كريم[3]. وفي ليلة الجمعة وفي مستهل رجب سنة عشر ومائة[4]، أسلم الروح إلى بارئها وعاش نحواً من ثمان وثمانين سنة. كما قال ابنه عبد الله[5]، وقبيل وفاته قال رجل لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة في المسجد فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن[6]. وقام بتغسيله تلميذاه: أيوب السختياني، وحميد الطويل، وصلى عليه عقيب الجمعة النضر بن عمر المقري[7]، قال حميد الطويل: توفي الحسن عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، فتبع الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذٍ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة، حتى لم يبق بالمسجد من يصل العصر[8]. رحم الله الحسن البصري النموذج الرفيع لورثة الأنبياء والعلماء الربانيين، فقد كان من الرجال العظماء، قلما تجد له مثيلاً زهداً، وورعاً، وعلماً، وحكماً، وشجاعة، وأدباً[9]، وكان من العلماء الذين نشطوا في دولة الفقهاء التي قادها عمر بن عبد العزيز ولم يبخل بوقت ولا نصيحة ولا موعظة ولا توجيه ولا إرشاد.

سابعاً: عمر والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية:

عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من أول أعماله إيقاف التوسع في المناطق النائية

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 587).

(2) حلية الأولياء (2/ 154).

(3) سير أعلام النبلاء (4/ 587).

(4) تذكرة الحفاظ، ص: 72، حياة الحسن البصري، ص: 202.

(5) سير أعلام النبلاء (4/ 587).

(6) وفيات الأعيان (2/ 72)، الطبقات الكبرى (7/ 129).

(7) تاريخ الذهبي، نقلاً عن حياة الحسن البصري د. روضة، ص: 202.

(8) سير أعلام النبلاء (4/ 587).

(9) حياة الحسن البصري، ص: 503.

في أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، وأول أعماله في هذا المضمار كان في القوات التي عُني الخليفة سليمان بحشدها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية وظلت تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية وقد كان سليمان أغزاه إياها برّاً وبحراً. فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حتى يتنح الرجل عن دابته فتقطع بالسوق.. ولجّ سليمان في أمرهم، فكان ذلك يغم عمر، فلما ولي، رأى أنه لا يسعه فيها بينه وبين الله عز وجل شيء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب[1]، وقد وجه عمر ابن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، فوجه إليهم خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، فكان الذي وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل خمسمائة رأس[2]. ويروي خليفة أنه في سنة 99هـ حمل عمر بن عبد العزيز الطعام والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم وأمر من كان له هناك حميم أنه يبعث إليه وبعث معه بعثاً فأغاث الناس، وأذن لهم بالقفول[3]، وفي الأندلس ولّى عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني، وعهد إليه: بإخلاء الأندلس من الإسلام إشفاقاً عليهم، إذ خشي تغلب العدو عليهم.. لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين[4]. غير أن السمح لم ير الانسحاب الكامل في الأندلس، وكتب إلى الخليفة يقول: إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فأضرب عن ذلك، وأزال الأندلس عن عمالة أفريقية[5]. وفي المشرق كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمٰن والي خراسان يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا وقالوا: لا يسعنا مرو (قاعدة خراسان). فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم[6]، ويقتصر خليفة ابن خياط على القول بأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: «لا تغزُ، وتمسكوا بما في أيديكم»[7] وفي جبهة بلاد السند: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد

---

(1) ابن عبد الحكم، ص: 32.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن عمر بن عبد العزيز للعلي، ص: 140.
(3) تاريخ خليفة، ص: 326، تاريخ الإسلام للذهبي نقلاً عن العلي، ص: 140.
(4) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، ص: 12 - 13
(5) فجر الأندلس لحسين مؤنس، ص: 136 - 137، عمر بن عبد العزيز، صالح العلي، ص: 140.
(6) تاريخ الطبري نقلا عن عمر بن عبد العزيز للعلي، ص: 141.
(7) تاريخ خليفة، ص: 326، عمر بن عبد العزيز للعلي، ص: 141.

كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وتسموا بأسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر[1]. إن إيقاف عمر بن عبد العزيز التوسع القائم على استخدام المُقاتلة في الأطراف النائية للدولة وعمله على إحلال الحوار السلمي في إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، لا يعني أنه أراد إلغاء المؤسسة العسكرية التي تمتد جذورها إلى زمن الرسول ﷺ، وكان لها الدور الأكبر في حماية الدولة وتوسيعها وتثبيت الأمن والاستقرار فيها، والواقع أن التنظيمات المتصلة بالمُقاتِلة كانت تمسُّ صميم الحياة المدنية، ولا غنى لأي دولة عن مؤسسة الجيش في حفظ حدودها والمخاطر التي قد تتعرض لها لذلك كان لا بد من إبقاء الجند والمؤسسات المتصلة به، فظلت الأمصار، وهي مراكز إقامة المقاتِلة العرب، قائمة دون أن يلغيها أو يبدلها أو يدخل تعديلات في تنظيماتها السكانية والإدارية، وقضت الأحوال أن يتابع خلال مدة خلافته القصيرة، استمرار الحركات العسكرية المحدودة النطاق في عدد من الجبهات. ففي أذربيجان أغار الترك على المسلمين: فقتلوا من المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر بخناصرة خمسون أسيراً[2]. وفي سنة 100 هـ أغارت الروم في البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها[3]. وفي 101 هـ: أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص، الصائفة[4]. وأمر بترحيل أهل طرندة[5] وهم كارهون، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو[6]. وأراد أن يهدم المصيصة لتعُّرضها لغارات الروم، ثم أمسك عن ذلك وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية كفربيا واتخذ فيه صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً[7]. وجعلها مركزاً متقدماً لدرء الخطر عن انطاكية من غزوات الروم المتكررة[8]، ورغم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد حد من النشاط العسكري مع الروم وسحب الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية وبعض الحصون المتقدمة في بلد الروم، إلا أنه كان حازماً شديداً في أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبد الحكم، حيث يذكر

---

(1) فتوح البلدان، ص: 42

(2) تاريخ خليفة، ص: 326، عمر بن عبد العزيز للعلي، ص: 142.

(3) فتوح البلدان، ص: 20.

(4) تاريخ الطبري نقلاً عن عمر بن عبد العزيز للعلي، ص: 142.

(5) طرندة: من الأماكن القريبة من الدولة الرومانية.

(6) فتوح البلدان، ص: 220.

(7) المصدر نفسه، ص: 163.

(8) العلاقات العربية البيزنطية، ص: 119.

أنه عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى ملك الروم، وقص عليه قصة رجل أسير في بلد الروم - وقد مرت معنا - أجبر على ترك الإسلام واعتناق النصرانية، قائلين له: إن لم تفعل سملت عينك، فاختار دينه على بصره فسملت عيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم وقال له: أقسم بالله، لأن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولهم عندك وآخرهم عندي[1]، فاستجاب ملك الروم لطلبه، وبعث بالرجل إليه[2]. وكانت سياسة عمر بن عبد العزيز المرحلية تقوم على ضبط الثغور وحدود الدولة الإسلامية والاهتمام بفتح العقول، وإحياء القلوب وتطهير النفوس للشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام ولذلك بدأ يرسل سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل الدولة الإسلامية وللشعوب التي كانت في أشد حاجة لتعاليم الإسلام.

ثامناً: الاهتمام بالدعوة الشاملة:

ركز عمر جهوده بالبناء الداخلي للدولة لترسيخ وحدتها وأمنها ونشر العلم وتوصيله لكل أفراد الأمة ما أمكن لذلك سبيلاً، كما اهتم على نشر العدل بين الرعية وإزاحة الضغائن والأحقاد من بين المسلمين، وقد استهدف عمر بن العزيز قلوب الناس وعقولهم ونفوسهم بتعاليم الإسلام ووضع مشروعاً كبيراً لتحقيق ذلك الهدف العظيم ولم يكن عمر بالإنسان الذي تستهويه المشاريع الكبرى، فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه، بل حوّل مشروعه إلى برنامج عملي قابلاً للتطبيق، بعدما مهد الظروف، وأحاط برامجه بالضمانات العملية وهيء له الأسباب مما جعله يحيله إلى واقع مشهود، وقد ساعده على نجاح مشروعه الدعوي التربوي العلمي أمور منها:

1 - وضع قانون التفرغ للدعاة:

حيث ألزم الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التي يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، فأجرى الأرزاق على العلماء ورتب لهم الرواتب يتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب[3]، فقارئ القرآن الذي حفظه وقام يقرئه للناس ويعلمهم أحكامه والمحدث الذي يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوي، والفقيه الذي ينظر في الكتب ويستنبط منها ويعلم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذي يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسدّ حاجتهم وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفل به الدولة، ويؤخذ من بيت

(1) العلاقات العربية البيزنطية، ص: 131.
(2) المصدر نفسه، ص: 131.
(3) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ص: 184.

المال، ونعمّا ما فعل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فبذلك شجع كل من وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة[1]. وكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره مائة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع في أي بلد إسلامي، لغرض التفقه ونشر العلم، وتدريس القرآن وتلاوته[2]وعن أبي بكر ابن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغنيهم لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث[3]. وعن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: انظروا إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه، من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله. والسلام عليك[4]. وفرض الرزق لمن يحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه، وللقصّاص والواعظين كذلك، وذكر ابن شبة: أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً - وهو بالمدينة - أن يقص على الناس، وجعل له دينارين كل شهر، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كل سنة[5]. ومما جاء في كتبه بشأن إجراء الرزق على طلبة العلم لينقطعوا عن الشواغل، ما ذكره ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن أجْرُوا على طلبة العلم الرزق، وفرّغوهم للطلب[6].

2 - حض العلماء على نشر العلم وعلانيته:

واتخاذ المساجد مراكز لتعليم الناس أمور دينهم، وإقراء طلبة العلم وإسماعهم، وإملاء الحديث النبوي، وإحياء السنة[7]. قال عكرمة بن عمار وهو من أهل اليمن - سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد: فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت[8]، وأسند ابن عبد البر عن جعفر بن برقان الرَّقي - نسبة إلى الرقة شمال شرقي سورية - قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد فَمُرْ أهل الفقه والعلم من عندك، فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم ومساجدهم[9].

---

(1) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 72.
(2) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر، ص: 184.
(3) أصول الحديث، ص: 178، عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص: 72.
(4) البداية والنهاية، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص: 72.
(5) أخبار المدينة، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص: 73.
(6) جامع بيان العلم (1/ 228) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص: 73.
(7) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص: 73.
(8) أصول الحديث، ص: 178، عمر بن عبد العزيز، ص: 73.
(9) جامع بيان العلم (1/ 149).

3 - توجيه الأمة إلى أهمية العلم:

وفي ذلك يقول: إن استطعت فكن عالماً فإن لم تستطع، فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم. ثم قال: لقد جعل الله له مخرجاً إن قبل[1].

4 - إرسال العلماء الربانيين في شمال أفريقيا:

كان عمر بن عبد العزيز يرسل العلماء إلى الأمصار بل البوادي ليعلّموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم فيه، فقد بعث يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهم الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً. فذكر ذلك لعمر فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر الله فينا مثل الحارث[2]. وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب أن يتحلى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية، وعدم جمود على الأشكال، حيث أعلن أن أخذ الأموال لقاء الخدمات العلمية أمر لا بأس به، وسأل الله - من جهة أخرى - أن يكثر أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون أجر إلا أجر الله[3]. وقد بعث عمر إلى مصر الإمام المفتي الثبت، عالم المدينة (نافعاً) مولى ابن عمر وراويته، فعن عبد الله بن عمر: بعث عمر بن عبد العزيز نافعاً مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن[4]، وأرسل عشرة من فقهاء المدرسة المصرية من رجال التابعين على أفريقية، ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ، لينالهم من الخير مثل الذي عمّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم[5]، وتطلع إلى شمال أفريقيا، ليغزو القلوب والعقول والنفوس بدين الله، فأرسل العلماء الربانيين العشرة بعد أن وضع أهدافاً لخطته التعليمية في ذلك الإقليم منها:

أ - اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

ب - وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية في أوساط القبائل البربرية، حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

ج - الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذي هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب، وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده.

---

(1) ابن عبد الحكم نقلاً عن عمر للزحيلي، ص: 74.
(2) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 160، ملامح الانقلاب، ص: 184.
(3) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر، ص: 184.
(4) سير أعلام النبلاء (5/ 979) تذكرة الحفاظ (1/ 100).
(5) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 69.

د - البلاغ الواضح البين لعقائد أهل السنة.

هـ - تعليم الناس الحلال والحرام[1].

ولقد بدأت بركات عهد عمر بن عبد العزيز على الشمال الإفريقي بتعيين أمير صالح عليه وبإرسال الفقهاء والعلماء الربانيين وإليك ترجمة الأمير والفقهاء:

- **إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر:** ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية في المحرم سنة 99 - 100 هـ فكان خير أمير، قال ابن خلدون: وأسلم جميع البربر في أيامه، وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين، ويبينون لهم الحلال والحرام[2]. وكان هذا الأمير في غاية الزهد والتواضع حريصاً على نشر العلم وسار في أهل البلاد بسيرة العدل، وكان شديد الحفظ لحديث رسول الله ﷺ، فقد روى عنه ابن عساكر إنه قال: ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن، أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وغيرهم. ومكث في القيروان معلماً للناس، ناشراً للسنة، لمدة ثلاث وثلاثين سنة حيث توفي بها سنة 131 هـ[3]، وقد جمعت شخصية إسماعيل رحمه الله، الكفاءة، والعلم والورع، فأنتجت هذه الثمار التي ساهمت في ترسيخ الإسلام في شمال إفريقيا وينبغي لنا أن نهتم بتحقيق هذه الصفات وغيرها في نفوس القادة والولاة.

- **بكر بن سوادة الجذامي، أبو ثمامة(ت128 هـ بإفريقية):** أقام في الشمال الإفريقي أكثر من ثلاثين سنة محدثاً ومفتياً، وفقيهاً وقد انتفع به أهلها، ورووا عنه، أدخل على القيروان حديث عدد من الصحابة، منهم: عقبة بن عامر، وسهل بن سعد الساعدي، وسفيان بن وهب الخولاني، كما روى عن جماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب وابن شهاب الزهري، وقد قارب شيوخه الأربعين، وروى عنه كثير من أهل القيروان منهم عبد الرحمٰن بن زياد، وأبو زرعة الإفريقي وكان ثقة في حديثه، أخرج له مسلم والأربعة، والبخاري تعليقاً، وأحمد، والطبراني، وغيرهم، وعداده في المصريين رغم طول مكثه بالقيروان ووفاته بها[4].

- **جُعثلُ بن عاهان الرُّعيني القتباني، أبو سعيد(ت حوالي 115 هـ)** عده أبو العرب وابن حجر وغيرها في التابعين، ولم يذكروا عمن روى من الصحابة، وكان محدثاً، فقيهاً مقرئاً، تولى قضاء الجند بالقيروان وبث فيها علماً كثيراً لمدة زادت عن خمسة عشر عاماً، وروى عنه

---

(1) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي للصَّلاَّبي، ص: 306، 307.

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص: 148.

(3) مدرسة الحديث بالقيروان (2/ 14 إلى 22).

(4) المصدر نفسه.

من أهل القيروان عبيد الله بن زحر، وعبد الرحمٰن بن زياد، وبكر بن سوادة وهو زميله في البعثة العلمية، وثقه أكثر النقاد، وأخرج له الأربعة وأحمد وغيرهم: توفي في خلافة هشام بن عبد الملك سنة 115 هـ[1].

- **حبان بن جبلة القرشي:** مولاهم، ودفع الوهم بأن عمر ﷺ أرسله لتفقيه أهل مصر ت 125 هـ وقيل 122 هـ بالقيروان أدخل في الشمال الإفريقي حديث جملة من الصحابة منهم: ابن عباس وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ووالده عمرو، وبقي يبث العلم في عاصمة الشمال الإفريقي في مدينة القيروان أكثر من خمس وعشرين سنة، أنتفع به أهلها، وروى عنه كثيراً منهم، كعبد الرحمن بن زياد، وعبيد الله بن زحر، وموسى بن علي بن رباح وغيرهم، وهو عند النقاد ثقة في حديثه، أخرج له البخاري في الأدب المفرد وابن سنجر في مسنده والحاكم في المستدرك وغيرهم[2].

- **سعد بن مسعود التجيبي: أبو مسعود(ت بالقيروان):** يروي عن جماعة من الصحابة، منهم: أبو الدرداء، ويروي عن النبي ﷺ مرسلاً حتى وهم بعضهم فعده في الصحابة، ولذلك نبهت معظم المصادر على أنه لا صحبة له، وقد سكن القيروان وبث في الشمال الإفريقي علماً كثيراً وكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغة، وكان شديداً على الأمراء، روى عنه من أهل القيروان: مسلم بن يسار الإفريقي، وعبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، في جامع ابن وهب وغيره، وذكر الدباغ أنه توفي بالقيروان بعد أن بث فيها علماً كثيراً، ولم يذكر تاريخ وفاته[3].

- **طلق بن جعبان الفارسي، وقيل:** جابان، والصواب الأول كما في الإكمال، تابعي، لقي عمر وسأله، وأكثر روايته عن التابعين كان فقيهاً عالماً، وروى عنه من أهل القيروان: موسى بن علي، وابن أنعم، ولم يذكروا مدة إقامته بها ولا تاريخ وفاته[4].

- **عبد الرحمن بن رافع التنوخي، أبو الجهم (ت بالقيروان سنة 113 هـ):** دخل القيروان في وقت مبكر، سنة 80هـ، وهو أجل قضاتها، وذلك على عهد حسان بن النعمان واستمر يبث فيها العلم ما يقارب ثلاثاً وثلاثين سنة، حتى انتفع به خلق كثير من أهلها وقد أدخل إلى القيروان حديث جماعة الصحابة عرفنا منهم: عبد الله بن عمرو بن العاص، وحدث عنه من

---

(1) مدرسة الحديث بالقيروان (2/ 14 إلى 22).

(2) المصدر نفسه (2/ 14 إلى 22).

(3) المصدر نفسه (2/ 14 إلى 22).

(4) عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، ص: 45.

القرويين: عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي، وعبد الله بن زحر الكناني، وبكر بن سواد الجذامي وغيرهم... وهو أول من ولي قضاء القيروان وتوفي بها سنة 113هـ[1].

- **عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني**: كان مقيماً في القيروان قبل زمن بعثة عمر بن عبد العزيز بمدة طويلة معروفاً لدى أهلها مشهوراً بينهم بالعدالة والتقى، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة 99هـ، لما علمه من فضله ودينه وعلمه فاستمر في منصبه إلى أن استقال منه سنة 123هـ، وكان زاهداً ورعاً عالماً، سار في أهل القيروان بالكتاب والسنة ونشر العلم بينهم لمدة طويلة زادت عن خمس وعشرين سنة، ذكره ابن حبان في الثقات وأثنى عليه المصنفون بالفضل والعلم والدين[2].

- **عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي، أبو عبد الرحمٰن ت بالقيروان 100هـ**: دخل القيروان في زمن مبكر، ولعل ذلك كان مع موسى بن نصير سنة 86هـ لأنه شهد فتح الأندلس، ثم عاد إلى القيروان وسكنها وبنى بها داراً ومسجداً ثم عين ضمن أفراد البعثة العلمية إلا أن وفاته كانت سنة 100هـ، أي بعد سنة واحدة من التكليف الرسمي، ومع ذلك فقد قال عنه المالكي: فانتفع به أهل إفريقية وبث فيها علماً كثيراً وأدخل القيروان حديث جماعة من الصحابة ممن لم يدخلها، وزاد في إفشاء حديث من دخلها منهم، حدث عن ابن عمر وعقبة بن عامر، وابن عمرو، وأبو ذر، وروى عنه من أهلها عبد الرحمن بن زياد، وأبو كريب جميل بن كريب القاضي (ت 139)هـ وغيرهما، كان رجلاً صالحاً ورعاً شديد الإقبال على نشر السنة، وكان تأثيره في الحياة العلمية - خاصة الجانب الحديثي منها - بالقيروان كبيراً، وقد بنى فيها مسجداً لمجالسه العلمية أجمع النقاد على توثيقه، وحديثه عند مسلم والأربعة، وابن وهب في جامعه وأحمد وغيرهم[3].

- **وهب بن حي المعافري**: وقد ذكر ابن أبي حاتم أن هناك من قلبه إلى: حي بن موهب، وأن أبا زرعة قد صحح ذلك، غزا إفريقية قديماً، لأنه سأل ابن عباس المتوفى سنة 68هـ عن آنية أهل المغرب كما في الرياض والمعالم، وهو من أفراد بعثة عمر، وقد سكن القيروان، وبث فيها علماً كثيراً وبها كانت وفاته، وقد أدخل إلى القيروان حديث ابن عباس وغيره، وروى عن النبي ﷺ مرسلاً، وروى عنه من أهل القيروان عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي ولم تظهر المصادر حاله من حيث التعديل والجرح[4]، هؤلاء الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى الشمال الإفريقي ليفقهوا ويعلموا الناس دينهم فكانوا

---

(1) عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، ص: 45.
(2) المصدر نفسه، ص: 46.
(3) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص: 46.
(4) مدرسة الحديث بالقيروان (2/ 14 إلى 22).

عند حسن ظنه بهم وكانوا للناس قدوة صالحة، وقد سبق هؤلاء العشرة كثير من التابعين الذين قاموا بتعليم أهل البلاد أحكام الدين علماً وعملاً[1]. وكان لهؤلاء العشرة آثار هامة في القرآن الكريم وتفسيره والحديث وفي نشر السنة العملية والاعتقادية الصحيحة، وساعدوا ولاة أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر، فقد روى المالكي أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة سنة 122هـ جمع حنظلة علماء إفريقية وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها فكتبوا هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها: . . . فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنه نبيه ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة وزاجرة ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال وحرام وأمثال، فآمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأنذرته المنذرة، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة فقد فاز وأفلح وأنجح وحيا حياة الدنيا والآخرة والسلام[2]، إن هذه الرسالة تعتبر وثيقة عظيمة الأهمية إذ تدل على أصالة علم هذه البعثة العلمية، ووضوح أهدافهم الشرعية أمامها، حتى أنهم أوجزوا فحوى الرسالة ونظراً لعظيم فائدتها عممت على أن تقرأ على منابر المساجد في جميع ضواحي إفريقية[3].

5 - رسائله الدعوية إلى الملوك في الهند وغيرها:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وقد كانت سيرته بلغتهم، فأسلم جيشبة بن داهر[4]، والملوك تسموا له بأسماء العرب. . . وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك[5]. وقد أرسل عليهم عمر من يعلمهم دينهم[6]، كما أرسل عمر برسائل إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم فيها إلى الإسلام فأسلم بعضهم[7]، وأما أليون قيصر الروم فقد بعث إليه عمر وفداً برئاسة عبد الأعلى بن أبي عمرة لدعوته إلى الإسلام[8].

---

(1) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص: 47.
(2) رياض النفوس للمالكي (1/ 102، 103).
(3) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص: 48.
(4) فتوح البلدان، ص: 428، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 173.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 173.
(6) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 173.
(7) فتوح البلدان، ص: 415.
(8) البداية والنهاية، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 173.

6 - تشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام:

قام عمر بتشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام عن طريق إعطائهم الأموال لتألفة قلوبهم، وذلك اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، فيذكر ابن سعد عن عيسى بن أبي عطاء - رجل من أهل الشام كان على ديوان أهل المدينة -: عن عمر بن عبد العزيز أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام[1]. كذلك ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى بَطرِيقاً ألف دينار استألفه على الإسلام[2].

7 - تصحيح الوضع الخاص لأهل الذمة:

لقد كان لإنصافه لأهل الذمة الذين أسلموا بوضع الجزية عنهم أثر واضح في زيادة إقبال الذميين على الدخول في الإسلام برغم كل ما ترتب على ذلك بالنسبة لبيت المال، مثل ما فعل مع واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي حيث أرسل إليه يقول: انظر من صلى قبلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية[3]، ثم أرسل بدعوة أهل الذمة إلى الدخول في الإسلام، فمثلاً أرسل إلى عامله الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره بدعوة أهل الجزية إلى الدخول في الإسلام فإن أسلموا قبل إسلامهم، وأن يضع الجزية عنهم، ثم كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين[4]. وقد ترتب على هذه الدعوة دخول عشرات الألوف من الناس في الإسلام طائعين، ففي خراسان أسلم نحو من أربعة آلاف ذمي على يد واليه الجراح بن عبد الله[5]، أما في المغرب فقد أسلم عامة البربر على يد والي عمر على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر[6]. وكان ذلك دليلاً على بعد نظر عمر في الاهتمام بالدعوة إلى الإسلام عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، إذ كانت نتائجها لا تقل عن نتائج غيرها إيجابية بل تتعدى ذلك إلى أنه اكتسب مسلمون جدد دون أن يتكلف شهيداً، أو نفقة لإعداد جيوش وهم رعاياه ويعيشون بين أظهر المسلمين، وبالتالي أولى من غيرهم بالدعوة إلى الإسلام. وبهذا يكون الإسلام قد انتشر على عهد عمر بن عبد العزيز بالحكمة والموعظة الحسنة، والاستمرار في أسلوب الجهاد الدعوي على أيدي علماء ربانيين تخرجوا من المدارس العلمية التي نضجت في عهد الدولة الأموية وهؤلاء العلماء الدعاة هم الذين نفذوا مشروع عمر بن عبد العزيز الدعوي العلمي.

---

(1) الطبقات (5/ 350) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 174.
(2) الطبقات (5/ 350).
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 174.
(4) الطبقات (5/ 386).
(5) المصدر السابق (5/ 386).
(6) فتوح البلدان، ص: 232 - 233 للبلاذري، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 174.

المبحث السادس

الإصلاحات المالية في عهد عمر بن عبد العزيز

لم تكن سياسة عمر المالية ارتجالية فهو مسئول عن دولة وكان يحسب حساباً لكل خطوة يخطوها ويضع الضمانات لكل عمل يعتزم تنفيذه[1]. ولقد سار في سياسته على أمور منها:

- **العزم على الاعتصام بالكتاب والسنة**، والتضحية في سبيل ذلك، وهذا ما يبدو واضحاً من كتبه للعمال وخطبه إلى رعيته ومثال ذلك قوله: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها[2].

- **ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم**: وهذا هو أساس سياسة عمر، فجميع الأهداف والوسائل التي اتبعها كانت تنسجم مع هذا الأساس، وإحقاق الحق ودفع الظلم هو أصل من أصول الشريعة، ومقصد رئيسي من مقاصدها قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]. يقول ابن القيم: فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة[3]. ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ، ويقول في ذلك: ما من طينة أهون عليّ فتًّا ولا كتاب أيسر عليّ رداً من كتاب قضيت به، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففتتها[4].

أولاً: أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر:

1 - إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل:

لقد سعى عمر بن عبد العزيز لإعادة توزيع الدخل والثروة بالشكل العادل، الذي يرضي الله تعالى ويحقق قيم الحق والعدل والظلم، والتي وضعها عمر نصب عينيه فقد كان يراقب الانحرافات السابقة قبل خلافته ويلاحظ آثارها السلبية على نفوس الرعية ولقد انتقد سياسة سليمان بن عبد الملك التوزيعية فقال له: لقد رأيتك زدت أهل الغنى وتركت أهل الفقر بفقرهم[5]. فقد أدرك عمر بن عبد العزيز أن التفاوت الاجتماعي هو نتيجة لسوء توزيع الثروة،

(1) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص: 27.
(2) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 38.
(3) أعلام الموقعين (3/ 3).
(4) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي، ص: 113.
(5) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 135.

فرسم سياسته الجديدة لإنصاف الفقراء والمظلومين ولقد استخدم عمر للوصول إلى هذا الهدف بعض الوسائل العملية منها:

- منع الأمراء والكبراء من الاستئثار بثروة الأمة، ومصادرة الأملاك المغصوبة ظلماً، والتي استولى عليها الأمراء والكبراء، وإعادة هذه الأموال إلى أصحابها إذا عرفوا أو إلى بيت المال، إذا لم يعرف أصحابها، أو كانت من الأموال العامة.

- زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى[1]. وقد قام بتنفيذ هذه السياسة، كما مرّ معنا في سياسته في رد المظالم، ولقد كانت سياسة عمر التوزيعية تهدف على إيصال الناس إلى حد الكفاية. يلاحظ ذلك من خطبه، فقد خطب الناس يوماً فقال: وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوي نحن وهم وأكون أنا أولهم[2]. وفي خطبة أخرى: . . ما أحد منكم تبلغني حاجته إلا حرصت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه، وما أحد لا يسعه ما عندي إلا وددت أنه بُدِئ بي وبلحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم[3]. وقد طبق عمر هذا التطور علمياً عندما أمر بقضاء دين الغارمين فكتب إليه عامله: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، فأجاب عمر: لا بدّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه[4]. فسياسة عمر التوزيعية تهدف إلى كفاية الناس من حيث المسكن والمركب والأثاث، وهي عبارة عن حاجات أساسية، وضرورية للإنسان تصعب الحياة بدونها[5].

2 - تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاه الإجتماعي:

سعى عمر بن عبد العزيز عن طريق العديد من الوسائل لتحقيق هذا الهدف، فقد أوجد المناخ المناسب للتنمية عن طريق حفظ الأمن والقضاء على الفتن، ورد الحقوق لأصحابها، وبذلك باتت الرعية مطمئنة على حقوقها، آمنة في أوطانها كذلك أمر ببناء المرافق العامة، والتي تسمى اليوم بمشاريع البنية التحتية، ولا تقوم التنمية إلا بهذه المرافق الضرورية من أنهار وترع ومواصلات وطرق، وقد أكد عمر على مبدأ الحرية الاقتصادية المقيدة بضوابط

(1) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص: 35.
(2) الإدارة الإسلامية في عز العرب، محمد كرد علي، ص: 103.
(3) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 42.
(4) المصدر نفسه، ص: 171.
(5) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 38.

الشريعة، فانتشر الناس في تجارتهم وتثمير أموالهم واهتم كذلك اهتماماً بالغاً بالزراعة، حيث كان القطاع الزراعي من أكبر القطاعات على المستوى الفردي، وله مردود كبير على ميزانية الدولة وقد جنى عمر والأمة كلها ثمرات هذه السياسة، فقد عمّ الرخاء البلاد والعباد[1]، قال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً وذلك ثلاثون شهراً فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[2].

ثانياً: وسائل عمر بن عبد العزيز لتحقيق الأهداف الاقتصادية لدولته:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق أهدافه الاقتصادية بوسائل منها:

1 - توفير المناخ المناسب للتنمية:

وقد عمل عمر على توفير المناخ المناسب للتنمية، وقام بالآتي:

أ - رد الحقوق لأصحابها: فتوفرت أجواء الأمن والطمأنينة، وترسخت قيم الحق والعدالة وردّ الحقوق المغتصبة إلى أبناء الأمة وسمّاها مظالم[3]، وقد تحدثت عن سياسته في رد المظالم والحقوق إلى أهلها وذكرت الكثير من المواقف في هذا الشأن.

ب - فتح الحرية الاقتصادية بقيود: فقد أكد عمر على مفهوم الحرية الاقتصادية المقيدة، وكتب إلى العمال: .. وإن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يدْعى الناس إلى الإسلام كافة وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر والبحر ولا يمنعون، ولا يحبسون[4]. وقدم في موضوع آخر: ... أطلق الجسور المعابر للسابلة يسيرون عليها دون جُعْل[5]، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به[6]. ولم يتدخل عمر بن عبد العزيز في الأسعار، فعن عبد الرحمن بن شوبان قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان ما قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلي كانوا يكفلون أهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بُداً من أن يبيعوا ويكسروا ما في أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته، فباع

---

(1) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص: 41.
(2) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 128.
(3) السياسة الاقتصادية والمالية، ص: 43.
(4) سيرة عمر، لابن الحكم، ص: 94، السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص: 47.
(5) الجعل: هو ما يجعل للشخص على عمله.
(6) الإدارة الإسلامية، محمد كرد، ص: 105.

الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سعَّرت، قال: ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر إلى الله[1]، وتشدد عمر في أمر السلع المحرومة ومنع التعامل بها فالخمر من الخبائث التي لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين لحرمتها ولضررها حيث يؤدي شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام. ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئاً بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة في ماله ونفسه ونجعله نكالاً لغيره[2]. وقد أثمرت سياسة عمر في رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والانتاج، وأزالت العوائق التي تحول دون ذلك وهذا أدى إلى نمو التجارة، وبالتالي إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة الزكاة ممّا يؤدي إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة وارتفاع قوتها الشرائية والتي ستتوجه إلى الاستهلاك، وبالتالي إلى زيادة الطلب على السلعة، والخدمات وهذا كله يؤدي إلى انتعاش الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[3].

2 - اتباع سياسة زراعية جديدة:

فقد اتبع خطوات ترمي إلى زيادة الإنتاج الزراعي للأمة وإليك تفصيل هذه الخطوات:

أ - منع بيع الأرض الخراجية: سأل الناس عبد الملك بن مروان والوليد وسليمان أن يأذنوا في شراء الأرض من أهل الذمة، فأذنوا لهم شريطة أن يضعوا أثمانها في بيت المال، فلما ولي عمر بن عبد العزيز، ترك هذه الأشرية على حالها، وذلك لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ولم يقدر على تخليصه، وكتب كتاباً قرئ على الناس سنة المائة: أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فإن بيعه مردود وسميت سنة مائة سنة المدة، فتناهى الناس بعدها عن الشراء[4]. ولقد طلب أهل الأرض أن يضع عليهم الصدقة بدل الخراج، فأجاب عمر: إني لا أعلم شيئاً أثبت لمادة الإسلام من هذه الأرض التي جعلها الله لهم فيئاً. . قال أبو عبيدة فكأن مذهب عمر بن عبد العزيز في الأرض أنه كان يراها فيئاً، ولهذا كان يمنع أهلها من بيعها[5]. وكتب إلى ميمون بن مهران: أما بعد، فحُل بين أهل الأرض وبين بيعها ما في أيديهم، فإنهم إنما يبيعون فيء المسلمين[6]. كذلك رفض عمر تحويل الأرض التي دخل أهلها في الإسلام من أرض خراج إلى أرض عشر[7]، وأبقى الخراج عليهم والعشر وقال:

---

(1) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص: 48.
(2) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 103.
(3) سياسة الإنفاق العام في الإسلام، عوف الكفراوي، ص: 372.
(4) الخراج للريس، ص: 390، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 49.
(5) الأموال لأبي عبيد، ص: 121 رقم 256.
(6) المصدر نفسه رقم 257، ص: 122.
(7) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 50.

الخراج على الأرض والعشر على الحب[1]. وبذلك حافظ على المورد الرئيس للإنتاج وجعله ملكاً عاماً للأمة بدلاً من تحويله إلى ملكيات صغيرة[2].

ب - العناية بالمزارعين وتخفيف الضرائب عنهم: اعتاد بعض الخلفاء الأمويين قبل عمر ابن عبد العزيز على إرهاق المزارعين بالضرائب، فكثرت الضرائب وتنوعت، واشتد الأمر على أهل الأرض فهجروها، فخربت، فأضرّ ذلك بمالية الدولة، ولقد لجأوا إلى أساليب العذاب في الجباية فاضطر المزارعون إلى بيع دوابهم أو كسوتهم لشديد ما عليهم[3]، وعندما تولى عمر سعى إلى إلغاء جميع الضرائب المخالفة للشريعة، وكتب بذلك إلى العمال كتاباً منها: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء.. ولا تأخذن في الخراج إلا وزن سبعة[4]، ليس لها آيين ولا أجور الضرابين[5]، ولا هدية النيروز والمهرجان[6]، ولا ثمن الصحف ولا أجور البيوت[7]. وقد ألغى القبالة وكانت مألوفة في البصرة، وألغى أسلوب الخرص[8]. حيث كان العمال يقدرون الثمار بسعر عالٍ ويقبضونه نقداً، وبذلك يرهقون الزراع، فقرر عمر وضع الضريبة حسب الأسعار الفعلية وكتب لعامله: بلغني أن عمالك بفارس يخرصون الثمار ثم يقومونها على أهلها بسعر فوق سعر الناس الذي يتبايعون ثم يأخذون ذلك ورقاً على قيمتهم التي قوموها.. وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان للنظر في ذلك ورد الثمن الذي أخذ من الناس إلى ما باع أهل الأرض به غلاتهم[9]. ولقد أمر عمر بإلغاء ضريبة ثابتة على أهل اليمن، كالخراج مع أن أرضها أرض عشرية، وكتب إلى عامله على اليمن: أما بعد، فإنك كتبت إليَّ أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال، أخصبوا أو أجدبوا أو حيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين ثم

---

(1) الأموال، رقم: 235، ص: 114 لأبي عبيد.

(2) الخراج، ص: 239 الريس، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 50.

(3) الضرائب في السواد، ص: 57 للدوري.

(4) الدرهم الذي ضربه عبد الملك وجعل كل عشرة منها وزن سبعة مثاقيل من الذهب.

(5) الآيين: أصول إدارية ساسانية وهي رسوم المسَّاحين، أرض الخراج وأجور الضرابين: هي أجور المختصين بالنقد من الصرافين.

(6) النيروز والمهرجان: عيدان عند الفرس كانوا يحضرون فيهما الهدايا.

(7) الصحف: عبارة عن أوراق تعطي براءة بالدفع. والفيوج جمع فيج وهو: رسول السلطان الذي يسعى بالكتب، وأجور البيوت هي أجور المخازن المحلية التي توضع فيها المواد العينية قبل نقلها للمركز.

(8) القبالة من التقبل والتقبيل: أي شخصاً كفيلاً ذلك لتحصيل الخراج مقابل قدر معلوم يأخذه لنفسه، الخرص: الحرز.

(9) الضرائب في السواد، ص: 65.

سبحان الله رب العالمين. . إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغاً بي وبك وإن أحاط بمهج أنفسنا، وإن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[1]، فقد علم الله إني بها مسرور إذا كانت موافقة للحق[2] والسلام. ويلاحظ من كتب عمر إلى عماله الانحرافات السابقة الظالمة وإنكار عمر لها، وقد كان لها أثر اقتصادي سيء حيث جعلت أصحاب الأرض يضعفوا عن أرضهم ويتركوها فضعف الإنتاج وترتب على ذلك خسارة للبلاد ولبيت المال، وأما عمر بن عبد العزيز فكان مصراً على تطبيق الحق وعدم اهتمامه بالكم بل بالكيف، فهو لا يريد إيراداً كثيراً ظالماً[3]، وقد ساهمت إصلاحات عمر في إلغائه للضرائب الجائرة إلى انتعاش اقتصاد الدولة.

ج - الإصلاحات والإعمار وإحياء أرض الموات: شجع عمر على إحياء الأرض الموات وعلى إصلاح الأراضي للزراعة، وكتب بذلك إلى عامله على الكوفة: لا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب[4]، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض[5]. وكتب عمر: من غلب الماء على شيء فهو له، وعن حكيم بن زريق قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي من أحيا أرضاً ميتة ببنيان أو حرث، ما لم تكن من أموال قوم ابتاعوها من أموالهم، أو أحيوا بعضاً وتركوا بعضاً، فاجز للقوم أحياءهم الذي أحيوا ببنيان أو حرث[6]، وحرص عمر على استغلال أرض الصوافي[7]، ورأى أن ملكيتها لبيت المال، ومنع الإقطاع منها وأمر بإعطائها مزارعة على النصف فإن لم تزرع فعلى الثلث، فإن لم تزرع فأمر بإعطائها حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فأمر بمنحها، فإن لم يزرعها أحد فأمر بالإنفاق عليها من بيت المال[8]. وقد اهتم عمر بالمزارعين ورفع الضرر عنهم ويروى في ذلك أن جيشاً من أهل الشام مر بزرع رجل فأفسده، فأخبر الرجل عمر بذلك، فعوضه عشرة آلاف درهم[9]، وكان

---

(1) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

(2) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 126، الخراج للريس، ص: 229.

(3) السياسة الاقتصادية المالية لعمر، ص: 52.

(4) المصدر نفسه، ص: 53، العامر: الأرض المزروعة.

(5) الأموال لأبي عبيدة رقم 120، ص: 57.

(6) الأموال رقم 717، ص: 369، البنيان هو البناء والحرث هو الزرع.

(7) الصوافي: ما يستخلصه السلطان لخاصته: وقيل: الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها وماتوا ولا وارث لها واحدها صافية.

(8) الخراج، ص: 99، يحيى بن آدم، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 54.

(9) سيرة ومناقب عمر، ص: 117، لابن الجوزي.

يقدم القروض للمزارعين، فقد جاء في رسالته لواليه على العراق: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[1].

د - عمر والحمى: منع عمر الحمى الخاص وأباح هذه الأراضي للمسلمين جميعاً، لا تختص بها طائفة على أخرى وفي ذلك يقول: ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة، وكانت تحمى وتجعل فيها نعم الصدقات، فيكون في ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات، وأدخل فيها وطعن فيها طاعن من الناس، فنرى في ترك حماها والتنزه عنها خيراً، إذا كان ذلك من أمرها، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، وإنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء[2]، وعندما أباح الإحماء كلها استثنى النقيع[3] الذي حماه الرسول عليه الصلاة والسلام لإبل الصدقة[4]. فبالحمى تصبح الأرض لجماعة المسلمين، ونفعها مصروف لهم، فالحمى نقل الأرض من الإباحة إلى الملكية العامة، لتبقى موقوفة على جماعة المسلمين[5].

هـ - توفير مشاريع البنية التحتية: سعى عمر بن عبد العزيز لتوفير هذه المشاريع منذ كان أميراً على المدينة حتى أصبح خليفة للمسلمين، فاهتم بالمشاريع التي تخدم التجار والمزارعين والمسافرين وعندما كان والياً على المدينة كتب إليه الوليد بن عبد الملك كتاباً في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في المدينة فحفر منها بئر الحفير وكانت طيبة الماء[6]. كذلك عمل عمر بأمر الوليد فوّارة ماء، وأجرى ماءها ووسع المسجد النبوي ورفع منارته وجوّف محاربيه، وأنشأ الخانات والفنادق ودار الضيافة للحجاج والمسافرين[7]. كما استمر حفر خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر لتسهيل نقل الطعام من مصر إلى مكة حتى أيام عمر بن عبد العزيز[8]. وكتب إليه عامله على البصرة يعرض طلب أهلها بحفر نهر لهم، فأذن له عمر وحفر النهر، وسمي نهر عدي[9].

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 202.

(2) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 98.

(3) النقيع: موضع لبلاد مزينة على ليلتين من المدينة، وهو نقيع الخضمات الذي حماه عمر بن الخطاب لنعم الفيء وخيل المجاهدين. انظر: السياسة الاقتصادية والمالية، ص: 54.

(4) فتح الباري (5/ 34).

(5) الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي، ص: 242.

(6) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ص: 56.

(7) خامس الخلفاء الراشدين للبدري، ص: 170.

(8) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص: 55.

(9) المصدر نفسه، ص: 57.

ثالثاً: سياسة عمر بن عبد العزيز المالية في الإيرادات:

إن السياسة المالية بإراداتها ونفقاتها تعتبر أداة هامة لتحقيق الأهداف الاقتصادية[1]، لذلك بدأ عمر سياسته المالية بزيادة الإنفاق على عامة الشعب، فأنفق في رد المظالم حتى أنفذ بيت مال العراق، وجلب إليه من الشام[2]، وأنفق على المشاريع الزراعية، ومشاريع البنى الأساسية، كما أنفق على الرعاية الاجتماعية لجميع طبقات الشعب وفي جانب الإيرادات، سعى إلى إلغاء الضرائب الظالمة، فرفع الجزية عمن أسلم، وألغى الضرائب الإضافية التي كانت تؤخذ من المزارعين، وألغى المكوس والقيود، كما حافظ على حقوق بيت المال المسلوبة، فأعاد إليه القطائع، والمظالم، وأوقف امتيازات الأمراء والموظفين، وبالغ في الاقتصاد في الإنفاق الإداري والحربي[3]، كل ذلك أدى إلى إطلاق الطاقات، فنمت الزراعة والتجارة، وجنى ذلك بزيادة ونمو الإيرادات، فزادت إيرادات الزكاة والخراج والعشور وفاضت ميزانية الدولة، فوجّه عمر الفائض لزيادة الإنفاق العام لتحقيق الأهداف الاقتصادية ونلاحظ في التاريخ كلما استقام أمر الدولة وسارت على نهج الشريعة الإسلامية الغرّاء فاض ميزانها المالي، ولم يشعر أفرادها بعسف ولا إرهاق، ولم تهمل مصلحة من مصالحها، وكلما أعوج أمر الدولة، وحادت عن سبيل الشريعة، اختل التوازن المالي، فميزانية الدولة مرآة عدلها وجورها ونظامها وفوضاها[4].

هذا وقد تكونت إيرادات بيت المال زمن عمر بن عبد العزيز من الزكاة والجزية والخراج والعشور والخمس والفيء.

1 - الزكاة:

اهتم عمر بالزكاة وحرص عليها لأنها حق فرضه الله للفقراء والمساكين والمنقطعين، والمستعبدين، ولا يجوز التهاون فيه، واهتمّ بتوزيعها على مستحقيها[5]، فأمر ولاته بالبحث عنهم وإعطائهم حقهم وفي حالة عدم وجود فقراء أو مساكين أو محتاجين وأمر عمر بشراء رقاب المستعبدين وإعتاقهم من مال الزكاة[6]. وعزم عمر على اتباع هدي النبي ﷺ في الزكاة وكان الولاة قبله قد تهاونوا فيها، فأخذوها من غير حقها، وصرفوها في غير مصارفها[7]، ومن مظاهر اتباعه للسنة فيها طلبه لكتاب رسول الله ﷺ في الصدقات، ولكتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمره بأن تنسخ هذه الكتب فنسخت له وكانت تشتمل على صدقة الإبل والبقر

---

(1) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص: 57.
(2) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 129.
(3) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص: 58.
(4) المصدر نفسه، ص: 58.
(5) المصدر نفسه، ص: 60.
(6) المصدر نفسه، ص: 60.
(7) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي، ص: 129.

والغنم، والذهب، والورق، والتمر، والحب، والزبيب وبيّنت الأنصبة لكل هذه الأصناف[1] واتبع عمر السنة في مصارف الزكاة، فاستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60] ثم أمر أن توضع الصدقات كما أمر الله تعالى في كتابه[2]، كما اتّبع عمر السنة في جباية الزكاة فعين عمالاً ثقاة مؤتمنين وأمرهم بجبايتها دون ظلم أو تعدٍّ وأمرهم بكتابة براءة إلى الحول لدافعها[3]. وأمر عمر بأخذ الزكاة من جميع الأموال التي تجب فيها، فأخذت من عطاء العمال ومن المظالم إذا رُدّت لأصحابها، ومن الأعطية إذا أخرجت لأهلها[4]. وأكد عمر على أحقية كل قوم بزكاتهم إذا لم يستغنوا[5]وعندما أحضر العمال الزكاة إلى عمر أمرهم بردّها وتوزيعها في البلاد التي جمعت منها[6]. وكانت لهذه الإصلاحات الاقتصادية في جباية الزكاة أثر على زيادتها ولقد ساهمت سياسته الاقتصادية إلى زيادة تحصيل الزكاة، فتوفيره لأجواء الأمن والطمأنينة، واهتمامه بإقامة المشاريع الأساسية للزراعة والتجارة واتّباعه لسياسة الحرية الاقتصادية المقيدّة، وإلغاؤه للضرائب الظالمة، أدّت جميعاً إلى ازدهار التجارة والزراعة وإلى زيادة حصيلة الزكاة[7]، ولقد كان عمر من الموسعين لإيتاء الزكاة. برز هذا من خلال فقهه في زكاة الثروة الزراعية، وزكاة الإبل العامة، وزكاة السمك، وزكاة العسل، وهذا الفقه من شأنه أن يزيد الأموال الخاضعة للزكاة، مما يؤثر على زيادة جبايتها وأما زيادة الدعوة زمن عمر، ودخول أهل الذمة في الإسلام أفواجاً فالراجح أنه رفع من حصيلة الزكاة، لأن هؤلاء المسلمين الجدد فيهم الأغنياء وفيهم الفقراء، وسيدفع الأغنياء حقاً مفروضاً عليهم وهو الزكاة وأما سيرة عمر وتقواه فقد أثرت على دفع الزكاة للدولة مباشرة لزيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم وهذا واضح من تدافع الناس لأداء الزكاة عندما سمعوا بخلافة عمر، وهذا يؤدي إلى زيادة حصيلة أموال الزكاة وزيادة آثارها الاقتصادية عند إنفاقها في مصارفها[8]. وتؤكد الروايات التاريخية أن الزكاة كانت فائضة عن حاجات الناس في ذلك الزمن، فكان الرجل يأتي بزكاته، فلا يجد من يأخذها[9]، ومن أسباب هذا الفائض اندفاع

(1) الأموال لأبي عبيد، ص: 447 رقم: 934، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص: 61.
(2) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 94.
(3) المصدر نفسه، ص: 99.
(4) الأموال لأبي عبيد، رقم: 1226، ص: 529.
(5) فتح الباري (3/ 322)، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 61.
(6) الأموال رقم 1917، ص: 712.
(7) ملامح الانقلاب، ص: 135.
(8) ملامح الانقلاب، ص: 135.
(9) سير أعلام النبلاء (5/ 131)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص: 69.

أفراد المجتمع للعمل والإنتاج، فكثر عدد المؤدِّين للزكاة، وانخفض عدد القابضين لها[1].

2 - الجزية:

والجزية في الاصطلاح: هي الوظيفة (الضريبة) المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام والأصل فيها الكتاب والسنة والإجماع[2]، وقد قام عمر بن عبد العزيز باتباع السنة في إيراد الجزية، فقد أسقطها عمّن أسلم، لأن الجزية فرضت على الكافرين وتسقط بالإسلام[3]، ومع ذلك فقد استمر بعض خلفاء بني أمية في أخذ الجزية ممن أسلم، فأخذها الحجّاج لظنّه أنهم دخلوا الإسلام هرباً من الجزية، ولقد أدى ذلك إلى زيادة النقمة على الحجّاج وعلى الأمويين[4]، وعندما تولى عمر الخلافة سارع إلى إلغاء الجزية عن المسلمين[5]، وتشدّد في ذلك، وَكتب إلى العمال كتاباً جاء فيه: من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا واختتن فلا تأخذوا منه الجزية[6]. ولما سمع أهل الذمة عن عدالة عمر وسيرته سارعوا للدخول في الإسلام، فشكا عامله ذلك، لأنه أدى إلى نقصان الجزية، فأجابه عمر: أما بعد، فإن الله قد بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً[7]. ولأن عمر اعتمد في سياسته على ترسيخ قيم الحق والعدل، ورفع الظلم عن أهل الذمة ورفق بمزارعيهم وفرض الجزية عليهم حسب المقدرة المالية للفرد، فجعلها على ثلاث طبقات للغني وللمتوسط وللفقير، وجعل صاحب الأرض يعطي جزيته من أرضه والصانع يخرجها من كسبه والتاجر من تجارته[8]، وفرض الجزية حسب طاقة البلاد المالية، فجعلها على أهل الشام أكثر منها على أهل اليمن بسبب غناهم ويسارهم[9]، ورفع الجزية عن الفقراء الذين لا يستطيعون دفعها، وأجرى عليهم رزقاً من بيت المال، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه[10]، وخفَّضَ عمر الجزية عن أهل نجران حيث أمر بإحصائهم، فتبين له أن عددهم نقص إلى العشر، وجزيتهم بقيت كما هي، فأخذ منهم مئتي حلة بدلاً من ألفين، وأسقط جزية من مات أو أسلم[11]، وقد كانت للإصلاحات في جباية الجزية آثار مالية لصالح بيت المال، فإسقاط الجزية عمن أسلم أدّى إلى زيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم والشعور بالعدل والإنصاف، وبالتالي أدّى إلى إيقاف القلاقل والفتن التي كلفت الدولة نفقات طائلة، كما إن إسلام كثير من أهل الذمة جعلهم يدفعون الزكاة بدل الجزية والزكاة مقدارها أكبر هذا مع استمرار دفع الخراج على الأرض، أما انتشار أجواء

---

(1) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 69.
(2) المغنى لابن قدامة (10/ 557).
(3) السياسة المالية والاقتصادية، ص: 70.
(4) الضرائب في السواد، ص: 58.
(5) الطبقات (5/ 345) الخراج للريس، ص: 230.
(6) الأموال رقم: 127،، ص: 61.
(7) الطبقات (5/ 384).
(8) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 99.
(9) الأموال لأبي عبيد رقم 107،، ص: 51.
(10) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 71.
(11) الخراج، ص: 232 للريس.

الأمن والعدل فقد زاد الإنتاج حيث اندفع الناس للإنتاج والتنمية[1].

3 - الخراج:

هو ما تأخذه الدولة من ضرائب على الأرض المفتوحة عنوة أو الأرض التي صالح أهلها عليها[2]. لقد ارتفع إيراد الخراج في زمن عمر بن عبد العزيز وبلغ مائة وأربعة وعشرين مليون درهم[3]. وكانت هذه الزيادة في إيراد الخراج نتيجة لسياسته الإصلاحية فقد منع بيع الأرض الخراجية فحافظ على المصدر الرئيسي للإنتاج، كما اعتنى بالمزارعين، ورفع عنهم الضرائب والمظالم التي كانت تعوق إنتاجهم واتبع سياسة الإصلاح والإعمار وإحياء الأرض الموات، كما اهتم ببناء مشاريع البنية الأساسية للقطاع الزراعي فبنى الطرق والقنوات[4]، فمشاريع الطرق سهلت على المزارعين تسويق إنتاجهم، ومشاريع القنوات والآبار سهلت عليهم سقي محاصيلهم بكلفة أقل، كل هذه الإصلاحات الخراجية أثمرت في النهاية وأدت إلى ارتفاع الخراج زمن عمر، فقد بلغ خراج العراق في عهده مائة وأربعة وعشرين مليون درهم، وهذا المقدار أكبر مما جبى في العهود السابقة، فقد بلغ خراج العراق زمن الحجاج أربعين مليون درهم، وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مائة مليون درهم[5]. أما خراج خراسان زمن عمر بن عبد العزيز فقد كان فائضاً عن حاجات الدولة وبلغ الخراج زمن عمر أقصى قدر ممكن أن يبلغه في الأحوال العادية[6]. وهذا الارتفاع في مقدار الخراج يشير إلى قوة الدولة المالية، لأن خراج العراق كان يشكل أكبر نصيب من إيراداتها[7]، مما ساعد على تحقيق الأهداف الاقتصادية من دعم مشاريع البنية التحتية والمشاريع الإنتاجية والإنفاق على الطبقات الفقيرة والعاجزة، ذلك لأن إيراد الخراج يتسم بالمرونة من حيث مصارفه بعكس الزكاة فهي محددة المصارف[8].

4 - العشور:

في الاصطلاح: ما يؤخذ على تجار أهل الحرب وأهل الذمة عندما يجتازون بها حدود الدولة الإسلامية[9]، فتؤخذ العشور من تجارة الحربي العُشر ومن تجارة الذمي نصف العشر، ولا تؤخذ في السنة لنفس المال إلا مرة واحدة ونصابها عشرون ديناراً للذمي، وعشرة

---

(1) الخراج، ص: 259 للريس، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 72.
(2) معجم لغة الفقهاء، ص: 194.
(3) الخراج للريس، ص: 238.
(4) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 74.
(5) الخراج للريس، ص: 237، 238، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 75.
(6) الخراج، ص: 237، 238 للريس.
(7) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص: 76.
(8) المصدر نفسه، ص: 76.
(9) معجم الفقهاء، ص: 312.

للحربي[1]، وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بإيراد العشور فوضح مبادئها للعمال، وأمر بكتابة كتاب لدافعها لإعفائه منها للحول القادم، كما منع قبض العشور، والتي كانت تفرض على الناس بغير حق[2]، وقد نشطت التجارة في عهده وتوافرت موارد جديدة للدولة واستطاع أن يوظفها للإنفاق العام وكانت الإجراءات التي اتخذها عمر لتنشيط الحركة التجارية كالآتي:

أ - إلغاء الضرائب الإضافية التي كانت مفروضة على القطاع الزراعي[3] وقد انعكس هذا إيجاباً على القطاع التجاري في صورة انخفاض ملحوظ في أسعار السلع الزراعية، فزاد في الطلب عليها، وأحدث رواجاً في تجارتها، وفي ظل اقتصاد قوامه الزراعة فإن زيادة عرض السلع الزراعية وانخفاض أثمانها على النحو الذي واكب السياسة الرشيدة لعمر بن عبد العزيز أحدث رواجاً لا في التجارة فحسب، ولكن في بقية قطاعات الاقتصاد الإسلامي[4].

ب - إلغاء الضرائب على القطاع التجاري، والاقتصار على العشور[5]، وكان لهذا تأثير إيجابي على قطاع التجارة، وقد أدى إلى تشجيع مزاولة التجارة، وزاد من أرباح التجارة فزاد معها حجم المبادلات التجارية[6].

ج - إلغاء أسلوب العنف في تحصيل مستحقات الدولة المالية[7]على التجار وغيرهم، وهذا أيضاً من عوامل تشجيع التجارة وتنميتها.

د - عمل استراحات[8]على طريق التجارات مع بلاد الشرق، ومطالبة الولاة على البلاد التي توجد بها هذه الاستراحات بأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين المسافرين[9]يوماً وليلة، وأن يتعاهدوا دوابهم على حساب الدولة ومضاعفة هذه المدة لمن يشكو منهم علة، وبالنسبة لمن مر بهذه الاستراحات وكان منقطعاً أو سرقت تجارته أو تلفت لأي سبب، فكان يعطي من المال ما يكفيه للوصول إلى بلده، ولا يخفى ما كان بهذه التسهيلات والضمانات من عوامل تشجيع للتجار وللتبادل التجاري[10].

هـ - منع العطاء عن التجار، حتى تكون التجارة مصدر رزقهم الوحيد فيهتموا بها أكثر وينشطوا فيها، لاسيما وأن التجارة كانت في ذلك الوقت متعبة من حيث السفر، والترحال، لعدم توفر وسائل المواصلات المريحة التي نشاهدها اليوم.

---

(1) المغني (10/ 589)، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 76.
(2) السياسة المالية والاقتصادية، ص: 77.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 141.
(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 218.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 218.
(6) المصدر نفسه، ص: 218.
(7) المصدر نفسه، ص: 218.
(8) سير عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 439.
(9) كان معظم السفر لناحية المشرق لقصد التجارة.
(10) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 219.

و - قضاء ديون كل من أدان في غير سفه ولا سرف[1]، ويدخل ضمنهم التجار إن لم يكونوا جلهم، وقد أدى هذا القرار إلى إقالة عثرات التجار الذين أفلسوا ومكنهم من العودة إلى مزاولة التجارة، وخاصة تلك الفئة من التجار الذين بدأوا تجارتهم عن طريق اقتراض رأس المال المطلوب.

ز - الحرص على ضبط ومعايرة وتوحيد المكاييل والموازين في كافة أنحاء الدولة، وجعل ذلك من مواد القانون الأساسي للدولة.

ح - منع الولاة والأمراء من الاشتغال بالتجارة، حتى لا يكون في دخولهم السوق إفساد للمنافسة الشريفة بين التجار، أو تأثير على الأسعار لصالحهم، وهي محاولة من عمر بن عبد العزيز بالبعد بالأسواق عن أي مؤثرات غير طبيعية تؤثر في تلقائية تحديد السعر[2].

ط - منع الاحتكار ومن ذلك إعادته دكاكين بحمص كانت في يد مجموعة من أهل السوق، وكان ابن الوليد بن عبد الملك قد استولى عليها، وحولها إلى ملكية خاصة له، فنزعها وأعادها إلى أصحابها[3]، وقد ساهمت[4] هذه الإجراءات الإصلاحية في ازدهار الحركة التجارية في عهد عمر بن عبد العزيز وبذلك زادت حصيلة إيرادات العشور وتوافرت موارد جديدة للدولة استطاع عمر أن ينفقها على الصالح العام.

5 - خمس الغنائم والفيء:

الغنيمة في الاصطلاح: ما استولى عليه من أموال الكفار المحاربين عنوة وقهراً حين القتال[5]، والفيء في الاصطلاح: كل مال وصل من المشركين من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب[6]، فعندما تولى عمر الخلافة توجه لإصلاح الأوضاع الداخلية للدولة لذلك لم تكثر الفتوحات في زمنه حيث استعاض عنها بالدعوة والقدوة الحسنة، فقد بعث بكتب للملوك والشعوب فدخل البربر في الإسلام بدون قتال[7]، ولهذا لم تتحقق موارد كثيرة من خمس الغنائم زمن عمر، وما كان موجوداً في بيت المال منه كان مصدره الفتوحات السابقة[8]. ومع ذلك فقد سعى لإصلاح موازنة خمس الغنائم، فقد جعل للخمس بيت مال مستقل عن الأموال الأخرى[9]، وأمر بوضعه في مواضعه المذكورة في سورة الأنفال، وآثر به أهل الحاجة منهم حيث كانوا[10]. وقد أمر بعشرة آلاف دينار من سهم ذوي القربى فقسمها في بني هاشم

---

(1) الأموال لأبي عبيد، ص: 234، 235.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 219.
(3) المصدر نفسه، ص: 220.
(4) المصدر نفسه، ص: 220.
(5) الأموال لأبي عبيد، ص: 323 رقم 626.
(6) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 199.
(7) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 81.
(8) المصدر نفسه، ص: 81.
(9) المصدر نفسه، ص: 81.
(10) الطبقات (5/ 350)، سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 72، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 82.

وساوى بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير، فكتبت إليه فاطمة بنت الحسين تشكر له ما صنع وتقول: يا أمير المؤمنين قد أخدمت من كان لا خادم له واكتسى منهم من كان عارياً، واستنفق من كان لا يجد ما يستنفق[1]. ولقد تمسك عمر في حق الخمس، فلما فتحت الأندلس قبل خلافة عمر لم يخمسوها، فأمر عامله عليها أن يبين العنوة من أرضها ويأخذ منها الخمس[2]. وأما في تصرفه في الفيء، فقد كان متبعاً للقرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين، فقد كتب كتاباً ذكر فيه عن الأموال والقرى التي أفاء الله بها رسوله ﷺ مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب واستدل بآيات سورة الحشر التي نزلت في ذلك، وبين أن ما من أحد من المسلمين إلا له حق في الفيء، فقد ذكرت الآيات المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم من المسلمين بعد الهجرة الأولى حتى تنقضي الدنيا[3]. وهو بذلك كان موافقاً لاجتهاد عمر بن الخطاب في جعل الفيء موقوفاً على أجيال المسلمين[4]. ونظر عمر في مصارف الخمس فوجدها موافقة لمصارف الفيء، فرأى أن يضمه إليه كما فعل عمر بن الخطاب[5]، ويصرف منها على جميع مصالح المسلمين، وكتب في ذلك كتاباً: . . وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا في موضعه. . ووضع مواضع شتى فنظرنا فإذا هو على سهام الفيء في كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى، فإذا عمر بن الخطاب رحمه الله قد قضى في الفيء قضاءً قد رضي به المسلمون، فرض للناس أعطية وأرزاقاً جارية لهم، ورأى أن لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك، ورأى أن ءه لليتيم والمسكين، وابن السبيل، فرأى أن يُلحق الخمس بالفيء وأن يوضع مواضعه التي سم الله وفرض. . . فاقتدوا بإمام عادل فإن الآيتين متفقتان آية الفيء وآية الخمس. . . فنرى أن يُجمعا جميعاً فيُجعلا فيئاً للمسلمين ولا يستأثر عليهم[6]. لقد ساعدت إصلاحات عمر في إيرادات الخمس والفيء على تحقيق أهداف سياسته الاقتصادية، فتوزيعه للخمس على الأسهم المذكورة في القرآن مع إيثاره لذوي الحاجة أينما وجدوا ساعد على تحقيق إعادة توزيع الدخل والثروة، وشعر الناس بالعدل وزوال الظلم، بسبب هذه السياسة الرشيدة السديدة.

---

(1) الطبقات (5/ 390)، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 82.
(2) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم (1/ 320).
(3) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 97.
(4) الخراج، أبو يوسف، ص: 25، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 82.
(5) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 83.
(6) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 97، الأموال رقم: 838.

رابعاً: سياسة الإنفاق العام لعمر بن عبد العزيز:

1 - إنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية:

لتحقيق هدف إعادة توزيع الدخل والثروة سعى عمر إلى زيادة الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، وتأمين الرعاية الصحية والاجتماعية لهم وهذه مطالب شرعية جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية ولقد اهتم منذ الأيام الأولى لخلافته باتباع الشرع والتزام الحق والعدل، فأرسل إلى العلماء يستفسر، وقد كتب ابن شهاب الزهري لعمر كتاباً عن مواضع السنة في الزكاة ليعمل بها في خلافته فذكر فيها: إن فيها نصيباً للزمنى والمقعدين(أصحاب العجز الأصلي) ونصيباً لكل مسكين به عامة لا يستطيع عَيْلة وتقليباً في الأرض(أصحاب العجز الطارئ كالعامل الذي يصاب في عمله والمجاهد الذي يصاب في الحرب). ونصيباً للمساكين الذين يسألون ويستطعمون الغني حتى يأخذوا كفايتهم ولا يحتاجون بعدها إلى سؤال).. ونصيباً لمن في السجون من أهل الإسلام ممن ليس له أحد... ونصيباً لمن يحضر المساجد الذين لا عطاء لهم ولا سهم «أي ليست لهم رواتب ومعاشات منتظمة» ولا يسألون الناس... ونصيباً لمن أصابه فقر وعليه دين ولم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يُتهم في دينه.. ونصيباً لكل مسافر ليس له مأوى، ولا أهل يأوي إليهم، فيؤوى ويُطعم وتُعلف دابته حتى يجد منزلاً أو تقضى حاجته[1].

أ - الإنفاق على الفقراء والمساكين: فقد كان يفكر في الفقراء والمساكين، ويسعى إلى إغنائهم، فقد مرت معنا قصته مع زوجته فاطمة وقد سألته عن سر بكائه فقال لها: تقلّدت أمر أمة محمد ﷺ، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ، فخشيت ألا تثبت حجتي عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت[2]. هذه الحادثة تلخص سياسة عمر في الإنفاق على الفئات المحتاجة، والحادثة مليئة بالمعاني وتحتاج إلى وقفات فقد شعر عمر بعظم المسئولية الملقاة على عاتقه قال رسول الله ﷺ: **«كلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته»**[3]. وقد عمل عمر على سد احتياجات الناس، جاء رجل لعمر فقام بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين اشتدت بي الحاجة وانتهت بي الفاقة، والله سائلك عن مقامي غداً بين يديه، وكان عمر قد اتكأ على قضيب، فبكى حتى جرت دموعه على القضيب، ثم فرض له ولعياله، ودفع له خمسمائة دينار حتى

---

(1) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص: 83.

(2) سير أعلام النبلاء (5/ 132)، سيرة ومناقب عمر لابن عبد الحكم، ص: 248.

(3) البخاري، رقم 893.

يخرج عطاؤه[1]، وكان رَحِمَهُ الله يهتم بشأن الأرامل وبناتهن كما حدث مع المرأة العراقية التي مرّ ذكرها وقد قال ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل**»[2]. وقد خصصّ عمر داراً لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل[3]، ولم يكتف عمر بالاعتناء بالفقراء فحسب، بل امتدت رعايته إلى المرضى وذوي العاهات والأيتام، فقد كتب كتاباً إلى أمصار الشام: ادفعوا إليّ كل أعمى في الديوان أو مقعد، أو من به فالج، أو من به زمانة، تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم.. ثم كتب ارفعوا إليّ كل يتيم، ومن لا أحد له... فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعون بينهم بالسوية[4].

ب - الإنفاق على الغارمين: من الفئات التي اهتم بها عمر الغارمون، فقد كتب ابن شهاب الزهري لعمر عن سهم الغارمين: لمن يصاب في سبيل الله في ماله.. ولمن أصابه فقر، وعليه دين لم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يُتهم في دينه[5]. ولذلك أمر عمر بقضاء الدين عن الغارمين، فكتبوا إليه، إنا نجد الرجل له المسكن، والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من سكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته وفرس يجاهد عليه عدوّه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه[6]. وكتب إلى والي الكوفة وقد اجتمعت عنده أموال فسأل عمر عنها فأجاب: كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوّج فلم يقدر على نقد السلام[7]وكتب كتاباً قُرء في مسجد الكوفة: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[8].

ج - الإنفاق على الأسرى: قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: 8-10].

اهتم عمر بن عبد العزيز بالأسرى وبالإنفاق عليهم من بيت مال المسلمين، فقد كتب كتاباً إلى أسرى المسلمين في القسطنطينية[9]. وقد تحدثت عن الكتاب في كلامي عن الحياة

(1) حلية الأولياء (5/ 289).
(2) البخاري، رقم: 6006.
(3) الطبقات (5/ 378).
(4) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي، ص: 202.
(5) الأموال، أبو عبيدة رقم: 1850، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص: 92.
(6) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص: 171، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 92.
(7) المصدر نفسه لابن عبد الحكم، ص: 67.
(8) الطبقات (5/ 374).
(9) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص: 93.

الاجتماعية واهتم بالسجناء في سجون المسلمين بسبب جرم أو قصاص، فقد أمر عمر برعايتهم والإنفاق عليهم وكتب عمر إلى العمال: لا تدعُنّ في سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلي قائماً، ولا يبيتنّ في قيد إلا رجل مطلوب بدم، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وإدامهم[1]. وأمر لأهل السجون برزق وكسوة في الصيف والشتاء[2].

ح - الإنفاق على المسافرين وأبناء السبيل: اهتم عمر بالمسافرين وأبناء السبيل، فأمر عماله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين والاهتمام بهم، وكتب إلى أحد عمّاله: اعمل خانات في بلادك، فمن مرّ بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علّة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[3]، وأمر عمر بالاهتمام بالحجّاج، والإنفاق عليهم ورعاية ضعيفهم وإغناء فقيرهم[4].

د - الإنفاق لفك الرقاب: بعد أن أنفق عمر على الفقراء والمساكين، والعاجزين، والغارمين وأبناء السبيل وجه الأموال لفك رقاب المستعبدين، وقال عامل صدقات إفريقية: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً. . فاشتريت بها رقاباً وولاؤهم للمسلمين[5].

وقد مرّ معنا إنفاق عمر على العلماء لكي يتفرغوا لدعوة الناس وتعليمهم، واتسعت رعايته الاجتماعية لتشمل جميع فئات الأمة حتى الأطفال الصغار وحدّد لهم مبلغاً من المال ليستعين به ذووهم على تربيتهم، واهتم بمواطنيه من أهل الذمة، فكان ينفق على فقرائهم ومحتاجيهم من بيت المال[6]، كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن سياسة عمر بن عبد العزيز الراشدة ساهمت في إغناء عدد كبير من المسلمين وزيادة ثرواتهم في المجال التجاري والزراعي وغيرها وساهمت في سريان روح التدين وحب الآخرة في نفوس الناس ورغبوا في الإكثار من فعل الخيرات ابتغاء مرضات الله تعالى والرغبة فيما عند الله، فكثر الإنفاق في سبيل الله لمساعدة الفقراء والمساكين والأرامل وبناء المرافق العامة وحفر الآبار، وتشييد المساجد وغير ذلك، وهذا يخفف الأعباء المالية على بيت مال المسلمين في العاصمة وأقاليمها الواسعة.

---

(1) الخراج، أبو يوسف، ص: 315.
(2) الطبقات (5/ 356).
(3) تاريخ الطبري نقلاً عن السياسة المالية والاقتصادية، ص: 94.
(4) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 65.
(5) السياسة المالية والاقتصادية، ص: 94.
(6) المصدر نفسه، ص: 95، 96.

2 - ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

كانت سياسة عمر بن عبد العزيز في ميدان الإنفاق تقوم على أساس مبدأ الرشد الاقتصادي أو ما يعبر عنه بمبدأ القوامة في الإنفاق ومقتضاه البعد عن الإسراف والتبذير والبعد عن الشح والتقتير[1]. ومن الخطوات التي اتخذها في مجال ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

أ - قطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين: أعاد عمر القطائع والحقوق الخاصة إلى أصحابها والحقوق العامة إلى بيت المال، وبدأ بنفسه وبآل بيته - كما مرّ معنا - وكان عمر لا يأخذ من بيت المال شيئاً فقالوا له: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب، قال: كان عمر لا مال له، وأنا مالي يغنيني[2]. وعندما أُحضرت مراكب الخلافة لعمر بعد موت سليمان، طلب بغلته وأمر بوضع المراكب والفرش والزينة في بيت المال وكانت عادة الخلفاء قبله أن يأخذ ورثة الخليفة الميت ما استعمل من ثيابه وعطوره ويُردّ الباقي إلى الخليفة الجديد، فلما استخلف عمر قال: ما هذا لي ولا لسليمان، ولا لكم ولكن يا مزاحم ضُمّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين[3]، وكان عمر لا يستعمل الأموال العامة لحاجته الخاصة مطلقاً. فمرة بعث أمير الأردن بسلتي رطب إلى عمر، وقد جيء على دواب البريد، فلما وصلت عمر أمر ببيعها وجعل ثمنها في علف دواب البريد[4]، ومرة طلب من عامله أن يشتري له عسلاً فحمل له على دواب البريد، فأمر ببيع العسل وجعل ثمنه في بيت المال، وقال له: أفسدت علينا عسلك[5].

ب - ترشيد الإنفاق الإداري: سعى عمر على تعويد أعوانه وولاته على الاقتصاد في أموال المسلمين، فعندما طلب والي المدينة أن يصرف له شمعاً فأجابه عمر: لعمري لقد عهدتك يا ابن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح، ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك والسلام[6]. وكتب إليه أيضاً وقد طلب قراطيس للكتابة: . . . إذا جاءك كتابي هذا فأدق القلم واجمع الخطّ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ بيت مالهم[7]. يلاحظ حرص عمر على المال العام ويرشد ولاته للاستغلال الأمثل لموارد الدولة، فعمر يريد من العامل أن يستغل الأوراق في الرسائل إلى أقصى درجة.

---

(1) السياسة المالية والاقتصادية، ص: 94 - 96.

(2) العقد الفريد (5/ 22)، السياسة المالية والاقتصادية، ص: 97.

(3) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 35، السياسة المالية، ص: 97.

(4) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص: 98.

(5) سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص: 210.

(6) الوالي : هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 64.

(7) سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص: 121.

ج - **ترشيد الإنفاق الحربي**: خاضت الدولة الأموية حروباً خارجية وداخلية فكلّفت ميزانية الدولة الشيء الكثير، منها حملة القسطنطينية زمن سليمان بن عبد الملك، حيث كلفت الكثير من الأموال والشهداء دون جدوى، فما كان من عمر بعد استخلافه إلا أن أرسل كتاباً يأمر فيه مسلمة بن عبد الملك قائد الحملة بالعودة بعد أن أصاب الجيش ضيق شديد وقد أدّت سيرة عمر وسياسته إلى استقرار الأوضاع الداخلية وتوقفت الحروب والفتن، ولما بلغت سيرته الخوارج، اجتمعوا وقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل[1]، ولقد ساهم إيقاف الحروب والفتن في إيجاد مناخ عام من الراحة والطمأنينة والاستقرار، وساهم في النمو الاقتصادي للدولة وتحسن أوضاع الطبقات الفقيرة والمحتاجة بفضل الله ثم سياسة عمر الرشيدة.

المبحث السابع

المؤسسة القضائية في عهد عمر بن عبد العزيز وبعض اجتهاداته الفقهية

أولاً: في الأقضية والشهادات:

1 - في صفات القاضي:

كان عمر بن عبد العزيز يدقق في اختيار القضاة حتى لا يُبتلى الناس بقاض يتخبط فيهم بغير حق، ولهذا فقد اشترط عمر بن عبد العزيز في القاضي خمسة شروط ولا يجوز له أن يلي القضاء حتى تكتمل فيه هذه الشروط وهي: العلم، والحلم، والعفة، والاستشارة، والقوة في الحق[2]. فعن مزاحم بن زفر قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز في وفد أهل الكوفة فسألنا عن بلدنا وأميرنا وقاضينا، ثم قال: خمس إن أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة، أن يكون فهيماً، وأن يكون حليماً وأن يكون عفيفاً وأن يكون صليباً وأن يكون عالماً يسأل عما لا يعلم[3]، وفي رواية عن يحيى بن سعيد عن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الرأي، لا يبالي ملامة الناس[4]. وقد قال بهذا المعنى عمر بن الخطاب[5]، وعلي بن أبي

(1) المصدر نفسه، ص: 86 السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص: 100.

(2) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 285) د. محمد شقير.

(3) الطبقات الكبرى (5/ 369).

(4) المصدر نفسه (5/ 369 - 370).

(5) المصنف لعبد الرزاق (8/ 299) شذرات الذهب (1/ 120).

طالب[1] ﷺ ، وذهب الأئمة الأربعة إلى موافقة عمر بن عبد العزيز في كل أو جل هذه الصفات[2].

2 - في حكم القاضي في ما استبان له ويرفع ما التبس عليه:

قد يكون هناك بعض القضايا المتشابكة والتي أمرها يحيّر القاضي فهل يحكم القاضي فيها وإن لم يظهر له الحق أم يتركها لمن هو أعلم منه؟ لقد قرر عمر بن عبد العزيز قراراً هو درس في القضاء يجب أن يعمل به إلى يوم القيامة، ذلك أنه يرى أن القاضي إن تبين له الحق حكم به وإن لم يظهر له فلا يترك القضية وإنما يرفعها إلى من هو فوقه لينظرها[3]. عن ميمون بن مهران أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجباية - وكان قاضي الجزيرة وعلى خراجها - قال: فكتب إليه عمر: إني لم أكلفك ما يُعنتك، أجب الطيب، واقضِ بما استبان لك من الحق، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إليّ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه، ما قام دين ولا دنيا[4]. وهذا الأثر يبين أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل الناس في العلم ولا في الفهم سواء بل هم درجات في ذلك والذي يولي القضاء عليه أن يحكم بين الناس الذين ولي أمرهم وذلك فيم ظهر له من الحق، فإذا شق عليه أمر من هذه القضايا فعليه أن يستشير أهل العلم في بلاده، فإن لم يجد عندهم معرفة لهذا الأمر رفعه إلى من هو أعلم منه أو إلى وليّ الأمر ليحوِّل هذه القضية إلى غيره، أو ليحكم فيها إن كان من أهل العلم[5]، وكان عمر بن عبد العزيز له مجالس علمية يستشير فيها العلماء والفقهاء وأصحاب الرأي في أمور الدين والدنيا، وكان يقتطع من أوقات راحته في الليل، الذي أدرك عمر كم هو حيوي للتوصل إلى الحقائق وقد أعرب عن إدراكه العميق لما يأتي عن التقاء الأفكار من نتائج فكرية إيجابية، عندما سأله رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين نهارك كله مشغول، وهذا جزء من الليل وأنت تسمر معنا؟ فقال عمر: يا رجاء، إن ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها، وإن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة، لا يضل معهما رأي ويقعد معهما حزم[6]. وجدت ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها[7].

---

(1) المغني (9/ 3) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 485).

(2) حاشية ابن عابدين (4/ 305) روضة الطالبين (11/ 95. 97) جواهر الإكليل (2/ 221)المغني (9/ 39. 43، 50).

(3) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 487).

(4) الخراج لأبي يوسف، ص: 240، 241.

(5) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 488).

(6) ملامح الانقلاب الإسلامي، ص: 186، عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص: 124.

(7) ملامح الانقلاب الإسلامي، ص: 186.

3 - في الرفق بالحمقى والنهي عن العقوبة في الغضب:

كتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد. أما بعد.. فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره، وأن تبتلي به فرأيت منه سوء رِعة، وسوء سيرة في الحق عليه، والحظ له، فسدده ما استطعت وبصِّره وأرفق به وعلّمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه، فإن رأيت أنه أتى ذنباً استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق على قدر ذنبه بالغاً ما بلغ وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جلدة واحدة تجلده إياها، وإن ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبة قتلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرك[1]. وكان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام، ثم عاقبه كراهة أن يعجل في أول غضبه[2].

إن العقوبة أثناء الغضب يحتمل أن يتجاوز القاضي فيها الحق تحت تأثير الغضب فيظلم المذنب، وخوفاً من التعدي في العقوبة فقد طلب عمر بن عبد العزيز من القاضي أن يحبس المذنب حتى يذهب غضب القاضي، ثم يحكم عليه وهو في هدوء على قدر ذنبه[3].

4 - خطأ الوالي في العفو خير من تعديه في العقوبة:

عن أبي عقبة أن عمر بن عبد العزيز قال: ادرؤوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة، فإن الوالي إذا أخطأ في العفو خير من أن يتعدى في العقوبة[4].

5 - في ترك العمل بالظن:

ولى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي على جند قنسرين، والفرات بن مسلم على خراجها، فتباغيا.. ولما قدم قابل، وقدم الوليد مع رؤوس أنباط قنسرين كتب عمر إلى الفرات أن أقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر إذ دخل الأنباط فقال لهم عمر: ماذا أعددتم لأميركم في نُزله لمسيره إليّ. قالوا: وهل قدم يا أمير المؤمنين، قال: ما علمتم به. قالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر بوجهه على الوليد، فقال: يا وليد: إن رجلاً ملك قنسرين وأرضها خرج يسير في سلطانه وأرضه حتى انتهى إليَّ لا يعلم به أحد، ولا ينفر أحداً ولا يروعه، لخليق أن يكون متواضعاً عفيفاً، قال الوليد: أجل والله يا أمير المؤمنين، إنه لعفيف وإني له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال عمر: ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 68، 69.
(2) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 236.
(3) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 490).
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص: 123، فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 491).

على الإصرار، وردهما عمر على عملهما؛ فكتب إليه الوليد - وكان مرائياً - خديعة لعمر وتزيناً بما هو ليس عليه: إني قدرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهماً، ورزقي يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحط فضل ذلك، فقال عمر: أراد الوليد أن يتزين عندنا بما لأظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحداً على ظن لعزلته، ثم أمر بحط رزقه الذي سأله، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده: إن الوليد بن هشام كتب إلي كتاباً ظني أنه تزين بما ليس هو عليه ولو أمضيت شيئاً على ظني ما عمل لي أبداً، ولكني آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا الأمر إليك فسألك أن ترد إليه رزقه وذكر أني نقصته فلا يظفر منك بهذا أبداً فإنما خادع بالله والله خادعه. فلما مات عمر واستخلف يزيد كتب الوليد: إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث إليه فعزله، وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يلِ له عملاً حتى هلك[1].

6 - في الهدية لولاة الأمر:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى اعتبار الهدية لولاة الأمر من خلفاء وولاة الأقاليم وقضاة وغيرهم رشوة وقد رفض الهدية مع شدة حاجته إليها وأمر الناس بعدم تقديم الهدايا لولاة الأمر، كما أمر الولاة بأن لا يقبلوا شيئاً من الهدايا[2]، عن فرات بن مسلم قال: اشتهى عمر ابن عبد العزيز التفاح فبعث فلم يجد شيئاً يشترون له به، فركب وركبنا معه فمر بدير فتلقاه غلمان للديرانيين معهم أطباق فيها تفاح، فوقف على طبق منها فتناول تفاحة فشمها ثم أعادها إلى الطبق، ثم قال: ادخلوا ديركم لا أعلمكم بعثتم إلى أحد من أصحابي بشيء قال: فحركت بغلتي فلحقته فقلت: يا أمير المؤمنين، اشتهيت التفاح فلم يجدوه لك فأهدي لك فرددته؟! قال: لا حاجة لي فيه، فقلت: ألم يكن رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية. قال: إنها لأولئك هدية وهي للعمال بعدهم رشوة[3].

7 - في نقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية:

كتب عمر بن عبد العزيز برد أحكام من أحكام الحجاج مخالفة لأحكام الناس[4]. وقد وافق عمر بن عبد العزيز في رد الأحكام إذا خالفت كتاب الله أو سنة نبيه أو الإجماع أو الشورى، وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد أنه ينقضي الحكم إذا خالف الكتاب والسنة أو الإجماع[5].

---

(1) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 129 - 131.
(2) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 495).
(3) الطبقات الكبرى، لابن سعد (5/ 377).
(4) حلية الأولياء (5/ 270).
(5) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 499).

8 - في من ضيع أمانته فعليه اليمين بعدم التفريط:

كتب وهب بن منبه إلى عمر بن عبد العزيز: إني فقدت من بيت مال اليمن دنانير. فكتب إليه عمر: أما بعد فإني لست أتهم دينك ولا أمانتك ولكن أتهم تضييعك وتفريطك، وإنما أنا حجيج المسلمين في مالهم، وإنما لأشحهم يمينك[1] فاحلف لهم والسلام[2].

9 - في أثر البينة الغائبة على تأخير القضاء:

كان عند عمر بن عبد العزيز نفر من قريش يختصمون إليه فقضى بينهم فقال: المقضي عليه: أصلحك الله! إن لي بينة غائبة فقال عمر: إني لأؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه، ولكن انطلق أنت فإن أتيتني ببينة وحق هو أحق من حقهم فأنا أول من رد قضاءه على نفسه[3].

10 - نفقة البعير الضال:

عن الشعبي قال: أضل رجل بعيراً فوجده عند رجل قد أنفق عليه، أعلفه وأسمنه، فاختصما إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ أمير على المدينة فقضى لصاحب البعير ببعيره وقضى عليه بالنفقة[4].

11 - في حرية اللقيط:

جاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أهل مكة أن اللقيط حر[5].

12 - شهادة الرجل لأخيه أو لأبيه:

إن عمر بن عبد العزيز كتب: أن أجز شهادة الرجل لأخيه إذا كان عدلاً[6].

ثانياً: في الدماء والقصاص:

1 - تخيير الأولياء في قتل العهد بين العفو والدية والقتل:

كتب عمر بن عبد العزيز في امرأة قتلت رجلاً: إن أحب الأولياء أن يعفوا عفوا، وإن أحبوا أن يقتلوا قتلوا، وإن أحبوا أن يأخذوا الدية أخذوها وأعطوا امرأته ميراثها من الدية[7].

---

(1) أي: لابد من حلف اليمين بأنه لم يفرط فإن حلف فلا ضمان عليه لأنه مؤتمن.

(2) سيرة عمر، لابن الجوزي، ص: 104، 105.

(3) الطبقات الكبرى (5/ 386).

(4) مصنف ابن أبي شيبة (6/ 312).

(5) مصنف ابن أبي شيبة (6/ 531).

(6) المصدر نفسه (8/ 342 - 343).

(7) المحلى (10/ 361) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 11).

2 - في التأني حتى يبلغ ولي المقتول:

كتب عمر بن عبد العزيز في رجل قُتل وله ولد صغير، أن يتأنى بالصغير حتى يبلغ[1].

3 - في عفو بعض الأولياء يسقط القود:

عن الزهري قال: وكتب به عمر بن عبد العزيز أيضاً: إذا عفا أحدهم فالدية[2].

4 - في القتل بعد أخذ الدية:

قال عمر بن عبد العزيز: والاعتداء الذي ذكر الله أن الرجل يأخذ العقل، أو يقتص، أو يقضي السلطان فيما بين الجارح والمجروح أو يعدو بعضهم بعد أن يستوعب حقه، فمن فعل ذلك فقد اعتدى والحكم فيه إلى السلطان بالذي يرى فيه من العقوبة، ولو عفا عنه لم يكن لأحد من طلبة الحق أن يعفو عنه بعد اعتدائه إلا فإذن السلطان، وعلى تلك المنزلة كل شيء من هذا النحو فإنه بلغنا أن هذا الأمر الذي أنزل الله فيه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۝٥٩﴾ [النساء: 59]، وما كان من جرح فوق الأدنى ودون الأقصى فهو يرى فيه بحساب الدية[3].

5 - في القتيل يوجد في السوق:

كتب عدي بن أرطأة قاضي البصرة إلى عمر بن عبد العزيز: إني وجدت قتيلاً في سوق الجزارين، قال: أما القتيل فديته من بيت المال[4].

6 - في القتل في الزحام:

إذا قتل الإنسان بسبب ازدحام الناس ولم يعلم من قتله فهل يذهب دمه هدراً؟ إن عمر بن عبد العزيز يرى أن من مات بهذا السبب فديته في بيت المال[5]. فعن عمر بن عبد العزيز أنه كتب في رجلين ماتا في الزحام: أن يوديا من بيت المال فإنما قتله يد أو رجل[6].

ثالثاً: في الديات:

1 - مقدار الدية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد أن الدية كانت على عهد رسول الله ﷺ مائة بعير[7].

---

(1) مصنف عبد الرزاق (10/ 11).
(2) المصدر نفسه (9/ 318).
(3) المصدر نفسه (10/ 16، 17).
(4) المصدر نفسه (9/ 459).
(5) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 36).
(6) المحلى (10/ 418).
(7) مصنف ابن أبي شيبة (9/ 128).

2 - في دية اللسان:

عن سليمان بن موسى قال: في كتاب عمر بن عبد العزيز في الأجناد: ما قطع في اللسان فبلغ أن يمنع الكلام كله ففيه الدية كاملة وما نقص دون ذلك فبحسابه[1].

3 - في دية الصوت والحنجرة:

حيث إن الصوت مصدره الحنجرة وأن إتلافها قد يذهب بالصوت ومن ثم فلا كلام فقد رأى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن فيها الدية كاملة إذا انقطع الصوت من ضربة[2]، عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: في الحنجرة إذا كسرت فانقطع الصوت الدية كاملة[3].

4 - في دية الذكر:

وأما الذكر فلأهميته للرجل ولأنه إذا ذهب انقطعت شهوته وذهب نسله، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أنه إذا ذهب كله ففيه الدية كاملة، وما كان دون ذلك فيحاسبه، فعن عبد العزيز عن عمر بن عبد العزيز في الذكر الدية، فما كان دون ذلك فبحسابه[4].

5 - في دية إفضاء المرأة:

إذا أصاب الرجل المرأة فأفضاها فقد ينتج عن ذلك منع اللذة والجماع، وقد نتج عنه عدم حبس الحاجتين والولد، ونظراً لخطورة هذا الأمر فقد جعل فيه عمر بن عبد العزيز الدية كاملة، وفي رواية عنه أنه جعل فيه ثلث الدية[5]، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عمر بن عبد العزيز يجعل في إفضاء المرأة الدية كاملة إذا لم يحبس الحاجتين والولد، وثلث الدية إذا حبس الحاجتين والولد[6].

6 - في دية الأنف:

نظراً للمصالح المترتبة على وجود الأنف من التنفس عن طريقه ومعرفة الروائح والتمييز بينها، إضافة إلى جمال الوجه بوجود الأنف، والتشويه الحاصل بقطعه كما أن العرب ترى في جدع الأنف إهانة لا يعدلها إهانة، لذلك فقد جعل عمر بن عبد العزيز فيه الدية كاملة إذا جدع من أصله، وأن ما كان دون ذلك فبحسابه[7].

7 - في دية الأذن:

حيث إن الأذن تؤدي نصف منفعة السمع ولأنها مهما يكون في الإنسان منه اثنتان فإن عمر

---

(1) المصنف لعبد الرزاق (9/ 357) فقه عمر (2/ 66).
(2) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 69).
(3) مصنف ابن أبي شيبة (9/ 170) فقه عمر (2/ 69).
(4) مصنف عبد الرزاق (9/ 372).
(5) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 71).
(6) مصنف عبد الرزاق (9/ 377).
(7) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 76).

ابن عبد العزيز يرى إذا استؤصلت أو ذهبت منفعتها ففيها نصف الدية حيث إن قوله في الأذن نصف الدية يتناول ذهاب سمعها ويتناول استئصالها[1].

8 - في دية الرِجل:

لما كان الإنسان لا يستطيع المشي إلا بالرجلين وأنه بالرجل الواحدة يكون قعيداً ولأن الرجل مما يكون في الإنسان منه اثنتان، فقد جعل عمر بن عبد العزيز في الرجل نصف الدية[2].

9 - في دية ما بين الحاجبين:

هناك بعض الجزئيات في الديات لم يتعرض لها العلماء قبل عمر بن عبد العزيز، وها هو عمر بن عبد العزيز يرى فيها رأيه، من هذه الأمور دية الكسر إذا وقع بين الحاجبين وشان الوجه ولم ينقل منها العظام[3]، فقد قال: . . فإن كان بين الحاجبين كسر شان الوجه ولم ينقل منها العظام فربع الدية[4].

10 - في دية الجبهة إذا هشمت:

قال عمر بن عبد العزيز: في الجبهة إذا هشمت وفيها غوص من داخل مائة وخمسون ديناراً[5].

11 - في دية الذقن:

وأما الذقن إذا كسرت فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن فيها ثلث الدية، فقد قال: في الذقن ثلث الدية[6]. هكذا يقرر عمر بن عبد العزيز باجتهاده وبرأيه السديد أموراً لم يسبق إليها، منها دية الذقن إذا كسرت فإنه جعل فيها ثلث الدية نظراً لأهميتها حيث يمتنع مع كسرها مضغ الطعام وفتح الفم. ويبدو أن هذا القول تفرد به[7].

12 - في دية الأصابع:

نظراً لأهمية الأصابع وخاصة أصابع اليد، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أن في كل أصبع من أصابع اليد أو الرجل عشر الدية وفي كل قصبة من قصب الأصابع ثلث دية الأصبع إلا الإبهام لأنه قصبتان ففي كل قصبة منه نصف دية الأصبع، فعن عمر بن عبد العزيز: في كل أصبع عشر من الإبل أو عدل ذلك من ذهب أو ورق[8].

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 80).
(2) مصنف ابن أبي شيبة (9/ 209).
(3) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 88).
(4) مصنف عبد الرزاق (9/ 320).
(5) المصدر نفسه (9/ 291).
(6) مصنف عبد الرزاق (9/ 361) مصنف ابن أبي شيبة (9/ 179).
(7) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 96).
(8) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 100).

13 - في دية الظفر:

حتى الظفر لم يغفل عنه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقد جعل فيه إذا اسود أو سقط عشر دية الأصبع عشرة دنانير، فعن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع له في الظفر إذا نزع فعرّ[1]، أو سقط أو اسود، العشر في دية الأصبع، عشرة دنانير[2].

رابعاً: في الحدود:

1 - أهمية إقامة الحدود:

حيث إن إقامة الحدود سبب في حفظ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم واستتباب الأمن في بلادهم، فقد أكد عمر بن عبد العزيز على إقامة الحدود حتى جعلها من حيث الأهمية كإقامة الصلاة والزكاة[3]، فقد كتب عمر بن عبد العزيز: إن إقامة الحدود عندي كإقامة الصلاة والزكاة[4].

2 - في منع الرجوع عن الحدود بعد بلوغها الإمام:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى مسائل الحدود إذا رفعت إلى الإمام أو القاضي فإنها تكون قد بلغت حداً لا يمكن الرجوع فيه بل يجب تنفيذ ما ثبت من الحدود[5].

3 - في اجتماع أكثر من حد على رجل واحد:

قد يأتي الرجل بعدة جرائم قبل أن يقام عليه الحد مثل أن يزني ويسرق ويقتل، فهل قتله كافٍ عن الحدود الأخرى فيأتي عليها؟ أم أنها تقام عليه الحدود ثم يقتل؟ إن الرواية عن عمر ابن عبد العزيز تدل على أنه يقيم الحدود أولاً ثم يقتله[6].

4 - في عدم القطع أو الصلب إلا بعد مراجعة الخليفة:

رأى عمر بن عبد العزيز أن على الولاة مراجعة الخليفة في قضايا القتل والصلب، وأن لا يُقتل أحد ولا يُصلب إلا بعد موافقة الخليفة على ذلك[7].

5 - يشترط في المقذوف لحده أن يكون مسلماً:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أنه لا حد في قذف كافراً، وذلك لأن الكفر أكبر من الزنا المقذوف به، فلا حاجة إلى إثبات براءته من هذا الذنب ما دام فيه أكبر منه وهو الكفر[8]، فعن

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 102).
(2) المصدر نفسه (2/ 103).
(3) المصدر نفسه (2/ 111).
(4) الطبقات الكبرى (5/ 378).
(5) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 113).
(6) المصدر نفسه (2/ 117).
(7) المصدر نفسه (2/ 120) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 114 - 115.
(8) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 130).

طارق بن عبد الرحمٰن ومطرف بن طريف قالا: كنا عند الشعبي فرفع إليه رجلان، مسلم ونصراني، قذف كل واحد منهما صاحبه فضرب النصراني للمسلم ثمانين، وقال للنصراني: لما فيك أعظم من قذف هذا فتركه، فرفع ذلك إلى عبد الحميد بن زيد، فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز فذكر ما صنع الشعبي، فكتب عمر يحسّن ما صنع الشعبي[1]. هكذا يرى عمر بن عبد العزيز أنه لا حد على قذف الكافر إذ ليس بعد الكفر ذنب، ولأن الكافر فيه الكفر وهو أكبر مما قذف به، إذ لو وجد فيه الزنا فهو أقل من الكفر، إذن فلا حد على من قذف الكافر[2].

6 - عدم سقوط الحد بقذف الرجل ابنه:

إذ قذف الرجل ابنه، فهل يقام عليه الحد أم لا يقام؟ وهل من حق الأب على ابنه أن يقذف بما ليس فيه؟ وإذا كان عليه حد فهل يسقط عنه إذا عفا الابن؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن من قذف ابنه يقام عليه الحد، إلا أنه إذا عفا الولد عن والده فلا يقام عليه حد[3]، فعن ابن جريج قال: أخبرني رزيق - صاحب أيلة - أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز في رجل افترى على ابنه، فكتب بحد الأب إلا أن يعفو عنه ابنه[4].

7 - عقوبة قذف النصرانية تحت المسلم:

إذا كانت النصرانية تحت مسلم، ونظراً لأن قذفها يتعدى لزوجها المسلم أو ابنها المسلم فإن عمر بن عبد العزيز يجلد من قذفها دون الحد[5]. فعن أبي إسحاق الشيباني عن عمر بن عبد العزيز في رجل قذف نصرانية لها ولد مسلم، فجلده عمر بضعة وثلاثين سوطاً[6]. وقد وافق عمر بن عبد العزيز في رأيه هذا الزهري، وقال قتادة: يجلد الحد[7]. وقد اتفق أصحاب المذاهب الأربعة على أنه لا يحد، وأما المالكية فقالوا: ينكّل من أجل أولادها المسلمين[8].

8 - قذف المرأة للرجل بنفسها:

عن عمر بن عبد العزيز أنه أتته امرأة فقالت: إن فلاناً استكرهني على نفسي، فقال: هل سمعك أحد أو رآك؟ قالت: لا، فجلدها بالرجل[9]. هذه مسألة لا تتناول عقوبة الزنا، وإنما هي خاصة بالقذف، فالمرأة التي تدعي على الرجل أنه استكرهها على الزنا، هي بكلامها هذا تعتبر قاذفة له بنفسها، وعليها حد القذف إلا أن تأتي ببينة تدرأ عنها هذا الحد، فسماع صياح

---

(1) المصنف لعبد الرزاق (6/ 64 - 65) (7/ 130 - 131).
(2) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 130).
(3) المصدر نفسه (2/ 133).
(4) مصنف ابن أبي شيبة (9/ 504).
(5) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 136).
(6) مصنف عبد الرزاق (7/ 130).
(7) المصدر نفسه (7/ 130،129).
(8) المغني (8/ 216)، فقه عمر (2/ 137).
(9) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 140).

المرأة هو عند عمر بن عبد العزيز يعفيها من حد القذف أو أن يكون أحد رآها، وقد وافق عمر بن عبد العزيز في جلدها إن لم يكن لها بينة، وافقه الزهري وقتادة وربيعة ويحيى بن سعيد الأنصاري[1].

9 - قطع السارق قبل خروجه بسرقته:

ذهب عمر بن عبد العزيز بأنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقته، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لا يقطع حتى يخرج بالمتاع من البيت[2].

10 - النباش سارق يستحق القطع:

إن من الناس من يأتي أموراً تشمئز منها النفوس، حتى الميت في قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كما من سرق من الأحياء[3]، فعن معمر قال بلغني أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشاً[4].

11 - عقوبة شرب الخمر للمرّة الثانية:

عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلاً حداً في خمر فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين، رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس حتى تُحدث خيراً. قال: يا أمير المؤمنين أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبداً فتركه عمر[5].

12 - عقوبة ساقي الخمر:

إن من يوفر الخمر أو يقدمها لمن يشربها ينبغي أن لا تقل عقوبته عن شاربها، لأنه تسبب في إيصالها لمن يشربها، ولذلك فقد جلد عمر بن عبد العزيز رحمه الله ساقي الشراب مع الذين يشربون[6]، فعن ابن التيمي أن عمر بن عبد العزيز وجد قوماً على شراب، ووجد معهم ساقياً، فضربه معهم[7].

13 - إتلاف أواني الخمر مع الخمر:

عن هارون بن محمد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق وبالقوارير أن تكسر[8].

---

(1) المحلى (11/ 291 - 292).
(2) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 146).
(3) المصدر نفسه (2/ 147).
(4) مصنف ابن أبي شيبة (10/ 34).
(5) الطبقات الكبرى (5/ 365)، فقه عمر (2/ 157).
(6) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 159).
(7) المصنف لعبد الرزاق (9/ 230).
(8) الطبقات الكبرى لابن سعد (5/ 365).

14 - إدخال الكفار الخمر إلى بلاد المسلمين:

إذا كان الكفار يعتقدون حل الخمر ويشربونها في بلادهم، فإذا جاؤوا إلى بلاد المسلمين ومعهم الخمر فهل يسمح لهم بدخولها معهم؟ أو يسمح بتوفيرها لهم ليشربوها في بلاد المسلمين؟ إن على الكفار في بلاد المسلمين أن يصبروا عن الخمر ما داموا يرغبون العيش في بلاد المسلمين، فإن لكل دولة نظمها والداخل إليها يجب أن يراعيها، ولأن هذا نظام دولة الإسلام وهو أيضاً نظام رب العالمين فهو أحق بالرعاية والالتزام، ومن هذا المنطلق نجد عمر بن عبد العزيز يمنع أهل الذمة من إدخال الخمر معهم إلى بلاد المسلمين فقد كتب عمر في خلافته: أن لا يدخل أهل الذمة بالخمر أمصار المسلمين، فكانوا لا يدخلونها[1].

15 - في عقوبة الساحر:

عن همام عن يحيى أن عامل عُمان كتب إلى عمر بن عبد العزيز في ساحرة أخذها، فكتب إليه عمر: إن اعترفت أو قامت عليها البينة فاقتلها[2]. وهذا مذهب الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك وأحمد[3]، وقد كتب عمر بن الخطاب في خلافته إلى الولاة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة[4].

16 - استتابة المرتد:

المسلمون لا يكرهون أحداً على الإسلام ولكنهم أيضاً لا يقبلون التلاعب بالدين، فمن دخل في دين الإسلام طائعاً مختاراً أو ولد في الإسلام ثم كفر بعد إيمانه فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن يستتاب ويدعى إلى الإسلام ثلاثة أيام فإن تاب ورجع إلى الإسلام قبل منه فإن أبى ضربت عنقه[5].

17 - طريقة استتابة المرتد:

عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه قال: كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز فكتبت إليه أن رجلاً كان يهودياً فأسلم ثم تهود فرجع عن الإسلام، فكتب إليّ عمر: أن ادعه إلى الإسلام، فإن أسلم فخل سبيله وإن أبى فادع بالخشبة فاضجعه عليها، ثم ادعه، فإن أبى فأوثقه ثم ضع الحربة على قلبه ثم ادعه، فإن رجع فخل سبيله وإن أبى فاقتله. قال: ففعل ذلك

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 164).

(2) مصنف ابن أبي شيبة (10/ 135).

(3) حاشية ابن عابدين (1/ 31) المغني (8/ 153)، فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 176).

(4) مصنف ابن أبي شيبة (10/ 136).

(5) الطبقات الكبرى لابن سعد (5/ 351) مصنف عبد الرزاق (10/ 171).

به حتى وضع الحربة على قلبه، فأسلم فخلى سبيله[1]. قال الدكتور محمد شقير: لم أر قولاً لغير عمر بن عبد العزيز بهذا التفصيل، وذهب الأئمة الأربعة إلى أن المرتد يقتل بعد استتابته إذا لم يرجع إلى الإسلام[2].

18 - عقوبة المرتدة:

رأى عمر بن عبد العزيز أن تستتاب المرتدة، فإن تابت وإلا تسترق وتباع على غير أهل دينها[3]. وهذا رأي قتادة قال: تُسبى وتباع، وكذلك فعل أبو بكر بنساء أهل الردة[4]، وروي عن الحسن قال: لا تقتلوا النساء إذا هنّ ارتددن عن الإسلام ولكن يدعين إلى الإسلام، فإن هن أبين سبين فيجعلن إماء المسلمين ولا يقتلن[5].

خامساً: في التعزيرات:

1 - في الحد الأقصى للضرب تعزيراً:

العقوبة بالجلد تنقسم إلى قسمين: حد وتعزير، فالحد قد نص الشارع الحكيم عليه، فمقداره محدد، لا مجال لأحد أن يزيد عليه أو ينقص منه، وأما الجلد تعزيراً فهو عقوبة لإتيان أمر لا حد فيه، أو أي جناية لا حد فيها فهو متروك للحاكم ليحدد مقداره حسب ما يرى، إلا أن عمر بن عبد العزيز جعل لذلك حداً أقصى لا تجوز الزيادة عليه على قولين[6]، الأول: لا تجوز الزيادة على ثلاثين جلدة. فعن محمد بن قيس أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بمصر: لا تبلغ العقوبة أكثر من ثلاثين سوطاً إلا في حد من حدود الله[7]. وفي القول الثاني: لا يبلغ بالجلد تعزيراً أقل الحدود فعلى هذه الرواية لا يزاد للحر عن تسع وثلاثين جلدة ولا يزاد للعبد على تسع عشرة جلدة، لأن العشرين للعبد والأربعين للحر هي أقل الحدود[8]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم، وإن بلغ ذلك سوطاً واحداً وإياكم أن تبلغوا بأحد حداً من حدود الله[9].

2 - النهي عن أخذ الناس بالمظنة وضربهم على التهمة:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى عدم جواز الأخذ بالظن أو الضرب على التهمة فهو يقرر بهذا مبدأ العدالة وترجيح التحقيق العادل على التحقيق الحازم، وذلك خوفاً من أن يظلم بريء فقد

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة (12/ 274).
(2) روضة الطالبين (10/ 75) حاشية ابن عابدين (3/ 289).
(3) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 181).
(4) مصنف عبد الرزاق (10/ 176).
(5) مصنف ابن أبي شيبة (10/ 140).
(6) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 188).
(7) الطبقات الكبرى لابن سعد (5/ 365).
(8) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 189).
(9) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص: (117).

فضل عمر بن عبد العزيز أن يلقوا الله بخيانتهم على أن يلقى الله بدمائهم[1]، عن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال: حدثني أبي عن جدي، قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقاً ونقباً[2]، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد وأسأله آخذ الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس، فكتب إلي أن آخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله، قال يحيى: ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقله سرقاً ونقباً[3].

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز. . . . أما بعد، أصلح الله أمير المؤمنين فإن قبلي أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل، مالاً عظيماً لست أرجو استخراجه من أيديهم إلا أن أمسهم بشيء من العذاب، فإن رأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - أن يأذن لي في ذلك أفعل. قال: فأجابه: أما بعد: فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر، كأني لك جنة من عذاب وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه البينة، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم، وخلِّ سبيله، وأيم الله، لأن يلقوا الله عز وجل بخيانتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم[4].

وهكذا يقرر عمر بن عبد العزيز الأخذ بالتحقيق العادل لا بالتحقيق الحازم. وقد قال بعدم الأخذ بالمظنة والضرب على التهمة كل من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعطاء[5].

3 - النهي عن المثلة:

حلق الرأس جعله الله نسكاً وسنة - في الحج والعمرة - كما أن رسول الله ﷺ نهى عن حلق اللحية ولكن بعض الناس خالفوا ذلك كله وجعلوا حلق الرأس واللحية عقوبة، وهذا عمر بن عبد العزيز ينهى عن هذا العمل ويسميه المثلة[6]. فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: إياك والمثلة جز الرأس واللحية[7]. ومذهب الأئمة الأربعة أن لا يجوز التعزير بحلق اللحية، وعند مالك وأبي حنيفة: لا يحلق الرأس[8].

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 212).
(2) النقب: التعب في أي شيء كان.
(3) حلية الأولياء (5/ 271) وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص: (118،117).
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الحكم، ص: (55).
(5) مصنف عبدالرزاق (10/ 219،217) فقه عمر (2 - 213).
(6) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 215).
(7) الطبقات الكبرى (5/ 380).
(8) مغني المحتاج (4/ 192) جواهر الإكليل (2/ 225).

سادساً: في أحكام السجناء:

1 - تعجيل النظر في أمر المتهمين:

أمر عمر بن عبد العزيز بتعجيل النظر في أمور المتهمين، فمن كان عليه أدب فيؤدب ويطلق سراحه ومن لم يثبت عليه قضية يخلي سبيله، ويرى أن إقامة الحدود سبب لقلة السجناء لأنه يكون زاجراً لأهل الفسق والدعارة[1]، فعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز. . . . فلو أمرت بإقامة الحدود لقلَّ أهل الحبس، ولخاف أهل الفسق والدعارة، ولتناهوا عما هم عليه، إنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر في أمورهم، إنما هو حبس وليس نظر، فمر ولاتك جميعاً بالنظر في أمر أهل الحبوس في كل الأيام، فمن كان عليه أدب وأطلق، ومن لم تكن له قضية خلي عنه[2].

2 - في الاهتمام بأمور المسجونين:

قام عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالإصلاح على كل طريق، وحقق العدل على كل صعيد، فقد اهتم بأمر المسجونين اهتماماً شديداً، وأصدر تعليماته بتعهدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وأدم وكسوة وغير ذلك[3]، وعن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: . . . . . وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم. . . فمُر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم، وصيّر لذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة[4]، وولِّ ذلك رجلاً من أهل الخير والصلاح، ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه في يده. . . وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء، وفي الصيف قميص وإزار، وتزاد المرأة مقنعة. . . . ومن مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة يغسل ويكفن من بيت المال ويصلى عليه ويدفن[5]. وكتب إلى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق. . . ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال. . . . وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي، فإن من ارتشى صنع ما أمر به[6].

3 - سجن خاص بالنساء:

يمضي عمر بن عبد العزيز قدماً في تنظيم السجون والاهتمام بأمر المسجونين وتعاهدهم، فيأمر بأن يجعل للنساء حبس خاص بعيداً عن الاختلاط بالرجال مما يؤكد على اختيار أهل

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 225).
(2) الخراج لأبي يوسف، ص: (301)، فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 225).
(3) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 226).
(4) الجلاوزة: جمع جلاوز وهو الشرطي.
(5) الخراج لأبي يوسف، ص: (301.300).
(6) الطبقات الكبرى، لابن سعد (5 - 356).

الدين والأمانة، ليتولوا أمور السجناء[1]. فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق فلا تحبسه حتى تقيم عليه، ومن أشكل أمره إلي فيه، واستوثق من أهل الزعارات فإن الحبس لهم نكال، ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال، وإذا حبست قوماً في دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعارات في بيت واحد ولا حبس واحد، واجعل للنساء حبساً على حدة، وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي فإن من ارتشى صنع ما أمر به[2] ومما سبق نلاحظ اهتمام عمر بن عبد العزيز بالسجناء وحرصه على إقامة العدل فيهم وإصلاح ما أفسده من قبله في التعامل معهم.

سابعاً: في أحكام الجهاد.

1 - سن من يشرع له الاشتراك في القتال:

كان شباب الرعيل الأول من المسلمين يتاسبقون ويتنافسون على الاشتراك في القتال، وإذا لم يسمح لأحدهم بالاشتراك في القتال فإنه يتحسر ويحاول إقناع ولي الأمر بأنه يستطيع القتال، وقد حدد عمر بن عبد العزيز سن من يسمح له بالقتال، والفرض له مع المقاتلة حدده بخمس عشرة سنة، ومن كان دون ذلك فيكون فرضه في الذرية ولا يسمح له بالاشتراك في القتال[3].

2 - كيفية بداية قتال غير المسلمين:

عن صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله: أن لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام فإن قبلوا فاكفف عنهم وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء[4].

3 - في مدة الرباط:

الرباط في سبيل الله من أحب الأعمال إلى الله تعالى ويترتب عليه الأجر الوفير من الله سبحانه وتعالى، وقد ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن مدة الرباط أربعون يوماً، فقد قال: تمام الرابط أربعون يوماً[5].

4 - في حكم تصرف المقاتل في ماله:

قال عمر بن عبد العزيز: إذا كان الرجل في الحرب على ظهر فرسه يقاتل فما صنع في ماله فهو جائز[6].

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 228).
(2) الطبقات الكبرى (356.5) فقه عمر (2/ 228).
(3) فقه عمر (2/ 415) د. شقير.
(4) الطبقات الكبرى (5/ 355).
(5) المصدر نفسه (5/ 355) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 424).
(6) الطبقات الكبرى لابن سعد (5/ 352).

5 - في بيع الخيل للعدو:

بيع السلاح ونقله أو الخيل أو ما يقوى الأعداء ويشد من أزرهم ويقويهم على حرب المسلمين، جريمة في حق من يفعله وينبغي حجز هذه الأشياء وما في حكمها حتى لا تصل إلى العدو ومن هذا المنطلق منع عمر بن عبد العزيز حمل الخيل إلى الهند باعتبارها بلد من بلدان المشركين في زمن عمر بن عبد العزيز، والعداوة لا تخفى بين أهل الإسلام وأهل الشرك[1].

6 - افتداء أسارى المسلمين ولو كثر الثمن:

أكد عمر بن عبد العزيز على وجوب فك أسارى المسلمين في رسائله إلى عماله بأن يغادروا مهما بلغ ذلك من المال، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله أن فادِ بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[2]، وعن ربيعة بن عطاء عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم وأخذ المسلم[3]. وفي رواية أن فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[4].

7 - افتداء الرجل والمرأة والعبد والذمي:

عن ربيعة بن عطاء قال: كتب عمر بن عبد العزيز معي وبعث بمال إلى ساحل عدن أن أفتدي الرجل والمرأة والعبد والذمي[5].

مما تقدم يظهر عدل عمر بن عبد العزيز جلياً حيث أمر بافتداء من يعيش على أرض المسلمين حتى ولو كان عبداً أو ذمياً لأن الذمي له أن يحفظ ويدافع عنه ويفتدى لو وقع في الأسر، وهذا أكبر دليل على وفاء المسلمين بذمتهم إلى أبعد مما يتصوره أحد[6].

8 - كراهة قتل الأسرى:

عن معمر قال: أخبرني رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز ما رأيت عمر بن عبد العزيز قتل أسيراً قط، إلا واحداً من الترك قال: جيء بأسرى من الترك، قال: فأمر بهم أن يسترقوا، فقال رجل ممن جاء بهم: يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا - لأحدهم - وهو يقتل في المسلمين لكثر بكاؤك عليهم: قال: فدونك: فاقتله، قال: فقام إليه فقتله[7].

لقد كره عمر بن عبد العزيز قتل الأسرى، ومنع ذلك إلا واحداً قتل كثيراً من المسلمين، ولكنه أذن في أن يسترقون[8].

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 427).
(2) حلية الأولياء (5/ 312،311).
(3) الطبقات الكبرى، لابن سعد (5/ 354).
(4) سيرة عمر، لابن الجوزي، ص: (120).
(5) الطبقات الكبرى (5/ 353).
(6) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 436).
(7) مصنف عبدالرزاق (5/ 206،205).
(8) فقه عمر بن عبد العزيز (2/ 438).

ثامناً: في النكاح والطلاق:

1 - زواج المرأة بغير ولي:

عن سفيان عن رجل من أهل الجزيرة عن عمر بن عبد العزيز أن رجلاً تزوج امرأة ولها ولي هو أدنى منه بدروب الروم، فرد عمر النكاح وقال: الولي وإلا فالسلطان[1].

2 - تزويج الوليين للمرأة على رجلين:

عن ثابت بن قيس الغفاري قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز في جارية من جهينة زوجها وليها رجلاً من قيس، وزوجها آخر رجلاً من جهينة، فكتب عمر بن عبد العزيز: أن أدخل عليها شهودا عدولاً وخيّرها فأيهما اختارت فهو زوجها.

3 - زواج الرجل بالمرأة بعد الفجور بها:

إذا زنى رجل بامرأة ثم بدا له أن يتزوجها فهل يحل له ذلك ؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى جواز ذلك إذا رأى منها خيراً، وهذا رأي رشيد لأنه يسد كثيراً من أبواب الشر لأنه لا فرق بين من فجر بها ومن لم يفجر بها، فلو قلنا لا يجوز ذلك فغير هذا الرجل أولى بأن لا يقبلها، وفي هذا شرور ومفاسد عظيمة[2]، عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز سئل عن امرأة أصابت خطيئة، ثم رأى منها خيراً، أينكحها الرجل؟ فقال له: الظن كما بلغني، أي أنها له[3].

4 - نكاح امرأة الأسير:

عن عمر بن عبد العزيز قال: لا تنكح امرأة الأسير أبداً ما دام أسيراً[4]. فالأسير المسلم إنما وقع في الأسر نتيجة لإقدامه وبلائه في قتال الإعداء رفعاً لرأية الإسلام، أو دفاعاً عن بلاد المسلمين وتقديراً لهذا الموقف النبيل حيث ضحى بنفسه في سبيل دينه، فإن على امرأته أن تقدر له ذلك وأن تصبر حتى يفك الله أسره ثم يعود إليها خاصة وأن بقاءه في الأسر وغيبته هذه ليست من اختياره، كما أن إطلاق سراحه محتمل في كل وقت ولذلك كله كان من العدل والإنصاف أن لا تتزوج امرأة الأسير ما دام أسيراً[5].

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة (4/ 132) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 405).

(2) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 412).

(3) مصنف ابن أبي شيبة (4/ 250) فقه عمر (1/ 412).

(4) الطبقات الكبرى، لابن سعد (5/ 351).

(5) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 417).

5 - نكاح امرأة المفقود:

إذا فقد الرجل وانقطعت أخباره، فلا يدرى أحي هو أم ميت فهل تبقى زوجته تنتظره؟ وما مدة الانتظار؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين وبعدها تتزوج[1]، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة: أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين[2]، والظاهر أن عمر بن عبد العزيز يرى جواز زواج امرأة المفقود بعد مضي السنين الأربع، والعدة بعدها أربعة أشهر وعشراً[3].

6 - صداق المطلقة قبل الدخول بها في مرض زوجها:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن لها نصف المهر، فلا تأثير لتطليق زوجها في حال المرض[4]، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لها نصف الصداق ولاميراث لها ولا عدة عليها[5].

7 - اشتراط الرجل لنفسه شيئاً عند زواج ابنته:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن المهر للمرأة وإن اشترط والدها شيئاً لنفسه فهو للمرأة دون الأب[6]، وعن الأوزاعي: أن رجلاً زوج ابنته على ألف دينار وشرط لنفسه ألف دينار، فقضى عمر بن عبد العزيز للمرأة بألفين دينار دون الأب[7].

8 - في اللعب بالطلاق جد:

يرى عمر بن عبد العزيز، أن الرجل يحاسب على الطلاق سواء كان جاداً أوهازلاً، فعن سليمان بن حبيب المحاربي قال: كتب إليّ عمر بن عبد العزيز: مهما أقلت السفهاء عن شيء فلا تقيلوهم الطلاق والعتاق[8].

9 - في طلاق المكره:

قد يحصل للإنسان بعض مواقف يكره فيها على الطلاق كأن يستحلف بالطلاق على أن يفعل كذا أو يترك كذا، وقد يكره ويهدد إذا لم يطلق امرأته، فهل هذا النوع من الطلاق على الصفة يقع؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن طلاق المكره لا يقع[9]، عن عمر بن عبد العزيز قال: لا طلاق ولاعتاق على مكره[10].

10 - في تطليق الرجل نصف تطليقة:

قيل لعمر بن عبد العزيز: الرجل يطلق امرأته نصف تطليقة قال: هو تطليقة[11].

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 418).
(2) المحلي (10/ 138).
(3) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 418).
(4) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 423).
(5) مصنف ابن أبي شيبة (4/ 332.331).
(6) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 425).
(7) مصنف ابن أبي شيبة (4/ 201).
(8) المصدر نفسه (5/ 106).
(9) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 434).
(10) مصنف ابن أبي شيبة (5/ 49).
(11) مصنف ابن أبي شيبة (5/ 53) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 441).

11 - تطليق المرأة نفسها إذا جعل أمرها بيدها:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن الطلاق يقع وأن هذا الطلاق وإن كان ثلاثاً يعتبر واحدة، وهو أحق بها إن أراد مراجعتها، فقد كتب عمر بن عبد العزيز في رجل من بني تميم جعل أمر امرأته بيدها، قال: إن ردت الأمر عليه فلا شيء وإن طلقت نفسها فهي واحدة وهو أحق بها[1].

12 - إسلام المرأة تحت الكافر:

إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه، ويفرق بينهما، فعن معمر بن سليمان عن أبيه أن الحسن وعمر بن عبد العزيز قالا في النصرانية تسلم تحت زوجها، قالا: الإسلام أخرجها منه[2]. فمتى أسلمت المرأة وبقي الرجل على الكفر فلا بد من التفريق بينهما، حتى لا تكون للكافر ولاية على مسلمة، لأن هذا غير مقبول في شرع الله، فعن عمر بن عبد العزيز يرى أنه إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه ويفرق بينهما[3]، وهذا التفريق لا يأتي إلا بعد عرض الإسلام عليه فإن أسلم فهي امرأته وإن أبى فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك تطليقة بائنة[4]. وأما إذا أسلم ولازالت امرأته في العدة فهو أحق بها[5].

13 - مدة انتظار الغائب:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن هناك حداً أقصى لمدة الغيبة وهو سنتان، وبعدها إما أن يقفل الغائب إلى زوجته، وإما أن يطلقها، فقد كتب: من غاب عن امرأته سنتين فليطلق أو ليقفل[6] إليها.

هذه بعض الاجتهادات الفقهية والفتاوى والأحكام القضائية التي مارسها عمر بن عبد العزيز والتي تدل على تبحره في المسائل الشرعية، وقدرته على الاجتهاد وإصدار الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله ومن سبقه من الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة، وقد قام الدكتور محمد شقير بجمع فقه عمر بن عبد العزيز في مجلدين، فمن أراد التوسع فليرجع إلى هذه الرسالة العلمية التي نال بها صاحبها درجة الدكتوراه من المعهد العالي للقضاء بالرياض في المملكة العربية السعودية.

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة (5/ 57).
(2) المصدر نفسه (5/ 90) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 450).
(3) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 450).
(4) المصدر نفسه (1/ 451).
(5) المصدر نفسه(1/ 452).
(6) المصدر نفسه (1/ 455).

المبحث الثامن

الفقه الإداري عند عمر بن عبد العزيز
وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله

أولاً: أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز:

اختار عمر لسياسة الرعية وأعمال الحق بين الناس الولاة الثقات الخيرين الأبرار ممن اشتهروا بالأمانة والعلم والقوة والتواضع وعفة النفس، والعدالة، وحسن الخلق والرحمة والقدوة الحسنة ومشاورة الآخرين والنصح وعدم الأنانية والكفاءة والذكاء والحكمة، وقد قال ابن كثير في ولاة عمر بن عبد العزيز: وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة[1] ومن هؤلاء:

1 - الحجاج بن عبد الله الحكمي (ولي خراسان وسجستان):

قال عنه الذهبي: مقدم الجيوش، فارس الكتائب، أبوعقبة الجراح بن عبد الله الحكمي ولي البصرة من جهة الحجاج، ثم ولي خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز وكان بطلاً شجاعاً مهيباً، عابداً، قارئاً، كبير القدر[2]. قال الجراح الحكمي: تركت الذنوب حياءً أربعين سنة، ثم أدركني الورع[3]. كان على خراسان كلها حربها وصلاتها ومالها[4]. قتل عام 112هـ في خلافة هشام، فعن سليم بن عامر: دخلت على الجراح فرفع يديه، فرفع الأمراء أيديهم، فمكث طويلاً، ثم قال لي: يا أبا يحيى، هل تدري ما كنا فيه ؟ قلت: لا ،وجدتكم في رغبة فرفعت يدي معكم، قال: سألنا الله الشهادة، فوالله ما بقى منهم أحد في تلك الغزاة حتى استشهد[5]. قال خليفة: زحف الجراح من برذعة[6] سنة اثنتي عشر إلى ابن خاقا، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الجراح في رمضان وغلبت الخرز على أذربيجان وبلغوا إلى قريب الموصل[7]، وكان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيماً، بكوا عليه في كل جند[8].

2 - عدي بن أرطاة الفزاري (والي البصرة):

كان أمير البصرة لعمر بن عبد العزيز، حدث عن عمرو بن عبسة وأبي أمامة، قال عباد بن

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص: 270.
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 189).
(3) المصدر نفسه (5/ 190).
(4) المصدر نفسه (5/ 190).
(5) المصدر نفسه (5/ 190).
(6) برذعة: قصبة أذربيجان.
(7) سير أعلام النبلاء (5/ 190).
(8) المصدر نفسه (5/ 190).

منصور: خطبنا عدي على منبر المدائن حتى بكى وأبكانا[1]، وكان عمر بن عبد العزيز يتفقده بالنصائح والمواعظ، قال معمر: كتب عمر إلى عدي بن أرطاة: إنك غررتني بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، وقد أظهرنا الله على كثير مما تكتمون أما تمشون بين القبور[2]؟ قدم عدي على البصرة، فقيد يزيد بن المهلب، ونفذه إلى عمر بن عبد العزيز فلما مات عمر انفلت، ودعا إلى نفسه وتسمى بالقحطاني، ونصب رايات سوداً، وقال: أدعو إلى سيرة عمر ابن الخطاب، فحاربه مسلمة بن عبد الملك، وقتله، ثم وثب ولده معاوية فقتل عدياً، وجماعة صبراً، سنة اثنتين ومائة[3]. قال الدارقطني: يحتج بحديثه.

3 - عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب (والي الكوفة):

الإمام الثقة الأمير العادل أبو عمر العدوي الخطابي المدني ولي إمرة الكوفة لعمر بن عبد العزيز، كان قليل الرواية، كبير القدر توفي سنة 115هـ[4].

4 - عمر بن هبيرة (والي الجزيرة):

كان من الدهاة الشجعان، وكان رجل أهل الشام ولاه عمر الجزيرة (100هـ) فتوجه إليها وغزا الروم من ناحية أرمينية، فهزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً، واستمر على الجزيرة إلى خلافة يزيد بن عبد الملك فولاه إمارة العراق وخراسان، ثم عزله هشام بخالد القسري فقيده وألبسه عباءة وسجنه، فتحيل غلمانه ونقبوا سرباً وأخرجوه منه فهرب واستجار بالأمير مسلمة بن عبد الملك، فأجاره ثم لم يلبث أن مات سنة سبع ومائة تقريباً[5].

5 - أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم (والي المدينة):

وهو أحد الأئمة الأثبات الثقات أمير المدينة ثم قاضي المدينة، قيل كان أعلم أهل زمانه بالقضاء، روي عن أبيه وعباد بن تميم وعن سلمان الأغر وخالته عمرة بنت عبد الرحمٰن وطائفة وعداده في صغار التابعين[6]، روى عطاف بن خالد عن أمه عن زوجة ابن حزم: أنه ما اضطجع على فراشه منذ أربعين سنة[7]، وقيل كان رزقه في الشهر ثلاثة مائة دينار[8].

6 - عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد الأموي (والي مكة):

أقر عمر على مكة عبد العزيز بن عبد الله الأموي والي سليمان بن عبد الملك، وثقة النسائي وابن حبان توفي في خلافة هشام بن عبد الملك[9].

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 53).
(2) المصدر نفسه (5/ 53).
(3) المصدر نفسه (5/ 53).
(4) المصدر نفسه (5/ 149).
(5) المصدر نفسه (4/ 562).
(6) المصدر نفسه (5/ 314).
(7) المصدر نفسه (5/ 314).
(8) المصدر نفسه (5/ 314).
(9) تاريخ خليفة، ص: (323)، عمر وسياسته في رد المظالم، ص: 273.

7 - رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي (والي مصر):

ذكر ابن تغري بردي خبراً انفرد به وهو: أن عمر بن عبد العزيز أقر على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي المصري الذي كان حسن السيرة عفيفاً عن الأموال ثقة فاضلاً عادلاً بين الرعية، روى عنه الليث بن سعد وغيره، ثم عزله في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين دون أن يذكر سبب عزله[1] وولي مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكسوم بن أبرهة بن الصباح[2].

8 - إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي (والي المغرب):

كان صالحاً فاضلاً زاهداً قدم أفريقية سنة (99هـ) ويقال سنة (100هـ) كان حسن السيرة، سار فيهم بالحق فأسلم على يديه عامة البربر وكان حريصاً على إسلامهم، وكان عمر يرسل إليه بالرسائل لدعوة أهل الذمة للدخول في الإسلام، فيقرأها عليهم. توفي إسماعيل بن عبيد الله سنة (132هـ)[3].

9 - السمح بن مالك (بالأندلس):

الأمير الشهير، استعمله عمر على الأندلس وأمره أن يميز أرضها و يخرج منها ما كان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس وأن يكتب إليه بصفة الأندلس، فقدمها سنة (100هـ) وفعل ما أمره به عمر، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة[4].

هؤلاء من أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز الذين عينهم على الأقاليم والولا يا ت والذين كانوا عند حسن الظن.

ثانياً: حرص عمر بن عبد العزيز على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح:

إن عمال الخليفة وأمراء البلدان بخاصة هم نواب الخليفة في أقاليمهم، والواسطة بينه وبين رعيته ومهما كان الخليفة على درجة من الدراية في تصريف أمور السياسة إلا أنه لا يستطيع تحقيق النجاح إلا إذا اختار عماله بعناية تامة، لذا عني عمر بن عبد العزيز رحمه الله عناية فائقة باختياره عماله وولاته، وحين نتبع أخباره في هذا الصدد نجد أن له شروطاً لا بد من تحققها فيمن يختار العمل عنده، ومن أهم هذه الشروط: التقوى، الأمانة، وحسن التدين، فلما عزل خالد بن الريان الذي كان رئيساً للحرس في عهد الوليد بن سليمان - نظر عمر في وجوه الحرس فدعا عمرو بن المهاجر الأنصاري فقال: والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة إلا الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن أنه لا

---

(1) عمر وسياسته في رد المظالم، ص: 289.
(2) المصدر نفسه، ص: 289.
(3) المصدر نفسه، ص: 293.
(4) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص: 271.

يراك أحد فرأيتك تحسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي[1]. وكان يكتب إلى عماله: إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلا أهل القرآن، فإنه لم يكن عند أهل القرآن خير فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير[2]. وإذا شك في أمر من ينوي توليته لم يقدم على توليته حتى يتبين له حاله، فحين ولي الخلافة وفد عليه بلال بن أبي بردة فهنأه وقال: من كانت الخلافة - يا أمير المؤمنين - شرفته فقد شرفتها، ومن كانت زانته فقد زنتها، واستشهد بأبيات من الشعر في مدح عمر فجزاه عمر خيراً. ولزم بلال المسجد يصلي، ويقرأ ليله ونهاره، فهم عمر أن يوليه العراق، ثم قال: هذا رجل له فضل، فدس إليه ثقة له فقال له: إن عملت لك في ولاية العراق ما تعطيني؟ فضمن له مالاً جليلاً، فأخبر بذلك عمر، فنفاه وأخرجه[3]. وكان يكره أن يولي أحداً ممن غمس نفسه في الظلم أو عمل مع الظلمة لاسيما الحجاج[4]، وإذا كان من قبل عمر يجعل للعصبية والقرابة من البيت الأموي وزنا في تولية العمل، فإنه لم يكن شيء من ذلك في ميزان عمر، فحدث الأوزاعي أن عمر بن عبد العزيز جلس في بيته وعنده أشراف بني أمية، فقال: أتحبون أن أولي كل رجل منكم جنداً من هذه الأجناد ؟ فقال رجل منهم: تعرض علينا ما لا تفعله؟ قال: ترون بساطي هذا؟ إني لأعلم أنه يصير إلى بلى، وإني أكره أن تدنسوا علي بأرجلكم، فكيف أوليكم ديني؟ وأوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم تحكمون فيهم؟هيهات هيهات[5].

وقد كان لهذا النهج الذي تميزت به سياسة عمر بن عبد العزيز في اختيار الولاة والعمال أثر في الاستقرار السياسي في الأقاليم، حيث رضي الناس سير عماله وحمدوا فعالهم، إذ لم يكن في عماله من هو على شاكلة الحجاج يتعامل مع الناس بالشدة ويأخذهم بالتهمة، كما لم يكن منهم صاحب عصبية يرفع أناساً ويضع آخرين فيجدوا عليه في أنفسهم[6].

ثالثاً: الإشراف المباشر على إدارة شئون الدولة:

أشرف عمر بن عبد العزيز بنفسه على ما يتم في دولته من أعمال صغرت أو كبرت، وكان يتابع عماله في أقاليمهم وساعده على ذلك أجهزة الدولة التي طورها عبد الملك بن مروان، كالبريد، وجهاز الاستخبارات الكبير الممتد في أطراف الدولة والذي كان الخلفاء يستخدمونه

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص: 31.
(2) المصدر نفسه، ص: 8، سراج الملوك للطرطوشي، ص: 255.
(3) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 182.
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 182.
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 132).
(6) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 183.

في جمع المعلومات، وعلى الرغم من عناية عمر بن عبد العزيز في اختيار الولاة، إلا أن هذا لم يمنعه من العمل على متابعة أمر الرعية وتصريف شئون الدولة وقد اشتهر عنه الدأب والجد في العمل حتى أصبح شعاره لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، فقد قيل له: يا أمير المؤمنين لو ركبت فتروحت، قال: فمن يجزي عني عمل ذلك اليوم؟ قيل: تجزيه من الغد، قال: فدحني عمل يوم واحد، فكيف إذ اجتمع علي عمل يومين[1].

وقال ميمون بن مهران: كنت ليلة في سمر عمر بن عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين ما بقاؤك على ما أرى؟ أنت بالنهار في حوائج الناس وأمورهم وأنت معنا الآن ثم الله أعلم ما تخلو عليه[2]، فقد كان رحمه الله يمضي الكثير من وقته لرسم سياسته الإصلاحية التي شملت مختلف الحياة، السياسية الاقتصادية والإدارية، وغيرها.. حتى خلف رحمه الله كماً هائلاً من تلك السياسات التي تمثل مواد نظام حكمه الإصلاحي الشامل، وقد بعث لهذه السياسات إلى عماله لتنفيذها في مختلف الأقاليم وكثيراً ما يردفها بتوجيهات تربوية يذكر فيها عماله بعظم الأمانة الملقاة على عواتقهم، ويخوفهم بالله ويأمرهم بمراقبته وتقواه فيما يعملون ويذرون[3]، وقد كان لمواعظ عمر وتوجيهاته أثر في نفوس عماله أشد من وقع السياط، وأبلغ من أوامر العزل والإعفاء، فكتب مرة إلى أحدهم: يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء. فلما قرأ عامله الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى[4]، ولم يكتف عمر ببعث تلك السياسات والتوجيهات إلى عماله، بل كان يحرص على متابعة تنفيذها، وتحقق آثارها على رعيته. فلا يفتأ يسأل القادمين عن ذلك، فقال زياد بن أبي زياد المدني حين قدم على عمر من المدينة: فسألني عن صلحاء أهل المدينة ورجالهم ونسائهم... وسألني عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته[5]. وخرج عمر بن عبد العزيز يوماً فركب هو ومزاحم، وكان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان ويتحسس الأخبار عن القرى، فلقيهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وما وراءه، فقال لهما: إن شئتما جمعت لكما خبري وإن شئتما بعضته تبعيضاً، فقالا: بل أجمعه، فقال: إني تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور والغني موفور، والعائل مجبور، فسر عمر بذلك وقال: والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلي مما طلعت عليه الشمس[6]. وحين قدم عليه رجل من خراسان وأراد العودة إلى بلاده طلب من عمر أن يحمله

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 55، لابن عبد الحكم.
(2) الطبقات (5/ 371).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 186.
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 186.
(5) المصدر نفسه، ص: 187.
(6) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 115.

على البريد، فقال له عمر وقد اطمأن لسيرته: هل لك أن تعمل لنا عملاً وأحملك ؟ فقال الرجل: نعم. فقال عمر: لا تأت على عامل لنا إلا نظرت في سيرته، فإن كانت حسنة لم تكتب بها ، وإن كانت قبيحة كتبت بها . قال مزاحم: فما زال كتاب منه يجيئنا في عامل فنعزله حتى قدم خراسان[1]. ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز كان يهتم بمصادر متنوعة بجمع المعلومات، لعلمه أن المعرفة الدقيقة بأمور الرعية والولاة تحتاج لجمع معلومات صحيحة التي يبني عليها التوجيهات والأوامر والنواهي النافعة للأمة والدولة. لقد آتت هذه المتابعة الدقيقة من عمر لعماله والتوجيهات التفصيلية لهم ثمارها في استقرار أحوال الأقاليم، كما أن هذه التوجيهات والمتابعة من عمر جعلت العمال والولاة في حالة تحفز دائمة للعمل حيث كانت تلك التوجيهات تقع في نفوسهم بمكان، فحدث إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: رأيت أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يعمل بالليل كله بالنهار لاستحثاث عمر إياه[2].

وكان رَحِمَهُ اللهُ يرسل المفتشين في الأقاليم ليأتوه بالأخبار: فقد بعث على خراسان ثلاثة مفتشين، يبحثون في ظلامات الناس من نظام خراجها، الذي قرره عدي بن أرطاة على الأهالي وأرسل مفتشاً إلى العراق، ليأتيه بأخبار الولاة والناس فيها[3]. ولقد أعلن عمر في إطار متابعته لشؤون الدولة ما يمكن تسميته بالرقابة العامة، إذ كتب لأهل الموسم في يوم الحج الأكبر: . . . إني بريء من ظلم من ظلمكم. . . ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني، وأنا معوِّل كل مظلوم ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم. . . ألا وأيما وارد في أمر يصلح الله به ، خاصة أو عامة ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، على قدر ما نوى من الحسبة[4]. فقد أعلن في أكبر تجمع إسلامي، بل شجع مادياً ومعنوياً على مراقبته، ومراقبة عماله، والإفصاح عن كل ما لا يوافق الكتاب والسنة، وبطبيعة الحال فالأمة الإسلامية لا تحتاج إلى غير تعاليم الكتاب والسنة، إذا كان الالتزام بها هدف منشود[5].

رابعاً: التخطيط في إدارة عمر بن عبد العزيز:

يعرف التخطيط في معناه العام بأنه: العملية التي تتخذ لتلبية احتياجات المستقبل، وتحديد وسائل تحقيقها[6]. كما عرف التخطيط بأنه: الجسر بين الحاضر والمستقبل، ومن هذا

(1) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 188.
(2) الطبقات (5/ 347) أثر العملاء، ص: 188.
(3) عمر بن عبد العزيز، للزحيلي، ص: 182.
(4) عمر، لابن الجوزي، ص: 90.
(5) النموذج الإداري المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص: 413.
(6) الإدارة، المنيف، ص: 147.

التعريف العام يمكن أن نقول: أن التخطيط في الإسلام هو الاستعداد في الحاضر لما يواجهه الإنسان في عمله، أو حياته في المستقبل[1]. وعمر بن عبد العزيز لم يكن ليتخذ قراراً دونما تخطيط، وتوخ لعواقب الأمور، وأخذها بعين الاعتبار، ولعل من أهم المؤشرات على إدراك عمر لأهمية التخطيط والتفكير في الأمور قوله لرجاء: يا رجاء: إني لي عقلاً أخاف أن يعذبني الله عليه[2]، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد على الله ثم جمع المعلومات والقدرة على حسن قراءتها، واستشراف المستقبل وتحقيق الأهداف المطلوبة، ففي ذلك يقول عمر: من عمل على غير علم كان يفسد أكثر مما يصلح[3]، وقد كان عمر بن عبد العزيز في تخطيطه يضع الأهداف ويختار السياسات، ويحدد الإجراءات ويبلور العمل في خطه. ففي إطار بلورة الأهداف كان هناك هدف رئيسي يسعى عمر لتحقيقه ألا وهو الإصلاح والتجديد الراشدي على منهاج النبوة والخلافة الراشدة، والقيام بكل مقومات هذا المشروع الإصلاحي من إقامة العدل والحق وإزالة الظلم، وإعادة الانسجام بين الإنسان وبين الكون والحياة وخالقهما في إطار الفهم الشمولي للإسلام؛ وأما اختيار السياسات كأحد مقومات التخطيط، فإنه قد تجلى ذلك في تطبيقات عمر للتخطيط الإداري، ولا أدل على ذلك من عزم عمر على الاكتفاء بالكتاب الكريم والسنة الشريفة[4]، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أي جدل في مسائل الشرع، والدين، على أساس أنه حاكم منفذ وأن الشرع من جانبه على نفسه وعلى رعيته، كما ألزم الرعية بالتمسك بذلك الشرع القويم[5]، هذا في إطار تحديد واختيار السياسة العامة، أما تحديد الإجراءات كأحد مقومات التخطيط أيضاً، فإن ذلك يتضح من خلال الإجراءات التي حددها لتنفيذ هذه السياسة من اللقاء الأول مع الأمة عند وضع شروطاً لصحبته والتي قد بينتها فيما مضى، وأما بلورة طريقة العمل، فإنه قد وضح بأنه منفذ وليس مبتدع - أي منفذاً لتعاليم الدين وأن الطاعة لمن أطاع الله[6] - وأن يكون أساس العمل إقامة العدل والإصلاح والإحسان بدلاً من الظلم والفجور والعدوان[7].

وقد مارس عمر التخطيط من حيث الشمول وشمل تخطيطه كافة المجالات، فلم يترك مجالاً إلا طرق بابه، في أمور السياسة والحكم، والقضاء والاقتصاد والتربية والتعليم والنواحي الاجتماعية فضلاً عن التخطيط للأمور العامة، كما اهتم ببعض الأقاليم بشكل

---

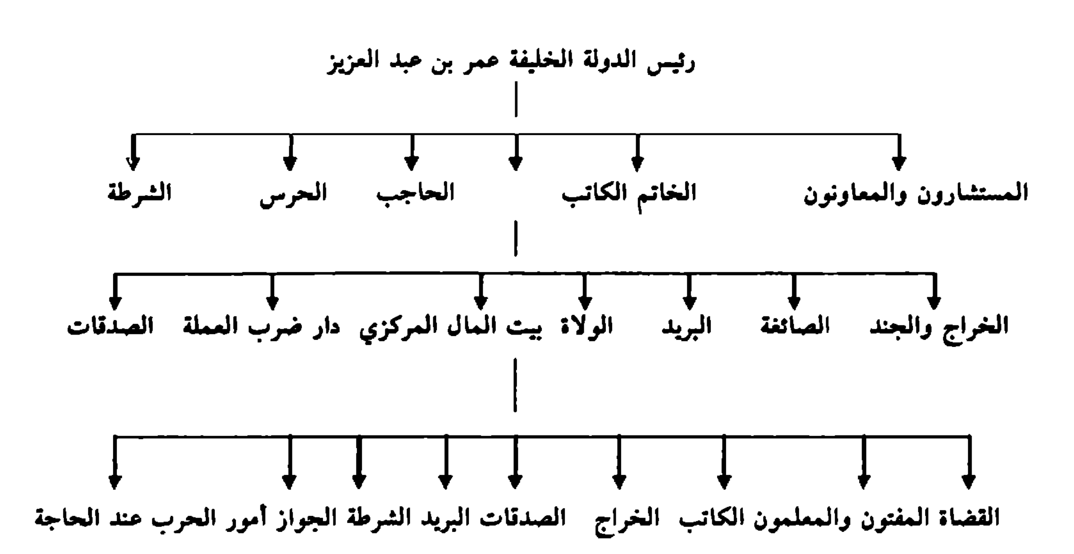
(1) الإدارة في الإسلام للضحيات، ص: 71.
(2) عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص: 266.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 250، لابن الجوزي.
(4) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 35.
(5) النموذج الإداري المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص: 397.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 36، 35.
(7) المصدر السابق، ص: 102.

منفصل مثل خراسان والعراق وأهتم بمؤسسات تنظيمية أخرى مثل القضاء، وبيت المال وولاة الخراج وغير ذلك[1].

خامساً: التنظيم في إدارة عمر بن عبد العزيز:

إن التنظيم يأتي مكملاً للتخطيط لبناء المتطلبات الإجرائية لتنفيذ الخطط، وقد جعل عمر ابن عبد العزيز التنظيم أهم أولويات العمل الإداري ورسخ مفهوم التنظيم في سلوكه الإداري.

فمن حيث التنظيم الهيكلي للعمل، نجده قد جزأ أعمال الدولة إلى أربعة أجزاء رئيسية، تأتي تحت مسئولية أربعة أركان هم: الوالي والقاضي وصاحب بيت المال والخليفة[2]. بالإضافة إلى تنظيمات أخرى مثل: الخراج والجند والكتاب والشرطة والحرس وصاحب الخاتم والحاجب وغير ذلك، وفيما يلي اللائحة التنظيمية لمسؤوليات العمل في عهد عمر بن عبد العزيز[3].



وأما فيما يتعلق بالتنظيم من حيث الإجراءات والعلاقات بين الخليفة والولاة والعمال وتحديد أوجه العمل وأساليب التنفيذ، فإنه يمكننا القول أن الكثير من كتب عمر لعماله تسعى لتحقيق هذا الغرض وإيضاح هذا الجانب التنظيمي من العملية الإدارية، فعلى سبيل المثال،

(1) النموذج الإداري المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص: 400.
(2) النموذج الإداري المستخلص، ص: 401.
(3) المصدر نفسه، ص: 401.

أوضح أسلوب التعامل بينه وبين المظلومين وكيفية الاتصال بينه وبينهم، إذ أباح دخول المظلومين عليه من غير إذن. ومن صور التنظيم إعادة الكثير من الأمور والقضايا إلى ما كانت عليه في عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) والخلفاء الراشدين، ومثال ذلك: أمره بإرجاع مزرعته في خيبر إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ، وتم الشيء نفسه بشأن (فدك)[1]، إذكتب إلى أبي بكر بن حزم واليه على المدينة يقول: إني نظرت في أمر فدك، فإذا هو لا يصلح، فرأيت أن أردها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان، فاقبضها ولها رجلاً يقوم فيها بالحق، وسلام عليك[2].

كما كتب إلى عماله بكل ما يتعلق بتنظيم الأمور المالية والصدقات والضرائب والأخماس والزكاة في الأموال والممتلكات، وتنظيم العمال التجارية ومن ليس له الحق في ممارسة التجارة[3] وغير ذلك، كما اهتم عمر بتنظيم أمور القضاء باعتباره السبيل الرئيسي للفصل بين الناس في منازعتهم وحماية حقوقهم، فكان لكل مصر أو ولاية قاضٍ يقضي بما في الكتاب والسنة، وكان قضاته في كل مصر أجل وأفقه وأصلح علماء ذلك المصر[4]، كعامر بن شرحبيل الشعبي[5] بالكوفة، والحارث بن يمجد الأشعري[6] بحمص، وعمر بن سليمان بن خبيب المحاربي بدمشق[7] وغيرهم، كما كان عمر يمارس القضاء بنفسه[8]، وكان الاعتبار الأساسي في التنظيم القضائي في نظر عمر هو مراجعة الحق، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل[9]، وعندما اشتكى أهل سمرقند من قتيبة بن مسلم، عين لهم قاضٍ ليحكم في هذه القضية وقد مرت معنا، وفي هذه الحادثة أدرك عمر بن عبد العزيز مبدأ الفصل بين السلطات على أتم وجه ذلك، بأنه حينما عرف مظلمة أهل سمرقند لم يبث هو بها، مع أنه كان يسعه ذلك، وهو خليفة المسلمين ولم يعهد بذلك إلى عامله على سمرقند سليمان بن أبي السرى، مخافة أن يجمع به الهوى، أو أن تأخذه العزة بالإثم، ولأنه عامل باسم الخليفة الذي أبى هو نفسه أن يبث بالخلاف، ولم يفوض ذلك إلى القائد العسكري، بل أمر بأن يجلس لهم

(1) فدك: هي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله لما نزل خيبر وهي خالصة لرسول الله، لأنها مما لم يطأ عليه خيل ولا ركاب، فيها عين فوّارة ونخل كثير.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 131، لابن الجوزي.

(3) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 78-83.

(4) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 403.

(5) عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم، ص: 277.

(6) المصدر نفسه، ص: 284.

(7) المصدر نفسه، ص: 285.

(8) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 403.

(9) المصدر نفسه، ص: 403.

القاضي لأن القاضي لا يتأثر بالاعتبارات العكسرية أو السياسية، ولا يأبه إلا لحكم الله، يطبق أوامر الشريعة كما وردت. وهكذا تحقق ظن عمر بن عبد العزيز، وحكم القاضي بأن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم، أي أنه أمرهم بالجلاء، لأن الاحتلال وقع بصورة غير مشروعة[1]. كما شملت تطبيقات عمر للتنظيم بيت الخلافة، فقد أعاد تنظيمه بما يتوافق مع نظرته في أنه واحد من عامة المسلمين وأنه ليس في حاجة إلى أبهة الملك، فانصرف عن كل مظاهر الخلافة التي سادت قبله، وألغى بعض الوظائف، كصاحب الشرطة الذي يسير بين يدي الخليفة بالحربة، كعادته مع الخلفاء السابقين له، وقال له عمر: تنح عني ما لي ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين، ثم سار وسار معه الناس[2].

سادساً: الوقاية من الفساد الإداري في عهد عمر بن عبد العزيز:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق السلامة من الفساد الإداري، بالحرص على سبل الوقاية منه، وسد المنافذ على السموم الإدارية مثل الخيانة، والكذب والرشوة والهدايا للمسؤولين والأمراء والإسراف وممارسة الولاة والأمراء للتجارة واحتجاب الولاة والأمراء عن الناس ومعرفة أحوالهم، والظلم للناس والجور عليهم وغير ذلك وإليك شيء من التفصيل:

1 - التوسعة على العمال في الأرزاق:

كان أول إجراء إداري رأى فيه عمر الوقاية من الخيانة أن وسع على العمال في العطاء، رغم تقتيره على نفسه وأهله وأراد بذلك أن يغنيهم عن الخيانة[3]، فقد كان يوسع على عماله في النفقة، يعطي الرجل منهم في الشهر مائة دينار، ومائتي دينار وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين فقيل له: لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقاً لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم، وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم، فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً قبل ذلك[4]، وبهذا الإجراء ألا وهو التوسع على عماله يحقق عمر أمرين هامين:

أ - سد منفذ الخيانة، وما يدفع العمال من حاجة إلى الخيانة وسرقة أموال المسلمين.

ب - ضمان فراغ الولاة والعمال والأمراء لأشغال المسلمين وحوائجهم[5].

---

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 407).
(2) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 65 لابن الجوزي.
(3) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 314.
(4) البداية والنهاية، نقلاً عن النموذج الإداري، ص: 315.
(5) النموذج الإداري، ص: 315.

2 - حرصه على الوقاية من الكذب:

قال ميمون بن مهران: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده عامله على الكوفة، فإذا هو متغيظ عليه، فقلت: ما له يا أمير المؤمنين قال: أبلغني أنه قال: لا أجد شاهد زور إلا قطعت لسانه، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين: إنه لم يكن بفاعل. قال: فقال: انظروا إلى هذا الشيخ - مستنكراً ماقال ميمون - إن منزلتين أحسنهما الكذب لمنزلتا سوء[1]. والمقصود فإن الكذب أحد منازل السوء وبذلك يسعى عمر إلى قطع دابر الفساد الإداري بالتحذير من الوقاية عما يجر إليه الكذب والتحايل في اتخاذ القرارات[2].

3 - الامتناع عن أخذ الهدايا والهبات:

رد على من قال له: ألم يكن رسول الله ﷺ يقبل الهدية ؟ قال: بلى، ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة[3]. كما أبطل عمر أخذ الهدايا التي كان الولاة الأمويون يأخذونها وبخاصة هدايا النيروز والمهرجان، وهي هدايا تعطى في مناسبات وأعياد الفرس، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله كتاباً يُقرأ على الناس، يبطل فيه أخذ التوابع والهدايا التي كانت تؤخذ منهم في النيروز والمهرجان وغيرها من الأثمان والأجور[4]، كما أنذر ولاته وعماله من أن يتخذ أحداً منهم تلبية طلبات الخليفة أو أحد أهله شيء مسلم به، ومن ذلك ما حدث عندما أرسلت فاطمة بنت عبد الملك إلى ابن معدي كرب[5] تطلب عسلاً من عسل سينين أو لبنان، فبعث إليه: وأيم الله لئن عدت لمثلها، لا تعمل لي عملاً أبداً، ولا أنظر إلى وجهك[6].

4 - النهي عن الإسراف والتبذير:

فقد اتخذ قرارات تنم على حرص شديد على أموال المسلمين، فكان أول إجراء له بعد توليه الخلافة هو انصرافه عن مظاهر الخلافة، إذ قربت إليه المراكب، فقال: ما هذه ؟ فقالوا: مراكب لم تركب قط، يركبها الخليفة أول ما يلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم - يعني مولاه - ضم هذه إلى بيت مال المسلمين، ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفة أول ما يلي، قال: يا مزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين، ثم ركب بغلته، وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط،

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 134 لابن الجوزي.

(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 316.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص: 189.

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 136.

(5) لم تمدنا المصادر ما إذا كان عامل لبنان وسينين (سيناء).

(6) المعرفة والتاريخ، للبسوي (1/ 580) النموذج الإداري، ص: 317.

يفرش للخلفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله، حتى يفضي إلى الحصير، ثم قال: يا مزاحم ضم هذه لأموال المسلمين[1]. وأخذ إجراء آخر لمحاربة الإسراف في الدولة، فحين قال له - ميمون بن مهران - وهما ينظران في أمور الناس: ما بال هذه الطوامير[2] التي تكتب فيها بالقلم الجليل، وتمد فيها وهي من بيت مال المسلمين؟ فكتب إلى العمال: أن لا يكتبوا في طومار ولا يمد فيه، قال: فكانت كتبه شبراً أو نحو ذلك[3]. وقد مر معنا كتابه لأبي بكر بن محمد بن حزم الأنصاري والي المدينة في قصة الشموع، وتوجيه عمر له في ذلك وكيف يكتب له عندما قال: إذا جاءك كتابي هذا فأرق القلم، واجمع الخط واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت مالهم والسلام عليك[4].

ذلك هو شأن عمر في كل أمر يخص مال المسلمين، صغر أو كبر ومع كافة الولاة، فإنه من المسلَّم به أن عمر لن يكون كذلك مع والي المدينة فحسب بل هو كذلك مع غيره من الولاة والعمال، فكان يسعى للتوفير والاقتصاد في الإنفاق من بيت المال، ليحول بذلك دون الإسراف والبذخ[5].

5 - منع الولاة والعمال من ممارسة التجارة:

قال في كتاب له إلى عماله: نرى أن لا يتجر إمام ولايحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه، فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أموراً فيها عنت وإن حرص أن لا يفعل[6]، وذلك إدراك منه أن ممارسة العمال والولاة للتجارة، لا تخلو من أحد أمرين، إن لم تكن الاثنان معاً: فإما أن ينشغل في تجارته ومتابعتهما عن أمور واحتياجات المسلمين، وإما أن تحدث محاباة له في التجارة لموقعه، ويصيب أموراً ليست له من الحق في شيء، وبهذا القرار سد عمر منفذاً خطيراً قد يؤدي إلى فساد إداري قل ما تتوارى عواقبه[7]. وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة، ما يصدق عمر بن عبد العزيز في نظرته الصادقة وحكمته البالغة قال: إن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا معسرة للجباية[8].

---

(1) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 33.
(2) طوامير: جمع طومار وهو الصحيفة، لسان العرب (1/ 503).
(3) سيرة عمر، لابن الجوزي، ص: 88.
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 55.
(5) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 319.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 83.
(7) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 320.
(8) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن رجال الفكر والدعوة للندوي (1/ 46).

6 - فتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية:

كانت الحاشية حول الخلفاء قبل عمر بن عبد العزيز قد حجبت الناس عن الوصل إلى الخليفة وقد بنى الحاشية سياجاً من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما يشتهون وما تسمح به مصالحهم، أما عمر بن عبد العزيز فقد أعلن بالجوائز والمكافأة المالية لمن يخبره بحقيقة الحال، أو يشير عليه بشيء فيه مصلحة المسلمين ومصلحة لدولتهم، وكتب إلى أهل المواسم: أما بعد فأيّما رجل قدم إلينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر، لعل الله يجيء به حقاً، أو يميت باطلاً، أو يفتح به من ورائه خيراً[1]. كما أمر العمال والولاة، بأن يحرصوا على فتح قنوات الاتصال بينهم وبين الرعية ويسمعوا منهم ويتعرفوا على أحوالهم، فإن ذلك يمنع ممارسة الظلم والتعدي على حقوق الآخرين ويتيح لكل فرد طلب ما يريد دون اللجوء إلى أساليب وطرق لا تمت للإسلام بصلة[2].

7 - محاسبته لولاة من قبله عن أموال بيت المال:

لما تولى عمر بن عبد العزيز أمر بالقبض على والي خراسان يزيد بن المهلب، ولما مثل بين يديه سأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك. فقال: كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذ بشيء سمعت به، ولا بأمر أكرهه. فقال له: ما أجد في أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأدِّ ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها، فرده إلى محبسه، وبقي فيه حتى بلغه مرض عمر[3]، وقد كان عمر بن عبد العزيز يتحسس أخبار ولاته ويراقبهم ويحاسبهم على تقصيرهم فقد كتب إلى أحدهم يقول: (لقد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت[4] والسلام).

سابعاً: المركزية واللامركزية في إدارة عمر بن عبد العزيز:

أخذ عمر بن عبد العزيز بمبدأ الجمع والموازنة بين المركزية واللامركزية خلال إدارته للدولة، بتطبيق أحدهما بحسب الموقف تبعاً لمعايير محددة فإننا نورد بعض المواقف والإجراءات التي توضح ذلك، فقد كان من الأوامر التي تدل على تطبيقه للمركزية ما ضمنه رسالته إلى عامله على الكوفة، إذ قال: . . . فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله، ولا تعجل

(1) رجال الفكر والدعوة (1/ 47).
(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 320.
(3) تاريخ الطبري (7/ 460، 461، 462).
(4) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص: 275.

دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه[1]. وهنا رجح عمر أن مصلحة الأمة في تطبيق المركزية في هذه المسألة البالغة الأهمية، فقد يسبق السيف العزل، فلا مصلحة للأمة في التعجيل في أمور القتل والصلب وكل سيلقى جزاءه طال الوقت أم قصر، فقد كان عمر يرجح التحقيق العادل على التحقيق الصارم[2]، فما بالك به في أمر أهم، وهو إزهاق الأرواح[3]، وهناك أمور أخرى أعم وأشمل، أوضح عمر لعماله وولاته وقضاته أنه لا بد من الرجوع إليه فيها متخذاً أسلوب المركزية فيها، وهي كل ما تبتلى به الأمة، وليس لها سابقة في قرآن أو سنة، إذ كتب إلى عماله يبين لهم سياسته، فقال: . . . وأما ما حدث من الأمور التي تبتلى الأمة بها، مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبي ﷺ، فإن والي أمر المسلمين وإمام عامتهم، لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضي فيها دونه وعلى من دونه رفع ذلك إليه، والتسليم لما قضى[4]، وفي مجال آخر رأى ضرورة أسلوب المركزية، حيث جعل للعراق أكثر من وال، وأصبحت خراسان وسجستان وعمان كل منها مرتبطة بالخليفة مباشرة، كما عين والياً على الأندلس من قبله رغبة منه في الاعتناء بإقليم الأندلس دون الارتباط بوالي إفريقية[5]. هذا مما يدل على أن عمر بن عبد العزيز كان يأخذ بالمركزية وضرورة الرجوع إليه.

- وأما ما يدل على ممارسته اللامركزية فنورد المواقف التالية:

روي أن عمر كتب إلى عروة بن محمد عامله على اليمن، يقول: أما بعد: فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولا تعرف بعد مسافة ما بيني وبينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت أرددها عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني[6]. ويبدو في هذا القرار دقة متناهية في تحديد الشيء المرغوب فيه من المركزية واللامركزية وما حداه هنا إلى تبني اللامركزية من مصلحة للأمة[7]، وهذا موقف آخر فيه دلالة على رغبة عمر في اتباع اللامركزية فقد كتب إلى عدي بن أرطاة يقول: أما بعد: فإنك لن تزال تعنّي إلي رجلاً - أي يتعبه بإرساله إليه - من المسلمين في الحر والبرد، تسألني عن السنة، كأنك إنما تعظمني بذلك، وأيم الله لحسبك بالحسن، يعني - الحسن البصري - فإذا أتاك كتابي هذا فسل الحسن لي ولك

(1) تاريخ الطبري، نقلاً عن النموذج الإداري، ص: 322.
(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 323.
(3) المصدر نفسه، ص: 323.
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 63.
(5) الإدارة في العصر الأموي، نجدة الخماش، ص: 107.
(6) الطبقات (5/ 381).
(7) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 324.

وللمسلمين[1]. فكان عمر يؤثر اللامركزية وعدم مراجعته في المسائل الروتينية طالما هناك من يثق بعلمه، مثل الحسن البصري ﷺ، فالحسن أهل لأن يسأل لعمر، ولعدي الوالي وللمسلمين كافة[2]، وفي هذا الموقف لفتة عمرية في تقدير وتبجيل واحترام العلماء الربانيين كالحسن البصري وإنزاله مقامه اللائق به، فالأمم تنهض عندما تحترم علمائها الربانيين وتنزلهم المنازل التي يستحقونها.

لقد مارس عمر مبدأ الموازنة بين المركزية واللامركزية وكانت له معايير وعوامل تدفعه إلى أي شيء منها يمكن تلخيصها فيما يلي:

1 - ارتباط الموقف أو الإجراء بمصلحة عامة أو خاصة.

2 - أهمية الأمر الذي سيحدد فيه ممارسة المركزية أو اللامركزية فالإجراء الذي يتعلق بالقتل والصلب مثلاً حري أن تكون المركزية فيه أصلح.

3 - مستجدات الأمور مما لم يرد في القرآن أو السنة فهي من الأهمية بمكان.

4 - مراعاة البعد الجغرافي بين الخليفة والولاة.

5 - مراعاة الوقت وما قد ينجم عن ذلك من ضرر قد يصل إلى الموت.

6 - وجود من يعتمد عليه ويطمئن له ولعلمه ويثق به.

7 - التأثير على سرعة وسلامة الإنجاز في العمل.

8 - مراعاة منح الثقة للقضاة والولاة والعمال[3].

في ظل هذه المعايير جمع عمر بن عبد العزيز في ممارسته الإدارية بين المركزية واللامركزية، بالموازنة بينهما، وتحديد الدرجة الملائمة في ممارسته لكل منهما، وبذلك يتوافق عمر مع منظري وعلماء الإدارة في إدراك أبعاد هذا المبدأ[4].

ثامناً: مبدأ المرونة في إدارة عمر بن عبد العزيز:

مارس عمر بن عبد العزيز المرونة في التفاهم والحوار والفكر وتنفيذ الأوامر والتقيد بها ومن تلك الشواهد، ما روى ميمون بن مهران: أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال: يا أبت ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك. قال: يا بني إنما أروض الناس رياضة الصعب، وإني لا أريد أن أحيي الأمور من

(1) النموذج الإداري، ص: 324، حلية الأولياء (5/ 326.

(2) المصدر نفسه، ص: 324.

(3) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 307).

(4) المصدر نفسه، ص: 326.

العدل، فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه[1]. وقال عمر: ماطاوعني الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً[2]، فقد أبدى بهذا الإعلان منذ توليه الخلافة، أن تحقيق الأهداف يتطلب شيئاً من المرونة والتغاضي، فليس الأمر كما يرى ولده بأن لا مانع لديه من أن تغلي بهم القدور في سبيل تحقيق العدل، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر[3]. وهذا موقف آخر مع ابنه عبد الملك وإليك ما دار بينهم من حوار:

الابن: مايؤمنك أن تؤتى في منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقضِ حق الله فيها ؟

الأب: يا بني إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني، إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا، وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي، إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى أسكن الإيمان في قلوبهم.

يا بني... مما أنا فيه أمر هو أهم إلي من أهل بيتك (الأمويين)، هم أهل القدرة والعدد وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي ولكني أنصف من الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له[4] في الآثار السابقة. يقدم لنا عمر فقهه الحاذق في إدارة الحركات الإصلاحية التجديدية وتسيير البرامج التي تستهدف إسقاط الظلم والاستغلال ونشر العدل والمساواة[5]. ففي قوله: إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا. فبين رحمه الله: إن طاقة الإنسان محدودة، وأن القابلية على تحمل الجد الصارم لها حدودها هي الأخرى، والإنسان في تقبله لالتزاماته في حاجة ضرورية إلى وقت كاف لتمثل هذه الالتزامات من الداخل وتحويلها إلى مبادئ وقيم ممزوجة بدم الإنسان وأعصابه، ومتشكلة في بنيته وخلاياه، وبدون هذا سوف لن تجتاز هذه الالتزامات حدود الإنسان الباطنية، وستظل هناك مكدسة على أعتاب الحس الخارجي وطالما ظل هذا التكديس يزداد ثقلاً يوماً بعد يوم، فسوف يأتي يوم لا محالة يسقط فيه الإنسان تحت وطأة هذا الثقل المتزايد غير المتمثل[6]... ومما يلفت النظر عبارته:... ولكني أنصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له. إن عمر هنا يؤكد على أهمية الإنجاز وعلى دوره في تحقيق الإصلاح والتجديد فكثيرون هم أولئك الذين طرحوا أقوالاً أعلنوا فيها عن عزمهم على إحداث ثورة حقيقية، انقلاب يجتث الجذور العفنة ويبدأ الزرع من جديد، ولكن هؤلاء ما

---

(1) سيرة عمر، لابن الجوزي، ص: 88.
(2) المصدر نفسه، ص: 88.
(3) النموذج الإداري المستخلص، ص: 328.
(4) سيرة عمر، لابن الجوزي، ص: 106.
(5) ملامح الانقلاب، ص: 173.
(6) ملامح الانقلاب، ص: 173.

لبثوا أن سقطوا وسقطت مبادءهم لأنهم: طرحوا أقوالاً. . .أما عمر هذا المصلح الكبير والفقيه الحاذق، فإنه يريد أن يطرح أفعالاً، ولا يطرحها بالعنف والإكراه ودونما تخطيط، وإنما لينصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما حتى يسري الإصلاح في نفوس الأمة أنّى كانت، سريان الضياء في الظلام. ثم إن عمر هذا الذكي المرن لم يشأ أن يخرج شيئاً إلا ومعه طرف من الدنيا يستلين به القلوب[1]، ولا يمكن لأحد أن يقول أن هذا يمثل تنازلاً من عمر بن عبد العزيز عن أهداف إصلاحاته الشاملة صوب إصلاح جزئي يقوم على الترقيع. . . لأن ما عرفنا عمر منذ حمل مسئولية أمته، يسعى إلى التنازل، ولو شبراً واحداً، عن الأهداف التي طرحها القرآن الكريم والسنة، ولكنه هنا يقدم فقه الأسلوب الحيوي الذي تتأتى به تلك الأهداف كاملة. . . إن الضغط المستمر يولد الانفجار، ومهما كان سخف هذا الانفجار وعبثه فإنه لا بد وأن يحرق ويدمر، وإذا كان بإمكان القادة والمسئولين تجاوز هذا الحريق والدمار عن طريق الالتزام بأسلوب حيوي ينسجم وبنية الإنسان النفسية، فلماذا لا يسلكوه[2]؟ فعندما قال له ابنه عبد الملك: يا أمير المؤمنين أنفذ لأمر الله وإني جاشت بي وبك القدور، فماذا كان جواب الخليفة المرن: يا بني: إن بادهت الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف ولا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف لا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف[3]. إن خليفة بهذا المرونة وبهذا الذكاء لا يمكن أن يجزع عن أهدافه يوماً[4] ومما مضى يتضح أدلة مرونة عمر في إدارته فيما يتعلق بتنفيذ السياسة العامة، سياسة إقامة العدل ونشر الإسلام، وبناء دولة العقيدة[5]، وإليك هذه الشواهد في تنفيذ مبدأ المرونة:

1 - فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة في ميقاتها:

خرج عمر على حرسه يوماً، فقال: أيكم يعرف هذاالرجل الذي بعثناه إلى مصر ؟ قالوا: كلنا نعرفه - وكان قد كلف رجلاً بمهمة إلى مصر قبل وقت ليس ببعيد - قال: فليذهب إليه أحدثكم سناً فليدعه، قال: وذلك في يوم جمعة، فذهب إليه الرجل فظن الرسول أن عمر بن عبد العزيز استبطأه فقال له: لا تعجلني حتى أشد عليّ ثيابي، فشد عليه ثيابه، فأتى عمر، فقال: لا روع عليك، إن اليوم يوم الجمعة، فلا تبرح حتى تصلي الجمعة، وقد بعثناك لأمر عجلة من أمر المسلمين فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها[6]، فأبدى عمر في هذا الموقف مرونة في التنفيذ، رغم أنه أرسل مندوبه لأمر يهم المسلمين إنجازه على عجل[7].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 174.
(2) ملامح الانقلاب، ص: 174.
(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن ملامح الإنقلاب، ص: 175.
(4) ملامح الانقلاب، ص: 175.
(5) النموذج الإداري، ص: 329.
(6) سيرة عمر، لابن الجوزي، ص: 106.
(7) النموذج الإداري، ص: 330.

2 - هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج:

استدعى عمر بن عبد العزيز عامله على خراسان، فما كان من العامل إلا أن أسرع بالمغادرة إلى الخليفة تنفيذاً لأمره وعندما وصل إلى مقر الخلافة في دمشق ورأى الخليفة ملامح التعب والإجهاد على وجهه، سأله: متى خرجت ؟ فقال: في شهر رمضان، فقال له عمر: قد صدق من وصفك بالجفاء !! هلا أقمت حتى تفطر، ثم تخرج[1].

3 - لا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم:

ذكر ابن سعد أن - ميمون بن مهران - وكان على ديوان دمشق، قال: ففرضوا لرجل زمِن[2]، فقلت: الزمن ينبغي أن يحسن إليه فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا. فشكوني إلى عمر بن عبد العزيز، فقالوا له: إنه يتعنتنا ويشق علينا، ويعسرنا. قال: فكتب إلي: إذا أتاك هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم، ولا تشق عليهم فإني لا أحب ذلك[3]، فكتب إليه عمر انطلاقاً من مبدأ المرونة وتسهيل الأمور.

4 - المرونة في الحوار والتفاهم:

فقد كان الحوار الهادي ومقارعة الحجة بالحجة أسلوبه في حواره ومناظراته - كما مر معنا مع الخوارج - فقد حدث أن: دخل على عمر آناس من الحرورية، فذاكروه شيئاً، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم مابقي فخرجوا على ذلك، فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه، فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك، دون الكي فلا تكوينه أبداً[4]، وأبدى مرونة في كافة أساليب التعامل معهم[5].

5 - المرونة الفكرية:

كان عمر يتحلى بالمرونة الفكرية، متجنباً الجمود والتشدد، فقد حدث - كما مر معنا - أن أرسل عمر يزيد بن أبي مالك، والحارث بن محمد، ليعلما الناس السنة وأجرى عليهم الأرزاق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً، فذكر ذلك لعمر، فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر الله فينا مثل الحارث[6]. فلم يتخذ موقفاً

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن النموذج الإداري، ص: 330.
(2) الزَمِن: هو المبتلي بالعاهة، لسان العرب (13/ 119).
(3) الطبقات (5/ 380).
(4) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 76، 78.
(5) النموذج الإداري، ص: 331.
(6) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 137.

محدداً تجاه العالمين، رغم اختلاف موقفهما تجاه قبول الأجر على تعليم الناس، فأيد أخذ الأجر على التعليم، وأنه لا بأس فيه، ثم دعا الله أن يكثر من أمثال الحارث، فاتضحت مرونته في تأييد الموقفين في آن واحد، رغم اختلافهما ويأتي ذلك في إطار ما عبر عنه عن قناعته التامة، أن مبدأ المرونة مطلوب وضروري حتى قال: ما يسرني لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا، لم تكن رخصة[1]. وقال: ما يسرني باختلاف أصحاب النبي ﷺ، حمر النعم[2]، فهذه أدلة على تطبيق عمر لمبدأ المرونة في إدارته ولم تكن المرونة عائقاً لتنفيذ القرارات، وتحقيق الأهداف المرسومة، والوصول إلى المرامي والتطلعات[3].

تاسعاً: أهمية الوقت في إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز يقضي جل وقته، إن لم يكن كله في تسيير أمور الدولة أو في عمل فيه مصلحة الأمة أوفي أداء حق الله من العبادة، فكان يقضي ليله في الصلاة والمناجاة وكان لا يكلم أحداً بعد أن يوتر[4]، وفي إطار اغتنام الوقت نسب إلى عمر قوله: إن الليل والنهار يعملان فيك - أي في الإنسان - فاعمل فيهما[5]، وكان يغتنم الوقت في الأعمال الصالحة وفي سرعة التوجيه والبت السريع في الأمور واتخاذ القرارت الإدارية، وتلافي كل من شأنه تأخير أو عمل أو مصلحة، فإن أهم الأدلة على ذلك ما كان منه من سرعة إجراء لإصدار ثلاثة قرارات، تحدث عنها ابن عبد الحكم ورواها قائلاً: فلما دفن سليمان - وكان دفنه عقب صلاة المغرب - دعا عمر بدواة وقرطاس، فكتب ثلاثة كتب، لم يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يؤخرها، فأمضاها من فوره، فأخذ الناس في كتاباته إياها هنالك في همزه يقولون: ما هذه العجلة ؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله ؟ هذا حب السلطان. هذا الذي يكره ما دخل فيه، ولم يكن بعمر عجلة ولا محبة لما صار إليه، ولكنه حاسب نفسه ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه، وكان الكتاب الأول عن أمر لا يمسه هو شخصياً في شيء، بقدر ما يمس المسلمين المجاهدين في القسطنطينية بعد أن أصابهم من الجوع والضنك، واشتد بهم الأمر أمام عدوهم، فأمر برجوع مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ورفع الحصار، فقد رأى عمر أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلبي شيئاً من أمور المسلمين، ثم يؤخر قفلهم

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 275.
(2) الطبقات (5/ 381).
(3) النموذج الإداري، ص: 332.
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 210، 211.
(5) الإدارة في التراث الإسلامي (1/ 279) البرعي وعابدين.

ساعة، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب[1]، حقاً إن الحال الذي كان عليه مجاهدو القسطنطينية لا يحتمل التأخير في قرار عودتهم على الإطلاق فكان الإجراء المناسب في الوقت المناسب[2] ، وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخي وكان على خراج مصر فعزله لظلمه وغشمه وتسلطه، كما كتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية لظلمه[3]، وكان عمر يهتم بالوقت من حيث اختيار الوقت المناسب لإعلان التوجيهات أو القرارات الإدارية وسهولة إبلاغها، فكان حين يستخدم البلاغة لإبلاغ الناس يراعي الوقت الأكثر ملائمة سواء من حيث كثرة المجتمعين أم من حيث قدسية المكان وحرمته ،وبالتالي زيادة الاهتمام بما يكون فيه، ألا هو الموسم السنوي، موسم الحج، ليخطب في المسلمين أو يكتب إلى المسلمين في يوم حجهم الأكبر بما يراه على قدر كبير من الأهمية من أمورهم، إذ يتحقق باختيار ذلك الوقت المناسب أمرين، أحدهما: نشر التوجيه أو القرار أو الإجراء في أكبر عدد من المسلمين، من كل بلد من بلدانهم، والثاني سرعة الانتشار الذي يحققها إعلان القرار أو التوجيه في هذا الجمع في ذلك الوقت[4]. ومن ذلك كتابه إلى أهل الموسم الذي جاء فيه: أما بعد: فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام، ويوم الحج الأكبر إني بريء من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته إلا أن يكون وهماً مني، أو أمراً خفي علي لم أتعهده وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي إذا علم مني الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا معول كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين فله ما بين مائتي دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر ما نوى من الحسنة وتجشم من المشقة، رحم الله إمرءاً لم يتعاظمه سفر يجيء الله به حقاً لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام[5].

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل فهو قد سعى جاهداً في رد المظالم التي عرف عنها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب وأعلنه في موسم الحج الذي يضم وفوداً من أغلب بلاد المسلمين، لتبرأ

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص: 32.
(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص: 337.
(3) المصدر نفسه، ص: 337، 338.
(4) المصدر نفسه، ص: 339.
(5) حلية الأولياء (5/ 292 - 293).

ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن في هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شيء من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيباً على أمير بلده، يسعى في تثبيته إذا استقام وفي تقويمه إذا انحرف. . . ومن أروع ما جاء في هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى في إصلاح أمور الأمة، وفي ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لا يفقد به التفكر في تأمين تلك النفقة، ثم يختم كتابه بشكر الله جلا وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذي تحقق على يديه، وهذا مثل من الإخلاص القوي لله تعالى بحيث يتلاشى حظ النفس ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعونته[1]. فهذا دليل على تطبيق عمر لمبدأ تحري ومراعاة أهمية الوقت، حيث لم يقتصر عمر في إدارته للوقت على اغتنام الوقت وإدراك أهميته، بل كانت إدارة كاملة لكل مقتضيا ت اغتنام الوقت وكل ما يتعلق به من ضرورة سرعة اتخاذ القرارات والتوجيه في الأوقات المناسبة والعمل على تلافي التأخير وأسبابه ودوافعه[2].

عاشراً: مبدأ تقسيم العمل في إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز قد أشار بصراحة إلى مبدأ تقسيم العمل ومهام المسئولية للدولة، فقد كان في كتابه الذي كتبه إلى عقبة بن زرعة الطائي، بعد أن ولاه خراج خراسان: . . .إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا - يعني الخليفة[3] -. هذا من حيث التقسيم الرئيسي العام، فبالإضافة إلى الأركان الرئيسية لإدارته وهي: الولاية ويشملها الوالي للإقليم، والقضاء ويمثله القاضي، ومالية الدولة ويمثلها رجل أو صاحب بيت المال، والرابع السلطة العليا للدولة رجل الدولة أو الخليفة ويمثلها أمير المؤمنين، إلا أن هناك تقسيمات فرعية لمهام الدولة منها ما يتعلق بإمارة الجهاد، فقد كان منصور بن غالب على ولاية الحرب[4]، وعلى الصائفة كل من الوليد بن هشام، وعمرو بن قيس السكوني[5]. وقسم آخر وهو ما يتعلق بالأمن الداخلي، إذ استعمل عمر بن يزيد بن بشر الكلبي على الشرطة[6]، وولى الحرس عمر بن مهاجر بن أبي مسلم الأنصاري، وحاجبه حبيش مولاه وأنشأ نقاط العبور وولى عليها، مثل جواز مصر وكان عليها عمر بن رزيق الأيلي، وهي ما يعرف الآن بنقاط الجمارك[7]، وقسم ثالث يختص بالكتابة

---

(1) التاريخ الإسلامي (16/ 151).
(2) النموذج الإداري، ص: 340.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن النموذج الإداري، ص: 342.
(4) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 71.
(5) تاريخ خليفة، ص: 324.
(6) المصدر نفسه، ص: 324.
(7) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 344.

(الكتاب)، ومنهم ليث بن أبي رقية أم الحكم بنت أبي سفيان[1] والخاتم، وعليه نعيم بن سلامة[2]، وقسم يتولى متابعة الشؤون المالية، وله تفريعات منها الخراج ومن ولاته على الخراج عقبة بن زرعة الطائي[3]، والصدقات إذ وليها لعمر عبد الله بن عبد الرحمٰن بن عتبة القرشي[4]. وهي تمثل مؤسسة النقد في الوقت الراهن وليها لعمر بن أبي حملة القرشي[5]، وكذلك الخراج المركزي وكان عليه صالح بن جبير الغداني[6]، وأما في مجال التعليم والتثقيف فقد أنشأ عمر مجالس التعليم الدائمة في المساجد، وكلف من يقوم بالتفقيه والتعليم المتنقل في البداية، كما كلف أناساً بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام دور الإفتاء إذ جعل الفتيا في مصر إلى ثلاث فقهاء[7]. بالإضافة إلى ما سبق فقد كان هناك ولايات أخرى، مثل ولاية الصلاة وولاية الحج وتسيير أموره، والبريد وغير ذلك مما لم يسعفنا المقام بالإحاطة والتفصيل له وهكذا كان عمر بن عبد العزيز يطبق مبدأ تقسيم العمل في دولته[8]، فقد كان رحمه الله رجل دولة من الطراز الأول.

هذا وقد كان عمر بن عبد العزيز في كثير من الأحيان يعطي الولاة الحق في تعيين وزرائهم، وتشكيل مجالس شوراهم، ولهم حق الإشراف على جيش الولاية، والحفاظ على الأمن الداخلي في الولاية، والنفقات اللازمة لكل ولاية مع الأشراف والمتابعة. . . . الخ، هذه بعض الملامح والمعالم من فقه عمر بن عبد العزيز في إدارته للدولة.

. من أسباب نجاح مشروع عمر بن عبد العزيز الإصلاحي:

كانت هناك عوامل متعددة ساهمت في نجاح مشروعه الإصلاحي منها:

1 - صفاته الشخصية من العلم، والورع والخشية والزهد والتواضع والحلم والصفح والعفو والحزم والعدل، مع قدرات إدارية كبيرة في فن التخطيط والتنظيم والقيادة والتوجيه ومعرفة الناس.

2 - امتلاكه لرؤية إصلاحية تجديدية واضحة المعالم، هدفها الرجوع بالدولة والأمة لمنهج الخلافة الراشدة على منهاج النبوة.

3 - التفاف الأمة حول هذا المشروع عندما لمست صدق المشرف عليه وإخلاصه.

4 - وجود كوكبة من العلماء الربانيين في عهده كانوا مؤهلين لقيادة الدولة والأمة، فلما

(1) تاريخ خليفة، ص: 324.
(2) تاريخ خليفة، ص: 325.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن النموذج الإداري، ص: 344.
(4) أمراء دمشق في الإسلام، ص: 48.
(5) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص: 295.
(6) تاريخ خليفة، ص: 324.
(7) البداية والنهاية، نقلاً عن النموذج الإداري، ص: 344.
(8) النموذج الإداري، ص: 345.

جاءت الفرصة بوصول عمر بن عبد العزيز للحكم وأتاح لهم المجال أبدعوا وأثبتوا جدارتهم في ما أسند لهم من مهام كبرى وهذا درس مهم في أهمية تكامل العلم الشرعي، والأمانة والتقوى مع القدرات القيادية في شخصية العلماء الربانيين، فذلك يساعدهم على تحكيم شرع الله من خلال مناصب الدولة وقيادة الجماهير والتفاهم حول المشروع الإسلامي الكبير.

5 - الحرص على تحكيم الشرع في كل صغيرة وكبيرة، على مستوى الدولة والأمة فيأتي بذلك التوفيق الرباني قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

● أثر الالتزام بأحكام القرآن والسنة الشريفة على دولة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب تعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفات، وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: 26].

وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة في سنته ﷺ فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ﷺ (العضباء) كانت لا تسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم ﷺ كاشفاً عن سنة من سنن الله: «**حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**»[1]. وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير وفي الأزمنة من التاريخ والسير. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: 137-138] وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكر، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: 101-102].

من خصائص السنن الإلهية:

1 - أنها قدر سابق: قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الاحزاب: 38] أي أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لا محالة وواقع لا حيد عنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

2 - أنها لا تتحول ولا تتبدل: قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

---

(1) البخاري، كتاب: الجهاد والسير، رقم 2872.

وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)﴾ [الأحزاب: 60-62].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)﴾ [الفتح: 22-23].

3 - أنها ماضية لا تتوقف: قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)﴾ [الأنفال: 38].

4 - أنها لا تخالف ولاتنفع مخالفتها: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾ [غافر: 82-85].

5 - لاينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون: قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾ [آل عمران: 137-138].

6 - أنها تسري على البر والفاجر: فالمؤمنون - والأنبياء أعلاهم قدراً - تسري عليهم سنن الله ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه[1].

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية أما الآثار الدنيوية التي ظهرت في دولة عمر بن عبد العزيز فهي:

1 - الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله مكن الله له في الأرض تمكيناً عظيماً بسبب حرصه على إقامة شرع الله تعالى في نفسه وأهله ومن حوله وقومه وأمته وأخلص لله في مشروعه الإصلاحي الراشدي، فأيده الله عز وجل وشد أزره، فقد أخذ بشروط التمكين وعمل بها فتحقق له وعد الله قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا (٥٥)﴾ [النور: 55]. وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله.

---

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 667، 669).

2 - الأمن والاستقرار:

كانت الثورات في العهد الأموي على أشدها ضد النظام السائد، وخصوصاً من الخوارج إلا أن عمر بن عبد العزيز استطاع بالحوار والنقاش أن يقنع الكثير منهم ولقد تميز عهده بالأمن والاستقرار بسبب عدله في الحكم ورفعه للمظالم، واحترامه الكبير لكل شرائح المجتمع، وحرصه على تطبيق الشريعة في كافة شؤون الحياة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: 82].

3 - النصر والفتح:

إن عمر بن عبد العزيز حرص على نصرة دين الله بكل ما يملك وتحققت فيه سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: 40-41]. فقد وعد الله من ينصره ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ولا يتكلم بما لا يعلم[1]. كما نرى في حياتنا المعاصرة.

4 - العز والشرف:

إن الشرف الكبير والعز العظيم الذي سطر في كتب التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بسبب تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذي به تشرف الأمة ويعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: 10] قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره هذه الآية: فيه شرفكم[2]. فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام.

5 - بركة العيش ورغد الحياة في عهده:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: 96].

إن إقامة شرع الله تعالى وتطبيق أحكامه يجلب للأمة بركات مادية ومعنوية، فمن حقق الإيمان والتقوى يكرمه الله بهذا العطاء الرباني الكبير. والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون

---

(1) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي للصَّلاَّبيّ (2/ 306).

(2) تفسير ابن كثير (3/ 170).

ويتقون في توكيد ويقين، ألوان شتى، لا يفصلها النص ولا يحددها، وإيماء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان فهي البركات بكل أنواعها وألوانها وبكل صورها وأشكالها وما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع الخيال[1]. ولقد لامس الناس وشاهد هذه البركات في عهد عمر بن عبد العزيز سواء كانت مادية أو معنوية، وفوجئ الناس أن بركة العيش ورغد الحياة قد عم جميع الناس ومالية الدولة قويت، واطمأن الناس في كل رقعة من رقع خلافة الدولة الأموية الواسعة، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء وأصحاب الأموال تطلب حلاً سريعاً، قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني. قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً، فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين[2]. وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف، فذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقولوا: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[3]. فهذه الفوائد العامة من بركات الحكومة الإسلامية التي تطبق شرع الله تعالى.

6 - انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

بين الشريعة وبين الخلق أوثق الرباط وأمتن العرى، كيف لا ، والرسالة من غاياتها العظمى: تزكية الأخلاق وتربية الفضائل. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: 164]. فمعنى يزكيهم: أي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به حال شركهم وجاهليتهم[4].

ولقد اهتم عمر بن عبد العزيز بنشر الفضائل وحارب الرذائل وتحركت معه مدرسة الوعظ والإرشاد والتزكية والتربية والتي كان من روادها الحسن البصري، وأيوب السختياني، ومالك ابن دينار وغيرهم، وقد حققت هذه المدرسة نتائج باهرة في نشر الفضائل وانزواء الرذائل، وقد حدث في عهد عمر بن عبد العزيز تجديداً كبيراً في توجه الأمة والمجتمع الإسلامي والتطور في الأذواق والأخلاق والميول والرغبات في هذه المدة القصيرة. فقد حدث الطبري

(1) في ظلال القرآن (3/ 1339).
(2) رجال الفكر والدعوة (1/ 58).
(3) رجال الفكر والدعوة (1/ 58).
(4) تفسير ابن كثير (1/ 401)، الحكم والتحاكم (2/ 691).

في تاريخه: كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة، وكم تحفظ من القرآن ومتى تختم، ومتى ختمت، وما تصوم من الشهر[1]؟

7 - الهداية والتثبيت:

جاء عن عمر بن عبد العزيز في خطابه الذي أرسل ليقرأ على الحجاج في موسم الحج: . . . ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم[2]. ولاشك أن عمر بن عبد العزيز حرص على تحكيم شرع الله في دولته وبذلك منحه الله نعمة عظيمة ألا وهي الهداية والتثبيت على الحق، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]. ثم قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: 66-68] والأمر الذي وعظوا به ووعدوا الخير لأجله: هو تحكيم الشريعة والانقياد للرسول ﷺ، فلو أنهم امتثلوا لما أمروا لثبت الله أقدامهم على الحق فلا يضطربون في دينهم، ولآتاهم الهداية التي لا عوج فيها بحيث توصلهم إلى الأجر العظيم[3].

إن الهداية والثبات على الأمر، هبة يهبها الله لمن تمخض قلبه لأمره وانقادت جوارحه لحكمه[4].

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات وعرضة للانهيار في كل ساعة، وأنها ليست إلا حلماً من الأحلام ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم[5]: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: 111].

ومما أدهشني في دراستي التاريخية، تواصل الأجيال الإسلامية فيما بينها عبر حلقات

---

(1) تاريخ الطبري، نقلاً عن رجال الفكرة والدعوة (1/ 59).
(2) حلية الأولياء (5/ 292 - 293).
(3) فتح القدير (1/ 485).
(4) الحكم والتحاكم (2/ 690).
(5) رجال الفكر والدعوة (1/ 59).

متماسكة تؤثر بعضها في بعض. فالسلطان نور الدين زنكي المتوفى (568 هـ) كتب له الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمد بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يسير نور الدين على منهاجها، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية عندما وجدت العالم الكبير الذي رسم ملامح المشروع الإصلاحي وهو الشيخ أبو حفص معين الدين، واقتنع القائد العسكري والزعيم السياسي بسلامة المنهج وهو نور الدين زنكي، فقد قال: أبو حفص في مقدمة كتابه - عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين: . . علماً منه أن الاقتداء عن سلف الفضلاء والعقلاء يكمل الأجر ويبقي الذكر، واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء عن سلف من الأنبياء فقال عز من قائل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ۝٩٠﴾ [الأنعام: 90]، وقال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ۝١٢٠﴾ [هود: 120]. فلذلك اشتد حرصه - أدام الله سعادته - على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة، فحينئذ رأيت حقاً علي بذل الوسع في مساعدته واستنفاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز رحمه الله والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويُيسِّر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك ولاحت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة معاونة على البر والتقوى[1]. لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة وأقام العدل ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة وقمع البدعة وعمق هوية الأمة وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء وكان نسيجاً وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه وإخلاصه ومن أراد التوسع فليراجع الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، عهد نور الدين وصلاح الدين لمحمد حامد الناصر.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي ودولة يوسف بن تاشفين ودولة محمد الفاتح لهي سنن من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلفة لله في قصدها مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها. إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم

---

(1) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 2).

الدؤوب لتحكيم شرع الله وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار.

● - الأيام الأخيرة في حياة عمر بن عبد العزيز ووفاته رحمه الله:

1 - آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز:

كانت آخر خطبة خطبها بخناصرة، فقال فيها: أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدًى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السمٰوات والأرض، ألا واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه، وباع نافذاً بباق، وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين.

وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتعيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحبة، وخلع الأسباب فسكن التراب وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، فقير إلى ما قدم غني عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما منكم أحد يسعه ما عندنا إلا وودت أنه سداي ولحمتي، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء، وأيم الله أن لو أردت غير هذا من الغضارة والعيش، لكان اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، يدل فيها على طاعته، وينهى عن معصيته. ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله، ثم نزل فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله [1].

2 - سقيه السم:

اختلفت الروايات عن سبب مرض وموت عمر بن عبد العزيز، فعلى حين تذكر الروايات أن سبب مرضه وموته هو الخوف من الله تعالى والاهتمام بأمر الناس، كما روي عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك وكما ذكر ابن سعد في الطبقات عن ابن لهيعة[2]. إلا أنه قد ذكر سبب آخر لموته وهو أنه سقي السم وذلك أن بني أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعاً من سياسة عمر بن عبد

(1) تاريخ الطبري (7/ 475).

(2) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 43) الحلية (5/ 342).

العزيز التي قامت على العدل وحمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بني أمية مثل أقصى الناس في أطراف دولة الإسلام ورد المظالم التي كانت في أيديهم وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بني أمية بوضع السم في شرابه[1]. وهذا ليس من المستبعد أو المستغرب أن يعمد أحد هؤلاء إلى سقيه السم ليتخلص منه وليكن ذلك عن طريق خادمه الذي يقدم له الطعام والشراب، فقد روي أنهم وعدوا غلامه بألف دينار وأن يعتق إن هو نفذ الخطة فكان الغلام يضطرب كلما همَّ بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعاً بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف السم فيه ثم قدمه إلى عمر فشربه ثم حس به منذ أن وقع في بطنه[2].

وعن مجاهد قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس فيَّ؟ قلت: يقولون إنك مسحور. قال: ما أنا بمسحور ثم دعا غلاماً له فقال له: ويحك ما حملك على أن تسقيني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال: هات الألف فجاء بها فألقاها عمر في بيت المال. وقال: اذهب حيث لا يراك أحد[3].

فالسبب المباشر لمرضه وموته فهو كما ذكرت الروايات كان بسبب سقيه السم[4]، ففي عفوه عن غلامه الذي وضع له السم وتسبب في قتله وهو قادر على أن يقتله شر قتلة وفي عدم استفهامه من الغلام عن من أمره بوضع السم وقد كان يستطيع إرغام الغلام والاعتراف بذلك ثم يأمر بالقصاص منهم جميعاً، مثل عجيب في العفو وسبب ذلك لأنه كان يوقن أن ما عند الله خير وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على عفوه، وإن انتصر منه فأقام عليه الحد لم يأثم ولكنه لا يحصل على أجر العفو ونظراً إلى أن أغلى شيء عنده في هذه الحياة أن يرتفع رصيده من الحسنات فإنه قد فضل العفو على انتصاره للنفس[5].

3 - شراء عمر موضع قبره:

بلغ من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه عندما ذكروا له ذلك الموضع الرابع في حجرة عائشة والتي فيها قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فقالوا: لو دنوت من المدينة حتى تدفن معهم قال: والله لا يعذبني الله عذاباً - إلا النار فإني لا صبر بي عليها - أحب إلي من أن يعلم الله من قلبي أني أراني لذلك أهلاً[6]. ويأبى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - إلا

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 43).
(2) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 316، 317.
(3) تذكرة الحفاظ (1/ 120).
(4) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 44).
(5) التاريخ الإسلامي (16/ 229).
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 321 - 324، فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 45).

أن يشتري موضع قبره من ماله الخاص وذلك بسبب ورعه ومحاسبته الشديدة لنفسه، فقد جاءت الروايات أنه قال لمن حوله - وهو في مرض موته -: اشتروا من الراهب موضع قبري فقال له النصراني: والله يا أمير المؤمنين إني لأتبرك بقربك وجوارك وإنها لخيرة أن يكون قبرك في أرضي، قد أحللتك، ويأبى عمر قائلاً: إن بعتموني موضع قبري وإلا تحولت عنكم ثم دعا بالثمن الذي اختلفت الروايات في مقداره فقيل: دينارين، وقيل ستة، وقيل: ثلاثين، دعا بالثمن فوضعه في يد النصراني فقال أصحاب الأرض: لولا أنا نكره أن يتحول عنا ما قبلنا الثمن[1].

4 - وصيته لولي عهده يزيد بن عبد الملك:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك - وهو في مرض الموت - قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر - أمير المؤمنين - إلى يزيد بن عبد الملك، السلام عليك:

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإني كتبت إليك وأنا دنف[2] من وجعي وقد علمت إني مسئول عما وليت، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً يقول تعالى فيما يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: 7] فإن يرضى عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط علي فيا ويح نفسي إلى ما أصير أسأل الله الذي لا إله إلا هو، أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن علي برضوانه والجنة. وعليك بتقوى الله والرعية الرعية، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير[3]. وجاء في رواية: . . . فإن سليمان بن عبد الملك، كان عبداً من عباد الله، قبضه الله واستخلفني وبايع لي من قبله، وليزيد بن عبد الملك إن كان من بعدي، ولو كان الذي أنا فيه لاتخاذ أزواج، أو اعتقاد أموال كان الله قد بلغ بي أحسن ما بلغ بأحد من خلقه ولكني أخاف حساباً شديداً ومسألة لطيفة، إلا ما أعان الله عليه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

لقد نصح عمر بن عبد العزيز رحمه الله لولي عهده يزيد بن عبد الملك ما وسعه النصح وبذل ما يقدر عليه من التخويف والتهديد من عاقبة الأمر مع ضرب الأمثلة والاعتبار بالسابقين فقد نصح وبلَّغ أتم البلاغ[4].

5 - وصيته لأولاده عند الموت:

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص: 322 - 323.

(2) دنف : براه المرض حتى أشفى على الموت.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص: 318 - 319، فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 47).

(4) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 47).

المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم، فلما سمع مقالته: قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم، وأما ما قلت في الوصية فإن وصيتي فيهم: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: 196]. وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله. ادع لي بني، فأتوه فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم - وبكى -: يا بني إني قد تركت لكم خيراً كثيراً، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً يا بني إني قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إلي، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله[1].

وجاء في رواية: أن عمر وصى مسلمة أن يحضر موته وأن يلي غسله وتكفينه، وأن يمشي معه إلى قبره، وأن يكون مما يلي إدخاله في لحده، ثم نظر إليه وقال: انظر يا مسلمة بأي منزل تركتني، وعلى أي حال أسلمتني إليه الدنيا، فقال له مسلمة: هذه مائة ألف دينار، فأوصي فيها بما أحببت، قال: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ أن تردها من حيث أخذتها، قال مسلمة: جزاك الله عنا خيراً يا أمير والله لقد ألنت قلوباً قاسية، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين[2]. وفي الأثرين الماضيين دروس وعبر ففي الخبر الأول مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى في وصيته لأولاده بعد موته، حيث لم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حمل ذمته شيئاً لا يدري على أي وضع يكون تنفيذه، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل، فيلحقه بذلك شيء من الإثم، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه، لقد تصور في معاملة أولاده وقوعه بين أمرين: أن يغنيهم في الحياة الدنيا ، وذلك يمنحهم شيئاً من المال العام للمسلمين، فيتعرض بذلك للفحات النار، أو أن يكتفي بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالي من الشبهات فيتعرض بذلك لنفحات الجنة، فاختار الطريق الأخير مع ثقته أن لن يضيعهم وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين وأهل الذمة، وأكرم بذلك من تركة إنها تركة عظيمة لا تقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة والعقول المبصرة، وفي قوله: (إنما ولد عمر بين رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله) لفتة جليلة إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ، أخذاً من قول الله

(1) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 115، 116، التاريخ الإسلامي (16/ 220).

(2) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص: 122، 123، التاريخ الإسلامي (16/ 222).

تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن يبذل الوالد أقصى جهده في تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعالى، وليس المهم أن يسعى في جمع المال لهم حتى يغتنوا من بعده، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عوناً لهم على معصية الله تعالى[1]. وأما في الأثر الثاني يوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحري في اكتساب المال، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالاً، بل لا بد من التحري في كسبه، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقيه، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه[2].

6 - وصيته إلى من يغسله ويكفنه:

عن رافع بن حفص المدني أن عمر قال لرجاء: إذا أنا مت وغسلتموني وكفنتموني وصليتم علي وأدخلتموني لحدي، فاجذب اللبنة من عند رأسي، فإن رأيت وجهي إلى القبلة فاحمدوا الله وأثنوا عليه، وإن رأيت قد زويت عنها، فاخرج إلى المسلمين ماداموا عند لحدي حتى يستوهبوني من ربي، قال: فلما وضع في لحده وقبل باللبن على وجهه جذبت اللبنة من عند رأسه فإذا وجهه إلى القبلة فحمدنا الله وأثنينا عليه[3].

7 - كراهته تهوين الموت عليه:

قال عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يرفع للمؤمن من الأجر[4]. وفي رواية: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يكفر به عن المرء المؤمن[5].

8 - حاله لما احتضر:

لما احتضر عمر بن عبد العزيز، قال: اخرجوا عني فلا يبقين عندي أحد. وكان عنده مسلمة بن عبد الملك، فخرجوا وقعد مسلمة وفاطمة زوجه أخت مسلمة على الباب فسمعوه يقول: مرحباً بهذه الوجوه ليست وجوه إنس ولا بوجوه جان[6]، وجاء في رواية: . . . قالت فاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع عمر يقول في أيا م مرضه: اللّهم أخف عنهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده، وجلست في بيت بيني وبينه باب، فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]. ثم هدأ فجعلت لا أسمع له صوتاً ولا حساً ولا كلاماً. فقلت

---

(1) التاريخ الإسلامي (16/ 222).
(2) المصدر نفسه (16/ 222).
(3) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (2/ 644، 645).
(4) المصدر نفسه (2/ 648).
(5) المصدر نفسه (2/ 648).
(6) المصدر نفسه (2/ 652).

لوصيف كان يخدمه: لو دخلت على أمير المؤمنين، فدخل وصاح، فقمت ودخلت عليه وقد أقبل بوجهه إلى القبلة وأغمض عينيه بإحدى يديه وأغمض فمه بالأخرى، ومات رحمه الله[1].
وجاء في رواية: أن عمر بن عبد العزيز لما كان مرضه الذي هلك فيه قال لهم: أجلسوني، فأجلسوه، ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه وأحد النظر فقالوا له: إنك لتنظر نظراً شديداً، فقال إني لأرى حضرة ليست بإنس ولا جن ثم قبض[2]. وكان نقش خاتمه: عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله.

9 - تاريخ وفاته:

توفي الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة (101هـ) على أصح الروايات واستمر معه المرض عشرين يوماً وتوفي بدير سمعان من أرض المعرة بالشام بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر وعلى أصح الروايات وكان عمره لما توفي أربعين سنة[3].

10 - الأموال التي تركها عمر بن عبد العزيز:

اختلفت الروايات على مقدار تركة عمر بن عبد العزيز حين توفي، ولكن الروايات متفقة على قلة التركة وانعدامها[4]، ومن هذه الروايات ما رواه عمر بن حفص المعيطي قال: حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: قلت كم ترك لكم من المال؟ فتبسم وقال: حدثني مولى لنا كان يتولى نفقته، قال: قال لي عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين احتضر: كم عندك من المال؟ قلت: أربعة عشر ديناراً، قال: فقال تحتملون بها من منزل إلى منزل، فقلت: كم ترك من النحلة؟ قال: ترك لنا نحلة ستمائة دينار ورثناها عنه عن اختيار عبد الملك، وتركنا اثني عشر ذكراً وست نسوة، فقسمناها على خمس عشرة[5]. والصحيح أن الذكور الذين ورثوه هم أحد عشر ذكراً، لوفاة ابنه عبد الملك قبله[6]. وقال ابن الجوزي: أبلغني أن المنصور قال لعبد الرحمٰن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: عظني. قال: مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابناً، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً كفن منها بخمسة دنانير، وثمن موضع قبره ديناران وقسم الباقي على بنيه وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً،

---

(1) المصدر نفسه (2/ 653).
(2) المصدر نفسه (2/ 654).
(3) تاريخ القضاعي، ص: 363.
(4) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 50) تذكرة الحفاظ (1/ 118).
(5) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 337.
(6) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 55).

ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتصدق عليه[1]. وما مضى يظهر لنا جليا أن المال الذي ورثه عمر بن عبد العزيز من أبيه - وهو مال كثير - أخذ في التناقص حتى توفي - رحمه الله ورضي عنه[2].

11 - ثناء الناس على عمر بن عبد العزيز بعد وفاته:

أ - مسلمة بن عبد الملك: حين توفي عمر ورآه مسجى قال: يرحمك الله لقد لينت لنا قلوباً قاسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً[3].

ب - فاطمة بنت عبد الملك: فعن وهيب بن الورد، قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفي جاء الفقهاء إلى زوجته يعزونها، فقالوا لها: جئناك لنعزيك بعمر، فقد عمت مصيبة الأمة، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر: كيف كانت حاله في بيته ؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله. فقالت: والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياماً ولكني والله ما رأيت عبداً لله قط أشد خوفاً لله من عمر، والله إن كان ليكون من المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل بأهله، بيني وبينه لحاف، فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله، فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء، ثم يشجب، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه فأطرح اللحاف عني وعنه، رحمة له وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها[4].

ج - الحسن البصري: لما أتى الحسن موت عمر بن عبد العزيز قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير[5].

د - مكحول: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

هـ - يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز[6]، كأن النار لم تخلق إلا لهما[7].

---

(1) سيرة عمر لابن الجوزي، ص: 338.
(2) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 56).
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 329.
(4) البداية والنهاية، نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص: 56.
(5) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 53).
(6) تاريخ الخلفاء للسيوطي، نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص: 55.
(7) صفة الصفوة (3/ 156).

و - **بكاء الرهبان عليه:** عن الأوزاعي قال: شهدت جنازة عمر بن عبد العزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين فمررت على راهب فقال: يا هذا أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل قال: فقلت له: نعم فأرخى عينيه فبكى سجاماً، فقلت له: ما يبكيك ولست من أهل دينه ؟ فقال: إني لست أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ[1].

ز - **ملك الروم وبطارقته:** بعث عمر بن عبد العزيز وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين، وحق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه والبطارقة على يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوه له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم، فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة، فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم ؟ قالوا: لا قال: إن صاحب مصلحتي التي تلي العرب جاء في كتابه في هذا الوقت: أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا، فقال: ألكم تبكون، أو لدينكم أو له؟ قالوا: نبكي لأنفسنا ولديننا وله قال: لا تبكوا له، وأبكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً و ظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً[2].

12 - ما نسب إليه من كرامات عند موته:

يحكى ويقال عن حسين القصار[3] قال: كنت أجلب الغنم في خلافة عمر بن عبد العزيز، فمررت يوماً براع وفي غنمه نحو من ثلاثين ذئباً حسبتها كلاباً، فقلت له: يا راعي ما ترجوه بهذه الكلاب كلها ؟ فقال: يا بني إنها ليست كلاباً إنما هي ذئاب. قلت: يا سبحان الله ذئب في غنم لا يضرها، فقال: يا بني إذا صلح الرأس فليس على الجسد من بأس[4]. ويبدو أن مثل هذه القصص من المبالغات وإلا في عهد النبوة وقيام الدولة في المدينة وعهد الخلافة ولم

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 331.
(2) مروج الذهب (3/ 195) فقه عمر بن عبد العزيز (1/ 54).
(3) لعله جسر القصاب : اختلف فيه والأكثرون على تضعيفه.
(4) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (2/ 670).

نسمع بأن الذئاب كانت ترعى مع الغنم. وقد رئيت له منامات صالحة وتأسف عليه الخاصة والعامة، لاسيما العلماء والزهاد والعباد[1].

13 - ما قيل فيه من رثاء:

أ - كثير عزّة قال فيه:

عمّت صنائعه فعم هلاكه ... فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مأتمهم عليه واحد ... في كل دار رنّة وزفير
يثني عليك لسانك من لم توله ... خيراً لأنك بالثناء جدير
ردَت صنائعه عليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور[2]

ب - وقال جرير:

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به ... وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة ليست بطالعة ... تبكي عليك نجوم الليل والقمرا[3]

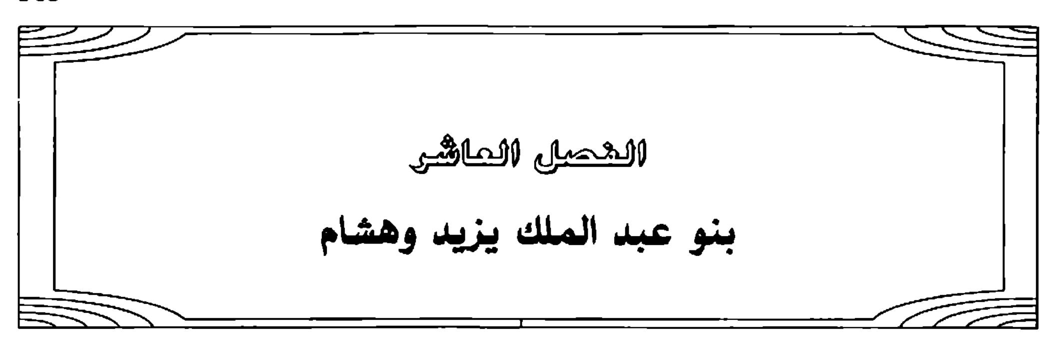
جـ - وقال محارب بن دثار:

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه ... لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم ... كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ... على العدول التي تغتلها الحفر
وأنت تتبعهم لم تأل مجتهداً ... سقيا لها سنن بالحق تفتقر
لو كنت أملك والأقدار غالبة ... تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكر[4]

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وأعلى ذكره في المصلحين فهذه معالم من سيرته الإصلاحية التجديدية الراشدية التي سار بها على منهاج النبوة، وقد حفظ الله لنا هذه السيرة ولم تهملها الليالي، ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون فلعلها تجد من يسير على نهجه من حكامنا وزعمائنا وقادتنا وما ذلك على الله بعزيز في جيلنا أو في غيره.



(1) البداية والنهاية (12/ 718).
(2) البداية والنهاية (12/ 718).
(3) المصدر نفسه (12/ 719).
(4) المصدر نفسه (12/ 719).



الفصل العاشر

بنو عبد الملك يزيد وهشام

المبحث الأول

يزيد بن عبد الملك

هو يزيد بن عبد الملك بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو خالد القرشي الأموي، أمير المؤمنين، وأمَّه عاتكة بنت يزيد بن معاوية[1]. ولد بدمشق سنة 71 هـ وقيل 72 هـ وقيل 66هـ والأرجح 72 هـ وكان رجلاً طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه لم يتكهَّل[2].

أولاً: حياته قبل الخلافة:

كان قبل الخلافة محبوباً في قريش، بجميل مأخذه بنفسه وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكُّون إذا صار إليه الأمر أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه[3]، وقد تلقى تربيته على علماء من أهل الدين والفضل فكان منهم الضحاك بن مزاحم وعامر بن شراحيل، وإسماعيل ابن عبيد الله بن أبي المهاجر، ومحمد بن مسلم الزهري[4] وهؤلاء العلماء اختارهم عبد الملك لتربية أولاده، وقد تأدب يزيد على يد إسماعيل بن أبي المهاجر والزهري[5]. وكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، ويغشى مجالسهم، ويحضر حلقاتهم ويتأدب بآدابهم ويصغي لكلامهم ويقبل توجيهاتهم ويأخذ العلم عنهم، وشيوخه الذي تلقى عنهم العلم: مكحول، والزهري في الشام، والمقبري وابن أبي العتاب من علماء المدينة[6]، وعلى ما يبدو أنه بلغ درجة رفيعة من العلم وبخاصة حفظ الحديث وروايته جعلت بعضهم يعده من المحدثين[7] وعن ابن جابر قال: أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول، فهممنا أن نُوسِّع له فقال: دعوه يتعلم التواضع[8]، وقد كان رأي عمر بن عبد العزيز فيه حسناً[9].

---

(1) البداية والنهاية (13/ 12).
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 150).
(3) الدولة الأموية في عهد يزيد، عبد الله الشريف ص 46.
(4) المصدر نفسه، ص: 63.
(5) المصدر نفسه، ص: 63.
(6) المصدر نفسه، ص: 65.
(7) المصدر نفسه، ص: 65.
(8) سير أعلام النبلاء (5/ 150).
(9) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ص: 65.

ثانياً: توليه الخلافة:

بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب من سنة إحدى ومائة ، بعهد من أخيه سليمان أن يكون الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز ﷺ يوم الجمعة من رجب[1] . وسار في بداية حكمه بسيرة عمر بن عبد العزيز إلا إنه لم يستطع المواصلة وقال عنه الذهبي: وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغواني[2] . وقال عنه ابن كثير: فما كان به بأس[3] يقول الدكتور عبد الله الشريف[4]: . . لكن الواضح أن قدراته السياسية وكفاءته الإدارية، لم تكن تؤهله لملء مكانة وقيادة الدولة باقتدار، أو تحقيق العظيم من المنجزات والفريد من السياسات التي تلفت إليه الأنظار، فكان يزيد حاكماً عادياً، ليس سياسياً مقتدراً كمعاوية، أو إدارياً ناجحاً كعبد الملك، أو مصلحاً كعمر، كما لم يكن سيئاً كابنه الوليد بن يزيد، ويمكن القول أن توليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز جعل المفارقة بينه وبين عمر واضحة وكبيرة وأدت إلى عتامة صورته لدى جمهرة المسلمين[5] . وكان بإمكان يزيد أن يسير على نهج تجربة عمر بن عبد العزيز ويعطي للعلماء دورهم القيادي المنُاط بهم كما كانوا في عهد عمر إلا أن العلماء تراجعوا إلى حد كبير، وحرمت الأمة من تجربة ناجحة تنفست الصعداء، وأطلت من خلالها على عهد الخلفاء الراشدين ﷺ ولعل هذا التراجع الذي حدث لمشاركة العلماء في عهد يزيد يرجع إلى عدة عوامل أهمها:

1 - شخصية يزيد بن عبد الملك حيث لم يكن بمكانة عمر وحماسته وحرصه على أن يسوس الناس بمنهج الله بلا محاباة ومساومة، كما لم يكن على منهج عمر في نظرته للخلافة على أنها تكليف لا تشريف وأنها عمل لإسعاد غيره على حساب نفسه وأهله ويدل على ذلك أن يزيد لم يطق أن يسير على نهج عمر أكثر من أربعين يوماً ثم عدل عنه إلى نهج الملوك[6] .

2 - العامل الثاني وهو مترتب على الأول ومرتبط به، إذ لما رأى العلماء عزم يزيد ترك العمل بسيرة عمر، ولم يجدوا عنده ما وجدوه عند عمر تركوه وانصرفوا إلى مسؤولياتهم العلمية، فحين قال قائل لرجاء بن حيوه لما اعتزل يزيد: إنك كنت تأتي السلطان فتركتهم!

---

(1) البداية والنهاية (13/ 13).

(2) سير أعلام النبلاء (5/ 152).

(3) البداية والنهاية (13/ 14).

(4) أفضل من رأيت فيمن كتب عن يزيد بن عبد الملك وقد تميز كتابه.

(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ص: 73.

(6) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 114.

قال: إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا[1]. وأما ما ورد من أن يزيد تخلى عن السير على نهج عمر لأنه شهد له أربعون شيخاً بأن ليس على الملوك حساب ولا عذاب[2]، فهذا ادعاء أوهى من أن يرد عليه فهو يتضمن في طياته الرد على مختلقه، فمن هم الشيوخ الذين شهدوا بذلك الزور؟ ثم أنه يتعلق بأمر من ضروريات الإيمان وبديهياته فأي مسلم مهما بلغ به الجهل مبلغه يعلم أنه يسأل عن أعماله ويجازى عليها. والحديث الصحيح: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[3]، مشهور عند عامة المسلمين فضلاً عن خاصتهم في هذه العصور المتأخرة، فكيف بعصر صدر الإسلام، ولكن حقيقة الأمر فيما ذكره ابن كثير قال: فلما ولي يزيد عزم أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز، فما تركه قرناء السوء، وحسنوا له الظلم[4].

تشويه صورته بالجواري في كتب التاريخ:

صورت كتب التاريخ يزيد بن عبد الملك بصورة الخليفة اللاهي عن مصالح دولته لاهثاً خلف جاريته؛ ولما ماتت إحداهما رفض أن يدفنها وظل مقيماً بجوارها حتى جيَّفت، ولما دفنوها عاد ينبشها من جديد[5]، وفي أسانيد هذه الروايات غير واحد من المجهولين[6]. وقصة يزيد مع جاريتيه في الأصل بسيطة كما يبدو، فهما جاريتان جميلتان ظريفتان مغنيتان شراهما يزيد بعد استخلافه، فملكن عليه قلبه، خصوصاً حبابة التي كلف بحبها واشتد طربه لغنائها، فحظيت عنده، فلما ماتت، حزن لموتها وجزع عليها ولم يطل العمر به بعدها حيث مات بعدها بأيام معدودة بالطاعون أو كان مرض السل، وقد أغمض كثيراً من المؤرخين القول بموته مطعوناً أو مسلولاً، وجعلوه كمداً وأسفاً على فقد حبابة، مع أنه من غير المستبعد موته بسبب الطاعون أو السل بل هو الأولى، فكثيراً ما انتشر وباء الطاعون وغيره من الأوبئة في حواضر الشام كدمشق، فكان ذلك من الأسباب التي دعت الخلفاء الأمويين إلى بناء قصور لهم في بوادي الشام وأريافه[7]. إن قصة يزيد مع جاريتيه جاءت في المرويات التي تناولتها مهولة مشوهة، اعتراها كثير من المبالغة والاضطراب والتناقض والزيادة بل والاختلاف، فمنها ما يُشير إلى تلك القصة باتزان ومنها ما شابهه بما لا يقبل ولا يعقل ومنها ما ظهرت في الإساءة والطعن بتحريف أو زيادة، أو اختلاف، فجاءت تلك المرويات تحمل العجب

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 560).

(2) البداية والنهاية (13/ 3).

(3) مسلم (3/ 1459).

(4) البداية والنهاية (13/ 13).

(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 14، الأصفهاني (13/ 147 إلى 158).

(6) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ص: 56.

(7) المصدر نفسه، ص: 66.

والمنكر، وذلك أما لهوى في نفس راويها، أو لغرض يقصده ناقلها، أو نقلها مسندة، فحمل المسؤولية من رواها[1].

انتصار يزيد بن عبد الملك لفاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب:

في ربيع الأول عام أربع ومئة، عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك، فألح عليها وتوعدها، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب الطائف فولاه المدينة، وأن يضرب عبد الرحمن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكئ على فراشه بدمشق، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق، واستجار بمسلمة بن عبد الملك، فدخل على أخيه فقال: إن لي حاجة فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك، فقال: هو والله حاجتي فقال: والله لا أقبلها ولا أعفوه عنه، فرده إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه جبة صوف، فسأل بالمدينة وكان قد باشر ولاية المدينة ثلاث سنين وأشهراً، وكان الزهري قد أشار على الضحاك برأي سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ولم يفعل، فأبغضه الناس وذمه الشعراء، ثم كان هذا آخر أمره[2].

بين يزيد وهشام ابنا عبد الملك:

كتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام: أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد بلغه أنك استبطأت حياته، وتمنَّيتَ وفاته ورُمت الخلافة. وكتب في آخره:

تمنَّى رجال أن أموت وإن أمُت	فتلك سبيل لست فيها بأوحد
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم	متى مت ما الباغي عليَّ بمُخلد
مَنِيَّتُه تجرى لوقت وحتفه	يصادفه يوماً على غير موعد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى	تهيَّيأ لأُخرى مثلها فكأن قِد

فكتب إليه هشام: جعل الله يومي قبل يومك، وولدي قبل ولدك، فلا خيَر في العيش بعَدك.[3] وجاء في رواية: أما بعد فإن أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم، يوشك أن يقدح ذلك في فساد ذات البين، وتقطع الأرحام، وأمير المؤمنين لفضله، وما جعله الله أهلاً له أولى أن يتغمد ذنوب أهل الذنوب فأما أنا فمعاذ الله أن استثقل حياتك، أو استبطئ وفاتك فكتب إليه يزيد: نُحن مغتفرون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك،

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 69. (3) البداية والنهاية (13/ 14).
(2) البداية والنهاية (13/ 9).

فاحفظ وصية عبد الملك إيانا، وقوله لنا في ترك التباغي والتخاذل، وما أمر به وحض عليه من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء، فهو خير لك، وأملك بك، وإني لأكتب إليك، وأنا أعلم أنك كما قال القائل:

وإني على أشياء منك تَريبني ... قديماً لذو صفح على ذاك مُجْمِلُ
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني ... يمينك فانظر أي كف تبدل
وإن أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

فلما بلغ الكتاب هشاماً ارتحل إليه، فلم يزل في جواره مخافة أهل البغي والسعاية، حتى مات يزيد[1].

ثالثاً: الثورات الداخلية في عهده:

1 - ثورة يزيد بن المهلب:

ومنشأ ذلك أن خلافاً وقع بين المهلّب والحجّاج بن يوسف، فذهب يزيد إلى عبد الملك، فأمنه، ثم لما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك سنة 96 هـ عين يزيد بن المهلب على خراسان فافتتح جرجان وداغستان، ثم رجع إلى العراق، فبلغه وفاة سليمان بن عبد الملك، وخلافة عمر بن عبد العزيز، حيث عزله عمر عن إمارة خراسان.

وقد ذكرت أسباب عزل عمر بن عبد العزيز ليزيد في حديثي عن خلافة عمر ولما هرب يزيد من سجن عمر في مرضه قال عمر بن عبد العزيز: اللهم إن كان يريد بهذه الأمّة شرّه، فاكفهم شره، واردد كيده في نحره.[2] ولما تولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة خرج يزيد بن المهلّب وخلع بيعته، واستولى على البصرة، فجهّز يزيد بن عبد الملك لقتاله جيشاً بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك[3]، فجمع يزيد بن المهلّب جموعاً كبيرة، والتقى الطرفان بالعقر من أرض بابل، ودارت بينهما معركة رهيبة دامت ثمانية أيّام، قتل فيها يزيد بن المهلب، وعدد من إخواته، وخلق كبير من جيشه، وتفرق سائر جيشه وأهل بيته فلوحقوا وقتلوا بكل مكان وكان ذلك سنة 102 هـ. والله المستعان[4]. وقد أورد الذّهبي، أن الحسن البصري قال في فتنة يزيد ابن المهلب: هذا عدو الله يزيد بن المهلب، كلما نعق بهم ناعق اتبعوه[5]. وفي رواية أخرى أنّه دعا عليه بأن يصرعه الله، ذكر ما كان يفعل من انتهاك المحارم وقتل الأنفس، وأكل أموال

---

(1) مروج الذهب (3/ 213).
(2) وفيات الأعيان (6/ 301).
(3) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ص 223.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 505، 506).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 50).

الناس[1] وقد تحدث الدكتور عبد الله بن حسين الشريف عن أسباب ثورة يزيد بن المهلب وتفاعل فئات من المجتمع معها ونتائجها وآثارها وتكلم عن ثورة يزيد بشيء من التفصيل فمن أراد فليراجع كتابه الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك.

2 - ثورات الخوارج:

أ - حركة شوذب والقضاء عليها: ما أن تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة حتى تجددت حركة شوذب الخارجي وتم القضاء عليه وأصحابه على يد مسلمة بن عبد الملك أثناء مسيره للقضاء على حركة ابن المهلب، فإنه لما دخل الكوفة، شكا إليه أهلها ما لقوه من شوذب وخوفهم منه فجهز جيشاً من عشرة آلاف جعل قيادته لسعيد بن عمرو الحرشي ووجهه إليهم فدارت سنة 101 هـ الوقعة، واستبسل الخوارج وكشفوا جند الشام، فخشي الحرشي الفضيحة، واستحث جيشه، وحمل لهم على شوذب وأصحابه، فألحق الهزيمة بهم، حيث قتل شوذب وكل أصحابه[2].

ب - حركة مسعود العبدي في البحرين واليمامة: وقد تمّ القضاء عليها على يد سفيان بن عمرو العقيلي، أمير اليمامة وكان القضاء عليها في آواخر عهد يزيد على قول البعض وهناك من يرى أي أن الحركة في عهد يزيد كانت على يد أخ مسعود العبدي[3].

ج - حركة مصعب الوالبي: خرج مصعب الوالبي بالكوفة وتم القضاء عليه في عهد يزيد بن عبد الملك بواسطة عامله ابن هبيرة[4].

د - حركة عقفان: خرج عقفان الحروري على يزيد بن عبد الملك بناحية دمشق، وكان عدد أصحابه ثمانين رجلاً من الخوارج، وعندما أراد يزيد القضاء عليه عسكرياً، أشير عليه أن يبعث إلى كل رجل من أصحاب عقفان رجلاً من قومه يرده عن رأي الخوارج، على أن يؤمنهم الخليفة، فقد قالوا للخليفة: إن قتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة، فوافقهم الخليفة على رأيهم وسار إليهم أهلوهم، وقالوا لهم إنا نخاف أن نؤخذ بكم، وأمنوهم فرجعوا عن رأيهم وانفضوا من حول زعيمهم عقفان، فبقي وحده فأرسل إليه يزيد أخاه فاستعطفه وأمنه، فرده وقد ترك رأي الخوارج، بل أنه خدم الدولة فتولى زمن هشام أمر العصاة ثم استعمل على الصدقة حتى توفي هشام[5].

---

(1) وفيات الأعيان (6/ 304)، سير أعلام النبلاء (4/ 506).
(2) الكامل لابن الأثير، نقلا عن الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 171.
(3) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 172، 174.
(4) المصدر نفسه، : ص 175.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 176.

3 - حركة شيريم اليهودي:

وهو يهودي سوري أعلن أنه المسيح المنتظر والمنقذ لليهود، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين، فغادر يهود بابل وأسبانيا مواطنهم ليشتركوا في هذه المغامرة، إلا أن القائم بها أسر وعرضه الخليفة يزيد بن عبد الملك على الناس على أنه مهرج دجال[1]، ثم أمر به فقتل[2]، ويغلب على الظن أنّ هذه الحركة لم تصل إلى مرحلة التنفيذ، فيبدو أنه قد تم اكتشاف أمر شيريم وهو لا يزال يدعو إلى حركته، ويعد نفسه للقيام بحملته، واليهود أجدر الناس بإبرام المؤامرات وتدبير الدسائس في سرية تامة وتنظيم دقيق. نقول هذا[3] مع أن ديورانت[4] ، قد نص على تسييره الحملة لانتزاع فلسطين، ووقوع القائم بها في الأسر، وهذا يعني مواجهة الدولة في عهد الخليفة يزيد لهذه الحركة وإخمادها[5].

4 - حركة بلاي بالأندلس:

ظهر بلاي كمناوئ للسيادة الإسلامية على أسبانيا في ولاية الحر بن عبد الرحمٰن على الأندلس، إذ يخبرنا المقري: أن أول من جمع فلول النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم شخص يدعي بلاي من أهل أشتوريش من جليقية، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمٰن سنة 98 هـ، وخرج معه النصارى على نائب الحر فطردوه وملكوا البلاد[6]، ولما تولى السمح الأندلس أعد جيشه لخوض غمار الحروب، وتوجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس، فحارب عصاة المسيحيين، وهزمهم وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية في الاسترياس[7] ، غير أن هزيمة المسلمين واستشهاد قائدهم السمح بن مالك في معركة طولوشة في بلاد الغال، قد أوجد الفرصة للمتمردين بقيادة بلاي من معاودة نشاطهم ضد المسلمين، ولكن عبد الرحمٰن الغافقي - الذي ارتد بالجند بعد الانكسار في معركة طولوشة إلى الأندلس فولاه أهلها أمرهم حتى قدوم الوالي الجديد - تمكن من إخماد بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية[8] وأخذت حركة بلاي في ولاية

---

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 180.
(2) المصدر نفسه، ص: 180.
(3) المصدر نفسه، ص: 180.
(4) قصة الحضارة (14/ 76-77).
(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 181.
(6) نفح الطيب (4/ 350) الشعر الأعلى، ص: 103 خليل السامرائي.
(7) المسلمون في الغرب والأندلس، محمد زيتون، ص: 197.
(8) دولة الإسلام، محمد عبد الله عنان، ص: 81 - 82.

عنبسة بن سحيم (103 - 107هـ) بعداً أكبر، ويعتبر بلاي منشئ حركة المقاومة النصرانية ومجدد الدولة النصرانية في الأندلس وأن نهوضه بها كان الحجر الأول في بنائها الجديد[1] ، وأن زمن عنبسة كان بدايتها عندما استجاب أهل جليقية لبلاي وعملوا على حرب المسلمين ومدافعتهم عن أرضهم، وإن كان نجاحهم قد تحقق بعد ذلك[2] ، واستمر بلاي في الكر والفر واستفاد من انكسار المسلمين في بلاط الشهداء (114 هـ) واضطرب أمر الأندلس بفتنة أبي الخطار وحركات البربر في شمال إفريقية، فأخرج المسلمين من اشتريس، ويبدو أن أهل استورقة من المسلمين حاربوه، لكنه هزمهم، إذ تُشير المصادر إلى معركة تسمى لاكوفا دونجا[3]، لقي المسلمون فيها الهزيمة، واستطاع بلاي على أثرها إخراج المسلمين من جليقية كلها وتنصر كل مذبذب في دينه[4] ، ويرجح حسين مؤنس أن هذه المعركة حدثت سنة 133هـ أو ما بعدها، وأن وفاة بلاي كانت بعد ذلك بقليل من نفس السنة[5]. لقد كانت هذه الوقعة حاسمة فقد مهدت لدولة اشتريس، فثبتت قواعدها على نحو لم يستطع المسلمون إزالتها بعد ذلك، وبذلك كانت حركة بلاي حادثاً فاصلاً في التاريخ الإسباني إذ أنها كانت البداية الحقيقة لحركة المقاومة النصرانية ضد المسلمين[6].

5 - حركة أخيلا :

حاول أخيلا بن غيطشه أن يسترجع ملك أبيه في الأندلس، وأعلن تمرده في طركونة[7]، فسار إليه السمح بن مالك الخولاني (100 - 102هـ) وأخضع البلاد وأخمد التمرد، ومن المحتمل أن السمح قضى على هذه الحركة وهو في طريقه إلى بلاد الغال «فرنسا» غازياً (سنة 101هـ) ومواصلاً فتوحات المسلمين فيها[8]، ويبدو أن هذا ظهر في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك كما أن القضاء على هذه الحركة لم يكلف السمح كبير عناء، إذ كان يقود حملة أعدت لما هو أعظم من هذا التمرد، فلم يزد على إخمادها، بل ظهر تسامحه مع الخارجين، إذ عفا عن أخيلاء، وتركه على حاله فيها، وبعد استشهاد السمح بن مالك في معركة طولوشة سنة 102 هـ أعلن أخيلا التمرد من جديد، وانقض أهالي طركونة على عنبسة بن سحيم الكلبي،

(1) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص: 185.
(2) المصدر نفسه، ص: 185.
(3) الثغر الأعلى، ص: 105 - 106 خليل السامرائي.
(4) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص: 187.
(5) المصدر نفسه، ص: 187.
(6) المصدر نفسه، ص: 187، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص: 169 السيد عبد العزيز سالم.
(7) بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة.
(8) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص: 189.

لكن الأمير الجديد لم يكن أقل همة من سلفه فقد سارع إلى إخماد حركتهم، حيث زحف إليهم، فدك حصونهم واقتص من زعمائهم، وقد استسلم أخيلا، وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها، ولم يحاول الخروج على المسلمين بعد ذلك واستقرت البلاد داخلياً واستتب الأمن فيها، وساد النظام والعدل في ربوعها[1].

إن تجاوز المسلمين جبال البرتات إلى بلاد الغال، وقد خلفوا وراءهم بعض الخصوم، أوجد مجالاً لهؤلاء المتربصين، في تنظيم حركاتهم والخروج على سلطان الفاتحين، فإن المسلمين وإن تمكنوا من القضاء على حركات بعض هؤلاء كتمرد أهل طركونة بقيادة أخيلا، إلا أن غيرها تمكن من الثبات في ظل غياب قوة المسلمين واحتقار شأن المتمردين، وقد تمثل هذا في حركة بلاي، التي استغلت كثيراً من العوامل لتصبح نواة المقاومة المسيحية للوجود الإسلامي[2].

رابعاً: سياسة يزيد بن عبد الملك الإدارية والمالية:

تولى يزيد بن عبد الملك أمر المسلمين بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز فسار بسيرته برهة من الزمن، ثم ترك نهجه واتخذ نهجاً آخر تابع فيه كثيراً من سياسات أسلافه من بني أمية الإدارية والمالية، وخالف عمر بن عبد العزيز في بعض تجديداته وإصلاحاته وخاصة في المجال المالي[3]. ويرى بعض المؤرخين كابن الأثير بأن يزيد عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده، ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً عاجلاً[4]، وعلق عماد الدين خليل على عهد يزيد بن عبد الملك فقال: سنجد يزيد لم يعمد إلى رد كل ما صنعه عمر، مما لم يوافق هواه، وإنما إلى بعضه فحسب، وبرر مقولة ابن الأثير وغيره ممن حذا حذوه، بأن قولهم جاء نتيجة خيبة الأمل التي أصيبوا بها من جراء ما آلت إليه التجربة الكبيرة التي نفذها عمر بن عبد العزيز من انتكاس، وواضح أن الذي قاد إلى الانتكاس حقاً لم يكن هدم الخليفة يزيد لبعض جوانب سياسة عمر، بل فقدان الرؤية وضياع الاستراتيجية[5]. والصحيح أن يزيد راح ضحية قول ابن الأثير برده كل ما صنعه عمر، وما أورده اليعقوبي من عزله جميع عمال عمر[6]، كما أن مجيئه عقب خلافة عمر جعله متوارياً في ضلالها لا يرى، وإن رؤي كان في صورة الخليفة اللاهي المنغمس في الملذات قد شغله عشقه لجاريته حبابه وسلامة عن مباشرة أمور الدولة وشؤون الحكم، وذلك كما صورته كثير من المصادر التي تناولت سيرته الذاتية،

---

(1) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص: 191.
(2) المصدر نفسه، ص: 191.
(3) المصدر نفسه، ص: 319.
(4) الكامل في التاريخ (3/ 272، 273).
(5) دراسة مقارنة، ص: 290.
(6) تاريخ اليعقوبي (2/ 319).

في شيء من المبالغة والتهويل[1] وبتفحص الروايات عن شخصية يزيد وسياسته يتبين أن الاختلاف بين شخصيتي يزيد وسلفه عمر هو الذي كان وراء الاختلاف بين سياسة الرجلين، فقد غلب على عمر الوازع الديني، فاتسمت سياسته بالروح الإسلامية، مما دفعه إلى تطبيق السياسة الإسلامية على نظم الحكم، كما فاقه عمر من حيث القدرة والكفاءة الإدارية، والحضور الدائم والانصراف إلى العمل وتحمل المسئولية[2] ، والحق أن يزيد لم يدع الأمور تجري بلا ضابط أو لغيره، فلم يكن بالبعيد عن إدارة دفة الحكم، فسنجده وراء الكثير من الأحداث يعالجها ويوجهها ويخطط لها، لكنه لم يعط كل جهده ووقته واهتمامه لشؤون دولته كما كان يفعل سلفه عمر، ومع ذلك فقد حرص على بقاء دولته مهابة مصونة في الداخل والخارج، ونجح في ذلك بإخماد كل الحركات الداخلية التي حدثت في زمنه وصد القوى الخارجية الطامعة في حدود دولته وإن كان قد اتخذ في سبيل تحقيق ذلك سياسات تخالف نهج سلفه عمر[3] . قال ابن تغري بردي: غير أنه لما ولي الخلافة يزيد بعد عمر بن عبد العزيز غير غالب ما كان قرره عمر. وقال: ثم عزل جماعة من العمال، فلم يقل غير كل ما قرره عمر أو عزل جميع عماله، ويبدو جلياً أن الخليفة يزيد لم يكن يملك الرؤية البعيدة، ولم يعمل وفق استراتيجية مرسومة[4] ، كما يظهر أنه لم يحط بظروف دولته بعد حركة الفتوح الكبرى التي تمت في عهد أسلافه، وأهمية استيعاب الدولة للمتغيرات التي تعيشها من جراء دخول أجناس ومذاهب مختلفة متباينة، كان على الدولة صهرها في جسم الأمة ونشر الدين الإسلامي بينها، وهذا ما لمسه عمر وسعى إليه، إلا أن الخليفة يزيد لم يدرك ذلك فعاد إلى سياسة من سبق عمر من خلفاء بني أمية، وذلك عن طريق العودة إلى تنشيط حركة الفتوح، وضرب المعارضة بكل قوة، وإهمال الإصلاح الداخلي، وعدم الاهتمام بصهر القوى الجديدة في أمة الإسلام، وتطبيق الأحكام الإسلامية عليهم، وللحق أن سياسة يزيد لم تكمن وراء الوهن الذي أصاب دولة بني أمية، لكنه بعدم إدراكه ما تحتاجه الدولة في تلك المرحلة من إصلاح وما تعيشه من متغيرات، استمر في سياسة أسلافه قبل عمر، وأدار ظهره للكثير مما صنعه عمر، فاستمر الوهن في عهده، وجرَّت بعض سياساته الدولة نحو هاوية الانهيار، وإن كان هذا الوهن والتدهور لم يظهر جلياً في زمنه، بل استطاع الإبقاء على حدود دولته مصونة، وكيانها موحداً مهاباً، فظل ينخر في جسم الدولة متوارياً، حتى ظهر ذلك متأخراً فيما بعد[5] .

---

(1) الدولة الأموية في عهد يزيد، ص: 322.
(2) المصدر نفسه، ص: 322.
(3) دراسة مقارنة، ص: 304 عماد الدين خليل.
(4) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص: 323.
(5) المصدر نفسه، ص: 324.

1 - أهم صفات يزيد الإدارية:

أ - الحزم: فقد تجلى حزمه في تعامله مع بعض الحركات الداخلية ومواجهة الخطر الخارجي، كجديته وحزمه في إخماد حركة ابن المهلب ومواجهة خطر الترك والصغد فيما وراء النهر والخزر في أرمينية.

ب - المرونة: وأما المرونة واللين فلاحظناها في تعامله مع حركة عقفان الحروري، عندما لجأ للطريق السلمي في إخمادها، فكان موفقاً، وكذلك ملاينته لأهل الكوفة إبان حركة ابن المهلب حتى يضمن لزومهم الحياد وعدم انضمامهم لخصمه.

ج - الواقعية: فلعلها تتجلى في إقرار تصرف البربر عندما قتلوا أميرهم يزيد بن أبي مسلم وولوا عليهم غيره[1]، وقصة هذا الحديث في سنة اثنتين ومائة: قتل يزيد بن أبي مسلم بإفريقية وهو والي عليها وكان سبب ذلك أنه عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة، فاسلم بالعراق من ردهم إلى قراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهو على كفرهم، فلما عزم على ذلك تآمروا في أمره، فأجمع رأيهم - فيما ذكر - على قتله فقتلوه، وولوا على أنفسهم الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم، سامنا ما لا يرضي الله والمسلمون، فقتلناه وأعدنا عاملك فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك: إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم وأقر محمد بن يزيد على إفريقية[2]. وبهذا الفعل من يزيد جنب الدولة كثيراً من المشاكل، ووفر عليها كثيراً من الجهد والمال[3].

2 - سياسته في إدارة الولايات:

اتبع يزيد النهج الأموي في إطلاق يد العامل وجعل ولايته عامة[4]، بل إنه عاد إلى ضم الولايات إلى بعض، فجمع العراقيين لمسلمة بن عبد الملك ثم لعمر بن هبيرة وفوض لهما أمر المشرق كله، كما جمع لعبد الواحد النصري المدينة ومكة والطائف[5]. وأعاد الأندلس تابعة إلى ولاية إفريقية[6]، إلا إنه لم يطبق السياسة الأموية في الفصل بين السلطة الإدارية والمالية إلا في مصر والمدينة، فقد أعاد أسامه بن زيد على خراج مصر[7]. أما بقية الأقاليم فقد جمع

---

(1) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص: 324.
(2) تاريخ الطبري (7 / 522).
(3) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 324.
(4) الإدارة الإسلامية، محمد علي كرد، ص: 95 - 96.
(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 328.
(6) أنساب الأشراف (5/ 111) للبلاذري.
(7) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 329.

لولاتها السلطات الإدارية والمالية، فلم نعثر على نص يدل على ذلك بل إننا نجد نصوصاً تدل على استعمال الأمراء والقضاء، وعمال الخراج والصدقات والدواوين بشكل عام، ونوابهم على المناطق التابعة لهم من قبلهم[1] ، فأصبحت الولاية وكأنها نيابة عامة عن الخليفة، يستمد الأمير فيها سلطاته من سلطة الخليفة، ومع ذلك فقد كان يتدخل إذا ما لزم الأمر واقتضت الحاجة، والمصلحة من ذلك أمره ابن هبيرة عاملة على المشرق استعمال الحرشي على خراسان[2] ، ومن سمات سياسته الإدارية إتاحة الفرصة للموالي في إدارة الدولة وشغل بعض الأعمال الكبيرة[3] ، وقد سار يزيد على نهج عمر في استعمال الموالي في وظيفة القضاء، فقد أمر على قضاء مصر عبد الله بن يزيد بن خذامر الضعاني مولى[4] سبأ، كما يبدو أن يزيد بن عبد الملك تابع الخليفة عمر بن عبد العزيز في منع أهل الذمة من العمل في دواوين الدولة، إذ لم نلمس ما يُشير إلى عملهم فيها[5] .

3 - أشهر ولاة يزيد بن عبد الملك:

كان العامل على المدينة عبد الرحمٰن بن الضحاك، وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة محمد بن عمرو ذو الشامة، وعلى قضائها القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وعلى البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان، وعلى خراسان سعيد خذينة، وعلى مصر أسامة بن زيد[6] .

4 - سياسة يزيد بن عبد الملك المالية:

سياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك المالية بالذات جاءت بعد إصلاحات الخليفة عمر بن عبد العزيز المالية، التي سعى من ورائها العودة إلى النهج الإسلامي وتطبيق أحكامه على المال والأعمال وصحح بعض الإجراءات التي اتخذها بعض أسلافه، فما مدى خروج الخليفة يزيد عن نهج عمر، وما الذي صنعه؟ مما لا شك فيه أن الخليفة يزيد لم يتبع نهج الخليفة عمر في بعض سياسته المالية، فأحيا السياسات المالية لأسلافه من بني أمية قبل عمر، وأعاد تطبيقها، بينما اتخذ أخرى وتابع عمر في بعض ما اتخذه من سياسات في هذا المجال وبالأخص ما كان ذا عائد على خزانة الدولة، وطبق إجراءته تلك في شيء من الدقة والضبط والتشديد[7]، ومن الأمور التيساير فيها يزيد عمر، منع بيع الأراضي الخراجية، كما أبقى على بعض الإصلاحات المالية الأخرى[8] وقد عمل يزيد بن عبد الملك على ضبط الأمور

---

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 329.
(2) المصدر نفسه، ص: 329.
(3) المصدر نفسه، ص: 332.
(4) المصدر نفسه، ص: 332.
(5) المصدر نفسه، ص: 333.
(6) تاريخ الطبري (7/ 522).
(7) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 416.
(8) المصدر نفسه، ص: 418.

المالية بما يكفل زيادة الواردات ونقص المصروفات في شيء من الدقة والضبط والتشدد والجور، وربما ظروف الدولة في زمنه، والمتمثلة في خوض حروب خارجية في كل الجبهات في الشرق مع الصّغد والترك، وفي الشمال مع الأرمن والخزر والروم، وفي الغرب مع الفرنجة إلى جانب الحركات الداخلية كثورة ابن المهلب وغيرس[1]، وما يستدعيه ذلك من مصروفات كبيرة، قد دفعه إلى تجاوز الحدود في جلب الأموال أحياناً، كما أن يزيد لم يسير على نهج عمر في التقشف على نفسه ورجاله والعمل على ترشيد المصروفات، فنجده على سبيل المثال يأمر عامله على مكة أن يحمل أحد المغنين على البريد ويقدم له ألف دينار نفقة الطريق ليستمع منه أبياتاً من الشعر، بينما نرى عمر بن عبد العزيز يؤنب ابن حزم عامله على المدينة على إسرافه في الورق والشمع، ويؤنب عامله على اليمن على تضييعه دنانير من بيت المال[2]. وقد عمل يزيد بن عبد الملك على اتخاذ إجراءات مالية متشددة كان هدفها توفير أموال لخزانة الدولة ليتمكن من الإنفاق على جيوشه المحاربة في الداخل وعلى الحدود[3].

ومما يذكر هنا من باب حرصه على الأموال ما رواه ابن كثير، من أن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان قد اتهم الخليفة عمر بن عبد العزيز بأنه أختار من أموال المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين، وأنه خبأها في بيتين في داره مملوئين، فبعث يزيد إلى أخته فاطمة زوجة عمر يسألها عن ذلك، فقالت: ما ترك سبد ولا لبد[4]، فسار بنفسه إلى دار عمر ودخل البيتين اللذين أشار إليهما عمر بن الوليد ليفتشهما، وفي صحبته عمر بن الوليد، فلما دخلهما وجدهما خاليين من الأموال، وقد هُيئتا للعبادة، حيث اتخذ عمر من أحدهما خلوة يخلو فيها بنفسه ويتدبر أمر دينه ودنياه، والأخرى مسجداً يعبد الله فيه ليلاً فبكى يزيد، وخرج عمر بن الوليد مخذولاً[5] ومن الأمثلة على مخالفة يزيد لسياسة عمر بن عبد العزيز المالية:

أ - الخراج: عني الخليفة يزيد بهذا المورد تنظيماً وضبطاً وتشدداً وعسفاً، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد عمد إلى إصلاح كثير من الأمور وأقر يزيد بعض ما وضعه وأصلحه[6]، إلا أن من الحق الإشارة إلى أن سياسة يزيد في هذا الصدد قد شابها الحرص والرغبة في زيادة الموارد، فاشتد على الناس وأضر بأهل الخراج، ووضع الخراج على من لم يكن يؤديه[7].

ب - الضرائب: لم يكن يزيد بن عبد الملك يزن الأمور بميزان شرع الإسلام في كل الأحوال، فقد عهد يزيد إلى كثير مما أبطله الخليفة عمر من الضرائب المستحدثة والغير الشرعية، فأمر بإعادة فرضه وجبايته، كما كان يُجْبىَ قبل عمر، ووضع ضرائب جديدة، وليس

---

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 419.
(2) المصدر نفسه، ص: 419.
(3) المصدر نفسه، ص: 419.
(4) أي ما ترك قليل ولا كثير.
(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 420.
(6) المصدر نفسه، ص: 437.
(7) المصدر نفسه، ص: 437.

لهذه السياسة من تفسير سوى الرغبة في زيادة واردات الدولة المالية وتحصيل أكبر قدر ممكن من الأموال بصرف النظر عن شرعية هذا العمل، وآثار ذلك على المدى البعيد[1].

ج - **العطاء**: سخر يزيد بن عبد الملك العطاء في خدمة أهدافه السياسية العامة، متأثراً في ذلك بظروف الدولة في عهده، وتكوين شخصيته، فلم يلتزم بالقاعدة التي اتخذها أبو بكر وعمر ﷺ في توزيع العطاء[2]، ولم يتبع نهج سلفه عمر بن عبد العزيز الذي عمل على تقديم العطاء لمستحقيه وتوزيعه بين الناس على أساس من الحق والعدل بعد أن خرج بنو أمية قبله عن سيرة الخلفاء الراشدين في ذلك، والخليفة يزيد بهذا الأسلوب يعود إلى سياسة أسلافه من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز، الذين لم يكن لهم سياسة ثابتة في توزيع العطاء، فقد عمدوا إلى تضييق دائرته تارة، وإلى إيقافه أخرى، وأسقطوا من الديوان من شاءوا وفرضوا لآخرين، وزادوا فيه ونقصوا، فكان ذلك مثار شكوى الكثير من المسلمين باعتبار أن العطاء حق للمسلم لا يجوز للإمام حجبه وأن أموال العطاء مما أفاء الله به على المسلمين[3].

د - **الإقطاع**: عاود يزيد بن عبد الملك سياسة أسلافه من بني أمية باستغلال أراضي الصوافي لمصالحه الشخصية وخدمة أغراضه السياسية باتخاذها قطائع له، والإقطاع منها لبعض آله ورجال دولته هذه بعض الإشارات العابرة في السياسة المالية التي خالف فيها يزيد عمر بن عبد العزيز.

خامساً: الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، بعد حالة الاستقرار التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز والذي لجأ لذلك في شيء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى الذي شاهدها عهده[4]، وكانت حركة الفتوح على الجبهات كالتالي:

1 - الفتوحات في بلاد ما وراء النهر:

أوقف عمر بن عبد العزيز حركة الفتوحات في بلاد ما وراء النهر وأمر واليه عبد الرحمٰن بن نعيم عامله على خراسان، يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، قال: فأبوا وقالوا: لا تسعنا مرو[5]. فكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه عمر: اللهم إني قضيت الذي علي،

---

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ص: 448.
(2) المصدر نفسه، ص: 454.
(3) المصدر نفسه، ص: 455.
(4) المصدر نفسه، ص: 233.
(5) مرو: أشهر مدن خراسان وعاصمتها، معجم (5/ 112- 116).

فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذي فتح الله عليهم[1] ، وكان مبعث هذه السياسة هو الخشية على المسلمين من راع يرى مسؤوليته عن رعيته إلى جانب تغليب طريق نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة على الجهاد الحربي، وذلك عن طريق دعوة ملوك ما وراء النهر إلى الإسلام[2] ، والصبر على أهل الفتن ومعالجة الأمور بالعدل، ثقة في ظاهر إسلامهم، وتألفاً لهم، وهذا ما دفعه إلى عزل الجراح الحكمي عامله على خراسان وتولية عبد الرحمٰن بن نعيم لما عرف عنه من لين وإيثار للعافي[3] ، ومع ما لهذه السياسة من إيجابيات كإسلام بعض ملوك وأهلي هذه المناطق، إلا أنها أطمعت آخرين في المسلمين، وحفزتهم إلى التمرد وشق عصا الطاعة[4] ، فقد تمرد الصّغد على سلطان المسلمين، وهاجم الترك البلاد وعاونوا الصّغد مُنذ أيام عمر بن عبد العزيز، خلال ولاية عبد الرحمن بن نعيم الغامدي (100 - 102هـ) وظلت مستعرة الأوار حتى ولاية سعيد بن عبد العزيز (102 - 103هـ) الذي تولى خراسان بعده من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك الذي كان عليه إخماد ذلك التمرد، وظل الصّغد بالتعاون مع الترك على تمردهم ومخالفة المسلمين، رغم ما بذله الوالي الجديد من جهد في استمالة دهاقنتها وتسكين أهلها واتباع سياسة المسالمة تجاههم، لدرجة وسم معها بالضعف وثقل على الناس[5] ، لقد تمسك أهل المدن الكبرى في ما وراء النهر بموقفهم وهو عدم دفع الضرائب والامتناع عن تنفيذ أوامر الحكومة الإسلامية ومقاومة جيوشها، ويبدو أن من هذه الضرائب الجزية التي أعاد الخليفة يزيد فرضها على من أسلم بعد أن أسقطها عنهم عمر بن عبد العزيز وعمل عماله على جبايتها بالعنف والقوة، فأدى ذلك إلى نقض أغلب ممالك ما وراء النهر كالصّغد وفرغانه وكش ونسف عهدها مع المسلمين، بل وارتد كثير من الأهالي عن الإسلام[6]، وبدأ سعيد بن عبد العزيز حملاته وغزواته للصّغد والترك واستطاع أن يحقق انتصارات عليهم واستطاع القضاء على متمردي الصّغد في حصن أبغر[7]، وصالح أهالي كش، وغزا طخارستان وصالح خزار[8]، واستطاع أن يقضي على حركات التمرد ورجع سعيد ابن عبد العزيز الحرشي إلى مرو وقد افتتح عامة حصون الصّغد[9]، وأعادهم إلى الطاعة صلحاً أو عنوة بعد سلسلة من المعارك خاضها إبان حملته على ما وراء النهر ما بين عامي (103 - 104هـ) وبذلك أعاد المسلمين سيطرتهم التامة على تلك المنطقة من جديد[10]، وقضى الحرشي على أعنف انتفاضة قامت بها شعوب ما وراء النهر، مكنه من ذلك سياسة

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 235.
(2) المصدر نفسه، ص: 235.
(3) تاريخ خليفة، ص: 320.
(4) حركة الفتح الإسلامي، شكري فيصل، ص: 218.
(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 237.
(6) المصدر نفسه، ص: 237.
(7) المصدر نفسه، ص: 250.
(8) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 253.
(9) المصدر نفسه، ص: 256.
(10) المصدر نفسه، ص: 256.

الخليفة يزيد بن عبد الملك المسندة من ملّاك الأرض الكبار والعسكريين المسلمين والدهاقين[1]، فقد شارك الموالي في جيش الحرشي بقيادة سليمان بي أبي السري، كما نجد ذكراً للمجندين من أهل بخارى وخوارزم، وشومان[2]. إلى جانب تأييد غورك أمير سمرقند بصورة ظاهرة[3] ولم يدم للمسلمين ما حققه سعيد الحرشي من تمكن وسيادة في ما وراء النهر، فقد تحول المسلمون من دور الهجوم إلى الدفاع في ولاية مسلم بن سعيد الكلابي على خراسان (104 - 106هـ) فقد غزا الأخير الترك فيما وراء النهر (سنة 105هـ) فلم يفتح شيئاً وعاد أدراجه، بل أن الترك تعقبوه، فلحقوا به، وهو يعبر نهر جيحون بجنده، فأتم ذلك في حماية الساقة[4]، وقد كانت هذه الحملة آخر الغزو في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وهي في ظاهرها حملة ناجحة، وإن لم تحقق مكتسبات جديدة، إلا أن لحاق الترك بمسلم وتعقبه كان فيه دلالة على طمع الترك بهم وبداية لضعف سيطرة المسلمين على ما وراء النهر، وعودة الاضطراب إليها[5].

2 - الفتوح في أرمينية:

استأنفت الحملات العسكرية المنظمة إلى الثغور في عهد يزيد، وقد أشار الطبري وغيره إلى إغارة قام بها الترك[6] سنة 103هـ على اللان[7]، ومنها يتبين عودة الخزر إلى التحرش بالمسلمين ومهاجمة ممالكهم في أرمينية، وهذا ما دفع أمير أرمينية آنذاك معلق بن صفار البهراني[8] إلى القيام بحملة على الخزر، فلقيهم بمرج الحجارة في شهر رمضان في نفس العام، وقد كلب الشتاء، فدارت المعركة وهزم المسلمون وقتل جماعة منهم، واستولى الخزر على عسكرهم وغنموا ما فيه[9]. وقد أطمعت الهزيمة التي تلقاها المسلمون سنة 103هـ على يد الخزر في أرمينية الأقوم القوقازية والتركية في المسلمين، فاندفعوا نحو الحدود الأرمينية، وشنوا غاراتهم وتوغلوا في البلاد مما دعى الخليفة يزيد بن عبد الملك إلى استعمال الجراح

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 256.
(2) المصدر نفسه، ص: 256.
(3) المصدر نفسه، ص: 256.
(4) الكامل في التاريخ لابن الأثير، نقلاً عن الدولة الأموية، ص: 257.
(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 253.
(6) المصدر نفسه، ص: 260.
(7) اللان : بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورة للخزر
(8) تاريخ خليفة، ص: 333، الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 262.
(9) تاريخ خليفة، ص: 328، الدولة الأموية عهد الخليفة يزيد، ص: 262.

ابن عبد الله الحكمي على أرمينية وأذربيجان سنة 104هـ وأسند إليه مهمة صد الخزر وأمر حربهم وأمده بجيش كبير وأمره بحرب الأعداء وقصد بلادهم[1] ، وفي ذلك دلالة على جدية الخليفة في مواجهة الموقف بالجبهة الأرمينية، فقد اختار القيادة القديرة وزودها بالجيش الكافي لتحقيق الأهداف، ولم يكن همه تطهير البلاد الإسلامية من وجود الغُزاة، بل مهاجمتهم في بلادهم ردعاً لهم وإحياء لهيبة المسلمين في نفوسهم، حتى لا يعودوا لحربهم مرة أخرى فسار الجراح بجيشه حتى وصل أرمينية فنزل برذعة[2] ، ليعطي جنده قليلاً من الراحة بعد عناء السفر من دمشق الشامية حتى برذعة في الديار الأرمينية، وليعد نفسه وينظم صفوفه لموجهة الخزر، الذين ما إن سمعوا بمقدم الجراح في جيشه ذاك[3] ، حتى ارتدوا عن البلاد الإسلامية التي كانوا قد استولوا عليها، وانسحبوا عائدين حتى نزلوا مدينة الباب والأبواب[4] ، وبعد أن أخذ الجراح وجنده قسطاً من الراحة توجه نحو الخزر في عامه ذاك (104هـ) فعبر نهر الكر واجتاز إقليم شروان، حتى قطع نهر السمور متجهاً صوب مدينة باب الأبواب، وأخذ الجراح الاحتياطيات اللازمة في خط سيره وبث السرايا والطلائع أمامه، ولما وصل مدينة باب الأبواب وجدها خالية وبث سراياه على ما يجاوره من البلاد فنصروا وغنموا. وكان الجراح قد ارتحل في عشرين ألفاً من جنده بعد أن بعث سراياه فنزل على نهر الران على ستة فراسخ من مدينة باب الأبواب، واجتمع إليه جند السرايا بعد أن أدوا الهدف الذي وجهوا من أجله، فأصبح في خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين[5]، ويظهر أن تلك الإغارات الإسلامية وما حققته من نصر ومغانم قد أثارت الخزر فتوجهوا إليه في أربعين ألفاً بقيادة ابن ملكهم ويدعى نارستيك بن خاقان ونزلوا معه على نهر الران، فدارت بين الفريقين سنة 104هـ معركة عظيمة نصر الله فيها المسلمين وهزم الخزر وقتل الكثير منهم وأسر وغنم المسلمون جميع ما معهم، وسهل النصر الذي حققه المسلمون في معركة الران مهمة الجراح في إخضاع تلك المناطق لحكم المسلمين وسيادتهم وذلك أعقاب التخلص من القوة الرئيسية للخزر التي لم تعد قادرة على مواجهة المسلمين ذلك الحين على الأقل، فجرد الجراح جيشه لفتح مدن وحصون الخزر هناك[6] ، فقد تم فتح رستاق يزعوا[7]، وفتح حصن بلنجر سنة

(1) الدولة الأموية عهد الخليفة يزيد، ص: 265.
(2) برذعة : مركز أقليم الران.
(3) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 265.
(4) باب الأبواب : مدينة في أقصى الشمال لبلاد ثروان وهي أجمل موانئ بحر قزوين.
(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 267.
(6) الدولة الأموية في خلافة يزيد، ص: 168.
(7) المصدر نفسه، ص: 270.

104هـ بعد قتال دار بين الفريقين في معركة عظم فيها الأمر على الجميع حتى كان النصر حليف المسلمين على أعدائهم الخزر فاستولى المسلمون على حصنهم عنوة وغنموا ما فيه وكانت غنائم عظيمة أصاب الفارس منها ثلاثمائة دينار وأما صاحب بلنجر فقد تمكن من الفرار في خمسين من قومه، فشرى الجراح زوجته وأولاده وخدمه وبعث إليه بالأمان، فرد إليه حصنه وأهله وأمواله، ليكون صنيعة للمسلمين وعيناً لهم على أعدائهم[1]، فكان فتح البلنجر، فتحاً مبيناً ، كما كان موقف الجراح الحكمي من صاحبه بعد نظر، كان له نتائج طيبة، فقد قدم للمسلمين أخبار قيمة تتعلق باتفاق الخزر واجتماعهم على قطع الطريق على المسلمين وواصل الجراح فتوحاته وتوجه إلى حصن الوبندر وصالح أهله ثم رجع بجيشه إلى شكى بعد سماع أخبار تتعلق باجتماع الخزر لحربه من صاحب بلنجر وبعد نزوله شكى كتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك بما فتح الله على يديه، ذاكراً له اجتماع الخزر لحربه، كما سأله المدد فوعده الخليفة بذلك إلا أن الأجل قد أدركه قبل إنفاذ المدد إليه[2]، وبعد مجيء هشام بن عبد الملك للحكم حرص على إكمال ما بدأه سلفه فأقر الجراح على ولاية أرمينية وأمد بما يمكنه من صيانة الثغور، ودفع الأعداء عن ديار الإسلام[3].

3 - الفتوح في أرض الروم:

تمثلت الجهود العسكرية التي تمت في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ضد الروم، في تحصين الثغور وشحنها وصيانة الحدود والدفاع عنها، والفتح براً عن طريق الصوائف والشواتي، وما تم خلال ذلك من فتوحات في آسيا الصغرى، والغزو بحراً لجزر الحوض الأوسط والغربي من البحر المتوسط عن طريق إفريقية[4]، وقد كان عهد يزيد بن عبد الملك خالياً من الحملات العسكرية الكبرى ضد البيزنطيين، وفي معاودة التفكير في فتح القسطنطينية، عاصمتهم العتيقة، وإن كانت الصوائف والشواتي التي وجهت لآسيا الصغرى، قد حفلت بكثير من الانتصارات وفتح كثير من المدن والمواقع الرومانية[5].

4 - الجهاد في البحر الأبيض المتوسط:

تابع ولاة إفريقية من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك جهود من سبقهم من أمراء الشمال الإفريقي، فقد قام يزيد بن أبي مسلم أمير إفريقيا (101 - 102هـ) بغزو جزيرة صقلية سنة

(1) تاريخ ابن خلدون (3 / 84).

(2) المصدر نفسه (3/ 84) الدولة الأموية في عهد يزيد، ص: 173.

(3) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 274.

(4) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 276.

(5) المصدر نفسه، ص: 276.

101هـ ، كما وجه من قبله سنة 102هـ محمد بن أوس الأنصاري في غزوة بحرية إلى صقلية، فعادت الحملة سالمة غانمة[1]، وكان سبب تركيز أمير إفريقية على صقلية لأهميتها بالنسبة للروم وهي محاولة لضرب تلك القاعدة البيزنطية الهامة، وتهديداً للأعداء وإشغالهم عن مهاجمة الساحل الإفريقي[2]، وأما ولاية بشير بن صفوان على إفريقية (102 - 109هـ) فقد كانت حافلة بالغزوات البحرية، على جزر سردانية وكورسيكا وصقلية[3] وولايته هذه تعتبر علامة مميزة في تاريخ البحرية الإسلامية الناشئة في إفريقية، إذ وصلت تحت إمرته لها مطلع القرن الثاني الهجري إلى مرحلة الفتوة، وذلك بعد استيلاء المسلمين على السواحل البحرية الشرقية في أسبانية، وكان غزواته سنوية تقريباً ألح بها على قواعد الروم القريبة، لإرهابهم وإشغالهم عن محاربة سواحل المغرب[4]. ومن غزواته في خلافة يزيد بن عبد الملك الحملة التي وجهها بقيادة يزيد بن مسروق اليحعصبي[5] إلى جزيرة سردانية وذلك في المحرم (سنة 103هـ) فكان نصيبها النجاح، حيث غنم المسلمون وسلموا[6].

5 - الفتوح في بلاد الغال:

بلاد الغال: تعني عند العرب الأرض الواقعة بين جبال البرتات (البرينة)، وبين جبال الألب والأوقيانوس، ونهر ألبا ومملكة الروم وهذا المفهوم ينطبق على فرنسا أيام شارلمان وأممها تتحدث بعدة لغات[7].

شهد عصر الخليفة يزيد بن عبد الملك، حمله من أهم الحملات التي قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال عن طريق الأندلس، وهي الغزوة التي قادها السمح بن مالك الخولاني (101-102هـ) إلى تلك الأصقاع[8].

أ - حملة السمح بن مالك الخولاني على بلاد الغال: بدأ السمح حملته في بداية عهد يزيد ابن عبد الملك ومهد لغزو ما وراء البرتات بتوجيه البعوث والسرايا إلى بلاد الغال، خلال انشغاله بالتنظيمات التي قام بها بالأندلس، كان السمح رجلاً قوي الإيمان جم النشاط من خيار أهل زمانه ثقة وعدالة، توفرت فيه الحكمة والخبرة والعقل فاجتمع عليه الناس ورضوا به، وكانت ولايته تجديداً للغزو واستئنافاً للفتح ما وراء البرتات، واتخذ من مدينة برشلونة قاعدة لتجمع الجيش الإسلامي المتوجه لفتح بلاد الغال وزحف السمح في جيش كبير من برشلونة مخترقاً جبال البرتات من الشرق ناحية روسيون وعبر باربينيان حتى أشرف على سبتمانيا[9] من

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 287.
(2) المصدر نفسه، ص: 288.
(3) المصدر نفسه، ص: 288.
(4) المصدر نفسه، ص: 289.
(5) المصدر نفسه، ص: 289.
(6) المصدر نفسه، ص: 289.
(7) غزوات العرب شكيب أرسلان، ص: 50، 51.
(8) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 290.
(9) أقرب ولايات غالة ناحية الأندلس تشتمل على سبعة مدن.

بلاد الغال، وظل يتقدم حتى وصل إلى مدينة أربونة وأصبحت قاعدة مسلحة للمسلمين واستمر في زحفه واستولى على قرقشونة[1]، وما صدفه من مدن وحصونة ذلك الأقليم واستطاع السمح اجتياح جنوب بلاد الغال ومن التغلب على كل القوى التي قاومته وتصدت لزحفه حتى أتم فتح جميع نواحي سبتمانية، ومن أن فرغ من فتح إقليم سبتمانية وتنظيم أموره حتى اتجه بجيشه غرباً نحو مجر نهر الجارون قاصداً إقليم أكتيانية «أكوتين» وبالذات عاصمتها مدينة طولوشة[2]، واتجاهه هذا يعني أن غزوه موجه إلى مملكة الفرنج وفي طريقه تصد عليهم، فقصد طولوشة، وفي طريقه إليها فتح مدينة طرسكونة[3]، ثم استمر في زحفه حتى نزل طولوشة فضرب السمح عليها الحصار، وجد في قتال أهلها، مستخدماً المنجنيق وسائر آلات الحصار حتى أوشك أهلها على التسليم لكن الأمير أودو هبَّ لإنقاذ المدينة ففك المسلمون عنها الحصار والتفتوا لقتال أودو وجيشه[4].

ب - **معركة طولوشة:** روَّعت فتوحات السمح بن مالك في سبتمانيا الأمير أودو دوق أكيتانية، فهب لإنقاذ عاصمته وسار بجيشه حتى اقترب من طولوشة والمسلمون محاصرين لها، فلما علموا بمقدمه اضطروا لفك الحصار على المدينة والتفتوا إليه، وكان جيشه من الكثرة وقيل: أن عدده عشرة أضعاف الجيش الإسلامي[5]، فالتقى الجيشان بالقرب من طولوشة وقد أعد السمح جنده معنوياً وبث فيهم روح الجهاد الصادق، وقرأ عليهم بعض آيات النصر ونشب القتال في معركة عنيفة غير متكافئة، صدق فيها المسلمون القتال وبلغت من الهول ما لا يتصوره العقل، حتى خيل عند تلاقي الجمعين، أن الجبال تلاطمت، وظل القتال سجالاً بين الفريقين وقد أبدى المسلمون فيه ضروب من الشجاعة وهم يقتدون بقائدهم، الذي كان يشدهم بقوله وفعله، ويجدونه في كل مكان يحمل على الأعداء فلا يقف في وجهه شيء، غير أن القائد المسلم أصيب برمح في رقبته خر على أثره صريعاً، ومات شهيداً، فلما رأى المسلمون ما أصاب أميرهم، فت في أعضادهم وأثر في نفوسهم فاختل نظام الجيش وحينها ولوا عليهم أحد كبار الجند وهو عبد الرحمٰن الغافقي[6]، الذي نجح في قيادة الجيش وتمكن من الانسحاب ببقية الجيش في مهارة حرمت الفرنج من تعقب المسلمين، وإصابتهم في حالة التقهقر حتى وصل أربونة، وكان حدوث هذه المعركة واستشهاد السمح بن مالك الخولاني

(1) مدينة في غالة على نهر الأود هذه هي قرقشونة.
(2) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 299.
(3) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 300.
(4) المصدر نفسه، ص: 300.
(5) المسلمون في المغرب والأندلس، محمد زيتون، ص: 198 - 199.
(6) الأعلام (3/ 312، 313) الدولة الأموية في عهد يزيد، ص: 302.

في 9 ذي الحجة سنة 102هـ[1]. وتعتبر قيادة عبد الرحمٰن الغافقي لهذا الجيش الولاية الأولى ولكن رغم قصرها لم تدم أكثر من ستة أشهر، إلا أن رجوع الغافقي بالجيش سيكسبه تجربة يعود منها بعدها إلى فتح تلك المناطق على نطاق أوسع[2].

ج - فتوحات عنبسة بن سحيم الكلبي في بلاد الغال: استمر عبد الرحمن الغافقي أميراً للأندلس، بتقديم أهل الأندلس له مُنذ استشهاد أميرهم السمح بن مالك الخولاني تاسع ذي الحجة (سنة 102 هـ) ، حتى قدوم عنبسة بن سحيم الكلبي أميراً للأندلس من قبل بشر بن صفوان عامل الخليفة يزيد بن عبد الملك على إفريقية والمغرب وذلك في صفر سنة 103هـ[3]، وكان عنبسة من طراز السمح بن مالك رجلاً تقياً وإدارياً بارعاً وعسكرياً فذاً وكان حريصاً على الإسلام وأميناً على دولته[4]، فكان خير خلف لخير سلف، لقد شغل الأمير الجديد صدر ولايته بضبط الأمور في الأندلس، وإخماد الفتن فيها ومن ذلك توجهه إلى المنطقة الشمالية في الأندلس للقضاء على حركة بلاي، وإخماد التمرد الذي قام به أخيلا بن غيطشة في مدينة طركونة حتى استقام له أمرها ثم أعد نفسه للجهاد وباشر الفتح فيما وراء البرتات بنفسه وكان بداية ذلك سنة 105هـ. وهو ما أخذ به أكثر المؤرخين وبذلك يكون الإعداد والتجهيز لهذه الحملة قد تم في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وقد يكون خروجها قد تم أواخر زمنه أيضاً. أما ما تم على يد عنبسة من فتوحات في بلاد الغال فإن ذلك قد حدث في خلافة هشام ابن عبد الملك[5].

6 - وفاة يزيد بن عبد الملك:

قيل بأن يزيد مرض بالسل ومات يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من سنة 105هـ بالسّواد سواد الأردن وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور، وقيل: أقل من ذلك وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وقيل خمساً - وقيل: ستّاً وقيل: ثمانياً وقيل: تسعاً - وثلاثين. وقيل إنه بلغ الأربعين. فالله أعلم وقيل: إنه مات بالجولان وقيل بحوران: وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد وقيل صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك وهو الخليفة من بعده، وحمل على أعناق الرجال حتى دُفن بين باب الجابية وباب الصَّغير بدمشق، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ومن بعده لولده، فبايع الناس من بعده هشاماً[6] وكان نقش خاتم يزيد: قني السيئات يا عزيز[7].

---

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 302.
(2) جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، وفاء المزروعي، ص: 66.
(3) البيان المغرب (2/ 27) فتوح مصر، ص: 82.
(4) التاريخ الأندلسي للحجي، ص: 190.
(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص: 307، 308.
(6) البداية والنهاية (13/ 12).
(7) تاريخ القضاعي، ص: 366.

المبحث الثاني

هشام بن عبد الملك

أولاً: اسمه ونسبه ونشأته:

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو الوليد القرشي الأموي الدِّمشقي، أمير المؤمنين، وأمه أمّ هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي وكان داره بدمشق عند باب الخوّاصين[1]، ولد هشام بالمدينة وعلى رواية أخرى إنه ولد بدمشق[2]، ولما كانت أمه مطلقه عند ولادته[3] فإن الرواية الأولى عن مولده بالمدينة هي الراجحة، لوجود أمه حينذاك عند عائلتها بالمدينة[4] وولد هشام على القول الراجح سنة اثنتين وسبعين[5]، وسمّاه عبد الملك منصوراً لانتصاره على مصعب في تلك السنة، ولما بلغه أن أم هشام سمته على اسم أبيها لم ينكر عبد الملك ذلك[6]، وقضى هشام الشطر الأخير من طفولته في منزل الخلافة الأموي بالشام في أواخر حكم أبيه وإخوته من الخلفاء[7] وكان هشام مغموراً في البلاط الأموي زمن أخويه الوليد وسليمان[8] وقد بقي هشام بعيداً عن مسرح الأحداث نسبياً حتى توليه الخلافة 105هـ[9]. وكان جميلاً أبيض أحول يخضب بالسواد وهو الرابع من ولد عبد الملك لُصلبه الذين وُلُّوا الخلافة، وقد كان عبد الملك رأى في المنام كأنه بال في المحراب أربع مرّات، فدسّ إلى سعيد بن المسيب من سأله عنها، ففسّرها له بأنه يلي الخلافة من ولده أربعة، فوقع ذلك، فكان هشام آخرهم وكان في خلافته حازم الرأي جمّاعاً للأموال وكان ذكياً مدبّراً له بعد بالأمور جليلها وحقيرها وكان فيه حلم وأناة[10]. قال فيه الذهبي: عاقلاً حازماً سائساً فيه ظلم وعدل[11].

ثانياً: سعيه لنيل الخلافة وتوليته للعهد:

كان هشام تواقاً لنيل الخلافة، ففي أواخر أيام سليمان بن عبد الملك، أقنع رجاء بن حيوة الخليفة أن يبايع لعمر بن عبد العزيز، وخوفاً من الفتنة وتجنباً لمعارضة بني أمية يبايع بعده

---

(1) البداية والنهاية (13/ 151).
(2) عصر هشام بن عبد الملك، عبد المجيد الكبيسي، ص: 29.
(3) المصدر نفسه، ص: 29.
(4) المصدر نفسه، ص: 29.
(5) الكامل في التاريخ (3/ 308).
(6) المصدر نفسه (3/ 308).
(7) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 31.
(8) المصدر نفسه، ص: 33.
(9) الكامل في التاريخ (3/ 308).
(10) البداية والنهاية (13/ 151).
(11) سير أعلام النبلاء (5/ 352).

ليزيد بن عبد الملك ويكون ذلك في كتاب مختوم يفتح بعد موت سليمان ولم يكن يعلم لمن عهد سليمان بالخلافة من بعده إلا رجاء، وقد حاول هشام أن يستدرج رجاء لمعرفة من استخلف سليمان من بعده، ولما رفض رجاء إخباره استغرب هشام ذلك، لاعتقاده بأنه أحق الجميع بالخلافة[1]. فقد قال رجاء: لقيني هشام بن عبد الملك فقال: يا رجاء إن لي بك حرمة ومودة... فأعلمني هذا الأمر، فإن كان إلي عملت وإن كان إلى غيري تكلمت فليس مثلي قصّر به، قال رجاء: فأبيت... فانصرف هشام وقد يئس ويضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو يقول: فإلى من نحيت عني ؟ أتخرج من ولد عبد الملك[2]. فسيرة هشام تدل على رغبته الملحة بالخلافة[3]، وأما بالنسبة لبيعة هشام بولاية العهد، فقد كان للظروف السياسية دورها الفعال في ذلك فعندما أراد يزيد بن عبد الملك أن يُرسل جيشاً لقتال يزيد بن المهلب في العراق، أشار العباس بن الوليد على يزيد أن يولي العهد لأخيه عبد العزيز بن الوليد، ومن بعده للوليد بن يزيد، وبين أن الوليد كان صغيراً، كما علل العباس طلبه بالخوف من إرجاف أهل العراق بعد أن يشيع موت الخليفة، فأجاب يزيد الموافقة ووعد بأن يبايع لعبد العزيز بن الوليد في اليوم التالي، ويبدو أن الخبر وصل هشاماً فذهب وقابل أخاه مسلمة[4] الذي قام بدوره بمقابلة يزيد وإقناعه بالبيعة لهشام بولاية العهد ومن بعده الوليد[5] بن يزيد وكان ذلك عام 101هـ على الأرجح[6]، وكانت العلاقة بين الخليفة يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام ولي عهده حسنة نسبياً رغم ندم الخليفة يزيد على إسناد ولاية العهد لهشام، فكان يقول: كلما رأى ابنه يزيد: ... الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك[7]، فقد كبر الوليد وأدرك حياة أبيه، ولربما كان مرد ذلك لخشية يزيد على ابنه الوليد من أخيه هشاماً بعد موته، وإن كان قد أخذ على هشام المواثيق بأن لا يحرم الوليد من ولاية عهده[8].

ثالثاً: توليه الخلافة:

توفي يزيد بن عبد الملك يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان سنة 105هـ، وجاء البريد لهشام ببشارتي الخلافة والخاتم وهو بالزيتونة[9]، وما لبث هشام حتى ذهب إلى الرصافة[10] ثم ركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق[11]. فبويع بها في اليوم الأول من شهر رمضان عام

---

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 34.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص: 34.
(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 35.
(4) الكامل في التاريخ (3/ 288).
(5) المصدر نفسه (3/ 288).
(6) وابن الأثير يراها عام 201هـ، الكامل (3/ 288).
(7) الكامل في التاريخ (3/ 288).
(8) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 37.
(9) الزيتونة : موقع في بادية الشام.
(10) الرصافة : تبعد عن دمشق 1952 ميلاً.
(11) الكامل في التاريخ (3/ 308).

105هـ على الأرجح[1] وأما الطبري[2] وابن الأثير[3] فيذكر أن استخلاف هشام كان لليال بقين من شعبان عام 105هـ وكان هشام يعرف كيف ينجح في مشروعاته ويعد من ساسة بني أمية المشهورين، ختمت به أبواب السياسة وحسن السيرة[4]، وكان شديد المراقبة لعمّاله ودواوينه، وقد شهد له لجدارته أحد خصومه فقال عبد الله بن علي بن العباس: جمعت دواوين بني مروان فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام[5].

رابعاً: نبذة عن حياته الخاصة:

1 - بخل هشام:

وصف هشام بالبخل وجمع المال قال الجاحظ: كان هشام يقول ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً[6]. ويبدو أن السبب في هذا الوصف شدة مراقبته للمال العام، فقد كان شديد المحاسبة للمشرفين على الديوان، وحريصاً على مال المسلمين ولذلك وصفه الشعراء والكتاب بالبخل، لأن الشعراء اعتادوا الهبات الكبيرة من ملوك بني أمية[7].

2 - اتهامه بشرب الخمر:

جاءت روايات لا يصح إسنادها تُشير إلى أن هشام بن عبد الملك كان يشرب الخمر كل يوم جمعة بعد الصلاة وكانت له مجالس يدار فيها الخمر، فإن تلك الروايات لا تصح من حيث السند، كما أن سيرة هشام منافية لهذا الاتهام الباطل، فقد زجر ولي عهده، لمعاقرته وإدمانه على الخمرة، كما زجر ابنه مسلمة المكنى أبا شاكر، وألزمه الأدب وحضور الجماعة[8].

3 - شعره:

لا تحدثنا المصادر عن قصائد أو أبيات شعرية قالها هشام، مع ما للشعر آنذاك من منزلة، ومع ذلك فإن المصادر تذكر لنا بيتاً من الشعر كان هشام يردده دائماً:

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال[9]

ولم تذكر المصادر قائل البيت السالف ولعله لهشام، ومع ذلك فإن هشام لم يكن شاعراً وإن كان يروي الشعر ويحب سماعه[10].

---

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 38.
(2) تاريخ الطبري (7/ 546).
(3) الكامل (3/ 308).
(4) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 40.
(5) المصدر نفسه، ص: 59.
(6) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 59
(7) الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، ص: 371.
(8) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 63.
(9) البداية والنهاية (13/ 154).
(10) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 64.

4 - تقبله للهدايا :

كان هشام يتقبل الهدايا من الولاة وغيرهم ولم ير بذلك إضراراً بمصلحة الدولة أو إجحافاً بحقوق الناس، ولا شك أن قبول هشام للهدايا من الولاة خاصة، وعدم إمعانه من التحري عن مصادر تلك الهدايا أمر غير مقبول من حاكم مثله[1]. وهذا مخالف للنهج الذي سار عليه عمر ابن عبد العزيز.

5 - من صفات هشام:

كان هشام جميل الصورة ربعة سميناً، يخضب بالسواد وبعينه حول، موصوفاً بالحلم، ولا يستغضب بسهولة، إلا في مسألة حول عينه وإن كان قد لقب بأحول بني أمية[2]، وإذا أخطأ كان هشام سريع الندم وطلب العفو[3] متقبلاً للوعظ[4]. وقد كسى الكعبة من الديباج الثمين[5].

خامساً: - أولاده وعلاقته بأقربائه:

1 - تربيته لأولاده:

كان لهشام عشرة من الأولاد الذكور وبعض البنات، ويختلف المؤرخون في عددهم فيذكر ابن حزم أن عددهم كان ستة عشر ولداً وبعض البنات[6]، وقد حاول هشام أن يحسن تربية أولاده فاختار لهم محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري المحدث لتأديبهم[7]، واختار هشام لأولاده أيضاً من يعلمهم اللغة والشعر وكان يحضر أحياناً مجالس مؤدبيهم[8]، وكان يعطي مؤدب ولده ألف درهم كل شهر، إلى جانب الكسوة والجوائز[9]. وكان يوصي مؤدب ابنه: أن يعلمه القرآن، ويُروّه الأشعار، وأيام الناس، ويأخذه بعلم الفرائض والسنن، وقيل أوصاه أن يأخذ ولده بكتاب الله ويُقرئه في كل يوم عشر آيات ليحفظ القرآن، ويروّه من الشعر أحسنه، ويتخلل به مغازي رسول الله ﷺ وسلمه، وطرفاً من الحلال والحرام والخطب، ويصله بأهل الفقه والدين[10]. وبالرغم من ذلك، فقد أساء بعض أولاده السيرة، ولم يشتهر أحد منهم بعد سقوط الدولة الأموية عدا حفيد هشام، عبد الرحمٰن بن معاوية بن

---

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 65.
(2) المصدر نفسه، ص: 66.
(3) الكامل في التاريخ (3 / 393).
(4) معجم الأدباء (4/ 161، 162).
(5) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 66.
(6) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 72.
(7) البداية والنهاية، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص: 73.
(8) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 73.
(9) مكانة المعلم في التراث العربي الإسلامي، ص: 154.
(10) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 322.

هشام مؤسس الدولة الأموية في الأندلس[1]، ويذكر أن هشام شتم ابنه محمد لقيام أحد عبيده بضرب طفل نصراني، كان قد اعتدى على أحد أولاد محمد[2]، كما منع أحد أولاده من ركوب الدابة سنة، عقاباً له على عدم حضوره لصلاة الجمعة بحجة موت دابته، وليس باستطاعته أن يحضر إلى المسجد ماشياً[3]، وقد كان هشام يهتم بتصرفات أولاده ويرغب لهم أن تكون سمعتهم جيدة بين الناس، وتصلح أحوالهم مع ربهم ودينهم ، ويتضح ذلك من اختياره لمؤدبهم، وتوليتهم المواسم، وإجبارهم على حضور الجمعة[4].

2 - اشتراكهم في حروب الدولة:

كان هشام يشرك أولاده بالحروب ويقلدهم قيادة جيوش الغزو وقد اشتهر منهم معاوية بن هشام، قال عنه ابن حزم: قاد الصوائف عشر سنين[5]. وقد شارك معاوية في قيادة الحملات الموجهة لغزو الروم زمن أبيه أكثر من عشر مرات[6]، وقد شارك في قيادة حملات الغزو من أولاد هشام: سليمان، ومسلمة، وسعيد، ومحمد[7].

3 - علاقة هشام بالوليد بن يزيد ولي العهد:

كان هشام مكرماً للوليد حتى ظهر منه مجون وفسق، وربما كان لمؤدب الوليد، عبد الصمد ابن عبد الأعلى يد في سوء سيرة الوليد فأراد هشام إبعاد عبد الصمد عن الوليد، فكتب إليه بذلك فاستجاب الوليد إلى رغبة عمه هشام وأخرج عبد الصمد[8]. وقد حاول هشام أن يصلح من سيرة الوليد، فولاه الموسم عام 116هـ ، ويبدو أن الوليد لم يرتدع ويترك ما كان عليه من لهو وفسق، فطمع هشام في خلعه، وتقليد ولاية العهد لابنه مسلمة، لكن الوليد رفض خلع نفسه، فطلب منه هشام أن يجعل مسلمة بن هشام ولياً للعهد من بعده فرفض ذلك أيضاً. . . فتنكر له هشام وأضر به وعمل سراً في البيعة لابنه، فأجابه قوم، منهم محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزومي، وبنو القعقاع بن خليد العبسي، وغيرهم من خاصته[9]، وساءت العلاقة بين هشام والوليد، فكان هشام يعنفه أمام الناس وكان الناس يتقربون إلى هشام بعيب الوليد[10] ويبدو أن هشاماً كان جاداً في خلع الوليد والبيعة لابنه مسلمة بولاية

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 73.
(2) المصدر نفسه، ص: 73.
(3) المصدر نفسه، ص: 73.
(4) المصدر نفسه، ص: 74.
(5) جمهرة أنساب العرب (1/ 92).
(6) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 75.
(7) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 76.
(8) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 76.
(9) تاريخ الطبري (7/ 623).
(10) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 78 العقد الفريد (5/ 184).

العهد ومع ذلك لم يجرؤ هشام على تحدي الناس في بيعتهم للوليد، فيذكر ابن كثير أن الزهري المحدث كان يحث هشاماً على خلع الوليد من ولاية العهد، ولكن هشاماً كان يرفض ذلك خشية الفضيحة، وتغير قلوب الأجناد[1]، وكان نتيجة محاولة هشام، خلع الوليد والبيعة لابنه مسلمة، أن جلب نقمة الوليد على أولاده من بعده[2] - كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

4 - علاقته بآل مروان وسائر الأمويين:

كان هشام يولي أهل بيته قيادة الحملات الموجهة ضد البيزنطيين، فقد ولى أخاه مسلمة قيادة تلك الحملات لسنوات عدة[3]، كما ولاه ولاية أرمينية وأذربيجان مرتين، ولما عزل هشام مسلمة، في المرة الثانية عام 114هـ عن أرمينية وأذربيجان ولاها لابن عمه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم[4]، كما ولى هشام أخاه سعيد قيادة إحدى الحملات ضد البيزنطيين أيضاً، . . وأما أبناء إخوته، فمع أن هشاماً لم يولهم قيادة حملات الصوائف ولكنه كان يشركهم فيها، وكان هشام يفرض المشاركة في الحملات الحربية على من يأخذ العطاء من آل مروان، ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بديلاً، وكان يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان، وفي بعض ما يجوز لهم المقام به ويوضح به الغزو عنهم[5]، ويبدو أن مقدار العطاء كان مائتي دينار[6]. ويظهر أن هشاماً لم يهب لأهل بيته من الأموال، كما كان يوهب لهم في العهود السالفة، ومع أن هشاماً لم يحاب آل مروان ويفضلهم على من سواهم، لكنه لم يخصهم وقد قام هشام بتزويج جميع بناته من أبناء عمومتهن، كما كان بنو مروان يأخذون عطاء الشرف[7]، وكان عدد من بني مروان يحضرون مجلس هشام للسمر معه، وتذكر الروايات أن هشاماً وبخ أفضل ولاته خالد القسري واليه على العراق لما أهان القسري أحد الأمويين، وكتب الأموي إليه بذلك، وربما كانت إهانة الأموي من بين ما دعا هشام إلى عزل القسري عن ولايته[8].

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص: 79.
(2) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 79.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص: 80.
(4) تاريخ الطبري، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص: 80.
(5) المصدر نفسه، ص: 81.
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص: 81.
(7) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 81.
(8) تاريخ الطبري، نقلاً عن عصر هشام، ص: 81.

5 - رعايته لأخواله من بني مخزوم:

مر معنا أن هشاماً ولد بالمدينة عند أخواله، لأن أمه كانت مطلقة عند أهلها وقد قضى طفولته المبكرة في المدينة عند أخواله، فلما تولى الخلافة ولى خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي مكة والمدينة والطائف 106هـ[1]، وقد استمر إبراهيم بن هشام إلى عام 114هـ، فعزله هشام عن ولاياته الثلاثة وولى مكة والطائف لخاله الآخر محمد بن هشام المخزومي[2] وأضاف إليه المدينة عام 118هـ[3]، وظهر ميل هشام لأخواله عندما أمر لوفد من قريش ببعض المال ففضل فيه أخواله[4].

سادساً: من حياته الاجتماعية:

1 - علاقته بالرعية:

كان هشام يضع الرقباء والعيون من خيار الناس على ولاته وعماله ليتأكد من سيرهم بالعدل، وقضائهم حوائج الخلق، ولا يكتفي بذلك بل يتعرض للناس بنفسه يسأل عن أحوالهم ويحرضهم على المطالبة بحقوقهم، وكان له موضع بالرصافة أفيح من الأرض يبرز فيه، فتضرب له به السرادقات: فيكون فيه ستين ليلة بارزاً للناس، مباحاً للخلق، لا يفني أيامه تلك إلا برد المظالم والأخذ على يد الظالم، من جميع الناس وأطراف البلاد، ويصل إلى مخاطبته في ذلك الموضع راعي السوام والأمة السوداء فمن دونهما، وقد وكل رجالاً أدباء عقلاء بإدناء الضعفاء والنساء واليتامى منه، ويستقبل وفود الأمصار فيلبي حاجاتهم، ويخرج مع مستشاريه يصنع لهم الطعام بنفسه، فيأكل منه، ويأكل معه الناس، وإن نشبت بينه وبين أحد من أشراف رعيته خصومة لم يجد سبيلاً لقضائها إلا أن يمثل بنفسه أمام القضاء مع خصمه ويلزم أهل بيته بذلك، حتى لو كان خصم أحدهم[5] نصرانياً، ولما استطال مرة على أحد رعيته لم يجد مفراً من إرضائه بكل سبيل، فقد شتم هشام مرة رجلاً من الأشراف، فوبخه ذلك الرجل وقال: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض ؟ فاستحيا منه، وقال: اقتص مني، فقال: إذن أنا سفيه مثلك، قال: فخذ عوضاً من المال، قال: ما كنت لأفعل، قال: فهبها لله، قال: هي لله، ثم لك، فنكس هشام رأسه واستحيا قال: والله لا أعود إلى مثلها أبداً[6].

1 - مع وفود الأعراب:

في أيام هشام قحطت البادية فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 551).
(2) تاريخ الطبري (7/ 614).
(3) المصدر نفسه (7/ 638).
(4) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 82.
(5) الكامل في التاريخ (3/ 392).
(6) المصدر نفسه (3/ 393).

ابن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان. فوقعت عليه عين هشام فقال لحاجبه: من أراد أن يدخل عليّ فليدخل، فدخل حتى الصبيان فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن للكلام طيّاً ونشراً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال: انشره لله درك[1]. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أدقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فلا تحبسوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك لنا الغلام واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: أما لك حاجة ؟

قال: ما لي حاجة في نفسي دون عامة المسلمين، وكان هشام لا يدخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون رجلاً أنه أخذ من حقه. ولقد أعطى لكل ذي حقه حقه ويقال: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله[2].

2 - حظي منه عقله لا وجهه:

كان هشام يقرب منه الأذكياء أصحاب الحكمة والعقل الراجح، ذلك أنه لما أتته الخلافة سجد لله شكراً، فلما رفع رأسه وجد الأبرش الكلبي واقفاً فقال: ما لك لم تسجد معي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك وقد رفعت إلى السماء، وأنا مخلد إلى الأرض. فقال: أرأيتك إن رفعتك معي أتسجد ؟ فقال: الآن طاب السجود، فسجد فأمر له بالإحسان الكثير وأن يكون جليسه طول مدته، وعوتب في شأنه وقيل له: ما تجالس في هذا الأبرش ؟ فقال: حظي منه عقله لا وجهه[3].

3 - هشام مع جاريته:

اشترى هشام بن عبد الملك جارية وخلا بها، فقالت له: يا أمير المؤمنين، ما من منزلة أطمع فيها فوق منزلتي إذ صرت للخليفة ولكن النار ليس لها خطر، إن ابنك فلاناً اشتراني فكنت عنده، لا يحل لك مسي، قال: فحسن هذا القول منها عنده وحظيت عنده وتركها وولاها أمره[4].

4 - إن نعم عدوك قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي:

وجه أبو جعفر المنصور إلى شيخ من أهل الشام كان بطانة هشام بن عبد الملك فسأله عن تدبير هشام في بعض حروبه الخوارج، فوصف له الشيخ ما دبرَّ فقال: فعل رحمه الله كذا،

---

(1) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (2/ 49).
(2) المصدر نفسه (2/ 49).
(3) فوات الأعيان (4/ 239).
(4) المنتظم (7/ 97).

وضع ﷺ كذا وكذا، فقال له المنصور: قم عليك وعليه لعنة الله، تطأ بساطي وتترحم على عدوي، فقام الرجل يقول وهو مولٍ: إن نعم عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلَّا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فرجع فقال: أشهد أنك نهيض حر وغراس شريف، عُد إلى حديثك، فعاد الشيخ إلى حديثه حتى إذا فرغ دعى له بمال فأخذه وقال: والله يا أمير المؤمنين مابي إليه من حاجة، ولقد مات عني من كنت في ذكره آنفاً فما أحوجني إلى وقوف بباب أحد ولولا جلالة عز أمير المؤمنين وإيثار طاعته ما لبست لأحد بعده نعمة، فقال له المنصور: مت إذا شئت لله أبوك، فلو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً[1].

5 - لتلينّ طائعاً أو لتلينّ مكرهاً:

عن إبراهيم بن أبي عَبْلة قال: أراد هشام أن يوليني خراج مصر فأبيت، فغضب حتى اختلج وجهه، وكان في عينيه حول، فنظر إلي نظر منكر، وقال: لتلينَّ طائعاً، أولتلينَّ مكرهاً، فأمسكت عن الكلام حتى سكن غضبه فقلت: يا أمير المؤمنين أتكلم ؟ قال: نعم، قلت: إن الله قال في كتابه العزيز ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72]. فوالله يا أمير المؤمنين ما غضب عليهن إذ أبين، ولا أكرههن إذ كرهن، وما أنا بحقيق أن تغضب عليّ إذ أبيت، وتكرهني إذا كرهت، فضحك وأعفاني[2].

6 - كراهية هشام تقبيل اليد:

كان هشام بن عبد الملك يكره تقبيل اليد، حكى العتبي، قال: دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبل يده، فقال: أفّ[3] إن العرب ما قبلت الأيدي إلا هلوعاً، ولا فعلته العجم إلا خضوعاً[4].

7 - تشييعه لجنازة طاووس بن كيسان:

لما مات طاووس بن كيسان لم يتهيأ إخراج جنازته لكثرة الناس حتى وجه إليهم أمير مكة بالحرس، وقد حرص هشام بن عبد الملك على تشييع جنازته بنفسه، وكان عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي يضع سرير طاووس على كاهله حتى سقطت قلنسوته على رأسه ومزق رداؤه من خلفه[5].

---

(1) المنتظم (7/ 99).
(2) تاريخ الخلفاء، ص: 249، الدولة الأموية للوكيل (1/ 548).
(3) أفّ : كلمة تضجر :
(4) الشهب اللامعة، ص: 321.
(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 356، مرآة الجنان (1/ 227 - 228).

8 - محاربة المذاهب الضالة في عهده:

ظهر في العراق في فترة مبكرة معبد الجهني الذي كان من أوائل القدرية في الإسلام وهم منكرو القدر، وقد جاء بهذه الأفكار - فيما يبدو - من مصادر نصرانية، ثم ما لبث أن ثار على الأمويين مع ابن الأشعث فلما فشلت هذه الثورة ألقى الحجاج القبض عليه وقتله[1]، وقد أخذ الأفكار القدرية لمعبد رجل من رجال الشام واسمه غيلان الدمشقي وكان مولى لآل عثمان بن عفان ﷺ ، وقد أدخل على هذه الأفكار مزيداً من التأصيل الجدلي، وكان فيما يبدو مطعوناً في دينه قبل ذلك، فقد قال مكحول الفقيه: ويلك يا غيلان ألم أجدك ترامي النساء بالتفاح في رمضان ؟ ثم صرت حارثياً تخدم امرأة الحارث الكذّاب - مدعي النبوة - الذي قتله عبد الملك كما سبق بيانه - وتزعم أنها أم المؤمنين، ثم تحولت بعد ذلك قدرياً زنديقاً[2] ؟ وقد ناظره عمر بن عبد العزيز لما علم ببدعته، وأبان له ضلاله فأظهر التراجع عن فكره أكثر من مرة، وأمر عمر بالكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقول هؤلاء القدرية، وقد أمسك غيلان عن الكلام حتى مات عمر: فسال منه بعد ذلك السيل[3]، فاستدعاه هشام بن عبد الملك بعد توليه الخلافة وقال له: ويحك قل ما عندك، إن كان حقاً اتبعناه، وإن كان باطلاً رجعت عنه، فناظره ميمون بن مهران[4]، والأوزاعي فلما استبان خطؤه ومكره وإصراره على ضلالته، أمر هشام بقتله[5] وأمر بنفي أتباعه، ويبدو أن بعض الناس أرجف بالخليفة بعد ضيعة ذاك حتى أشفق أن يكون أخطأ بقتله غيلان، فكتب إليه رجاء بن حيوة فقيه أهل الشام يقول: بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيء من قتل غيلان وصالح لأحد أصحاب غيلان، وأقسم لك يا أمير المؤمنين إن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك[6].

ثم ظهر في الشام الجعد بن درهم مولى بني الحكم، وكان معلماً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وهو أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد ﷺ، وقد قيل أنه أخذ ذلك من أصول يهودية، فلما أظهر ذلك القول طُلب بالشام، فهرب إلى الكوفة، حيث حبسه عاملها خالد القسري، وأمره هشام بن عبد الملك بقتله فأخرجه في وثاقه يوم عيد الأضحى، وخطب الناس فقال في آخر خطبته: انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلم الله موسى، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول

(1) طبقات المعتزلة، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 234.
(2) سرح العيون لابن نباته، ص: 166.
(3) المصدر نفسه، ص: 166، 167.
(4) البداية والنهاية (13/ 155).
(5) سرح العيون، ص: 167، البداية والنهاية (13/ 235).
(6) حلية الأولياء (5/ 172) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 235.

الجعد علواً كبيراً، ثم نزل وذبحه[1]. ومن العقائد الباطلة التي ظهرت ذلك الوقت ما كان من المغيرة بن سعيد وبنان بن سمعان النهدي، وكانا من غلاة الشيعة، فكان المغيرة يقول بألوهية علي بن أبي طالب، وتكفير الشيخين أبي بكر وعمر وسائر الصحابة إلا من ثبت مع علي ﷺ، وزعم أن الأنبياء لم يختلفوا في شيء من الشرائع وكان ساحراً يقول: لو أردت أن أحيي عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً لفعلت، ويرى مذهب التجسيم لله عز وجل[2]... وكان بنان بن سمعان يشاركه في هذه المعتقدات ويرى أن علياً حل فيه جزء إلٰهي، وأنه كان يعلم الغيب ويخبر به، وأنه سوف يأتي بعد ذلك من جديد، ثم ادعى أن ذلك الجزء إلهي قد انتقل إليه هو بالتناسخ، ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة[3]، وزعم أنه المراد بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138]، إلى غير ذلك من أضاليل عجيبة ثم إنهما خرجا في سبعة نفر على خالد القسري فقتلهما حرقاً على نحو بشع سنة 111هـ ثم قتل أحد المتنبئين بالكوفة[4] وفي ولاية خالد القسري ظهرت دعوة باطنية في الإسلام على يد عمار بن يزيد بخراسان وقد تسمى بخِدّاش، فدعا الناس إلى خلافة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فاستجاب له خلق كثير، فلمّا التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخُرَّمِيَّة الزَّنادقة[5]، وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أن محمد بن علي بن عبد الله يقول ذلك، وقد كذب عليه، فأظهر الله عليه الدولة، فأخذ فجيء به أمير خراسان، فأمر به فقطعت يده وُسلَّ لسانه ثم صُلب بعد ذلك[6]. وفي ولاية يوسف بن عمر على العراق (120 - 126هـ) قتل أبو منصور العجلي أحد الشيعة الغلاة الذي زعم أن علياً والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمداً الباقر كلهم أنبياء ومرسلون وأنه هو أيضاً نبي مرسل عرج به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح على رأسه بيده وقال: يا بني بلغ عني، ثم أنزله إلى الأرض، وكفر أصحابه بالجنة والنار، وتأولوا الجنة على أنها نعيم الدنيا، والنار على محق الناس في الدنيا، واستحلوا خنق مخالفيهم، فلما اكتشف يوسف بن عمر خبر ذلك الدجال أخذه وصلبه[7].

9 - عفوه عن الكُمَيْتُ الشاعر:

الكميت شاعر فحل مشهور، من شعراء الدولة الأموية وأحد البلغاء الخطباء الفصحاء،

---

(1) الكامل في التاريخ (3/ 393).
(2) الفرق بين الفرق، ص: 239 - 240، الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 235.
(3) الملل والنحل للشهرستاني (1/ 204 - 205).
(4) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 236.
(5) الخرمية فرقة من المزدكية وسر مذهب الإسماعيلية.
(6) البداية والنهاية (13/ 81).
(7) الفرق بين الفرق، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 236.

ومن يضرب بهم المثل في البلاغة والبيان، ذلكم هو الكميت بن زيد الأسدي[1] وكان الكميت مدح بني هاشم وهجا بني أمية وهشاماً فطلب، فهرب من هشام وأصبح لا يستقر به القرار من خوف هشام، ثم قصد مسلمة بن عبد الملك وطلب منه أن يشفع له عند أخيه هشام فاستجاب له[2] ودخل به على أمير المؤمنين هشام فخطب الكميت خطبة ما سمع بمثلها قط وامتدح بني أمية بقصيدته الرائية التي ارتجلها ارتجالا وجاء فيها:

قف بالديار وقوف زائر وتأنّ إنك غير صاغر

وفيها يقول:

ماذا عليك من الوقوف بها وأنك غير صاغر

وفيها يقول:

والآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

فجعل هشاماً يغمز مسلمة بقضيب في يده ويقول: اسمع اسمع، وفيها يقول:

كم قال قائلكم لعلك عند عثرته لعاثر
وغفرتمو لذوي الذنوب من الأكابر والأصاغر
أبني أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي بكل ملمة وعشيرتي دون العشائر
أنتم معادن للخلافة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزال لشافع منكم وواتر[3]

ثم قطع الإنشاد وأعاد خطبته... فقال هشام: ويلك يا كميت، من زين لك الغواية ودلاك في العماية؟ قال: الذي أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد فلم يجد له عزماً[4]، وذكرت الرواية أن هشاماً قال للكميت أنت القائل:

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركمو أجيعا[5]

---

(1) الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص: 191.

(2) مسلمة بن عبد الملك فاتح شطر الأناضول، ص: 156، العقد الفريد (2/ 183-185).

(3) الأدب العربي وتاريخه د. خفاجي، ص: 200.

(4) المصدر نفسه، ص: 200.

(5) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص: 463.

بمرضي السياسة هاشمي يكون حياً لأمته ربيعاً

قال الكميت: لا تثريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قول الكاذب، قال: بماذا؟ قال: بقول الصادق!

أورثته الحصان أم هشام حسباً ثاقباً ووجهاً نظيراً
وتعاطى ابن عائشة البدر فأمسى له رقيباً نظيراً
وكساه أبو الخلائف مروان سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن وجدتها له معاناً ودوراً[1]

وكان هشام متكئاً، فاستوى جالساً وقال: هكذا فليكن الشعر. ثم قال: لقد رضيت عنك يا كميت[2].

ومن طرائف ما يذكر في سيرة الكميت: أنه وقف وهو صبي على الفرزدق وهو يُنْشِدُ، فقال: يا غلام، أيسرك أني أبوك؟ قال: أما أبي، فلا أبغي به بدلاً، ولكن يسرني أن تكون أمي، فحصر الفرزدق، وقال: ما مرَّ بي مثلها. وقد ولد سنة ستين ومات سنة ست وعشرين ومئة وهو القائل:

والحُبُّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ سائِلْ بذلِكَ من تَطعَمَّ أو ذُقِ
ما ذاق بُؤْسَ مَعيشةٍ ونعيمها فيما مضى أحَدٌ إذا لم يَعْشَقِ[3]

10 - يوميات هشام ومجلسه:

كان هشام إذا صلى الغداة كان أول من يدخل عليه صاحب حرسه، فيخبره بما حدث في الليل، ثم يدخل عليه موليان له مع كل واحد منهما مصحف، فيقعد أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره حتى يقرأ عليهما جزأه، ويدخل الحاجب فيقول: فلان بالباب، وفلان، وفلان، فيقول: ائذن، فلا يزال الناس يدخلون عليه، فإذا انتصف النهار وضع طعامه ورفعت الستور ودخل الناس وأصحاب الحوائج وكاتبه قاعد خلف ظهره، فيقول: أصحاب الحوائج، فيسألون حوائجهم، فيقول لا ونعم، والكاتب خلفه يوقع بما يقول، حتى إذا فرغ من طعامه وانصرف الناس صار إلى قائلته، فإذا صلى الظهر دعى بكتابه فناظرهم فيما ورد من أمور الناس حتى يصلي العصر، فإذا صلى العشاء حضر سماره، الزهري وغيره[4].

---

(1) الأدب العربي وتاريخه، ص: 201.
(2) المصدر نفسه، ص: 201.
(3) سير أعلام النبلاء (5389).
(4) المنتظم (/ 98).

11 - اهتمامه بحلبات السباق:

كان هشام بن عبد الملك بن مروان يستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له من خيله فيها وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يكن ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس[1]، وكان هشام يقبل الهدايا من الخيل، ويقيم حلبات السباق لها، ويصلح الطرق ويوسعها لأجل ذلك، وكان يفرح كثيراً إذا فازت خيله في السباق ويطلب من الشعراء وصف الفرس أو الحصان الفائز[2].

12 - اهتمامه بالآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى:

كان الخليفة هشام بن عبد الملك مشغوفاً بالإطلاع على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى، فقد أمر بترجمة كتاب عن تاريخ فارس وتسرب هذا الشغف إلى المحيطين به فترجم سالم مولاه بعض كتب أرسطو إلى العربية، كما ورث ابنه جبلة بن سالم عن أبيه كثيراً من معارفه وعلومه فترجم بعض الآثار التاريخية إلى العربية[3].

13 - معاملته لأهل الكتاب:

سمح هشام للنصارى الملكانيين أن يعيدوا شغل كرسي أنطاكيا وعينوا صديقه اصطفان بِطريقاً عليهم، وكان رفيقاً بجميع النصارى، ففي عهده دخل البطرك ميخائيل مدينة الإسكندرية في احتفال - مشهور - بين يديه الشموع والصلبان والأناجيل والكهنة يصيحون: لقد أرسل الرب إلينا الداعي المأمون الذي هو مرقس الجديد[4].

سابعاً: العلماء في عهد هشام بن عبد الملك:

عندما تولى هشام بن عبد الملك حاول تقريب بعض العلماء والاستفادة منهم ولكن إلى حد ما، ومن أشهر هؤلاء العالم الجليل محمد بن مسلم الزهري، والإمام الأوزاعي وأبو الزناد وغيرهم، وكان تأثير هؤلاء العلماء في اتخاذ القرار في بعض الجوانب، وبطريق غير مباشر من خلال تأثير قربهم من الخليفة وأسرته - لاسيما الزهري - على سلوك هشام وسيرته، وسيأتي الحديث عن ذلك عند ترجمة الإمام الزهري بإذن الله تعالى. ولعل الذي حد من تأثير العلماء في توجيه القرار في عهد هشام - مقارنة بتأثيرهم في عهد عمر بن عبد العزيز - وهو محاولة هشام أن يمسك العصا من الوسط، فحاول أن يسير وسطاً بين سياسة عمر بن عبد العزيز الإسلامية الخالصة وسياسة الملك، ووسطاً بين عصبية القبائل القيسية واليمانية[5]،

---

(1) الشهب اللامعة، ص: 432.
(2) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 55.
(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 460.
(4) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص: 434.
(5) أثر العلماء على الحياة السياسية، ص: 116.

وهذا ما دعا الذهبي حين وصف سياسته أن يقول فيه: . . . فيه ظلم مع عدل[1]. وكان العلماء ينصحون هشام ويتحدثون معه وإليك بعض هذه المواقف.

1 - عطاء بن أبي رباح ينصح هشاماً:

دخل عطاء بن أبي رباح مجلس هشام بن عبد الملك وعنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فقال له هشام: ما حاجتك يا أبا محمد ؟ قال: يا أمير المؤمنين أهل الحرمين أهل الله، وجيران رسول الله ﷺ فيهم أعطياتهم وأرزاقهم لسنة. ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقيادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم. قال: نعم، اكتب يا غلام بأن ترد فيهم فضول صدقاتهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور يرمون من وراء بيضتكم، ويقاتلون عدوكم قد أجريتم لهم أرزاقاً تدرها عليهم، فإنهم إن يهلكوا غزيتم، قال: نعم، أكتب أرزاقهم إليهم يا غلام. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أهل ذمتكم لا تجيب صغارهم وتتعتع[2] كبارهم، ولا يكلفون ما لا يطيقون، فإنما تجبونه معونة لكم على عدوكم قال: نعم اكتب يا غلام بأن لا يحملوا ما لا يطيقون، هل من حاجة غيرها ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله في نفسك[3]. وجاء في رواية: اتق الله في نفسك، فإنك وحدك وتموت وحدك وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك لا والله ما معك ممن ترى أحد[4].

2 - خالد بن صفوان مع هشام:

روي أن خالد بن صفوان بن الأهتم قدم على هشام بن عبد الملك وقد خرج متبدياً بأهله وقرابته وحشمه وخدمه، وذلك في وقت الربيع حيث أخذت الأرض زخرفها، وزينت بألوان النبات، وتعطر الجو برواح الزهور الزكية، وضرب له معسكر فرش بأفخر الفرش وأخذ الناس فيه مجالسهم، فأخذ خالد بن صفوان ينظر هنا وهناك فنظر إليه هشام نظر المستنطق له، فقال خالد: أتم الله عليك يا أمير المؤمنين نعمة سوغكها لشكره، وجعل ما قلدك من هذا الأمر رشداً، وعاقبة ما تؤول إليه حمداً أخلصه لك بالتقى وكثره لديك بالنماء لا كدر عليك منه ما صفى، ولا خالط سروره الردى فقد أصبحت للمسلمين ثقةً وملجأ إليك يفزعون في مظالمهم، وإليك يلجؤون في أمورهم، وما أحد يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - شيئاً هو أبلغ في

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 352).

(2) تعتعه : تله وحركه بعنف أو أكرهه في الأمر حتى قلق.

(3) مختصر تاريخ ابن عساكر، نقلا عن اثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 308

(4) مختصر تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 297.

قضاء حقك وتوقير مجلسك، من أن أذكرك نعمة الله عندك، فأنبهك إلى شكرها، وما أجد لذلك شيئاً هو أبلغ من حديث من تقدم قبلك من الملوك، فإن أذن أمير المؤمنين أخبرته، وكان هشام متكئاً فاستوى قاعداً فقال: هات يا ابن الاهتم، فذكر ابن الأهتم قصة أحد الملوك الذين خرجوا إلى البرية في عام يشبه عام خروج هشام حيث الربيع فقال لجلسائه، هل رأيتم مثلما أنا فيه ؟ وعنده رجل من بقايا حملة الحجة والمضي على أدب الحق ومناهجه، فقال له: أيها الملك، إنك سألت عن أمر أفتأذن في الجواب ؟ قال: نعم، قال: أرأيت ما أعجبت به ؟ أهو شيء لم تزل فيه أم هو شيء صار إليك ميراثاً من غيرك، وهو زائل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك؟ قال الملك: فكذلك هو، قال: أفلا أراك إنما أعجبت بشيء يسير تكون فيه قليلاً وتغيب عنه طويلاً، وتكون غداً بحسابه مرتهناً؟ قال: ويحك فأين المهرب؟ وأين المطلب؟ قال: إما أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة ربك على ما ساءك أو سرك ، وإما أن تضع تاجك وتضع أطمارك وتلبس أمساحك وتعبد ربك حتى يأتيك أجلك. وتذكر القصة أن الملك اختار الطريق الثاني فترك الملك وانقطع مع هذا الناصح للعبادة بقية حياته، وقد تأثر هشام حتى أنه أمر بمعسكره فنقض وعاد ومن معه إلى قصره فاجتمع من كان مع هشام على خالد بن صفوان فقالوا له: ما أردت بأمير المؤمنين ؟ نغصت عليه لذاته وأفسدت عليه باديته، فقال لهم: إليكم عني فإني عاهدت الله عز وجل ألا أخلو بملك إلا ذكّرته الله عز وجل [1].

3 - سالم بن عبد الله بن عمر مع هشام بن عبد الملك:

دخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: سَلْني حاجة، قال: إنِّي أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلمّا خرجا قال: الآن فسلني حاجة. فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ فقال: من حوائج الدنيا قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها[2].

ثامناً: الإمام محمد بن شهاب الزهري في عهد هشام والدولة الأموية:

هو الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله الأصغر ابن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي الزهري القرشي المدني[3]، يكنّى بأبي بكر، ويعرف بالزهري كما يعرف بابن شهاب نسبة إلى جد جده شهاب بن عبد الله بن الحارث ابن زهرة، وإذا أطلق العلماء لفظ الزهري أو لفظ ابن شهاب فلا ينصرف هذان اللفظان إلا إليه

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 284، نقلاً عن مختصر تاريخ دمشق.

(2) سير أعلام النبلاء (4/ 46).

(3) تذكرة الحفاظ (1/ 180)، سير أعلام النبلاء (5/ 93).

لغلبتهما عليه دون غيره[1]. وولد الإمام الزهري في مدينة رسول الله ﷺ ولم تكن سنة ولادته معلومة على وجه التحديد وقد اختلف العلماء في تحديدها ورجح الدكتور حارث سليمان الضّاري بأن سنة ولادته كانت سنة إحدى وخمسين[2] في خلافة معاوية. نشأ الإمام الزهري في المدينة المنورة بعد ولادته فيها، وكانت المدينة محط أنظار طلاب العلم وعشاق المعرفة الذين وفدوا إليها من كل حدب وصوب[3]، ويعتبر من التابعين الأفذاذ، وقد بدأ الإمام الزهري طلبه للعلم مبكراً وكان أول شيء اتجه إليه القرآن الكريم، وقد حفظ القرآن في ثمانين ليلة[4]، وتعلم علم الأنساب ثم السنة المطهرة، ومعرفة الحلال والحرام، وكان إذا فرغ من تلقي العلم عن أساتذته يستعيد ما تلقاه منهم، ويتذكر ما رواه عنهم رغبة في جمعه وحفظه وخوفاً من ضياعه ونسيانه، وكان انصرافه إلى المذاكرة والحفظ، وانشغاله لهما كلياً مدعاة لإثارة حفيظة زوجته عليه، فقد روى عنها أنها قالت له يوماً: والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر[5]، فقد كان يتمتع برغبة صادقة في طلب العلم مع ذكاء فائق وعزم أكيد، وساعدته عوامل عدة في تحصيله للعلم منها: شجاعته الأدبية، صبره وتحمله لملازمته لكثير من أفاضل شيوخه وطول مجالسته لهم، كسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبه وأبي بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام ولازمهم طويلاً[6] وكان شديد الاحترام لشيوخه، وكما اهتم بالرحلة في طلب العلم[7] في عصره من علوم ومعارف وجمع ما لم يجمعه الكثير من أقرانه ومعاصريه حتى أصبح عَلَمَاً يُشار إليه بالبنان، وإماماً يقتدى به في كل فن وشأن، فوصف بأنه أعلم أهل زمانه وأنه أجمعهم، ووصف بغير ذلك من الأوصاف الدالة على فضله وتقدمه وطول باعه في نواحي المعرفة المختلفة[8]، فقد روي عن مكحول أنه قال: ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية من الزهري[9]، وقد ضرب بكل علم من علوم عصره بسهم وافر وكان لذلك يضرب به المثل، فقد قال الذهبي في وصف عمر بن عبد العزيز: فصار

(1) الإمام الزهري وأثره في السنة للضّاري، ص: 21.
(2) المصدر نفسه، ص: 25.
(3) المصدر نفسه، ص: 27.
(4) البداية والنهاية نقلاً عن الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 75.
(5) شذرات الذهب (1/ 196).
(6) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 87.
(7) المصدر نفسه، ص: 88، 89.
(8) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 89.
(9) المصدر نفسه، ص: 90، الطبقات لابن سعد تهذيب التهذيب (9/ 449).

في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر بن الخطاب، وفي الزهد مع الحسن، وفي العلم مع الزهري[1].

1 - علومه ومعارفه:

أ - الزهري وعلوم القرآن: كان الزهري أحد أعلام التابعين الذين حفلت أمهات كتب الحديث والتفسير بالرواية عنهم فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم وسائر علومه، فقد رويت عنه روايات كثيرة في التفسير والقراءات ونزول القرآن وأسباب نزوله، وجمعه وناسخه ومنسوخه، ومكيه ومدنيه وغير ذلك مما يتعلق به من مباحث وعلوم، وقد ذكر الدكتور حارث سليمان الضّاري أمثلة على ذلك[2].

ب - الزهري والفقه: يعد الإمام الزهري من أعلام فقهاء التابعين، وممن أفتوا بعد أصحاب رسول الله ﷺ[3]، روي عن الأوزاعي أنه قال: ما أدركت خلافة هشام أحداً من التابعين أفقه منه[4]، وكان يستمد فقهه من كتاب الله وسنة رسوله ومما عن الصحابة من أقوالهم وأفعالهم، كما كان يجتهد في الأمور التي لا نص فيها من كتاب أو سنة، ولم يؤثر فيها شيء عن الصحابة[5] رضي الله عنهم.

ج - الزهري والتاريخ: يعتبر الإمام الزهري بحق، من أبرز المؤرخين المسلمين الذين أرّخوا لفترتي ما قبل البعثة النبوية وما بعدها، وخاصة ما يتعلق بحياة النبي ﷺ: سيرته ومغازيه التي توسع فيها، وعنى بها عناية كبيرة، جعلت الكثير من الباحثين يقرون له بالفضل والتقدم في هذا الشأن حيث كان وقد وضع هيكل المغازي، واتبع التسلسل الزمني في دراستها وتثبيت أحداثها على أسس منهجية لم يسبق إليها[6].

د - الزهري والأنساب: كان الإمام الزهري واحداً ممن اهتموا بالأنساب واشتهروا بمعرفتها حيث اتجه إلى دراستها في صباه، وتتلمذ فيها على عبد الله بن ثعلبة بن صعير، فقد جاء عنه في حكاية انتقاله منه إلى سعيد بن المسيب أنه قال: نشأت وأنا غلام لا مال لي، ولا أنا في ديوان وكنت أتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة بن صعير، وكان عالماً بذلك[7]، ولم يقتصر في تعلم الأنساب على عبد الله بن ثعلبة بل أخذها عن غيره أيضاً: كسعيد بن المسيب وغيره حتى أصبح من أعلم الناس بها[8].

---

(1) تذكرة الحفاظ (1/ 119).
(2) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 165.
(3) تسمية فقهاء الأمصار، ص: 7 للنسائي.
(4) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 172.
(5) المصدر نفسه، ص: 172.
(6) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 176.
(7) المصدر نفسه، ص: 183.
(8) المصدر نفسه، ص: 183.

هـ - الزهري والأدب: إن للزهري ميولاً أدبية وقد نقل إلينا من أخباره الأدبية وكان يقول الشعر ويتمثل به ومن الشعر الذي كان يتمثل به:

ذهب الشباب فلا يعود جمانا   وكأن ما قد كان لم يك كانا
فطويت كفي يا جمان على العصا   وكفى جمان بطيها حدثان[1]

وكان يدخل الشعر في رواياته التاريخية: في السير والمغازي والأنساب[2]. وكان يشيد بالأدب ويحث عليه كثيراً[3]. قال عنه الرافعي: ويعتقد أنه كان من أوائل من كتبوا عن العرب الأشعار والأخبار وغيرها من الظواهر الأدبية التي كانت متوفرة لديهم حينذاك، بل يظن البعض أنه أول من كتب ذلك عن العرب[4].

و - الزهري واللغة: كان الإمام الزهري بالإضافة إلى معرفته بما تقدم من علوم، عالماً باللغة حاذقاً لها عارفاً بمدلولات ألفاظها ومعانيها، كما كان فصيحاً يضرب به المثل بفصاحته[5]، روي عن أحمد بن صالح أنه قال: كان يقال: فصحاء زمانهم ثلاثة: الزهري، وعمر بن عبد العزيز، وموسى بن طلحة بن عبيد الله[6].

2 - ذكاؤه وحفظه وأقواله:

أ - ذكاؤه: كان حاد الذكاء قوي الذاكرة واسع الفطنة والإدراك روي عنه أنه قال: ما استعدت حديثاً قط، ولا شككت في حديث إلا حديثاً واحداً، فسألت صاحبي، فإذا هو كما حفظت[7].

ب - حفظه: كان الزهري مثلاً في الحفظ وقدوة في الإتقان والضبط، وكان يمتاز بالسرعة الفائقة في الأخذ والفورية النادرة في الاستيعاب والحفظ، وقد لاحظ عبد الملك بن مروان ذلك حينما التقى به أول مرة وقال له: اطلب العلم فإني أرى لك عيناً حافظة، وقلباً ذكياً[8]. وقد روي عن مالك بن أنس أنه قال: حدثني ابن شهاب بحديث فيه طول - وأنا آخذ بلجام دابته - فقلت له: أعد عليّ، فقال: لا، قلت له: أرأيت أنت أما كنت تحب أن يعاد عليك؟

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهري، ص: 184.
(2) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 186.
(3) تاريخ آداب العرب (1/ 286)، والإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 186.
(4) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 186.
(5) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 187.
(6) البداية والنهاية، نقلا عن الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 187.
(7) سير أعلام النبلاء (5/ 94).
(8) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 195.

قال: لا، فقلت له: كنت تكتب ؟ قال: لا[1]. وعن الليث بن سعد: إن ابن شهاب كان يقول: ما استودعت قلبي شيئاً فنسيته[2].

ج - **من أقواله:** عن معمر قال: سمعت الزهري يقول: من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثاً وحديثين[3].

- قال الزهري: إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة له غلبك، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به[4].

- وقال: العلم وادٍ، فإذا هبطت وادياً فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه[5].

- وقال: ما عبد الله بشيء أفضل من العلم[6].

- وقال: لا يوثق للناس عمل عامل لا يعمل ولا يرضى بقول عالم لا يعمل[7].

- وقال: آفة العلم النسيان وترك المذاكرة[8].

- وقال: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب[9].

- وقال: ثلاث إذا كن في القاضي فليس بقاضٍ: إذا كره اللوايم وأحب المحامد، وكره العزل[10].

3 - سخاؤه:

كان الإمام الزهري، كريماً لا يجارى، وجواداً لا يبارى فكان يعطي من لا يخشى الفقر، ويكرم كرم من لا يهاب القلة يجود في اليسر والعسر، ويبذل في القليل والكثير، وكان يبالغ في كرمه، ويتفنن في سخائه، غير عابه بمال، ولا خائف من نفاذ، إذ لم يكن للمال عنده قيمة، كان كالعدو لما له، فلم تك تعدل الدراهم والدنانير عنده جناح بعوضة، أو تكاد[11]. وعن عمرو بن دينار أنه قال: ما رأيت أحداً الدينار والدرهم أهون عليه من ابن شهاب، وما كانت الدنانير والدرهم عنده إلا بمنزلة البعر[12]. قال أبو نعيم: كان ذا عز وسناء وفخر وسخاء[13].

---

(1) المعرفة والتاريخ، نقلاً عن الإمام الزهري، ص: 194.
(2) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 195.
(3) الجامع لأحكام القرآن (1/ 40).
(4) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 198.
(5) المصدر نفسه، ص: 198.
(6) المصدر نفسه، ص: 198.
(7) المصدر نفسه، ص: 199.
(8) السنن للدرامي (1/ 150) الإمام الزهري، ص: 199.
(9) الإمام الزهري، ص: 200.
(10) المصدر نفسه، ص: 200.
(11) المصدر نفسه، ص: 217.
(12) المصدر نفسه، ص: 217.
(13) المصدر نفسه، ص: 217.

4 - ثناء العلماء عليه:

- قال له سعيد بن المسيب: ما مات من ترك مثلك[1].

- قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه: هل تأتون ابن شهاب ؟ قالوا: إنا لنفعل، قال: فاتوه فإنه لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية منه، قال معمر: وأن الحسن ونظراءه لأحياء يومئذٍ[2].

- روي عن جعفر بن ربيعة أنه قال: قلت لعراك بن مالك: من أفقه أهل المدينة ؟ قال: أما أعلمهم بقضايا رسول الله، وقضايا أبي بكر وعمر وعثمان، وأفقههم فقهاً بما مضى عن أحوال الناس: سعيد بن المسيب، وأما أغزرهم حديثاً فعروة، ولا تشأ أن تفجر من عبيد الله بن عبد الله بحراً إلا فجرته، وأعلمهم عندي جميعاً: ابن شهاب، فإنه جمع علمهم جميعاً إلى علمه[3].

- قال مالك بن أنس: بقي ابن شهاب وما له في الناس نظير[4].

- قال الأوزاعي: ما ادهن ابن شهاب لملك قط دخل عليه، ولا أدرك أحد خلافة هشام من التابعين أفقه منه[5].

- قال الشافعي: لولا الزهري ذهبت السنن من المدينة[6].

- وقال أحمد: الزهري أحسن الناس حديثاً وأجود الناس إسناداً[7].

- وقال علي المديني: أعلم الناس بقول الفقهاء السبعة الزهري[8].

5 - الزهري ونشره للسنة:

كان الإمام الزهري قد قام بجهود مشكورة في نشر السنة وإذاعتها بين الناس، وإليك أهم أعماله التي قام بها لنشرها:

- تدريسها لكل من يطلبها.

- مذاكرته لها مع أقرانه.

- نشره لها بطريق الكتابة.

---

(1) الإمام الزهري، ص: 229.
(2) المصدر نفسه، ص: 230.
(3) المصدر نفسه، ص: 234.
(4) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، نقلاً عن الأوزاعي وأثره في السنة، ص: 234.
(5) المعرفة والتاريخ (1/ 639) الأوزاعي وأثره في السنة، ص: 235.
(6) تهذيب الأسماء واللغات (1/ 91).
(7) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 236.
(8) تذكرة الحفاظ (1/ 331).

- إملاؤه وإيّاها على تلاميذه.

- وعظه وتفقيهه للأعراب: فقد كان ينزل بالأعراب يعلمهم[1].

- نهيه عن حبس كتب العلم: فعن يونس بن يزيد قال: سمعت الزهري يقول: إياك وغلول الكتب فقلت: ما هو ؟ قال: حبسها[2].

- حثه على حفظ السنة وتعلمها: روي عن مالك بن أنس أنه قال: حدث الزهري بمائة حديث، ثم التفت إليّ، فقال: كم حفظت يا مالك ؟ قلت: أربعين، فوضع يده على جبهته ثم قال: إنا لله كيف نقص الحفظ[3].

- حثه على التمسك بالسنة والتأدب بآدابها: قال الزهري: الاعتصام بالسنة نجاة[4]، وعن الأوزاعي عن الزهري قال: كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضاً سريعاً، فبعز العلم ثبات الدين والدنيا وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله[5].

- ما أنفقه في نشرها من أموال: بالإضافة إلى ما أنفق الإمام الزهري من وقت وجهد في نشر السنة، فإنه قد أنفق كثيراً مما كان متيسراً لديه من مال، بل لا أغالي إذا قلت: إن ما كان ينفقه على نشرها أكثر بكثير مما كان ينفقه على نفسه وأهله وشؤونه الخاصة، فقد كان يطعم طلاب العلم بكل معاني البذل والسخاء فكان يقدم لهم، أفضل ما لديه من طعام، وكان يتعهد بالإنفاق على ما ليس عنده ما ينفقه على نفسه من طلابه، وكان لا يعلم طالباً إلا إذا أكل عنده شيئاً، كما كان يخرج للأعراب في البوادي فيعلمهم ويطعمهم ويقدم لهم ما يملكه من لذيذ الطعام وشهيه، هذا بالإضافة إلى ما كان ينفقه على رحلاته لطلب العلم وجمعه[6]، وعن موسى ابن عبد العزيز قال: كان ابن شهاب إذا أبى أحد من أصحاب الحديث أن يأكل طعامه حلف ألا يحدثه عشرة أيام[7].

- ما روي عنه في نشره للسنة: روي عن الليث بن سعد أنه قال: سمعته: أي ابن شهاب يبكي على العلم بلسانه ويقول: يذهب العلم وكثير ممن كان يعمل به. فقلت له: ووضعت من علمك عند من ترجو أن يكون خلفاً في الناس بعدك ؟ قال: والله ما نشر أحد العلم نشري، ولا صبر عليه صبري[8].

- ما يراه في كيفية طلبها: يرى الإمام الزهري لكي تكون مهمة تعلم السنة وتعليمها يسيرة ناجحة ما يلي:

---

(1) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 388.
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 94) الإمام الزهري 388.
(3) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 389.
(4) المصدر نفسه، ص: 389.
(5) المصدر نفسه، ص: 389.
(6) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 390.
(7) المصدر نفسه، ص: 390.
(8) المصدر نفسه، ص: 390.

- التدرج في أخذها شيئاً فشيئاً، وحديثاً بعد حديث، وأن لا يهجم عليها الطالب مرة واحدة لئلا تزدحم عليه المعلومات فتثقله وتؤدي به إلى الملل، فيفوته بذلك شيء كثير.

- أن يسعى الطلاب إلى العلماء ولا يسعى العلماء إلى بيوت الطلاب والمتعلمين، لما يترتب على سعي العلماء إليهم من هوان العلم وذلته روي عن مالك أنه قال: سمعت الزهري يقول: هوان بالعلم وذله أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم[1].

- كراهته لطول المجلس، فقد كان يحذر من طول مجلس العلم وغيره، لما قد يؤدي إليه طوله من السأم والملل، أو الخوض فيما لا فائدة فيه. فقد قال: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب[2].

- توجيهه إلى ما قد يساعد استعماله أو تركه على الحفظ والتذكر من المطعومات، فقد قال الزهري: من سرّه أن يحفظ الحديث فليأكل الزبيب[3]. وكان يشرب العسل ويقول: إنه يذكر[4]. وعنه قال: ما أكلت تفاحاً، ولا أكلت خلاً مُنْذ عالجت الحفظ[5].

6 - الزهري والأمويون:

يعد الزهري من العلماء الذين خالطوا خلفاء بني أمية وصاحبوهم وكانت له عندهم منزلة رفيعة، يقول عنه الذهبي: كان ﷺ محتشماً جليلاً بزي الأجناد له صورة كبيرة في دولة بني أمية. ويذكر أنه كان برتبة أمير[6]. وقد تحدثت عن بداية اتصال الزهري بعبد الملك بن مروان وأثر قبيصة بن ذؤيب في تقريبه عند عبد الملك[7]، وحيث إن المدة التي قضاها الزهري عند عبد الملك لم تكن طويلة لذا لم ترد له مشاركات ومواقف ذات أثر في سياسة عبد الملك إلا الشيء اليسير، ومن ذلك طمأنته لعبد الملك في أمر علي بن الحسين، فقد كان عبد الملك قد أمر بعض رجاله بالقدوم إليه بعلي بن الحسين من المدينة، ولكنه أفلت منهم وقدم على عبد الملك، فلما قدم الزهري الشام بعد ذلك قال له عبد الملك: إنه - أي علي - قد جاءني في يوم فقدوه الأعوان، فدخل علي فقال: ما أنا وأنت ؟ فقلت: أقم عندي، فقال: لا أحب، ثم خرج، فوالله لقد امتلأ ثوبي منه خيفة. قال الزهري: فقلت: يا أمير المؤمنين ليس علي بن الحسين حيث تظن، إنه مشغول بنفسه، فقال عبد الملك: حبذا شغل مثله، فنعم ما شغل به. ولا شك أن لمثل هذه النظرة من الزهري تجاه علي بن الحسين وإبدائها لعبد الملك أثر في

(1) الجامع لأخلاق الرواي (5/ 86) الإمام الزهري، ص: 392.
(2) علوم الحديث لابن الصلاح، ص: 252 الإمام الزهري، ص: 392.
(3) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 392.
(4) المصدر نفسه، ص: 392.
(5) المصدر نفسه، ص: 393.
(6) سير أعلام النبلاء (5/ 337، 341).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 203.

طمأنة عبد الملك وصرف نظره عن الاشتغال بأمره، وما قد يترتب على ذلك من اتخاذ بعض القرارات التي تقضي بتتبع علي بن الحسين والتضييق عليه[1]. وقد كان الزهري يستغل الأوقات، والفرص المناسبة لتقديم النصح لعبد الملك، فحين سأله عبد الملك عمن يسود الأقاليم ذكر أكثر الأقاليم ومن يسودها من الموالي بعلمهم وديانتهم، قال عبد الملك: والله ليسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها، فقال الزهري حينئذٍ: يا أمير المؤمنين إنما هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد ومن ضيعه سقط[2]. وفي هذا لفت انتباه عبد الملك إلى أهمية التمسك بالدين حيث فيه الرفعة والسيادة وفي تضييعه الذل والهوان[3]. وبالرغم من أنه ورد ما يُشير إلى قدوم الزهري على الوليد بن عبد الملك[4]، ومصاحبته لسليمان بن عبد الملك[5]، إلا أن مكانته عند هشام كانت أعظم، وأثره في عهده أظهر وأكبر، يرجع في ذلك إلى طول المدة التي قضاها الزهري عند هشام، وتقريب هشام له حيث جعله مؤدباً لأولاده، فعندما حج هشام في بداية خلافته سنة ست ومائة للهجرة حج معه الزهري وجعله مؤدباً لأولاده وبقي الزهري في بلاط هشام حتى توفي أي قرابة عشرين سنة[6]، ومن المؤكد أن يكون للمدة التي قضاها الزهري في بلاط هشام أثر على استقامة هشام وأسرته، فأما هشام فقد اتصف بعدد من الصفات الحميدة كالحلم والأناة وكراهة سفك الدماء ومعاقبة أصحاب الخمور وأهل الغناء[7].

أ - أثر تربية الزهري لأولاد هشام: وأما أولاد هشام فكان أثر تربية الزهري عليهم كبيراً حيث تولى تربيتهم وتعليمهم مُنذ الصغر على الأخلاق الحسنة ومعالي الأمور. ويقول محمد شراب: كان للزهري تأثير في تربية أولاد هشام، فكانوا نعم الشباب خلقاً وسلوكاً... وكانوا قادة فتوح وجنود دعوة فتح الله على أيديهم بقاعاً كثيرة، ودخلت بلاد بغزواتهم في دين الإسلام[8]، وحين نتتبع الغزوات في عهد هشام فسنجد أن لأبنائه النصيب الأوفر في قيادتها، فلا تكاد تمر سنة إلا وأحدهم أو عدد منهم على رأس غازية تغزو. وقد كان لمعاوية بن هشام

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 204.
(2) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 204.
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 204.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 9).
(5) صفة الصفوة (2/ 90).
(6) البداية والنهاية، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 205.
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 205.
(8) عالم الحجاز والشام، شراب، ص: 322.

القدر الأكبر في ذلك[1]، وبالإضافة إلى قيادتهم للغزوات كان هشام يسند إمرة الحج في بعض السنوات إلى أحدهم، ففي سنة تسع عشرة ومائة حج بالناس مسلمة بن هشام، ويزيد بن هشام في سنة ثلاثة وعشرين، وكان الزهري يرافقهم في الحج ويرشدهم ويوجههم إلى ما فيه الخير لأنفسهم وأمتهم، فلما قدم مسلمة المدينة في حجة أشار عليه الزهري أن يضع إلى أهل المدينة خيراً، وحضه على ذلك، فأقام في المدينة نصف شهر، وقسم الخمس على أهل الديوان وفعل أموراً حسنة[2].

ب - موقف الزهري من خلع الوليد بن يزيد بن عبد الملك: من أهم أمور الزهري السياسية في عهد هشام بن عبد الملك موقفه من خلع الوليد بن يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، فقد كان يزيد بن عبد الملك عهد بالخلافة لهشام ومن بعده لولده الوليد وأخذ العهد بذلك على هشام، فلما آلت الخلافة إلى هشام كان الزهري يرى خلع الوليد بن يزيد ويحث هشام على ذلك، وعندما أبدى هشام تخوفه من عدم قبول من في الأجناد لذلك قال الزهري له: فوجهني حتى أسير في الأجناد جنداً جنداً فأخلعه[3]. ولعل مما يؤيد صحة خبر موقف الزهري من خلع الوليد أن الأخبار لم تقف عند حد ذكر الموقف فحسب، بل وردت أخبار توضح ما ترتب على هذا الموقف من رد فعل عند الوليد تجاه الزهري، فأورد ابن عساكر أن الوليد كان يقول للزهري: إن أمكنني الله منك يوماً فستعلم. وكان الزهري يقول: إن الله أعدل من أن يسلط علي سفيهاً[4]، بل لم ينتظر الوليد حتى يلي الخلافة فقد أرسل إلى مال الزهري ببدا وشغب[5] فعقر أشجاره. وصدق الله ظن الزهري حيث توفي ﷺ قبل أن يلي الوليد الخلافة[6]، وإذا قلنا بإمكان اتخاذ الزهري لذلك الموقف من الوليد فيمكننا أن نتلمس السبب الدافع الذي جعله يقف هذا الموقف، وهو أن الزهري لما رأى ميل الوليد للهو والمجون ووقوعه في الفسق وعدم تركه لذلك رغم نهيه عن ذلك فخشي إن آل إليه أمر الخلافة أن يكون ذلك ضعف للأمة وانفتاح باب الفساد في الدين والأخلاق حيث الناس على دين ملوكهم[7]. وعلى الرغم من أن كثيراً مما نسب إلى الوليد بن يزيد مبالغ فيه وبعضه مكذوب إلا أن فسقه وميله للهو والمجون أمر مشهور عنه وثابت في أغلب المصادر التي تحدثت عنه، وهذا ما جعل الزهري

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 206.
(2) الإمام الزهري، شراب، ص: 319، أثر العلماء، ص: 207.
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 341، 342).
(4) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 210.
(5) بدا : واد قرب أيلة من ساحل البحر وقيل بواد القرى، وشغب: ضيعة خلف وادي القرى كانت للزهري وبها قبره.
(6) البداية والنهاية، نقلاً عن أثر العلماء، ص: 211.
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 211.

وغيره يتخوفون من مغبة توليه الخلافة، فروي أن مكحولاً ﷺ كان يقول: اللهم لا تبقني بعد هشام[1]، ولعله قال ذلك بسبب توقعه الفتنة بتولي الوليد، وأما الزهري فرأى أن تسليم الوليد قيادة الأمة أمر فيه خطر وضرر لا بد من دفعه، وهذا منوط بالخليفة الذي تحمل أمانة ولاية أمر الأمة ووجب عليه النصح لها، ومن أعظم النصح أن يستخلف عليها من تبرأ الذمة بتوليته، لذا عندما تخوف هشام من خلع الوليد لأن ذلك نقضاً للعهد الذي أخذه أخوه يزيد عليه، بتوليه ابنه من بعده قال له الزهري: اخلع الوليد، فإن من الوفاء بعهد الله خلعك إياه[2]. ومما يخفف من خطورة خلع الوليد من ولاية العهد وجود الخليفة على رأس الأمر فيستطيع وفي يده القوة للقضاء على ما قد يترتب على ذلك من مخاطر، أما إذا ترك الأمر حتى يستلم الوليد الخلافة وتنتقل إليه القوة فإن من الصعب عزله، بل سيترتب على ذلك من الأضرار أضعاف ما يترتب على خلعه من ولاية العهد، وهذا ما حدث بالفعل، وهو ما دعا الحافظ ابن كثير حين تحدث عن حياة الوليد يقول: فعزم عمه على خلعه من الخلافة - وليته فعل - وقال بلفظ آخر: وليت ذلك تم[3]، ومما سبق يتضح أن حث الزهري هشاماً على خلع الوليد بن يزيد كان حرصاً منه على مصلحة الأمة، وأداءً لنصيحة إمامه الذي وثق به وقربه، ولم يبال بما قد يترتب على موقفه هذا من أذى متوقع من الوليد إذ الخوف من الله مقدم على الخوف من غيره، ومصلحة الأمة مقدمة على مصلحة النفس[4].

ج - انتقاد بعض الناس لقرب الزهري من بني أمية: تعرض الزهري إلى انتقاد بسبب قربه من بني أمية، فممن انتقده العالم الجليل مكحول الدمشقي، فقد قال عنه: أي رجل هو لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك[5]، ومنهم عمرو بن عبيد، فعن عمر بن رديح قال: كنت مع ابن شهاب الزهري نمشي، فرآني عمرو بن عبيد، فلقيني بعد فقال: مالك ولمنديل الأمراء؟ يعني ابن شهاب[6]، ويعد الإمام أبو حازم سليمان بن دينار من أشد من انتقد الزهري حيث كتب إليه رسالة مطولة، ومما جاء فيها: . . واعلم أن أدنى ما ارتكبت وأعظم ما احتقبت[7]، أن آنست الظالم وسهلت له طريق الغي بدنوك حين أدنيت، وإجابتك حين دعيت، فيما أخلقك أن ينوه باسمك إذاً مع الجرمة، وأن تسأل عما أردت بإغضاك عن ظلم الظلمة، إنك أخذت ماليس

---

(1) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 212.
(2) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 212.
(3) البداية والنهاية نقلاً عن اثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 212.
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 213.
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 339) أثر العلماء، ص: 213.
(6) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء، ص: 213.
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 214.

لمن أعطاك، ودنوت ممن لم يرد على أحد حقاً، ولا يرد باطلاً حين أدناك، وأجبت من أراد التدليس بدعائه إياك حين دعاك، جعلوك قطباً تدور رحى باطلهم عليك، وجسراً يعبرون بك إلى بلائهم، وسلماً إلى ضلالتهم، وداعياً إلى غيهم، سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فلم يبلغ أخص وزرائهم، ولا أقوى أعوانهم لهم إلا ما دون ما بلغت من إصلاح فسادهم، واختلاف الخاصة والعامة إليهم، فما أيسر ما عمروا لك، في جنب ما خربوا عليك، وما أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، فانظر لنفسك فإنه لا ينظر لها غيرك[1].

ويجدر أن نقف وقفه قصيرة مع هذه الانتقادات الموجهة للزهري، فأما عمرو بن عبيد فلا يقبل قدحه لأنه صاحب بدعة اتهمه أهل الجرح والتعديل بالكذب وضعفوه لبدعته حيث يعد من أصحاب الاعتزال[2]، وحيث إن المعتزلة لا يرون شرعية خلافة بني أمية، فتبعاً لذلك لن يرضوا عن من يصاحبهم[3]. وأما مكحول وأبو حازم فالأمر بينهم وبين الزهري لا يعدو كونه خلافاً محصوراً في أمر قابل للاجتهاد ولم يتعد الخلاف جوانب أخرى، فقد كان مكحول - رغم خلافه هذا مع الزهري - يجل الزهري ويقدره، فقال أبو بكر لأبي مريم: قلت لمكحول: من أعلم الناس؟ قال: ابن شهاب، قلت: ثم من؟ قال: ابن شهاب؛ قلت: ثم من؟ قال: ابن شهاب[4]. وهذا شأن أهل الفقه في التعامل مع مخالفيهم. وأما ما كان يخشاه أبو حازم وغيره على العلماء من مخالطتهم للخلفاء والأمراء من المجاراة والمداهنة التي تضر العالم في دينه والسلطان في دنياه وأخراه فإنه كان للزهري من قوة الشخصية، والشعور بالمسؤولية وتقديره لفقه المصالح والمفاسد ما جعله بعيداً عن الوقوع في هذا المحذور، فقد كان للزهري مواقف تدل على ذلك، منها ما رواه البخاري أن الزهري قال: قال لي الوليد بن عبد الملك: أبلغك أن علياً كان فيمن قذف عائشة؟ قلت: لا، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك - أبو سلمة بن عبد الرحمٰن، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث - أن عائشة رضي الله عنها - قالت لهما: كان علي مسلماً في شأنها. وفي تعليق ابن حجر على الحديث نقل رواية عن ابن مردويه عن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ سورة النور مستلقياً، فلما بلغ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾

---

(1) صفة الصفوة (2/ 91) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 214.

(2) تهذيب التهذيب (8/ 70).

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 215.

(4) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 215، وأما الخبر الذي قال فيه مكحول: أي رجل هو لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك، فهذا الخبر ضعيف لا يعتمد عليه، في إسناده مجهولون، انظر السنة قبل التدوين، ص: 510.

[النور: 11] جلس ثم قال: يا أبا بكر من تولى كبره منهم؟ أليس علي بن أبي طالب؟ قال: فقلت في نفسي: ماذا أقول؟ لئن قلت: لا، خشيت أن ألقى منه شراً، ولئن قلت نعم، لقد جئت بأمر عظيم، قلت في نفسي: لقد عودني الله على الصدق خيراً، قلت: لا، فضرب بقضيبه على السرير ثم قال: فمن ؟ فمن ؟ حتى ردد ذلك مراراً، قلت: لكن عبد الله بن أبي[1]. وعلق ابن حجر قائلاً: وكأن بعض من لا خير فيه من الناصبة تقرب إلى بني أمية بهذه الكذبة فحرفوا قول عائشة إلى غير وجهه، لعلمهم بانحرافهم عن علي، فظنوا صحتها، حتى بين الزهري للوليد أن الحق خلاف ذلك، فجزاه الله خيراً[2]، كما رويت قصة مشابهة في عهد هشام، تذكر أن سليمان بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك فقال يا سليمان: من الذي تولى كبره منهم؟ قال: عبد الله بن أبي ابن سلول، قال: كذبت هو علي، قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهري، فقال: يا ابن شهاب من الذي تولى كبره؟ فقال: هو عبد الله بن أبي، قال هشام: كذبت، هو علي، فقال: أنا أكذب، لا أبا لك، فوالله لو نادى مناد من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت. حدثني سعيد وعروة وعبيد الله، وعلقمة بن وقاص، عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي فقال له هشام: ارحل، فوالله ما كان ينبغي لنا أن نحمل عن مثلك فقال: ولم؟ أنا اغتصبتك على نفسي أو أنت اغتصبتني على نفسي؟ فخل عني فقال هشام لا، ولكنك استدنت ألفي ألف، فقال الزهري: قد علمت وأبوك قبلك، أني ما أستدنت هذا المال عليك ولا على أبيك، فقال هشام: نحن هيجنا الشيخ فأمر هشام فقضى عنه ألف ألف، فأخبر بذلك، فقال: الحمد لله الذي هذا هو من عنده[3]. والمجال في ذكر مواقف الزهري التي توضح قوته في الحق وعدم مداهنته يطول، وما أحسن ما قاله الذهبي حين قال: بعض من لا يعتد به لم يأخذ عن الزهري، لكونه كان مداخلاً للخلفاء ولئن فعل ذلك فهو الثبت الحجة، وأين مثل الزهري[4] رحمه الله.

7 - مطاعن الشيعة والمستشرقين في الإمام الزهري:

إن نفراً ممن لم يستطيعوا التخلص من الهوى والتجرد من التعصب المذهبي، حملوا علاقة الزهري بالأمويين على محامل سيئة وأولوها تأويلات باطلة وكان في مقدمة هؤلاء: اليعقوبي وابن أبي الحديد والممقاني وغيرهم ممن يرى رأيهم ويذهب مذهبهم وقد تلقف تلك - الأباطيل والأكاذيب والمفتريات بعض المستشرقين أمثال المستشرق اليهودي - جولد تسهير - المعروف بحقده المرير وتحامله الشديد على الإسلام وأهله، وأضاف إليها من

(1) البخاري، كتاب المغازي (5/ 60).
(2) فتح الباري (7/ 436، 437).
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 339).
(4) سير أعلام النبلاء (5/ 339).

الشبهات ما ظن أن ينال بها من شخصية الإمام الزهري التي نالت الاحترام والتبجيل لدى جمهور المسلمين لما لها من مآثر خالده ومواقف محمودة في خدمة الإسلام والسنة النبوية الشريفة[1]، وإليك أهم شبهاته مع مناقشتها وتفنيدها بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة والأدلة الراسخة:

أ - ما أثير حول صلته بالأمويين وذهابه للقصور: كان من الشبه التي أثارها جولد تسهير حول الإمام الزهري قوله: إنه لم يتجنب الذهاب إلى القصر ويتحرك في حاشية[2] السلطان ويعني جولد تسهير بالقصر - دار الخلافة - وهي كما هي معلوم بيت المسلمين العام، ومقر قيادتهم العليا المسؤولة عن إدارة شؤونهم الدينية والدنيوية وفق التعاليم الإسلامية المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ومن هنا كان لكل مسلم الحق كل الحق في الذهاب إلى تلك الدار ودخولها متى شاء لرفع حاجة أو دفع ظلم، أو إسداء نصح، أو تبليغ علم، أو توضيح مسألة قد تكون خافية على أولي الأمر ليصححوا بها ما قد يقع منهم من خطأ أو يظهروا بها ما يترتب عليها من مصلحة للأمة، وكان السلف من الصحابة والتابعين لا يترددون في الذهاب إلى دار الخلافة لأمر من تلك الأمور، وقد يرون ذلك واجباً أحياناً إذا كان سبباً لتصحيح خطأ أو رفع أو تحقيق حق وإزالة باطل، ولم يكن الإمام الزهري إلا واحداً ممن قاموا بواجبهم في هذا الميدان حينما قدر الله تعالى له أن يتصل بني أمية وقد رأينا ذلك عند اتصاله بعبد الملك وتصحيحه لخطأ وقع فيه الوليد، كما رأيناه يقدم النصح إلى هشام بن عبد الملك في مسألة من أهم المسائل العامة وهي: إشارته عليه بعزل ولي عهده الوليد بن يزيد لما عرف عنه من اللهو والمجون وهكذا كانت صلته بالأمويين من بدايتها إلى نهايتها، لكن جولد تسهير أبى إلا أن يعرض بها ويثير حولها الشبهات من غير أن يقدم لنا دليلاً واحداً يمكن أن يستند إليه في شبهته بل كل الشواهد والأدلة التي مرت معنا في سيرته تؤكد أن صلته بهم كانت صلة شريفة الغاية نزيهة المقصد لم يترتب عليها ما يخل بأمانته وعدالته وتوثيقه، وأنها كانت حركة مباركة ضمن حركة أفاضل عصره من أهل النصح والتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3].

ب - قبوله منصب القضاء: ومن شبه جولد تسهير التي أثارها حول الإمام الزهري هي قوله: وفي عهد يزيد الثاني قبل منصب القضاء، إلى أن قال: وإنهم كانوا يعدون من قِبَل منصب القضاء غير ثقة[4]، ويرد عليه بأن القضاء منصب رفيع وإن المسلمين أجمعوا على

(1) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 442.
(2) السنة ومكانتها في التشريع، ص: 222.
(3) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 442، 443، 445.
(4) المصدر نفسه، ص: 446.

مشروعية نصب القضاء والحكم بين الناس، بل قد عدوه من فروض الكفايات لأن الناس لا يستقيم أمرهم بدونه[1]، وكان أول من تولاه في الإسلام هو النبي ﷺ بتكليف الله تعالى له بذلك في أكثر من آية قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]. كما تولى القضاء من بعده الخلفاء الراشدون بأنفسهم، وولاه عمر بن الخطاب غيره فولى أبا الدرداء قضاء المدينة وولي شُريحاً قضاء البصرة، وأبا موسى الأشعري قضاء الكوفة كما تولاه بعد الصحابة كثير من أعلام التابعين وأعيانهم كأبي إدريس الخولاني، والحسن البصري، وعبد الملك بن يعلى الليثي ومسروق وعمر بن عبد العزيز، وأبي بكر بن حزم، ويحيى بن سعيد الأنصاري وسليمان ابن حبيب المحاربي والقاسم بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود وغيرهم ممن اتفق الأئمة على تعديلهم وتوثيقهم مع توليهم القضاء وقيامهم به، وبهذا يتضح لنا: أن القضاء لا يزيل الثقة عن صاحبها ولا يسقط العدالة عمن عرف بها، بل روي الثناء عليه واعتبار القيام به من موجبات الأجر[2]. ولو أن جولد تسهير أنفق لمعرفة القضاء وأهميته في الإسلام شيئاً من الوقت والجهد اللذين أنفقها في صياغة هذه الشبهة وغيرها من الشبه الباطلة التي استهدف بها الإسلام والسنة النبوية ورجالها، لعلم أن القضاء منصب مشروع وعالٍ في الإسلام، وإنه مما يوجب الأجر ويضاعف الثواب ويقوي الثقة بمن كان يتصف بها من القضاة، وإنه كان لمن تولاه في ذلك الوقت الذي كان يموج بالعلماء الأعلام سمة تشريف ووسام تقدير وتكريم، ولأدرك أن كراهة من كرهه من السلف من التابعين ومن بعدهم كأبي قلابة، وأبي حنيفة وسفيان الثوري وغيرهم، تعود إلى خوفهم مما جاء فيه من تحذير وتخويف عن رسول الله ﷺ وهو تحذير موجه إلى من لم يكن أهلاً لتوليه، أو لم يؤدِّ الحق فيه لا إلى توليه مطلقاً إذ هو مشروع كما رأينا، بل قد يجب القيام به أحياناً على من تعين عليه، لما فيه من الأثر المعروف والنهي عن المنكر، وأداء الحقوق إلى مستحقيها والإصلاح بين الناس[3]. قال ابن فرحون: واعلم أن كل ما جاء من الأحاديث التي فيها تخويف ووعيد فإنما هي من حق قضاة الجور العلماء أو الجهال الذين يدخلون أنفسهم في هذا المنصب بغير علم، ففي هذين الصنفين جاء الوعيد[4].

ج - **قبوله جوائز الخلفاء**: ومن الشبه التي تثار أحيانا هي: أن الإمام الزهري كان يقبل جوائز الخلفاء، أو لماذا كان يقبلها ؟ والجواب على هذه الشبهة، أو وهذا التساؤل نقول: لقد كان الإمام الزهري طالباً وانتهى عالماً، وفي كلا الحالتين كان متفرغاً في الأولى لطلب العلم وجمعه وفي الثانية لتعليمه ونشره، ولم يكن له من المال الموروث أو المكسوب ما يسد

---

(1) المغني لابن قدامة (9/ 34).
(2) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 447.
(3) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 446 إلى 448.
(4) تبصرة الحكام (1/ 10) الإمام الزهري، ص: 448.

حاجته الضرورية، أو يضمن له الاستمرار في الطلب فكان لابد له والحالة هذه أن يقبل مساعدة الدولة ويأخذ منها ما يسد حاجاته ويعينه على الطلب، وكان أول من قدم له مثل تلك المساعدة: عبد الملك بن مروان حين قرر العودة إلى المدينة بناء على نصيحته له بذلك، لمواصلة طلب العلم وجمع ما كان منه عند الأنصار، وبعد أن جمع ما جمع من علمهم عاد إلى دمشق، وأخذ يتردد إليها بين الحين والآخر، إلى أن أقام فيها، وتفرغ كلياً لتدريس العلم ونشره فأقبل إليه طلاب العلم من أهل الشام وغيرها ورحل إليه وهو فيها كثير من أبناء الأمصار الإسلامية الأخرى كما مر، فأصبح بذلك يمثل مركزاً من أهم المراكز العلمية في الشام إن لم يكن أهمها على الإطلاق، فكان لا بد من الدولة أن تمد له يد العون والمساعدة وتقدم له ما يمكنه من الاستمرار في القيام بهذا العمل الجليل، والإنفاق على ضيوفه وتلاميذه وقاصديه الذين كان ينفق عليهم بمنتهى البذل والسخاء، حتى كان يضيق ما في يده أحيانا من الإنفاق عليهم فيضطر إلى الاستدانة ليصرف عليهم ويقوم بسد حاجاتهم ما أمكن لذلك، فإن أغلب ما أهدي إليه من الخلفاء كان موجهاً لسد الديون التي لحقته بسبب إنفاقه على تلاميذه وضيفانه ولم يكن الزهري أول من قبل الجوائز والمعطيات ولا آخر من قبلها بل قبلها غيره من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[1]، فقبلها: زيد بن ثابت من معاوية بن أبي سفيان[2]، كما قبلها عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر والحسين وغيرهم ممن كانوا يفدون عليه بدمشق، فيكرمهم ويقضي حوائجهم[3]، وكان للحسن بن علي بن أبي طالب على معاوية جائزة في كل عام وكان يفد إليه فربما أجازه بأربعمائة ألف درهم وراتبه كل سنة مائة ألف[4]، كما قبلها الكثير من التابعين أيضاً، كالحسن البصري والشعبي وإبراهيم بن يزيد النخعي، وأبان بن عثمان وأبي سلمة بن عبد الرحمٰن وأبي الزناد[5]، وعبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب الذي وفد على سليمان فأجازه وقضى حوائجه وحوائج من معه[6]، وقبلها من بعدهم: مالك بن أنس وسفيان الثوري وأبو يوسف والشافعي وغيرهم[7]. ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن أخذ جوائز السلطان مشروع إذا لم يترتب على أخذه لها ما يخل بدينه ومروءته[8].

د - قصة الصخرة وحديث «لا تشد الرحال»: يزعم هذا المستشرق أن عبد الملك بنى قبة

(1) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 451، 452.

(2) نفح الطيب (3/ 235).

(3) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 453.

(4) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهري، ص: 453.

(5) نفح الطيب (3/ 336) الإمام الزهري، ص: 453.

(6) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 453.

(7) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 453.

(8) المصدر نفسه، ص: 456.

الصخرة ليحول بين أهل الشام والعراق وبين الحج إلى الكعبة وأنه أراد أن يلبس عمله هذا ثوباً دينياً، فوضع له صديقه الزهري حديث «لا تشد الرحال..» إلخ. فهذا لعمري عجب من أعاجيب الافتراء والتحريف والتلاعب بحقائق التاريخ[1] وقد فنّد هذا الزيف الدكتور مصطفى السباعي في كتابه السنة ومكانتها في التشريع فقال:

- إن المؤرخين الثقات لم يختلفوا في أن الذي بنى القبة (قبة الصخرة) هو الوليد بن عبد الملك، هكذا ذكر ابن عساكر والطبري وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير وغيرهم، ولم نجدهم ذكروا رواية واحدة نسبة بنائها إلى عبد الملك ولا شك أن بناءها - كما يزعم جولد تسهير - لتكون بمثابة الكعبة يحج الناس إليها بدلاً من الكعبة، حادث من أكبر الحوادث وأهمها في تاريخ الإسلام والمسلمين، فلا يعقل أن يمر عليه هؤلاء المؤرخون الكرام، وقد جرت عاداتهم أن يدونوا ما هو أقل من ذلك خطراً أو أهمية، كتدوينهم وفاة العلماء وتولي القضاء وغير ذلك، فلو كان عبد الملك هو الذي بناها لذكروها، ولكنا نراهم ذكروا بناءها في تاريخ الوليد، وهؤلاء مؤرخون أثبات في كتابة التاريخ نعم جاء في كتاب الحيوان للدميري نقلاً عن ابن خلكان: أن عبد الملك هو الذي بنى القبة وعبارته هكذا: بناها عبد الملك وكان الناس يقفون عندها يوم عرفة[2]. وقد تحدثت عن ما قاله اليعقوبي عن هذا الموضوع في حديثي عن عبد الملك بن مروان.

- إن نص الحادثة كما ساقها جولد تسهير بينت البطلان لأن بناء شيء ليحج الناس إليه كفر صريح، فكيف يقدم عبد الملك عليه على أن خصومه طعنوا فيه بأشياء كثيرة ولم نجدهم اتهموه بالكفر، ولا شنعوا عليه ببناء القبة، ولو كان الأمر ثابتاً لجعلوها في أول ما يشهرون به.

- إن الزهري ولد - كما قدمنا - سنة إحدى وخمسين أو ثمان ومقتل عبد الله بن الزبير كان سنة ثلاث وسبعين، فيكون عمر الزهري حينذاك على الرواية الأولى اثنين وعشرين عاماً، وعلى الثانية خمسة عشر، فهل من المعقول أن يكون الزهري في تلك السن ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتلقى منه بالقبول حديثاً موضوعاً فيه للحج إلى القبة بدلاً عن الكعبة ؟

- إن نصوص التاريخ قاطعة بأن الزهري في عهد ابن الزبير لم يكن يعرف عبد الملك ولا رآه بعد، فالذهبي يذكر لنا أن الزهري وفد لأول مرة على عبد الملك في حدود ثمانين وابن عساكر روى أن ذلك كان سنة اثنتين وثمانين، فمعرفة الزهري لعبد الملك لأول مرة إنما كانت بعد قتل ابن الزبير، ثم نصحه أن يطلب العلم من دور الأنصار، انظر كيف يكذب هذا المستشرق ويزعم بأن الزهري أجاب رغبة صديقه عبد الملك فوضع له حديث بيت المقدس ليحج الناس إلى القبة في عهد ابن الزبير؟

---

(1) السنة ومكانتها في التشريع، ص: 217.

(2) المصدر نفسه، ص: 217.

- إن حديث «**لا تشد الرحال...**» إلخ. روته كتب السنة كلها، وهو مروي من طرق مختلفة غير طريق الزهري، فقد أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري من غير طريق الزهري، ورواه مسلم من ثلاث طرق إحداها من طريق الزهري وثانيتها من طريق جرير عن ابن عمير عن قزعة عن أبي سعيد، وثالثتهما من طريق ابن وهب عن عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبي أنس عن سلمان الأغر عن أبي هريرة، فالزهري لم ينفرد برواية هذا الحديث كما يزعم جولد تسهير، بل شاركه فيه غيره كما سمعت، وقد سئل ابن تيمية عن حكم زيارة بيت المقدس - وهو ممن ينكر السفر لأجل زيارة القبور؟ فقال: ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: أنه قال: «**لا تشد الرحال...**» إلخ في الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وقد روي من طرق أخرى، وهو حديث مستفيض متلقي بالقبول، أجمع أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق، واتفق علماء المسلمين على استحباب السفر إلى بيت المقدس للعبادة المشروعة فيه، وكان ابن عمر يأتي إليه فيصلى[1].

- إن هذا الحديث رواه الزهري عن شيخه سعيد بن المسيب، ومن المعلوم أن سعيداً ما كان ليسكت عن الزهري لو أنه وضع هذا الحديث على لسانه إرضاءً لأهواء الأمويين، وهو الذي أوذي من قبلهم وضرب وقد توفي سعيد سنة (93 هـ) أي بعد مقتل ابن الزبير، بعشرين سنة، فكيف سكت سعيد عن هذا كل هذه المدة، وقد كان جبلاً شامخاً من جبال القوة في الحق لا يبالي في الله لومة لائم[2].

- إن جولد تسهير المستشرق اليهودي استفاد من بعض الروايات الشيعية التي حاولت أن تشوه تاريخ الزهري بالأباطيل والأكاذيب، ولم يكن بحث جولد تسهير إلا حلقة مغرضة في سلسلة الأبحاث التي ترمي إلى هدم الجانب التشريعي من الإسلام فكما افترى أعداء الإسلام على الصحابي الجليل أبي هريرة افتروا على التابعي المشهور الإمام الزهري، قاصدين من وراء ذلك تشكيك المسلمين في مروياتهم وهما اللذان رويا كثير من الحديث النبوي، ونقلا إلى التابعين وأتباعهم جانباً عظيماً من السنة، فإذا ما شك المسلمون في أوثق الرواة وأحفظهم شكوا في جميعهم واستهانوا بمروياتهم، وحينئذٍ يتحقق لأعداء الإسلام بعض هدفهم وهو تخلي المسلمين وإعراضهم عن الحديث الشريف، الذي كان تطبيقاً عملياً للشريعة الإسلامية، وشرحاً وافياً وبياناً واضحاً للقرآن الكريم، فإذا أعرض المسلمون - لا سمح الله - عن السنة اتسعت الهوة بينهم وبين الكتاب الكريم وسهل على المبشرين زعزعة العقيدة في نفوس الناشئة، وبث الإلحاد الذي يجر وراءه العقائد الدخيلة، والنظريات التي تخدم أعداءنا، وفي هذه الطامة الكبرى والخسارة العظمى للمسلمين في دينهم ودنياهم ولولا خطورة هذه

---

(1) السنة ومكانتها في التشريع، ص: 218.
(2) المصدر نفسه، ص: 219.

الشبهات وبعدها عن الحق ما تعرضنا لها، فكما رددنا ما أثير حول أبي هريرة من شبهات مصطنعة وعرفنا وجه الصواب، رددنا ما أثير حول الزهري من شبهات أيضاً، ونحن في هذا لا نتعجب لأحد وإنما نتوخى الحق وسواء السبيل، خدمة للسنة المطهرة[1]. ومن أراد التوسع في هذا الموضوع فليراجع: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي، والسنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب، والإمام الزهري وأثره في السنة للدكتور حارث سليمان الضّاري.

8 - وفاة الزهري 124 هـ:

توفي الإمام الزهري بعد حياة علمية رفيعة، عن نيف وسبعين سنة ليلة الثلاثاء، لتسع عشرة أو لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، سنة أربع وعشرين ومائة على أرجح الأقوال، في قرية (أدامي)[2] وهي خلف (شغب) (وبَدَا)[3]، أول عمل فلسطين وآخر عمل الحجاز وبها ضيعة الزهري، وقد أوصى أن يدفن على قارعة الطريق، ليمر مار فيدعو[4] له. وقد مر الأوزاعي بقبره يوماً، فوقف عليه وقال: يا قبر كم فيك من علم ومن حكم، يا قبر كم فيك من علم ومن كرم، وكم جمعت روايات وأحكاماً[5]. تغمده الله برحمته وجزاه عن الإسلام والسنة النبوية خير ما يجزي به العلماء العاملين[6].

المبحث الثالث

النظام الإداري والمالي في عهد هشام

أولاً: النظام الإداري:

كان النظام الإداري للولايات امتداداً للعهود التي سبقته، وكانت الولايات أيام هشام بن عبد الملك بصورة عامة هادئة سوى بعض حركات الخوارج التي قامت في العراق وثورة زيد ابن علي بالكوفة، وثورة الخوارج في الشمال الإفريقي، والدعوة العباسية التي كانت تنتشر بصمت في خراسان، فإذا عرف بعض أتباعها قتلوا، كذلك قامت حركة يحيى بن زيد بعد هشام.

---

(1) السنة قبل التدوين، ص: 501، 502.

(2) آدامي : أي اسم القرية أو الضيعة في تلك المنطقة.

(3) بدا : واد قريب (أيلة) من ساحل البحر وقيل بوادي القرى.

(4) السنة قبل التدوين، ص: 500.

(5) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 263.

(6) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 263.

أما في الأندلس وفرنسا فقد كانت فيها فتوحات إذ لم تكن وصلت إليها الخلافات، وكان المجاهدون فيها لا يزالون بعيدين عن التناحر، ولكنه لم يلبث أن دخل إليهم، ثم انسحب المسلمون في وسط فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء، واستقروا في جنوبي فرنسا[1].

1 - الشام:

لم يحدث في الشام ما يلفت الانتباه وكانت عاصمة الدولة الأموية دمشق وكانت دواوين الدولة الرئيسية بيد الخليفة، وكان معه مجموعة من الكتّاب، فكان بعضهم يختص بديوان الخراج أو الرسائل، أو الصدقة وما إلى ذلك، وكان سعيد بن عمرو الأبرش الكلبي كاتب هشام ومن كبار أعوانه وله تأثير على هشام، فيحدثنا الطبري، أن هشاماً رفض أن يوافق على شروط الصلح بين الصّغد والمسلمين التي عقدها نصر بن سيار، والي خراسان، فلما كلمه الأبرش بذلك وافق على تلك الشروط[2]، وكان سالم بن عبد الرحمٰن مولى سعيد بن عبد الملك، كاتبه على الرسائل ويعاونه بعمله المذكور بشر بن أبي دلجة، وقد استعمل هشام أهل الذمة أحياناً في تسيير شؤون الدواوين، وكان جنادة بن أبي خالد يكتب لهشام على الطراز واسمه موجود على الثياب الهاشمية[3]، وكان الربيع بن سابور على الخاتم فولاه هشام الحرس[4] وأما بيوت الأموال فكان عليها عبد الله بن عمرو بن الحارث، وعلى الخاتم الصغير والخاصة اصطخر أبو الزبير مولاه[5]، ولهشام حرس خاص يشرف أحد مواليه عليه واسمه نصير فعزله بعد ثلاث سنين من خلافته، ثم ولى الحرس للربيع بن سابور مولى بني الحريش[6]، وأما الشرط فولاها هشام لكعب بن حامد العبسي ثلاث عشرة سنة، ثم ولاه أرمينية وولاها بعده ليزيد بن يعلي بن ضخم العبسي[7]، وكان هشام يحب الأبهة فكان يحرسه ثمان مائة فارس أربع مائة من الشرط وأربع مائة من الحرس، وكان لا يسمح لأحد بأن يسير في موكب إلا أخاه مسلمة[8]، وكان هشام يرسل الجيوش في الشام للفتوحات.

2 - العراق:

يشمل العراق إدارياً ولايتي البصرة والكوفة ويعين لهما أحيانا أمير واحد وكانت واسط بعد تمصيرها مقراً له، وكان يلي العراق وما يليه من عمل الشرق عمر بن هبيرة الفزاري قبيل مجيء هشام للحكم، فلما جاء هشام عزل ابن هبيرة عن ولاياته جميعها وعين بدله خالد بن عبد الله

(1) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (4/ 267).
(2) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 51 نقلاً عن تاريخ الطبري.
(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 52.
(4) المصدر نفسه، ص: 53.
(5) المصدر نفسه، ص: 53.
(6) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 53.
(7) المصدر نفسه، ص: 54.
(8) المصدر نفسه، ص: 68.

القسري على العراقين، وولى قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك ثم لسليمان[1]، وكان جواداً ممَّدحاً معظماً عالي الرتبة من نبلاء الرجال[2]، ومن أقوال خالد في خطبة: إن أكرم الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم الناس عفواً من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل عن قطيعة[3].

وقال عنه الذهبي: وكان خالد على هناته يرجع إلى إسلام[4]. وقد عزله هشام سنة عشرين ومئة بيوسف بن عمر الثقفي[5]، وقد كتب هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر: لئن شاكت خالداً شوكة لأقتلنك فأتى خالد الشام، فلم يزل بها يغزو الصوائف حتى مات هشام[6] وقيل بل عذّبه يوسف بن عمر يوماً واحداً، وسجنه بضعة عشر شهراً ثم أطلق، فقدم الشام سنة اثنتين وعشرين ومئة[7]. ومن حسناته قتله الجعد بن درهم ومغيرة الكذاب[8]. ثم تولى بعده يوسف بن عمر الثقفي العراق وخراسان وكان شهما كافياً سائساً مهيباً جباراً عسوفاً جواداً معطاءً وأقرّه الوليد بن يزيد على العراق[9] ومن أشهر قضاة البصرة الذين ماتوا عام 122هـ أبو واثلة إياس بن معاوية بن قُرَّة المزني الليثي أحد من يضرب بذكائه وفطنته المثل روى عن أنس وجماعة وكان صاحب فراسة.

قال الحريري: فإذا ألمعيتي ألمعيَّة ابن عباس، وفراستي فراسة إياس، وقال أبو تمَّام:

إقدام عمرو في شجاعة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قيل لأبيه معاوية: كيف ابنك لك؟ قال: كفاني أمر دنياي وفرَّغني لآخرتي، وعنه قال: رأيت في المنام كأني وأبي على فرسين معاً، فلم أسبقه ولم يسبقني وعاش أبي ستاً وتسعين سنة وها أنا فيها، فلما كان آخر لياليه قال: الليلة استكملت عمري، ونام فأصبح ميتاً رحمه الله وقد توفي سنة اثنتين وعشرين ومائة[10].

3 - ولاة خراسان وبلاد ما وراء النهر:

عين خالد بن عبد الله القسري على خراسان أخاه أسد بن عبد الله عام 106هـ[11] ثم تدخل هشام وعين أشرس بن عبد الله السلمي[12] ثم عزله هشام وعين بدله الجنيد بن عبد

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 426).
(2) المصدر نفسه (5/ 426).
(3) المصدر نفسه (5/ 426).
(4) المصدر نفسه (5/ 427).
(5) المصدر نفسه (5/ 426).
(6) المصدر نفسه (5/ 431).
(7) المصدر نفسه (5/ 432).
(8) المصدر نفسه (5/ 442).
(9) المصدر نفسه (5/ 442).
(10) شذرات الذهب (2/ 94، 95).
(11) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 112.
(12) المصدر نفسه، ص: 114.

الرحمٰن[1] وتوفي الجنيد بمرو ودفن بها قيل أواخر عام 115 هـ وقيل 116هـ[2]، وقال أحد الشعراء يرثيه:

تـوفـي الـجـود والـجـنـيـد جـمـيـعـاً فـعـلـى الـجـود والـجـنـيـد الـسـلام
أصـبـحـا ثـاويـيـن فـي أرض مـرو ما تـغـنـت عـلـى الـغـصـون الـحـمـام
كـنـتـمـا نـزهـة الـكـرام فـلـمـا مـت مـات الـنـدى ومـات الـكـرام[3]

ثم عين هشام عاصماً بن عبد الله الهلالي على خراسان، فقد كانت خراسان ثائرة واضطربت بها الأحوال، واشتد الصراع بين القيسية واليمانية ثم عين هشام أسد بن عبد الله القسري واستمر على ولاية خراسان إلى أن توفي في ربيع الأول عام 120هـ، ثم عين هشام نصر ابن سيار في رجب عام 120هـ[4]، وكان هشام موفقاً في اختياره لنصر فقد كان أرجل القوم وأحزمهم وأعلمهم بالسياسية عفيفاً مجرباً عاقلاً[5]، أنجز خلال ولايته أعمالاً جديرة بالتقدير في المجالين المالي والحربي وقد استمرت ولاية نصر على خراسان إلى نهاية الدولة الأموية[6].

4 - ولاة أرمينية وأذربيجان:

ولى هشام على أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي ثم عزله عام 107هـ وولاها أخاه مسلمة بن عبد الملك واستمر إلى عام 111هـ، ثم عزل هشام أخاه مسلمة وولى الجراح ابن عبد الله الحكمي الولاية الثانية إلى أن استشهد عام 112هـ، ثم عين أخاه مسلمة وأرسل معه الجيوش لقتال الخزر وظل في ولايته إلى نهاية عام 113هـ ، حيث عزله هشام عن أرمينية وأذربيجان والجزيرة وولاها مروان بن محمد لمستهل المحرم سنة أربع عشرة ومائة[7]، واستمر مروان على ولايته إلى ما بعد وفاة هشام وكان جل نشاطه منصرفاً إلى حروب الأعداء مدة ولايته[8].

5 - الجزيرة والموصل:

يبدو أن منطقة الموصل أصبحت ولاية منفصلة عن الجزيرة في عهد هشام، ويعدد الأزدي أعمالها، واستناداً إلى تقريره فهي تشمل جزءاً من شمال وشمال شرق الموصل حالياً إلى تكريت جنوباً[9]، ويبدو أن الموصل كان يحكمها والٍ مستقل زمن هشام يخضع للخليفة

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 114.
(2) المصدر نفسه، ص: 115.
(3) المصدر نفسه، ص: 117، تاريخ الطبري (7/ 618).
(4) المصدر نفسه، ص: 120.
(5) المصدر نفسه، ص: 121.
(6) المصدر نفسه، ص: 121.
(7) المصدر نفسه، ص: 122.
(8) المصدر نفسه، ص: 123.
(9) المصدر نفسه، ص: 123.

مباشرة وما يقع شمال الموصل إلى حدود أذربيجان أصبح تابعاً لوالي أذربيجان وأرمينية، لذا فإن أغلب المصادر لا تُشير إلى ولاة للجزيرة خلال عهد هشام، وعلى ما يظهر فإن الجزيرة وأذربيجان وأرمينية كانت تخضع لوالٍ واحد في عهد هشام[1]، وأما الموصل فكان يليها لهشام عام 105 هـ مروان بن محمد، ثم ولاها الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبي العاص عام 108هـ على الأرجح، بعد أن عزله عن ولاية مصر[2] واستمر على ولاية الموصل حتى وفاته عام 113هـ[3]، ثم عين هشام الوليد بن تليد العبسي، ثم عين هشام عام 122هـ أبا قحافة المزني أحد أقارب الوليد على الموصل وبقي هذا على ولايته إلى موت هشام[4].

6 - ولاية الحجاز:

كانت إمارات الحجاز كلها مكة المكرمة والمدينة المنورة، والطائف بيد عبد الواحد بن عبد الله النضري، ثم إن هشام بن عبد الملك قد عزله عن الحجاز وأعطاها لخاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي عام 106 هـ، وفي عام 114هـ عاد فعزل خاله إبراهيم بن هشام عن الحجاز وأمر خاله محمد بن هشام بن إسماعيل على مكة المكرمة، بينما أعطى أمر المدينة إلى خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، ثم عاد فعزله خالد عن المدينة وضمها إلى محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي عام 118هـ.

7 - مصر:

تولى أمر مصر في بداية عهد هشام بن عبد الملك أخوه محمد بن عبد الملك بن مروان، ولكنه لم يلبث أن استُبدل بالحر بن يوسف الأموي الذي بقي في منصبه عامين (106هـ - 108هـ) ثم خلفه حفص بن الوليد الحضرمي، إلا أن عبد الملك بن رفاعة قد عاد مرة ثانية إلى إمرة مصر وقد تولاها قبل ذلك، ولكنه توفي بعد خمسة عشر يوماً من تسلمه الأمر وذلك في مطلع عام 109هـ، فاستخلف أخاه مكانه وهو الوليد بن رفاعة فأقره هشام على ذلك وبقي الوليد في عمله حتى توفي عام 117هـ ، فاستعمل هشام بعده عبد الرحمٰن بن خالد إلا أنه كان ليناً فشكاه أهل مصر إلى الخليفة فعزله، وأعاد إلى الإمرة حنظلة بن صفوان الكلبي للمرة الثانية وذلك عام 119هـ ، وبقي فيها حتى أرسله هشام إلى إفريقية عام 124هـ بعد مقتل كلثوم ابن عياض القشيري، وولي مكانه حفص بن الوليد الحضرمي واستمر حتى بعد هشام بن عبد الملك أياماً[5].

---

(1) تاريخ الموصل، ص: 32، 33.
(2) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 124.
(3) النجوم الزاهرة (1/ 259) عصر هشام، ص: 125.
(4) تاريخ الموصل، ص: 52، 53.
(5) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (4/ 270).

8 - إفريقية:

كان والي إفريقية بشر بن صفوان عندما بدأت خلافة هشام بن عبد الملك، وعندما توفي استخلف قبل موته نفاش بن قرط الكلبي الذي أسرف في أذلا القيسية ثم إن هشاماً عيَّن على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمٰن القيسي فبطش بعمال سابقيه من اليمانية وبآل موسى بن نصير، وفي عام 116هـ أرسل والي مصر عبيد الله بن الحباب، فولى على طنجة عمر بن عبيد الله المرادي فأساء معاملة البربر، الأمر الذي دعاهم إلى الثورة وسيأتي الحديث عنها بإذن الله في مبحث الثورات في عهد هشام، ودخلت إفريقية في اضطرابات وصراع وقتال إلى أن حسم إلى صالح الدولة الأموية[1].

9 - الأندلس:

بعد استشهاد عنبسة بن سحيم الكلبي في غزوة داخل فرنسا عام 107هـ حدثت خلافات استمرت أربع سنوات، ثم تولى أمر الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري، ولكن عبيد الله بن الحبحاب الذي وصل إلى إفريقية قد عزل عبد الملك بأمر الخليفة وأرسل إلى الأندلس عقبة ابن الحجاج السلولي العبسي فسار إليها عقبة وملكها ودخل فرنسا، واستقر في سبتمانيا، كما فتح بعض أراضي جيليقية في شمال الأندلس، وقد أسلم على يديه أكثر من ألف رجل، ثم سار أهل الأندلس إليه عام 123هـ فخلعوه وتوفي بعد قليل بقرطبة، ونادى أهل الأندلس بعبد الملك بن قطن الفهري أميراً عليهم وتحرك البربر في الأندلس، فأذن عبد الملك بن قطن الفهري لبلج بن بشر بدخول الأندلس، وكان في طنجة، فدخل بن بشر وتمكن من الانتصار على البربر في معركة شذونة، وبعدها طلب أمير الأندلس من بلج الخروج من الأندلس فرفض وحدث خلاف بين الطرفين قتل نتيجته عبد الملك بن قطن، وغدا بلج بن بشر أمير الأندلس ولم يلبث بلج بن بشر القشيري أن توفي بعد عام تقريباً متأثراً بجراحه التي أصيب بها في معاركه التي خاضها، وخلفه ثعلبة بن سلامة الذي جاء وبلج مع كلثوم بن عياض إلى إفريقية ولكن حنظلة بن صفوان أمير إفريقية قد بعث إلى الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي حسب أوامر الخليفة هشام بن عبد الملك[2].

10 - اليمن:

ولّاها هشام ليوسف بن عمر الثقفي وقد استمر على ولايتها إلى أن ولي العراق عام 120هـ على ما أسلفنا، فاستخلف عليها ابنه الصلت، ثم أخاه القاسم[3].

---

(1) التاريخ الإسلامي (4/ 271).

(2) المصدر نفسه (4/ 272).

(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 147.

11 - اليمامة:

فتتبع الخلافة مباشرة وقد ولاها هشام للمهاجر بن عبد الله، من بني بكر بن كلاب، فلما مات المهاجر وليها ابنه[1].

● العلاقة بين هشام وولاته:

كان الوالي مسئولاً عن ولايته، يختار موظفيها، كصاحب الشرطة والقاضي وولاة المدن التابعة له، ولم يتدخل هشام في شؤون الولاة الذين يعينهم، إلا في حالات قليلة، فمثلاً عندما ولى خالد القسري على شرطته شخصاً صغير السن، كتب هشام إلى خالد: إنك وليت شرطتك رجلاً حدثاً، فلو وليتها ذا حيلة ونقلت صاحبك إلى ما هو أجدى عليه.. فولاه فارس.. وولى شرطه للعريان بن الهيثم[2]. وقد أساء كتّاب قاضي مصر يحيى بن ميمون السيرة فقد كانوا: .. لا يكتبون قضية إلا برشوة، فكلم يحيى في ذلك فلم ينكر، ثم كلم مرة بعد مرة فلم يعزل منهم أحداً عن كتابته، وشكا يتيم وصيه إلى يحيى، فلم ينصفه منه، وشهد له جماعة من قومه أنه مظلوم، فلم يستمع يحيى إليه فتمثل اليتيم بأبيات من الشعر منها:

حكمت بباطل لم تأت حقاً ولم يسمع بحكم مثل ذاكا

فلما بلغ الشعر يحيى سجن اليتيم، فرفع أمره إلى هشام فعظم ذلك عليه وكتب بصرفه، وكان في كتابه إلى الوليد بن رفاعة والي مصر: أصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً... فعزله[3]، ومع ما للوالي من سلطات واسعة في ولايته، فقد كان هشام لا يتردد عن عزل الوالي إذا شكا الناس، وصدقت الشكوى فقد عزل أسد بن عبد الله القسري عن خراسان، وكان أسد حاد الطبع سريع الغضب، تعصب لقومه من اليمانية ضد القيسية[4]. ولما اتهم سعيد بن هشام بن عبد الملك بسوء السيرة وكان يلي حمص، عزله هشام ووبخه[5] وكان اختيار هشام يتم على الولاء للأسرة الأموية وكان استمرارهم في مناصبهم يتوقف على رضا الخليفة والناس عنهم إلى حد كبير[6].

1 - وقد حاول ولاة الأقاليم المحاذاة للأعداء: للمحافظة على حدود ولاياتهم من جهة

---

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 147.
(2) أنساب الأشراف، نقلاً عن عصر هشام، ص: 148.
(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 148.
(4) تاريخ الطبري، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص: 148.
(5) العقد الفريد (5/ 182) عصر هشام، ص: 149.
(6) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 153.

واستهدفوا استمرار حركة الفتوحات من جهة ثانية، وقد نجحوا في مهمتهم إلى حد كبير، كما تمكن ولاة الأقاليم التي لها سواحل بحرية من حماية ولاياتهم في أغلب الأحيان ورغم أن الروم هاجموا السواحل الإسلامية أكثر من مرة خلال عهد هشام، لكن المسلمين كانوا في مركز من القوة مكنهم من الرد على البيزنطيين في الحوض الشرقي لبحر الروم ومكنهم من السيطرة على حوضه الغربي.

2 - كانت الظروف السائدة في إقليمي: خراسان والأندلس متشابهة إلى حد ما، فقد كانتا محادتين لأعداء أقوياء كالترك والفرنجة، كما كان يسودهما أيضاً صراع بين العرب والموالين من فرس وبربر وغيرهم من جهة، وبين العرب أنفسهم من قيسيين يمانيين من جهة ثانية، وكان ذلك من بين العوامل التي أدت إلى ضعف مركز المسلمين أمام الأعداء في الأقليمين المذكورين وإلى سرعة تبدل الولاة فيهما.

3 - أما ولاة الأقاليم الداخلية: فكان جل نشاطهم منصرفاً إلى المحافظة على الأمن والاستقرار وجمع ما يمكن جمعه من الأموال وقد أنفق ولاة الأقاليم الداخلية كثيراً من جهودهم لمجابهة حركات المعارضة من ثورات وحركات سرية وغيرها داخل ولاياتهم وقد نجح بعضهم في تحقيق حدة المعارضة إلى أدنى حد ممكن ولكن سياسة الشدة التي اتبعها بعضهم الآخر كانت من بين الأسباب التي أدت إلى قيام ثورات شملت مناطق واسعة من ولاياتهم وأدت بالتظافر مع عوامل أخرى إلى ضعف الدولة الأموية[1].

ثانياً: النظام المالي:

تعتبر السياسة المالية لهشام بن عبد الملك امتداداً لملوك بني أمية ومخالفة للنهج الإصلاحي التجديدي الراشدي الذي قام به عمر بن عبد العزيز وكانت مصادر بيت المال هي الجزية والخراج والغنائم، والزكاة وغيرها من المصادر وأما نفقات الدولة فكانت على مرتبات الولاة والجنود والموظفين و الإصلاحات كشق الأنهار، وإصلاح الأرض وغيرها من الأمور ونشُير إلى بعض الأمور المتعلقة بالنظام المالي.

1 - عودة الملكية الزراعية إلى ما كانت عليه قبل عهد عمر بن عبد العزيز:

عاد أمراء ووجهاء الدولة الأموية إلى تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة بالأخص في منطقة العراق، وقد ساعدهم في ذلك سياسية يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك في هذا الباب ومن نماذج تلك الملكيات:

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 154.

أ - الملكيات الكبيرة لمسلمة بن عبد الملك، الناتجة عن استصلاحه لأراضٍ واسعة في منطقة السواد، وبلغ من كبرها أنه حفر لها نهرين واسعين[1].

ب - ملكيات خالد بن عبد الله القسري، حيث بلغ دخله من غلاتها ثلاثة عشر مليون دينار، وقيل درهم، وكذا بلغ دخل ابنه عشرة ملايين[2].

ج - ملكيات الخليفة هشام بن عبد الملك الواسعة في أنحاء مختلفة من الدولة وبلغ من كبر حجم ملكياته أن منتوجات الزراعية كانت تؤثر في المستوى العام للأسعار.

2 - حدث تدهور في المجال الزراعي في عهد هشام بن عبد الملك إلا أن هذا التدهور حاولت الدولة علاجه بإقامة بعض المشاريع مثل:

أ - توصية هشام بن عبد الملك والي الموصل بحفر نهر في وسط المدينة وقد استغرق حفر هذا النهر مدة ثلاثة عشر سنة، وذكر أن تكلفة حفره بلغت ثلاثة ملايين درهماً[3]، وقد كان لهذا النهر أهمية كبرى في تنمية الزراعة بالموصل، فمن المدة المستغرقة في حفره، وتكلفة الحفر، يتضح أن النهر كان كبيراً، ولكونه توسط المدينة، فقد استفاد منه عدد كبير من مزارع المدينة، فزاد إنتاجيتها، وقد ترتب على ذلك كله زيادة ملموسة في إيرادات الدولة من قطاع الزراعة، حيث تضاعف إيراد الدولة من الأراضي الزكوية التي استمدت سقايتها من هذا النهر بمقدار الضعف، فبعد أن كانت تسقى بالساقية والآلات من المياه الجوفية، أصبحت تسقى من النهر مباشرة، وذلك استناداً إلى قوله ﷺ: «**فيما سقت الأنهار والغيم العشور وفيما سقي بالساقية نصف العشر**»[4].

ب - أقام خالد القسري السدود على نهر دجلة لمنعها من الفيضان وبنى القناطر، وحفر العديد من الأنهار، إلا أنه كان يمتلك الأراضي الواقعة على ضفاف تلك الأنهار.

ج - أقام مسلمة بن عبد الملك في الجزيرة الفراتية سداً عظيماً على نهر البليخ، وكان لهذا السد آثار إيجابية ملموسة على التنمية الزراعية، فقد اختزن خلف هذا السد كمية كبيرة من المياه، فزادت الموارد المائية، وأمكن تنظيم استخدامها فضلاً عن الجزء الذي تسرب داخل الأرض فأدى إلى رفع مستوى المياه الجوفية للآبار وعلى غرار ما سبق فقد ترتب على هذا السد زيادة في إيرادات بيت المال من القطاع الزراعي[5].

---

(1) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي 39.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 87.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 202.
(4) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة (7/ 54).
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 203.

3 - إنشاء وتعبيد الطرق:

شمل اهتمام الدولة الأموية بتوفير البنية الأساسية لخدمات الطرق، ولم يقتصر الأمر على الطرق بل شمل اهتمام الدولة بإقامة الجسور، ومثال ذلك الجسر الذي أنشئ عام 126هـ على النهر بمنطقة الموصل ليسهل الاتصال بين ضفتي النهر، والذي ترتب عليه ازدهار نشاط التجارة بين الجانبين وانسياب الحاصلات الزراعية في الجانبين[1]، كما أنه جرت محاولة فيما بين (105هـ - 120هـ) لإقامة جسر فوق نهر دجلة، ولكن نظراً لضعف الخبرة الهندسية انهار ذلك الجسر خلال فترة وجيزة[2].

4 - بناء المدن والحصون والأسوار والأسواق:

قام بعض الولاة ببناء مدن وتجديد أسوار مدن قديمة لاتخاذها مقرات لهم، وحصوناً يلجأون إليها وقت الحاجة، فقد بنى والي السند مدينة المحفوظة ليتخذها قاعدة لجيشه[3]، وقد جدد أسد القسري والي خراسان، بناء مدينة بلخ في ولايته الأولى[4]، ونقل إليها الدواوين في ولايته الثانية، وبني الحر بن يوسف قيسارية هشام في مصر، كما اتخذ هشام مدينة الرصافة قرب الرقة مصيفاً وجدد بعض أبنيتها وسورها، كما جدد هشام سور مدينة ملطية بعد أن فكّ الحصار البيزنطي عنها وأمر ببناء عدة حصون على حدود بلاد الشام مع البيزنطيين وشحنها بالمقاتلة[5]، وقد اهتم والي مصر وشمال إفريقية عبيد الله بن الحبحاب بالغزوات البحرية في بحر الروم (المتوسط) فجدد ووسع قاعدة بناء السفن الحربية في تونس[6]، وقد نقل هشام قاعدة بناء السفن الحربية في بلاد الشام من عكا إلى صور وبنى فيها فندقاً[7]، ويبدو أن حركة عمرانية رافقت استصلاح الأراضي في العراق في عهد خالد القسري[8]، قام هو ببعضها، كما بنى أخوه أسد بالكوفة سوقاً سمي باسمه[9]، وبنى يوسف بن عمر أثناء ولايته للعراق (120 - 126هـ) سوقاً بالحيرة سمي باسمه[10].

5 - العطاء:

كانت الدولة الإسلامية، قد بلغت أقصى اتساعها في عهد هشام كما قامت في عهده ثورات قوية، لذا كانت الحاجة ماسة إلى جيش قوي كثير العدد، ومن الطبيعي أن ذلك الجيش يحتاج إلى سلاح ومال يطوف على أفراده، وكانت الدولة تقدم لجندها مبالغ سنوية كأعطيات تصرف

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 268.
(2) المصدر نفسه، ص: 268.
(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 301.
(4) المصدر نفسه، ص: 301، نقلاً عن تاريخ الطبري.
(5) فتوح البلدان للبلاذري، نقلاً عن تاريخ الطبري.
(6) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 302.
(7) معجم البلدان (1/202) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 302.
(8) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 303.
(9) المصدر نفسه، ص: 303.
(10) المصدر نفسه، ص: 181.

لهم في مطلع شهر محرم من كل عام[1]، وكان بيت المال في دمشق أو في مقر الولاية يجهز به الخليفة أو الولاة بما يحتاجونه من الأموال لصرفها بمثابة أعطيات للجند وغير ذلك من النفقات، وكانت تلك الأموال يجمعها العمال المتخصصون وتأتي من مصادر متعددة أهمها الخراج، ولم يكن مقدار العطاء واحداً، فقد كان عطاء بني مروان مائتي دينارٍ[2]، وكان العطاء يفرض لمؤيدي الدولة، فقد كتب هشام إلى والي المدينة عبد الواحد النضري، أن يفرض لقوم نصيب الشاعر، وكان هشام يفرض لبعض الشعراء خشية ألسنتهم[3]، وقد يفرض للحاجة بأمر الخليفة[4] وكان الغزو يفرض على من يأخذ العطاء، فلم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بديلاً[5]، وكانت الدولة تمنع العطاء لمن أيّد أحدى الحركات المعارضة للسلطة الأموية وتشطب اسمه من ديوان العطاء وكان الخليفة وحده يستطيع أن يفرض العطاء أو يمنعه[6]، وكان العطاء يعطى في بداية شهر محرم من كل عام، ويوزعه الولاة على عرفاء الجند[7]، وهم في العادة من المقدمين في قبائلهم، فيوزعه هؤلاء على أتباعهم من الجند[8].

6 - ديوان الأوقاف:

كانت الدولة الأموية تتميز بكثرة الدواوين التي تساعد على تنظيم أمور الدولة وكانت تتطور مع الزمن واكتساب الخبرات ومن أشهر تلك الدواوين: ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البريد، وديوان الطراز، وديوان المستغلات، وديوان الصدقات، وديوان النفقات، وفي عهد هشام بن عبد الملك أقيم ديوان جديد هو ديوان الأحباس - الأوقاف - فقد كان أول قاضٍ بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر في زمن هشام، وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم، فلما كان توبة قال: ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين، فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها . . . فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة 118 هـ[9]. وبعد هذا أخذ القضاة ينظرون في أمور الحجر وغيره، ثم جمعوا النظر في الحدود إلى النظر في الحقوق[10].

هذه بعض الأمور المتعلقة بالنظام المالي في عهد هشام وقد اختصرتها قدر الإمكان خوفاً من الإطالة.

---

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 305.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن عصر هشام، ص: 308.
(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 308.
(4) المصدر نفسه، ص: 309.
(5) المصدر نفسه، ص: 310.
(6) المصدر نفسه، ص: 311.
(7) المصدر نفسه، ص: 311.
(8) المصدر نفسه، ص: 311.
(9) الإدارة في العصر الأموي، نجده خماش، ص: 289.
(10) عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص: 344.

المبحث الرابع

الثورات في عهد هشام بن عبد الملك

أولاً: ثورة زيد بن علي بن الحسين:

1 - اسمه ونسبه:

هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه [1] وهو بذلك ينتسب من قِبل أبيه إلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ، وإلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ [2]، وكان يكنى أبا الحسين[3]، وهو من رجال الطبقة الثالثة من أهل المدينة من التابعين[4]، ووالدته جارية سندية وكانت أم ولد، وتذكر بعض المصادر: أن المختار ابن أبي عبيد الثقفي اشتراها واستحسنها ووجدها لا تليق إلا بعلي بن الحسين وليس هناك أحد أحق بها منه فأهداها إليه[5]، وقيل أن علي بن الحسين هو الذي اشتراها. وقد مدحها زيد بقوله: لقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم يصبر غيرها، وقالت عنها فاطمة بنت الحسين: أما والله لنعم دخيلة القوم كانت[6]، ويروي ابن قتيبة: أن اسمها حيدان[7] وقيل: أم حيدان[8]. وأما أبوه علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب وهو من رجال الطبقة الثانية من التابعين[9]، ومن كبار ساداتهم ديناً وعلماً[10]، ومن فقهاء أهل البيت وأفاضل بني هاشم وعباد المدينة[11]، وسيأتي الحديث عنه من ضمن شيوخ زيد بإذن الله.

أ - مولده: اختلفت الروايات في سنة ولادة زيد، واختار الدكتور شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب أنه ولد عام 78 هـ[12]، وهذا يتفق مع قول صاحب فوات الوفيات من أن زيداً

---

(1) تهذيب التهذيب (3/ 419) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 34 للخطيب.

(2) الإمام زيد المفترى عليه، للخطيب، ص: 34.

(3) تهذيب التهذيب (19/ 419) المعارف لابن قتيبة، ص: 365.

(4) الطبقات (5/ 211) نسب قريش (2/ 60) الحياة السياسية والفكرية للزيدية، ص: 26.

(5) الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي، ص: 26.

(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن الحياة السياسية والفكرية، ص: 26.

(7) الحياة السياسية والفكرية، ص: 26.

(8) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 34.

(9) الطبقات (5/ 211) الحياة السياسية والفكرية، ص: 26.

(10) وفيات الأعيان (2/ 267).

(11) مشاهير علماء الأمصار، ص: 63، الحياة السياسية والفكرية، ص: 27.

(12) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 35.

مات عن أربع وأربعين سنة[1]، ويبدو أن الشيخ أبا زهرة قد ارتضى القول بوفاة زيد عن اثنتين وأربعين سنة، فجعل مولده عام 80 هـ[2].

ب - زواجه، وأبناؤه: تزوج زيد ثلاثة نسوة. تزوج أربطة بنت أبي هاشم بن عبد الله بن محمد بن الحنفية، وقد جاءت له بولد وهو يحيى[3]، وعندما كان في الكوفة تزوج اثنتين[4]، وهما ابنة يعقوب بن عبد الله السلمي أحد بني فرقد، وتزوج ابنة عبد الله بن أبي العنبس الأسدي[5]، وتزوج بأم ولد فجاءت له بثلاثة أولاد، عيسى وحسين، ومحمد[6].

ج - طلبه للعلم وبيئته التي ترعرع فيها: نشأ زيد رحمه الله بالمدينة وكانت منارة العلم بما كان فيها من الصحابة والتابعين، وترعرع في بيت من بيوت العلم عامر بميراث النبوة، فوالده كان من كبار التابعين وساداتهم ديناً وعلماً[7]، وعاش مع والده ثماني عشرة سنة من حياته رباه خلالها على الخلق الرفيع وغذاه بالروح الدينية العالية، وبعد وفاة والده انتقلت كفالته إلى أخيه الأكبر محمد الباقر، وهو من هو في زهده وورعه وتقواه، ولقد كان للباقر أثره كذلك في نشأة أخيه زيد وهو لا يزال في تلك السن التي آلت إليه رعايته فيها، ولقد طبعت هذه البيئة الخيّرة في قلب زيد تقوى الله عز وجل، والخوف منه وحب تلاوة القرآن والزهد في هذه الدنيا[8]، ويقول زيد عن نفسه: والله ما كذبت كذبة مُنذ عرفت يميني من شمالي، ولا انتهكت محرماً لله عز وجل مُنذ أن عرفت أن الله يؤاخذني[9]. ولقد كان تأثره بوالده وأخيه وبيئته التي نشأ فيها واضح المعالم، وفي هذه البيئة العلمية المتدينة بدأ الإمام زيد طلبه للعلم، فحفظ القرآن الكريم جرياً على عادة الصحابة والتابعين في تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم منذ حداثة سنهم، ولقد كان للإمام زيد اشتغال دائم بالقرآن الكريم فهو يقول عن نفسه: لقد خلوت بالقرآن الكريم ثلاث عشرة سنة أقرأه وأتدبره[10]. وقد توسع في التفسير والسنة وعلومها وبالفقه والعقائد وأصول الدين، واللغة وآدابها، وغير ذلك من ألوان الثقافة التي كانت سائدة في عصره، فكان بهذه العلوم الواسعة من علماء الإسلام الذين يشهد لهم القريب والبعيد بالعلم والتفوق[11]، فهذا أخوه محمد الباقر يقول لمن سأله عنه: سألتني عن رجل ملئ علماً من أطراف شعره إلى قدميه[12]. ويقول أبو إسحاق السبيعي: رأيت زيد بن علي فلم أر في أهله

---

(1) فوات الوفيات (2/ 27).
(2) زيد بن علي، لأبي زهرة، ص: 22.
(3) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 41.
(4) الخطط للمقريزي (3/ 339).
(5) تاريخ الطبري نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص: 41.
(6) طبقات ابن سعد (5/ 325).
(7) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 39.
(8) المصدر نفسه.
(9) الروض النضير لأحمد السياغي (1/ 128).
(10) المصدر نفسه (1/ 98) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 40.
(11) الإمام زيد بن علي المفترى عليه، ص: 71.
(12) الروض النضير (1/ 104).

مثله ولا أعلم منه ولا أفضل[1]. وقال أبو حنيفة: شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله فما رأيت في زمانه أفقه ولا أعلم[2] وقال عنه الشعبي: ما ولدت النساء أفضل من زيد بن علي ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد[3]، ومن كلام الذهبي عن زيد قوله: كان ذا علم وجلال وصلاح[4] وقال في تاريخ الإسلام: كان أحد العلماء الصلحاء[5] وهذه تزكية معتبرة من علماء أهل السنة تدل على أنه أحد أعلام مدرسة أهل السنة والجماعة.

2 - شيوخ زيد بن علي:

أ - علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب: تتلمذ زيد على يد أبيه علي زين العابدين وروى عنه[6]، وقد كان علي زين العابدين عالماً بالحديث لكثرة من أخذ عنهم من الصحابة، والتابعين[7]، بالإضافة إلى اشتغاله بالفقه وكان هو الأستاذ الأول الذي أخذ عنه زيد بن علي[8] ولعلي زين العابدين مواقف مشهورة منها:

- شدة احترام الناس له وقصيدة الفرزدق في مدحه: كان علي زين العابدين له مكانة عظيمة في عيون الناس، وكانوا يحبونه ويقدرونه لقرابته من رسول الله ﷺ وصلته لذكرى أبيه الشهيد الحسين ﵁ الذي لم يبق من ولده سواه، وازداد هو إقبالاً على العلم واشتغالاً بالعبادة حتى لُقِّب زين العابدين، وكان يكنى بأبي الحسين وقيل: بأبي الحسن، وقيل: بأبي محمد. وكان له جلالة عظيمة، وحُقَّ له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه وسؤدده، وعلمه وتألُّهه وكمال عقله[9]، ومما يدل على مكانة زين العابدين في عصره أنه لما حج هشام بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد، أراد أن يستلم الركن فلم يستطع من الزحام، فنصب له منبر، فاستلمه وقام أهل الشام حوله، فجاء زين العابدين ليستلم الحجر فأوسع له الناس إجلالاً له واحتراماً، وكان في بزة حسنة وهيئة حسنة وشكل مليح فقال أهل الشام لهشام: من هذا؟ فقال: لا أعرفه. فقال الفرزدق وكان حاضراً: أنا أعرفه وأنشد[10]:

---

(1) الإمام زيد بن علي المفترى عليه، ص: 71.
(2) الخطط (2/ 436)، الحياة السياسية والفكرية، ص: 37.
(3) الحياة السياسية والفكرية، ص: 37، نقلاً عن الخطط للمقريزي.
(4) سير أعلام النبلاء (5/ 236، 237).
(5) تاريخ الإسلام للذهبي، نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص: 72.
(6) نسب قريش (2/ 61) الحياة السياسية والفكرية، ص: 39.
(7) صفة الصفوة (2/ 102) سير أعلام النبلاء (4/ 387).
(8) الحياة السياسية الفكرية للزيدية، ص: 39.
(9) سير أعلام النبلاء (4/ 386).
(10) علموا أولادكم محبة آل بيت النبي، ص: 162.

هذا سَليلُ حسين وابن فاطمة ... بنت الرسول ، انجابت به الظلم[1]
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يُغْضي حياء ويُغضى من مهابته ... فما يكلَّمُ إلا حين يبتسم
مشتقه من رسول الله نبعته ... طابت عناصرها والخيْمُ والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد خُتموا
كلتا يديه غياث عمَّ نفعهما ... تستوكفان ولا يعروهما عدم
ما قال لا قطُّ إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاءه نَعَمُ
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربُهُمُ منجى ومعتصم
مقدَّم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل حكم ومختوم به الكَلِمُ
إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
فليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

فأمر هشام بحبس الفرزدق، فحبس بعُسْفان، وبعث إليه علي بن الحسين باثني عشر ألف درهم وقال: اعذر أبا فراس، فردَّها وقال: ما قلت ذلك إلا غضباً لله ولرسوله فردّها إليه وقال: بحقِّي عليك لما قبلتها، فقد علم الله نيَّتك ورأى مكانك فقبلها[2] وكانت أم زين العابدين أم ولد اسمها سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد وقيل: غزالة[3].

- **تمسكه بالكتاب والسنة ودفاعه عن الصحابة وحب العلماء له:** كان زين العابدين شديد التمسك بالكتاب والسنة، وما كان عليه جده علي بن أبي طالب وأبوه الحسين الشهيد ﵄ لا يحيد عنه قيد أنملة في عقيدة أو عبادة أو عمل، كثير التبتل والورع، وكان حسن الرأي بالشيخين أبي بكر وعمر ﵄ وبالخليفة الراشد عثمان ﵁ شديد الحب لهم، والتقدير لأعمالهم، شديد الحب للصحابة أجمعين، فلما أظهر بعض المتسترين بآل البيت الطعن بأبي بكر وعمر تصدى لهم زين العابدين ففضح مكرهم وأظهر البراءة منهم[4]، فعن أبي حازم المدني قال: ما رأيت هاشمياً أفقه من علي بن الحسين سمعته وقد سئل: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر عند رسول الله ﷺ؟ فأشار بيده إلى القبر ثم قال: بمنزلتهما منه الساعة[5]. وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: جاء رجل إلى أبي فقال: أخبرني عن أبي بكر؟ قال: عن

(1) شذرات الذهب (2/ 59).
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 39).
(3) المصدر نفسه (4/ 386).
(4) علموا أولادكم محبة آل بيت رسول الله، ص: 163.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 395).

الصِّدِّيق تسأل؟ قال: وتُسميه الصِّدِّيق ؟ قال: ثكلتك أمك، قد سمّاه صديقاً من هو خير منّي، رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار، فمن لم يُسمِّه صديقاً، فلا صدق الله قوله، اذهب فأحبَّ أبا بكر وعمر، وتولّهما، فما كان من أمر ففي عُنُقي[1]، وعن محمد بن علي عن أبيه، قال: قدم قوم من العراق فجلسوا إليَّ فذكروا أبا بكر وعمر فسبُّوهما، ثم ابتركوا في عثمان ابتراكاً فشتمتهم[2]. وقد قال علي بن الحسين: والله ما قُتل عثمان ﷺ على وجه الحق[3]. وكان ﷺ يبين للناس الحقائق والعقائد الصحيحة، قال علي بن الحسين: جاني رجل فقال: جئتك في حاجة، وما جئت حاجّاً ولا معتمراً، قلت: وما هي ؟ قال: جئت لأسألك متى يبعث عليّ ؟ فقلت: يُبعث - والله - يوم القيامة، ثم تُهمُّهُ نفسه[4]، وعن الزهري قال: سألت علي بن الحسين عن القرآن فقال: كتاب الله وكلامه[5]، فقد كان زين العابدين من أئمة أهل السنة والجماعة وقد استنكر الغلو في حب أهل البيت، فقد قال: أيها الناس، أحبونا حب الإسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً[6]. لقد كان زين العابدين ثقة مأموناً رفيعاً ورعاً[7] وكان يأتي لعبيد الله بن عبد الله وكان هذا العالم إذا دخل في صلاته فقعد إليه إنسان لم يقبل عليه حتى يفرغ، وإنّ عليَّ بن الحسين كان من أهل الفضل وكان يأتيه، فيجلس إليه، فيطوّل عبيد الله في صلاته ولا يلتفت إليه، فقيل له: عليٌّ وهو ممَّن هو منه، فقال: لا بُدَّ لمن طلب هذا الأمر أن يُعنَّى به[8]. وكان زين العابدين متواضعاً حريصاً على طلب العلم، فكان يدخل المسجد، فيشق الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير: غفر الله لك أنت سيِّدُ الناس، تأتي تتخطّى حتى تجلس مع هذا العبد، فقال علي بن الحسين: العلم يبتغى ويُؤتى ويطلب من حيث كان[9]. وكان لا يستنكف أن يسأل عن العلم وكان من شيوخه سعيد بن جبير، فعن مسعود بن مالك، قال لي علي بن الحسين: تستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير ؟ قلت: ما حاجتك إليه ؟ قال: أشياء أريد أن أسأله عنها، إن الناس يأتوننا بما ليس عندنا[10]، وعن الزهري قال: كان علي بن الحسين من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة وأحبهم إلى مروان وإلى عبد الملك[11] وكان يصلي خلف الأمويين من غير تقية، فعن أبي جعفر، قال: إنا لنُصلِّي خلفهم - يعني الأمويين - من غير تقيَّة، وأشهد على أبي أنه كان يُصلي خلفهم من غير تقيَّة[12]. وقد شهد سعيد بن المسيب لعلي بن الحسين بشدة ورعه

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 395).
(2) المصدر نفسه (4/ 395).
(3) المصدر نفسه (4/ 395).
(4) المصدر نفسه (4/ 396).
(5) المصدر نفسه (4/ 396).
(6) المصدر نفسه (4/ 389).
(7) المصدر نفسه (4/ 387).
(8) المصدر نفسه (4/ 388).
(9) المصدر نفسه (4/ 388).
(10) المصدر نفسه (4/ 389).
(11) المصدر نفسه (4/ . 389)
(12) المصدر نفسه (4/ 397).

وقال: ما رأيت أورع منه[1]، وقال جويرية بن أسماء: ما أكل علي بن الحسين بقرابته من رسول الله ﷺ درهماً قطُّ[2].

- زهده وعبادته ودعاؤه وصدقاته: كان علي بن الحسين عابداً زاهداً وفياً جواداً منيباً أجمع معاصروه أنه كان أعبد الناس، وكان إذا مشى إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له، فقال: تدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي[3]؟ وعنه: أنه كان إذا توضَّأ اصفرَّ[4]، وقيل إنه كان يُصلِّي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات. وكان يسمَّى زين العابدين لعبادته[5]، وقال عنه ابن تيمية: علي ابن الحسين زين العابدين وقرة عين الإسلام لكثرة ما اشتهر عنه من عبادة وزهد وورع وتسامح وعلو أخلاق[6]، وكان كثير القيام، كثير البر في رمضان، وكان كثير الصدقة في الحج، كثير الصدقة في سائر أحواله، وكان يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين في الظلمة ويقول: إن الصدقة في سواد الليل تطفئُ غضب الرب[7]، وكان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين، فقدوا ذلك الذي كان يؤتون بالليل[8]. ولمّا مات عليُّ بن الحسين وجدوا بظهره أثراً ممّا كان ينقل الجرب بالليل إلى منازل الأرامل[9] ولما مات وجدوه يعول مئة أهل بيت[10]، وكان كثير الدعاء، فعن طاووس قال: سمعت علي ابن الحسين وهو ساجد في الحجر يقول: عُبَيْدُكَ بِفنائك مسكينُك بفنائك، سائلك بفنائك فقيرك بفنائك. قال: فوالله ما دعوت بها في كرب قط إلا كُشف عني[11]. وكان يقول: اللهم إنّي أعوذ بك أن تُحسِّن في لوائح[12] العيون علانيتي وتُقبِّحَ في خفيات العيون سريرتي؛ اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ، فإذا عُدتُ، فعدْ عَلَيَّ[13].

- وفاته: مات سنة أربع وتسعين، وروي ذلك عن جعفر الصادق وقيل: سنة اثنتين وتسعين وقيل: سنة ثلاث. وقيل: سنة خمس وتسعين والأول أصح[14]. وقبره بالبقيع، ولا بقية للحسين بن علي إلا من قبل ابنه زين العابدين[15].

ب - أبو جعفر الباقر: محمد بن علي بن الحسين: ومن شيوخ زيد بن علي أخوه محمد بن علي المعروف بالباقر، وسمي بالباقر لأنه تبقر العلم وتوسع فيه، وقد أخذ الباقر العلم عن كثير

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 391).
(2) المصدر نفسه (4/ 391).
(3) المصدر نفسه (4/ 391).
(4) المصدر نفسه (4/ 392).
(5) المصدر نفسه (4/ 392).
(6) المصدر نفسه (4/ 393).
(7) المصدر نفسه (4/ 393).
(8) المصدر نفسه (4/ 393).
(9) المصدر نفسه (4/ 393).
(10) المصدر نفسه (4/ 393).
(11) المصدر نفسه (4/ 393).
(12) لوائح الشيء: ما يبدو منه وتظهر علامته عليه.
(13) سير أعلام النبلاء (4/ 396).
(14) المصدر نفسه (4/ 400).
(15) المصدر نفسه (4/ 400).

من الصحابة والتابعين وروي عنهم، فقد روي عن أبيه علي بن الحسين، وعن ابن عمر وجابر، وأبي سعيد وعبد الله بن جعفر وسعيد بن المسيب وأبيه زين العابدين ومحمد بن الحنفية، وطائفة[1].

ولد محمد الباقر سنة ست وخمسين في حياة عائشة وأبي هريرة[2]، وكان أحد من جمع بين العلم والعمل والسؤدُد والشرف والثقة والرَّزانة، وكان أهلاً للخلافة، وهو أحد الأئمة الاثني عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين، فلا عصمة إلا للملائكة والنَّبيين، وكل أحد يصيب ويخطئ ويُؤخذ من قوله ويترك سوى النبي ﷺ فإنه معصوم، مؤيد بالوحي[3]. ولقد كان أبو جعفر إماماً، مجتهداً، تالياً لكتاب الله، كبير الشأن، ولكن لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه، ولا في الفقه درجة أبي الزنَّاد، وربيعة، ولا في الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة وابن شهاب، فلا نحابيه، ولا نحيف عليه، ونحبه في الله لما تجمع فيه من صفات الكمال[4]. وكان من المدافعين عن أبي بكر وعمر والصحابة، قال ابن فُضَيل: سألت الباقر وابنه جعفراً، عن أبي بكر وعُمرَ فقالا لي: يا سالم، تولَّهما، وابرأ من عدوِّهما، فإنهما كانا إمامي هدى[5]. علق الذهبي على هذا الأثر فقال: كان سالم فيه تشيع ظاهر، ومع هذا فَيُبُثُّ هذا القول الحقّ، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل وكذلك ناقلها ابن فُضيل، شيعي ثقة. فعثَّر الله شيعة زماننا ما أغرقهم في الجهل والكذب، فينالون من الشيخين وزيري المصطفى ﷺ، ويحملون هذا القول من الباقر والصادق على التقية[6]. وعن بسَّام الصَّيرفيّ، قال: سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر، فقال: والله إني لأتولَّاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولَّاهما[7]. وعن جابر الجعفي عن محمد بن علي، قال: أجمع بنو فاطمة على أن يقولوا في أبي بكر وعمر أحسن ما يكون من القول[8] قال الذهبي: وأم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق هي صاحبة أبي جعفر الباقر وأم ولده جعفر الصادق[9]. وعن عروة بن

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 401).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه (4/ 402).
(4) المصدر نفسه (4/ 402) ابن كثير: هو عبد الله بن كثير، إمام المكيين في القراءة، توفي عام 120هـ، انظر: علم القراءات، ص: 179.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 402).
(6) المصدر نفسه (4/ 403).
(7) المصدر نفسه (4/ 403).
(8) الطبقات (5/ 321) سير أعلام النبلاء (4/ 403).
(9) سير أعلام النبلاء (4/ 406).

عبد الله، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيوف فقال: لا بأس به، قد حلّى أبو بكر الصِّديق سيفه، قلت: وتقول الصديق؟ فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال: نعم الصِّدِّيق، نعم الصِّدِّيق فمن لم يقل الصِّدِّيق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة[1]. وقال جابر الجعفي: قال لي محمد بن علي: يا جابر؛ بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء، والذي نفس محمد بيده - يعني نفسه - لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[2]. وعن عبد الملك ابن أبي سليمان: قلت لمحمد بن علي ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: 55]. قال: هم أصحاب النبي ﷺ. قلت: إنهم يقولون: هو علي. قال: علي منهم[3]. فهذا كلام جليل من الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين في الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، والكلام في إثبات عدالة الصحابة رضي الله عنهم وبيان فضلهم يعتبر من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها فاعلها، وخاصة إذا صدر ذلك من علماء آل البيت حيث نسب إليهم المبطلون كلاماً في التنقيص من قدر الصحابة هم منه براء[4].

- **من أقواله:** له كلام نافع في الحكم والمواعظ منه: أهل التقوى أيسر أهل الدُّنيا مؤونة وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكّروك، وإن ذكرت أعانوك، قوّالين بحق الله، قوّامين بأمر الله[5] ومنه: أنزل الدنيا كمنزل نزلته وارتحلت عنه، أو كمالٍ أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء[6]. وقال: اذكروا من عظمة الله ما شئتم، ولا تذكرون منه شيئاً إلا وهي أعظم منه، واذكروا من النار ما شئتم، ولا تذكرون منها شيئاً إلا وهي أشدُّ منه، واذكروا من الجنة ما شئتم، ولا تذكرون منها شيئاً إلا وهي أفضل[7]. وقال في الكِبْر: ما دخل قلب امرئ من الكِبْر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك[8]. وقال: الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر[9]. وقال: سلاح اللئام قبح الكلام[10].

- **وفاته:** مات أبو جعفر محمد الباقر سنة أربع ومئة بالمدينة، وقيل: توفي سنة سبع عشرة[11] وهو هاشمي من جهة أبيه وأمه، فأمه هي أم عبد الله بنت الحسن بن علي[12].

---

(1) الحلية (3/ 84، 185) سير أعلام النبلاء (4/ 408).
(2) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ الإسلامي للحميدي (17/ 284).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 406).
(4) المصدر نفسه (4/ 406).
(5) شذرات الذهب (2/ 72).
(6) المصدر نفسه (2/ 72، 73).
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 406).
(8) الحلية (3/ 180) سير أعلام النبلاء (4/ 408).
(9) سير أعلام النبلاء (4/ 408).
(10) المصدر نفسه (4/ 409).
(11) المصدر نفسه.
(12) المصدر نفسه (4/ 403).

ج - **أبان بن عثمان بن عفان:** من شيوخ زيد بن علي الذين روى عنهم الحديث: أبان بن عثمان بن عفان الإمام الفقيه[1]، وحدّث عنه عمرو بن دينار والزهري وأبو الزناد وجماعة قال يحيى بن قطان: فقهاء المدينة عشرة: أبان بن عثمان وسعيد بن المسيب وذكر سائرهم وعن ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن أبان: سمعت عثمان يقول: من قال في أوّل يومه وليلته: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم». لم يضره ذلك اليوم شيء، أو تلك الليلة، فلما أصاب أبان الفالج قال: إني والله نسيت هذا الدعاء هذه الليلة ليمضي فيَّ أمر الله[2]. وقال خليفة: إن أباناً توفي سنة خمس ومئة[3].

ومن خلال شيوخ زيد نلاحظ أنه تأثر بالمدرسة المدنية السنية ويعتبر في علمه وفهمه امتداداً لها، فوالده وأخوه وأبان بن عثمان وغيرهم كلهم من علماء المدرسة المدنية.

د - **نفي تتلمذ زيد بن علي على واصل بن عطاء المعتزلي:** يرى فريق من العلماء أن زيد قد تتلمذ لواصل بن عطاء وأخذ عنه الاعتزال كابن خلدون[4] والشهرستاني[5]، ومحمد شاكر الكتبي[6]. وغيرهم ولذا فإن مؤلفي طبقات المعتزلة يجعلون زيداً من الطبقة الثالثة، كما يرى المرتضى صاحب المنية والأمل[7]، والقاضي عبد الجبار صاحب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة[8]، والواقع أن الدراسة الفاحصة تكشف لنا عن بطلان دعوى تلمذة زيد لواصل بن عطاء وفي سبيل إبراز هذه الحقيقية تقدم الأدلة التالية:

ما قيل من إقامة زيد بالبصرة واختياره لها ليعلم أصول العقائد عن الفرق المختلفة، وهذا ما قاله الشيخ أبو زهرة رحمه الله[9] وذكر قريباً من هذا الدكتور علي سامي النشار[10]، ولم يذكره واحد من المؤرخين القدماء سواء في ذلك الطبري وابن كثير، اليعقوبي والمسعودي والمقدسي وابن الأثير وغيرهم، وكل ما ذكره الطبري من إقامة زيد بالبصرة أنه أقام بها شهرين[11]، وأما ابن العماد صاحب شذرات الذهب فذكر أن زيداً لم يمكث إلا شهراً

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 351) الحياة السياسية والفكرية، ص: 40.
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 352).
(3) المصدر نفسه (4/ 352).
(4) تاريخ ابن خلدون (3/ 172) الحياة السياسية والفكرية، ص: 40.
(5) الملل والنحل (1/ 207، 208).
(6) فوات الوفيات للكتبي (3/ 37).
(7) المنية والأمل نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص: 55.
(8) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة نقلاً عن الإمام زيد، ص: 55.
(9) زيد بن علي، لأبي زهرة، ص: 39، 40.
(10) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (1/ 121).
(11) تاريخ الطبري نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص: 57.

واحداً[1]، وأثناء إقامته بالكوفة، وهو يعد العدة ويجمع الرجال تأهباً للخروج على بني أمية[2]. أي أنه ذهب إليها بعد أن جاوز الأربعين من عمره ليقوم بكل ما يتطلبه الخروج من جهد وعمل، وفي مثل هذه السن الناضجة وفي مثل هذه الظروف أيضاً لا يمكن أن يقال أن زيد تتلمذ فيها على واصل. وحتى مع القول بأنه التقى به هناك - وهو فرض لا ننفيه - ولكننا نمنع أن يكون زيد في نضجه العلمي، ومشاغله العملية حينذاك يتتلمذ على واصل ويأخذ عنه[3].

- ما قيل من ذهاب واصل بن عطاء إلى المدينة واجتماع آل البيت به، ومنهم الإمام زيد ووقوع الخلاف بينه وبين ابن أخيه جعفر الصادق، وهذه القصة ذكرها شيوخ المعتزلة وهما الحسين بن المرتضى في المنية والأمل والقاضي عبد الجبار في فضل طبقات المعتزلة، ومن المعروف أن المعتزلة في سبيل نصرة مذهبهم وبيان أصالته في نظرهم يرتفعون بطبقاتهم الأولى، ليس لآل البيت بل إلى الصحابة ﷺ[4]، فلا عجب أن يجعلوا زيداً من هذه الطبقات، فقد جعلوا غيره من أئمة أهل البيت كالصادق والباقر وزين العابدين وآبائهم وأجدادهم كذلك، ونسبوا إليهم من الأقوال ما يظهر اعتزالهم[5]، بينما كان هؤلاء الأئمة من علماء الحديث، وكانوا على عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أثنى عليهم علماء أهل السنة وعلى رأسهم ابن تيمية[6]، فلو كان هناك مغمز في عقيدتهم لذكره، والإمام زيد واحد من هؤلاء الأئمة الأعلام الذين استحقوا ثناء أهل السنة وتوثيقهم[7] يقول ابن تيمية: فليس من أئمة أهل البيت مثل علي بن الحسين وأبي جعفر الباقر وابنه جعفر بن محمد من كان ينكر الرؤية ولا يقول بخلق القرآن ولا ينكر القدر ولا يقول بالنص على علي ولا بعصمة الأئمة الاثني عشر ولا يسب أبا بكر وعمر. والمقولات الثابتة المتواترة عن هؤلاء معروفة موجودة، وكانت مما يعتمد عليه أهل السنة[8]. وبين ابن تيمية أن أئمة أهل البيت كانوا على عقيدة أهل السنة فيقول: أن الأئمة المشهورين كلهم يثبتون الصفات لله تعالى ويقولون أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ويقولون أن الله يرى في الآخرة، وهذا هو مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت وغيرهم[9]. وقد نص علماء أهل السنة والجماعة على أن زيداً كان من

---

(1) شذرات الذهب (2/ 92).

(2) المصدر نفسه (2/ 92).

(3) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 57.

(4) فرق وطبقات المعتزلة نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص: 57.

(5) فرق وطبقات المعتزلة نقلاً عن الإمام زيد، ص: 58.

(6) منهاج السنة (2/ 123 - 124).

(7) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 58.

(8) منهاج السنة (1/ 222) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 148.

(9) المصدر نفسه (1/ 173).

أهل السنة يقول ابن تيمية مبيناً أن زيداً كان من أهل السنة والجماعة رغم أن الرافضة يفسقونه ويكفرونه يقول: فليست ذرية فاطمة كلهم محرّمين على النار، بل منهم البرّ والفاجر، والرافضة تشهد على كثير منهم وهم أهل السنة منهم الموالون لأبي بكر وعمر كزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأمثاله من ذرية فاطمة رضي الله عنها ، فإن الرافضة رفضوا زيد بن علي ومن ولاه وشهدوا عليهم بالكفر والفسق[1] . ويقول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: فأئمة أهل البيت أمثال زين العابدين وابنه زيد بن علي وأشباههم رضي الله عنهم شهد لهم أهل العلم بالصدق والأمانة والديانة[2] وقد وثقه علماء الجرح والتعديل ولم يرموه بأي بدعة من بدع الاعتدال[3] أو غيرها.

- **قال أبو حاتم البستي عن زيد:** كان من أفاضل أهل البيت وعبادهم[4].

- **وقال عنه الذهبي:** كان أحد العلماء الصلحاء بدت منه هفوة فكانت سبباً لرفع درجته في الآخرة[5].

- **وقال ابن حجر:** ثقة من الرابعة وهو الذي تنسب إليه الزيدية[6]. وقد سأل شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: عن زيد بن علي فأجاب: أنه لم يسمع أحداً من علماء السلف لا يثني عليه وأن الذين أصبحوا معتزلة هم أتباعه أما هو فمن خيار التابعين[7].

- ثم إن الرواية التي أشارت إلى ذهاب واصل بن عطاء إلى المدينة واجتماعه بآل البيت به ومنهم الإمام زيد، ووقوع الخلافة بسبب ذلك بينه وبين ابن أخيه جعفر الصادق والتي ذكرها المرتضى في المنية والأمل ليس لها سند تاريخي، وجاءت هذه الرواية بصيغة التضعيف حيث قال: روي أن واصلاً[8]، وكذلك نجد القاضي عبد الجبار يسوق هذه القصة بصيغة التضعيف[9].

- لقد كان زيد يرى أن جده علياً رضي الله عنه من أفاضل الصحابة بعد رسول الله ﷺ وأن منزلته من

(1) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص: 172، الإمام زيد، ص: 149.
(2) جواب أهل السنة النبوية، ص: 151.
(3) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 150.
(4) المصدر نفسه، ص: 150، الثقات لابن حبان (رقم 2511).
(5) تاريخ الإسلام للذهبي (5/ 75) الإمام زيد، ص: 150.
(6) تهذيب التهذيب (3/ 419).
(7) الإمام زيد بن علي المفترى عليه، ص: 149.
(8) المصدر نفسه، ص: 58.
(9) المصدر نفسه، ص: 58.

رسول الله ﷺ كمنزلة هارون من موسى ومن ثم فلا يعقل أن يتتلمذ زيد على واصل وهو يعلم أن واصلاً لم يكن يرى هذا الرأي في جده ﷺ، فلم يسو بينه وبين كثير من الصحابة في الفضل وقبول الشهادة، ولم يكن كذلك قاطعاً بصحة موقفه في حروبه مع الخارجين عليه، وإنما كان يجوز الخطأ على جده في تلك الحروب وهو الإمام الذي بايعه الصحابة رضوان الله عليهم ولم يكن ليقبل شهادته ولو على بقل[1]، فكيف يقبل زيد أن يأخذ علمه من رجل مبتدع هذا شأنه، وإن الخلاف على هذه القضية خلاف جوهري، وفي نفس الوقت خلاف حساس يتصل بالإمام زيد في شخص جده وليس خلافاً على أمر آخر، فلا يمكن أن يجتمع الرجلان على مذهب واحد ورابطة واحدة مع وقوع هذا الخلاف بينهما، ولا نظن أن زيداً كان يقبل أن يتتلمذ على واصل وأن يأخذ عنه رغم قوله الباطل في جده علي ﷺ حتى يحتاج إلى إنكار أخيه الباقر عليه - كما يروي الشهرستاني من أن محمد الباقر أنكر على أخيه زيد أخذه العلم عن واصل وهو يجوّز الخطأ على جده في قتاله للناكثين والقاسطين[2]. وكيف نقبل القول بمعرفة الباقر بعلاقة علمية تتصل بأمور العقيدة قائمة بين زيد وواصل ثم نجده يثني عليه هذا الثناء العاطر ويشهد له تلك الشهادة الكبيرة[3]، في قوله لجابر الجعفي، عندما سأله عن أخيه زيد: سألتني عن رجل ملئ إيماناً وعلماً من أطراف شعره إلى قدمه، وهو سيد أهل بيته[4].

3 - العلاقة بين جعفر الصادق وزيد بن علي:

هو جعفر بن محمد بن علي بن الشهيد أبي عبد الله ريحانة رسول الله ﷺ الحسين بن علي ابن أبي طالب، الإمام الصادق شيخ بني هاشم، أبو عبد الله القرشي، الهاشمي، العلوي المدني أحد الأعلام[5] ولد سنة ثمانين ورأى بعض الصحابة مثل أنس بن مالك وسهل بن سعد[6]. وكان جعفر يثني على عمه زيد ويقدره، وكان العلاقة بينهما طيبة، فلقد قال جعفر عن عمه كما يروي لنا عمر بن القاسم: قال: دخلت على جعفر الصادق وعنده ناس من الرافضة فقلت: إنهم يبرؤون من عمك، فقال: برأ الله ممن تبرأ منه، كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفقهنا في دين الله وأوصلنا للرحم ما تركنا وفينا مثله[7]. وكان جعفر يجل عمه زيداً ومما يدل على ذلك أنه كان يمسك له بالركاب ويسوي ثيابه على السرج[8]. وكذلك كان مؤيداً لعمه في خروجه واستأذنه في الخروج معه، فعندما أراد زيد الخروج إلى الكوفة من المدينة قال له جعفر: أنا معك يا عم، فقال زيد: أوما علمت أن قائمنا لقاعدنا وقاعدنا لقائمنا، فإذا خرجت

---

(1) الملل والنحل للشهرستاني (1/ 61-62).
(2) الملل والنحل للشهرستاني، نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص: 62.
(3) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 62.
(4) الروض النضير (1/ 104).
(5) سير أعلام النبلاء (6/ 255).
(6) المصدر نفسه (6/ 255).
(7) المصدر نفسه (5/ 390).
(8) مقاتل الطالبيين، ص: 129، الإمام زيد المفترى عليه، ص: 60.

أنا وأنت فمن يخلفنا في حرمنا ؟ فتخلف جعفر بأمر عمه زيد[1]، ولقد ذكر الطبري وابن الأثير أن جماعة من الشيعة قبل خروج زيد مروا على جعفر الصادق فقالوا له: إن زيد بن علي فينا يبايع، أفترى لنا أن نبايعه ؟ فقال لهم: نعم بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا وخيرنا. فجاءوا فكتموا ما أمرهم به[2]. وكان جعفر يدعو لعمه بالنصر والتأييد فعندما أراد يحي اللحوق بأبيه زيد، قال له جعفر: أقرئه عني السلام وقل له: إني أسأل الله أن ينصرك ويبقيك ولا يرينا فيك مكروهاً.. وبعد أن مضى زيداً شهيداً إلى ربه وجاء الخبر إلى جعفر قال: ذهب والله زيد بن علي كما ذهب علي والحسن والحسين وأصحابهم - شهيداً إلى الجنة[3]. فقد كان جعفر وزيد ابن علي على علاقة طيبة وأن الذين فرقوا بينهما هم الشيعة الذين رفضوا زيداً وقالوا بالوصية خوفاً من لوم الناس لهم وعتابهم إياهم على مفارقتهم زيد[4].

أ - دفاعه عن جده أبي بكر الصديق والصحابة: كانت حفيدة الصديق متزوجة من محمد الباقر الإمام الخامس عند الشيعة الإمامية، وكان جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الذي يلقب بالصادق يقول: ولدني أبو بكر مرتين[5]، فأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، والقاسم بن محمد بن أبي بكر كان أحد فقهاء المدينة السبعة تربي في حجر أم المؤمنين عائشة، أما أمها فهي أسماء بنت عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، وكان جعفر يغضب من الشيعة الإمامية ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر، فكيف يرضى من يدعى محبة جعفر وآل البيت أن يلعن جد جعفر الصادق[6] ؟ فعن سالم بن أبي حفصة قال: سألت أبا جعفر وابنه جعفراً عن أبي بكر وعمر فقال: يا سالم تولَّهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامَي هدى. ثم قال جعفر: يا سالم، أيَسُبُّ الرجل جدَّه ؟ أبو بكر جدِّي لا نالتني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة إن لم أكن أتولَّاهما وأبرأ من عدوهما[7]، وقال حفص بن عياش: سمعت جعفر بن محمد يقول: ما أرجو من شفاعة علي شيئاً إلا وأنا أرجو من شفاعة أبي بكر مثله، لقد ولدني مرتين[8]. وقد كانت العلاقات بين بيت أبي بكر وآل البيت قوية ومتلاحمة ومتداخلة فالقاسم بن محمد بن أبي بكر حفيد أبي بكر وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حفيد علي بن أبي طالب كانا النبي خاله، فأم القاسم بن محمد وأم علي بن الحسين هما بنتي يزدجرد بن شهريار بن كسرى اللتين كانتا من سبايا الفرس في عهد عمر رضي الله عنه، وقد توسع إحسان إلهي ظهير في إثبات المصاهرات وعلاقات المودة والتراحم والاحترام المتبادل

---

(1) رسائل العدل والتوحيد، ص: 80، 81.
(2) تاريخ الطبري (8/ 51).
(3) رسائل العدل والتوحيد، ص: 81 الإمام زيد المفترى عليه، ص: 61.
(4) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 61.
(5) سير أعلام النبلاء (6/ 254).
(6) علي بن أبي طالب للصَّلَّابي، ص: 172.
(7) سير أعلام النبلاء (6/ 59) إسناده صحيح.
(8) المصدر نفسه (6/ 259).

بين أهل البيت والصديق[1]. وسئل جعفر بن محمد عن أبي بكر وعمر فقال: إنك تسألني عن رجلين قد أكلا من ثمار الجنة[2]. وحدثنا عمرو بن قيس المُلائي، سمعت جعفر بن محمد يقول: برئ الله ممن تبرأ من أبي بكر وعمر[3]. قال الذهبي: وهذا القول متواتر عن جعفر الصادق، وأشهد بالله إنه لبار في قوله غير منافق لأحد[4].

ب - من لفتاته في مناسك الحج: قال سفيان الثوري: قدمت مكة فإذا أنا بأبي عبد الله جعفر بن محمد قد أناخ بالأبطح، فقلت: يا ابن رسول الله، لم جعل الموقف من وراء الحرم؟ ولم يُصيَّر في المشعر الحرام؟ فقال: الكعبة بيت الله والحرم حجابه، والموقف بابه، فلما قصده الوافدون، أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم في الدخول أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة، فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهادهم رحمهم، فلما رحمهم أمرهم بتقريب قربانهم فلما قربوا قربانهم، وقضوا تفثهم وتطهَّروا من الذنوب التي كانت حجاباً بينه وبينهم، أمرهم بزيارة بيته على طهارة. قال: فلم كُرِه[5] الصوم - أي حرم الصوم - أيام التشريق قال: لأنهم في ضيافة الله[6].

ج - من حكمه وأقواله: قال جعفر الصادق: لا زاد أفضل من التقوى ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدوٌّ أضرُّ من الجهل ولا داء أدوأُ من الكذب، وقال: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره[7] وقال: إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب وتورث النفاق[8]. هذا وقد توفي 148هـ.

ثانياً: أسباب خروج زيد بن علي:

كان زيد رحمه الله لا يقبل الذل والهوان، صاحب شخصية فذة، مما جعلته شامخاً كالطود، فقد اتصف بالغيرة على الحق ومحبة العدل ومحاربة الظلم، وقد ساهمت أسباب عديدة في خروجه على هشام ومن هذه:

---

(1) الشيعة وأهل البيت، ص: 78 إلى 83.

(2) سير أعلام النبلاء (6/ 259).

(3) المصدر نفسه (6/ 260).

(4) المصدر نفسه (6/ 260).

(5) كره الصوم: أي حرم لما ثبت عنه ﷺ من النهي عن صوم أيام التشريق، والسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها الذي استعملت به في كلام الله ورسوله: قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: 38].

(6) سير أعلام النبلاء (6/ 265).

(7) المصدر نفسه (6/ 263).

(8) المصدر نفسه (6/ 264).

1 - تأثره بما حدث لأهل بيته من تقتيل وتشريد وقتل جده الحسين بن علي رضي الله عنه وتعرضه هو بالذات إلى الإهانات من ولاة هشام بن عبد الملك ومن هشام نفسه.

2 - تغير الحكم الشوري إلى حكم الملك العضوض مع مجيءالأمويين وما حدث من سفك دماء من الأمويين واستخدام العنف والقوة على الثورات الخارجة عليهم.

3 - شعوره بالمظالم الواقعة على الناس وللمنكرات التي تفشت في زمانه جعله يخرج آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر رافعاً للظلم عن الناس وخاصة الموالي الذين كانت الجزية تبقى مفروضة عليهم حتى بعد إسلامهم[1] وقد صرّح بظلم هشام له عندما راجعه محمد بن عمر بن أبي طالب فقال: خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق ثم إلى رئيس ثقيف يلعب بنا وأنشد:

بكرت تخوّفني الحتوف كأنني أصبحت في عرض الحياة بمعزل
فأجبتها إن المنية منزل لابد أن أسقى بكأس المنهل
فاثني حبالك لا أبالك واعلمي إني امرؤ سأموت إن لم أقتل

أستودعك الله، أني أعطي الله عهداً أن دخلت يدي في طاعة هؤلاء ما عشت[2].

4 - البيئة المناسبة للثورة بالكوفة وفيها أتباع أهل البيت المؤيدون لأحقية أهل البيت بالخلافة الكارهون لحكم بني أمية.

هذه أهم الأسباب العامة التي حملت زيداً على الخروج على الحكم الأموي، أما الأسباب المباشرة التي ذكرها المؤرخون لخروج زيد على هشام فهي تتمثل في عدة مواقف حدثت بينهما[3]، وانتهى كل منها بما أثر عن زيد من أقوال وأشعار يعتزم فيها الخروج على هشام، وكانت حادثة تعمق في نفسية زيد شعوراً حاداً بالثورة نتيجة لما يتعرض له في كل منها من الظلم وسوء المعاملة.

1 - عدم قيام هشام بن عبد الملك بمعرفة حق زيد وتحمل ديونه وقضاء حوائجه وبدلاً من ذلك أغلظ له القول وأساء معاملته، فقد روى ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر: قال لي سالم مولى هشام: دخل زيد على هشام فرفع ديناً كثيراً وحوائج فلم يقض له هشام حاجة وتجهمه وأسمعه كلاماً شديداً فخرج من عنده وهو يأخذ شاربه ويقلبه ويقول: ما أحب الحياة أحد إلا ذلّ، ثم مضى فكانت وجهته الكوفة[4].

(1) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 120.
(2) الخطط للمقريزي (3/ 338) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 121.
(3) الإمام زيد المفترى عليه، ص: 122.
(4) تاريخ دمشق نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص: 126.

2 - عدم استماع هشام لزيد في إحدى خصوماته وعدم إنصافه إياه، فقد روى ابن الأثير وغيره: أن زيداً كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي في ولاية وقوف علي، وكان زيد يخاصم عن بني الحسين وجعفر يخاصم عن بني الحسن، فكانا يتبالغان بين يدي الوالي إلى كل غاية ويقومان فلا يعيدان مما بينهما حرفاً، فلما مات جعفر نازعه عبد الله ابن الحسن بن الحسن فتنازعا يوماً بين يدي خالد بن عبد الملك بن الحارث، وأراد والي هشام على المدينة أن يوقع بينهما وأراد عبد الله بن الحسن أن يتكلم، فقال زيد: لا تعجل يا أبا محمد، أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبداً، ثم أقبل على خالد فقال: جمعت ذرية رسول الله ﷺ لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر فقال خالد: أما لهذا السفيه أحد... ثم ذهب زيد إلى هشام يشكو إليه مما فعله خالد، فجعل هشام لا يأذن له فيرفع القصص فكلما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها: ارجع إلى منزلك[1].

3 - اتهام هشام بن عبد الملك لزيد بالإعداد للخروج عليه وتحقيقه معه في ذلك وإغلاظه القول له في التحقيق، فقد قال له هشام ذات يوم: لقد بلغني يا زيد إنك تذكر الخلافة وتتمنّاها ولست هنالك وأنت ابن أمة، قال زيد: إن لك جواباً. قال: فتكلّم قال: إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع درجة عنده من نبيّ ابتعثه، وقد كان إسماعيل ابن أمة وأخوه ابن صريحة - أي حرة - فاختاره الله عليه وأخرج منه خير البشر وما على أحد من ذلك إذ كان جده رسول الله وأبوه علي بن أبي طالب ما كانت أمّه قال، له هشام: اخرجْ قال: أخرجُ ثم لا أكون إلا بحيث تكره.. فخرج من عنده وسار إلى الكوفة[2].

ثالثاً: بيعته واستشهاده:

قدم زيد الكوفة وأقام بها مستخفياً يتنقل في المنازل، وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه، فبايعه جماعة منهم وكانت بيعته: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، وردّ المظالم، ونصر أهل البيت، أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قالوا: نعم، وضع يده على أيديهم ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله، ﷺ، لتفين بيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحنّ لي في السر والعلانية فإذا قال: نعم، مسح يده على يده ثم قال: اللهم اشهد، فبايعه خمسة عشر ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، فأمر أصحابه بالاستعداد، فأقبل من يريد أن يفي له ويخرج معه ويستعدّ ويتهيّأ، فشاع أمره في الناس[3]. ومن خلال نصّ البيعة تظهر الأهداف التي دعا

(1) الكامل في التاريخ (3/ 374).
(2) المصدر نفسه (3/ 374).
(3) المصدر نفسه (3/ 375).

إليها زيد، فقد دعا إلى الكتاب، والسنة، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين، وردّ المظالم ونصرة أهل البيت[1]، هذه الأهداف الكبيرة هي التي نهض لمثلها زيد وأيدها الإمام جعفر الصادق والإمام أبو حنيفة[2]. وقد اعترض بعض الناس على خروج زيد منهم:

1 - عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب:

فقد كتب كتاباً إلى زيد جاء فيه: أما بعد فإن أهل الكوفة نفخ في العلانية، خور في السريرة، هرج في الرخاء، جزع في اللقاء تقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبهم، ولقد تواترت إليّ كتبهم بدعوتهم، فصممت أذني عن ندائهم، وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم بأساً منهم، واطراحاً لهم، وما لهم مثل إلا ما قال علي بن أبي طالب: إن أهملتم خضتم وإن حوربتم خرتم وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم[3].

2 - داود بن علي ينصح زيد:

وعندما بايع أهل الكوفة زيد قال داود بن علي: يا بن عمّ إن هؤلاء يغرّونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك جدّك علي بن أبي طالب حتى قتل؟ والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه وجرحوه؟ أو ليس قد أخرجوا جدّك الحسين وحلفوا له وخذلوه وأسلموه ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا ترجع معهم[4]، . . . وقال له: إني خائف إن رجعت معهم أن لا يكون أحد أشدّ عليك منهم وأنت أعلم. ومضى داود إلى المدينة[5].

3 - سلمة بن كُهَيْل:

جاء سلمة بن كُهَيْل فذكر لزيد قرابته من رسول الله ﷺ، وحقّه، فأحسن ثم قال له: ننشدك الله كم بايعك؟ قال أربعون ألفاً. قال: فكم بايع جَدَّك؟ قال: ثمانون ألفاً. قال: فكم حصل معه؟ قال: ثلاثمائة. قال: نشدتك الله أنت خير أم جَدّك؟ قال: جدّي. قال: فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟ قال: ذلك القرن. قال: أفتطمع أن يَفي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدّك؟ قال: قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم. قال: أفتأذن لي أن أخرج من هذا البلد؟ فلا آمن أن يحدث حدثٌ فلا أملك بنفسي، فأذن له فخرج إلى اليمامة[6].

استمر زيد في حشد الأنصار وكانت الأجهزة الأمنية الأموية تتابع الأحداث ومجريات الأمور، وكان زيد يتنقل في الكوفة تارة في بني عبس وتارة في بني هند، وتارة في بني تغلب

(1) تاريخ الإسلامي الثقافي والسياسي، ص: 566.
(2) المصدر نفسه، ص: 556.
(3) الكامل في التاريخ (3/ 376).
(4) الكامل في التاريخ (3/ 376).
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه.

وغيرهم إلى أن ظهر[1] ولما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج وأخذ من كان يريد الوفاء له بالبيعة يتجهزّ وصل الأمر إلى والي العراق يوسف بن عمر، فاستنفر أجهزة الدولة للقضاء على زيد[2].

4 - انشقاق الشيعة الرافضة عن زيد بن علي وغدرهم به:

كان ذلك على وجه التحديد في سنة إحدى وعشرين ومئة عندما خرج زيد بن علي بن الحسين على هشام بن عبد الملك[3]، فأظهر بعض من كان في جيشه من الشيعة الطعن على أبي بكر وعمر فمنعهم من ذلك، وأنكر عليهم فرفضوه، فسموا بالرافضة وسميت الطائفة الباقية معه بالزيدية[4]، يقول ابن تيمية: إن أول ما عرف لفظ الرافضة في الإسلام عند خروج زيد بن علي في أوائل المئة الثانية، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما فرفضه قوم فسموا رافضة[5].

وقال: ومن زمن خروج زيد افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية، فإنه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما رفضه قوم فقال لهم: رفضتموني فسموا رافضة لرفضهم إياه، وسمي من لم يرفضه من الشيعة زيدياً لانتسابهم[6]. ومنُذ ذلك التاريخ تميزت الرافضة عن باقي فرق الشيعة، فأصبحت فرقة مستقلة باسمها ومعتقدها[7]. وجاء في رواية قول زيد في الشيخين: . . . وقد وُلّوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة قالوا: فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم؟ فقال: إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ، وإلى السنن أن تُحيا وإلى البدع أن تطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: سبق الإمام، يعنون محمد الباقر، وكان قد مات، وقالوا: جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه، فسمّاهم زيد الرافضة[8]. هذه هي عقيدة زيد بن علي في الشيخين أبي بكر وعمر، وأعلنها بوضوح وجلاء، لأنه كان يتقي الله حق تُقاته ويخشاه أشدّ الخشية، مع أنه كان في وسع زيد بن علي - لو كان رجل دنيا - أن يُمالي هؤلاء الرافضة الذين أرادوا أن يحملوه على اتباع أهوائهم بمشاركته لهم في القدح في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولو على سبيل التَّقية وذلك ليستميلهم إلى صفَّه ليعينوه ويناصروه، حتى يتحقق له هدفه من خروجه على هشام بن عبد الملك، ولكنه أبى ورفض طلبهم، وآثر التمسك بالحق الذي يجب أن يُتّبع، ولو أسخط في

---

(1) الكامل في التاريخ (3/ 377).
(2) المصدر نفسه (3/ 380).
(3) تاريخ الطبري (7/ 160) الانتصار للصحب والآل، ص: 47.
(4) الانتصار للصحب والآل، ص: 47.
(5) مجموع الفتاوى (13/ 36).
(6) منهاج السنة (1/ 35).
(7) الانتصار للصحب والآل، ص: 48.
(8) الكامل في التاريخ (3/ 380).

رضاء الله جميع البشر، ذلك لأنه لا يمكن أن يشذَّ عن النهج الذي كان عليه والده زين العابدين علي بن الحسين ومن قبله والده ثم جدّه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حبهم الصادق لأبي بكر وعمر وعثمان[1] والصحابة جميعاً.

5 - استشهاد زيد:

ترك الرافضة زيداً وحده وكان والي الأمويين ابن هبيرة يعمل على استفزاز زيد للخروج وأظهر معرفته بشأنه ليستعجل خروجه وقد كان له ذلك، فقد قرر سريعاً أن يخرج في يوم أربعاء، فدعا ابن هبيرة أهل الكوفة إلى المسجد يوم الاثنين، وأغلق الأبواب عليهم، ومنعهم من الخروج، وكان اليوم برداً، فقضوا ليلتهم مرتجفين من البرد حتى إذا أسرع زيد بن علي إلى لمّ جماعته لم يجد إلا نحواً من مائتي رجل[2]، وأقبل زيد على المسجد بالمائتين من أتباعه، وفتح الأبواب لأهل الكوفة، فخرجوا معتذرين عن اللحاق به للبرد الذي ألم بهم، وكان جيش أهل الشام متجهاً من الحيرة إلى الكوفة فخرج إليه زيد، وقاتل مع فئته قتالاً شديداً[3]، وهو يتمثل:

أذلّ الحياة وعز الممات وكلاً أراه طعاماً وبيلا
فإن كان لابد من واحد فسيري إلى الموت سيراً جميلا[4]

إلا أن السهام كانت أقوى منه فانهزم جماعته، وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخناً بالجراح، وقد أصابه سهم في جبهته فطلبوا من ينزع النصل، فأتوا بحجّام من بعض القرى، واستكتموه الخبر، فاستخرج النصل، فمات من ساعته، فدفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش، وأجرى الماء على ذلك وحضر الحجام دفن الإمام زيد، فعرف الموضع وقال ليوسف بن عمر بن هبيرة، فاستخرج يوسف جثته وبعث برأسه إلى هشام وصلب جسد زيد[5].

ولما وصل رأس زيد إلى هشام، استاء من قتله وكان لا يحب القتل[6]، وجاءت روايات لا تصح ولا تثبت بأن هشاماً أمر يوسف ابن عمر أن يصلب زيداً عرياناً[7]. وبعد مقتل زيد توجه

(1) الزيدية نشأتها ومعتقداتها، القاضي إسماعيل ابن الأكوع، ص: 21.
(2) تاريخ الطبري (8/ 54).
(3) مروج الذهب (3/ 217) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 377.
(4) أدب السياسة في العصر الأموي، د. أحمد الحافي، ص: 43.
(5) تاريخ الطبري (8/ 60).
(6) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 290.
(7) مروج الذهب (3/ 217).

ابنه يحيى إلى خراسان، فأقام بها مدة إلى حين وفاة هشام بن عبد الملك، وولاية الوليد بن يزيد فخرج، وسرعان ما قتل[1].

ويرى الذهبي أن يحيى قتل بخراسان في عهد هشام[2]. وقال الليث بن سعد: قتل يحيى سنة خمس وعشرين ومئة ﷺ[3]. وقد تأثر هشام لمقتل زيد ويحيى ودخله من مقتلهما أمر شديد حتى قال: وددت لو كنت افتديتهما[4]. والمتتبع لسياسة هشام مع زيد يرى أن هشاماً لم يوفق في استيعاب زيد وكان يمكنه ذلك.

رابعاً: أسباب فشل ثورة زيد:

فشلت ثورة زيد لأسباب عديدة منها:

1 - **الجهاز الأمني عند الأمويين:** استطاع جهاز أمن الدولة الأموية أن يخترق التنظيم الثوري الذي كان يقوده زيد بن علي، فقد راقب رجال جهاز الأمن الأموي زيداً وتحركاته وعرفوا الأماكن التي كان يختفي فيها وكثيراً من أعوانه، وعلموا بساعة الصفر المحددة للثورة وهذا ما حمل زيداً على تقديم موعد الثورة والتعجيل بها قبل الموعد الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة[5]، وكان لهذا السبب أثر في ضعف الوسائل التي أريد بها تحقيق الخطط الموضوعة للثورة[6].

2 - **خيانة الرافضة وخذلانهم لزيد:** تمّت البيعة ليزيد والناس على علم من معتقدات زيد وأهداف ثورته، إلا أن الرافضة طلبوا منه البراءة من الشيخين أبي بكر وعمر، وعندما امتنع عن ذلك تركوه وكان الإعداد قد قطع مراحل متقدمة لإعلان الثورة، وانفض الشيعة الرافضة من حوله وهو في أشد الحاجة إليهم، وفي هذا درس كبير لمن يتحالف مع الشيعة الرافضة في الرخاء.

3 - **خوف أهل الكوفة وجبنهم:** كانت للتدابير المشددة التي اتبعها يوسف بن عمر أثر بليغ في نفوس أهل الكوفة وتخاذلهم، فلما أراد يوسف ابن عمر الحيلولة بين الناس وبين المشاركة في الثورة وأمرهم بالدخول إلى المسجد، اندفعوا إليه لا يبدون أي مقاومة لهذا الأمر حتى يخيل للناظر أنهم رحبوا بالأمر لأنهم اعتبروه بمثابة عذر لهم عن التخلف، وعن المشاركة في القتال، يدل على هذا أن زيداً وأصحابه لما حرضوا الناس على الخروج من المسجد ومشوا لفك الحصار عنهم، لم يروا استجابة من الناس[7]، وكثير من الناس ممن بايعوا نكثوا بيعتهم، فكان ذلك من أسباب فشل ثورة زيد[8].

---

(1) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 226.
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 5/ 391).
(3) المصدر نفسه (5/ 391).
(4) المصدر نفسه (5/ 352).
(5) ثورة زيد بن علي، ناجي حسن، ص: 119.
(6) المصدر نفسه، ص: 119.
(7) ثورة زيد بن علي، ص: 122، 123.
(8) المصدر نفسه، ص: 124.

4 - **جند الشام:** كان جند الدولة النظامي من أهل الشام له وجوده بالعراق منُذ عهد معاوية، وقد ساهم في القضاء على كثير من الثورات بالعراق، فلما ثار زيد بن علي بالكوفة هب الأمويون للقضاء على هذه الثورة بكل ما أتوا من قوة، معتمدين بصورة رئيسية على الجند الشامي بالإضافة إلى المرتزقة، وكان هشام يرسل نجدات عسكرية من الشام لتكون سند لجند أهل الشام[1]، وكان للجيش الأموي الشامي الدور الحاسم في القضاء على تلك الثورة[2].

5 - **العجلة التي حدثت للثورة:** يظهر للمتتبع لثورة زيد بأنه تعجل في إعلانها على الأمويين وأدى هذا التعجل إلى قتله. ولما علم الزهري بمقتل زيد بكى وقال: أهلك أهل هذا البيت العجلة[3] فيفهم من ذلك أن الزهري كان يرى هناك عجلة في ثورة زيد وأنه لم ينتظر حتى تنضج الحركة ولم يعطِ الوقت حقه.

6 - **دعوة بني العباس:** لعبت دعوة بني العباس دوراً مؤثراً سلبياً في الجهود التي بذلها زيد ابن علي، فالمؤرخون يرون أن عام 100هـ كان بداية لتأليف الجماعات السرية التي تدعو إلى بني العباس وتعمل للقضاء على دولة بني أمية، فقد توجه دعاة العباسيين بأمر محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المتوفى عام 125هـ، إلى مختلف الأقطار يبثون الدعوة وينشرونها بين الناس[4]. وقد لاقى الدعاة أقصى ضروب التعذيب والتنكيل على يد ولاة بني أمية، ولكن الدعاة استمروا في طريقهم واستطاعوا أن يجذبوا الكثير من المؤيدين بفضل براعتهم وخبرتهم بأحوال الناس[5]. فكانوا يدورون كورة كورة وبلداً بلداً في زي التجار[6]، وكانت الكوفة إحدى القواعد الرئيسية التي اعتمدوا عليها في نشر دعوتهم والتبشير بها، فكانت الكوفة مسرحاً لدعوتين تعملان في وقت واحد، لكل منها دعاتها وأنصارها، وهاتان الدعوتان وإن اختلفتا في بعض أهدافها إلا أنهما كانتا تهدفان إلى خلع بني أمية وبيعة بني هاشم، وقد أشارت سرعة نجاح زيد مخاوف العباسيين، وهذا ما حمل محمد بن علي على أن يطلب من بُكير بن ماهان وكان يتولى الدعوة في العراقيين[7] أن يخذل الناس عن زيد، حين قال له: أظلكم خروج رجل من أهل بيتي بالكوفة يغتر في خروجه كما اغتر غيره، فيُقتل ضيعة ويصلب، فَحَذِّر الشيعة قبلكم أمره[8] وهكذا انصاع بُكير بن ماهان لأمر محمد بن علي،

---

(1) ثورة زيد بن علي، ص: 118.

(2) المصدر نفسه.

(3) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 499.

(4) ثورة زيد بن علي، ص: 124 نقلاً عن تاريخ الطبري.

(5) الأخبار الطوال، ص: 337، ثورة زيد بن علي، ص: 125.

(6) المصدر نفسه، ص: 344، ثورة زيد بن علي، ص: 125.

(7) الأخبار الطوال، ص: 336 ثورة زيد بن علي، ص: 126.

(8) ثورة زيد بن علي، ص: 126.

ورجع إلى الكوفة وأمر أصحابه بالخروج من الكوفة إلى الحيرة كي يحول بينهم وبين المساهمة في القتال إلى جانب زيد بن علي، ولما قتل زيد بن علي عادوا إلى الكوفة[1]. وكان هذا أحد أسباب تخلي بعض أهل الكوفة عن زيد[2].

7 - امتناع مجموعة من الشيعة الإمامية عن مناصرة زيد: لا يخفى أن الشيعة الإمامية يعتقدون أن الإمامة في علي بن أبي طالب ومن بعده ابنه الحسن ثم الحسين، فعلي بن الحسين، فمحمد بن علي، فجعفر بن محمد الصادق، فكان لهذا المعتقد أثره على الشيعة الإمامية بالكوفة، فعامة الشيعة - وكما يبدو - يعتقدون إنه إنما خرج داعياً للإمامة على الرغم من وجود ابن أخيه الصادق مما أدى إلى عدم مشاركة غالبية الشيعة الإمامية في الثورة[3].

خامساً: موقف العلماء من ثورة زيد:

يقول محمد أبو زهرة: ولقد كان العلماء يعتبرون ثورة زيد على الطغيان الأموي ثورة أهل العلم والزهادة والنسك عليهم، حتى إن بعض المؤرخين يذكر أن الذين قاتلوا مع زيد كانوا من القراء والفقهاء، ويقول أيضاً: ولقد كان ﷺ عظيم الثقة في الفقهاء والمحدثين، لأنه منهم، ولذلك لما اشتدت الأمور، ورأى تخاذل الناس عنه كان يرسل إليهم يستنصر بهم، ولذلك كان أكثر المجاهدين معه من شبابهم، وقد كان سفيان الثوري محدث الكوفة وواعظها إذا ذكر زيداً بكي على ما فقده من العلم بفقده وعلى ما فقده التقى والفضل بإصابته، وقد خرج معه بعض القضاة. ثم قال أبو زهرة: وهكذا نرى ثورته كانت ثورة الفقهاء والقراء والمحدثين وأهل التقى[4]. وهذا كلام غير دقيق لأن هناك من العلماء من عارض الخروج على هشام بن عبد الملك في ثورة يزيد، ومن خلال التتبع لحركة زيد بن علي واستقراء موقف العلماء منها اتضح أن هناك بعض العلماء الذين أيدوا حركة زيد وحرضوا عليها وهم قلة نادرة، وهناك عدد آخر لم يؤيد خروج زيد ونصحوه بعد الخروج وهؤلاء هم الأكثر[5].

1 - أما العلماء الذين اشتهر عنهم أنهم أيدوا زيد بن علي في خروجه: أبو حنيفة النعمان، فقد ورد أنه كان يصرح بتأييده لحركة زيد ويحض عليها، ولكنه مع هذا لم يشارك في القتال، فذكر أن زيد بن علي أرسل إليه يدعوه إلى البيعة فقال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام حق، ولكن أعينه بمالي، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم وقال للرسول: ابسط عذري عنده[6]. وممن ذكر أنه أيد زيد بن علي: العالم الجليل منصور بن

(1) ثورة زيد بن علي، ص: 126.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه، ص: 127، 128.
(4) الإمام زيد، ص: 72، 73.
(5) أثر العلماء في الحياة السياسية للدولة الأموية، ص: 496.
(6) مناقب أبي حنيفة، حافظ الدين الكردي، ص: 267.

المعتمر، فقد ورد أنه كان يحرض على الخروج مع زيد، فعن عقبة بن إسحاق قال: كان منصور بن المعتمر يأتي زيد بن الحارث، فكان يذكر له أهل البيت ويعصر عينيه يريده على الخروج أيام زيد بن علي[1].

2 - وأما العلماء الذين لم يؤيدوا حركة زيد ونصحوه بعدم الخروج فهم أكثر ممن أيده على ذلك، وممن لم ير خروجه من العلماء ابن عمه عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وسلمه ابن كهيل وقد بينت ذلك فيما مضى، وحين قيل للإمام العالم الأعمش أيام خروج زيد: لو خرجت؟ قال: ويلكم، والله ما أعرف أحداً أجعل عرضي دونه، فكيف أجعل ديني[2]؟ وأما الإمام الزهري فإنه لما علم بمقتل الإمام زيد بكى وقال: أهلك أهل هذا البيت العجلة[3] وكما نصح هؤلاء العلماء زيداً بعدم الخروج أو الثقة بأهل الكوفة كذلك نصحه أهل الرأي من قرابته كمحمد عمر بن علي بن أبي طالب، وداود بن علي بن عبد الله بن عباس بذلك أيضاً[4].

وحين ترجم الإمام الذهبي للإمام زيد بن علي ﷺ قال: كان ذا علم، وصلاح، وهفا وخرج، فاستشهد، وقال في موضع آخر: خرج متأولاً وقتل شهيداً، وليته لم يخرج[5] ومما سبق تدرك أن العلماء الذين لم يروا خروج زيد أكثر ممن أيده على خروجه، كما يتضح بعد هذا العرض خطأ من حكم بأن ثورة زيد ثورة العلماء والفقهاء إذ لا دليل يصح يعتمد عليه في ذلك. بل عكس ذلك أولى بالصحة[6].

سادساً: أثر مقتل زيد على الدولة الأموية:

كان لثورة زيد بن علي تأثير مهم في سير الأحداث التي وقعت في العصر الأموي، وتمخضت عنها نتائج بعيدة المدى وكان فشلها بمثابة الدافع لحركات أخرى حذت حذوها، فقد هرب يحيى بن زيد إلى خراسان وأعلن الثورة على الأمويين هناك[7] إيفاء بوعده الذي قطعه لوالده حين قال له: أقاتلهم والله لو لم أجد إلا نفسي[8]. ومع أن يحيى فشل في القضاء على الحكم الأموي كما فشل أبوه من قبل، إلا أن هاتين الثورتين مهدتا بصورة غير مباشرة الطريق للقضاء على الدولة الأموية[9]، واستغل العباسيون العطف الذي لقيه يحيى بن زيد في خراسان لكسب الأتباع والأنصار لهم، وحين قتل يحيى بن زيد ظل أهل خراسان يبكون صباحاً مساء[10]

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 294).
(2) سير أعلام النبلاء (6/ 234).
(3) تاريخ دمشق نقلاً أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 499.
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 500.
(5) المصدر نفسه، ص: 500.
(6) ثورة زيد بن علي، ص: 137.
(7) تاريخ الطبري نقلاً عن ثورة زيد بن علي، ص: 137.
(8) ثورة زيد بن علي، ص: 137.
(9) المصدر نفسه، ص: 137.
(10) المصدر نفسه، ص: 138.

والواقع أن شعار السواد الذي اتخذه العباسيون، إنما يستمد جذوره من ثورة زيد وما حدث لابنه يحيى بعد ذلك، فقد اتخذ أهل خراسان السواد بسببهما[1]، ويبدو أن دعاة الزيدية الذين ثاروا بخراسان ومهدوا للثورة العباسية لم يقوموا بهذا الدور بصفتهم من أتباع زيد، بل كان بوصفهم ثوار على الظلم يريدون دولة تعمل بالكتاب والسنة وتنفذ أحكام القرآن ويقوم على رأسها الرضا من آل البيت[2] وقد استفاد العباسيون من هذه العواطف والمشاعر التي تفجرت في نفوس الناس بسبب مقتل زيد وابنه، ووظفتها من خلال التنظيم العباسي من ضمن الوقود المحرك للناس ضد الأمويين.

سابعاً: ثورة البربر في الشمال الأفريقي:

تكرر الظلم والتعسف أيام إمارة عبيد الله بن الحبحاب والذي تولى إمارة إفريقية 116هـ واشتد استياء البربر المسلمين من هذه الأفعال القبيحة، ورأوا التناقض الصارخ بين تعاليم الإسلام وبين سلوك هؤلاء العمال، وأصبحت عندهم قابلية للتمرد في الوقت الذي فشت فيه النزعة الخارجية في إفريقية والمغرب، ونادى أصحابها بشعارات خارجية، ظاهرها فيه بعض الحق وباطنها ينطوي على شر عظيم، كالمساواة بين المسلمين ووجوب الخروج على الحكام الظلمة وغيرها، فصادف ذلك هوى في نفوس البربر، وتحمس كثير منهم لما نادى به دعاة الخوارج، إلا أنهم لم يعلنوا التمرد والعصيان إلا بعد أن يئسوا من إمكانية تبليغ صوتهم بالشكوى إلى الخليفة، ذلك ما ذكره الطبري حيث قال: فما زال - بربر إفريقية من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمن هشام بن عبد الملك. . فلما دب إليهم دعاة العراق واستشاروهم شقوا عصاهم وفرقوا بينهم إلى اليوم[3]. وكان من سبب تفريقهم أنهم ردوا على أهل الأهواء فقالوا: إنا لا نخالف الأئمة، بما تجبي العمال، ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبورهم - أي نختبرهم - فخرج مسيرة المظفري زعيم الصفرية في بضعة عشر إنساناً حتى قدم على هشام فطلبوا الإذن فصعب عليهم، فأتوا الأبرش وزير هشام بن عبد الملك فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا. وقال: تقدموا وأخرّ جنده فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الأجر ومثلكم كفى إخوانه. . . ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك، ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين

(1) ثورة زيد بن علي، ص: 138.

(2) المصدر نفسه، ص: 139.

(3) عصر الدولتين الأموية والعباسية للصَّلَّابي، ص: 51.

ذلك أم لا[1] ؟ قال: نفعل. فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم... كان وجههم إلى إفريقية فخرجوا على والي هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية. وهكذا اندلعت بإفريقية والمغرب ثورات لا نهاية لها، ابتدأت سنة 122هـ وهي أول ثورة في إفريقية في الإسلام، وتضافرت جهود الإباضية والصفرية للإطاحة بحكومة القيروان، وأصبح همّ الخليفة في المشرق القضاء على هذه الثورات، فكان يرسل الجيش تلو الآخر، وقد ذكروا أن هذه الحروب مُنذ أن استعرت إلى أن تم القضاء عليها عام 156هـ بلغت 375 موقعة ذهب ضحيتها آلاف القتلى، وقد شارك فيها العلماء مقاتلين وواعظين، فقد استنجد حنظلة بن صفوان بمن تبقى من بعثة عمر بن عبد العزيز لما ثارت عليه الخوارج، وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين سنة تمكن الخوارج من خلالها من الاستيلاء على القيروان مرتين، حيث استولى عليها الصفرية سنة 140هـ، لمدة سنة وشهرين، وقد ربطوا دوابهم في المسجد الجامع وقتلوا كل من كان فيها من قريش، وعذبوا أهلها... ثم وليها بعدهم الإباضية لمدة سنتين[2].

هذا ولما بلغت أخبار الخوارج في إفريقية هشام بن عبد الملك ولى عليها كلثوم بن عياض القشيري في جمادى الآخرة سنة 123هـ، وأرسله إليها في جيش قوامه اثنا عشر ألف، وخرج معه أهل مصر وأهل برقة، وأهل طرابلس، وزحف إلى الشمال الإفريقي متوغلاً سنة 123هـ فلقيه ميسرة من رؤساء الخوارج الصفرية - بقرب طنجة - في جموع من البربر كثيرة واستماتوا في قتاله حتى قتلوه وهزموا جيشه، وقويت شوكة الخوارج واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء في المشرق[3]. واستمرت معارك الدولة الأموية في عهد هشام وخوارج الشمال الأفريقي، وكان من أشهر ولاة الأمويين في تلك المرحلة كلثوم بن عياض وحنظلة بن صفوان الذي تولى ولاية إفريقية والمغرب سنة 124هـ، وشرع في الاستعداد للدفاع عن القيروان واشتبك في قتال مع الخوارج الصفرية الذين كانوا يستحلون أموال أهل السنة، ويستحيون نساءهم وقتلهم في معركة القرن في عام 124هـ وقيل: قتل فيها ما يزيد عن مائة وسبعين ألفاً[4] وهذا رقم مبالغ فيه. وكانت حرباً في أبشع صور الحروب القاسية، فهبت ريح النصر على أتباع الدولة الأموية وهزم الخوارج وقتل عبد الواحد بن يزيد من برابرة هوارة وجيء برأسه وبعكاشة أسيراً[5]. وسمع الليث بن سعد الفقيه المصري بخبر هذه المعركة فقال: ما غزوة كنت أحب أن أشهدها

---

(1) تاريخ الطبري، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص: 181.

(2) مدرسة الحديث من القيروان (1/ 56 إلى 61).

(3) تاريخ الفتح العربي، ص: 161 - 163.

(4) المصدر نفسه.

(5) تاريخ الفتح العربي، ص: 166، عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص: 58.

بعد غزوة بدر أحب إليَّ من غزوة القرن[1]. ووصل خبر هذه المعركة إلى هشام مطلع 125هـ وكان هشام مريضاً[2] هذا وقد قامت ثورات متعددة للخوارج في عهد هشام وقام الحارث بن سريج بثورة في بلاد خراسان ولكنها لم تنجح في الوصول إلى أهدافها، وقام الصفد في بلاد ما وراء النهر بثورة، وقامت بمصر حركات وانتفاضات صغيرة محدودة الأثر بسبب المعاملة السيئة لبعض الولاة، ومن أراد التوسع في هذه الثورات والحركات فليراجع عصر هشام بن عبد الملك[3]. وكل تلك الثورات بسبب انحراف هشام بن عبد الملك عن منهج عمر بن عبد العزيز الذي لزم العدل وأمر به عماله، فلو سار هشام وغيره على هذا المنهج لوفر على الأمة خسائر هائلة في الأموال والأرواح.

المبحث الخامس

الفتوحات في عهد هشام بن عبد الملك

لم تعد هناك فتوحات واسعة كالتي حدثت أيام الوليد، وإنما كانت غزوات يحدث فيها تقدم قليل ثم يعود المسلمون على إثرها إلى ثغورهم أو تُفتح رقعة صغيرة من الأرض، أو بعض الحصون، أو يحدث قتال بسبب نقض العهد من قبل أعداء المسلمين، الأمر الذي يضطر فيه المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم إلى طلب الصلح ثانية ودفع الجزية[4].

أولاً: الجبهة الغربية:

1 - في بلاد الروم:

استمرت الغزوات في أرض الروم طيلة أيام هشام فكانت تندفع الصوائف والشواتي مجاهدة في البر والبحر، ولكن لم تحدث معها تغييرات في الحدود، وإنما توغل في أرض الروم ثم عودة إلى الحصون الكائنة على مرتفعات جبال طوروس، وكان أشهر قادة تلك الغزوات: مسلمة بن عبد الملك بن مروان، ومعاوية بن هشام بن عبد الملك وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله البطال، وسعيد بن عبد الله، وإبراهيم بن هشام، والوليد بن القعقاع العبسي، والنعمان بن يزيد بن عبد الملك، ومسلمة بن هشام بن عبد الملك، وفي عام 107هـ غزا[5] معاوية بن هشام الصائفة وكان على جيش الشام ميمون بن مهران، فقطع البحر

---

(1) البيان المغرب (1/ 59) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 205.

(2) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 205.

(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 208 إلى 235.

(4) التاريخ الإسلامي (4/ 274).

(5) المصدر نفسه (4/ 274).

إلى قبرص، وفتح مسلمة بن عبد الملك عام 108هـ[1] مدينة قيصرية، ثم رجع عنها إلى الثغور ووصل سعيد بن هشام عام 111هـ[2]. إلى مدينة قيصرية أثناء توغله في أرض الروم وهزم عبد الله البطل قسطنطين وجيشه وأسره، ووصل سليمان بن هشام إلى مدينة قيصرية ثانية[3]، ورابط معاوية بن هشام عام 113هـ في ناحية مرعش، وكان قد فتح حصن خرشنة قبل عام[4].

2 - البحر:

كذلك فقد حدثت غزوات بحرية للجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر قادة البحر: عبد الله بن عقبة بن نافع وعبد الله بن أبي مريم، وميمون بن مهران، وغزا أمير إفريقية جزيرة صقلية عام 121هـ ، وكان قائد الغزو حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الذي استطاع فتح مدينة سرقوسة، وكذلك غزا أمير إفريقية عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينيا عام 117هـ.

3 - في الأندلس: معركة بلاط الشهداء: 141هـ

وصل عبد الرحمن الغافقي إلى ولاية الأندلس للمرة الثانية وكان من القادة الأفذاذ الذين عرفهم التاريخ الإسلامي، وقد اشتهر عبد الرحمٰن الغافقي بورعه وتقواه وصلاحه وإيمانه القوي وكان يقول: لو كانت السمٰوات والأرض رتقاً لجعل الله للمتقين منها مخرجاً[5] وعبر عبد الرحمن جبال البريه في أوائل عام 114هـ مع حوالي سبعين ألفاً من المسلمين، بعد أن احتفل في بنبلونة بإعداد حملته، ففتح عبد الرحمٰن مدينة آرل ثم بوردو «بُزدال» حيث سجل عبد الرحمٰن نصراً رائعاً على الدوق أودو وأسرع أودو إلى شارل مارتل يستنجده[6]، خاصة بعد أن اجتاح الغافقي نصف فرنسا الجنوبي كله من الغرب إلى الشرق، ووصلت جيوش المسلمين للمرة الثانية إلى أبواب باريس في غضون سبع سنوات، واستولوا على بواتييه وتقدموا صوب مدينة تور وأدرك شارل مارتن أن دولة الفرنجة ذاتها هي خطوة المسلمين التالية، فقرر التحالف مؤقتاً مع دوق أوكيتانيا لمواجهة الخطر الإسلامي المشترك، فكانت المنازلة الكبرى بين الجيش الإسلامي والجيش الفرنجي في 114هـ/ 732م في سهل يقع شمال بواتييه، فعرفت المعركة في المصادر الأجنبية باسم معركة بواتييه، ولكنها عرفت في

---

(1) الكامل في التاريخ (3/ 318).
(2) المصدر نفسه (3/ 328).
(3) التاريخ الإسلامي (4/ . 273)
(4) الكامل في التاريخ (3/ 340)0
(5) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص: 186، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(6) عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، ص: 107.

المصادر العربية باسم بلاط الشهداء لكثرة من قتل من المسلمين وعلى رأسهم الغافقي ذاته فكانت الهزيمة[1].

أ - أسباب الهزيمة:

- قال المؤرخون: إن السبب في الهزيمة تلك المسافات الشاسعة جداً عن مركز الخلافة في دمشق، فلا إمدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة. وفي الحقيقة هذا السبب لا قيمة له بدليل انتصار المسلمين في بدء المعركة على أعدائهم الذين لمسوا نقطة ضعف المسلمين بعدها مباشرةً.

- كما عَزَا آخرون سبب الهزيمة إلى ما كان بين العرب والبربر من صراع آنذاك وهذا عامل يحسب حسابه، ينبغي ألّا يُهْمل[2].

- أمّا السبب المباشر للهزيمة فهو الغنائم التي جمعها المسلمون أثناء زحفهم من المدن التي مروا بها قبل المعركة الفاصلة، فالمراجع متفقة على أنّ الجيش الإسلامي كان يجر قوافل محملة بالغنائم والأسلاب من كل صنف، ولعل تعلق الجند بهذه الغنائم كان كبيراً، لأنَّهم حملوها معهم حتى نهر اللوار، ولو أحسنوا لبعثوا بها جنوباً إلى الأندلس، حتى يطمئنوا عليها، وتخلو أيديهم للعمل الجاد في المعركة، إنَّهم حرصوا عليها فكان هذا الحرص العامل الرئيسي والأساسي لهزيمتهم، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم فعرف كيف يستغله لصالحه[3].

كانت بواتييه «بلاط» في أواسط تشرين الأوّل 732م، أواخر شعبان 114هـ ، وتثبت المراجع تفوق المسلمين على أعدائهم في بدء المعركة، ثم حدث أن اندفعت فرقة من الفرنجة إلى خلف صفوف المسلمين، حيث أودع المسلمون غنائمهم، فخشي الكثير منهم أن يستولي الفرنجة على غنائمهم، فالتفت بعضهم وعاد إلى الخلف ليبعد الأعداء عنها، وهنا اضطربت، صفوف المسلمين، واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة، ودار القتال بعنف وقوة فزلزل نظام المسلمين، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده، ويعيد النظام، أو يصرف الجند عن الهلع عن الغنائم فلم يوفق وأصابه سهم أودى بحياته، وكان ذلك بداية الهزيمة، إذ انهال الفرنجة على المسلمين من كل جانب، وصبر المسلمون، حتّى أقبل الليل فانتهزوا فرصة حلول الظلام، وتسلَّلوا متراجعين إلى الجنوب على عجل، وكان ذلك في 20 تشرين الأول 732م أوائل شهر رمضان 114هـ[4].

---

(1) الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص: 65.
(2) عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، ص: 108.
(3) فجر الأندلس نقلاً عن عوامل النصر والهزيمة، ص: 108.
(4) عوامل النصر والهزيمة، ص: 109

ب - نتائج بلاط الشهداء: لقد ترتب على نتائج بلاط الشهداء تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير، ولم تحل هذه الصدمة دون إعادة الكرَّة على فرنسة، إذ أن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف المسلمين عند هذا الحد، بل كانت لهم بعد كرَّات أعقبها النَّصر والفتح، غير أن أهمية بلاط الشهداء ترجع إلى أن المسلمين ارتدوا عن فرنسة ولم يحاولوا إخضاعها خضوعاً تاماً... ولو تحقق إخضاعها كاملة لزالت عصورها الوسطى المظلمة مبكراً، ولحقت بركب الحضارة والتقدم في الأندلس خلال عيشها في رحاب الإسلام، فلا غرابة إذ أن العديد من الكتَّاب الغربيين الذين رأوا روعة الإسلام وحضارته أينما حل، اعتبروا نتيجة بلاط الشهداء نكبة كبيرة أصابت أوروبة، وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان[1].

ثانياً: الجبهة الشرقية:

1 - أرمينيا:

كثر الغزو في أرمينيا وبلاد اللان أيام هشام بن عبد الملك واشتهر من القادة: الحجاج بن عبد الملك، والجراح بن عبد الله الحكمي، ومسلمة بن عبد الملك، وأشرس بن عبد الله السلمي، والحارث بن عمرو الطائي، وإسحاق بن مسلم العقيلي، ومروان بن محمد، فقد غزا الحجاج بن عبد الملك بلاد اللان فصالح أهلها أن يؤدوا الجزية، إلا أنهم نقضوا العهد فغزاهم مسلمة بن عبد الملك من جهة باب الأبواب وهزمهم عام 110هـ، وسار الترك إلى أذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو عام 112هـ فردهم على أعقابهم مهزومين، وتحركوا من جهة بلاد اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمي فيمن معه من أهل الشام، وأذربيجان في العام نفسه، واستشهد رحمه الله هو ومن معه من الجند بأردبيل وأخذ الترك مدينة أردبيل، فوجه هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة في شتاء بارد غزير المطر والثلوج فسار في أثرهم حتى تجاوز باب الأبواب فخلف عليها الحارث بن عمرو الطائي. وعاد إليهم مسلمة في العام التالي 113هـ، ففرق جنده في أرضهم فقتلوا وسبوا، وكان ممن قتلوا ابن خاقان الترك، فتأثر خاقان لما حلّ بابنه فتقدم إلى مسلمة إلا أنه هُزم 114هـ[2] ورجع مسلمة عن الباب، وعاد الترك إلى نقض العهد فأرسل إليهم مروان بن محمد بعثين عام 117هـ الأمر الذي جعلهم يقرون بالجزية ولم يلبثوا أن نقضوا العهد، فغزاهم عام 120هـ[3] إسحاق بن مسلم العقيلي ومروان بن محمد الذي افتتح بلاد السرير فدانت له وأدت الجزية عام 121هـ، وتوفي في ذلك العام مسلمة بن عبد الملك الذي دوخ الروم والترك[4].

---

(1) التاريخ الأندلسي، ص: 199، 202.
(2) المصدر نفسه (4/ 276).
(3) المصدر نفسه (4/ 376).
(4) المصدر نفسه (4/ 376).

2 - بلاد ما وراء النهر:

ما انقطع القتال في بلاد ما وراء النهر أيام هشام بن عبد الملك واشتهر من القادة: أسد بن عبد الله القسري ومسلم بن سعيد، والجنيد بن عبد الرحمن، وسعيد بن عمرو الحرشي ونصر ابن سيار[1].

3 - بلاد السند:

حينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان نشطت حركة الجهاد في السند بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التي كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع في السند، وكان من أشهر قادة المسلمين في بلاد السند: الجنيد ابن عبد الرحمن المري، فقد قام بإخضاع بلاد السند وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة، وعادت الحياة إلى بلاد السند بالطمأنينة والأمن وكان ذلك عام 107هـ[2]. وبعد نقل الجنيد بن عبد الرحمن إلى خراسان تولى إمرة السند تميم بن زيد العتبي وكان ذلك سنة إحدى عشرة ومائة، ولم يكن في كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب وبين العرب أنفسهم، ولما أوشكت البلاد على نشوب حرب داخلية قرر تميم مغادرة البلاد إلى العراق وقد مات بالطريق، وعين خالد بن عبد الله القسري الحكم بن عوانة الكلبي سنة 112هـ، فأحيى الجهاد وسار سيرة حسنة في السند، وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو ابن محمد بن القاسم الثقفي وقد أسند إليه الحكم قيادة الجيش فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن فرجع من جولته منتصراً، فاستقرت الأوضاع في السند ووصى أهلها بولاية الحكم، ولقد بقي الحكم في إمارة السند حتى عام 122هـ حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي، فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء[3]. ثم تولى ولاية السند عمرو بن محمد بن القاسم، فكان من أعماله: بناء مدينة المنصورة لتكون حصناً للمسلمين عند أي هجوم من الأعداء وكانت لعمرو بن محمد أعمال مشكورة وتمتع بمحبة أهل السند لشهرة أبيه فاتح السند[4]. ومن الجدير بالملاحظة أن الفتوحات في العصر الأموي كانت تنشط عندما تقل المشاكل داخل الدولة الإسلامية، فحينما ينشغل المسلمون بالجهاد والفتوح تقل المشاكل الداخلية، وحينما يتوقفون عن الجهاد تظهر الفتن والقلاقل. ويُعد عصر معاوية عصراً زاهراً بالفتوح، كما يُعد

---

(1) التاريخ الأندلسي، ص: 277.

(2) الكامل في التاريخ (3/ 315).

(3) التاريخ الإسلامي للحميدي (13/ 173) تاريخ خليفة، ص: 354.

(4) التاريخ الإسلامي للحميدي (13/ 173).

عصر الوليد بن عبد الملك العصر الذهبي للفتوح أيام الأمويين، حيث فتحت مناطق جديدة في السند والأندلس وما وراء النهر. ومن خلال مقارنة العصر الأموي بما سبقه أو لحقه من العصور نجد أنه لا مثيل له في سعة الفتوح سوى ما حدث في عصر الراشدين قبله، أو في العصر العثماني في أزمان لاحقة، فهذه العصور الثلاثة هي عصور الفتوح والمد الإسلامي الرئيسية[1].

ثالثاً: دروس وعبر وفوائد من الفتوحات:

1 - مشاركة النساء في القتال:

في سنة 123هـ خرج عشرون ألفاً من الروم فنزلوا على المسلمين في ملطية، فأغلق أهلها أبوابها وظهر النساء على السور عليهن العمائم يقاتلن، وخرج رسولهم إلى هشام بن عبد الملك بالرصافة مستغيثاً فندب هشام الناس إليها، ثم بلغه الخبر بجلاء الروم عنها، لكنه غزا بنفسه حتى نزلها وعسكر عليها حتى بنيت وحصنت[2].

2 - رغبة القادة والجند في الشهادة:

في عهد هشام استشهد جماعة من أبرز قواد المسلمين مثل الجراح بن عبد الله الحكمي عامله على أرمينيا سنة 112هـ، واستشهد سور بن الحر التميمي في خراسان في نفس السنة، وعقبة بن سحيم الكلبي في جنوب خراسان سنة 107هـ ، ثم عبد الرحمن الغافقي في الجبهة نفسها في تور بواتيه سنة 114هـ ، مما يدل على امتداد ساحات القتال والفداء التي يغشها القادة بأنفسهم مع أجنادهم، وكلما قتل واحد منهم قام آخر ليواصل الطريق.. وكان هشام في كل ذلك يشفق على جنده ويتلقى أنباء استشهاد قادته فينخلع قلبه خشية أن يكون أحدهم قد انحاز عن العدو فخسر الجنة؛ فلما استشهد الجراح بن عبد الله دعا هشام سعيد بن عمرو الحرشي أحد كبار قادته فقال له: بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين، فقال سعيد واثقاً: كلا يا أمير المؤمنين، الجراح أعرف بالله من أن ينحاز عن العدو لكنه قتل[3]، وكما أعطى القادة هذه الأمثلة كان الجند لا يقلون حماسة وحمية ورغبة في الشهادة، فقد دخل أحدهم ويدعى أبو ضمرة النضر بن راشد العبدي على امرأته والناس يقتتلون في إحدى معارك - في بلاد ما وراء النهر - فقال لها: كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة مضرجاً بالدماء ؟؟ فشقت جيبها ودعت بالويل، فقال: حسبك، لو أعولت علي كل أنثى لعصيتها شوقاً إلى الحور العين، ورجع فقاتل حتى استشهد رحمه الله[4].

---

(1) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص: 18.
(2) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 105.
(3) الكامل في التاريخ (3/ 330).
(4) المصدر نفسه (3/ 333).

3 - الشورى عند هشام في إدارته العسكرية:

أخذ هشام بن عبد الملك بمبدأ الشورى في إدارته العسكرية، فعندما علم باستشهاد قائده الجراح بن عبد الله الحكمي ومن معه من قبل الخزر جعل الخليفة هشام يستشير وزراءه وخاصته، فيما نزل بالقائد الجراح وأصحابه وأدخل عليه كل من ببابه من أجل مشورتهم وطلب رأيهم حيث سمع منهم ما قالوا وأشاروا به في هذا المصاب وهو في تعيين من يخلفه في القيادة ضد الخزر، والتزم الخليفة هشام بالشورى في إدارته لشؤون الدولة وبخاصة تعيين الولاة والقادة، وسار قادته على منواله بالالتزام بمبدأ الشورى في مرحلة الإعداد والإقرار وتنفيذ الخطط في إدارتهم للمعارك الحربية[1]. فكان صاحب رأي خرسان في الحرب المجشر بن مزاحم السلمي[2]، حيث ينزل الناس على راياتهم ويضع المسالح ليس لأحد مثل رأيه في ذلك، كما كان عبد الرحمن بن صبح الخرقي إذا نزل الأمر العظيم في الحرب لم يكن لأحد مثل رأيه، وكان عبيد الله بن حبيب الهجري صاحب الشورى على التعبئة في القتال ولم يقتصر الأمر على هؤلاء في الرأي والمشورة، بل كان هنالك من الموالي مثلهم في الرأي والمشورة والعلم بالحرب، وكان القادة يستعينون بهم في الإدارة العسكرية[3].

4 - العيون في عهد هشام بن عبد الملك:

لما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة ازدادت العناية في إدارته العسكرية بأمر العيون والأخبار سواء في محاربة الأعداء والخارجين على الدولة أو في الرقابة الإدارية على الولاة والعمال والقادة[4]، وقد اهتم هشام بالبريد وطرقه، فبالإضافة إلى كونه حلقة اتصال بين القيادة العليا المركزية وبين قادة الثغور لنقل الأخبار استخدم كوسيلة من وسائل النقل للقادة والعسكر وبخاصة في حالة الإمداد العسكري لما يتميز به من السرعة واختصار الوقت[5]، فإنه لما استشهد القائد الجراح بن عبد الله الحكمي استدعى الخليفة هشام بن عبد الملك سعيد بن عمرو الحرشي وعينه للقيادة، ثم سأله الرأي فأشار عليه الحرشي بقوله: تبعثني على أربعين دابة من دواب البريد، ثم تبعث إليّ كل يوم أربعين دابة عليها أربعون رجلاً ثم أكتب إلى أمراء الأجناد يوافونني، ففعل ذلك الخليفة هشام[6]. كما كان قادة هشام بن عبد الملك يضعون العيون على عسكرهم لمعرفة أحوالهم وأخبارهم، فمن ذلك أن القائد الجنيد بن عبد الرحمن

---

(1) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 285).

(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية (1/ 285).

(3) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية (1/ 285).

(4) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية (1/ 412).

(5) الأخبار الطوال، ص: 339، 342، الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 414).

(6) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية (1/ 415).

المري والي خراسان أثناء محاربته لخاقان ملك الترك أحب أن يستطلع أخبار جنده، فكلف أحد رجاله بأن يسير في المعسكر ليتعرف على روحهم المعنوية فقال له: أمشِ في الصفوف والدراجة وتسمّع ما يقول الناس وكيف حالهم[1].

5 - الاهتمام بالحدود البرية:

سلك هشام نهج من سبقه من خلفاء بني أمية في إدارته العسكرية بالعناية بأمر الثغور وحماية الحدود الإسلامية من هجمات العدو بإنشاء التحصينات اللازمة والتي كان منها بثغر المصيصة حصن الربض، وحصن المثقب على ساحل البحر قرب ثغر المصيصة وحصن قطرغاش[2] واهتم بغيرها من الحصون، وكانت هذه الحصون مشحونة بالجند المرابطين[3]. وكان قادة الثغور على صلة بالخليفة هشام فيطلبون منه ما يردون، فعلى سبيل المثال فحين ولي ثغر أرمينية مروان بن محمد كان يقدم على الخليفة هشام في كل سنتين مرة يرفع إليه أمر الثغر واحتياجاته ومصلحة من به من جنوده وما ينبغي أن يعمل من تحصينات لحمايته.. بالإضافة إلى ما بينهما من اتصال مستمر بواسطة البريد[4].

6 - الاهتمام بالحدود البحرية:

من التطورات التي حدثت في إدارة الخليفة هشام بن عبد الملك البحرية أنه أمر بتجديد القواعد البحرية بالساحل الشامي، وبنقل دار صناعة السفن من عطا إلى صور، ورمم القاعدة البحرية بها، ومنها أصبح مخرج المراكب الحربية لغزو الروم[5]، وقام واليه على إفريقية عبيد الله بن الحبحاب بتطوير دار صناعة السفن بتونس، فكان منها يخرج الأسطول الإسلامي للغزو والفتوحات هنالك[6].

واستمر في إدارة الخليفة هشام بن عبد الملك خروج الحملات البحرية للصائفة والشاتية كدوريات لحفظ السواحل البحرية، الحملات البحرية وحمايتها، وللغزو وشن الهجمات البحرية على سواحل العدو، وولي قيادة هذه الحملات كبار القادة، كمعاوية بن هشام بن عبد الملك، وعبد الرحمٰن بن معاوية بن خديج، وعبد الله بن أبي مريم، وعبد الله بن عقبة بن نافع الفهري وغيرهم من القادة الذين فاقوا بمهارتهم البحرية مهارة أمراء الروم وتمكنوا من التغلب عليهم[7].

---

(1) التاريخ الإسلامي (1/ 414).

(2) حصن من أعمال الثغور قرب المصيصة، كان أول من عمره هشام.

(3) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 495).

(4) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية (2/ 495).

(5) فتوح البلدان للبلاذري (1/ 140) الإدارة العسكرية (2/ 551).

(6) معجم البلدان (2/ 62) الإدارة العسكرية (2/ 551).

(7) الإدارة العسكرية (2/ 551).

7 - الأثر الحضاري للفتوحات على عهد هشام:

كان قادة الخليفة في فتوحاتهم يتخيرون رسلهم من أهل العلم والورع والفضل لدعوة أهل الكفر إلى الإسلام، هذا مع استعانتهم بالمترجمين الحاذقين بلغة العدو، وكان الجند يواظبون على تلاوة القرآن الكريم ويتناشدون الأشعار فيما بينهم أثناء تواجدهم في جبهة القتال، فكان ذلك يؤثر في حركتهم ونشاطهم ويزيد من حماستهم وتضحياتهم[1]. وكان الشعراء يتحدثون عن البطولات والانتصارات في قصائد كالتي قالها ثابت بن قطنة في انتصار المسلمين على الترك في إحدى القصور القريبة من سمرقند، وكان قائد المسلمين المسيب بن بشر الرياحي وكان الشاعر من ضمن الأبطال المقاتلين فقال:

فدت نفسي فوارس من تميم ... غداة الرَّوع في ضَنْك المقام
فدت نفسي فوارس أكنفوني ... على الأعداء في رهج القتام
بقصر الباهلي وقد رأوني ... أحامِي حيث ضَنَّ بي المحامي
بسيفي بعد حطم الرمح قُدْماً ... أذودُهُم بذي شُطَبٍ حسام
أكر عليهم اليحموم كراً ... ككر الشرب آنية المُدام
أكر به لدى الغمرات تحتي ... وضربي قونس الملك الهمام
إذا لسعت نساء بني دثار ... أمام الترك بادية الخِدام
فمن مثل المسيبُ في تميم ... أبي بشر كقادمة الحمام[2]

ومن الخدمات الاجتماعية والاقتصادية التي عملت في عهد هشام بن عبد الملك قيام واليه على الموصل بحفر النهر المكشوف الذي يجيء وسيط الموصل وشرب أهله منه، وكان السبب في ذلك أن الوالي كان جالساً في داره المعروفة بالمنقوشة التي كانت قصر الإمارة ينظر في مناظر له، فرأى امرأة على عاتقها جرة وقد جاءت من دجلة وهي تحملها ساعة وتضعها ساعة أخرى تستريح، فسأل عنها فقيل امرأة حامل جاءت بماء من بعد وقد أجهدها حمله، فاستعظم ذلك فكتب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك يخبره الخبر وببعد الماء على أهل البلد، فكتب إليه يأمره أن يحفر نهراً في وسط المدينة لتقديم وتوفير الخدمات لهم، فابتدأ بحفره واستغرق حفره وقتاً طويلاً، وأنفق عليه أموالاً طائلة، وبعد الانتهاء من حفره أمر الخليفة هشام أن تبنى أرجاء على ضفافه ثم أوقف هذه الأرجاء ومستغلاتها على نفقة هذا النهر وما يحدث فيه من تعمير وإصلاح في المستقبل[3]، كذلك قام والي مصر من قبل الخليفة هشام بن

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية (2/ 730، 731).

(2) تاريخ الطبري (7/ 512 إلى 516).

(3) تاريخ الموصل، ص: 26 - 28، الإدارة العسكرية (2/ 784).

عبد الملك باستقدام حيٍّ من قيس من البادية مائة أهل بيت من بني نصر، ومائة أهل بيت من بني عامر ومائة أهل بيت من أفناء هوازن، ومائة أهل بيت من بني سليم، فأوطنهم بتنيس وأمرهم بالاستزراع وصرف لهم صدقة العشور كإعانة لهم[1]. ومن الآثار الحضارية للآثار الاقتصادية والاجتماعية في إدارة الخليفة هشام بن عبد الملك العسكرية قيام واليه على العراق ببناء الأسواق لأهل الكوفة وجعل لأهل كل بياعة داراً وطاقاً وجعل غلالها للجند، وكان ينزلها عشرة آلاف مقاتل[2].

رابعاً: وفاة هشام بن عبد الملك وبداية الانهيار:

توفي هشام بن عبد الملك عام 125 هـ، ويتفق أغلب المؤرخين على أن الوفاة كانت يوم الأربعاء من شهر ربيع الآخر وإن اختلفوا في تاريخ اليوم، ومع ذلك لم يتجاوز الاختلاف سبعة أيام، فالطبري يحدد الوفاة يوم الأربعاء لست ليال خلون من ربيع الآخر[3]، يتفق معه كل من ابن الأثير[4] وغيره، أما ابن خياط فيذكر أن الوفاة كانت يوم الأربعاء لثلاث ليال خلون من ربيع الأول[5]. ولما كان هشام قد بويع بالخلافة من شهر رمضان عام 205هـ، وتوفي اليوم الخامس من ربيع الأول، فإن مدة خلافته على الحساب الهجري تكون: تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة أيام[6].

1 - ماذا قال لولده في سكرات الموت:

نظر هشام في أولاده وهم يبكون عليه حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجُدتُم عليه بالبُكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما كسب، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له[7].

2 - العلة التي كانت بها وفاته:

عن سالم أبو العلاء قال: خرج علينا هشام بن عبد الملك يوماً وهو كئيب، يُعرف ذلك فيه مسترخ عليه ثيابه، وقد أرخى عنان دابته، فسارع ثم انتبه، فجمع ثيابه وأخذ بعنان دابته، وقال للربيع: ادع الأبرش، فَدِعي فسار بيني وبين الأبرش فقال له الأبرش: يا أمير المؤمنين، لقد رأيت منك شيئاً غمني قال: وما هو؟ قال: رأيتك قد خرجت على حال غمني، قال: ويحك يا أبرش! وكيف لا أغتم وقد زعم أهل العلم أني ميت إلى ثلاث وثلاثين يوماً، قال سالم: فرجعت إلى منزلي فكتبت في قرطاس: زعم أمير المؤمنين يوم كذا وكذا أنه يسافر إلى ثلاثة

---

(1) الإدارة العسكرية (2/ 784).
(2) المصدر نفسه (2/ 784).
(3) تاريخ الطبري (8/ 72).
(4) الكامل في التاريخ (3/ 391).
(5) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 69 نقلاً عن تاريخ خليفة.
(6) عصر هشام بن عبد الملك، ص: 70
(7) البداية والنهاية (13/ 158).

وثلاثين يوماً. فلما كان في الليلة التي استكمل فيها ثلاثة وثلاثين يوماً إذا خادم يدق الباب يقول: أجب أمير المؤمنين، واحمل معك دواء الذبحة - وقد كان أخذه مرة فتعالج فأفاق - فخرجت ومعي الدواء فتغرغر به، فازداد الوجع شدة، ثم سكن فقال لي: يا سالم، قد سكن بعض ما كنت أجد، فانصرف إلى أهلك، وخلف الدواء عندي، فانصرفت فما كان إلا ساعة حتى سمعت الصراخ عليه، فقالوا: مات أمير المؤمنين. فلما مات أغلق الخزان الأبواب، فطلبوا قمقماً يسخن فيه الماء لغسله، فما وجدوه حتى استعاروا قمقماً من بعض الجيران، فقال بعض من حضر ذلك: إن في هذا لمعتبراً لمن اعتبر. وكانت وفاته بالذبحة، فلما مات صلى عليه ابنه مسلمة[1]. وقال ابن كثير: وصلى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك[2].

3 - سنّه عند وفاته:

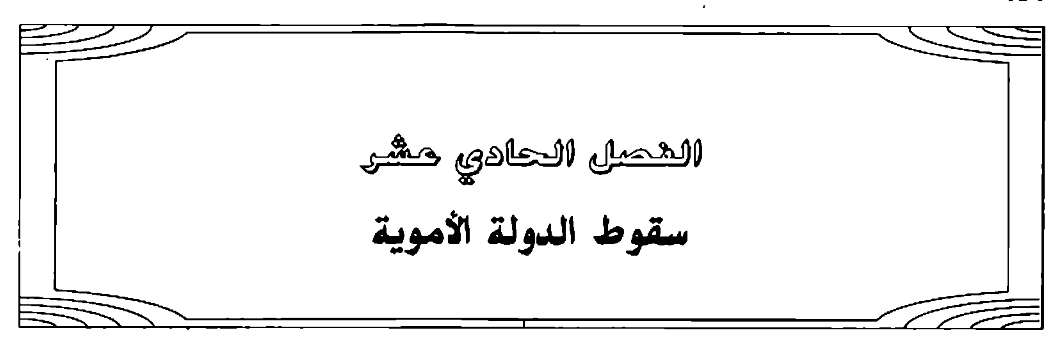
قال ابن كثير: كانت وفاته بالرّصافة يوم الأربعاء لستٍّ بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن بضع وخمسين سنة، وقيل: إنه جاوز الستين[3]. وكان نقش خاتمه: الحكم للحكم الحكيم[4].

4 - بداية النهاية للدولة الأموية:

لما مات هشام تولّى ملك بني أمية واضطرب أمرهم جداً، وإن كان قد تأخّرت أيامهم بعده نحواً من سبع سنين، ولكن في اختلاف وهَيْج، وما زالوا حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم، وقتلوا منهم خلْقاً وسلبوهم الخلافة، كما سيأتي إن شاء الله ذلك مبسوطاً مقرّراً في مواضعه.



(1) تاريخ الطبري (8/ 73).
(2) البداية والنهاية (13/ 159).
(3) المصدر نفسه (13/ 158).
(4) المصدر نفسه (13/ 159).



الفصل الحادي عشر
سقوط الدولة الأموية

المبحث الأول
خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو العباس الأموي الدمشقي، ولد سنة 90هـ / 709هـ، ولم يتمكن أبوه من استخلافه لصغر سنه، فعقد لأخيه هشاماً، وجعل الوليد ولياً للعهد بعد هشام[1]، كانت له ألقاب عدة: فلقب بالبيطار، ولقب بخليع بني مروان، والفاتك، وأمه أم الحجاج بنت محمد الثقفية[2]. وجاء وصفه في الفوات للكتبي: أنه كان وسيماً جسيماً، أبيض مشرباً بالحمرة ربعة قد وخطه الشيب[3]. وأما السيوطي فقال عن مروان ابن أبي حفقه: كان الوليد من أجمل الناس، وأشدهم وأشعرهم، ويقول السيوطي في موضع آخر: كان فاسقاً شريباً للخمر، منتهكاً حرمات الله[4] ويقول العصامي: كان أكمل بني أمية أدباً وفصاحةً وأعرفهم باللغة والحديث، وكان جواداً مفضالاً، ولم يكن في بني أمية أكثر منه إدماناً للشرب والسماع، ولا أشد مجوناً وتهتكاً منه، واستخفافاً بالدين وأمر الأمة، وتبالغ بعض المصادر في وصف سلوكه السيء، في حين تنفي بعض المصادر الأخرى عنه ذلك وتصفه بالخليفة المجمع عليه[5].

أولاً: خلافته

كان الوليد مغاضباً لهشام في حياته حتى خرج وأقام في البرية ولم يزل مقيماً بها حتى مات هشام، فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له، فكان أول ما فعل أن كتب إلى العباس بن

(1) تاريخ الخلفاء، ص: 250، الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 389.
(2) البداية والنهاية (13/ 168).
(3) فوات الوفيات، نقلاً عن الخلافة الأموية، ص: 389.
(4) المصدر نفسه.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الخلافة الأموية، ص: 390.

عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحمي ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه، إلا مسلمة بن هشام فإنه كلّم أباه في الرفق بالوليد، فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد، وقد أثر عن الوليد شعر كثير في الشماتة بهشام[1].

ويقول الطبري: إن هشاماً، كان مكرماً للوليد، معظماً، ولا يزال هشام على ذلك حتى ظهر من الوليد بن يزيد مجون وشرب الخمر، وقد حمله على ذلك عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني واتخذ الوليد ندماء[2]. ومما ذكره المؤرخون عن سلوكه ما ذكره ابن كثير فقال: أراد هشام أن يقطع ندماء الخمر عن الوليد، فولّاه الحج سنة 116هـ / 735م، فحمل معه كلاباً للصيد في صناديق، فسقط منه صندوق فانهالوا على الحمال بالسياط حتى أوجعوه ضرباً، وأراد أن ينصب القبة على ظهر الكعبة ويجلس فيها ويشرب الخمر[3]، فخوفه أصحابه، وقالوا: لا تأمن الناس علينا وعليك فلم يحركها، وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف به. وبلغ ذلك هشاماً فأراد أن يخلعه - وليته فعل - وأن يولي بعده مسلمة بن هشام، وأجابه إلى ذلك جماعة من الأمراء ومن أخواله، ومن أهل المدينة ومن وغيرهم وليت ذلك تمّ، ولكن لم ينتظم[4].

ثانياً: عنايته بشؤون الدولة:

استهل الوليد خلافته بالاهتمام بأحوال رعيته اهتماماً شاملاً إذ شرع في إعداد الخطط وجدَّ في تنفيذها لتحسين أوضاع المواطنين المعاشية تحسيناً ملحوظاً، كسباً لودهم وإظهاراً لفضله على هشام بن عبد الملك، ولبلوغ هذه الأهداف اتخذ الوليد ثلاث قرارات:

1 - رفع مستوى الخدمات التي تقدمها الدولة:

للمواطنين في العاصمة، فواسى البؤساء والضعفاء والعجزة والقاعدين والمكفوفين من أهل الشام ووزع المعونات والهدايا على أطفالهم[5].

2 - زيادة رواتب المواطنين المسجلين في ديوان العطاء:

فرفع رواتب أهل الأمصار جميعاً عشرة دراهم، ومنح أهل الشام عشرة دراهم أخرى، وضاعف الأعطيات والهبات لأقربائه الذين قدموا عليه، وأعلنوا مساندتهم له، وأكرم كل من قصدوه وسألوه[6]. وتألّف أهل المدينة ومكة واسترضاهم، فأعاد إليهم أرزاقهم وحقوقهم المالية.. فأنفق الوليد في هذه الوجوه والسبل الإصلاحية ما حاز من ثروة هشام، وما وجد

---

(1) البداية والنهاية (13/ 162).
(2) تاريخ الطبري (8/ 82).
(3) البداية والنهاية (13/ 160).
(4) المصدر نفسه (13/ 161).
(5) سيرة الوليد بن يزيد، د.حسين عطوان، ص: 255.
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 255.

في خزائن الدولة من أموال حتى أفلس، ووقع في ضائقة خانقة[1] ووضَّح الوليد القرارين السابقين من خطته الإصلاحية في قصيدة عينية طويلة له، ضاع أكثرها وسلم أقلُّها، قالها على المنبر بدمشق لما بويع بالخلافة، ثم أمر بكتابة نسخ منها لتُوزِّع على الأمصار المختلفة[2] وأرسل نسخة منها إلى المدينة[3]، وهو يُحَيّي فيها أهل الأمصار ويعدهم بخير عميم، ويلتزم رواتبهم في موعدها المحدد الثابت كل سنة دون تأخير أو مماطلة، وتعهد بزيادة رواتبهم زيادة مجزية ويُمنيهم بحياة رغيدة إن عاش وامتدت خلافته، فهو يقول:

ألا أيها الركب المُحيُّون أبلغوا ... سلامي سُكّان البلاد فأسمعوا

وقولوا أتاكم أشبه الناس سُنَّة ... بوالده فاستبشروا وتوقعوا

سيُوشك إلحاق بكم وزيادة ... وأعطية تأتي تباعاً فتشفع

مُحَرّمُكم ديوانكم وعطاؤكم ... به يكتب الكتَّابُ والكتب تطبع

ضمنت لكم إن لم تصابوا بمهجتي ... بأن سماء الضُّرِّ عنكم سُتقلِعُ[4]

3 - القرار الثالث الذي اتخذه الوليد لتحسين أوضاع المواطنين بالشام:

ويتمثل في بناء بعض المنشآت المائية للنهوض بالزراعة وتوسيع رقعة الأراضي التي تُزرع في الصيف وزيادة محاصيلها ورفع أجور العاملين بها. فأقام (جسر الوليد)[5] على طريق أَذَنَةَ من المصيصة على تسعة أميال وشيَّد مشروع أُسَيْس المائي[6] على بعد ثلاثة وثمانين ميلاً شرقي دمشق، وهو يشتمل على جهاز للري يستخدم للانتفاع بمياه الأمطار[7].

4 - اهتمامه بشؤون الدولة العسكرية:

عُني الوليد بشؤون الدولة العسكرية ولم يفرِّط فيها، ولكن حركة الجهاد كانت قد ضعفت منذ نهاية العقد الأخير من القرن الأول، وتحوّل دور المسلمين في حدودهم الشرقية مع الترك، وحدودهم الشمالية مع الروم من الهجوم والفتح إلى الدفاع والحفاظ على البلدان التي نشروا الإسلام فيها، وبسطوا سلطانهم عليها، ومع ذلك فإنه تمَّت في عهد الوليد بعض الفتوح

---

(1) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 256.
(2) أنساب الأشراف (2/ 319) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 357.
(3) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 257.
(4) المصدر نفسه، ص: 101 نقلاً عن أنساب الأشراف (2/ 319).
(5) معجم البلدان (2/ 82).
(6) المصدر نفسه (1/ 172).
(7) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (2/ 127).

الجديدة، وأغار بعض إخوته على الروم غارات كثيرة ناجحة[1]، ففي خلافة الوليد فتحت قبرص: إذ أغزى الوليد بن يزيد أخاه الغمر بن يزيد بن عبد الملك وأمّرَ على جيش البحر الأسود بن بلال المحاربي، وأمره أن يسير إلى قبرص، فيخيرهم بين المسير إلى الشام إن شاءوا، وإن شاءوا إلى الروم، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين، فنقلهم الأسود إلى الشام، واختار آخرون أرض الروم، فانتقلوا إليها[2]. وولي أخاه الغمر بن يزيد الصائفة غيره مرة، فغنم ما لم يغنمه أحد قط، وكانت آخر صوائفه في سنة ست وعشرين ومائة[3]، وعلى قصر خلافة الوليد فإن القرارات الثلاثة الإصلاحية التي ارتآها وطبقها، وبعض الفتوحات والغزوات المظفرة التي قادها أخوه الغمر تدل على تفكيره في مشاكل رعيته المالية والاجتماعية والزراعية تفكيراً جاداً خلص منه إلى وضع الحلول السريعة للمشاكل العاجلة، وتدل على اجتهاده في بعض حركة الفتوح والجهاد وتقويتها، وحماية حدود الدولة[4] وتنفي عنه ما اتهمه به اليعقوبي من أنه كان مهملاً لأمره، قليل العناية بأطرافه، متشاغلاً عن أمور الناس[5].

ثالثاً: تغييراته الإدارية:

كشفت رسائل عمال هشام التي عثر بها الوليد عن آرائهم في ولايته للعهد[6]، فبنى عليها موقفه منهم، واتخذها أساساً لما أحدث من تعديلات في الوظائف المختلفة، أما العمال الذين دَلّت رسائلهم على تحزبهم لهشام، وتأييدهم له من تحويل ولاية العهد إلى ابنه مسلمة فعزلهم الوليد وعاقبهم عقاباً صارماً، وأما العمال الذين صمتوا عن الخوض في ولاية العهد، أو جهروا في رسائلهم بمعارضتهم لهشام فثبّتهم الوليد، وأبقاهم في مناصبهم، وأحسن إليهم[7].

1 - أسماء عمال الوليد:

كان محمد بن هشام المخزومي، خال هشام بن عبد الملك أوّل العمال الذين فصلهم

---

(1) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 257.

(2) تاريخ الطبري (8/ 102\).

(3) تاريخ خليفة، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 258.

(4) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 258.

(5) تاريخ اليعقوبي (2/ 333) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 258.

(6) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 251.

(7) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 251.

الوليد، إذ نحّاه عن المدينة ومكة والطائف[1]، وعين مكانه خاله يوسف بن محمد الثقفي[2]. وأقصى الوليد ابن القعقاع العبسي عن قنسرين، وأسندها إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري[3]. وأعفى عبد الملك ابن القعقاع العبسي من ولاية حمص، ووكلها الوليد إلى ابنه عثمان، وضم إليه ربيعة بن عبد الرحمٰن[4]، فقيه أهل المدينة، المعروف بربيعة الرّأي[5]، وأمّا سائر عُمّال هشام فلم يعرض الوليد لهم، ولم يعزلهم من ولاياتهم، فاحتفظ يوسف بن عمر الثقفي، خال الوليد بحكم العراق[6]، لأنه كان أشار على هشام ألا يخلع الوليد من ولاية العهد، وظل القاسم بن محمد بن القاسم الثقفي على البصرة[7]. وتعاقب على الكوفة غير عامل خلال ولاية يوسف بن عمر على العراق لهشام، كان آخرهم زياد بن صخر اللخمي[8] فعزله يوسف عنها في مستهل خلافة الوليد واستعمل عليها عبيد الله بن العباس الكندي، ثم عزله وولّى أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل الثقفي، فأقام جمعة حتى هرب يوسف ابن عمر بعد قتل الوليد[9]. وظل مروان بن محمد على أرمينية[10]. وحرب بن قطن بن قبيصة ابن مخارق الهلالي على سجستان[11]، ونصر بن سيار على خراسان[12]، وعمرو بن محمد ابن القاسم الثقفي على السند[13].

وكان على اليمن في نهاية خلافة هشام القاسم بن عمر الثقفي، أخو يوسف بن عمر، فلم يزل عليها حتى مات هشام[14]، ثم وليها الضحاك بن زمل السكسكي حتى قتل الوليد[15].

---

(1) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 251 نقلاً عن تاريخ الطبري.
(2) تاريخ خليفة، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 251.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 251.
(4) أنساب الأشراف (2/ 320) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 251.
(5) وفيات الأعيان (2/ 288) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 251.
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 252.
(7) تاريخ خليفة، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 252.
(8) المصدر نفسه، ص: 252.
(9) المصدر نفسه، ص: 252.
(10) تاريخ الطبري، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 252.
(11) تاريخ خليفة، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 252.
(12) مروج الذهب (3/ 225).
(13) تاريخ خليفة، (2/ 538، 553) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 252.
(14) المصدر نفسه (2/ 534) سيرة الوليد، ص: 252.
(15) المصدر نفسه (2/ 358، 553) سيرة الوليد، ص: 252.

وبقي المهاجر بن عبد الله الكلابي على اليمامة في أيام هشام والوليد[1]، وكان على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي في عهد هشام والوليد[2].

2 - موظفو الدواوين والقصر بالعاصمة:

استغنى الوليد عن أغلب الموظفين الذين ولوا لهشام الشرطة والرسائل والخراج والجند والخاتم والخزائن وبيوت الأموال والحرس والخاتم الصغير والخاصة[3]، وقد أقصاهم لأنهم من خاصة هشام ولأنهم شاركوا فيما أنزله هشام من السوء، ولأن كل خليفة كان يفصل أكثر موظفي الدواوين والقصر السابقين ويستعيض عنهم بموظفين آخرين يثق بهم ويطمئن إليهم، وكان عمال الوليد وموظفوه من القيسية واليمنية ومن مواليه[4].

3 - قضاة الأمصار:

لم يخلع الوليد من قضاة الأمصار زمن هشام الَّا يوسف بن سعد بن إبراهيم، عزله يوسف ابن محمد الثقفي عن قضاء المدينة وولى يحيى بن سعيد الأنصاري[5] وأما سائر القضاة فاستمروا في وظائفهم، فكان الحارث بن يَمْجُد الأشعري قاضي دمشق لهشام والوليد[6]، وولى قضاءها للوليد الحارث بن محمد أبو حبيب الظهري الحمصي[7]، وكان على قضاء البصرة يوم قدم يوسف بن عمر سنة عشرين ومائة عبد الله بن بريدة الأسلمي، فلم يلبث أن مات، فاستقصى عامر بن عبيدة الباهلي، فلم يزل قاضياً حتى مات هشام والوليد[8]، وكان محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضي الكوفة لهشام والوليد[9].

4 - العلماء في عهد الوليد بن يزيد:

منذ تسلم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة لم يعد للعلماء أثر واضح في سياسة الدولة التي أخذت في التدهور مسرعة نحو السقوط، فمن الطبيعي أن لا يكون لهم مجال في سياسة

(1) تاريخ خليفة (2/ 539، 553).
(2) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 252.
(3) المصدر نفسه، ص: 253.
(4) المصدر نفسه، ص: 253.
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 253.
(6) تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 253.
(7) المصدر نفسه، ص: 253.
(8) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 253.
(9) المصدر نفسه، ص: 253.

الدولة مع الوليد بن يزيد الذي غمس نفسه في فتنة العصبية القبليّة، كما غمس نفسه في اللهو والترف[1].

رابعاً: بيعته لولديه الحكم ثم عثمان:

شعر الوليد بن يزيد عند توليه الخلافة (125هـ) بالآثار المدمرة التي تركتها حملة التشهير عليه وعلى خلافته، فبادر بمبايعة ابنيه الحكم وعثمان بولاية عهده بعد شهر واحد فقط من توليه الخلافة[2]، منتهزاً هذه الفرصة لمخاطبة المسلمين في كافة الأمصار عبر كتابته بالعهد لهما[3]. فأعاد الوليد فيه مرة أخرى التأكيد على الطروحات الأموية، تقوية لمركزه وإضعافاً لخصومه، فهو خليفة مستخلف من الله على منهاج نبوة محمد ﷺ: لإنقاذ حكمه وإقامة سنته وحدوده، والأخذ بفرائضه وحقوقه. وأكد الوليد فيه على مكانة الخلفاء عند الله، وأنه سبحانه تكفل بهم وبنصرتهم على أعدائهم.

ومضى الوليد في كتابه فأكد على فكرة الطاعة التامة، وأن طاعة الأمة للخليفة من طاعتها لله تستوجب بها الجنة، وأن من شاقه وخالفه يستوجب عذاب النار، حاضاً على الطاعة والتزام الهدوء والسكينة محاولاً بذلك قطع الطريق على مناوئيه[4].

خامساً: أعمال الوليد الانتقامية:

يذكر التاريخ جنايات كثيرة للوليد على الدولة الأموية، وكان أعظمها إفساده بني عمّيه هشام والوليد والوزراء والولاة واليمانية وهم الدولة، فقد قام بجلد ابن عمّه سليمان بن هشام وتغريبه إلى عمّان لأمور كان ينقمها من أبيه وهو وليّ عهده، وكان سليمان ناشطاً محبوباً معدوداً من أكابر الرجال علماً وسياسة ودراية بالحروب ومعرفة بحيلها ومكائدها، واغتصب الوليد بن يزيد جارية لآل عمّه فكلمه فيها عمر بن الوليد فأبى ردّها فقال له عمر: إذن تكثر الصواهل[5] حول عسكرك[6].

وأراد البيعة لابنيه الحكم وعثمان، وكانا غلامين، وسجن الوزير سعيد بن صهيب لنهيه إيّاه عن البيعة لابنيه، فغضب عليه وتركه في السجن حتى مات. وعرض أمر البيعة لابنيه على خالد ابن عبد الله القسري وكان رأس ولاة الأمويين وشيخ وزرائهم وأعظم قائد لجند اليمانية.

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 217.
(2) تاريخ الموصل(2/ 51) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 393.
(3) تاريخ الطبري (8/ 92 إلى 98).
(4) القدرية جدلية الدين والسياسية في الإسلام، مضر طلفاح، ص: 90.
(5) الصواهل : جمع صاهل وهو الفرس.
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن سقوط الدولة الأموية للثعالبي، ص: 66.

فقال: كيف أبايع من لا أصلّي خلفه ولا أقبل شهادته؟. فقال له قوم من أهله: كيف نقبل شهادة الوليد مع مجونه وفسقه؟ قال: أمره غائب عني ولا أعلمه يقيناً، وإنما هي أخبار الناس[1]، فاضطعنها عليه الوليد حتى نكبه[2] ويرون في نكبته أموراً منها أن مناهضة خالد لسياسة الوليد كانت السبب المباشر في غضبه عليه فقد رفض المبايعة لابني الوليد بولاية العهد[3]، ثم تكتم على اليمنية الذين كانون يخططون لاغتيال الوليد، ولم يُدله عليهم، لأنه لما أراد الوليد الحج في السنة التي بويع فيها، شاور خالداً في الخروج، وكان لا يألوه نصحاً وهو مطلع على ما أجمع عليه زعماء مضر وقضاعة واليمانية من الفتك به. فقال: أخّر الحج العام. فقال: ولم؟ فأبى أن يكاشفه بما علم اتّقاء الفتنة فأمر بحبسه وأن يستأدى من أموال العراق أيام كان عليه، ودفعه إلى خاله يوسف بن عمر وكان على العراق وقبض فيه خمسين مليون درهم وسار به عمر إلى العراق ومكث في العذاب إلى أن مات قتيلاً سنة 126هـ[4]، وكان آل القعقاع يتولون أهم الولايات. فكان الوليد بن القعقاع على قنسرين وعبد الملك أخوه على حمص، فعزلهما وعيَّن يزيد بن عمر بن هبيرة ودفع إليه آل القعقاع فعذبهم ونكل بهم حتى مات الوليد وأخوه عبد الملك في العذاب ورجلان من آلهما[5].

ونظراً إلى هذه الأسباب فقد اضطعن على الوليد آل هشام وآل الوليد ابني عبد الملك وآل القعقاع واليمانية ومضر وألبوا عليه الأمة[6]. وقد قام الوليد بن يزيد بحملة انتقامية واسعة النطاق شملت كل من عاداه ودعم هشام ضده، فدلل ذلك على ضيق أفقه السياسي فلم يحاول طي صفحة الماضي، أو على الأقل تأجيلها لحين التمكن وإيجاد الموالين والأعوان داخل الدولة، وقد أدت خطواته الانتقامية إلى تكتل القوى المختلفة ضده واشتراكها بالحركة التي أودت بحياته وخلافته[7].

سادساً: العناصر الأساسية المشاركة في حركة يزيد بن الوليد الانقلابية:

1 - بنو أمية:

كثر الأمراء الأمويون في الفترة الأخيرة من دولتهم وكان أغلبهم من ذرية عبد الملك وعبد العزيز، ومحمد بن مروان بن الحكم، وأقلهم من حفدة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ويستفاد من أخبارهم أنهم كانوا طائفتين، فمعظم الأمراء الصغار من أولاد الوليد وهشام والحجاج بن عبد الملك بن مروان، ومن أبناء عمر بن عبد العزيز كانوا عصبة واحدة على

(1) تاريخ الطبري، ص: 66.
(2) المصدر نفسه، ص: 66.
(3) المصدر نفسه، ص: 66.
(4) تاريخ الطبري (8/ 108، 109، 110).
(5) سقوط الدولة الأموية للثعالبي، ص: 67.
(6) سقوط الدولة الأموية للثعالبي، ص: 67.
(7) القدرية جدلية الدين والسياسة، حركة يزيد بن الوليد، ص: 89.

الوليد جمع بينهم التَّذمُّر منه والمنافسة له والطمع في عزله، وكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك أدهى خصوم الوليد وأشدهم طعناً فيه، وأكثرهم تحريضاً عليه وأقواهم عزماً على الإطاحة به، وآزر يزيد إخوته بسر، ومسرور، وعمر وروح، وإبراهيم. وكان عاصم وعبد الله ابنا عمر بن عبد العزيز يناوئان الوليد ويستخفان به، ويدل ما رواه ابن عساكر من شعر عاصم على أنه كان يلوم المتقاعسين القاعدين عن مناهضة الوليد، ويستفزهم للوثوب به ويذكي حماستهم بتذكيره لهم بما يصبه الوليد عليهم من ألوان العذاب، إذ يقول:

يسومكم الوليد الخسف يعدو ... عليكم مالكم منه إباء

فإن كنتم كما قلتم رجالاً ... ففي عمل الرجال يُرَى الغنَاء

وإلا فاصمتوا عن ذي وقوموا ... لِتَخلفَ عن مكانكم النساء[1]

وأما الأمراء الأمويون الكبار من أبناء عبد الملك ومن أبناء أخيه محمد بن مروان بن الحكم، ومن حفدة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فكانوا أرجح عقلاً من الأمراء الصغار والمتسرعين، وأكثر اعتدالاً، وأوسع أفقاً، وأحسن وعياً لما ينفع ويضر، فسالموا الوليد، وصانعوه وأيدوه وحاولوا كبح جماح الأمراء الصغار[2].

وأشهر الأمراء الأمويين الكبار هو العباس بن الوليد بن عبد الملك، وكانت له منزلة رفيعة في قومه، وكان أخوه يزيد ومن انضموا إليه من اليمنية يعرفون قدره وأهميته لنجاح الثورة على الوليد، فحاولوا اجتذابه إليهم، إذ يقول عمر بن يزيد الحكمي ليزيد بن الوليد وقد انتصحه في الخروج على الوليد: إن العباس بن الوليد أخاك سيدُ أهل بيتك، فإن بايعك لم يخالفك الناس وإن أبى فالناس له أطوع، وإن أبيت مشاورته فأظهر بيعته لك[3]. فأفضى إليه يزيد بأمره وخطته وغايته فزجره العباس وخوّفه[4]. فرجع يزيد إلى منزله بالبادية، ودبَّ في الناس فبايعوه سراً ثم عاود أخاه العباس ومعه قطين مولاهم فشاوره وأعلمه أن قوماً يأتونه يريدونه على البيعة، فزجره العباس، وقال: إن عدت إلى مثلها لأشُدَّنك وثاقاً، ولأحملنك إلى أمير المؤمنين[5]، ولم يزل العباس يعارض أخاه يزيد ويهدِّده ولا يألو جهداً في إرشاده واستصلاح سرائر إخوته، حتى يرأب الصدع بينهم وبين الوليد، ويمنعه من التنكيل بهم إذا نُمِيَ إليه أنهم يأتمرون به، ويُدَبِّرُون للانقضاض عليه، حرصاً على وحدة بني أمية ومصلحتهم وحماية

---

(1) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 285، 286.

(2) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 285، 286.

(3) أنساب الأشراف (2/ 328) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 286.

(4) تاريخ الطبري (8/ 112، 113).

(5) المصدر نفسه (8/ 113).

لسلطانهم ودولتهم، مما يدل عليه قوله لقطن مولاهم، وقد استدعاه العباس ليعرف منه نوايا يزيد وأهدافه التي أخذ يخفيها عنه بعد أن كَفَّه وتوَعَّده: ويحك أترى يزيد جادًّا ؟ قال: جعلت فداك، ما أظن ذلك، ولكنه دخله مما صنع الوليد وتهاونه بالأمور، ما ضاق به ذرعاً قال: أما والله إني لأظنه أشأم سخلة من بني مروان ولولا ما أخاف من عجلة الوليد، مع تحامله علينا لشددته وثاقاً وحملته إليه. فازجره عن أمره، فإنه يسمع منك[1]، ومما يتضح له تَمثّل - بالقصيدة التالية - بعد أن أتاه أخوه بشر، وكلمه في خلع الوليد، وبيعة يزيد، فنهاه وقال: يا بني مروان، إني أظن أن الله قد أذن في هلاككم[2]، فهو يحذر فيها قومه من الفتنة ويسألهم أن يتوادعوا ويتضامنرا ويتأسوا بالأمويين الأوائل أهل الصرامة والبأس والتقوى، الذين صانوا دينهم ودنياهم، فانقادت الأمة لهم، ورسخوا أركان دولتهم بعزمهم الشديد، ونضالهم العنيد، وخلقهم النبيل حتى يحافظوا على عزتهم وكرامتهم، ولا يطمعوا أعداءهم في ملكهم، منذراً لهم بالدمار والانهيار إذا استمروا متدابرين متناحرين، فإنه لا تصلح رعية إلا إذا صلح القوامون عليها[3] يقول:

يا قومنا لا تملوا نعمة لكم ... إنَّ الإله لكم فيما مضى صَنَعُ[4]
فأنتم اليوم أهل المُلكِ مُذْ حِقبٍ ... وأهل دنيا ودينٍ ما به طمع[5]
فانْفُوا عَدُوَّكم عن نحت أثْلتكم ... واستجمعوا إن أمر الدين مجتمع[6]
قوموا عليه كما قام الأولى نصروا ... حتَّى تولوا وما خافوا وما جزعوا
إنّ الكبير عليكم في ولايتكم ... أن تصبحوا وعمود الدِّين منصدع
لا تُلْحَمُنَّ ذئابَ الناس أنفسكم ... إنَّ الذئاب إذا ما أُلحِمَت رتعوا[7]
لا تَبْقُرنَّ بأيديكم بُطونَكُمُ ... فثم لا حسرة تغني ولا جزع
إنِّي أُعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تَسامى ثمَّ تندفع
لستم كمن كان قبل اليوم يسعرها ... بالمشرفية بيضاً حين تُنْتَزَعُ
والسمهريَّة مطرور أسِنَّتُها ... وحومة الموت تغلي وردُها شرع[8]

---

(1) تاريخ الطبري (8/ 113).
(2) المصدر نفسه (8/ 115).
(3) المصدر نفسه.
(4) يريد أن الله أكرمه بالماضي.
(5) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 288.
(6) نحت : نشر أو قطع. الأشلة من كل شيء أصله.
(7) ألحم : أطعم اللحم. رتع: نَعِمَ وَلَها.
(8) السمهرية: جمع سمهري وهو الرمح الصليب العود، ينسب إلى رجل اسمه سمهر كان يبيع الرماح بالخط.

إن البـريـة قـد مـلـت وِلايـتـكـم فـاستـمسكوا بعـامود الـديـن وارتـدعـوا
فلـن تزالـوا رؤوسَ الـنـاس مـا صَلَحُوا ومـا شكـرتـم وأضحـى العـهـد يُتَّبَع[1]

وكان من الأمراء الكبار الذين مع الوليد بن يزيد، مروان بن محمد بن الحكم وسعيد بن عبد الملك بن مروان، فقد كانوا ينكرون الوثوب بالوليد ويسعون إلى ردع الأمراء الصغار المتذمرين المتسرعين ورتق الفتن بينهم وبين الوليد، ولكنه كان بعيداً بأرمينية، ويظهر أن مروان وسعيداً لم يعرفا أن يزيد بن الوليد يدعو لنفسه، ويتربص بالوليد إلَّا في وقت متأخر وبلغ مروان ذلك قبل سعيد، فاستفظعه وكتب إلى سعيد يحثه على تدارك الفتنة قبل وقوعها[2]، إذا يقول في كتابه له: إن الله جعل لكل أهل بيت أركاناً يعتمدون عليها ويتَّقون بها المخاوف، وأنت بحمد ربك ركن من أركان أهل بيتك... إلخ، في رسالة طويلة فلما وصلت سعيد أعظم ذلك، وبعث بكتابه إلى العباس بن الوليد فدعا يزيد، فعذله وتهدَّده فخذله يزيد وقال: يا أخي، أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا أراد أن يُغري بيننا، وحلف له أنه لم يفعل، فصدقه[3].

وواضح أن يزيد بن الوليد كان أقوى أعداء الوليد بن يزيد من الأمراء الأمويين الصغار الذين لم تُحَنِّكهم التجارب، ولم يكونوا يستشرفون عواقب التباغض والتطاحن والتصارع على الملك ولا كانوا يكترثون بتدهور الخلافة الأموية وسقوطها، فزَيَّن يزيد لأنداده من الأمراء الصغار الثورة على الوليد واستهواهم بآرائه، وما كان يظهر من النُّسك والورع والتواضع، فاندفعوا إليه وآمنوا بآرائه وأيدوا خطته ومطامعه، فعملوا للأدلة من الوليد، إرضاء لغرورهم وكبريائهم، أو بحثاً على الوجاهة والنباهة أو انتقاماً من الوليد، لأنه أهملهم وأبعدهم واستهان بهم، وأما الأمراء الأمويون الكبار، فإنهم لم ينجحوا في إزالة أسباب الفرقة واستئصال جذور الفتنة، لعوامل مختلفة، منها ما يعود إلى بُعد بعضهم وتسترُ العباس بن الوليد بن عبد الملك على أخيه يزيد، ومنها ما يُردُّ إلى خُبْث يزيد ودهائه، ومراوغته ومخادعته لأخيه العباس كلما نَهَرهُ وردعه ومُضِيه في العمل والتخطيط واستقطاب الأنصار[4] سراً، ومنها استبداد الوليد بن يزيد برأيه.

2 - اليمنية:

تراكم تَذمُّر اليمنية وتسخطهم بالشام والعراق، بدؤوا يضجُّون بالشكوى من بني أمية،

(1) تاريخ ابن عساكر، نقلا عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 287.
(2) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 289.
(3) تاريخ الطبري (8/ 114).
(4) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 291.

ويتضجرون منهم في نهاية القرن الأول بعد محق عبد الملك بن مروان لعبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي، ومن التفوا حوله من اليمنية وغيرهم ثم حنقهم على بني أمية في بداية القرن الثاني عندما نكب يزيد بن عبد الملك المهالبة وكاد يُفنيهم، وتنامى حقد اليمنية في آخر أيام هشام حين أقصى خالداً عن العراق. وتصدّى الوليد بن يزيد لخالد بن عبد الله القسري، لأنه قاوم رغباته السياسية فسجنه وأذن في ضربه. وكان قتل يوسف بن عمر الثقفي لخالد خاتمة النكبات التي حاقت باليمنية وبعثتهم على التدبير المتقن لخلع الوليد واغتياله، ثأراً لدماء زعمائهم المراقة، وكرامتهم المهدرة وسلطتهم الضائعة، وقضاء على نفوذهم المضرية من قيس وتميم، الذين أيدوا بني أمية ومكّنوهم من اليمنية، ولبلوغ ذلك لجأ اليمنية في الشام إلى وسيلتين[1]:

أ - الأولى إعلامية دعائية تحريضية، قصدوا منها إلى استفزاز أبناء عشائرهم، وإذكاء حميتهم وأنفتهم، بإثارة العصبية القبلية بينهم وبين القيسية، فوضعوا على لسان الوليد بن يزيد قصيدة طويلة في تقريع اليمنية وذمهم والتشفي باندحارهم، وتقلُّص سلطانهم، وفي تمجيد القيسية والافتخار بجبروتهم وعظمتهم وسحقهم لليمنية، وهي تتوالى على هذا النمط[2]:

ألـم تَـهْـتـجْ فَـتـذَّكِـرَ الـوِصَـالاَ	وحـبـلاً كـان مُـتَّـصـلاً فـزالا
بَـلَـى فـالـدَّمـعُ مـنـك لـه سـجـام	كـمـاء الـمُـزن يـنـسـجـل انـسـجـالا
فـدع عـنـك ادِّكـار آلَ سـعـدى	فـنـحـن الأكـثـرون حَـصـىً ومـالا
ونـحـن الـمـالـكـون الـنّـاس قَـسْـراً	نَـسـومُـهُـم الـمـذَلَّـةَ والـنـكـالا
وَطِـئْـنَـا الأشْـعَـري بِـعـزّ قـيـس	فـيـا لـكِ وطـأة لـن تُـسـتـقـالا
وهـذا خـالـد فـيـنـا أسـيـراً	ألا مـنـعـوه إن كـانـوا رجـالا
عَـظِـيـمُـهُـم وسـيـدُهُـم قـديـمـاً	جـعـلـنـا الـمـخـزيـات لـه ظـلالا
فـلـو كـانـت قـبـائـل ذات عِـزٍّ	لـمـا ذهـبـت صـنـائـعـه ضَـلالا
ولا تـركـوه مـسـلـوبـاً أسـيـراً	يُـسـامِـرُ مـن سَـلاسـلـنـا الـثِّـقـالا
وكـنـدةُ والـسَّـكُـونُ فـمـا استـقـالـوا	ولا بـرحـت خُـيـولُـهـمُ الـرِّجـالا
بـهـا سُـمْـنـا الـبـريَّـة كـلَّ خَـسْـف	وهـدمـنـا الـسـهـولـة والـجـبـالا
ولـكـنَّ الـوقـائـع ضـعـضـعـتـهـم	وَجـذَّتـهـم وردتـهـم شِـلالا[3]
فـمـا زالـوا لـنـا أبـداً عـبـيـداً	نَـسُـومُـهـمُ الـمَـذَلّـة والـسَّـفَـالا[4]

---

(1) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 307.

(2) المصدر نفسه، ص: 307.

(3) الشلال: القوم المتفرقون.

(4) السفال: مصدر سفل يسفل إذا انحط.

فأصبحت الغداة عليَّ تاج   يملُك النَّاس ما يَبْغي انتقالا[1]

يختلف الإخباريون والمؤرخون في صاحب القصيدة، أما رواة اليمنية فيقطعون بأنها للوليد، وفي ذلك يقول الطبري مُتَحرِّزاً من روايتهم: قال الوليد بن يزيد - فيما يزعم الهيثم بن عدي - شعراً يوبخ به أهل اليمن في تركهم نصرة خالد بن عبد الله[2]. وعلى الرغم من أن الإخباريين كالمدائني ومن أخذوا عنه كالبلاذري والطبري وابن خلدون يجمعون على أن القصيدة مفتعلة، لفَّقها أحد شعراء اليمنية ونحلها للوليد، فإن أسلوب القصيدة يرجح أنها ليست للوليد، فهو أسلوب جزل معقول سهل، لا التواء فيه ولا خشونة ولا غرابة، مما يخالف أسلوب الوليد في شعره الفخري، الذي يتصف بقلة التنقيح، والتهذيب وببعض العوض والقلق وتنتشر فيه أوابد الألفاظ وشواردها ويشيع فيه وحشي الكلام ومهجوره[3]. وقد ساهم منصور بن جمهور الكلبي في تحميس القبائل اليمانية وَحثِّها على تقويض حكم بني أمية متهماً لهم بالطغيان والعدوان، ودامغاً خلفاءهم المتأخرين بأنهم ولدان وغلمان ومندداً بسياستهم، وفتكهم برؤساء اليمنية وتقريبهم للمضرية[4]، وأنشد في هذه المعاني أبياتاً من الشعر، وناصر اليمنية في حملته الإعلامية التحريضية على الوليد وبني أمية بعض شعراء ربيعة مثل حمزة بن بيض الحنفي الكوفي وذكر في أشعاره الظلم والمجانة والانحراف، وارتكاب المعاصي والإلحاد.. فألهبت هذه القصائد التي تصايح بها شعراء اليمنية وأحلافهم من الربيعية عواطف اليمنية، وفجرت نقمتهم على الوليد والمضرية، إذ يقول أبو حنيفة الدينوري واصفاً أثر القصيدة الأولى في اليمنية: ولما سمع من كان بأقطار الشام من اليمانية هذا الشعر أنِفوا أنفاً شديداً، فاجتمعوا في مدن الشام، وساروا نحو الوليد بن يزيد[5].

ب - وأما الوسيلة الثانية التي لجأ إليها اليمنية في الشام فهي التخطيط السري المنظم للثورة بالوليد، فجعلوا يبحثون عن زعيم يثقون به، ويشاركهم آلامهم وآمالهم، بعد أن استنكف خالد بن عبد الله القسري عن قيادتهم، وخذلهم قبل هلاكه، فوجدوا في يزيد بن الوليد بن عبد الملك الزعيم المنشود، إذ كان حانقاً على الوليد مثلهم، وكان يُفتش عن أنصار مخلصين، وزاد من اطمئنان اليمنية إليه وإقبالهم عليه أنه كان مُصهراً إليهم، فقد كان متزوجاً امرأة منهم اسمها هند بنت زبان الكلبي[6]، وكان له منها ثلاثة أبناء هم أبو بكر ، وعبد المؤمن،

---

(1) تاريخ الطبري (8/ 110)، الأخبار الطوال، ص: 348.
(2) تاريخ الطبري (8/ 110).
(3) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 309.
(4) أنساب الأشراف (2/ 301) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 309.
(5) الأخبار الطوال، ص: 348.
(6) أنساب الأشراف (2/ 238) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 311.

وعلي[1]، فأتاه رؤساء اليمنية وفاوضوه في خلع الوليد والمبايعة له بالخلافة[2]، فوافقهم وتعاهدوا على أمرهم، ويحتفظ المؤرخون بأسماء كثيرين منهم ممن تردَّدُوا على يزيد، وشجعوه على الثورة، منهم منصور بن جمهور الكلبي ومنهم طفيل بن حارثة الكلبي، وبشر بن هلباء الكلبي، وعبد الرحمن بن مصادر الكلبي، وثابت الخشني، وانصاف إلى يزيد بن الوليد سائر رؤساء اليمنية الذين كانوا اتصلوا بخالد بن عبد الله القسري واستنفروه، وعرضوا عليه أن ينضم إليهم ويتزعمهم للإطاحة بالوليد، وقد اعتمد يزيد بن الوليد على رؤساء اليمنية في مناصرته، وتأليب الناس على الوليد، وبايع له عامة أهل دمشق وأعيانهم من اليمنية[3] وكان بعض اليمانية يتبعون أخبار الناس ويرصدونها ويرسلونها إلى يزيد بن الوليد[4]، إذ يقول عمرو بن مروان الكلبي: سمعت محمد بن سعيد بن حسان الأردني قال: كنت عيناً ليزيد بن الوليد بالأردن، فلما اجتمع له ما يريد ولّاني خراج الأردن[5]. فكان للقبائل اليمنية الشامية دور كبير في الحث على الثورة بالوليد دفعها إليه انحطاط مكانتها السياسية وفتك بني أمية بالمتمردين من زعمائها، وتعاظم سلطان القبائل القيسية في دمشق والعراق وخراسان، وكان المتسرعون زعماء اليمنية بدمشق يُفَضّلون العمل في سبيل خلافة يمنية خالصة، فلما صعب ذلك عليهم، لاذوا بيزيد بن الوليد، واحتشدوا عليه، وعَبَّأُوا أنفسهم لمؤازرته، وظلوا ينتظرون اليوم الموعود للخلاص من الوليد، واستعادة نفوذهم المفقود[6].

3 - القدريَّة:

وممن انضم إلى حركة يزيد بن الوليد القدرية وكان يزيد فيما ذكر بعض المؤرخين، يدين بمذهب القدرية[7] ويعتبره المعتزلة أفضل من عمر بن عبد العزيز للمذهب[8]. ورأيي أن يزيد ابن عبد الملك طالب ملك وصراعه مع ابن عمه الوليد سياسي، وإن كان يزيد نظم حملة إعلامية شرسة لتلطيخ سمعة الوليد وسحب بساط الخلافة من تحته. وقد ذكر بعض المؤرخين أن يزيد كان ابن أمة فارسية ولم يكن له من المنزلة في الأسرة المروانية ما كان لغيره من أبناء الخلفاء من الحرائر العربيات، فحُرم هو وإخوته وسواهم من الأمراء الأمويين من أبناء

---

(1) أنساب الإشراف (2/ 337) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 311.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 311.
(3) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 313.
(4) المصدر نفسه، ص: 313.
(5) تاريخ الطبري نقلاً عن سيرة الوليد بن زيد، ص: 313.
(6) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 313.
(7) الكامل في التاريخ (3/ 425) قال ابن الأثير : قيل إنه قدري.
(8) سير أعلام النبلاء (5/ 376).

الأعجميات من الخلافة، فمال إلى القول بالقدر - ويبدو لي فيما يتعلق بالخلافة وهو أن تصبح حقاً لجميع المسلمين من العرب والموالي - وأظهر غير قليل من الزهد والتقوى والتأله، فأطمأن إلى القدرية واطمأنوا إليه[1] واستفاد منهم في حث الناس على مبايعته وتأييده وحضهم على خلع الوليد وسفك دمه، ويبدو أن تأييد القدرية ليزيد بن الوليد سببه محاربة الوليد لهم وسيره على منهج هشام بن عبد الملك في حربهم[2] وفي تقديري وجود القدرية في الحركة أضعفها بعد نجاحها، فهناك ملاحظات مهمة على العناصر التي شاركت في حركة يزيد ابن الوليد وهي:

أ - أكسبت مشاركة أمراء بني أمية الحركة نوعاً من الشرعية الأموية، إذ أصبحت الحركة خلافاً بين أفراد البيت الأموي، لا ثورة ضد الخلافة الأموية تنوي الإطاحة بها، خاصة إنهم لعبوا دوراً كبيراً في الإعداد والتمكين لها، مما ساهم إلى حد كبير في تسكين الناس، وإضفاء ثوب الشرعية على خلافة يزيد في دمشق ونواحيها على الأقل، كونه أحد أفراد البيت الأموي ويحظى بدعمهم، ولا معانداً لهم[3].

ب - شارك اليمانية في حروب الحركة وكانوا مادة جيوشها كما سيأتي بيانه بإذن الله، وكانوا القوى الضاربة للحركة[4].

ج - كان لدور القدرية في الحركة أن صب عليهم معارضوها نقمهم وتعرضوا لاضطهادهم وأصبحت القدرية تستحق القتل لدى معارضي الحركة، فمثلاً عندما أرسل يزيد بن الوليد عثمان بن داود الخولاني لأهل الأردن وفلسطين لاستمالة أهلها للحركة بعد مقتل الوليد، أخذ أهل الأردن بالصياح بمحمد بن عبد الملك قائلين: أصلح الله الأمير، اقتل هذا القدري الخبيث[5]. وهكذا.

سابعاً: السيطرة على العاصمة وقتل الوليد بن يزيد:

كان يزيد بن الوليد فطناً لبقاً يجيد تقدير الأمور، والتأني لها واختيار الوقت المناسب لتنفيذها، فاحتوى الجماعات الأموية واليمنية والقدرية المناهضة للوليد، ووعدها بحل مشاكلها وتحقيق مطالبها، فشدَّت من عزمه وشدَّ من عزمها ونظمها وأحسن استغلالها وأعدها حتى تسنح الفرصة للانقلاب على الوليد، وظلَّ يتحين الظرف حتى أمكنه[6].

(1) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 319.
(2) المصدر نفسه، ص: 318.
(3) القدرية جدلية الدين والسياسية في الإسلام، حركة يزيد بن الوليد، ص: 118.
(4) المصدر نفسه، ص: 148.
(5) المصدر نفسه، ص: 149.
(6) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 321.

1 - خطة إعلان الحركة وتنفيذها:

وضع يزيد بن الوليد خطة محكمة لإعلان الحركة، واستيلائها على مقاليد الأمور بدمشق، مستغلاً الظروف في تلك الفترة، فقد انتشر الطاعون في بلاد الشام، إضافة إلى انحباس المطر وانتشار الجفاف. وكانت العاصمة دمشق خالية في تلك الأيام من الخليفة وكبار رجال دولته، فكان الخليفة الوليد بن يزيد معتزلاً في البادية للعلاج من عارض صحي ألم به، ومبتدياً هرباً من الطاعون[1]. وكان عامله على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف قد خاف الوباء فخرج عن دمشق واستخلف عليها ابنه[2]. وحددت ليلة «الجمعة 21 جمادى الآخرة 126هـ / 9 نيسان 744م» موعداً لإعلان الحركة في دمشق. واقتضت الخطة دخول يزيد بن الوليد سراً إلى دمشق مع بعض أخلص أعوانه، والاختفاء في دار ثابت بن سليمان الخشني[3]، لحين صلاة العشاء حتى يبادر ومن معه الاستيلاء على المسجد، والقصر والخزائن، وإلقاء القبض على أتباع وأنصار الوليد في دمشق[4]. متفقاً وإياهم على شعار سري للحركة بحيث لا تفتح أبواب المدينة إلا لمن نادى بشعاره[5]. وأن يقدم أنصار الحركة من الغوطة ليدخلوا دمشق في مسيرة تظاهرية حاشدة مخترقين شوارع العاصمة دمشق من أبوابها، متجهين صوب المسجد حين يكون يزيد ومن معه من أتباعه بانتظارهم[6]. آملين من هذه التظاهرة إشعار الناس بقوة الحركة وكثرة أنصارها. وأن يكون لعنصر المفاجأة أكبر الأثر في نجاح الحركة في مقصدها ومراميها، ثم البدء بتجهيز الجيش الذي سيقاتل الوليد بن يزيد[7]، وقد تمّ تنفيذ الخطة بنجاح، وألقي القبض على رجالات الوليد وممثليه في العاصمة دمشق وطالت الحملة كافة أعوانه وأنصاره ومؤيديه، وشرع يزيد وأنصاره في إحكام السيطرة على مداخل دمشق وأبوابها، وأصدر أوامره لبوابي المدينة ألا تفتح الأبواب صبيحة يوم الجمعة إلا لمن نادى بشعار الحركة، وكلف يزيد أمراء البيت الأموي المشاركين في الحركة العمل على ضمان استتباب الوضع للحركة في دمشق من خلال قيامهم بدعوة الناس إلى النظام والعمل على فرض الأمن في مناطق دمشق، فأمر عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بالمرابطة بباب الجابية، والوليد بن روح بن الوليد بالمرابطة بالراهب[8]، لضمان الأمن

---

(1) القدرية جدلية الدين والسياسية في الإسلام، ص: 104.

(2) تاريخ الطبري (8/ 116).

(3) المصدر نفسه (8/ 115).

(4) المصدر نفسه (8/ 116).

(5) المصدر نفسه (8/ 116)

(6) القدرية جدلية الدين والسياسة في الإسلام، ص: 104.

(7) المصدر نفسه.

(8) الراهب: محلة خارج باب الجابية قبلي دمشق.

والنظام فيها، وأمر بني الوليد بن عبد الملك: الانتشار بين الأهالي وحضهم على الطاعة والنظام ودعم الحركة[1].

فيما كان مناديه ينادي: من كان له عطاء فليأت إلى عطائه، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة[2]. جذباً منه للأهالي للحركة ودعوة أو حملاً لهم على النظام والطاعة[3].

2 - إرسال جيش للوليد بن يزيد:

بعد أن فرضت الحركة هيمنتها على دمشق وهدأت الأحوال فيها، باشر يزيد بن الوليد بتجهيز جيش الحركة لتوجيهه للخليفة الوليد بن يزيد، فأخذ يندب الناس للمشاركة فيه، ويلاحظ من المصادر الإحجام على الانخراط فيه، إذ ندب الناس أولاً مقابل ألف درهم لكل مشارك فانتدب ألف، فلما رفع المبلغ إلى ألف وخمسمائة درهم انتدب له ألف وخمسمائة مشترك، فلما رفع المبلغ إلى ألفين انتدب ألفان، وعين عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك قائداً له[4]. وانطلق عبد العزيز إلا أن أعداداً كبيرة انسحبت في الطريق، وعندما علم الوليد بزحف الجيش نحوه شرع في اتخاذ الخطوات والإجراءات لملاقاة جيش الحركة الموجه لقتاله فخرج من الأغدف - ماء من عمّان البلقاء - باتجاه البخراء وهناك بدأ بتجنيد الأهالي في جيشه، وعندما وصل جيش الوليد بالبخراء بدأ في تهيئة الأمور لملاقاة جيش الحركة الذي ما لبث أن وصل في تلك المنطقة ونشب القتال وكانت الدائرة في بداية المعركة على جيش الحركة، وأدى اشتداد القتال إلى انكشاف جيش الحركة وتراجع أفراده، الأمر الذي دفع عبد العزيز إلى الترجل وحث جنده على القتال، فعادوا إلى المعركة كارين مرة أخرى[5]، ولم تلبث كفة جيش الحركة أن أخذت ترجح في المعركة. ويعود السبب في ذلك إلى أن جيش الحركة تمكن من أسر العباس بن الوليد[6] أثناء توجهه لنصرة الخليفة الوليد، واستغلوا الفرصة ورفعوا راية ونادى المنادي: هذه راية العباس وقد بايع لأخيه يزيد أمير المؤمنين[7]، ونادى منادي عبد العزيز: من لحق بالعباس فهو آمن، وكانت نتيجة هذه الخطوة أن رجحت كفّة جيش الحركة وأخذ الوهن يتسرب إلى نفوس جند الخليفة إذ: أسقط في أيدي أصحاب الوليد وانكسروا[8]. وتفرق الناس عن الوليد وأتوا العباس وعبد العزيز[9]. وحاول الوليد بث

(1) تاريخ الطبري (8/ 118).
(2) المصدر نفسه (8/ 118).
(3) القدرية جدلية الدين والسياسة في الإسلام، ص: 155.
(4) تاريخ الطبري (8/ 119).
(5) المصدر نفسه (8/ 121).
(6) المصدر نفسه (8/ 121).
(7) المصدر نفسه (8/ 121).
(8) القدرية جدلية الدين والسياسة في الإسلام، ص: 155.
(9) أنساب الأشراف نقلاً عن القدرية جدلية الدين، ص: 160.

العزيمة في جنده وقاتل معهم قتالاً شديداً وعمل على إلهاب هماسهم وإغرائهم بالمال، وأعلن أن من جاء برأس من رؤوس أفراد جيش الحركة فله خمسمائة درهم[1]. وفي نفس الوقت أخذ يعمل على استمالة عبد العزيز بن الحجاج قائد جيش الحركة، فبعث إليه الوليد بن خالد الكلبي، قائد الميسرة، ليبلغه وعد الخليفة الوليد: بأن يعطيه خمسين ألف دينار، ويجعل له ولاية حمص ما بقي، ويؤمنه على كل حدث، على أن ينصرف ويكف، إلا أن عبد العزيز رفض العرض رغم معاودة الوليد له مرة أخرى[2].

بدأ موقف الوليد يضعف أمام جيش الحركة، وأدرك أصحابه حرج موقفه وتمت خيانات كبرى في ميسرة الوليد وميمنته، وأمام العروض المغرية والأموال المجزية انضمت ميسرة وميمنة جيش الخليفة إلى جيش الحركة، وبذلك حسم مصير المعركة نهائياً لصالح الحركة، فانهزم من بقي مع الوليد بن يزيد، وآثر الوليد الاحتماء بحصن البخراء، فأطبق جيش الحركة الحصار حوله[3].

3 - الحوار بين الخليفة والثوار:

حاول الخليفة استعطاف جيش الحركة بتذكيرهم بمآثره عندهم، فدنا من باب الحصن وقال: ما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه، فقال له يزيد بن عنبسة السكسكي: كلمني قال: له من أنت؟ قال: أنا يزيد بن عنبسة، قال: يا أخا السكاسك ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أدفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدّم زمناكم؟ فقال: إنا ما ننقم عليك في أنفسنا ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرّم الله وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله وإتيانك الذكور، قال: حسبك يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله لي لسعة عما ذكرت[4]. وحاول الوليد في دفاعه عن نفسه - والذي جاء متأخراً - بيان النتائج المترتبة على قتله بقوله ليزيد بن عنبسة: أما والله لا يُرْتق فتقكم، ولا يلم شملكم، ولا تجتمع كلمتكم[5]. إلا أن نصيحته هذه لم تجد آذاناً صاغية من أفراد جيش الحركة، فرجع عندها الوليد إلى داخل الحصن، ونشر مصحفاً يقرؤه بين يديه وقال: يوم كيوم عثمان[6].

إن الذي يفزع إلى المصحف عندما أحيط به وأيقن أنهم قاتلوه لا يمكن أن يكون ماجناً، يقترف ما رموه به ويهين المصحف ويمزقه، كما تذهب بعض الروايات، وربما كان عند الوليد

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن القدرية جدلية الدين، ص: 160.
(2) تاريخ الطبري (8/ 126).
(3) المصدر نفسه (8/ 126).
(4) المصدر نفسه (8/ 122).
(5) المصدر نفسه (8/ 123).
(6) المصدر نفسه (8/ 122).

ميل إلى اللهو والعبث، ولكن لم يصل به الحد إلى أن يهم بشرب الخمر فوق الكعبة، وهل ضاقت عليه الدنيا، فلم يجد مكاناً يشرب فيه الخمر إلا فوق الكعبة إن هذا لو حدث من حاكم مسلم في عصرنا هذا لرماه الناس بالحجارة، فكيف بالوليد وهو خليفة المسلمين في عصر قريب إلى حد ما من عصر النبوة والخلافة الراشدة، ومليء بالعلماء والصالحين والتابعين[1]؟ والله أعلم.

4 - مقتل الخليفة الوليد بن يزيد: 126هـ:

وبدأ أفراد جيش الحركة باقتحام الحصن، وكان أول من نزل إليه يزيد بن عنبسة السكسكي: فأخذ بيد الوليد وهو يريد أن يحبسه ويؤامر يزيد بن الوليد فيه[2]. إلا أن فرساناً من أهل اليمن نزلوا إلى الدار، وتسابقوا إلى قتله واحتزاز رأسه، إذ كان يزيد بن الوليد قد جعل فيه مائة ألف درهم[3]، وكان قتله في يوم الخميس 27 جمادى الآخرة 126هـ / 16 نيسان[4] 744م.

وألقى أفراد جيش الحركة القبض على ابنيه الحكم وعثمان حيث انتهى بهما القرار بالحبس في دمشق[5]، وبلغ يزيد بن الوليد الخبر بدمشق ليلة الجمعة 28 جمادى الآخرة 126هـ.

وقُدم برأس الوليد في صبيحة الجمعة حيث نصبه للناس دلالة على انتصار جيشه بعد أن انتشرت الإشاعات في دمشق عن هزيمته أمام الوليد[6]. وكان خاتم الوليد منقوش عليه: يا وليد احذر الموت[7]. ويقال أن الوليد حمل وصلّى عليه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ودفن بباب الفراديس بدمشق[8].

5 - نتائج قتل الوليد:

نجم عن قتل الوليد بن يزيد عدة نتائج منها:

أ - ضعف الخلافة الأموية، وذهاب هيبتها وضياع جلالها وانهيار سلطانها على العامة والخاصة والجند في الأمصار المختلفة وذلك بسبب مقتل الوليد بن يزيد.

ب - اختلاف القبائل اليمنية الشامية، وتضارب أهوائها السياسية، وانقسامها، ومحاربة

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 199.
(2) المصدر نفسه (8/ 122).
(3) المصدر نفسه (8/ 126).
(4) القدرية جدلية الدين والسياسة، ص: 163، تاريخ الطبري.
(5) أنساب الأشراف نقلاً عن القدرية جدلية الدين والسياسة، ص: 163.
(6) تاريخ الطبري (8/ 127).
(7) تاريخ القضاعي، ص: 375.
(8) المصدر نفسه، ص: 375.

بعضها لبعض وهي الأساس في جند بني أمية، فتفكك جيش الدولة في العاصمة، وتصدعت قوتها الضاربة وتمزقت.

ج - نشأت عن قتل الوليد تفسخ الأسرة الأموية بفرعيها السُّفياني والمروانيّ وتناحرها وتفانيها في سبيل الفوز بالحكم والملك[1].

د - **تتابع الفتن:** اضطرب حبل بني مروان بعد مقتل الوليد وهاجت الفتن وتتابعت الأحداث ولم تنقطع إلا بزوال الملك، وإنّ في ذكرها لعبرة للمتبصرين. فقد وثب سليمان بن هشام بن عبد الملك على يزيد بن الوليد بعمان - وكان منفياً هناك - واحتوى على ما بها من أموال الدولة: واستمّر إلى أن استقدمه يزيد وعفا عنه، وثار أهل حمص وكاتبوا الأجناد ودعوهم إلى الطلب بدم الوليد فأجابوهم، وعقد هؤلاء الثّوار بينهم عقداً تحالفوا عليه، خلاصته أن لا يدخلوا في طاعة يزيد، وإن كان وليًّا عهد الوليد حيَّيْن عقدوا البيعة لهما، وإلا جعلوها لخير من يعلمون، على أن يعطيهم العطاء من المحرم إلى المحرّم، ويعطيهم للذريّة وأمّروا معاوية بن يزيد بن حصين، فلما بلغ يزيد بن الوليد خبرهم وجّه لهم رسولاً وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه ولكنه يدعوهم إلى الشورى. فاجتمع رؤساء الثائرين للمناقشة في ردّ الجواب فقال عمرو بن قيس السكوني: نحن راضون بوليّيْ عهدنا: يعني ابني الوليد. فقام إليه يعقوب بن عمير وأخذ بلحيته فقال: أيها العشمة إنك قد فيّلت وذهب عقلك إن اللذين تعنيهما لو كانا يتيمين في حجرك لم يحلل لك أن تدفع إليهما ما لهما فكيف أمر الخلافة؟ أما تتقي الله؟ فحصل بينهما شجار ثم عادوا واتّفقوا على عدم الجواب وطرد رسل يزيد، ولما اتصل ذلك بيزيد سير إليهم الجيوش وتجهز أهل حمص وصاروا إلى دمشق حتى وافوا عذراء وهي على أربعة عشر ميلاً من العاصمة الأموية[2]. فنهد إليهم عبد العزيز بن الحجّاج في ثلاثة آلاف وأمره أن يثبت على عقبة السلام، وحين التقى الجيشان بالثائرين حمل عبد العزيز بن الحجاج فانهزم الثوّار فتبعهم عبد العزيز فناداه يزيد بن خالد القسري: «الله الله في قومك» فكفّ عنهم على أن يبايعوا ليزيد، وأرسل وجوههم إلى دمشق معتقلين، ولما وصلوا بايعوا مع أهل دمشق ليزيد، فعفا عنهم وأعطاهم أموالاً واستعمل عليهم معاوية بن يزيد بن حصين برضاهم[3].

- **ثورة أهل فلسطين:** وثار أيضاً أهل فلسطين لما أتاهم نبأ مقتل الوليد، وكان رئيسهم يومئذ سعيد بن روح بن زنباع. فكتب إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك أن الخليفة قد قُتِل، فأقدم علينا نولّك أمرنا. فجمع له سعيد قومه وكتب إلى عامل فلسطين سعيد بن عبد الملك وهو نازل بالسَّبع: ارتحل عنّا فإن الأمر قد اضطرب وقد ولّينا أمرنا رجلاً ارتضيناه[4]. فخرج ولحق بيزيد بن الوليد.

(1) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 330.
(2) تاريخ الطبري (8/ 142).
(3) تاريخ الطبري (8/ 145).
(4) المصدر نفسه (8/ 147).

- أهل الأردن: وبلغ أهل الأردن ما فعل الفلسطينيون، فتابعوهم وولّوا عليهم محمد بن عبد الملك، فبعث إليهم يزيد سليمان بن هشام في أجناد دمشق وحمص، فارتحل بالجنود إلى أن أشرف على طَبَريّة، فوافاه إليها الثّوار، فأوفد إليهم رسوله محمداً بن راشد يكلّم سعيداً وضبعان ابني روح، والحكم وراشد ابني جرو، فلقيهم فوعدهم ومنّاهم على الدخول في طاعة يزيد، فبايعوه على الرضا وصرفوا الجنود ووقى الله منهم، ووفى لهم يزيد بما واعدهم محمد بن راشد من الولايات. ثم تحول سليمان بجنوده إلى الرملة وأخذ البيعة على أهلها[1].

6 - سلامة الوليد من الزندقة والكفر:

كان العباسيون في أوّل عهدهم يهاجمون الأمويين ويتهمونهم بالضلال والإلحاد والانسلاخ من الدين اتهاماً قوياً يظهر في خطب أبي العباس وأبي جعفر المنصور وداود بن علي وسليمان بن علي، وعيسى بن علي، ويظهر في خطب دعاة العباسيين وقادتهم كأبي مسلم الخراساني، وكان بعض الرواة يتزلفون إلى الأخبار التي تقدح في دينه[2] وقد زيف بعض الرواة حديثاً رموا فيه الوليد بالتجبر والكفر وجعلوا توليه الخلافة نذيراً بانهيار الدولة الأموية، وبشيراً بقرب قيام الدولة العباسية، وهو حديث رواه أحمد بن حنبل فقال: حدثنا ابن عباس قال: حدثني الأوزاعي وغيره عن الزهري، عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ولد لأخي أم سلمة زوج النبي ﷺ غلام فسمّوه الوليد، فقال النبي ﷺ: **«سمّيتموه بأسماء فراعنتكم ليكوننَّ في هذه الأمة رجل يقال له: الوليد لهو شرٌّ على هذه الأمة من فرعون لقومه»**[3] وإسناد الحديث ضعيف لانقطاعه، فسعيد بن المسَيب لم يدرك عمر بن الخطاب إلا صغيراً ولم يَرو عنه، وإنما روى عن غيره من الصحابة الذين ذكرهم ابن سعد[4]. والراجح أن الحديث موضوع[5]. ونقل علماء اليمنية كالأزدي[6]، وعلماء الشيعة كالشريف المرتضى[7]، أن الأوزاعي سأل الزهري: أيُّ الوليدين هو؟ فقال: إن استخلف الوليد بن يزيد فهو هو، وإلّا فهو الوليد بن عبد الملك[8]، فلما استتبَّ الأمر للعباسيين وثبت سلطانهم، عزف خلفاؤهم وأمراؤهم وولاتهم عن قذف الأمويين بالخروج

---

(1) المصدر نفسه (8/ 147).

(2) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 236.

(3) مسند أحمد (1/ 109) إسناد الحديث ضعيف لانقطاعه.

(4) الطبقات (2/ 380) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 237.

(5) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 237، انظر تعليق أحمد شاكر المسند (3/ 50، 80).

(6) تاريخ الموصل، ص: 56.

(7) أمالي الشريف المرتضى (1/ 129).

(8) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 56.

على الإسلام، فخلت خطبهم من تكفير الأمويين[1]، وصَدَّ المهدي والرشيد الرواة الذين كانوا يُداهنونهما عن التعريض بالأمويين وتجريحهم، بل إنهما انتصرا للوليد، ونفيا عنه تهمة الزندقة ونزّهاه عنها، إذ أن المهدي كان إذ ذُكر الوليد في مجلسه يقول: رحمه الله، ولا رحم قاتله، فإنه كان خليفة مجمعاً عليه. وقيل له: إن الوليد كان زنديقاً، فقال: إن خلافة الله أعز وأجلُّ من أن يولِّيها من لا يؤمن[2]. ويروى أن ابناً للغَمِر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد فقال: ممَّن أنت؟ قال: من قريش. قال: من أيِّها؟ فأمسك. قال: قل وأنت آمن، ولو إنك مروانيٌّ. قال: أنا ابن الغَمْر بن يزيد. قال: رحم الله عمّك، ولعن يزيد النّاقص وقتلة عمَّك جميعاً، فإنهم قتلوا خليفه مجمعاً عليه[3]. ارفع حوائجك، فرفعها فقضاها.

وقد تَنَبَّه كثير من المؤرخين إلى أن الأخبار التي تقدح في دين الوليد وتتهمه بالزندقة مصنوعة، فتوقف فريق منهم عندها، وتحرَّجوا من رواياتها ولم يستطيعوا القطع برأي فيها، منهم ابن شاكر فإنه يقول: اتَّهمه بعضهم بالزندقة والانحلال والله أعلم[4]. واليافعي يقول: ذكروا عنه أشياء قبيحة في الدين والعرض أكره ذِكرها، والله أعلم بذلك[5]. ولكن فريقاً من المؤرخين رفضوها، وجزموا بوضعها، وأشار بعضهم إلى أنها أثر من آثار السياسة[6]، منهم ابن الأثير فإنه يقول: وقد نزه قوم الوليد بن يزيد مما قيل فيه، وأنكروه ونفوه عنه وقالوا: إنه قيل عنه، وأُلصِقَ به، وليس بصحيح[7]، والذهبي يقول: لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة[8]، وابن خلدون فإنه يقول: لقد سارت القالة فيه كثيراً وكثير من الناس نفوا ذلك عنه وقالوا: إنها من شناعات الأعداء، ألصقوها به[9]، وابن تغري بردي فإنه يقول: ذكر عنه بعض أهل التاريخ أُموراً استبعد وُقُوعها[10]، وكرر السيوطي[11] رأي الذهبي واقتصر عليه. وهذا هو الصحيح والله أعلم. إن مقتل الوليد بن يزيد وقتال الأمويين بعضهم لبعض حطمت قواهم وعجلت بزوالهم.

---

(1) العقد الفريد (4/ 101- 107) جمهرة خطب العرب (3/ 50، 80).
(2) أنساب الأشراف، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 237.
(3) الكامل في التاريخ (3/ 412).
(4) عيون التواريخ نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 238.
(5) مرآة الزمان (1/ 264).
(6) سيرة الوليد بن يزيد، ص: 238.
(7) الكامل في التاريخ (3/ 412).
(8) تاريخ الإسلام، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد، ص: 238.
(9) تاريخ ابن خلدون، نقلاً سيرة الوليد بن يزيد، ص: 238.
(10) النجوم الزاهرة (1/ 298).
(11) تاريخ الخلفاء.

المبحث الثاني

يزيد بن الوليد بن عبد الملك

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد، آخر ملوك الفرس[1]، وكان يجمع في أصوله بين الدم العربي والفارسي والرومي والتركي، فجده لأبيه عبد الملك بن مروان، وهو عربي، وجده لأمه فيروز بن يزدجرد وهو فارسي وجدة جده لأمه ابنة قيصر، وأم جدته لأمه ابنة خاقان الترك[2]، فكان يفخر ويقول:

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدي وجدي خاقان[3]

أولاً: منهجه في الحكم:

لما وافت يزيد البشائر بخمود الفتن خرج إلى الجامع في موكب مشهود، وألقى ما يسمّونه في العصور الحديثة خطاب العرش، وقد ضمن فيه أصول سياسته[4] في الحكم. وتعتبر خطبته أوفى صياغة لمشروعه، فبعد أن حمد الله قال: أيها الناس والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي وإني لظلوم لها، ولقد خسرت إن لم يرحمني ربي. ولكني خرجت غضباً لله ودينه، وداعياً إلى الله وسنة نبيه، لما هدمت معالم الهدى وأطفئ نور التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب، ولا يصدق بالثواب والعقاب، وإنه لابن عمي في النسب وكفئي في الحسب، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل بيتي حتى أراح الله منه العباد وطهر منه البلاد بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي: أيها الناس إن لكم عليّ أن لا أضع حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة، ولا أكري نهراً ولا أكنز مالاً، ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم، فإن فضل فضلٌ نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه منه، وأن لا أجمّركم في ثغوركم فأفتنكم عن أهليكم، وأغلق بابي دونكم، فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجلبهم به عن بلادهم وأقطع نسلهم، ولكم عندي أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون أقصاهم كأدناهم، فإذا أنا وفيت لكم فعليكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 374) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 203
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 203.
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 375).
(4) سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، ص: 77.

والمكاتفة، وإن أنا لم أوف لكم فلكم أن تخلعوني، إلا أن تستتيبوني، فإن أنا تبت قبلتم مني، وإن عرفتم أحداً يقوم مقامي ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ودخل في طاعته. أيها الناس، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[1]. وقد تضمنت هذه الخطبة العديد من الأمور التي تستحق التوقف أمامها:

1 - شرح للتبريرات التي دفعته للقيام بهذه الخطوة، وفي المقدمة أن هذا الخروج كان غضباً لله ودينه ودعوة إلى سنة نبيه، نظراً لما فعله الوليد الجبار العنيد المستحل للحرمات وما جاء به من بدع منكرة - حسب رأيه.

2 - أنه يحدد برنامجه خطوة خطوة، إذ أنه يتعهد أن لا يضع «حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة ولا أكري نهراً ولا أكنز مالاً ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً» إذ المعروف أن معظم الخلفاء الأمويين أنفقوا أموالاً كثيرة في بناء القصور خاصة في دمشق والبادية على حد سواء[2]. كما أنهم عمروا الكثير من المساجد في المدينة والقدس ودمشق وسواهم وفي الطريق إلى الحج.. ولا بد أن يضاف إلى ذلك كله أن الخلفاء والأمراء الأمويين قاموا بكري الأنهار لإحياء الأراضي الموات التي استصلحوها، وأنفقوا في سبيل ذلك الكثير من الأموال العامة وفيما كانت سياستهم في جانب منها تقوم على الإنفاق من بيت المال[3].

3 - يؤكد يزيد أن كل منطقة من أجزاء الدولة الإسلامية ستنفق مداخيلها على شؤونها، وهذا بمثابة تطور هام، كان له أوليات في عهد عمر بن عبد العزيز، إذ أن ما أشرنا إليه عن إرساله الأموال من الشام إلى العراق، كان انقلاباً نوعياً في العلاقات المالية بين المركز والأطراف. هنا نلمح خطوة إلى الأمام في إنفاق الواردات في أماكن جبايتها الأصلية. علماً أن الخلفاء الأمويين كانوا يضطرون إلى إرسال الأموال للإنفاق على الجنود والجيوش لقمع الانتفاضات والثورات. أما الآن فالأمر قد اختلف كلياً، إذ أنه في حال توافر فائض يمكن استعماله لسد حاجات المناطق المجاورة وليس لملء خزائن السلطة المركزية[4].

4 - إنه يتعهد بالامتناع عن إطلاق حملات عسكرية تؤدي إلى بقاء الجيوش بعيداً عن منازلها لمدد طويلة وهو ما يسمى بتجمير الجيش وهو ما مثل قضية خلال خلافة عمر ومن بعده من الخلفاء. ولا ننسى أن ثورة ابن الأشعث كانت في جانبها الأبرز تعبيراً عن رفض بقاء

---

(1) تاريخ الطبري (8/ 148) البيان والتبيين للجاحظ (2// 69، 70).

(2) السلطة والمعارضة في الإسلام، 482، انظر : ضياع بني أمية.

(3) المصدر نفسه، ص: 482.

(4) السلطة والمعارضة في الإسلام، ص: 482.

الجنود بعيدين عن مواطنهم، حتى أن المهلب بن أبي صفرة نصح الحجاج بعدم التصدي لهم، لأنهم لدى عودتهم سيكونون مندفعين كالسيل[1]. على أن هذه القضية كانت أشد تأثيراً لدى جند الشام من العراقيين، باعتبار أن الأولين باتوا قوة متفرغة للقتال سواء في الصوائف أو لقمع الثورات التي تنشب هنا أو هناك والتي شملت أجزاء الدولة في مراحل متلاحقة من دون استثناء. إذن نحن إزاء قضية تملك حساسية خاصة بالنسبة للجند الشاميين الذين باتوا قوة قمع كاملة المواصفات. ولما كانت أعطيات هؤلاء تتأخر، فهو يعد بالأعطيات سنوياً والأرزاق شهرياً.

5 - يتوجه في خطابه أيضاً لأهل الجزية، أو الشعوب المغلوبة في المشرق والمغرب، ويعدهم بمعاملة منصفة، وهذه المعاملة المنصفة ستدفعهم إلى البقاء في قراهم وعلى خدمة أراضيهم من دون أن يضطروا إلى مغادرتها نحو المدن والمراكز، ومن شأن هذه العدالة أن تحافظ عليهم في بلادهم وتحافظ على ذراريهم، إذ أن تعرضهم للقهر عبر منوعات الضرائب التي كانت سارية من شأنها تهجيرهم وإفنائهم[2].

6 - إن هذه السياسات من شأنها أن تردم الهوة بين المسلمين.

والهوة المقصودة هنا هي هوة اجتماعية واقتصادية بطبيعة الحال. واستعمال مصطلح المسلمين وليس العرب له دلالته. إذ أنه يدخل عملياً في هذا الموالي المسلمين بما يزيل الدونية التي عانوا منها، مما يعني هناك نقلة نحو المساواة التي كان عمر بن عبد العزيز قد خطا نحوها.

7 - إن هذا البرنامج الذي يلتزم به إمامهم هو العقد الذي يرتبط به معهم، وكما أنه يتعهد بالإيفاء، فإن هذا يتطلب منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكاتفة، أما إذا لم يفِ فإن لهم خلعه. هذا العقد الذي تتحدد فيه بدقة الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكوم، تنسف عملياً كل ادعاءات السلطة المطلقة... وهو فكر يجزم أن أمير المؤمنين وإن كان يتمتع بسلطة، إلا أنها ليست مطلقة، إذ أنها تخضع لموافقة المجتمع عليها، فإن أساء استعمال الصلاحيات التي يخولها له موقعه كان ذلك مبرراً لخلعه[3].

وأهمية هذه النقاط أنها في كل واحدة منها تقدم جواباً على واحدة من إشكاليات الدولة الأموية، إلا أن الجانب النظري شيء والتطبيق العملي قضية أخرى. فالخليفة الثائر لم يستطع أن يفي بوعوده للناس، واضطر أن يحابي اليمنيين الذين ساعدوه في الوصول إلى الخلافة،

---

(1) السلطة والمعارضة في الإسلام، ص: 483.
(2) المصدر نفسه، ص: 493.
(3) المصدر نفسه، ص: 483، 484.

وأن يغدق عليهم الأموال فأدى ذلك إلى نضوب في بيت المال، مما اضطره إلى إنقاص أعطيات الجند، فسموه الناقص، وهي تسمية لها دلالتها، كما أن القبائل المضرية نفرت منه لموالاته لليمنيين، فهبت في وجهه ثورات المضرية قضى مدة خلافته القصيرة في قمعها[1].

ثانياً: توزيعه المناصب على مؤيديه وترغيب معارضيه:

كان الاتجاه العام عند يزيد بن الوليد مكافأة من أبلى معه في الحركة بتوليته المناصب في خلافته، منهم:

1 - عبد العزيز بن الحجاج بن عبد المَلك:

كان وجيهاً عند يزيد الناقص لقيامه معه في محاربة الوليد، وهو الذي تولى قتال الوليد حتى قتل، وجعله يزيد ولي عهده بعد أخيه إبراهيم[2].

2 - منصور بن جمهور:

قال يزيد بن حجوة الغساني ليزيد بن الوليد: بعد توليته منصور العراق: يا أمير المؤمنين أوليت منصوراً العراق؟ قال: نعم لبلائه وحسن معونته. قال: يا أمير المؤمنين إنه ليس هناك في أعرابيته وجفائه في الدين، قال: فإذا لم أوَلِّ منصوراً في حسن معونته فمن أولِّي[3].

3 - يزيد بن العقار والوليد بن مصاد الكلبيان:

كانا فيمن سار إلى الوليد وولي قتله، كان أحدهما على حرس يزيد، والآخر على شرطته[4].

4 - قطن مولى يزيد بن الوليد:

كان من ذوي الرأي من موالي بني أمية[5] ومن أكبر أعوان يزيد في مرحلة الدعوة والتبشير بأهدافها وترتيب أوضاعها[6]، وولاه يزيد بعد توليه الخلافة خاتم الخلافة، والحجابة[7].

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 205.

(2) تاريخ دمشق نقلاً عن القدرية جدلية الدين والسياسة، ص: 100، 101.

(3) تاريخ الطبري (8/ 150).

(4) تاريخ الطبري نقلاً عن القدرية جدلية الدين، ص101.

(5) تاريخ دمشق نقلاً عن جدلية الدين، ص: 101.

(6) أنساب البلاذري نقلاً عن القدرية جدلية الدين، ص: 101.

(7) القدرية جدلية الدين والسياسة، ص: 101.

5 - يزيد بن عنبسة السكسكي:

كان داعياً ومشرفاً على الدعاة[1] شارك في الاستيلاء على دمشق ليلة إعلان الحركة[2]، وبقتل الوليد بن يزيد[3]، وكان له حضور قوي في مبايعة يزيد بالخلافة[4].

6 - ثابت بن سليمان بن سعد الخشني:

كان منزله في دمشق مركز تجمع أنصار الحركة، وفيه احتمى يزيد ليلة إعلان الحركة، وتولى في خلافة يزيد ديوان الرسائل[5].

7 - مروان بن محمد:

حرّك مروان بن محمد جيوشه للمطالبة بدم الخليفة المقتول، وأسرع يزيد فكتب إلى مروان يدعوه إلى البيعة والطاعة ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان أولى أباه محمد بن مروان من الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان، فسكنت نفس مروان لذلك وأقلع عما كان عليه وبايع يزيداً، وأوفد إليه بالبيعة محمد بن عبد الله بن علاثة ونفراً من وجوه الجزيرة، ولكن المنون عاجلت يزيداً قبل وصول البيعة[6]، ويقال أن يزيد بن الوليد بلغ عن مروان بن محمداً أمراً فكتب إليه: أما بعد فإني رأيتك تُقَدِّم رِجْلاً وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت. فقال مروان: أنا على لقاء العساكر أقوى مني على لقاء هذه الكلمات، ثم أذعن ودخل فيما دخل فيه الناس[7].

8 - مكانة العلماء عند يزيد:

وفي عهده لم يكن لعلماء أهل السنة والجماعة مجال، حيث تبني يزيد طائفة القدرية - أتباع غيلان الدمشقي - والتف حوله أقطابها وأفسح لهم المجال إذ قاموا بنصرته في خلعه للوليد وقتله[8]. ومن منهجهم إذا كانت لهم السلطة وبيدهم مقاليد الأمور أن عليهم أن يحملوا الناس على مذهبهم واعتقاد مبادئهم، فلذا لن يقبلوا من العلماء المخالفين لهم مزاحمة، بل لعلهم كانوا يهيئون لإحداث محنة بهم، وقد بدت بوادر هذه المحنة حيث يذكر بعض

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن القدرية جدلية الدين، ص: 101.
(2) تاريخ الطبري (8/ 116).
(3) المصدر نفسه (8/ 122).
(4) القدرية جدلية الدين والسياسة، ص: 101.
(5) تاريخ دمشق نقلاً عن القدرية جدلية الدين والسياسة، ص: 102.
(6) تاريخ الطبري (8/ 181).
(7) فوات الوفيات (4/ 333).
(8) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 117.

المؤرخين أن يزيد بن الوليد لما تم له الأمر دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه[1]. ولكن الله حال بينه وأصحابه وبين ما يشتهون حيث لم تدم خلافته أكثر من ستة أشهر[2] وكما قال الذهبي: ولكنه لم يمتع وما بلعَ ريقه[3].

ثالثاً: من أقواله ووفاته:

1 - قال: يا بني أمية إياكم والِغناء فإنه يُنقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة وينوب عن الخمر، فإن كنتم لا بدَّ فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنى[4].

2 - وفاته: مات يزيد الناقص في سابع ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، فكانت دولته ستة أشهر، ومات. وكان شاباً أسمر نحيفاً، حسن الوجه، وقيل: مات بالطاعون، وبويع من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد، ودفن بباب الصغير وكان آخر ما تكلم به: واحسرتاه واسفاه[5]. وكان نقش خاتمه يا يزيد قم بالحق[6].

المبحث الثالث

إبراهيم بن الوليد

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن الحكم، وأمه أمة بربرية، وبويع له بالخلافة بعد وفاة أخية يزيد بعهد منه، في نهاية ذي حجة سنة 126 هـ، ولكنه لم يتم له أمر فكان الناس كما يقول الطبري: جمعة يسلمون عليه بالخلافة، وجمعة بالإمارة، وجمعة لا يسلمون عليه بالخلافة ولا بالإمارة[7]، وكان أول من رفض بيعته أهل حمص، فأرسل إليهم ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ليأخذ له البيعة منهم بالقوة فحاصرهم وبينما هو على حصارهم وهم يرفضون البيعة، قدم مروان بن محمد، فلما علم عبد العزيز بن الحجاج بمقدمه ترك حمص، فدخلها مروان، وبايعه أهلها، وساروا معه قاصدين دمشق، فلقيهم جيش إبراهيم بن الوليد على رأسه سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفاً، فالتقى بهم مروان في ثمانين ألفاً، ودارت بينهما معركة في مكان يسمى عين الحر - بين دمشق وبعلبك - فهزم سليمان وقتل من جنده حوالي سبعة عشر ألفاً وأسر مثلهم، فعاد منهزماً إلى دمشق والتقى بإبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج واتفقوا على قتل ولدي الوليد بن يزيد - الحكم وعثمان - قبل وصول مروان، وقالوا: إن بقي ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويعيد الأمر

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 376).
(2) المصدر نفسه (5/ 376).
(3) المصدر نفسه (5/ 375).
(4) المصدر نفسه (5/ 376).
(5) المصدر نفسه (5/ 376).
(6) تاريخ القضاعي، ص: 377.
(7) تاريخ الطبري (8/ 182).

إليهما لن يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما، والرأي قتلهما[1]، فقتلوهما، ثم هرب إبراهيم بن الوليد وأنصاره ودخل مروان دمشق، وأخرج يزيد بن خالد وأبا محمد السفياني من السجن وجاءوا إليه بابني الوليد بن يزيد مقتولين، فشهد أبو محمد السفياني لمروان بأنهما جعلا له الخلافة بعدهما وبايعه الناس وكان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة 127هـ فكانت مدة خلافة إبراهيم بن الوليد ما يقرب من أربعة أشهر - وتسلم مروان بن محمد الخلافة ليصارع أحداثاً أقوى منه، ويواجه دنيا مدبرة، ودولة ممزقة، قدر له أن يكتب الفصل الأخير من حياتها[2] وقد توفي إبراهيم عام 132هـ يوم الزاب وقيل: قتله مروان وصلبه، وكان نقش خاتمه: توكلت على الحي القيوم[3].

المبحث الرابع

مروان بن محمد، آخر خليفة أموي (١٢٧هـ)

هو مروان بن محمد بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، كنيته أبو عبد الملك، أمير المؤمنين، آخر الخلفاء الأمويين ولقب الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم[4]، ولقب بالحمار: لصبره على الحروب ومصابرته الشدائد في الوقائع التي مرت على رأسه أيام إمارته وخلافته[5]. وتلقيبه بالحمار من ظلم المؤرخين لأنها تسمية بعيدة عن العدل والإنصاف، إذ كان الأولى أن يسمى الشجاع أو الصبور أو الأسد، ولكن لما ساء حظه وسقطت الدولة الأموية في عهده أصبح الأسد حماراً[6]. ومن صفاته أنه كان مشهوراً بالفروسية والإقدام، والرجولة والدهاء، وكان أشقر أزرق، أبيض مشرباً بحمرة، أزرق العينين كبير اللحية، ضخم الهامة ربعة، ولم يكن يخضب، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي[7] وقال العصامي: كان مروان بطلاً شجاعاً مهيباً، وكانوا يعدونه في مقابلة ألف مقاتل، أبيض، ربعة أشهل العينين[8] وقال عنه الذهبي: كان مروان بطلاً شجاعاً داهيةَ، رزيناً، جباراً يصل السَّير بالسُّرى ولا يجف له لِبدٌ، دوخ الخوارج بالجزيرة، ولد سنة اثنتين وسبعين بالجزيرة إذ أبوه متوليها، وأمه أم[9] ولد.

---

(1) تاريخ الطبري (8/ 182).
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي.
(3) تاريخ القضاعي، ص: 379.
(4) تاريخ الخلفاء، ص: 254، البداية والنهاية (13/ 262).
(5) الحركات المناهضة لخلافة مروان بن محمد، مهند ماهر، ص: 19.
(6) تاريخ العالم الإسلامي، الدولة الأموية في المشرق، ص: 84.
(7) سمط النجوم (3/ 229) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 409.
(8) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 409، سمط النجوم (3/ 229).
(9) سير أعلام النبلاء (6/ 74).

أولاً: قدرات مروان بن محمد العسكرية:

ورغم أن الدولة الأموية انتهت وانهارت في عهده أو بنهاية خلافته، إلا أنه يعتبر من فرسان بني أمية وشجعانهم، ولم يكن مروان من القادة العاديين، فهو إلى جانب مهارته في القيادة وحيله الحربية ومعرفته بنفوس المحاربين، فاجأ العدو بخطط حربية لم يألفها، فكان بعدد صغير من الجيش يقضي على عدد كبير من الأعداء، ويذكرنا مروان بن محمد في حروبه بروميل بطل الألمان في حربه للإنجليز بشمال إفريقية في الحرب العالمية الأخيرة[1]، وكان من عبقرية مروان أنه لم يعتمد على التنظيم القبلي، بل جعل جيشه مقسماً أقساماً متشابهة متكاملة في أجزائها، تستطيع الفرقة أن تلعب في ميدان القتال بمفردها ما تفعله عدّة قبائل غير متجانسة، وكان مروان يلقي بكتيبة من كتائبه في الحرب فرقة بعد فرقة، فإذا ظن العدو أنه تمكن من الكتيبة التي تحاربه، أتته كتيبة أخرى تذهله بقوتها الجديدة وعلى كل كتيبة اسم تسمى به «كالذاكونية والوضاحية». وهذه الكتائب تتكون من الأفراد المدربين، كل منهم ذو عمل محدد يتقنه والانسجام مطلوب منهم في أعمالهم، وهم لا يعتمدون على الغنيمة التي تدرها الحرب عليهم، بل على أجور منتظمة يأخذونها وتكفيهم أودهم، وقد حققت خططه في القتال انتصارات كثيرة على خصومه، حتى لندهش من المعارك العديدة التي قارع فيها مروان خصومه، فكان يقضي عليهم الواحد بعد الآخر، مع أن ظاهر أمله في النجاح ضعيف[2]، وكان مروان شيخاً محنكاً حين توفي يزيد بن الوليد، فقد كان تجاوز الخامسة والخمسين من العمر، وكان يعد شيخ بني أمية، وهو رجل ذو طموح عجيب، وقد وجد أن من بقي من بني أمية لم يكونوا بمستواه من القدرة والقوة والكفاءة، فطمع إلى الخلافة، وتلك بادرة من بوادر انهيار الدولة الأموية، فبدلاً من أن تنتقل الخلافة بالعهد - كما هو السائد في النظام الأموي - صار الطامحون يسعون إليها بالقوة، أو بالمؤامرات، كما فعل يزيد بن الوليد قبل مروان هذا، وتظهر رغبة مروان في أن يلعب دوره في الوصول إلى الخلافة حين امتنع عن مبايعة يزيد بن الوليد واعتبره مغتصباً للخلافة، وأراد أن يعلن عصيانه عليه لولا أن يزيد تلافى ذلك بتثبيته على الجزيرة وأرمينية[3] وأذربيجان والموصل، فرضي وبايع ليزيد، ولكن يزيد لم يلبث أن توفي سريعاً، في نهاية 126هـ وكان قد عمل قبل وفاته لأخيه إبراهيم بن الوليد فبايعه بعض الناس بالخلافة[4].

---

(1) الدولة الأموية، يوسف العشي، ص: 410 الخلافة الأموية، ص: 410.

(2) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 411.

(3) الدولة الأموية، ص: 306.

(4) تاريخ الطبري (8/ 182).

ثانياً: خلافته:

لم يستقر الأمر لخلافة إبراهيم بن الوليد وأخذ مروان يزحف على دمشق، وقد هزم وهو في طريقه إليها جيش إبراهيم بن الوليد الذي كان قد أرسله لإخماد ثورة أهل حمص وفر قائد الجيش سليمان بن هشام إلى دمشق، فاستولى هو وإبراهيم بن الوليد على ما في بيت المال وفرا هاربين، تاركين دمشق مفتوحة الأبواب، فدخلها مروان، فوجد ابني الوليد بن يزيد - الحكم وعثمان - قد قتلا، ولما كانا في نظره هما أصحاب الحق الشرعي في الخلافة، وأنه ما خرج إلا للمطالبة بدم أبيهما وبحقهما فيها، وبعد موتهما لم يعد هناك من يستحقها غيره خصوصاً بعد أن شهد له أبو محمد السفياني بأن ابني الوليد عهدا له بها وتقدم وبايعه وتبعه الناس فبايعوا مروان وذلك في شهر ربيع الآخر سنة 127هـ وبهذا أصبح مروان آخر الخلفاء الأمويين[1]. وقد جاء في بعض الروايات: أن أبا محمد السفياني الذي نجا من القتل بأعجوبة وكان مع ابني الوليد بن يزيد في السجن، وقد أُتي به في قيوده، فسلَّم على مروان يومئذٍ بالإمرة[2]، واستنكر مروان التسليم عليه بالخلافة، ولكن أبا محمد السفياني قال: إنهما - ويريد الغلامين - الحكم وعثمان - جعلاها لك بعدهما، وأنشده شعراً قاله الحكم في السجن، وكانا قد بلغا وولد للحكم مولود، وهذا هو شعر الحكم الذي رواه السفياني لمروان:

ألا من مُبلغٌ مروان عني	وعَمي الغَمْرَ طال بذا حَنِينا
بأني قد ظُلمت وصار قومي	على قتل الوليد متابعينا
أيذهب كلبهم بدمي ومالي	فلا غثًّا أصبت ولا سمينا
ومروان بأرضٍ بني نزار	كليث الغاب مفترش عرينا
ألم يحزنك قتل فتى قريش	وشقهم عصِيَّ المسلمينا
ألا فأقْرَ السلام على قريش	وقيس بالجزيرة أجمعينا
وساد الناقص القدري فينا	وألقى الحرب بين بني أبينا
فلو شهد الفوارس من سليم	وكعب لم أكن لهم رهينا
ولو شهدت ليوثُ بني تميم	لما بعنا تراث بني أبينا
أتنكث بيعتي من أجل أميَّ	فقد بايعتم قبلي هجينا
فليت خؤولتي من غير كلب	وكانت في ولادة آخرينا
فإن أهلِك ووليُّ عهدي	فمروان أمير المؤمنينا[3]

وكان أول من نهض لمبايعة مروان في رواية الطبري: معاوية بن يزيد بن الحصين بن نمير

(1) تاريخ الطبري (8/ 195، 196).

(2) المصدر نفسه (8/ 195).

(3) تاريخ الطبري (8/ 196).

ورؤوس أهل حمص، فبايعوه فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم، فاختار أهل دمشق زامل ابن عمرو الجبراني، وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندي، وأهل الأردن الوليد بن معاوية ابن مروان، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي الذي كان استخرجه من سجن هشام وغدر به بأرمينية، فأخذ عليهم العهود المؤكدة والأيمان المغلظة على بيعته وانصرف إلى منزله في حرّان[1]. ورغم ما كان يتمتع به مروان بن محمد من صفات مثل الشجاعة والإقدام وسداد الرأي وغيرها من الصفات التي تؤهله لمنصب الخلافة، إلا أن الله قدر أن تكتب على يديه نهاية الدولة الأموية وأن يكون هو الفصل الأخير في تاريخها، وقد لا يكون هو المسئول الأول عن ذلك، فإن العوامل التي أدت إلى زوال الدولة كانت تتفاعل مُنْذ زمن بعيد، وقدر له وحده أن يصارع أحداثاً كانت كلها تعمل ضده وأول خطر واجهه مروان هو انقسام الأمويين على أنفسهم والذي كان من أسوأ نتائجه انقسام كتلتي العرب الرئيستين في الشام وهما اليمنيون والقيسيون، فقد انقلب اليمنيون ضد مروان وانحاز القيسيون إليه، وتظهر خطورة هذا الانقسام في أنه حدث في مقر الخلافة الأموية وبين أكثر أنصار الأمويين قوة، ولهذا كان اضطراب الأمر في الشام، إيذانا باضطراب أمر الدولة كلها، وقد حاول مروان مُنْذ بيعته في دمشق، أن يهدئ خواطر الناس وأن يبعث الثقة في النفوس، فلما بايعه الناس، عرض عليهم أن يختاروا بأنفسهم من يرضون من الولاة لولايات الشام الرئيسية، وكانت تلك سياسة حكيمة من مروان فهو لم يفرق بين عرب اليمن وبين قيس، فهؤلاء الولاة فيهم يمنيون وقيسيون وقد أظهر مروان بذلك مرونة كبيرة، حتى أنه قبل اختيارهم لثابت بن نعيم الجذامي مع أنه قد سبق له الغدر بمروان في أرمينية[2]. وتزعم حركة عصيان قام بها جند الشام هناك ضد مروان[3].

ولكن مروان عفا عنه وعينه والياً على فلسطين، تسكيناً للفتنة وحسماً للفرقة والخلاف، وبعد أن رتب أوضاع الشام غادر دمشق إلى حران - بالجزيرة - التي اتخذها مقراً لحكمه، وتمشياً مع خطته في إصلاح الأحوال، وكبح جماح الفتنة فإنه حينما جاءه إبراهيم بن الوليد، الخليفة المخلوع، وسليمان بن هشام اللذان كانا قد هربا من دمشق قبل وصوله إليه، وطلبا منه الأمان أمنهما وعفا عنهما وبايعاه[4].

كان مروان متعصباً لأمويته، وحاول جاهداً أن يتلافى الخلل والاحتفاظ ببقاء الحكم في أسرته، فبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله[5]. وانتهز هذه المناسبة لتكون فرصة للمصالحة بين أبناء

---

(1) المصدر نفسه (8/ 196).

(2) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي، ص: 210.

(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 210.

(4) تاريخ الطبري (8/ 197).

(5) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 414 تاريخ الطبري (8/ 199).

بيته، فزوج ابنيه من ابنتي هشام[1]. وهكذا بدأت الأمور وكأنها آخذة في الاستقرار ولكن ذلك الهدوء لم يكن إلا بمثابة السكون الذي يسبق العاصفة، فلم تلبث الأنباء أن وافت دار الخليفة تشوب الاضطراب في الشام مرة ثانية وبسريان حمى الثورة من جديد[2]. وسرعان ما قلب له أمراء بني أمية ظهر المجن وواجهوه بالعصيان والتمرد[3].

ثالثاً: ثورات الشام والعراق وأبو حمزة الخارجي بالحجاز:

1 - خروج أهل حمص 127هـ:

كان أهل حمص قد بايعوا مروان الثاني وساروا معه إلى دمشق، إلا أنهم خرجوا على حكمه بعد ذلك، وحاول مروان الثاني في بادئ الأمر إصلاح الأحوال بالطرق السلمية، إلا أن أهل حمص لم يرتدعوا، عندئذ اضطر الخليفة أن يخرج بنفسه لوضع حد لحركتهم، وكانت له مع أهل حمص وقائع حاسمة انتصر فيها عليهم وهدم أسوار المدينة[4].

2 - ثورة أهل الغوطة سنة 127هـ:

بينما كان مروان مشغولاً بقمع ثورة حمص، نشبت ثورة أخرى في الغوطة فقد ثار أهلها وولوا زعيماً يمنياً، وهو يزيد بن خالد القسري، وساروا إلى دمشق فحاصروها، ولكن مروان أرسل إليهم وهو في حمص قائدين من قواده، هما أبو الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث، وعمر بن الوضاح في عشرة آلاف، فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم، وخرج عليهم من بالمدينة، فانهزموا واستباح أهل مروان عسكرهم، وأحرقوا المزة وقرى اليمانية وأخذ يزيد بن خالد فقتل[5]، وبعث زامل ابن عمرو والي دمشق برأسه إلى مروان بحمص[6].

3 - ثورة فلسطين 127هـ:

أعلن والي فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي الثورة على مروان بن محمد، ولكن الخليفة الأموي الجديد عاجله وكتب إلى أبي الورد الذي قمع ثورة الغوطة، وفك حصار دمشق، أن يسير إلى ثابت، فلما صار أبو الورد قريباً منه خرج أهل طبرية على ثابت فهزموه واستباحوا عسكره وتبعه أبو الورد فالتقوا واقتتلوا، فهزمه أبو الورد ثانية، وتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان، واستطاع الوالي الجديد الذي عينه مروان على فلسطين وهو

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 212.
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 210.
(3) المصدر نفسه، ص: 212.
(4) تاريخ الطبري (8/ 197) وما بعدها، الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 415.
(5) تاريخ الطبري (8/ 198).
(6) المصدر نفسه (8/ 198).

الرماحس بن عبد العزيز الكناني أن يقبض على ثابت بن نعيم وأن يرسله إلى مروان، فأمر بقتله هو وأولاده الثلاثة[1].

4 - الخوارج في العراق: الضحاك بن قيس الشيباني:

خرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة، واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز، فهرب عبد الله إلى واسط فاتبعوه، ولما اشتدت المعركة، وسلم عبد الله الأمر إلى الضحاك، وبايعه، ودخل في بيعة الضحاك سليمان بن هشام بن عبد الملك، ولما تمّ ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على قراها وكان خليفته على الجزيرة يأمره بأن يمنع الضحاك من الوصول إلى وسط الجزيرة، فسار إليه ابنه في سبعة آلاف مقاتل، فسار إليه الضحاك وحصره في نصيبين.

وكان مع الضحاك مائة ألف، وانتهى مروان من أمر حمص وسار لمقابلة الضحاك، فالتقى الفريقان في كفرتوتا وحصلت بينهما موقعة قتل فيها الضحاك وولى الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبري، ثم قتل، ولما علم الخوارج بمقتل الخيبري، ولوا مكانه شيبان بن عبد العزيز اليشكري، واستطاع مروان بواسطة يزيد بن عمر بن هبيرة أن يطهر العراق من الخوارج، وظل مروان يقاتل الخوارج في الموصل ستة أشهر، وأصبح شيبان بن عبد العزيز بين عدوين فرحل عن الموصل وسير مروان وراءه جنداً، وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان ولا يبدؤه بقتال، فإن بدأ شيبان بقتال قاتله، وظل يتابع شيبان حتى التقى به في معركة فاصلة، وهزمه هزيمة منكرة وخرج شيبان إلى نسجستان ومات هناك وذلك في سنة 130هـ / 747م.

5 - أبو حمزة الخارجي في الحجاز 128هـ:

في أواخر سنة 128هـ / 746م التقى أبو حمزة الخارجي بعبد الله بن يحيى، فقال له: يا رجل اسمع مني كلاماً حسناً، وأراك تدعو إلى الحق، فانطلق معي، فإني رجل مطاع في قومي، فخرج معه حتى أتى حضرموت وهناك بايعه أبو حمزة بالخلافة ودعا إلى خلاف مروان الثاني[2] وآل مروان وبينما الناس بعرفة سنة 129هـ إذ طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم سبعمائة، ففزع الناس حين رأوهم، وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلاف على مروان وآل مروان، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة، وطلب منهم الهدنة. فقالوا: نحن بحجنا أضن وعليه أشح، فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير فوقفوا بعرفة على حدة، ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيه وخلى مكة، فدخلها أبو حمزة بغير قتال، ثم مضى

(1) المصدر نفسه (8/ 199).

(2) تاريخ الطبري (8/ 288) الخلافة الأموية، ص: 420.

عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان[1]، فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي حمزة فأوقعت بهم، وقتلت منهم مقتلة عظيمة، وذلك لسبع بقين من صفر سنة 130هـ. ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حرباً.

ووقف أبو حمزة خطيباً مفوهاً في أهل المدينة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: تعلمون يا أهل المدينة أنّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً وبطراً ولا عبثاً، ولا للدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق عطلت، وعنف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 32]. أقبلنا قبائل شتى، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافاً واحداً، قليلون مستضعفون في الأرض، فقوَّانا وأيدنا بنصره فأصبحنا - والله - جميعاً بنعمته إخواناً، فلقينا رجالكم بقديد، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان، فشتان لعمر الله بين الرشد والغي، ثم أقبلوا يهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه، وغلت بدمائه مراجله، وصدق عليهم ظنّه، وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب لكل مهند ذي رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون. وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا آل مروان ومروان يسحقكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قوم مؤمنين. يا أهل المدينة أولكم خير أول، وآخركم شر آخر. يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم، إلا مشركاً أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو إماماً جائراً. يا أهل المدينة من زعم أن الله عز وجل كلف نفساً فوق طاقتها أو سألها مالم يؤتها عز وجل فهو عدو لنا ولنا حرب. يا أهل المدينة !! أخبروني ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه على القوي والضعيف، فجاء تاسع ليس له منها ولاية ولا سهم واحد، فأخذها لنفسه مكابراً محارباً لربه. يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم: شباب أحداث، وأعراب جفاة، ويلكم أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً أحداثاً.. شباب - والله - مكتهلون في شبابهم، غضية عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيامهم نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضبت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد وجهت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في

(1) تاريخ الطبري (8/ 288).

منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل، وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها في سجوده لله وكم من خد عتيق وجبين رقيق فُلِقَ بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحها الجنان، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب[1].

خرج أبو حمزة من المدينة وخلف بعض أصحابه، فسار حتى نزل الوادي، وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف، واستعمل عليهم ابن عطية، وأمره بالجد في السير وأعطى كل رجل منهم مائة دينار، وفرساً عربية وبغلاً لثقله وأمره أن يمضي ليقاتلهم، فإن ظفر بهم، مضى حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى ومن معه، فخرج حتى نزل العلا، وكان أبو حمزة حين خرج ودعا أهل المدينة للخروج إلى مروان يقاتله، قال: يا أهل المدينة إنا خارجون إلى مروان فإن نظفر نعدل في أحكامكم، ونحملكم على سنة نبيكم محمد رسول الله ﷺ، ونقسم فيئكم بينكم، وإن يكن ما تمنون، فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، سار أبو حمزة وأصحابه إلى مروان، فتقابل في وادي القرى مع خيل الشام، بقيادة ابن عطية السعدي، فأوقعوا بهم، فرجعوا منهزمين إلى المدينة، فلقيهم أهل المدينة فقتلوهم وأقام ابن عطية في المدينة شهراً واستخلف عليها الوليد بن عروة ثم مضى إلى مكة وإلى اليمن، واستخلف على مكة: ابن ماعز، رجلاً من أهل الشام، وقد قتل في هذه المعركة أبو حمزة الخارجي وسار ابن عطية متطلعاً إلى اليمن، فتقابل هو وعبد الله بن يحيى وظل يمشي حتى دخل صنعاء، وبعث برأس عبد الله بن يحيى إلى مروان. ثم كتب مروان إلى ابن عطية يأمره أن يغذَّ السير، ويحج بالناس، فخرج في نفر من أصحابه حتى نزل الجرف ففطن له بعض أهل القرية. فقالوا: منهزمين والله، فشدّوا عليهم فقال: ويحكم! عامل الحج، والله كتب إليَّ أمير المؤمنين[2]. ولكن الرجال الذين خرجوا عليهم لم يصدقوا دعواهم، وألحوا عليهم حتى قتلوهم جميعاً إلا رجلاً واحداً[3].

6 - ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

تزعم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر آخر حركة قام بها الشيعة ضد الدولة الأموية وانضم إليها شيعة الكوفة وبايعوه بالخلافة، وخرج في شهر محرم من عام 127هـ / 744م لقتال أهل الشام في الحيرة[4]، ويبدو أن الشيعة خذلوه عندما نشب القتال، وفروا من أرض المعركة ولم يثبت معه سوى ربيعة والزيدية، فاضطر إلى التراجع إلى الكوفة، وتبعه الأمويون،

(1) تاريخ الطبري (8/ 91، 292).
(2) تاريخ الطبري (8/ 295).
(3) المصدر نفسه (8/ 295) الخلافة الاموية للهاشمي، ص: 423.
(4) البداية والنهاية (13/ 213) الخلافة الأموية، ص: 417

وشهدت شوارع المدينة مجابهات عنيفة بين الطرفين، وتمكن الجيش من السيطرة على الموقف[1]. ومنحه الوالي الأموي عبد الله بن معاوية الأمان والإذن بالانسحاب، فارتحل إلى فارس حيث أعاد تنظيم صفوفه وقوي أمره بما انضم إليه من الموالي، والعبيد، والعباسيين الثائرين على الحكم الأموي، والأمويين الناقمين على مروان الثاني، وكل طامع في عطية، أو وظيفة، وبقايا الخوارج الذي طردهم مروان الثاني في الموصل[2]. وكان الحشد الذي التف حوله غير متجانس كل ما يجمعه هو العداء لمروان الثاني، لذلك لم يستطع المواجهة، ولم يتم له الصمود والاستمرار طويلاً، فانفرط عقده عند أول هزيمة مُنِيَ بها أمام قوات مروان الثاني عند مدينة «مرو الشاذان» في نهاية عام 129هـ/ 747م.

وقال ابن عساكر: وقد كان عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ظهر وبويع له بالخلافة بأصبهان في سنة سبع وعشرين ومائة في خلافة مروان بن محمد، وملك فارس وكرمان وكثر تبعه وجيء الأموال، وملك تلك البلاد وقوي أمره وكانت بينه وبين عمّال مروان وقائع وحروب كثيرة، ولم يزل هناك إلى أن جاءت الدولة العبّاسية، ثم حارب مالك بن الهيثم صاحب أبي مسلم، فظفر به وحمله إلى أبي مسلم فحبسه وقتله، ويقال: بل مات في سجنه[3]. ومن شعر عبد الله بن معاوية:

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكنّ عين السخط تبدي المساويا
كلانا غني عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشد تغانيا[4]

7 - ثورة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز:

كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والياً على العراق ومركزه الكوفة، وكان له رغبة استقلالية، إذ أنه بعد تغلبه على عبد الله بن معاوية أضحى له من السلطان والقوة ما بدا له أن باستطاعته الانتفاضة على حكم مروان الثاني، فنقض بيعته له، وقد اعتمد في تحركه على القبائل اليمنية من أهل الشام المقيمين في الكوفة والحيرة الذين ساءهم خضوع الشام للنفوذ القيسي[5]. اعتقد مروان أن عبد الله بن عمر لا يشكل خطراً كبيراً على وضعه فلم يُعِرْ الأمر جدية في البداية، لكنه لما شعر بخطورة ذلك، قام بمواجهة عبد الله وبعث إليه بجيش من الشام بقيادة النضر بن سعيد الخرشي، أحد أبطال القيسيين المشهورين، ودارت بينهما معركة خفيفة

---

(1) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 417.
(2) الكامل في التاريخ (3/ 463) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 463.
(3) تاريخ ابن عساكر (35/ 149).
(4) المصدر نفسه (35/ 151).
(5) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 418.

ومناوشات، لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، وظل الفريقان على هذه الحال حتى ظهرت مشكلة أكثر خطورة تمثلت بالخوارج الذين برزوا مجدداً على مسرح الأحداث، وانهمك مروان الثاني في التصدي لهم، وترك أمر عبد الله بن عمر[1].

8 - ثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك 127هـ:

توقع مروان أن مصاهرته لأبناء هشام بن عبد الملك كافية لرأب الصدع بين أبناء البيت الأموي كله، وأن الأمر في الشام قد استقام له، ولهذا أخذ في إعداد جيش قوامه عشرون ألفاً تحت قيادة يزيد بن عمر بن هبيرة لمواجهة ثورة الخوارج في العراق الذين خرجوا عليه بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني منتهزين فرصة انشغاله بثورات الشام، كما ضرب على أهل الشام بعثاً للحاق بيزيد ومعاونته في حرب الخوارج، وكان سليمان بن هشام - شقيق زوجتي ولدي مروان - قد استأذنه في الإقامة بالرصافة أياماً للراحة فأذن له[2]، وبينما يقوم مروان بالإشراف بنفسه على تجهيز جيش ابن هبيرة في قرقيسياء، فاجأته ثورة عارمة قادها صهره سليمان، حيث انفلت عشرة آلاف من أهل الشام الذين استنفرهم مروان لقتال الخوارج وذهبوا إلى سليمان بالرصافة، ودعوه إلى خلع مروان، فأجابهم إلى ذلك دون أن يعبأ ببيعته وعهوده التي قطعها على نفسه للخليفة، ولا مراعاة لصلة الرحم والمصاهرة الجديدة، بل ودون أن يضع في تقديره الظروف التي تمر بها الدولة الأموية كلها، استفحلت ثورة سليمان فقد اجتمع حوله سبعون ألفاً عسكر في قرية تسمى خساف من أعمال قنسرين[3].

فاجأت هذه الأخبار مروان على غير توقع، فقرر أن يسير إلى سليمان بنفسه فقصده في خساف، حيث دارت بينهما معركة كبيرة هزم فيها سليمان، وقيل: قتل حوالي ثلاثين ألفاً من أتباعه[4]، وهرب هو بمن بقي من جيشه إلى حمص، ولكن مروان لاحقه إليها، ففر منها هارباً قبل وصول مروان، تاركاً فيها أخوه سعيد بن هشام، ثم وصلها مروان وضرب عليها الحصار لمدة عشرة أشهر، ثم استسلمت له[5]. في هذا الجو العصيب، الذي انقسم فيه الأمويون على أنفسهم وأخذوا يحاربون بعضهم البعض، وبينما مروان يحاول رأب الصدع وإعادة الأمور إلى نصابها في الشام والحجاز والعراق واليمن، وبينما مروان يواجه هذا الموقف الصعب وينتقل من ميدان إلى ميدان، فاجأته الثورة العباسية من خراسان كالسيل المُنهمر، فاكتسحت قواته في خراسان والعراق ثم كانت هزيمته الساحقة في موقعة الزاب في جمادى الآخرة

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الخلافة الأموية، ص: 418.
(2) تاريخ الطبري (8/ 209).
(3) المصدر نفسه (8/ 210).
(4) المصدر نفسه (8/ 211).
(5) المصدر نفسه (8/ 213) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 213.

132هـ ، وفراره إلى مصر ومقتله هناك في ذي الحجة من نفس العام[1]، ولما كان هذه الأحداث تقترن بالدعوة العباسية وإعلان ثورتهم فكان لازماً علي أن أتحدث عن الدعوة العباسية من جذورها حتى سقوط الدولة الأموية.

المبحث الرابع

الدعوة العباسية ونهاية الدولة الأموية

أولاً: الجذور التاريخية للعباسيين:

1 - العباس بن عبد المطلب بن هشام:

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف القرشي[2] وهو عمّ رسول الله ﷺ، وكان أسنّ من الرسول بثلاث سنين[3] وكان من أكبر رجال بني هاشم مكانة، وأكثرهم مالاً في الجاهلية[4]، فقلّدوه قيادتهم، فكان رئيسهم المُطاع فيهم - بعد وفاة أبي طالب - المتولّي لأمورهم[5]، وكانت إليه السِّقاية والرِّفادة وعمارة المسجد الحرام[6]، فإنه كان لا يدع أحداً يُسبُّ في المسجد ولا يقول فيه هُجْراً يحملهم على عمارته في الخير، لا يستطيعون لذلك امتناعاً، لأنَّ ملأ قريش كانوا قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك، فكانوا له أعواناً عليه، وأسلموا ذلك إليه[7]، وقد حضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم، وشهد بدراً مع المشركين مكرهاً فأسر فافتدى نفسه ورجع إلى مكة، ثم أسلم وكتم إسلامه، ثم هاجر إلى المدينة قبل الفتح بقليل وشهد مكة وثبت يوم حنين[8] مع النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يجله ويقدره وقد كانت وفاته بالمدينة في رجب سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة ودُفن بالبقيع[9] رضي الله عنه.

الأحاديث التي وردت في فضله ومناقبه:

أ - ما رواه الترمذي وغيره عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: **«إن العباس مني وأنا منه»**[10].

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 214.

(2) نسب قريش، ص: 18، طبقات ابن سعد (4/ 5)، شذرات الذهب (1/ 38).

(3) طبقات ابن سعد (4/ 5) الدعوة العباسية د. حسين عطوان، ص: 87.

(4) تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن الدعوة العباسية، ص: 87.

(5) طبقات ابن سعد (4/ 32) الدعوة العباسية، ص: 87.

(6) تهذيب التهذيب (5/ 123) الدعوة العباسية، ص: 87.

(7) أسد الغابة (3/ 109) الدعوة العباسية، ص: 88.

(8) العقيدة في أهل البيت، ص: 154.

(9) الطبقات (4/ 4/ 5) الاستيعاب (3/ 49/ 101) العقيدة في أهل البيت، ص: 155.

(10) سنن الترمذي رقم (3759)، المستدرك (3/ 325) صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

ب - ما رواه مسلم بإسناده إلى أبي هريرة ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم الرسول ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً، فأغناه الله وأما خالد، فإنكم تظلمون خالداً، فقد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليّ ومثلها معها»** ثم قال: **«يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه»**[1].

ج - ومن مناقبه ﷺ ثباته وشجاعته يوم حنين، فقد روى أن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلمّا التقى المسلمون والكفار، وَلَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض ببلغته قِبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكُفُّها إرادة ألَّا تسرع، فقال رسول الله ﷺ: **«أي عباس؛ ناد أصحاب السَّمُرة»**. فقال العباس - وكان رجلاً صَيِّتاً: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفّار، والدعاة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار... فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم قال رسول الله ﷺ: **«هذا حين حَميَ الوطيس»**[2].

د - ومما يدل على فضله ﷺ ومكانته من النبي ﷺ توسل عمر ﷺ بدعائه:

فقد جاء في صحيح البخاري عن أنس ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهمّ إنّا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا[3]، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا، قال: فيُسقون[4]. فالعباس بن عبد المطلب جد الخلفاء العباسيين وله ينتسبون.

2 - عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، وكان يقال له: الحبر والبحر لاتساع علمه وكثرة فهمه وكمال عقله وسعة فضله، ولد قبل الهجرة بثلاث

(1) مسلم، كتاب: الزكاة، باب: في تقديم الزكاة ومنعها رقم (983).
(2) مسلم رقم (1775)، مصنف عبد الرزاق (5/ 379 - 380) ابن هشام (4/ 87).
(3) فتسقينا: أي بدعائه حياً، ولو كان يتوسل به ميتاً لتوسل به عمر، ولما احتاج لعمه العباس ليدعو له.
(4) البخاري رقم (1010).

سنين ولازم رسول الله ﷺ ودعا له ﷺ بالفقه في الدين وعلم التأويل، وكان عمر رضي الله عنه يجله ويكرمه، وقد شهد رضي الله عنه مع علي الجمل وصفين، وكف بصره في آخر عمره فسكن الطائف، وكانت وفاته سنة ثمان وستين رضي الله عنه [1]، وقد وردت في بيان فضائله أحاديث كثيرة منها:

ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءاً قال: من صنع هذا؟ فأخبر فقال: **«اللهم فقهه في الدين»**[2]. وقد ترجمت له في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ترجمة مستفيضة، وقد استفاد العباسيون من انتسابهم إلى جدهم عبد الله بن عباس، فقد سار محمد بن علي العباسي زعيم الدعوة العباسية على فقه جده الحركي، وتتلمذ على معالم مدرسته كما سيأتي بيانه وتفصيله بإذن الله تعالى.

3 - علي بن عبد الله بن عباس بن المطلب الإمام القانت أبو محمد الهاشمي المدني السجاد:

ولد عام قُتل الإمام علي، فتسمى باسمه، حدث عن أبيه ابن عباس، وأبي هريرة وابن عمر، وأبي سعيد وجماعة، وأمه ابنة ملك كندة مشرح بن عدي وكان جسيماً وسيماً كأبيه طوالاً، مهيباً مليح اللحية يخضب بالوسمة، ورد عن الأوزاعي وغيره أنه كان يصلي في اليوم ألف سجدة.

وقال ابن سعد: هو ثقة قليل الحديث. قال عكرمة: قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد الخُدري، فاسمعا من حديثه، فأتيناه في حائط له[3]. وقال ابن المبارك: كان له خمسمائة شجرة يصلي عند كل شجرة ركعتين وذلك كل يوم[4] وقال الذهبي: لقب بالسجاد لكثرة صلاته[5].

كان علي بن عبد الله بن العباس أجل إخوته قدراً وأعظمهم خطراً، وكان مثالاً للرجل الكامل في تمام خلقته وحسنه وورعه ونبله[6]، قال ابن سعد: كان أصغر ولد أبيه سناً وكان أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمه، وأكثر صلاة، وكان يقال له السجاد لعبادته وفضله، وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة[7] وكان زاهداً متقشفاً وأثَّرَ في بنيه وحفدته، فنشأوا على هديه وسمته واقتدوا بمذهبه وسيرته، فكانوا أشهر الناس تلاوة وقياماً وصياماً وصلاحاً[8] حتى قيل فيهم: أفضت الخلافة إليهم وما في الأرض أحد أكثر قارئاً للقرآن ولا

---

(1) حلية الأولياء (1/ 314) العقيدة في أهل البيت، ص: 158.
(2) البخاري رقم (143).
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 284).
(4) المصدر نفسه (5/ 284).
(5) المصدر نفسه (5/ 285).
(6) الدعوة العباسية، حسين عطوان، ص: 146.
(7) سير أعلام النبلاء (5/ 84).
(8) طبقات ابن سعد (5/ 314).

أفضل عابداً وناسكاً منهم بالحُميمة[1] وكان عالماً له معرفة ورواية عن أبيه[2] وكان سيداً شريفاً بليغاً[3] وكان كبير المحلِّ عند أهل الحجار[4]. روى هشام بن سليمان المخزومي: أن عليَّ بن عبد الله كان إذا قدم مكة حاجاً أو معتمراً عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها، ولزمت مجلس علي بن عبد الله إجلالاً له وإعظاماً وتبجيلاً، فإن قعد قعدوا وإن مشى مشوا جميعاً، ولم يكن يُرى لِقُرَشيٍّ مجلس «ذِكْرٍ» يُجتمعُ إليه فيه حتى يخرج علي بن عبد الله من الحرم[5]. فقد جمع علي بن عبد الله العباسي صفات الزعامة من علم وعبادة، وهيبة ومكانة في النفوس... إلخ.

● ارتحاله إلى الشام:

أوصى عبد الله بن العباس ابنه علياً بإتيان الشام والتنحي عن سلطان ابن الزبير إلى سلطان عبد الملك، ولما توفي أبوه عمل بوصيته ورحل إلى الشام واستقبله عبد الملك واحتفى به، وكان يجلسه على سريره إذا دخل ويحادثه ويسامره، وكان يرعاه ويهدي إليه الجواري، ويقضي حوائجه ويقبل شفاعته[6].

● سعيه للخلافة وضرب الوليد له:

علم الوليد بن عبد الملك في عهده أن علياً يطلب الخلافة ويتنبأُ بانتقالها إلى بنيه فضيق عليه ونال منه وشهر به، ثم جلده وطرده من بلاد الشام[7] وقد انحطت منزلة علي في عهد الوليد، وساءت حاله واضطربت، وقد التمس الوليد الأسباب للانتقام منه والإضرار به فأذلَّه واعتدى عليه، وجاوز القصد في ردعه ومعاقبته، فجلده مراراً ونفاه[8].

● في عهد سليمان وعمر بن عبد العزيز وهشام:

لما استخلف سليمان بن عبد الملك ردّه إلى دمشق، وأخلى سبيله، وأنال عنه ما لحق به من ظلم وهوان، وربما اعتذر إليه من تعذيب الوليد له، وتنكيله به، وجوره عليه، وأنصفه وتألَّفه فصلحت حاله واستقامت، ورجع إلى الحُميمة، فأقام بها حرّاً عزيزاً، وعاود فيها نشاطه لا رقيب له ولا حسيب عليه. ولما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أمر بالكف عن اضطهاد

---

(1) البداية والنهاية نقلاً عن الدعوة العباسية، ص: 146.
(2) تهذيب التهذيب (7/ 357) الدعوة العباسية ص147.
(3) وفيات الأعيان (3/ 276) الدعوة العباسية، ص: 147.
(4) وفيات الأعيان (3/ 276) الدعوة العباسية، ص: 147.
(5) أخبار الدولة العباسية، ص: 140، الدعوة العباسية، ص: 147.
(6) الدعوة العباسية، ص: 148 إلى 152.
(7) الدعوة العباسية، حسين عطوان، ص: 154.
(8) المصدر نفسه، ص: 157 أنساب الأشراف (3/ 79).

بني هاشم، وقسم فيهم سهم ذي القربى، فانتعشوا وكتبوا إليه: يتشكرون له ما فعله بهم من صلة أرحامهم[1]. وأخذ علي بن عبد الله بن العباس ومحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يُدافعان عنه ويَزعان الناس في اغتيابه[2]، ولما تولى هشام اعتنى بعلي بن عبد الله بن العباس، وأحسن إليه، فكان يتهلَّل له ويُدنيه ويحمل عنه دُيونه إذا وفد عليه، وصبر على نشاطه السياسي وتغافل عنه وتغاضى عن أمله في الخلافة، واستهان بعمله للفوز به، حتى أخطأ في تقدير خطره وقصّر عن إدراك تهديده لملك بني أمية، إذ كان يهزأ بما يبلغه من أخبار نزوعه إلى الخلافة ويستخف بتوقعه لتحولها إلى بنيه، وكان ينسب ذلك إلى فساد عقله وضعف رأيه وأضغاث أحلامه في شيخوخته[3]. ويرى بعض المؤرخين أن علي بن عبد الله بن العباس كان أوّل من تمنَّى الخلافة من بني العباس وشرع في تأسيس الدعوة لهم على انتقال الخلافة إليهم، وأظهر ذلك وجهر به[4]، هذا وقد توفي علي بن عبد الله بن العباس عام 118هـ[5].

4 - محمد بن علي بن العباس:

كان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المتوفَّى سنة خمس وعشرين ومائة[6]، أنبه إخوته وأفضلهم، وهو الذي رسَّخ قواعد الدعوة لبني العباس، وشيَّد أركانها، ورفع بنيانها، فقد تشمَّر لتوطيدها وبثها، فوضع أنظمتها وشعاراتها وأنشأ مجالسها واختار قادتها ومكّن لها في الكوفة وخراسان، وشحذ عزائم أنصارها وهيَّأهم ليوم إعلان الثورة وتفجيرها، وكان من أجل الناس وأعظمهم قدراً، وكان بينه وبين أبيه أربع عشرة سنة، وكان عليٌّ يخضب بالسَّواد ومحمد بالحُمرة، فيظن من لا يعرفهما أن محمداً هو علي[7]، وكان عابداً زاهداً وكان له علم وفقه ورواية وكان ثقة ثبتاً مشهوراً[8] وكان مجاهداً يغزو الصائفة هو وعدة من إخوته ومواليه[9]، وكان سيد ولد أبيه[10]، وخيرهم ديناً، وأسخاهم كفاً وكان سمح النفس شديد الصَّبر[11]، صليب الفؤاد حصين الرأي حسن التدبير، قوي الحُجَّة، سديد المنطق، بليغ القول[12].

5 - علاقته بأبي هشام ووصيته له:

بعد موت محمد بن علي ابن الحنفية بالمدينة عام (81هـ) افترقت شيعته إلى فرقتين:

---

(1) طبقات ابن سعد (5/ 391).
(2) المصدر نفسه (5/ 391).
(3) الدعوة العباسية، ص: 159.
(4) الدعوة العباسية، ص: 159.
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 285).
(6) الدعوة العباسية، د. حسين عطوان، ص: 164.
(7) أخبار الدولة العباسية، ص: 164.
(8) تهذيب التهذيب (9/ 355).
(9) أخبار الدولة العباسية، ص: 197.
(10) العقد الفريد (5/ 105) الدعوة العباسية، ص: 165.
(11) أنساب الأشراف (3/ 83).
(12) أنساب الأشراف (3/ 83) الدعوة العباسية، ص: 165.

● الأولى: دامت متمسكة بآرائها الكيسانية، فقد قالت إنه غائب عنا لكنه حي يرزق بجبله (جبل رضوى) ولا بد من رجعته، فهم لا يوالون غيره، لأنهم ينتظرونه.

● والثانية: تحولت إلى القول بإمامة ابنه عبد الله - المكنى بأبي هاشم - من بعده، وسميت بالفرقة الهاشمية[1]. وتعتقد أن أمر الشيعة صار إلى أبي هاشم بوصية من أبيه، وهذه الفرقة تعتبر أكبر الفرق العلوية وأدقها تنظيماً وأكثرها حماساً، وقد عرف أبو هاشم هذا برجاحه عقله وسعة علمه، وحسن تدبيره، ومعرفته بأحوال الفرق، فزادت شيعته بعد وفاة والده، فأخذ يدير الأمور، ويبعث الدعاة مع السرية التامة، موضحاً - في نظره - أحقيته بالخلافة، التي هي لهم دون الأمويين ناشراً فظائع ومظالم بعض خلفاء الدولة الأموية[2]، وكان أبو هاشم قدم على سليمان بن عبد الملك بدمشق، فأكرمه وأجازه وسار أبو هاشم يريد فلسطين أو الحجار، فمرض في الطريق وأحسَّ بالموت، ولم يكن له ولد، فعدل إلى الحُمَيمةِ، ونزل على محمد بن علي، فأوصى إليه بالإمامة وسلم إليه كُتُب الدُّعاة وأوقفه على ما يعمل به، وصرف شيعته إليه وأمرهم بالسمع له، وأعلمه أن الخلافة في ولده عبد الله بن الحارثية[3]، وسواء أكانت وصية أبي هاشم صحيحة أم موضوعة فإن بني العباس وشيعتهم اعتمدوا عليها في تقرير حقهم في الخلافة ولم يزالوا يذكرون أن الخلافة أتتهم من جهتها إلى أيام أبي جعفر المنصور[4]. وليس من الثابت أن سليمان بن عبد الملك راعه ذكاء أبي هاشم فخافه وفزع منه، ولا أنه أنفذ له من سَمَّهُ بعد أن رحل عنه وإنما مات حتف أنفه[5]. وقد أكد جماعة من المؤرخين وغيرهم تحول دعوة أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية إلى العباسيين والتي عمل من أجلها حوالي سبع عشرة سنة، واستقطب فيها كبار الشيعة العلوية من أهل العراق وخراسان وفرقهم على المدن والأقاليم نظم هذه الدعوة ورعاها، وأعدها لليوم المرتقب وقد كانت وفاته عام 89هـ، بعد موت محمد بن علي بن الحنفية بالمدينة عام (81هـ).

6 - أسباب تنازل أبي هاشم لمحمد بن علي العباسي:

وعلى ضوء ما جاء من النصوص التاريخية التي ذكرت تنازل أبو هاشم عن الدعوة لمحمد ابن علي العباسي عندما أحس بدنو الأجل، نستطيع أن نقول: ليس هناك ما يمنع من تنازل أبي

---

(1) الهاشمية: هي التي قالت بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الدعوة إلى ابنه عبد الله، الملل للشهرستاني (1/ 150).

(2) العلويون والعبّاسيون ودعوة آل البيت، ص: 51.

(3) نسب قريش، ص: 75، طبقات ابن سعد (5/ 328) الدعوة العباسية، ص: 167.

(4) الدعوة العباسية، ص: 169.

(5) نسب قريش، ص: 75، طبقات ابن سعد (5/ 328).

هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية لمحمد بن علي عن دعوته السرية التي يطالب بها الحق العلوي في الخلافة، لما نراه من أسباب نجملها فيما يلي:

أ - فالذي نراه أن دعوته كانت قابلة للنجاح والفشل، وقد تكون للفشل أقرب، ولاسيما وإنها توصف بالغلو[1] وهذا مما يقلل من أهمية هذا التنازل.

ب - عرف أبو هاشم أنه لا أمل له في الوصول إلى الخلافة، بعد أن عرف قرب أجله ولم يسعفه الوقت في حرية اختيار شخص آخر ووجد أفضل الخيارات في تلك اللحظة هو محمد ابن علي.

ج - كما أن أبا هاشم لم يكن له ولد يخلفه[2]، فيوصي له بالأمر من بعده.

د - كان بين أبي هاشم ومحمد بن علي العباسي علاقات ودية ولقاءات علمية وصداقة قوية، الأمر الذي ساعد على تنازل أبي هاشم لمحمد هذا.

هـ - كان أبو هاشم قد عرف كبار شيعته ودعاته من أهل العراق وخراسان بمحمد بن علي العباسي أثناء ترددهم عليه، كما أخبرهم أن الأمر صائر إليه بعد وفاته[3]، كما تزعم بعض الروايات.

و - ولما عرف عن محمد بن علي العباسي من رجاحة العقل والدهاء، وحسن التدبير والتصرف. . . . فقد كان أبو هاشم كثيراً ما يستعين بآرائه حول موضوع الدعوة والدعاة كان محمد بن علي قد عرف برجاحة العقل وسعة الذكاء، ومعرفته بأحوال الرجال والديار وقد استفاد من الأحداث التي جرت في عصره وبالأخص ما وقع بين أبناء عمه العلويين والأمويين في صراعهم الدامي من أجل الخلافة، فقد درس أسباب الفشل والنتائج لهذه الأحداث، واستغل ما حصل من القتل والتشريد على أثر ذلك. ولما علم كبار الشيعة العلوية في العراق وخراسان بموت زعيمهم عبد الله بن محمد (أبو هاشم) وانتقال الدعوة إلى محمد العباسي ساروا إلى الحميمة للتعزية بوفاة إمامهم عبد الله ولتهنئة إمامهم الجديد محمد بتولية قيادة الدعوة «دعوة آل البيت» ومبايعته وتقديم العهد له، ببذل أموالهم وأنفسهم من أجل نجاح هذه الدعوة وقد رأى محمد علي العباسي صدق هؤلاء الأنصار وتحمسهم، ولمس حبهم لآل البيت، وكرههم لبني أمية وتمنيهم لزوالهم[4].

---

(1) طبيعة الدعوة العباسية، ص: 125.

(2) نسب قريش، ص: 75 للزبيدي، شذرات الذهب (1/ 166).

(3) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 56.

(4) المصدر نفسه، ص: 57، 58.

ثانياً: المشروع العباسي في المرحلة السرية:

عندما نتأمل في مفردات المشروع العباسي في المرحلة السرية نلاحظ أنه يتكون من قيادة حكيمة، وهيكل تنظيمي واضح المعالم، ومرجعية شرعية وتاريخية، ومبادئ قام عليها المشروع، وقدرة فائقة على التخطيط، ولقاءات دورية بين القيادة، والدعاة والنقباء، وكان المشروع العباسي قد استهدف شرائح من المجتمع عانت من ظلم الأمويين مع الأخذ بالجانب الأمني والاهتمام بالبعد الاقتصادي والإعلامي:

1 - القيادة:

تسلم محمد بن علي العباسي التنظيم السري من أبي هاشم وبدأ مسار التنظيم الجديد يتغير عن القديم في بنيته الفكرية والاجتماعية وغيرها، ولكن كان ذلك مع التدريج وقد توفرت صفات الزعامة في شخصية محمد بن علي، من قيادة واعية، وقدرة على التخطيط الصحيح، وقد برهن على عبقرية فذة في التنظيم والتخطيط للدعوة، مع قناعة الأتباع بزعامته الروحية والعلمية، فقد اشتهر بالعبادة والعلم واستمر في تشكيل الحركة على أصول العقائد السنية واستفاد من مدرسة جده عبد الله بن عباس في ذلك كما سيأتي، وعمل على جذب الأنصار والأخذ بأسباب النصر على الأمويين، وقد استفاد من تشكيلات محمد بن علي التنظيمية كثير ممن جاء بعده ممن سعى لقيام دولة مع التطوير كالموحدين، والفرق الباطنية وغيرها وقد استطاع محمد بن علي العباس أن يحكم قبضته على أمور الدعوة من خلال جهاز بالغ الدقة في التنظيم والإدارة، وقد استمر في عمله السرّي حتى وفاته عام 125هـ، وهناك من العلماء من يرى أن تنظيم الدعوة العباسية قام على ثلاثة أفراد من البيت العباسي لم يُقدّر أن ينالوا ثمرة غرسهم وأولهم: علي بن عبد الله بن عباس وأنه رئس الدعوة أكثر من عشرين سنة وهو الذي نظم الدعاة والنقباء في كل العراق وخراسان وولي أمر الدعوة بعده ابنه محمد علي ثم ابنه إبراهيم[1].

والذي أميل إليه من خلال البحث أن الزعيم القيادي الكبير للدعوة العباسية في المرحلة السرية هو محمد بن علي العباسي[2]، وكان معه فريق عمل من إخوانه وأبنائه وغيرهم.

2 - الهيكل التنظيمي:

انتقل محمد بن علي بعد دراسة وتفكير إلى تنظيم الدعوة تنظيماً محكماً ورسم لكبار الدعوة الطريق الذي سوف يسيرون عليه للوصول بالدعوة إلى غايتها، وكان ذلك في تمام المائة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة[3]، وجعل محمد بن علي العباسي الدعوة تتحرك في ثلاث

(1) العالم الإسلامي في العصر العباسي، حسن أحمد، ص: 114.
(2) الثورة العباسية فاروق عمر، ص: 112.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن العلويين والعباسيين وأهل البيت، ص: 61.

محاور، فقد جعل قرية الحميمة مكاناً للتخطيط والدراسة، فهي المركز الأول للدعوة، والكوفة للإشراف على الدعوة، ولنقل تعاليم الإمام الصادرة من الحميمة إلى الدعاة في خراسان. وأما خراسان، فقد أصبحت مسرحاً للدعوة، كما أصبحت فيما بعد منطلقاً للعمل العسكري، وقد أكد محمد علي العباسي لقادة الدعوة عدم ذكر اسمه، وأن تكون دعوتهم غاية في السرية، فهو يقول لأبي عكرمة السراج عندما أرسله إلى خراسان: فلتكن دعوتكم إلى الرضا من آل محمد، فإذا وقعت بالرجل في عقله وبصيرته فاشرح له أمركم... وليكن اسمي مستوراً عن كل أحد، إلا عن رجل عدلك في نفسك... وتوثقت منه وأخذت بيعته[1]. كما حذر محمد بن علي دعاته من أهل الكوفة قائلاً: ولا تستكثروا من أهل الكوفة، ولا تقبلوا منهم إلا أهل النيات الصحيحة[2]، واحتاط لنفسه أن يبعد الشكوك التي تحوم حول الحميمة، فقد جعل دعاة خراسان يتصلون بالكوفة بدل الحميمة، حتى لا يلفت أنظار الأمويين فينكشف أمره. ولضمان السرية التامة لدعوته، فقد أمر كبار دعاته بأن يسلكوا في طريقهم إليه الطرق الرئيسية وأن يحاولوا التستر بزي التجار، كما يقللون التردد على الحميمة ما أمكن، واختار أبو عكرمة السراجَ بعد ذلك اثني عشر نقيباً هم[3]:

1 - سليمان بن كثير الخزاعي.

2 - مالك بن الهيثم الخزاعي أبو عيينة.

3 - طلحة بن رزيق الخزاعي.

4 - عيسى بن أعين الخزاعي مولى لخزاعة.

5 - عمرو بن أعين أبو الحكم، مولى لخزاعة.

6 - لاهز بن قريظ التميمي.

7 - موسى بن كعب التميمي أبو علي.

8 - عيسى بن كعب التميمي.

9 - القاسم بن مجاشع التميمي أبو نصر.

10 - خالد بن إبراهيم، أبو داود، من بني عمرو بن شيبان بن ذهل.

11 - شبل بن طهمان الربعي، أبو علي الهروي الشيباني.

12 - قحطبة بن شبيب الطائي، أبو حمزة[4].

---

(1) طبيعة الدعوة العباسية، فاروق عمر، ص: 155.

(2) العلويون والعباسيون وأهل البيت، ص: 61.

(3) المصدر نفسه، ص: 62.

(4) المصدر نفسه.

وهؤلاء هم رؤساء النقباء هم الذين يعرفون شخصية الإمام وأسرار الدعوة، ويلي هؤلاء نظراء النقباء وعددهم عدد النقباء، ونظير النقيب يخلف النقيب في حالة سفره، أو وفاته[1]، ثم يأتي بعد ذلك الدعاة وعددهم سبعون داعياً[2]، ثم يليهم دعاة الدعاة وعددهم ما يقارب من 36 داعياً[3]، ونظم محمد بن علي العباسي الدعاة تنظيماً دقيقاً يوحي بأنها دعوة دينية كدعوة الأنبياء والرسل - عليهم السلام - يقول في تنظيم ذلك ما نصه[4]: بسم الله الرحمن الرحيم... إن السنة في الأولين، والمثل في الآخرين، وإن الله يقول: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: 155] ثم قال في آية أخرى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: 12] وأن رسول الله ﷺ وافاه ليلة العقبة سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فبايعوه، فجعل منهم اثنتي عشر نقيباً.. فإن سنتكم سنة بني إسرائيل وسنة النبي عليه السلام.

وبمقتضى هذا التنظيم الدقيق السري توزع الدعاة في العراق وخراسان، حيث وجه للكوفة ميسرة العبدي (102 - 105)[5] وخلفه بعد ذلك بكير بن ماهان (105 - 127هـ)[6]. ثم أبو سلمة الخلال (127 - 132 هـ)[7]. وأما دعاة خراسان فقد وجه ثلاثة دعاة دفعة واحدة هم: محمد بن خنيس وحيان العطار، وأبو عكرمة زياد بن درهم - وهو أبو محمد الصادق[8]، وهؤلاء هم رؤساء الدعوة العباسية في الكوفة وخراسان ويسمون - أيضاً - رؤساء النقباء، وأراد أبو عكرمة السراج أن يعرّف الإمام على مدى تقبل وفرح أهل خراسان بدعوتهم ودعوة آل البيت، فطلب من زعمائهم أن يكتبوا للإمام محمد بن علي بما يؤكد له إيمانهم وإخلاصهم وحبهم لهذه الدعوة التي تهدف إلى خلاصهم من ظلم الأمويين - كما يرون ذلك - فأرسلها إلى الكوفة حيث ميسرة العبدي الذي دفعها بدوره إلى محمد بن علي في الحميمة[9]، ففرح بها واستبشر وسره أن ذلك أول مبادئ الدعوة[10]. وأوصى محمد بن علي الدعاة أن يقضوا حوائجهم بالكتمان، وأن يكون ظاهر عملهم التجارة وغايتهم الدعوة إلى آل البيت قائلاً: انطلقوا أيها النفر فادعوا الناس في رفق وستر، فاني أرجو أن يتم الله أمركم، ويظهر دعوتكم،

---

(1) أخبار الدولة العباسية، ص: 216، تقويم جديد للدعوة العباسية، ص: 77.
(2) أخبار الدولة العباسية، ص: 221.
(3) طبيعة الدعوة العباسية، فاروق عمر، ص: 23.
(4) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 63.
(5) الأخبار الطوال، ص: 332.
(6) المصدر نفسه، ص: 334.
(7) تاريخ الطبري نقلاً عن العلويين والعباسين ودعوة آل البيت، ص: 63.
(8) المصدر نفسه، ص: 63.
(9) الكامل في التاريخ نقلاً عن العلويين والعباسيين، ص: 64.
(10) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 64.

ولا قوة إلا بالله[1] ثم قال لهم: فإن سئلتم عن اسمي فقولوا: نحن في تقية وقد أمرنا بكتمان اسم إمامنا[2]. وأرسل محمد بن علي دعاته في الآفاق، يدعون الناس سراً، ظاهر أمرهم الاشتغال بالتجارة وباطنه الدعوة للرضا من آل البيت، واصفين إياه بالتقى والصلاح والزهد والورع، غايته تطبيق شرع الله، شعاره العدل والمساواة، ويحق الحق ويبطل الباطل وسيملأ الدنيا صلاحاً وعدلاً، كما ملأها بنو أمية فسقاً وجوراً - كما يدعون[3]. واستخدم الدعاة مهنة التجارة يستخفون وراءها لنشر الدعوة التي أسندت إليهم، وأخذوا يجوبون البلاد طولاً وعرضاً لاستقطاب أكبر عدد من الناس فكانت مهمتهم أسهل، ومراقبتهم أصعب، ثم إن هؤلاء الدعاة لم يكونوا من عامة الناس، بل تسلحوا بسلاح الثقافة والمعرفة والإخلاص للدعوة والتفاني في سبيلها، فبذلوا الأموال ولاقوا السجن والقتل والتمثيل، وكانت لديهم الحنكة لاجتذاب الأنصار[4].

ولم يكن من دعاة بني العباس المشهورين أحد ممن اشتهر بالعلم في ذلك العصر بل أغلب الدعاة كانوا رجال إدارة وأهل قيادة وحرب، كأبي مسلم الخراساني وقحطبة بن شبيب، أو من أهل الشرف واليسار كبكير بن ماهان الذي أغدق على الدعوة بماله، فذكر أنه أنفق في نصرة الدعوة أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب[5]، وورد أنه الذي اشترى أبا مسلم الخراساني لما رأى صلاحه لأمر الدعوة[6]، وكأبي سلمة الخلال الذي ذكر أنه رجل شهم، سائس شجاع، متمول، أنفق أموالاً كثيرة في إقامة الدولة[7]. كما أن بعض دعاة بني العباس من الموالي الذي يهمهم القضاء على بني أمية ونجاح الدعوة العباسية التي يرفع قادتها شعار المساواة وإنفاق الموالي[8]. ونلاحظ أنّ الأكثرية الساحقة من النقباء كانوا عرباً[9]. وقد ذكر الباحثون أسماء وتشكيلات تنظيمية منها:

أ - كبير للدعاة بالكوفة: فقد عين محمد علي العباس كبيراً للدعاة، وجعل الكوفة موقعاً له ومقاماً، إذ هي أقرب إلى خراسان من الحميمة، وبها شيعة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذين انضموا إلى بني العباس، وكان كبير الدُّعاة مسئولاً عن نشر الدعوة والإشراف

---

(1) الأخبار الطوال، ص: 332.
(2) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 64.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.
(5) تاريخ الطبري نقلاً أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 600.
(6) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 600.
(7) سير أعلام النبلاء (6/ 7).
(8) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 600.
(9) الثورة العباسية، ص: 117.

عليها بخراسان، فكان يرسل إليها وفود الدعاة، وكان يكتب إلى محمد علي بأنباء الدعوة ويعلمه بأحوالها، وكان يلقاه في موسم الحج، وكان يزوره بالحميمة إذا طرأ طارئ واحتاج إلى أن يعرف رأيه فيه، حتى يأخذ به وينفذه. وكان الدعاة من أهل خراسان يمرون بالكوفة، ويعرّجون على كبير الدعاة، فيطلعونه على ما بلغوا في بث الدعوة ويشرحون له ظروفها، ثم يمضون إلى الحجاز، فيقابلون محمد بن علي بالمدينة ومكة في موسم الحج، فيؤدون إليه ما اجتمع لهم من أموال، ويُخبرونه بأخبار الدعوة ويعرضون عليه مسيرتها ومُلابساتها، ويتشاورون في أمرها حتى يستدركوا النّقص ويتلافوا الأخطاء ويُذلِّلوا الصعاب ويتجنّبوا الأخطار، تقوية للدعوة ومداً في تيارها وحماية لها من الانهيار، فإذا انقضى موسم الحج زوّدهم بتوجيهاته وإرشاداته، ورجعوا إلى خراسان، فواصلوا القيام بأمر الدّعوة وجدُّوا في نشرِها[1]، قال البلاذري: كان محمد بن علي يقدم المدينة في كل سنة فيقيم بها الشهر والشهرين، ويُؤتى بالمال فيفرقه[2]. ومن أشهر من تولى هذا المنصب في التنظيم العباسي: بكير بن ماهان فقد استعمله محمد بن علي العباسي بعد وفاة أبي رباح ميسرة النبَّال، فقد جاء إلى محمد بالحميمة وأخبره عن شيعته بالكوفة وأوصاه محمد بن علي أن يدعو إلى الرضا من آل محمد، ويذكر جور بني أمية وأن آل محمد أولى منهم بالأمر، وأوصاه أن يُحذر شيعة بني العباس التحرك في شيء مما يتحرك فيه بنو عمِّهم من آل أبي طالب، فإنَّ خارجهم مقتول، وقائمهم مخذول، وليس لهم في الأمر نصيب، وخوّفه جماعة أهل الكوفة وأمره أن لا يقبل منهم أحداً إلا ذوي البصائر، فإنهم لا يُعزُّ به من نصروه ولا يوهنون بخذلانهم من خذلوه[3]. وكان بكير بن ماهان رجلاً مُفوَّهاً، فقام بالدُّعاء وتولى الدعوة بالعراقين. وكانت كتب الإمام تأتيه فيغسلها بالماء، ويعجن بغسالتها الدقيق، ويأمر فيُختبز منه قرص، فلا يبقى أحد من أهله وولده إلاَّ أطعمه منه[4] وهذا يُشير إلى النفوذ الروحي لمحمد بن علي العباسي على أتباعه، ولا شك أن هذا الأمر ساهم بشكل كبير في نجاح الدعوة العباسية، وقد أنفق بكير بن ماهان أموالاً طائلة في نصرة الدعوة[5].

ب - مجالس الدعوة العباسية: زعم مصنف أخبار الدولة العباسية أن بكيراً كوّن مجالس الدعوة العباسية المختلفة سنة عشرين ومائة[6]، وفي حديثه عن بعضها تعميم ووهم، فإن مجالس النُّقباء، ومجلس السبعين ألفا في سنة مائة، روى ذلك أكثر المؤرخين، واتفقوا عليه، ويبدو أن بكيراً جمع رجال المجلسين[7]، وتبادل معهم الرأي في شؤون الدعوة العباسية،

(1) الدعوة العباسية، ص: 172.
(2) أنساب الأشراف (3/ 86) تاريخ الموصل، ص: 49.
(3) أخبار الدولة العباسية، ص: 194 - 200.
(4) الأخبار الطوال، ص: 333.
(5) الدعوة العباسية، ص: 189.
(6) أخبار الدولة العباسية، ص: 213، 215.
(7) أخبار الدولة العباسية، ص: 213.

وأقرَّهم وأبقاهم في مناصبهم ولم يعزل أحداً منهم، ولا سيما النقباء، فإن أسماءهم عند مُصَنِّف أخبار الدولة العباسية[1]، وعند غيره من المؤرخين[2] متطابقة وأما سائر رجال السبعين فإنه استَقَلَّ بسرد أسمائهم إذ لم يشاركه أحد من المؤرخين في ذلك[3]، ويبدو أن بكيراً أنشأ بقية المجالس التي ذكرها مُصَنِّف أخبار الدولة العباسية لأنها لم تُعرف قبل هذا التاريخ، وهي: مجلس نظراء النُّقباء. وهو يتألف من اثني عشر رجلاً، وقيل من عشرين أو أحد وعشرين رجلاً وقد سمّاهم جميعاً[4] ومجلس الدُّعاة، وهو يتألف من سبعين رجلاً، وقد سمَّى منهم خمسة وستين رجلاً[5] ومجلس دعاة الدُّعاة ولم يُحدِّد عدد رجاله وقد سَمَّى منهم سبعة وثلاثين رجلاً[6]. وفي كل مجلس من هذه المجالس طائفة من رجال مجلس السبعين. ونصَّ على أن النُّقباء الاثني عشر ليس بين أحد من أهل العلم فيهم اختلاف، فأما نُظراء النُّقباء والسبعون قد اختلف فيهم[7]. ثم أخذ بكير البيعة على من حضره من شيعة - بني العباس - على مناصحة إمامهم في السِّر والعلانية، وألا يُطلعوا على أمرهم أحداً خافوا ناحيته ولم يثقوا به، وجمعوا مالاً كثيراً، وأتوه به، وخلف عليهم سليمان بن كثير الخزاعي، وأمرهم إذا حزبهم أمر أن يجتمعوا إليه فيناظروه فيه عنده، وأمرهم أن يأخذوا برأي أبي صالح كامل ابن مظفر فإنه ثقة في رأيه وشفقته، وشخص إلى جرجان، فلما قدِمها أقام بها شهراً، وجمع له شيعتها مالاً وحُلياً ثم سار منها إلى الكوفة، فلما بلغها مكث بها يسيراً، ثم توجَّه إلى محمد بن علي، فدفع إليه ما قدم به[8]، ولبث في الحُميمة زمناً، ثم رجع إلى الكوفة أول سنة اثنتين وعشرين ومائة[9].

3 - البعد التخطيطي وقراءة الواقع عند محمد بن علي العباسي:

إن التخطيط والتنظيم من الأسس المهمة في نجاح الدعوات وقيام الدول حيث كتب محمد ابن علي كتاباً لقادة التنظيم العباسي ليكون لهم مثالاً، وسيرة يسيرون عليها قائلاً: أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف، تقول كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فلا يعرفون إلا معاوية، وطاعة بني أمية، وعداوة راسخة، وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بأهل خراسان، فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب

---

(1) أخبار الدولة العباسية، ص: 216.
(2) أنساب الأشراف (3/ 115) الدعوة العباسية، ص: 211.
(3) الدعوة العباسية، ص: 211.
(4) أخبار الدولة العباسية، ص: 219 - 220.
(5) المصدر نفسه، ص: 221 - 222.
(6) المصدر نفسه، ص: 222 - 223.
(7) المصدر نفسه، ص: 220.
(8) المصدر نفسه، ص: 223 - 224.
(9) المصدر نفسه، ص: 230.

فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم يقدح فيها فساد، وهم جند لهم أبدان، وأجسام، ومناكب، وكواهل، وأصوات هائلة... وبعد: فإني أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا، ومصباح الخلق[1].

لقد وصف محمد بن علي للدعاة المكان الذي يمكن أن تنمو فيه الدعوة وتحقق أكبر النجاح للقضاء على الحكم الأموي:

أ - فخراسان: منطقة بعيدة عن عاصمة الدولة وفيها رجال أقوياء حاقدون على الحكم الأموي، والاستقرار في هذه المنطقة شبه مفقود وفيها شيعة متحمسون لنصرة آل البيت، وفي خراسان: جمجمة العرب وفرسانها[2]، فقد كانت خراسان موطن المقاتلة العرب الذين مرستهم الحرب الطويلة مع تركستان والذين عبّروا مراراً عن تذمرهم من السياسة الأموية والعسكرية[3]، فقد تضايقوا من سياسة التجمير وهي إبقاء المقاتلة في الثغور وغلى خطوط المواجهة شتاءً، في الوقت الذي يرغب المقاتلة من قضاء الشتاء مع عوائلهم.

● كان الوالي الأموي يسلبهم حصتهم من الفيء والغنيمة أحياناً أو يأخذ أكثر من حقه منها أحياناً أخرى.

● سئمت القبائل من النزاع المستمر بين الشيوخ والرؤساء الطموحين للوصول إلى السلطة حيث خلق هذا بين قبائل خراسان نوعاً من القلق، ولذلك وجدت تلك القبائل في الدعوة العباسية أملاً جديداً لحياة أكثر استقراراً ويسراً[4].

ب - الحجاز: فهو إقليم غلب عليه أبو بكر وعمر ﷺ، فأهله يميلون إلى الزهد والعبادة، ويركنون إلى السلم وترك الاشتغال بالسياسة، فهم لا يرون أن الخلافة حقاً من حقوق بني هاشم - وإنما في قريش عموماً - ولهذا فشلت حركة المدينة التي قام بها بعض المعارضين للحكم الأموي، كموقعة الحرة عام 63هـ. وفي مكة انتهت خلافة عبد الله بن الزبير عام 73هـ دون أن تحقق الهدف المنشود - لأسباب كثيرة مرَّ ذكرها - كما أن أهل الحجاز يعرفون أن الخلفاء الراشدين ﷺ وصلوا إلى الخلافة بالشورى، والاختيار والقبول من الأمة الإسلامية من غير تسلط أو سفك دماء.

ج - الشام: وأما إقليم الشام «دمشق» التي اتخذها الأمويون عاصمة لدولتهم الإسلامية

(1) عيون الأخبار (1/ 204) العلويون والعباسيون، ص: 58.
(2) طبيعة الدعوة العباسية، ص: 156.
(3) الثورة العباسية، ص: 114.
(4) الخلافة العباسية، عصر القوة والازدهار، ص: 15، 16

المترامية الأطراف وأهل الشام يرون أن عزهم ومجدهم قد جاء عن طريق الأسرة الأموية فهم لا يرون عنها بدلاً.

د - البصرة: هي في نظر محمد بن علي العباسي لا تصلح لهذه الدعوة، فسكانها خليط من البشر، وفيها عدد من الأجناس والأديان، والبصرة مدينة اقتصادية لا شأن لها بالسياسة، ويقطنها قليل من الشيعة لا تفي بالغرض المطلوب، والكثير منهم منهجهم: كن عبد الله المقتول.

س - وأما الكوفة: ففيها شيعة علي وولده، ولا تقبل غير الدعوة لأولاد علي، فأهلها يرون أن الخلافة هي حق من حقوق العلويين دون غيرهم[1].

إن هذا الرأي الذي أدلى به محمد العباسي ليصور بوضوح نزعات الأقاليم الإسلامية ولم يشر هذا الكلام إلى مصر التي كانت قريبة من بلاد الشام فلم يكن بالإمكان اتخاذها مركزاً لحركة معارضة أو لإعلان ثورة[2] أما إفريقيا فلقد كانت قريبة من مصر وبالتالي في قبضة الجيوش الأموية لقربها من الحاميات المتقدمة.

ع - دور الحميمة القيادي وأهمية العنصر العربي في البناء التنظيمي: وقد أتيح للقيادة العباسية من موقعها في «الحميمة» مراقبة الوضع السياسي عن كثب، والتنبه للثغرات والمشكلات فيه دون أن يكون اختيار خراسان سوى نتيجة لذلك وهي الولاية الأثيرة لدى الأمويين ومركز الخلل في دولتهم المترنحة والصورة الأكثر تعبيراً عنها في صراعاتها وانقساماتها. على أن ثمة مسألة هامة هي أن اختيار خراسان لا يعني انصراف العباسيين عن الشام، كما لا يعني التوجه نحو الموالي واستغلال أحقادهم على الدولة الأموية، على نحو ما روّج له المستشرقون في هذا المجال، ولكنه جاء محصلة للمعطيات السابقة، فضلاً عن المعطى الجغرافي، متمثلاً في بُعد الولاية عن مركز الدولة، ذلك أن الدعوة - في أساسها التنظيمي قائم على العرب - وتوجهها الخراساني إنما كان للقبائل العربية اليمنية[3]، القاطنة بأعداد كبيرة في هذه الولاية، هذا إذا لم نتوقف عند عروبة «النقباء» المتحدرين من كبريات القبائل العربية، إذ أن خمسة منهم إلى خزاعة وثلاثة إلى تميم واثنين إلى مزينة، فضلاً عن آخرين من طيء وربيعة.. إلخ[4]. ولا يعني هذا أيضاً، أن يكون لبروز شخصيات من أصل غير عربي في الدعوة، من أمثال أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال، دلالات تخالف

(1) العلويون والعباسيون، ص: 58، 59، 60.

(2) الثورة العباسية، ص: 114.

(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن تاريخ بلاد الشام، إبراهيم بيضون، ص: 228.

(4) تاريخ بلاد الشام، إبراهيم بيضون، ص: 228.

هذا الواقع، إذ أن قيادة الدعوة كانت تحكم قبضتها على كل الأمور، من خلال جهاز بالغ الدقة في التنظيم والإدارة، وسرعان ما لجأت إلى التخلص من هذين الرجلين القويين، بعد إنهاء دوريهما المرسومين، ومحاولة كل منهما تجاوز خطوطه المحددة[1]، وهكذا في قرية من أطراف الشام تّم للعباسيين إخراج مشروعهم إلى حيز التنفيذ، متحالفين مع الوقت، ومتقنين العمل السري، وراصدين ثغرات الحكم الأموي، بما فيها مساوئ الخلفاء وضيق رؤيتهم السياسية، مما حاد بهؤلاء عن الموضوعية واتخاذ المواقف المسئولة، خصوصاً في تلك المرحلة المتأخرة منه[2]، وقد كانت دراستهم العميقة لأسباب النجاح وعوامل إضعاف الأمويين تدرس بحكمة ووعي فائق وذكاء كبير في مركز القيادة بالحميمة:

4 - أهم مبادئ المشروع العباسي والشرائح المستهدفة بالدعوة:

لكل دعوة أو مذهب منظومة فكرية وشعارات خاصة تنادي بها وتجعلها رمزاً يؤمن بضرورة تحقيقه، ومن أهم مبادئ وشعارات الدعوة العباسية التي رفعتها ونادت بها؛

أ - الدعوة إلى الإصلاح: ومن شعارات الدعوة العباسية الإصلاح أو الدعوة إلى الكتاب والسنة وهو شعار عام وهو أشمل شعارات الدعوة العباسية، والواقع أن أحداثاً كثيرة تركت في النفوس آثاراً مريرة، مثل حصار الكعبة وانتهاك حرمة المدينة المنورة يوم الحرة، وسفك دماء أهل البيت وسياسة القهر والجبر واضطهاد المعارضة، والابتعاد عن سيرة السلف الصالح، وحب الترف واللهو وكثرة مظاهره وكثرة المذاهب وتصارعها وظهور أقوال كثيرة غير مألوفة من قبل، والاعتماد على العصبية في الحكم، ويبدو أن جهود هؤلاء الدعاة والأئمة تضافرت لنشر هذه الدعوة، ومصداق ذلك دراسة ما رواه صاحب الأخبار الطوال[3]عن الذين انضووا تحت لواء أبي مسلم وبايعوه وقد جاءت الوفود من مدن خراسان كلها، ومن القرى الصغرى، ومن أهل الثغور من كرمان وكابل وخوارزم وجرجان والديلم وأهل ما وراء النهر وأهل طخارستان، بل آمن العرب بهذه الدعوة، ودخلت فيها قبائل عربية مثل خزاعة وطيء وبكر وتغلب وتميم، وبالطبع انتشرت الدعوة في العالم الإسلامي كله ولكنها تركزت في إيران بعامة وفي خراسان بخاصة[4].

ب - المساواة: وهو شعار المساواة بين الشعوب وهو شعار ساهم في إنجاح الثورة العباسية وأنصف الشعوب التي أسلمت واندمجت في الحضارة الإسلامية، وصارت تتطلع

(1) الأخبار الطوال، ص: 359.

(2) تاريخ بلاد الشام، ص: 228.

(3) العالم الإسلامي العصر العباسي، حسن أحمد محمود، ص: 23.

(4) المصدر نفسه، ص: 19، 20.

إلى المساواة، وهذا الشعار في ذاته مبدأ إنساني جليل لا تزال الأجيال تتعلق به مُنذ القدم وتتخذه مثلاً أعلى، وهو شعار له معنى خاص في ديننا وهو عدم التفرقة بين الناس بحسب ألوانهم أو دمائهم أو تاريخهم، وبيان أن أكرم الناس عند الله أتقاهم، وقد تستر خلف هذا المبدأ دعاة العباسيين وشنعوا به على بني أمية وزعموا أنهم انحرفوا عن هذا المبدأ الإسلامي الأصيل[1].

ج - الإمامة للرضى من آل محمد: وهذا الشعار رضي عنه مجموعة كبيرة من الناس سواء من الشيعة أو السنة، وهو أن المبايعة للرضى من آل محمد ﷺ بدون تعيين اسم ولا تعيين هل هو من البيت العباسي أم من الطالبيين، وانتبه الشيعة متأخرين إلى أن العباسيين كانوا يخططون لأنفسهم ولكن بعد فوات الأوان[2].

فهذه هي أهم المبادئ بالإضافة إلى العدل، ومحاربة الظلم والانتصار لأهل بيت رسول الله ﷺ. واعتمد محمد علي أسلوباً جديداً في بث الدعوة فأوصى أتباعه بكتمان أمرهم وعدم كشف حقيقته لأحد إلا بعد أن يأخذوا عليه العهود والمواثيق المؤكدة[3]، وحتى لا تثير تحركاتهم شكوك السلطة الأموية أوصى أتباعه أن يجوبوا المدن ويعملوا لدعوته بحجة التجارة وأن يستروا اسمه على الجميع، فلم يكن محمد بن علي طيلة المدة التي تولى بها رئاسة الدعوة يعرفه أحد بنسبه واسمه إلا الدعاة[4]، وحتى هؤلاء فإن لقاءه بهم كان قليلاً[5]، وإذا ما استوجب الأمر أن يلتقي بأحدهم فإن ذلك يتم تحت إجراءات أمنية مشددة وغالباً ما يكون في وقت متأخر من الليل بعد أن يكون الجميع قد دخلوا منازلهم[6]، وقد بالغ محمد بن علي في كتمان أمر الدعوة فأوصى أتباعه أن تكون البيعة لشخص مجهول وهي «للرضا من آل محمد»[7]، ويبدو أن هذا الغموض في المبادئ خدم السياسية العباسية في مدة الدعوة السرية وكان له أثر بالغ في نجاحها فشعار «الرضا من آل محمد» يضيق دائرة الخلاف فيحصرها في أهل البيت من قريش، ويخرج الأمويين منها ويبطل حقهم فيها، وفي الوقت نفسه يجعل للعباسيين نصيباً منها على أساس أنهم أحد فرعي أهل البيت، ويتيح لهم كسب أعداد كبيرة من أنصار أهل البيت ومؤيديهم وهو من الناحية الأخرى يوقف النزاع بينهم وبين العلويين ولو مؤقتاً ويجمعهم تحت راية واحدة[8]، لذلك فقد تجنب العباسيون في هذه المدة كل ما يبين أنهم قاموا لأخذ محل العلويين، فأظهروا أن غايتهم قلب الدولة الأموية، وأخفوا سعيهم لأخذ الخلافة، وحاولوا أن يبينوا للناس أن قضيتهم هي قضية جهاد الحق ضد الباطل[9].

(1) حركة النفس الزكية، ص: 46.
(2) المصدر نفسه، ص: 46.
(3) الأخبار الطوال، ص: 355، الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 89.
(4) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 89.
(5) المصدر نفسه، ص: 89.
(6) المصدر نفسه، ص: 89.
(7) أنساب الأشراف (3/ 82 - 136).
(8) أنساب الأشراف (3/ 82 - 136).
(9) العصر العباسي الأول، ص: 25.

إن الثورة العباسية شأنها شأن الثورات الكبرى في التاريخ، تظهر بأشكال متعددة وتندفع في مجراها قوى متنوعة على الصعد الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ولا شك أن الموالي كان لهم حضورهم، إلا أنهم كانوا في صفوف الجنود والأتباع، ولم يكونوا قادة إلا في استثناءات، كانت الثورة العباسية هي ثورة اليمانية الكبرى، كما كانت ثورة الشيعة العباسية والمرجئة والقدرية والخوارج، وكان لكل من هذه القوى نصيب فيها، وإن كانت العديد من هذه القوى قد تعرضت للتصفية على يد أبي مسلم نفسه فيما بعد[1]، ويقول أبو جعفر المنصور موجهاً كلامه لليمانية معترفاً لهم بدورهم المتميز في نجاح الثورة: فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا[2]... وقد تكون هذه الصورة التي تجعل من الثورة العباسية ثورة يمانية مبالغ بها إذ أن القيسيين والمتذمرين من سياسة نصر بن سيار ومروان ابن محمد انضموا كذلك إلى صفوف الثوار العباسيين وعملوا بدورهم على إسقاط الدولة الأموية[3]، باختصار كانت الثورة العباسية هي ثمرة حسن استغلال تراكم معارضات عدة بدأت مُنذ لحظة هذه الثورة بواجهات متعددة ورفعت شعارات مختلفة، حاولت فيها كسب كل المتذمرين ضد الحكم الأموي، فانضم إليها الغلاة والمعتدلون، المسلمون وغير المسلمين، العرب وغير العرب[4] إن هذا التعقيد في الثورة العباسية هو سر نجاحها، فالشعارات التي رفعتها كانت عامة غامضة، لا تختلف ربما عن سواها إلا أن هذه المرة اكتسبت مضموناً مختلفاً عندما تبنتها قوى متعددة ورأت فيها مشروعها للخلاص، وإنما على قاعدة تلك البنية التنظيمية التي صنعها أناس أكفاء استطاعوا الصمود رغم ما أحاط بهم من منوعات القمع، حتى تحقق الانتصار الكبير[5]. وقد استهدفت الدعوة العباسية في رحلتها السرية أعداء الدولة الأموية والذي من أهمهم:

أ - المهالبة الذين حاربتهم الدولة الأموية وتتبعتهم بعد مقتل يزيد بن المهلب، والمهالبة يمنيون.

ب - الموالي، فقد كان هؤلاء يدفعون من الضرائب مقداراً كبيراً، ولا يعاملون بالتساوي مع العرب وكان عليهم ضغط من كل جهة، فكانوا أعداء الدولة بطبيعة الأمر.

ج - وكان بجانب هؤلاء عدو قوي للأمويين وهم الشيعة، فالشيعة العلوية كانت لا تزال

---

(1) السلطة والمعارضة في الإسلام، ص: 527.

(2) نقد وتعريف بتاريخ الموصل، مجلة المكتبة بغداد، سنة 1968م، ص: 194.

(3) طبيعة الدعوة العباسية، ص: 178.

(4) السلطة والمعارضة في الإسلام، ص: 528.

(5) المصدر نفسه، ص: 528.

تقوم بين حين وآخر بثورات وكانت ثوراتها تخمد في كل مرة، فتزداد الكراهة وتشتد العداوة[1] فهذه من أهم الفئات التي استهدفتها الدعوة العباسية، فقد كانت تشكل تربة خصبة لحشد الأتباع والمناوئين للدولة الأموية، فأي حركة منظمة تريد أن تسقط نظاماً ما لا بد لها من معرفة أعداء ذلك النظام والعمل على حشد القوى ضده، مع ضرورة إمساكها بخيوط الثورة بيدها، فهذه بديهة من بديهات العمل السياسي المنظم. كان على رأس الدعوة العباسية رجال من بني العباس «دهاة أقوياء» منظمين عارفين بما يقومون به: أولهم محمد بن علي وأقرباؤه وابنه إبراهيم، ثم تبعهم عدد من إخوة إبراهيم ومن أعمامه وأقاربه، وقد اشتركوا جميعاً في تنظيم الثورة ووضعوا خططها وأشرفوا عليها ووجَهوها كما يجب أن توجه. نعم إنهم تحالفوا مع أعداء بني أمية جميعاً واستفادوا منهم كل الاستفادة، لكنهم هم الموجهون وهم أصحاب الأمر، أما الدعاة والقواد فإنهم يتلقون أوامرهم منهم فيتبعونها بحذافيرها، نعم إنهم استفادوا من العناصر المعادية لبني أمية، وكانت تلك العناصر يجمعها هدف واحد هو إزالة بني أمية، وتجمعها فكرة واحدة، وهي أن بني أمية أعداء الدين لذا وجب القضاء عليهم[2].

5 - المرجعية الشرعية للدعوة العباسية:

تعتبر مدرسة عبد الله بن عباس الحركية والشرعية هي المرجعية للدعوة العباسية، فقد اهتم علي بن عبد الله بن العباس بتراث أبيه وعلومه، يروي ابن سعد بسند أن موسى بن عقبة قال: وضع عندنا كريب حمل بعير أو عدل بعير، من كتب ابن عباس، قال: فكان علي بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب كتب إليه: ابعث إليّ بصحيفة كذا وكذا، قال فينسخها فيبعث إليه بأحدها[3] وقد علق الدكتور صالح أحمد العلي على هذا الأثر فقال: غير أن موسى بن عقبة لم يحدد فيما إذا كان كتب ابن عباس هي مما ألفه أو مما امتلكه، كما أنه لا يذكر مواضيعها، أي فيما إذا كانت في التفسير أم في علوم أخرى[4]. وذكر صاحب الوصية السياسية في العصر العباسي بأن محمد بن علي حين نشأ: ألزمه أبوه أصحاب جده - ابن عباس - فكان كذلك حتى علم وفقه، فجلس يوماً يفتي في المسجد الحرام بمثل فتيا جده[5]، وقد أبهرت فتواه سعيد بن جبير رحمه الله حين سمعه فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني رجلاً من ولد ابن عباس يفتي بفتواه[6]. والمعلوم لدى الباحثين أن عبد الله بن عباس تقدم في التفسير بسبب

(1) تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش، ص: 16.

(2) المصدر نفسه، ص: 26.

(3) طبقات ابن سعد (5/ 216).

(4) دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، ص: 91.

(5) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 76، أخبار الدولة العباسية، ص: 173.

(6) المصدر نفسه، ص: 76.

عوامل متعددة منها: دعاء النبي ﷺ له بالفقه في الدين والعمل بالتأويل، قرب منزلته من عمر رضي الله عنه، الأخذ عن كبار الصحابة، قوة الاجتهاد وقدرته على الاستنباط، قدرات ابن عباس التعليمية والتربوية، رحلاته وأسفاره، وتأخر وفاته[1]. وكان ابن عباس من علماء المدرسة المكية وقد تميزت هذه المدرسة من بين سائر المدارس بكثرة تناولها للآيات وتفسيرها وأسهمت إسهاماً قيماً في الإبانة عن كثير من المعاني التي يحتاج إليها، ويرجع ذلك لأسباب عديدة منها: إمامة ابن عباس للمدرسة، الأثر المكاني على المدرسة - كونها بمكة - كثرة رحلاتهم وأسفارهم، حرصهم على نشر علمهم، التصنيف والتدوين المبكر لآثار المدرسة[2].. إلخ.

* **الفقه الحركي عند ابن عباس:** استفاد العباسيون من فقه جدهم الحركي والذي ظهر عند نصحه للحسين بن علي لما أراد الذهاب للكوفة، فقد قال له: أخبرني إن كانوا دعوك بعدما قتلوا أميرهم، ونفوا عدوّهم، وضبطوا بلادهم، فسر إليهم، وإن كان أميرهم حيًّا، وهو مقيم عليهم، قاهر لهم، وعمّاله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة، والقتال[3]، وفي رواية أخرى أنّه قال له: إنّي أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إنّ أهل العراق قوم غدر، فلا تغترنّ بهم، أقم في هذا البلد حتّى ينفي أهل العراق عدوّهم، ثم اقدم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن، فإن بها حصوناً وشعاباً ولأبيك بها شيعة وكن عن الناس بمعزل، واكتب إليهم وبث دعاتك منهم، فإني أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب[4]. ويظهر من فقه ابن عباس الحركي:

أ - أهمية سيطرة أهل العراق على إقليمهم ويحرروه من سلطان بني أمية: وهذا ما قام به العباسيون مع أهل خراسان حيث ضبطوه وحرروه من سلطان بني أمية فيما بعد.

ب - استفاد العباسيون من تقييم ابن عباس لأهل العراق ولذلك لم يعتمدوا عليهم في تشكيل القاعدة الصلبة التي قامت عليها دعوتهم.

ج - بيّن ابن عباس بأن اليمن بها حصون وشعاب ولأبيك بها شيعة وهذه عوامل مهمة في نجاح الحركة لأن قبضة الدولة الأموية تكون ضعيفة للأسباب الجغرافية والبشرية، ولذلك وقع اختيار العباسيين على خراسان، لضعف قبضة الدولة عليها، كما كان بها أنصار لأهل البيت وخصوصاً من القبائل اليمنية المهاجرة هناك.

د - وبيّن ابن عباس بأن يكون صاحب الدعوة في بداية أمرها عن الناس بمعزل وأن يكتب

---

(1) تفسير التابعين (1/ 374 إلى 395).

(2) المصدر نفسه (1/ 407 إلى 413).

(3) البداية والنهاية (8/ 172) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 208.

(4) الكامل في التاريخ(2/ 546).

إليهم ويبث دعاته فيهم وهذا الذي فعله محمد بن علي العباسي، فقد كان عن الناس بمعزل وكان يكتب للناس ويبث دعاته من خلال تنظيم محكم انتشرت خلاياه الدعوية في جسم الأمة الإسلامية.

6 - انحراف خطير عن منهج الدعوة وموقف محمد بن علي العباسي ضده:

في سنة 118هـ بعث بكير بن ماهان عمَّار بن يزداد داعية إلى خراسان وكان نصرانياً من أهل الحيرة ثم أسلم وصار معلماً بالكوفة، فلمّا أتى خراسان تسمَّى بخداش بن يزيد، ودعا الناس إلى بني العباس فأجابوه، ثم انحرف عن الدعوة العباسية، وخرج عن مبادئها وقواعدها وشذّ عن مراميها ومقاصدها، فثار عليه شيعة بني العباس وفتكوا به، ويقال: إنَّ أسد بن عبد الله القسْري هو الذي قبض عليه وأعدمه[1] وقال البلاذري: وجه بكير عمَّاراً هذا فغيّر سُننَ الإمام، وبدّل ما كان في سيرة من قبله، وحكم بأحكام منكرة مكروهة، فوثب به أصحاب محمد بن علي فقتلوه، ويقال: بل قتله أسد بن عبد الله وصلبه[2]، وفيما روى ابن جرير الطبري من خبر خداش أنه أعلن دين الخُرّمية وأحَلَّ النساء وأباحهن وذكر لشيعة بني العباس أن محمد بن عليٍّ أمره بذلك، فأخذه أسد بن عبد الله القسري، ومثل به ثم قتله[3]، وروى ابن الأثير أن خدّاشاً أجاز لشيعة بني العباس ترك الطاعات والفروض وسوّغ لهم ذلك واحتجَّ له احتجاجاً قبيحاً، يقول: قال لهم: إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج، وإن تأويل الصوم أن يُصام عن ذكر الإمام فلا يباح باسمه، والصلاة والدعاء له، والحج القصد إليه، وكان يتأوَّل من القرآن[4] قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: 93]. وكان مروق خِداش من الدِّين وانسلاخه من الإسلام، ومزجه تعاليم الدَّعوة العباسية بتعاليم الخُرَّميّة أكبر الأخطار التي صادفها محمد بن علي، فقد نكب شيعتها وشق صُفُوفهم شقاً وكان من انحازوا إليه منهم كُثراً وكان فيهم بعض النُّقباء والدُّعاة[5]، وروى البلاذري أن محمد بن علي صرف شيعة بني العباس بخراسان عن مقالة خِداش، إذ أرسل إليهم بكير بن ماهان، فرتق فتقهم، ورأب صدعهم، ولمّ شعثهم وأعادهم إلى منهاج محمد بن علي ودعوته[6] وقد أرسل مع بكير بن ماهان رسالة إلى دعاته في خراسان يحذرهم من الدخول في هذه المبادئ المنافية للإسلام، كما أرسل معه رسالة ثانية إلى رؤساء الدعاة[7]. قال في رسالته الأولى: سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو... وأشهد أن الله يبدئ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض

(1) الدعوة العباسية، حسين عطوان، ص: 203.
(2) أنساب الأشراف (3/ 117).
(3) تاريخ الطبري (7/ 635).
(4) الكامل في التاريخ (3/ 352).
(5) الكامل في التاريخ (3/ 352).
(6) أنساب الأشراف (3/ 118) الدعوة العباسية، ص: 207.
(7) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 66.

وهو العزيز الحكيم، فتبارك ذو الفضل العظيم. أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله الذي لا يزيد في ملكه من أطاعة ولا ينقص من ملكه من عصاه، بيده الملك ويبقى ملكه وهو عزيز ذو انتقام وتمسكوا بصالح الذي عاهدتم الله عليه وأدوا الأمانة فيما أمركم به، واعتصموا بحبل الله جميعاً، وخذوا بحظكم منه واشكروا بلاه الذي أصبح بكم من سوابغ نعمه، واعتبروا ما بقي بما سلف، وإنما ضرب الله لكم أمثال ما مضى من الأمم لتعقلوا عن الله أمره بأنكم قد رأيتم من الدنيا وتصرفها بأهلها إلى ما صار من مضى منهم، وخير ما يصيب الناس فيما بقي من الدنيا... ثم اعلموا علماً يقيناً أن لأهل ولاية الله منازل معروفة كأنما ينظرون فيما أعطاهم الله من اليقين إلى عواقب الأمور ومستقرها.. لا تصدقوا كذباً، ولا تجمعوا خبيثاً ولا تخالفوا تقياً ولا تحتقروا يتيماً صغيراً، ولا تنتهكوا ذمة، ولا تفسدوا أرضاً ولا تشمتوا مؤمناً، ولا تقطعوا رحماً، ولا تعصوا إماماً، وأحسنوا مؤازرتهم وصيانة أمرهم، أعينوهم إذا شهدتم وانصحوا لهم إذا رغبتم، اعلموا أن أصدق الحديث كتاب الله وأوثق التقوى لزوم حقه، وخير الملل ملة إبراهيم وأفضل السنن سنة محمد ﷺ، وأعظم الضلالة ضلالة بعد هدى... ونفس تناجيها بتقوى خير من نفس أمارة بالسوء، فاتقوا الله، ولا تكونوا أشباهاً للجناة الذين لم يتفقهوا في الدين ولم يعطوا بالله اليقين وأن الله أنزل عليكم كتاباً واضحاً ناطقاً محفوظاً قد فصل فيه آياته، وأحكم فيه تبيانه، وبين لكم حلاله وحرامه، وأمركم أن تتبعوا ما فيه، فاتخذوه إماماً، وليكن لكم قائداً دليلاً، فعليكم به، ولا تؤثروا عليه غيره... فإن الله بيّن لكم ما تأتون وما تتقون، فقال لنبي الرحمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33]. وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 29] أسأل الله أن يجعلنا وإياكم مهتدين غير مرتابين. والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين[1].

وقال في رسالته الثانية التي وجهها إلى رؤساء الدعاة: «أما بعد عهدنا الله وإياكم بطاعته وهدانا وإياكم سبيل الراشدين. فقد كنت أعلمت إخوانكم رأيي في خداش، وأمرتهم أن يبلغوكم قولي فيه، وإني أشهد الله الذي يحفظ ما تلفظ به العباد، زكي القول وخبيثه، وإني بريء من خداش، وممن كان على رأيه، ودان بدينه، وآمركم ألا تقبلوا من أحد ممن أتاكم عني قولاً ولا رسالة خالفت فيها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والسلام[2]. ومن خلال الرسائل السابقة تتضح نزعة محمد علي العباسي السنية وبطلان اتهام الدعوة بالعقائد الفاسدة، والباطنية، وعدم صحة ارتباط الدعوة العباسية بالزنادقة كما زعم بعض المستشرقين من أمثال فلهاوزن[3]، فهذا الأمر بعيد كل البعد عن الصحة[4].

---

(1) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 66.
(2) المصدر نفسه، ص: 67.
(3) فتنة السلطة، ص: 187، الدولة العربية، ص: 487.
(4) فتنة السلطة، ص: 188.

ثالثاً: إعلان الثورة العباسية:

تعمقت الدعوة العباسية في نفوس الأتباع، وتتطلع الناس لها، وانتشرت فكرتها، وعلقوا الآمال عليها، فهي دعوة آل البيت، وهي التي سوف تخلصهم من الدولة الأموية وهي بجانب هذا ستعيد لهم عزهم وسلطانهم التليد، فتمسكوا بها وناصروها فاتسعت خلايا الدعوة، وتعمقت جذورها في السهول والجبال فعمت المدن والقرى والأقاليم، وفي هذه الفترة الحرجة فترة عز ونشاط الدعوة السرية مات صاحب الدعوة ومنظمها محمد بن علي بالحميمة في ذي القعدة سنة 125 هـ وأوصى بتولي أمر الدعوة إلى ابنه إبراهيم الذي تسمى فيها بعد بالإمام[1]، وكان رئيس دعاة الكوفة بكير بن ماهان موجوداً في هذا الأثناء بالحميمة فحمل هذه الوصية إلى خراسان وأبلغها إلى النقباء فصدقوه ودفعوا إليه ما اجتمع قبلهم من نفقات شيعته، ورجع إلى الحميمة، حيث طمأن الإمام عن سير الدعوة في خراسان وأبلغه إخلاص هؤلا الدعاة لإمامهم الجديد وسلم إليه ما لديه من الأموال فعاد إلى الكوفة[2]، ومعه بعض الشيعة العباسيين بعد أن تعرفوا على إمامهم الجديد، وقد حثوه على تعجيل الثورة المسلحة قائلين: وحتى تأكل الطير لحوم أهل بيتك وتسفك دماؤكم، وتركنا زيداً مصلوباً بالكنانة وابنه «يحيى» مطروداً في البلاد، وقد شملكم الخوف، وطالت عليكم مدة أهل البيت السوء[3].

كان إبراهيم بن محمد أرفع إخوته مكاناً وأعلاهم شأناً وكان عظيم القدر عند أهل المدينة ومكة وكان تقياً ورعاً[4]، وجواداً معطاء[5]، وحكيماً حليماً وحازماً صارماً وكان له عناية بالحديث ومعرفة بالبلاغة ورواية للشعر[6]، ولما تولى قيادة الدعوة العباسية سعى في بث الدّعوة وَنشرها وجدّ في تقويتها وترسيخها واجتهد في تنظيمها وإحكامها[7].

ولما مرض بكير بن ماهان أرسل إلى إبراهيم الإمام يستأذنه بتولية زوج ابنته «أبو سلمة الخلال» رئاسة الدعوة بدلاً منه، فكتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بعمل بكير بن ماهان كما أرسل إلى خراسان يخبرهم بتولي أبي سلمة أمر الدعوة، فأجابوه بالطاعة والتصديق له، فمات بكير بعد ذلك بقليل سنة 127هـ[8] والحديث عن إعلان الثورة يسوقنا إلى

---

(1) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 83.
(2) المصدر نفسه، ص: 83.
(3) طبيعة الدعوة العباسية، ص: 83.
(4) أنساب الأشراف (3/ 125) الدعوة العباسية، ص: 236.
(5) أنساب الأشراف (3/ 260) الدعوة العباسية، ص: 236.
(6) مروج الذهب (3/ 260) الدعوة العباسية، ص: 236.
(7) الدعوة العباسية، ص: 236.
(8) تاريخ الطبري نقلاً عن العلويين والعباسيين ودعوة أهل البيت، ص: 84.

التعرف على شخصية مهمة كانت بجانب إبراهيم الإمام، والتي قامت بأهم أدوار هذا العمل الحربي بعد ذلك في تكوين الدولة العباسية والقضاء على معارضيها في أول الأمر، تلك هي شخصية أبي مسلم الخراساني[1].

1 - أبو مسلم الخراساني:

اسمه عبد الرحمن بن مسلم، ويقال: عبد الرحمن بن عثمان بن يسار الخراساني، الأمير صاحب الدعوة وهازم جيوش الدولة الأموية والقائم بإنشاء الدولة العباسية، كان من أكبر الملوك في الإسلام. كان ذا شأن عجيب ونبأ غريبٍ من رجل يذهب على حمار بإكافٍ من الشاف حتى يدخل خراسان، ثم يملك خراسان بعد تسعة أعوام ويعود بكتائب أمثال الجبال، ويقلب دولة، ويُقيم دولة أخرى[2]، كان قصيراً، أسمر جميلاً، حلواً، نقي البشرة، أحور العين، عريض الجبهة، حسن اللحية، طويل الشعر، طويل الظهر، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية والفارسية، حلوَ المنطق، وكان راوية للشعر، عارفاً بالأمور، لم يُر ضاحكاً، ولا مازحاً إلا في وقته، وكان لا يكاد يُقطب في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام، فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الفادحة الشديدة، فلا يرى مكتئباً، وكان إذا غضب لم يستفزه الغضب[3]. قال عنه الذهبي: كان أبو مسلم سفاكاً للدماء، يزيد على الحجاج في ذلك، وهو أوّل من سن للدولة لبس السواد[4].

أ - الوضع العام عند إعلان الثورة: كانت الظروف مواتية لإعلان الثورة المسلحة في خراسان:

● فقد قامت حركات تمرد في أنحاء خراسان ضد السلطة الأموية حيث قام بها زعماء القبائل مثل جديع بن علي الكرماني وهناك ثورة قد اشتعلت بالكوفة قام بها عبد الله بن معاوية من ولد جعفر بن أبي طالب وانضم معه الكثير من الغاضبين مما فتّ من عضد الدولة وأربكها، وقد دخل فيها بعض أفراد الأسرة العباسية ومن بينهم أبو جعفر والسفاح وعمهم عبد الله بن علي الذين ربما قصدوا من ذلك إفشال هذه الثورة، وقد حدث ذلك حيث كانت نهايته على أيدي رجال الدعوة العباسية في خراسان، ولأن خراسان لا تحتمل أكثر من دعوة وهي الدعوة العباسية[5].

● وفي الشام حروب طاحنة بين الأمراء الأمويين على السلطة.

---

(1) العلويون والعباسيون ودعوة أهل البيت، ص: 84.

(2) سير أعلام النبلاء (6/ 48).

(3) المصدر نفسه (6/ 48).

(4) المصدر نفسه (6/ 49).

(5) العلويون والعباسيون ودعوة إلى البيت، ص: 85.

● اشتداد العصبية القبلية في خراسان والعراق والشام، فقد كانت تتخبط بالانقسامات والفوضى، وحتى الأندلس وصلت العصبية فيها إلى حروب طاحنة بين المضرية واليمنية[1].

● خروج الضحاك بن قيس الشيباني في العراق والجزيرة[2].

● ثورة الخوارج في كل مكان في العراق، والحجاز، واليمن[3].

● عصيان كثير من المدن، في سوريا وفلسطين والأردن حيث خرجت عن طاعة الخليفة[4].

على ضوء هذه الأحداث وغيرها جَدَّ إبراهيم الإمام بعد ذلك إلى نقل الدعوة العباسية السرية إلى طور العمل والنضال الحربي، فعرض القيادة العامة للجيش على «سليمان بن كثير» رئيس دعاة خراسان فرفض ذلك، ثم عرضها بعد ذلك على «إبراهيم بن سلمة» فرفض هو الآخر هذا الطلب[5]، وكانا بالحميمة موفدين من قبل الشيعة العباسية لطلب الموافقة من إبراهيم الإمام لإعلان الثورة المسلحة وأن الدعوة السرية لا تستحق أكثر من هذا[6].

ب - تعيين أبي مسلم الخراساني على القيادة العامة: استقر رأي إبراهيم الإمام على تولية القيادة العامة لأبي مسلم الخراساني وكان ذلك عام 129هـ، ولم يتجاوز عمره - آنذاك - تسع عشرة سنة[7]، وقد كتب معه كتاباً إلى شيعته في الكوفة قائلاً: إن هذا أبو مسلم، فاسمعوا له وأطيعوا، وقد وليته على ما غلب عليه من أرض خراسان[8]. أخذ أبو مسلم هذا الكتاب ليعرضه على الدعاة وكان أول ما عرضه على أبي سلمة الخلال بالكوفة، وهو بطريقه إلى خراسان، ولكنه لم يجد منه قبولاً، فقد استصغره وحقَّره، وتوجه إلى خراسان بعد ذلك حيث عرض هذا الكتاب على كبار الدعاة فيها، فتخوفوا من عواقب ذلك وردُّوه، لأنه غلام عديم التجربة، فلا يمكن أن يكون لمثل هذه الأمور الخطرة، فأرسل وأرسلوا إلى إبراهيم الإمام بالحميمة حول هذا الموضوع، فأجابهم الإمام إلى وجوب الالتقاء به عند موسم الحج[9]، خرج هؤلاء والتقوا بإبراهيم الإمام في مكة، فأخبره أبو مسلم أن هؤلاء رفضوا الطاعة،

---

(1) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص: 160 إلى 170.
(2) تاريخ الطبري (8/ 233 إلى 236).
(3) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 85.
(4) تاريخ الطبري (8/ 198).
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن العلويين والعباسيين، ص: 86.
(6) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 86.
(7) الكامل في التاريخ (3/ 453) العلويون والعباسيون، ص: 86.
(8) الكامل (3/ 453) العلويون والعباسيون، ص: 86.
(9) تاريخ الطبري (8/ 243 9 العلويون والعباسيون، ص: 87.

والانقياد له. فقال لهم الإمام: لقد عرضت هذا الأمر على غير واحد لكنهم رفضوا ذلك فاستقر رأيي على أبي مسلم لتولي رئاسة الجيش، فأمرهم بالسمع والطاعة له[1].

ج - وصية الإمام إبراهيم لأبي مسلم: وكتب إبراهيم الإمام وصية لأبي مسلم جاء فيها: يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحفظ وصيتي، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم، وحل بين أظهرهم، فإن الله لا يسمي هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا - الشيخ - يعني سليمان بن كثير الخزاعي - ولا تعصه، وإن أشكل عليك أمر فاكتف به مني[2]. إن هذه الوصية غير متفق عليها من المؤرخين لذلك لا يمكن قبولها دون تمحيص، فالنقد الخارجي للنص يظهر بأنه مذكور دون سلسلة رواة الطبري، ولا ذكر للنص في مصادر مهمة أخرى مثل أنساب البلاذري وأخبار الدولة العباسية، وليس هناك أهمية كبرى لذكرها في كتب تاريخية متأخرة لأن هؤلاء المؤرخين المتأخرين أمثال ابن خلدون وابن كثير وابن الأثير نقلوها ممن ذكرها قبلهم، والمهم هنا أن نذكر بأن رواية الدينوري[3]، وكتاب العيون والحدائق[4] لا تذكر النص الذي يأمر فيه إبراهيم أبا مسلم بقتل العرب دون تمييز، ولكن الوارد أن الأمر كان بقتل العرب الذين يرفضون الدخول في الدعوة العباسية أو المشكوك في ولائهم لها: واقتل من شككت في أمره[5]. أو كما يقول العوفي: لقتل كل المدّعين أو المطالبين بالإمامة[6]، ويؤيد ذلك ما يذكره صاحب أخبار العباس على لسان أبي مسلم: أمرني الإمام أن أترك في أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا أدع نصيبي من صالحي مضر وأحذر أكثرهم من اتباع بني أمية وأجمع إليّ العجم[7]. ويمكن تلخيص النقد الداخلي للوصية بالنقاط التالية:

- الرواية مجزأة في الطبري إلى قسمين تذكر بينهما حوادث ذات علاقة بتطور الدعوة ولا علاقة لها بالوصية.

- تأتي الوصية تحت عنوان سبب قتل مروان بن محمد لإبراهيم الإمام، مما يدل على أنها أو بعضها على الأقل دعاية ضد العباسيين وضعت من جانب أعدائهم.

---

(1) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، ص: 87.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن العلويين والعباسيين، ص: 87.
(3) الأخبار الطوال، ص: 352.
(4) العيون والحدائق، ص: 184.
(5) الثورة العباسية، ص: 124.
(6) المصدر نفسه، ص: 124.
(7) المصدر نفسه، ص: 122.

● يظهر نص الرواية تناقضات كثيرة، فكيف يصح أن يأمر إبراهيم الإمام بقتل كل العرب وهو يدرك أهميتهم ويوصيه في بداية الرواية بتعهد اليمانيين وإلى درجة ما الربعيين.

● وأخيراً لا آخراً فإن سياسة أبي مسلم وسليمان الخزاعي في خراسان لم تسر أبداً حسب الوصية المزعومة فإن الدعاة العباسيين تقربوا لليمانية والربعية حتى أن أبا مسلم قبل الكثير من المضريين في صفوف الدعوة[1].

د - موقف سليمان الخزاعي من أبي مسلم: وأما موقف سليمان الخزاعي من أبي مسلم فلم يكن ودياً أول الأمر حيث طرده ولم يقبله بين صفوف الدعاة قائلاً: صلينا بمكروه هذا الأمر واستشعرنا الخوف واكتحلنا السهر حتى قطعت فيه الأيدي والأرجل وبريت فيه الألسن جزاً بالسعار وسملت الأعين وابتلينا بأنواع العذاب وكان الضرب والحبس في السجون من أيسر ما نالنا، فلما تنسمنا روح الحياة وانفسحت وأينعت ثمار غراسنا طرأ علينا هذا المجهول الذي لا ندري أية بيضة تقلعت عن رأسه ولا من أي عش درج. والله لقد عرفت الدعوة من قبل أن يخلق هذا في بطن أمه[2]. ولكن نفور بعض الدعاة أمثال أبا منصور طلحة بن رزيق وأبا داود خالد بن إبراهيم وغيره من كبرياء سليمان هو الذي دعاهم إلى قبول الشخص الغريب أبي مسلم، فاضطر سليمان إلى الاعتراف بأبي مسلم خوفاً من تشقق الثورة وتصدعها[3]. ولعل رفض سليمان الخزاعي لأبي مسلم الخراساني يعود أيضاً إلى حداثة سنه وقلة تجربته التي قد تعرّض الدعوة للخطر، هذا بالإضافة إلى أن سليمان طلب من إبراهيم الإمام ممثلاً له: من أهل البيت[4]. أي من الهاشميين وخاصة العباسيين ولم يكن يتخيل أنه سيرسل مولى له يمثله في خراسان[5]، وكان موقف أبي مسلم مرناً ويدل على ذكاء حيث تقرب من سليمان وأعلمه بأن الأمام أوصاه بألا يعصي له «أي لسليمان» أمراً ويقدمه في جميع ما يدبرون، وترجّاه كذلك ألاّ يشك فيه: أحسن بي الظن فإني أطوع لك من يمينك[6]. ولم يكن شيعة العباسيين في قرى خراسان ومدنها يطيعون إلا سليمان الخزاعي، صاحبهم والمنظور إليه منهم ولذلك كتب إليهم سليمان يخبرهم بأمر إبراهيم وإرساله أبي مسلم إلى خراسان[7].

هـ - مجلس النقباء في خراسان يرتب أمور الحرب: عقد مجلس النقباء اجتماعاً لينظروا في أمر المكان الملائم لإعلان الثورة فيه، فكان هناك رأي بضرورة إعلانها بخوارزم: فإنها بلاد منقطعة عن نصر بن سيار فإلى أن يرسل عسكره يكون قد تسامع بنا إخواننا فيأتونا ويكثر

(1) الثورة العباسية، ص: 124.
(2) المصدر نفسه، ص: 124.
(3) المصدر نفسه، ص: 124.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه، ص: 125.
(6) المصدر نفسه.
(7) المصدر نفسه.

جمعنا فنقوى على من يأتينا، إلا أن عدداً من النقباء عارضوا ذلك وأكدوا على مرو الروذ لأنها: متوسطة بين مرو بلخ. ثم اقترح عدد آخر مرو الشاهجان لأن بها خلقاً كثيراً من إخواننا وبها السلطان قد وهن أمره ومتى يقوى بها أمرنا يقوى في غيرها. وأيد ذلك سليمان الخزاعي قائلاً: إن قوتنا بها أعظم وعددنا أكبر. ووافقه أبو منصور كامل بن المظفر حيث قال: إذا اجتث الأصل فلا بقاء للفرع إذا ظهرتم بغير مرو تفرغ لكم سلطانكم وساعده عدده عليكم. وهكذا اتفق أمرهم على أن مرو الشاهجان أصلح مكان لإعلان الثورة، وأرسل الدعاة ليخبروا الشيعة بالالتقاء والتجمع في مرو في الوقت المحدد وكان في يوم عيد الفطر سنة 129هـ[1].

وكان نصر بن سيار منشغلاً بالاستعداد لجديع الكرماني فلما سمع بنبأ تجمع الشيعة في مرو وضواحيها قرر أن يكمن لهم ويلتقطهم جماعة جماعة ويقضي عليهم، ولما علم سليمان الخزاعي وأبو منصور كامل بن المظفر بذلك أشارا على أبي مسلم بضرورة التجمع وإعلان الظهور قبل الموعد المحدد وإلا تشتت الشيعة وفشلت الحركة. فأعلنها أبو مسلم ولمّا يبقى في رمضان إلا خمسة أيام وعسكر في حصين تابع لسليمان الخزاعي حيث أصبح نقطة تجمع أنصار الدعوة لآل البيت[2]. وحين فشا خبر أبي مسلم أقبلت الشيعة من كل جانب إلى مرو فأتاهم عيسى بن شبل وأبو الوضاح وأبو مرة في نحو من ألف رجل: وقد كثر جمعهم وسودوا ثيابهم ونصبوا أعلامهم ونشروا راياتهم فصلى بهم سليمان بن كثير الخزاعي يوم العيد وهي أول جماعة كانت لأهل الدعوة[3].

وقد قام النقباء بترتيب نوع من التنظيمي السياسي للحركة حيث عين أبو صالح كامل بن المظفر بتدبير الأمور وكتابة الكتب وبجمع الأموال والغنائم ويقسمها ويقوم بإعطاء الجند وهو صاحب السر كذلك، وعين مالك بن الهيثم: يقوم بأمر العسكر... ويحكم بين أهله وينقي أهل الريب منه فقبلوا ذلك منه واتفقوا عليه. ثم عين حرساً خاصاً لأبي مسلم من عدة رجال ينتخبون أبا مسلم ويكونون رسلاً يرسلون لتدبير بعض الأمور، وكان يؤم الناس في الصلوات سليمان بن كثير الخزاعي[4]. وفي ليلة الخميس لخمس بقين من شهر رمضان عقد أبو مسلم راية النصر التي بعثها إليها إبراهيم الإمام وهي اللواء - يدعى الظل - على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً. والراية - تدعى السحاب - على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً وهما سوداوان وهو يتلوه[5]: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39] ولبس السواد هو وسليمان بن كثير وإخوة سليمان وحميد بن رزين وأخوه عثمان بن رزين، وأوقدوا النيران ليلتهم. وتأويل اسمي الظل والسحاب، أن السحاب يطبق الأرض، وكذلك دعوة بني

---

(1) تاريخ الطبري (8/ 245)، الثورة العباسية، ص: 125.
(2) الثورة العباسية، ص: 125.
(3) تاريخ الطبري (8/ 247).
(4) الثورة العباسية، ص: 131.
(5) تاريخ الطبري (8/ 246).

العباس، وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبداً، وكذلك لا تخلو من خليفة عباسي أبد الدهر[1]. كانت دعوة شيعة بني العباس في خراسان قوية، فقد ظهر أمرهم وكثر من يأتيهم وجعلت الدّعاية العباسية وحملتهم الإعلامية تستهدف أفعال بني أمية وما نالوا من أمر رسول الله، حتى لم يبق بلد إلا فشا فيه هذا الخبر وظهر الدعاة ورئيت المنامات وتُدورست كتب الملاحم[2]، وكان اختيار اللون الأسود هو الخطوة الأولى، ثم كانت الخطوة الثانية هي إرسال الرايات إلى خراسان، فكان أن بعث بأبي سلمة إليها: بعد أن دفع له ثلاث رايات سود، وأمره أن يدفع واحدة إلى من بمرو من الشيعة، ويدفع واحدة إلى من بجرجان من الشيعة ويبعث بواحدة إلى ما وراء النهر فشخص أبو سلمة إلى خراسان، فكان أول من قدمها بالرايات السود[3]. وكان وصول الرايات مترافقاً مع حال الفوضى المستشرية في خراسان، وقد أفاد من ذلك أبو سلمة وسليمان بن كثير، وكانت الفتنة التي نشبت بين نصر وعلي الكرمالي ثم ابنه جديع الكرماني تتأجج بفعل تأثير السياسات المركزية[4]، ثم فتحت جبهة جديدة لوالي الأمويين بخراسان بقيادة شيبان الحروري، فكانت الفرصة مواتية لأبي مسلم أكثر، فدخل هذا المعترك بعد أن ضعفت قوة نصر بن سيار وانضمت إلى أبي مسلم كل الفئات الغاضبة في خراسان[5].

2 - جهود نصر بن سيار للقضاء على الدعوة العباسية:

في عام 129هـ كانت أول صلاة عيد علانية للعباسيين وقد أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالناس ونصب له منبراً، وأن يخالف في ذلك بني أمية ويعمل بالسنة فنودي للصلاة: الصلاة جامعة، ولم يؤذن ولم يقم، خلافاً لهم، وبدأ بالصلاة قبل الخطبة وكبّر سبعة في الأولى قبل القراءة لا أربعاً، وخمساً في الثانية لا ثلاثاً خلافاً لهم. وابتدأ الخطبة بالذكر والتكبير وختمها بالقراءة وانصرف الناس من صلاة العيد، وقد أعّد لهم أبو مسلم طعاماً، فوضعه بين أيدي الناس وكتب إلى نصر بن سيّار كتاباً بدأ فيه بنفسه، ثم قال: إلى نصر بن سيّار، بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد، فإنّ الله تبارك أسماؤه عيَّر أقواماً في كتابه فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: 42-43]. فعظم عليه أن قدّم اسمه على اسمه، وأطال الفكرة وقال: هذا كتاب له جواب[6]، ثم بعث نصر بن سيار خيلاً

(1) تاريخ الطبري (8/ 247).
(2) السلطة والمعارضة في الإسلام، ص: 523.
(3) أخبار الدولة العباسية، ص: 245.
(4) السلطة والمعارضة في الإسلام، ص: 523.
(5) العلويون والعباسيون، ص: 88.
(6) البداية والنهاية (13/ 226).

عظيمة لمحاربة أبي مسلم وذلك بعد ظهوره بثمانية عشر شهراً، فأرسل أبو مسلم إليهم مالك بن الهيثم الخزاعي، فالتقوا هنالك فدعاهم مالك إلى الرّضا من آل رسول الله ﷺ، فأبوا ذلك فتصافُّوا من أول النهار إلى العصر، ثم جاءه مدد فقوى مالك عليهم، واستظهر وظفر بهم، وكان هذا أول موقف اقتتل فيه دعاة بني العباس وجند بني أمية[1].. ولما استفحل أمر أبي مسلم بخراسان تعاقدت طوائف من أحياء العرب الذين بها على حربه ومقاتلته، ولم يكره أمره الكرماني وشيبان، لأنهما خرجا على نصر وهذا مخالف له وهو مع ذلك يدعو إلى خلع مروان بن محمد وقد طلب نصر من شيبان أن يكون معه على حرب أبي مسلم أو يكف عنه حتى يتفرغ لحربه، فإذا قتله وتفرّغ منه عاد عدواتهما، فبلغ ذلك أبا مسلم بعث إلى ابن الكرماني يعلمه بذلك، فثنى ابن الكرماني شيبان عن ذلك الرأي، وبعث أبو مسلم إلى هَرَاة النضر بن نعُيم، فافتتحها وطرد عنها عاملها عيسى بن عقيل الليثي، واستحوذ على البلد وكتب إلى أبي مسلم بذلك، وجاء عاملها إلى نصر هارباً، ثم إن شيبان وادع نصَر بن سيار سنة على ترك الحرب بينه وبينه وذلك عن كره من ابن الكرماني فبعث ابن الكرماني إلى أبي مسلم: إني معك على قتال نصر وركب أبو مسلم إلى خدمة[2] ابن الكرماني فنزل عنده واجتمعا، فاتفقا على حربه ومخالفته وتحوّل أبو مسلم إلى موضع فسيح وكثر جنده وعظم جيشه واستعمل على الشرطة والحرس والرّسائل والّديوان وغير ذلك مما يحتاج الملك إليه، وجعل القاسم بن مُجاشع التّميميّ - وكان أحدّ النقباء - على القضاء، وكان يُصلي بأبي مسلم الصَّلوات، ويقص بعد العصر، فيذكر محاسن بني هاشم ويذُمُّ بني أُمية. ثم تحول أبو مسلم فنزل بقرية يقال لها آلِينُ[3] وكان في مكان منخفض، فخشي أن يقطع عنه نصر بن سيار الماء وذلك في سادس ذي الحجّة من هذه السنة، وصلَّى بهم يوم النَّحر القاضي بن مجاشع، وصار نصر بن سيار في جحافل قاصداً قتال أبي مسلم، واستخلف على البلاد نوّاباً[4].

أ - طلب نصر بن سيار المدد من مروان بن محمد: نشبت الحرب بين نصر بن سيار وبين الكرماني وهو جديع بن علي الكرماني، فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير، وجعل أبو مسلم يُكاتب كُلاً من الطائفتين ويستميلهم إليه، يكتب إلى نصر وإلى الكرماني: إنّ الإمام قد أوصاني بكم خيراً، ولست أعدوُ رأيه فيكم. وكتب إلى الكور يدعو إلى بني العباس، فاستجاب له خلق كثير وجمٌّ غفير، وأقبل أبو مسلم، فنزل بين خندق نصر بن سيار وخندق جديع الكرماني، فهابه الفريقان جميعاً، وكتب نصرُ بن سيار إلى الخليفة مروان بن محمد،

(1) المصدر نفسه (13/ 227).

(2) الخدمة: حلقة القوم وجماعتهم.

(3) آلين: من قرى مرو على أسفل نهر خارقان، معجم البلدان (1/ 66).

(4) البداية والنهاية (13/ 229).

الملقب بالحمار يعلمه بأمر أبي مسلم، وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد وكتب في كتابه:

أرى بين الرّماد وميض جمرٍ فأخر بأن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تُذْكى وإن الحرب مبْدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام

فكتب إليه مروان: الشاهد يرى مالا يرى الغائب: فقال نصر: إن صاحبكم قد أعلمكم أن لا نصرة عنده[1] وبعضهم يرويها بلفظ آخر:

أرى خَلَلَ الرماد وَميضَ نار فيو شك أن يكون لها ضِرام
فإن النارَ بالزندين يُورَى[2] وإن الحرب أولها الكلام
لئن لم يُطفِها عقلاء قوم يكون وَقودَها جثث وهام
أقول من التعجُّب ليت شعري أأيقاظ أمية أم ينام
فإن كانوا لحينهم نياماً فقل قوموا فقد حان القيام

وكتب إليه:

أبلغ يزيد وخير القول أصدَقُهُ وقد تبيّنت أن لا خير في الكذب
بأن خراسانَ أرض قد رأيت بها بيضاً لو أفرخ قد حُدِّثتَ بالعجب
فِراخ عامين إلا أنها كبرت لمّا بُطِرنَ وقد سُرْبِلْنَ بالزَّغَب
فإن يطرن ولم يُحْتَلْ لهنّ بهَا يُلهبن بِنيرانَ حرب أيَّما لَهَب[3]

فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان[4].

ب - دعاية نصر بن سيار ضد دعوة أبي مسلم الخراساني: شنّ نصر بن سيار حملة دعاية قوية ضد شيعة بني العباس ووصفهم بأنهم أخلاط من الناس لا أصول لهم، ولا ذمم عندهم، فهم غرباء مجهولون ودُخلاء مغمورون، لا ينتمون إلى العرب المذكورين، ولا إلى الموالي المعروفين، واتهمهم بأنهم ليسوا من المسلمين ولا من الكتابيين فهم يعتنقون نحلة مخالفة لكل الأديان، وزعم أنّهم يبتغون إبادة العرب واستعبادهم، ويرومون سبي نسائهم وهتك أعراضهم وانتهاك حرماتهم[5] حيث قال:

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتهم فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب

---

(1) البداية والنهاية (13/ 230).
(2) الزندان: هما خشبتان يُستقدح بهما فالسفلى زندة والأعلى زند.
(3) البداية والنهاية (13/ 231).
(4) المصدر نفسه (13/ 231).
(5) الدعوة العباسية، ص: 208.

ولينصبوا الحرب إن القومَ قد نصبوا	حربا يُحرّق في حافاتها الحطب
ما بالكم تَلْحِقون الحرب بينكم	كأن أهل الحِجا عن فِعلكم غُيُبُ[1]
وتتركون عدوّاً قد أحاط بكم	فيمن تأشَّبَ[2] لا دين ولا حسب
لا عرب مِثلُكُم في الناس تعرفهم	ولا صريح موالٍ إن هم نُسِبُوا
من كان يسألني عن أصل دينهم	فإن دينهم أن تهلك العرب
قوم يدينون ديناً ما سمعت به	عن النبي ولا جاءت به الكتب
ويقسم الخُمس من أموالكم أُسَراً	من العلوج ولا يبقى لكم نَشَبُ
وينكحوا فيكم قسْراً بناتكم	لو كان قومي أحراراً لقد غضبوا
ذروا التفرق والأحقاد واجتمعوا	لِيُوصل الحبل والأصهار والنَّسَبُ[3]
إن تُبعدوا الأزده مِنّا لا نُقرّبها	أو تدن نحمدهم يوماً إذا اقتربوا
أتخذِلُون إذا احتجنا وننصُرُهم	لبئس والله ما ظنُّوا وما حسبوا[4]

ولكن الرَّبعية لم يعبأوا بنداء نصر في أول الأمر ولم يبالوا بدعوته، ولم يكترثوا لتحذيره بل مضوا يتشبثون بمخالفتهم اليمانية، واستمروا يساندون ابن الكرماني ويعينونه، ويقاتلون المضريَّة معه، فعاد نصر إلى رمي أبي مسلم وشيعة بني العباس بالكفر وألَحّ على القدح في عقيدته، ولحَّ في التشهير بغاياتهم، يريد أن يُبغضهم إلى الناس ويُكرّههم إليهم ويحملهم إلى الطعن فيهم، ويدفعهم إلى مكافحتهم، ويحمسهم على محاربتهم، فجعل يقذفهم بأنهم وثنيُّون مشركون وأنهم يؤمنون بالمانوّية والمجوسيَّة وغيرهما من الملل الفارسية القديمة وراح يشيع في أصحابه أنهم يقصدون إلى نسف قواعد الإسلام، وهدم دعائمه وتحطيم أركانه وطمس معالمه واستئصال آثاره وأنهم يستهدفون لتقويض سلطان العرب وتمزيق قبائلهم، وقتل رجالهم واسترقاق أبنائهم وأسر بناتهم، ولم يزل يذيع ذلك فيهم ويزينه لهم[5]. وقد تأثر الناس بدعاية نصر بن سيار. وبعث نصر إلى القراء والفقهاء والأتقياء الذين اعتزلوا الحرب، فجمعهم وقال لهم: إنكم كرهتم مشاهدتنا في حربنا هذه، وزعمتم أنها فتنة القاتل والمقتول فيها في النار، فلم نردد عليكم رأيكم في ذلك، وهذا حدث قد ظهر بحضرتكم. هذه المُسَوِّدَة، وهي تدعو إلى غير ملتنا وقد أظهروا غير سُنَّتنا وليسوا من أهل قبلتنا، يعبدون

(1) الحجا : العقل والفطنة.

(2) تأشب : أي اجتمع إليه والتفَّ عليه من أخلاط الناس.

(3) أخبار الدولة العباسية، ص: 313 الدعوة العباسية، ص: 280، 281.

(4) الأخبار الطوال، ص: 332، الدعوة العباسية، ص: 281.

(5) الدعوة العباسية، ص: 281، أخبار الدولة العباسية، ص: 282.

السنانير، ويعبدون الرُّؤوس، علوج وأغتام[1]، وعبيد سُقّاط العرب والموالي فهلُمُّوا فلنعاون على إطفاء نائرتهم[2]، وقمع ضلالتهم ولكم أن نعمل بما في كتاب الله وسنة نبيه وسنة العمرين بعده، فأجابوه إلى مظاهرته على حرب أبي مسلم والجِدِّ معه في ذلك[3].

ج - الدعاية المضادة للأمويين: لقد أقلقت هذه الدعاية الأموية الشيعة العباسية حيث أنهم خشوا تأثر العلماء والأتقياء وكذلك العامة من الناس بها ولذلك قاموا بدعاية مضادة للأمويين حيث عقد اجتماع عام بايع فيه المجتمعون لسليمان الخزاعي واتفقوا على أن يعلنوا مبادئهم وكانت مبادئهم العمل بالكتاب والسنة وتحقيق العدل ورفع الظلم والمساواة بين المسلمين وإنصاف المستضعفين، والبيعة للرّضا من آل محمد، ثم أعلنوا مبادئهم في معسكرهم وأخذوا البيعة عليها من شيعتهم. فنفوا أراجيف نصر عن دعوتهم ونحوا من تدبيره بالإيقاع بهم، وأزالوا الشبهات عن أنفسهم... وأخذ الناس يقبلون عليهم وينضمون إليهم[4] كما وأن أبا مسلم اتبع أسلوباً آخر ليقابل به دعاية الأمويين فقد كان يحرر الأسرى من الجيش الأموي بعد أن يريهم مدى تقوى الشيعة العباسية وتمسكهم بالإسلام وبعد أن يعاملهم معاملة حسنة وذلك من أجل أن يذهبوا إلى معسكر نصر فيرووا ما شاهدوا. وهذا ما فعله مع يزيد مولى نصر الذي أسر في معركة مع العباسيين بقيادة مالك الخزاعي ثم أطلق سراحه فعاد وامتدح سيرة أبي مسلم وأتباعه وصدق إسلامهم[5].

د - أسر إبراهيم الإمام صاحب الدعوة العباسية وقتله: استطاع الأمويون أن يلقوا القبض على إبراهيم الإمام وتعددت أسباب القبض ومن هذه الأسباب قيل: إن إبراهيم الإمام شهد الموسم عام 131هـ واشتهر أمره هنالك، لأنّه وقف في أبهة عظيمة، ونجائب كثيرة وحُرْمة وافرة، فأنهِيَ أمره إلى مروان، وقيل له: إن أبا مسلم يدعو الناس إلى هذا ويُسمُّونه الخليفة. فبعث إليه في المحرَّم من سنة ثنتين وثلاثين وقتله في صفر من هذه السنة[6]، وقيل: ألقى القبض عليه عام 129هـ بعدما اطلع على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخُراساني يأمره فيه بأن لا يُبقي أحداً بأرض خراسان ممّن يتكلم بالعربية إلا أباده، فلمّا وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم، فقيل له: هو بالبلقاء. فكتب إلى نائب دمشق أن يحضره وبعث رسولاً في ذلك ومعه صفته ونعته، فذهب الرسول، فوجد أخاه أبا العباس السفّاحَ فاعتقد أنه هو،

---

(1) الأغتام: جمع أغتم، وهو الذي لا يفصح، أي العجمي.
(2) النائرة: الفتنة والشر والشحناء والعداوة.
(3) أخبار الدولة العباسية، ص: 290 الدعوة العباسية، ص: 282.
(4) الدعوة العباسية، ص: 283.
(5) الثورة العباسية، ص: 133.
(6) البداية والنهاية (13/ 248).

فأخذه فقيل له: إنه ليس هو وإنما هو أخوه، فدُلَّ على إبراهيم، فأخذه وذهب معه بأم ولد له يُحبُّها وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السَّفَّاحُ وأمرهم بالمسير إلى الكوفة، فارتحلوا من فورهم إليها وكانوا جماعة، منهم أعمامه السِّتةُ، وهم عبد الله، وداود، وعيسى وصالح، وإسماعيل، وعبد الصمد بنو عليٍّ، وأخواه أبو العباس عبد الله، ويحيى ابنا محمد بن علي وابناه محمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الإمام الممسوك وخلق سواهم، فلما دخلوا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخلاَّل دار الوليد ابن سعد مولى بني هاشم في بني أَوْدٍ وكتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة من القوّاد والأمراء، ثم ارتحل بهم بعد ذلك إلى موضع آخر، حتى فتحت البلاد ثم بويع للسَّفاح[1]. كانت الدعوة العباسية قد ترسخت جذورها في الأرض، وبات القضاء عليها في منتهى الصعوبة، فلم يغير إلقاء القبض على إبراهيم بن محمد الإمام من الواقع شيئاً أو يُحدث خللاً في مسار الدعوة، إذ جاء الأمر متأخراً[2]، وقد كان إبراهيم هذا كريماً مُمدَّحاً، له فضائل وفواضل، رَوَى الحديث عن أبيه وجدِّه وأبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية وعنه أخواه عبد الله أبو العباس وأبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية وعنه أخواه عبد الله أبو العباس السَّفاح، وأبو جعفر عبد المنصور وأبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، ومالك ابن الهيثم، ومن كلامه الحسن: قوله: الكامل المروءة من أحرز دِينه، ووصل رحمه، واجتنب ما يُلام عليه[3] وقد رثاه أحد الشعراء فقال:

قد كنت أحسبني جلداً فضعضعني	قبراً بحرّانَ فيه عصمةُ الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم	بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمت مصيبته	وعَيَّلت كلّ ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة	لكن عفا الله عمّن قال آمين[4]

3 - سيطرة أبي مسلم على خراسان:

سعى نصر بن سيار للوصول إلى هدنة مع ابن الكرماني وشيبان الصغير للقضاء على أبي مسلم واستطاع الأخير أن يفسد تلك المساعي بدسائسه ومكره وخداعه، فقد أسرع أبو مسلم فاعترف بابن الكرماني أميراً على خراسان وبدأ هو وأصحابه يصلي وراءه، وهكذا نجح أبو مسلم في إشباع رغبة ابن الكرماني المتعطشة للسلطة والإمارة، فلم يكن الوقت وقت منافسة على السلطة بل كان الهدف هو ضمان كسب اتباع ابن الكرماني إلى جانب الثورة العباسية، وقد كانت هذه خطورة بارعة لضمان وحدة الجند الخرسانية في كتلة واحدة، ولما يئس نصر

(1) المصدر نفسه (13/ 247).

(2) تاريخ بلاد الشام، بيضون، ص: 229.

(3) البداية والنهاية (13/ 248).

(4) تاريخ الطبري (8/ 339).

من أية مساعدة من العراق كتب إلى مروان رسائل لحثه على إمداده ولكن بدون جدوى، ولانشغال مروان بالحروب الداخلية في بلاد الشام والعراق والحجاز وبعد أن فشل نصر في محاولته الأولى لكسب ابن الكرماني وفي محاولته الثانية لكسب شيبان الصغير، حاول هذه المرة أن يتقرب نحو أبي مسلم في نفس الوقت الذي ينتظر فيه الإمدادات من الخليفة، لقد أمل نصر أن يفرّق بين أبي مسلم وابن الكرماني فدبر أمر اجتماع حضرته وفود نصر المضرية ووفود ابن الكرماني ومندوبين عن أبي مسلم الذين امتدحوا وفد ابن الكرماني، وفضلوه على وفد نصر حيث قرر سليمان الخزاعي وطلحة الخزاعي ومزيد السلمي التحالف مع ابن الكرماني ضد نصر، وبذلك كسبت الدعوة العباسية مصدر القوة في خراسان إلى جانبها ألا وهي القبائل العربية من أتباع ابن الكرماني[1].

أ - خطة أبي مسلم للاستيلاء على العاصمة مرو: كانت خطة أبي مسلم وابن الكرماني الآتية هي الاستيلاء على العاصمة مرو. وتختلف الروايات التاريخية في كيفية فتح مرو، ولكن الظاهر أن أبا مسلم كان حذراً ومرناً في موقفه تجاه كتلة نصر وكتلة ابن الكرماني، فرغم اعترافه بأن ابن الكرماني والياً على خراسان، فإنه كان يؤمل أن يكسب نصراً أو أتباعه إليه بطريقة أو بأخرى، فضمن الحماية لوفد نصر الذي حضر الاجتماع الآنف الذكر، كما سمح نصر للشيعة العباسية بالتسوق من أسواق مرو دون مهاجمتهم، ولكن حدث وأن قام نزاع بين بكر بن وائل من ربيعة وبين بعض المضريين في سوق مرو، فساعد نصر المضرية بينما أنجد ابن الكرماني الربعية ودعى ابن الكرماني أبا مسلم إلى مساعدته والانضمام إليه، إلا أن أبا مسلم تشاغل حتى تأكد من احتدام الصراع العنيف فتدخل إلى جانب ابن الكرماني حيث دخلت قواتهما مرو في 130هـ وعلى المقدمة أسيد الخزاعي، وعلى الميمنة مالك الخزاعي، وعلى الميسرة القاسم التميمي وهو يتلو: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: 15]. وأمر بالكف عن القتال[2] وأرسل أبو مسلم وفداً إلى نصر يعده الأمان إذا سلم نفسه ولكن نصر شاغل الوفد وهرب إلى نيسابور. ويروى أن لاهز بن قريضى حذر نصر من الاستسلام بتلاوة الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: 20] وقد قتل لاهز جزاء عمله[3]، وبدا الآن الوجه الحقيقي للدعوة بالظهور بصورة تدريجية ألا وهو الوجه العباسي، فحين جُمع الأنصار لتقديم الولاء أكد أبو مسلم على «الشيعة الهاشمية» مما يشير إلى أن هؤلاء الذين كانوا جند العقيدة العباسية المخلصين هم عماد الثورة وليس الجماعات الأخرى التي استغلت من قبل الثورة، وقد أصبحت مرو الشاهجان العاصمة وقراها ثم مرو الروذ وهيرات وأبيورد تحت نفوذ الشيعة العباسية[4].

---

(1) الثورة العباسية، ص: 134، 135، 136.
(2) تاريخ الطبري (8/ 272).
(3) المصدر نفسه (8/ 279).
(4) الثورة العباسية، ص: 137.

ب - مقاومة بلخ القوات العباسية التي وجدت صعوبة في احتلالها وذلك لأسباب ثلاثة:

● أن المقاتلة العرب في بلخ كانوا متحدين لم تتنازعهم العصبية القبلية ولذلك فإن أسد بن عبد الله القسري وطّنهم فيها ككتلة واحدة دون الأخذ بخطة الأخماس التي كانت مستعملة في البصرة، ولذلك كان العرب في بلخ موالين للأمير ومخلصين للأمويين.

● أن الجند السوري في بلخ وعدده 2500 كان موالياً لنصر بن سيار.

● أن السكان الإيرانيين المحليين في طخارستان وأقاليم أخرى في بلاد ما وراء النهر أظهروا مساعدتهم للوالي الأموي، وعلى حدّ قول الطبري، فقد اتفقت مضر واليمن وربيعة والعجم في بلخ على قتال المسودة[1].

إن مقاومة بلخ للدعوة العباسية ظاهرة مهمة، وذلك لأنها ربما كانت من أول الأحداث السياسية التي تميط اللثام عن بعض أساليب الدعوة العباسية، فنحن نلاحظ أولاً بأن الدعوة استغلت العصبية القبلية فنجحت حيث وجدت العصبية وفشلت في بلخ حيث كان العرب متحدين على اختلاف قبائلهم ومخلصين لواليهم الأموي، ثم إن هذه الحادثة تظهر ثانياً بأن الدعوة العباسية لم تكن فارسية موجهة ضد العرب، ذلك لأن السكان المحليين الإيرانيين وأمرائهم في بلخ وفقوا إلى جانب الأمويين ضد العباسيين. وقد قاتل الموالي مع العرب جنباً إلى جنب لاسترداد بلخ من المسودة، كما وأنها تكشف ثالثاً خطأ ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أنه كان هنالك في إيران تذمر عميق ضد الحكم العربي الإسلامي الذي لم يعط الموالي حقهم. فلو كان الأمر كذلك لهبت خراسان وبلاد ما وراء النهر عن بكرة أبيها لتدعم حركة المسودة[2].

رابعاً: تعيين قحطبة الطائي قائداً لجيش خراسان المتقدم نحو العراق:

صدرت أوامر إبراهيم الإمام قبل سجنه بتعيين قحطبة بن شبيب الطائي قائداً عاماً للجيش الخراساني المتقدم نحو العراق وبلاد الشام[3]، وكان ذلك بعد استقرار الأمور في خراسان لصالح العباسيين، وكانت قيادة الدعوة تهدف من وراء هذا التعيين أمور جد خطيرة منها: ألا يتجاوز أبو مسلم خراسان مهما كانت الأحوال، ومنها أن من المناسب أن يكون القائد العام لدخول العراق من أصول عربية، ونلاحظ بعد تولي أبي العباس الخلافة سارع إلى انتزاع القيادة من العسكريين المظفرين إلى أبناء البيت العباسي من الإخوة والأعمام[4].

وبعد خروج نصر بن سيار من مرو أخذ يتنقل بين المدن يتخذها مقراً له من سرخس، إلى

---

(1) الثورة العباسية، ص: 137، نقلاً عن تاريخ الطبري.
(2) الثورة العباسية، ص: 138.
(3) تاريخ الطبري نقلاً عن الثورة العباسية، ص: 144.
(4) العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص: 49.

قومس، إلى خوار الري، وينتهز الفرصة للانقضاض على أبي مسلم في مرو، ولما لم يتمكن من استرداد مرو كتب إلى ابن هبيرة مستنجداً فلم يجبه، ثم كتب إلى الخليفة مروان بن محمد، الذي كتب بدوره إلى ابن هبيرة، فأمده بثلاثة آلاف فارس، عليهم القائد ابن غطيف اليماني، فأخذ هذا القائد يتباطأ في سيره ويطيل في الطريق(1). وفي هذا الأثناء كان قحطبة بن شبيب الطائي يلحق الهزيمة تلو الأخرى بجيش ابن هبيرة، وكانت آخر معركة لنصر بن سيار في خوار الري حيث اقتتل مع جيش الحسن بن قحطبة، وكاد يقتل لولا أن بعض جند العرب في جيش الحسن انضموا إلى صفوف نصر بن سيار، فهُزم جيش الحسن(2)، ولما لم يصل مدد ابن هبيرة ركب نصر بن سيار جواده وسلك المفازة بين الري وهمذان فمات في جبالها، في شهر المحرم سنة 131هـ.

1 - تصفيات في خراسان:

وبعد موت نصر بن سيار زعيم المضرية قضى أبو مسلم على علي بن جديع الكرماني زعيم اليمانية، الذي، كان له دور كبير في انتصار الثورة، ودخل مرو فاتحاً ثم قدَّمها لأبي مسلم، وقد قتل أبو مسلم علياً بن جديع وأتباعه(3)، كما قتل النقيب لاهز بن قريض التميمي بتهمة السماح لنصر بن سيار بالخروج من دار الإمارة، ولأنه كان يعارض تأمير أبي مسلم على الثورة، يوم مؤتمر مكة(4)، كما قتل أبو مسلم عبد الله بن معاوية الطالبي، الذي احتمى بجيش أبي مسلم بعد أن هرب أمام الجيش الأموي من أصبهان إلى خراسان، إما لأنه صاحب ثورة يخشى جانبه، أو لأنه من أصحاب أبي جعفر خصم أبي مسلم(5)، ثم بدأ أبو مسلم بمحاربة شيبان الحروري الذي رفض المبايعة للإمام العباسي، فاستطاع أن يدحره ويشتت شمله(6).

2 - الاتصالات المستمرة بين المراكز الثلاثة للثورة:

ولما سُجن إبراهيم الإمام في حران استمرت الاتصالات بين المراكز الثلاثة للثورة في الحميمة والكوفة وخراسان. ففي الحميمة كان أبو جعفر وأخوه عبد الله بن الحارثية وجماعة من أولاد علي بن عبد الله بن العباس، وكان أنشطهم أبو جعفر الذي كان يتصل إذا اقتضى الأمر بسجن حرّان(7). أما في الكوفة فقد كان النقيب أبو سلمة الخلال، وزير الدعوة، الذي

---

(1) الكامل في التاريخ (3/ 479) الجيش في العصر العباسي الأول، ص: 50.

(2) الكامل في التاريخ (3/ 479).

(3) تاريخ الطبري (8/ 280).

(4) تاريخ الطبري (8/ 279) الجيش في العصر العباسي، ص: 51.

(5) داهية العرب أبو جعفر المنصور، ص: 94.

(6) البداية والنهاية (13/ 235).

(7) الجيش في العصر العباسي الأول، ص: 51.

ما إن سمع بمقتل إبراهيم الإمام حتى أخذ يبحث عن زعيم علوي يقلده أمر الدعوة، إلا أنه فشل ويأتي الحديث عن ذلك عند دراستنا للدولة العباسية بإذن الله تعالى. وشهدت الحميمة مشاورات سرية حول من يخلف إبراهيم الإمام، إذا طرأ عليه طارئ في سجنه، ولا يُعرف مصير هذه المشاورات، فربما أوصى الإمام لأخيه عبد الله بن الحارثية، وقد تداخل الشك أبا مسلم حول صحة الوصية وربما أن العباسيين في الحميمة أجمعوا على عبد الله فعلاً، وربما لأنه الأكثر قبولاً عند أبي مسلم، أو لأن أخواله من العرب اليمانية، ومنهم عدد كبير من جيش الثورة، بما فيهم القائد الأعلى قحطبة بن شبيب الطائي ومجموعة من نقباء الدعوة خاصة سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وغيرها[1].

3 - جيوش قحطبة الطائي تدخل العراق:

ما إن جاء عام 132هـ حتى كانت جيوش قحطبة الطائي تحتل خراسان بأجمعها مع البلاد التي حولها، بعد حروب شديدة، ثم اتجه قحطبة بجيش الثورة غرباً يريد العراق، فتحرك إليه الخليفة مروان بن محمد بعد أن أمر بقتل إبراهيم الإمام في سجنه واتجه إلى الموصل فنزل على نهر الزاب الكبير، وأمد عامله يزيد بن هبيرة بثلاثين ألف فارس لقتال قحطبة المتقدم إلى الكوفة، حيث التقى جيش ابن هبيرة مع جيش قحطبة قرب الفلوجة، على نهر الفرات وقتل في المعركة القائد قحطبة الطائي، ولكن ابنه الحسن بن قحطبة تولى القيادة، في حين اضطر ابن هبيرة للانسحاب نحو واسط[2]، ودخل الحسن بن قحطبة بجيشه الكوفة التي سيطر عليها محمد بن خالد القسري، ودعا الناس إلى بيعة الرضا من آل محمد[3].

4 - أبو سلمة الخلال يتولى إدارة الأمور:

أخرج محمد بن خالد القسري أبا سلمة الخلال من مخبئه، وأجلسه مجلس الإمارة، وقدم له الطاعة، ووضع الجيش في تصرفه، وأقام أبو سلمة معسكره في حمام أعين في ظاهر الكوفة، ووجه الحسن بن قحطبة إلى واسط ومعه ستة عشر قائداً، لحصار ابن هبيرة ولمنعه من الاتصال بالخليفة مروان، ووجه الفرق والكتائب لفتح المدن العراقية؛ إذ بعث حميد بن قحطبة للمدائن ومعه اثنان من القادة مع جنودها، والمسيب بن زهير الضبي ومعه خالد بن برمك إلى دير قنّى، وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز، وشراحيل إلى عين التمر، وسفيان بن معاوية المهلبي إلى البصرة[4]، وأقر أبو سلمة محمد بن خالد القسري على الكوفة[5]. ثم وزع أبو سلمة عماله؛ فقد ولّى عمر بن الزيات حجابته، والمغيرة بن الريان ولّاه الخراج، ثم نقله

(1) الجيش في العصر العباسي الأول، ص: 52.
(2) داهية العرب أبو جعفر المنصور، ص: 97.
(3) سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، ص: 193.
(4) داهية العرب أبو جعفر المنصور، ص: 98.
(5) سقوط الدولة الأموية للثعالبي، ص: 194.

إلى ديوان الرسائل، فيما ولّى يوسف بن ثابت ديوان الخراج، وعبد السلام بن عبد الرحمن الغامدي ولاّه الصوافي والقطائع والخزائن، وولىَّ أبا سلمى بيت المال، وأعطى الجند من ديوان بني العباس، وبعث عمال الخراج إلى الكور[1]. كان أبو سلمة قد استقبل أخوة إبراهيم الإمام وأولاده وأعمامه خارج الكوفة وأدخلهم سراً - بعد سجن إبراهيم - وأخفى أمر مجيئهم عن الشيعة العباسية وقادة الجيش، وطلب منهم كتم أمرهم إلى أن يستتب الأمر في واسط لوجود جيش ابن هبيرة المحاصر وفي البصرة لوجود جيش أموي بقيادة سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي[2]. ولكن حقيقة الأمر بالنسبة لإخفاء أمر العباسيين في الكوفة من قبل أبي سلمة الخلال، هو انتظار لنتائج اتصالاته السرية لأحفاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والتي جاءت مخيبة للآمال، فقد رد جعفر الصادق على أبي سلمة: إن صاحبكم بأرض الشراة، أما عبد الله بن الحسن فقد فكّر أن يسند الأمر إلى ابنه محمد بن عبد الله «النفس الزكية» ولكن الإمام جعفر الصادق نهاه عن ذلك لما شاوره[3].

خامساً: إعلان قيام الدولة العباسية:

بقي العباسيون في معزلهم بالكوفة مدة أربعين يوماً إلى أن علم بأمرهم بعض قادة الجيش في معسكر حمام أعين، وعلى رأسهم القائد أبو الجهم بن عطية ومعه من القادة موسى بن كعب التميمي وإبراهيم بن محمد الحميري، وأبو غالب عبد الحميد بن ربعي، وسلمة بن محمد، وعبد الله الطائي وإسحاق بن إبراهيم، وشراحبيل، وعبد الله بن بسام وغيرهم، وجاءوا إلى العباسيين وبايعوا أبا العباس عبد الله بن الحارثية، وسلموا عليه بالخلافة في 12 ربيع الأول 132هـ ثم أخرجوه إلى منبر المسجد لإعلان خلافته، وتسمى أبو العباس بأمير المؤمنين بينما اتخذ أبو سلمة الخلال لقب وزير آل محمد[4]، وجاء في رواية: أن أبا سلمة الخلال عندما ما أراد إخراج الخليفة العباسي نزل إلى السَّرداب وصاح: يا عبد الله، مُدَّ يدك، فتبارى إليه الإخوان. فقال أيُّكما الذي معه العلامة؟ قال المنصور: فعلمت أني أخرت، لأني لم يكن معي علامة، فتلا أخي العلامة وهي: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً...﴾ [القصص: 5] فبايعه أبو سلمة وخرجوا جميعاً إلى جامع الكوفة، فبُويع وخطب الناس[5] فكان أول ما نطق به: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه فكرّمه وشرّفه وعظَّمه واختاره لنا، وأيَّده بنا، وجعلنا أهله وكهفه والقُوَّام به والذَّابِّين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها خصّنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته واشتقَّنا من

(1) تاريخ بلاد الشام، ص: 259.
(2) العصر العباسي الأول، عبد العزيز الدوري، ص: 43.
(3) داهية العرب أبو جعفر المنصور، ص: 98 - 99.
(4) الجيش في العصر العباسي الأول، ص: 55.
(5) سير أعلام النبلاء (6/ 78).

نبعته ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33] وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]. وقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [الحشر: 7]. فأعلمهم الله عز وجل فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودَّتنا وأجزل من الفيء - والغنيمة نصيبنا، تكرمة لنا، وفضلة علينا، والله ذو الفضل العظيم، وزعمت السَّبئيَّة الضلال أن غيرنا أحقُّ بالرِّياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصَّرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وأتمّ النَّقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرٍّ ومواساة في دنياهم، وإخواناً على سُرُر متقابلين في أُخراهم، فتح الله ذلك مِنَّةً ومنحة لمحمد ﷺ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم، فحَوَوْا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها وخرجوا خِماصاً منها، ثم وثب بنو حرب ومرون فابتزُّوها وتداولوها، فجاروا فيها، واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه[1]، فلمّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقَّنا، وتدارك بنا أمَّتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا؛ ليَمُنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرْجُو أن لا يأتيكم الجَور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصَّلاحُ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله، يا أهل الكوفة، أنتم محلُّ محبَّتنا ومنزل مودَّتنا، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السَّفَّاح الهائج والثائر المبير[2].

وكان به وعك فاشتَّد عليه حتى جلس على المنبر ونهض عمُّه داود فقال: الحمد لله شُكراً شُكراً شكراً الذي أهلك عدوَّنا، وأصار إلينا مِيراثنا من نبيِّنا، أيها الناس الآن انقشعت أرْضُها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزعه ورجع الحقُّ إلى نصابه في أهل بيت نبيكم، أهل الرَّأفة والرّحمة بكم والعطف عليكم، أيها الناس، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنُكثر لُجيناً[3] ولا عقياناً[4]، ولا لنحفر نهراً ولا لنبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقَّنا والغضب لبني عمِّنا ولُسوء سيرة بني أمية فيكم، واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم، فلكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمّة العباس، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل بكتاب الله، ونسير في العامّة منكم والخاصَّة بسيرة رسول الله ﷺ، تبًّا تبًّا لبني أمية وبني مروان؛ آثروا العاجلة على الآجلة والدارَ الفانية على الدار الباقية، فركبوا

---

(1) آسفوه: أغضبوه.
(2) البداية والنهاية (13/ 251).
(3) اللجين: الفضة.
(4) والعقيان: الذهب.

الآثام وظلموا الأنام، وارتكبوا المحارم وغشوا الجرائم وجاروا في سيرتهم في العباد وسُنَّتِهم في البلاد التي بها استلذُّوا تسرُبل الأوزار، وتجلبُب الآصار، ومَرِحوا في أعنَّة المعاصي وركضوا في ميادين الغيِّ جهلا باستدراج الله، وأمناً لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزِّقوا كل مُمَزّق، فبُعدا للقوم الظالمين، وأدالنا[1] الله من مروان، وقد غرَّه بالله الغرور، وأرسل لعدوِّ الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، أَظَنَّ عدو الله أن لن نقدر عليه؟ فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجدا أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله، وجعل دائرة السَّوءِ به وأحيا شرفنا وعِزَّنا وردَّ إلينا حقَّنا وإرثنا، . . . فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدوَّ الرحمن وخليفة الشيطان، المُتَّبع للسَّفِلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها، الشابَّ المتكهِّل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهُدى ومناهج التُّقى. قال: فعجّ الناس له بالدعاء ثم قال: واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد هذا - وأشار بيده إلى السَّفَّاح - واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نُسلِّمه إلى عيسى ابن مريم عليه السلام والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس وداود حتى دخلا القصر ثم دخل الناس يُبايعون إلى العصر ثم من بعد العصر إلى الليل[2]. وخرج أبو العباس يوم السبت من الكوفة إلى معسكره في «حمام أعين» مع الأمير أبي سلمة وجعل على حجابته عبد الله بن بسام، وجعل على الكوفة وأعمالها عمه داود بن علي[3]، وجهز أبو العباس جيشاً قوامه ثلاثين ألفاً لمواجهة جيش الخليفة مروان بن محمد بقيادة الخليفة نفسه في الموصل، وقد أسند أبو العباس قيادة هذا الجيش لعمه عبد الله بن علي ومعه يزيد بن عيسى بن موسى، فتحرك الجيشان للمواجهة فالتقيا على نهر الزاب الأكبر في معركة حاسمة[4].

سادساً: انتصار العباسيين على الأمويين في معركة الزاب: ١٣٢هـ.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26]. حان وقت زوال ملك بني أمية وساق الله لذلك الأسباب ومنها الانهزام الكبير لجيوشهم في معركة الزاب، فقد تحركت

(1) أدالنا: نصرنا.

(2) البداية والنهاية (13/ 253).

(3) سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، ص: 55.

(4) الجيش في العصر العباسي الأوّل، ص: 55، 56.

جيوش العباسيين لملاقاة جيوش الدولة الأموية التي كان يقودها الخليفة الأموي مروان بن محمد الذي تخندق بين دجلة والزاب الكبير، وكان جيشه مؤلفاً من أهل الشام والجزيرة الفراتية على شكل كتائب منها الصحصحية والراشدية والمحمرة والدوكانية، كما انضم إليه البدو وبعض قبائل الجزيرة. ولقد كانت القوات الأموية والعباسية بنفس العدد تقريباً بين 20000 - 24000 ألف جندي، على أنهم لم يكونوا بنفس الانسجام والقوة المعنوية التي تميز بها جند الدعوة العباسية، وقد عملت العصبية القبلية عملها في جيش مروان الذي كان يتكون في غالبيته من القبائل القيسية[1].

وكانت المعركة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من سنة 132هـ، فقال مروان لأهل الشام: قِفوا لا تبدءوهم بقتال، فخالفه الوليد بن معاوية بن مروان - وهو ختن مروان على ابنته - فحمل فغضب مروان وشتمه فقاتل أهل الميمنة، ونودي في الجيش العباسي: الأرض فنزل الناس وأشرعوا الرِّماح وحثوا على الرُّكب وقاتلوهم، وجعل أهل الشام يتأخّرون، كأنما يُدفعون، وجعل عبد الله بن علي يمشي قدماً وهو يقول: ياربِّ حتى متى نقتل فيك؟ ونادى يا أهل خُراسان، يالثارات إبراهيم يا محمد، يا منصور، واشتد القتال بين الناس جدًّا. فأرسل مروان إلى قضاعة يأمرهم بالنزول فقالوا: قل لبني سليم فلينزلوا. وأرسل إلى السَكاسِكِ أن احملوا. فقالوا: قل لبني عامر فليحملوا، فأرسل إلى السَّكون أن احْمِلوا. فقالوا: قل لغطفان فليحملوا. فقال لصاحب شرطته: أنزل فقال: لا والله لا أجعل نفسي غرضاً. قال: أما والله لأسوءَنك قال: وودت والله أنك قدرت على ذلك[2]. ثم انهزم أهل الشام واتَّبعهم أهل خُراسان في أدبارهم يقتلون ويأسرون، وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قُتل، وقد أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر واستخراج من هلك من الغرقى وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝﴾ [البقرة: 50]. وأقام عبد الله بن علي في موضع المعركة سبعة أيام وقد قال رجل من ولد سعيد بن العاص في مروان وفراره يومئذ:

لج الفرار بمروان فقلت له	عاد الظلوم ظليماً هَمُّه الهَرَبُ
أين الفِرار وترك الملك إذ ذهبت	عنك الهُوين فلا دين ولا حسب
فراشة الحلم فرعون العقاب وإن	تطلب نداه فكلب دونه كلب

واحتاز عبد الله ما كان في معسكر مروان من الأموال والأمتعة والحواصل ولم يجد فيه امرأة سوى جارية كانت لعبد الله بن مروان، وكتب إلى أمير المؤمنين أبي العباس السَّفاح يخبره

(1) الثورة العباسية، ص: 153، تاريخ خليفة، ص: 297.

(2) البداية والنهاية (13/ 256).

بما فتح الله عليه من النّصر، وما حصل لهم من الأموال؛ فصلّى السَّفّاح ركعتين شكراً لله عزّ وجلّ، وأطلق لكلٍّ من حضر الوقعة خمسمائة خمسمائة، ورفع في أرزاقهم وجعل يتلو[1] قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ [البقرة: 249].

كانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة، فقد بدأت دولة جديدة هي دولة بني العباس، وأنهت دولة قديمة هي دولة بني أمية[2]. لقد ارتكب مروان خطأً استراتيجياً كبيراً بعبوره إلى الساحل الأيسر من الزاب الكبير فقد فقد سيطرته وموقعه الحصين، ولذلك خسر المعركة وانسحب باتجاه الموصل التي أغلقت أبوابها فاضطر إلى الانسحاب إلى الشام يتبعه عبد الله ابن علي العباسي، وقد حاول مروان أن يستنجد بالقبائل الشامية في قنسرين وحمص ولكنها لم تستجب له بل على العكس هاجمته لغرض سلب مؤنه وأرزاقه، ولم يستطيع مروان البقاء طويلاً في دمشق حيث انقسم الناس إلى قسمين بين مؤيد للأمويين ومعارض لهم، بل أقسمت بعض القبائل اليمانية يمين الولاء لبني هاشم، فتركها متجهاً نحو فلسطين فمصر[3]، وسيأتي الحديث عن مقتله بإذن الله تعالى. وقد حصد مروان الثاني ثمار سياسته القبلية باعتماده على قيس وأخذه الناس بالشك والشبهة حتى تفرقوا عنه، وقال قولته المشهورة وهو يتراجع باتجاه مصر: انفرجت عني قيس انفراج الرأس، ما تبقى منهم أحداً وذلك أننا وضعنا الأمر في غير موضعه[4]. وأما دمشق فلم تستسلم أول الأمر لعبد الله بن علي واعتصم أهلها وراء أسوار المدينة ولكن عبد الله دعى اليمانيين في المدينة وأغراهم ووعدهم خيراً قائلاً: إنكم وإخوانكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا... فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر[5]. فانضموا إليه ودخل الجيش العباسي مدينة دمشق[6].

1 - حصار واسط ومقتل ابن هبيرة:

أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر لقيادة الحصار المضروب على يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري الذي حصن نفسه في واسط ورفض الاقتراح بالهجوم على الكوفة، كما رفض الالتحاق بمروان الثاني، وكان الحسن بن قحطبة قائداً للجيش الخراساني ولكن الخليفة رأى من الأفضل إرسال عباسي لقيادة الجيش وكتب رسالة إلى الحسن الطائي قائلاً: إن العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً فاسمع له وأطع وأحسن مؤازرته[7]. وكتب إلى أبي نصر مالك بن الهيثم بمثل ذلك، فكان الحسن المدبر لذلك

(1) المصدر نفسه (13/ 256).
(2) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 468.
(3) الثورة العباسية، ص: 154، البداية والنهاية (13/ 257).
(4) الثورة العباسية، ص: 154.
(5) تاريخ الموصل، ص: 124.
(6) الثورة العباسية، ص: 154.
(7) الأخبار الطوال، ص: 340.

العسكر بأمر أبي جعفر[1]. وكان جيش ابن هبيرة كبيراً يتكون من الجند السوري الموجود في العراق ومن أهل خراسان الموالين لبني أمية ومن أهل العراق اليمانيين والقيسيين. على أن ضعفه كان بارزاً يتمثل في العصبية القبلية التي شقته فشلت حركته، ولذلك لم يصمد مع ابن هبيرة على القتال إلا الصعاليك والفتيان، وقد استطاع أبو جعفر أن يكسب اليمانية في واسط بإغرائهم قائلاً: السلطان سلطانكم والدولة دولتكم. فانشق زياد الحارثي مع اليمانية عن ابن هبيرة وجذب معه شيوخاً آخرين، ويظهر أن هؤلاء الشيوخ كانوا قد سئموا الأمويين وأملوا الخير العميم من دولة (أهل البيت) الجديدة[2]. لقد دام الحصار حوالي 11 شهراً ولما يفكر ابن هبيرة بالاستسلام حتى سمع بنبأ نهاية مروان فلم يبق مبرر للمقاومة فجرت محادثات للصلح وأعطى أبو جعفر أماناً لابن هبيرة شاور فيه ابن هبيرة الفقهاء والعلماء أربعين يوماً حتى يرى نقاط الضعف والقوة فيه، ثم وافق عليه، وأرسله إلى أبي جعفر لأخذ موافقة الخليفة عليه وقد أورد ابن أعثم الكوفي نص الأمان. على أن السلطة العباسية لم تكن لتحتمل ذلك القائد والوالي ذا النفوذ القبلي الكبير والذي كان يعامل أبا جعفر وكأنه مساوياً له من حيث المنزلة وكان يحف به في ذهابه وإيابه 800 مقاتل بين فارس وراجل[3].

والواقع فإن أبا جعفر أراد أن يكسبه للدولة الجديدة فكان يقول: عجباً لمن يأمرني بقتل مثل هذا. كما أنه كان يستشيره فيشير إليه قائلاً: إن دولتكم هذه جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها لتسرع محبتكم إلى قلوبهم ويعذب ذكركم على ألسنتهم[4]، على أن الخليفة أمر أبا جعفر بقتله لأسباب سياسية، وتعددت الروايات التاريخية في أسباب قتله فمنهم من يذكر أنه كان بتحريض من أبي مسلم الذي كتب إلى الخليفة: أنه قلّ طريق سهل تلقى فيه حجارة إلا ضرّ ذلك بأهله ولا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة[5] وقد تردد أبو جعفر في قتله وقال: لا أفعل وله في عنقي بيعة وأمان: فأجابه أبو العباس: والله لتقتلنه أو لأبعثن إليك من يخرجه من عندك ويتولى ذلك عنك[6] وواضح أن الخليفة رأى في ابن هبيرة خطراً على الدولة الجديدة ووافقه في ذلك أبو مسلم[7] قال الذهبي في مقتل ابن هبيرة.. فحاصره المنصور مدة ثم خدعه المنصور وآمنه، ونكث فدخلوا عليه داره فقتلوه صبراً وابنه داود ومماليكه وحاجبه،

---

(1) الثورة العباسية، ص: 155، الأخبار الطوال، ص: 340.
(2) الثورة العباسية، ص: 155.
(3) الثورة العباسية، ص: 158، الكامل في التاريخ (3/ 509).
(4) الثورة العباسية، ص: 158.
(5) الكامل في التاريخ (3/ 509).
(6) الكامل في التاريخ (3/ 510).
(7) الثورة العباسية، ص: 158، الكامل في التاريخ (3/ 509).

فسجد لله فنزلوا عليه فهبروه[1]، وكان بطلاً شجاعاً سائساً جواداً، فصيحاً خطيباً[2]، وكان رزقه في السنة ست مائة ألف وكان يفرقها في العلماء والوجوه[3]. وهكذا قضى العباسيون على جيب من الجيوب الأموية في العراق وسقطت مدينة واسط[4].

2 - استسلام البصرة:

اعتصم مسلم بن قتيبة الباهلي بالبصرة ودافع عنها بصفته الوالي الأموي وظل مسلماً فيها حتى علم بمقتل ابن هبيرة، وحينئذ ترك البصرة إلى الحجاز وعين بدله أحد الهاشميين والياً على البصرة حيث استبدله أبو العباس بسفيان المهلبي، وبهذا سيطر العباسيون على البصرة، لقد استطاع العباسيون أن يقضوا على فلول الأمويين ومراكزهم الحصينة في العراق وبلاد الشام وقضوا على آخر خلفائهم مروان الثاني[5].

سابعاً: مقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ١٣٢هـ:

استولى عبد الله بن علي العباسي على الجزيرة والشام وهرب مروان بن محمد إلى مصر، فاتبعته الجيوش العباسية، وعبر مروان النيل فلحقه صالح بن علي عمّ السَّفَّاح، فأدركه بقرية من قرى الفَيُّوم من أرض مصر يقال لها بُوصير[6]، فوافاه صائماً وقد قدّم له الفطور، فسمع الصائح فخرج وسيفه مصلت، فجعل يضرب بسيفه ويتمثل بقول الحجّاج بن حكيم:

متقلِّدين صفائحاً هندية ... يتركن من ضربوا كأن لم يولد
وإذا دعوتهم ليوم كريهة ... وافوك بين مكبر وموحِّد

فقصدته الخيول من كل جانب[7]، وبقي يقاتل حتى قتل وكان من كلامه قبل أن يقتل: إن الجزع لا يزيد في الأجل، وإن الصبر لا ينقص الأجل، وكان يتمثل بهذين البيتين كما جاء في بعض الروايات:

ذلُّ الحياة وهول الممات ... وكلاً أراه وخيماً وبيلا
فإن كان لا بد من ميتة ... فسيري إلى الموت سيراً جميلا[8]

وكان أهله وبناته في كنيسة هناك فأقبل خادمه بالسيف مصلتاً يريد الدخول عليهم، فأُخذ وسئل عن مراده فقال: إن مروان أمرني إذا تيقنت موته أن أضرب رقاب نسائه وبناته فأرادوا قتله، فقال: إن قتلتموني لتفقدن ميراث رسول الله ﷺ - قالوا: فدلنا على ذلك إن كنت

---

(1) سير أعلام النبلاء (6/ 208).
(2) المصدر نفسه (6/ 207).
(3) المصدر نفسه (6/ 208).
(4) الثورة العباسية، ص: 158 الكامل (3/ 510).
(5) المصدر نفسه، ص: 159.
(6) شذرات الذهب (2/ 138).
(7) المصدر نفسه (2/ 139).
(8) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص: 82.

صادقاً، فخرج بهم إلى رمل هناك، فكشفوه فإذا فيه القضيب والبُرد والقَعبُ. . . فأخذوه وكان الذي تولى قتله عامر بن إسماعيل الخُراساني، وهو صاحب مقدمة صالح، ولما قتله دخل بيته، وركب سريره، ودعا بعشائه، وجعل رأس مروان في حجر ابنته، وأقبل يوبخَها، فقالت له: يا عامر، إن دهراً أنزل مروان عن فراشه وأقعدك عليه حتَّى تعشيت عشاءه لقد أبلغ في موعظتك، وعمل في إيقاظك وتنبيهك إن عقلت وفكرت، ثم قالت: واأبتاه واأمير المؤمنيناه، فأخذ عامراً الرُّعب من كلامها، وبلغ ذلك أبا العباس السَّفَّاح، فكتب إلى عامر يوبِّخه ويقول: أما في أدب الله ما يخرجك عن عشاء مروان والجلوس على مهاده[1]. وكان مروان بطلاً شجاعاً، ظالماً، أبيض، ضخم الهامة، ربعة، أشهل العين، كث اللحية أسرع إلى الشيب، ذكره المنصور مرّةً فقال: لله درُّه ما كان أحزمه وأسوسه، وأعفَّه عن الفيء[2]. وكان نقش خاتمه: اذكر الله يا غافل[3]. وقد قيل: إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجَّة سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وقد جاوز الستين[4].

وبموته زال ملك بني أمية، وجميع خلفاء بني أمية من لدن معاوية إلى مروان بن محمد أربعة عشر رجلاً، وكانت مدة خلافة بني أمية مُنذ أن خلص الأمر لمعاوية، وإلى أن قتل مروان بن محمد: إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة[5] أيام - منها خلافة ابن الزبير تسع سنين وعشرون يوماً - ثم تفرقت بنو أمية في البلاد هرباً بأنفسهم وهرب عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس وبايعه أهل الأندلس عام 138هـ[6]. . . لقد انقضت تلك السنون وأهلها، فكأنهم على ميعاد[7] وهكذا انتهت دولة بني أمية في المشرق التي عمّرت في الأرض عقوداً مديدة وأعواماً عديدة، وأقاموا فيها المدن المنيعة، والقصور الرفيعة، ولكن ذهبوا وتركوا كل ذلك، ولقد لحقتهم دول وشعوب وأمم، وإليك هذا التصوير عن تلك النهايات التي فيها الدروس والعبر لمن ألقى السمع وهو شهيد، قال الشاعر أبو العتاهية:

أيـن القـرون المـاضيـة ... تـركـوا المـنـازل خـالـيـة

فـاسـتـبـدلـت بـهـم ديـارهـم ... الـريـاح الـهـاويـة

وتـشـتـت عـنـهـا الـجـمـوع ... وفـارقـتـهـا الـغـاشـيـة

فـإذا مـحـل لـلـوحـوش

درجـوا فـمـا أبـقـت صـروف ... الـدهـر مـنـهـم بـاقـيـة

(1) شذرات الذهب (2/ 139).
(2) المصدر نفسه (2/ 139).
(3) تاريخ القضاعي، ص: 384.
(4) البداية والنهاية (13/ 266).
(5) تاريخ القضاعي، ص: 387.
(6) البداية والنهاية (138/ 330).
(7) المصدر نفسه (13/ 331).

لـــم يــبـــق بــعـــدهـــم إلا الــعـــظـــام الــبـــالـــيـــة[1]

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

المبحث الخامس:

أسباب سقوط الدولة الأموية:

إن أسباب سقوط الدولة الأموية كثيرة، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في الأمور السياسية والمالية، وقد وقع الظلم على الأفراد، وتورط بعض الخلفاء في الترف، وحدث بينهم نزاع عظيم أدى إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم - كما حدث في السنوات الأخيرة من الدولة الأموية - يجلب للأفراد والدولة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم[2]، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: 63].

لقد كان في ابتعاد أواخر خلفاء الدولة الأموية عن تحكيم الشرع آثار على أفراد البيت الأموي والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف والشقاق والخلاف ونزع منهم الأمن وأصبحوا في ضنك من الحياة، إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة أو الأمة الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن انحرافهم وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم والآيات صريحة في ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أيًّا كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[3] قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 53]. والآيات في هذا كثيرة، سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها، فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله وينسون ما عندهم لجهدهم، وذكائهم، وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم نكن نستحق هذه النعم لما مُنحت لنا وفي هؤلاء يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: 44-45]، لقد نسي هؤلاء أن الله يمنح

(1) قصائد الزهد لمحمد أحمد سيد، ص: 55، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي (1/ 170) للصَّلاَّبي.
(2) الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: 520.
(3) في التفسير الإسلامي لتاريخ، نعمان السامرّائي، ص: 88.

خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجدّ فيها قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: 145]. ولكن هناك من يريد الآخرة بحق، ويسعى لذلك فهو الفائز ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: 18-20] وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: 112-113]. ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: 52]. وهناك آيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: 19]. فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسؤولة عما يصدر عنها، ولا يتحمل أحد جريرة غيره[1] ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: 134]. والمهم أن الله تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم، ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب، ولكنه يكون في الطريق وبعد هذا وذلك فإنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد فإن الله خلق النفوس مُلهماً إياها طريق الخير والشر، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7-10] وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]. ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، كما لا تقوم بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر. . ولا تسقط الدولة - أو الحضارة - بضربة واحدة بل بتضافر جملة من العوامل[2]، وهذا ما حدث للدولة الأموية التي زالت من الوجود في المشرق الإسلامي في عام 132هـ وأهم هذه الأسباب في نظري:

---

(1) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص: 47.

(2) في التفسير الإسلامي للتاريخ للسامرائي، ص: 128.

أولاً: الثورة المضادة على حركة عمر بن عبد العزيز الإصلاحية:

أخذت الخلافة الأموية تتراجع عن الغاية التي قامت من أجلها الدولة في الإسلام وهي حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ ورفع لواءه وأعلى شأنه وجعله المهيمن والقيّم على ما سواه وضبط أمور الدولة بالكتاب والسنة ومنهج الخلفاء الراشدين، فجدّد في نظام الحكم، وأصلح الانحرافات التي وقع فيها الخلفاء الأمويون الذين سبقوه، فجدّد معالم الشورى، وأقام العدل، ورد المظالم وبدأ بنفسه وأهل بيته ونزع المظالم من بني أمية ورد الحقوق لأصحابها، وعزل جميع الولاة والحكام الظالمين، ورفع المظالم عن الموالي، وأهل الذمة، وطبق مبدأ المساواة بين الرعية، وفتح مجال الحريات، الفكرية والعقدية، والسياسية، والشخصية والتجارة والكسب، واستوعب قوى المعارضة المختلفة بالحوار والنقاش، وجدّد وظيفة الدولة الدعوية من خلال مشروعه الدعوي الحضاري للأمم وحققت سياسته المنضبطة بالكتاب والسنة وتحكيم الشرع في صغائر الأمور وكبارها نتائج وثمار كثيرة منها: التمكين للدولة وتجديد حيويتها والأمن والاستقرار لها، والنصر والفتح على يديها، والعز والشرف وبركة العيش ورغد الحياة، وضرب عمر بن عبد العزيز مثالاً واضحاً على قدرة الإسلام على العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية، والحضارية وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية، إلا أن الخلفاء الأمويين الذين جاءوا في أعقاب عمر لم يواصلوا السير على الطريق ذاته، ونقضت مع الزمن إجراءات عمر بن عبد العزيز الإصلاحية، وقام فيما يُسمى اليوم بثورة مضادة أودت في نهاية الأمر بمحاولة عمر الإصلاحية التي يمكن لو قيّض لها من يواصل السير على منهجها، أن تحمي الوجود الأموي نفسه من الدمار، فها هم خلفاء بني أمية المتأخرون يعودون إلى ممارسة الأخطاء الكبيرة نفسها في مجالات السياسة والإدارة والاجتماع، وبشكل أكثر حدة وعنف من ذي قبل، كما مر بنا، فكان أن تحققت الدعوة العباسية السرية الدقيقة لكي تعلن عن ثورتها، وتقضي على ذلك البناء الشامخ، الذي عاش ما يقرب قرناً من الزمان[1] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

ثانياً: الظلم:

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة، يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له، أي الذي قدره الله بموجب سننه العامة التي وضعها لآجال الأمم،

(1) في التأصيل الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين، ص: 63.

بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[1]، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: 34] قال الألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم[2]، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[3]: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: 100-102]. إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصراً بأولئك الظلمة السابقين؛ لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: 102]. فيبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلابد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذر من خطورة الظلم.

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيها بينهم[4]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾ [هود: 117] قال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد[5]، وفي تفسير القرطبي رحمه الله قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[6]. قال ابن تيمية رحمه الله في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنوع الإثم أكثر

---

(1) السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص: 121.
(2) تفسير الألوسي (8/ 112).
(3) السنن الإلهية، ص: 121.
(4) السنن الإلهية، ص: 121.
(5) تفسير الرازي (18/ 16).
(6) تفسير القرطبي (9/ 114).

مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم، بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة[1]. ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الأمويين، فقد سفكوا الدماء بغير حق، وقتلوا بعض صالحي الأمة كالإمام الشهيد الحسين بن علي ﷺ، وهتكوا حرمة المدينة واستباحوها في معركة الحرّة، وحاصروا الكعبة وقتلوا الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير، وسفكوا دم العالم الجليل سعيد بن جبير، وقضوا بعنف على ثورة زيد بن علي في ظروف وأوقات مختلفة، ولم يلتزم بعض زعمائهم بالعهود كعبد الملك في قتله لعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق والذي ترك قتله أثراً كبيراً على الدولة الأموية في عهد عبد الملك[2]. وغير ذلك من الشخصيات المهمة التي سفكت دماؤها بدون وجه حق، هذه مظالم في الأنفس، وأما الأموال، فقد فرضوا زيادات في بعض الضرائب المقررة وأنشأوا ضرائب جديدة لم تكن معروفة، ومالوا لأهل الشام فأكرموهم من أموال الأمة بزيادة الهبات المالية والرواتب الكبيرة جزاء تأييدهم المتواصل للحكم الأموي، واستخدموا أموال بيت المال لتأليف القلوب عليهم ثم الدعاية لأنفسهم طول الوقت، وكانوا كرماء مع الشعراء، الذين تكسبوا بالشعر عن طريق الإسراف في مدحهم وخصوصاً في عهد عبد الملك، واستولوا على حق الأمة في اختيار من تشاء في الحكم وجعلوه ملكاً وراثياً قاتلوا عليه بحد السيوف، وقد استغل أعداء الدولة الأموية هذه المظالم وأسرفوا في الدعاية ضدها، ووجدوا الكثير من نقاط الضعف للهجوم عليها[3]، لقد ساهمت المظالم الأموية في تقوية الدّعاية للحركات المضادة لهم، ثم تبلورت مع الزمن حتى جاءت الدعوة العباسية وأزالت الأمويين من الوجود بسبب مظالمهم المالية والسياسية والاجتماعية، ومضت سنة الله فيهم.

ثالثاً: الترف والانغماس في الشهوات:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: 116].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن

(1) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، ص: 40.

(2) بنو أمية بين السقوط والانتحار، ص: 73، 84.

(3) دولة الأمويين، د. علي حبيبة، ص: 134 إلى 136.

المنكرات، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والإنغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[1]، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: 11-13] ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]. وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أي: متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال وما وقع من سوئهم، إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[2].

ويقال: إن أمر بني أمية ما زال مستقيماً حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فآثروا الشهوات، وأقبلوا على اللذات والدخول في المعاصي والتعرض لسخط الله، فسلبهم الله العز وسلبهم النعمة، ولما هرب أحد أمرائهم إلى أرض النوبة، سمع به ملك النوبة فجاءه وقعد على الأرض، ولم يقعد على فراشه، فقال له: ألا تقعد على فراشنا؟ فقال له النوبي: لا، فقال له: ولم؟ قال: لأني ملك، وحق على كل ملك أن يتواضع لأمر الله سبحانه إذ رفعه، ثم قال له: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم؟ ولم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ ولم تستعملون الذهب والفضة، وتلبسون الحرير والديباج، وهو محرم عليكم؟ فقال له: انتصرنا بقوم من الأعاجم حين قل أنصارنا، ولنا عبيد وأتباع فعملوا ذلك على كره منا، فأطرق النوبي ملياً، ثم قال: ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم العز بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها وأخاف أن يصيبكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاث فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي[3]، ومن خلفاء بني أمية الذين ظهر فيهم الترف والميل إلى الدعة والاهتمام بالغواني: يزيد بن عبد الملك، والوليد بن يزيد، وقد سئل أحد أمراء بني أمية عن سبب زوال ملككم فقال: شُغلنا بلذّاتنا عن التفرغ لمهمّاتنا[4]....

(1) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص: 186.
(2) تفسير الألوسي (15/ 42).
(3) الشهب اللامعة، ص: 622.
(4) المحاسن والمساوئ، ص: 155، ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 118.

رابعاً: تعطيل الخيار الشورى:

ضرب الأمويون نظام الشورى في الحكم، ذلك النظام القائم على حرية الانتخاب وحرية المعارضة، والذي كانت القيادة الراشدة نفذته التزاماً بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال، ولقد ولّدت خطوة الأمويين هذه التي أقدم عليها معاوية في أخريات خلافته الكثير من ردود الأفعال، وبالتالي في حركات المعارضة، السلمية والمسلحة، والتي استنزفت في جسد الأمة الإسلامية طيلة العقود التالية الكثير من العناء والدماء، بل إن بعضها تحول إلى تجمع مذهبي وصل حد الانغلاق في عدائه مع خصومه، وأصبح على استعداد لتقبل عناصر غريبة شاذة، لم يقل بها الإسلام يوماً أو يدعو إليها.. إن الفعل الخاطئ يولد رد فعل خاطئ يساويه في القوة ويخالفه في الاتجاه، وهذا الذي حدث فعلاً عبر عديد من حركات المعارضة الدموية والتمزقات السياسية العنيفة التي شاهدها هذا العصر[1].

خامساً: نظام ولاية العهد:

أوجد البغض والكراهية ليس لدى جماهير المسلمين فحسب، بل لدى أهل البيت الأموي نفسه، ففضلاً عن أن الفكرة شغلت معاوية، كما شغله تنفيذها إلا أنها جلبت على الخلافة الأموية كلها المشاكل التي أسهمت في كراهية الناس لها، وسعيهم في القضاء عليها، وأسهمت في خلق التفكك وإضعاف التضامن في البيت الأموي[2].

يقول الشيخ محمد خضري بك: كانت ولاية العهد سبباً كبيراً في انشقاق البيت الأموي، وذلك أن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر. وأول من فعل ذلك مروان، فإنه أزاح خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد، ثم ولي عهده عبد الملك ثم عبد العزيز وكذلك عبد الملك حيث كاد أن يشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده إلى ابنه الوليد وعزل أخيه، لولا أن ساعده القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة ولكنه هو الذي رأى ذلك وعلمه، ولم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان، وخطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولي ابنه، فعاجله القضاء وأخر الأمر إلى حين، ولم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد، فخيف منه فعوجل حتى قيل إنه سم، وأعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاماً أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد، وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه، ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في إشادة بيتهم، ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته، فكان ذلك نذير الخراب، فإن

(1) في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص: 60. (2) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية، ص: 264.

البيت انشق وتجزأت القوى التي كان يستند عليها، فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق، فأخمدت منهم الأنفس وجعلتهم أثراً بعد عين[1]. إن نظام ولاية العهد على النحو الذي أحدثه معاوية رضي الله عنه والطريقة التي طوّر بها الأمويون هذا النظام، جعلت ضرره أكثر من نفعه، ويكفي لبيان ذلك الإشارة للآتي:

1 - شجع العصبية ودعمها، وقد نهى عنها الإسلام.

2 - إن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة والأقرب نسباً وقوة العصبية على عملية التولية بصفة عامة وقد أدى ذلك إلى الآتي:

أ - تقييد حق الأمة في اختيار الخليفة بحصره في أسرة معينة.

ب - تقييد مبدأ الشورى بحصره في أهل عصبية وشوكة الأسرة الحاكمة.

ج - دفعة المفضول إلى تولي الخلافة مع وجود الأفضل، بل وبمن افتقد بعض شروط الخلافة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط وفقاً لما سلف ذكره.

د - وضع الخلفاء موضع تهمة وشبهة، كما أثار الشك - عند بعض الناس - حول مشروعية البيعة بولاية العهد، والبيعة بالخلافة.

3 - أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين الأسر القرشية، وأيضاً بين أفراد البيت الحاكم، وذلك مما أدى في النهاية إلى ضمور قوتهم وزوال شوكتهم[2].

سادساً: الثورات ضد النظام الأموي:

1 - ثورة الحسين بن علي رضي الله عنه :

كانت ثورة الحسين بن علي رضي الله عنه ضد يزيد بن معاوية من أخطر الثورات ضد الأمويين، لا لأنه كان يقود جيشاً كبيراً يستطيع مع الأمل والرجاء أن يحطم كيان تلك الدولة، وإنما لأنه كان يمثل ضمير الأمة الراغبة في الاستمساك بحقها في منح السلطة لمن يستحقها من رجالها، ثم إن استشهاد الحسين رضي الله عنه كان عامل شحن عاطفي قوي ضد الأمويين أدت إلى حدوث الثورات الأخرى التي واجهها الأمويون باسم حركة التوابين مرة، وباسم حركة المختار الثقفي مرة أخرى، وكانت في النهاية إحدى المآسي التي حركت كوامن الغضب عند معارضي الدولة الأموية، وقد استغلتها الدعاية العباسية في ضم الأنصار وترتيب صفوف الحركة، وإذا كان صحيحاً أن الدولة الأموية فقدت وجودها بعد أن فقدت مقومات حياتها - ومنها القوة والوحدة السياسية المعارضة للأمويين - كان لها دورها الكبير في تحطيم دولتهم، فإن ثورة الحسين تقف من ضمن المعالم البارزة التي أسهمت طول الزمن في القضاء على الأمويين ودولتهم[3].

---

(1) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية، ص: 264.

(2) نظام الحكم في الإسلام، ص: 307.

(3) دولة الأمويين، د. علي حبيبه، ص: 156.

2 - ثورة زيد بن علي بن الحسين:

خلفت ثورة زيد وراءها أحداثاً ساهمت إلى زوال الخلافة الأموية، فالدعوة العباسية نالت بموت زيد أكبر تعضيد إذ زال من طريقها منافس قوي وخصم شجاع، كما أن الشيعة فقدوا بمقتل زيد قوتهم فأتاح ذلك الفرصة لانتصار الدعوة[1] العباسية، فقد استفادت الدعاية العباسية من توظيف مقتل زيد وابنه يحي في حشد الأنصار ضد الأمويين.

3 - الخوارج:

لم يعترف الخوارج بخلافة معاوية وخلفاء بني أمية، فبحسب معتقدهم لا يثبتون إلا خلافة أبي بكر وعمر وشطراً من خلافة عثمان وخلافة علي قبل أن يحكم[2]، لذا واصلوا حروبهم وهجماتهم لتغيير المنكر - حسب معتقدهم - بإزالة الحكم الأموي وإقامة الخلافة الشرعية من منظورهم، وقد اتسعت دائرة الخوارج في الدولة الأموية مع مرور الوقت، لا سيما في خراسان والجزيرة الفراتية، كما كان لهم ظهور في اليمن ومصر ونجد، وفي أواخر الدولة الأموية أصبح لهم شأن في شمال إفريقية، ورغم الجهود وكثرة المعارك التي خاضها ولاة بني أمية وقوادهم ضد الخوارج لم يستطيعوا القضاء على حركتهم، إذ استمرت حركات الخوارج بعد سقوط الدولة الأموية، كما لم يستطع الخوارج - على الرغم من استمرار ثورتهم ضد الدولة الأموية وتعدد فرقهم وميادينهم - أن يقضوا على الخلافة الأموية، ولكنهم استطاعوا أن يلحقوا بها خسائر كبيرة، ويصبحوا مصدر قلق لخلفائها وولاتها طول الحكم الأموي، لذا فهم من أبرز عوامل الضعف التي أسهمت بقدر كبير في سقوط الدولة الأموية[3]، وهم لم يستفيدوا شيئاً رغم تضحياتهم الكبيرة، فقد لعبوا دوراً كبيراً في إضعاف مروان بن محمد وانشغاله بثوراتهم الكثيرة والعنيفة وهذا ساعد العباسيون في استغلال هذا العامل لتحقيق مشروعهم الكبير.

وقد كانت الثورات في العهد الأموي كثيرة قد مرّ ذكرها، وكل الثورات السابقة ساهمت في إضعاف الدولة الأموية وإنهاكها ثم زوالها، وكان عنف الولاة وقسوتهم في القضاء على الثورات، والفتك بالأحزاب المناوئة للخلافة سبباً مباشراً في اشتداد الخوارج في العنف والتطرف أكثر من ذي قبل، وفي تحول المعارضة للعمل السري المنظم والاستفادة من الأخطاء السابقة، هذا فضلاً عن أن الاضطهاد الذي تعرض له الموالي، واستنكار حقوقهم أدى إلى الانضمام إلى أية ثورة مناهضة للحكم الأموي[4]. وقد ساهمت سياسة الأمويين مع

---

(1) تاريخ العراق تحت الحكم الأموي، ص: 220، 221.

(2) الخوارج، ناصر العقل، ص: 34.

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 444.

(4) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية، ص: 265.

الخوارج باستمرارية حركتهم لبعدهم عن منهج عمر بن عبد العزيز القائم على نشر العدل في الرعية والحوار معهم.

سابعاً: العصبية:

مارس العديد من خلفاء بني أمية الخطيئة القاتلة، حيث أشعلوا نار العصبية القبلية وزادوا إضرامها بالتزام هذا الجانب القبلي أو ذاك، الأمر الذي فتت قاعدتهم في بلاد الشام نفسها وشطرها شطرين، أحدهما قيسي ينتمي إلى عرب الشمال، والآخر يمني ينتمي إلى عرب الجنوب، وقد سعى معاوية المؤسس مُنذ البدء إلى تلافي هذه المعضلة ونجح في ذلك إلى حد كبير، ولكن أعقابه - وبخاصة السلالة المروانية التي تسلمت السلطة عام 64 هـ على يد مروان بن الحكم في أعقاب تلك المعركة القبلية العنيفة بين اليمانيين والقيسيين، والتي عرفت باسم مرج راهط، هذه الأسرة، مارس معظم خلفائها سياسة قبلية واضحة أخذت تتصاعد يوماً بعد يوم، وامتدت تأثيراتها إلى كافة الأقاليم وإلى سائر مساحات الحياة الإدارية والسياسية والاقتصادية، فكانت أحد العوامل الخطيرة في تدمير الوجود الأموي في نهاية الأمر.

ومنُذ وفاة هشام بن عبد الملك عام (125هـ) وحتى سقوط الدولة الأموية عام (132هـ) أخذت الأفعال وردود الأفعال القبلية تتصاعد وتزداد استشراء، وكانت من بين الثغرات العديدة التي نفذت منها الدعوة العباسية لتحقيق أهدافها، انحاز الوليد بن يزيد بن عبد الملك (125هـ - 126هـ) إلى القيسية، وشدّد الخناق على اليمانية فثاروا عليه وحرضوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه وتمكنوا أخيراً من قتله وتحقيق هدفهم بمبايعة يزيد بن الوليد الذي ما لبث أن وجد نفسه مضطراً لإخماد فتنة القيسية في أماكن متعددة من الشام وفلسطين، كما اعتقل عدداً من قادتهم، فلما توفي في هذا العام نفسه تولى الخلافة من بعده أخوه إبراهيم، إلّا أن هذا لم يلبث في الحكم سوى أشهر معدودات إذ تحرك ضده مروان بن محمد بأنصاره القيسيين وتمكن من هزيمة قواته من اليمانيين قريباً من دمشق، الأمر الذي دفعهم إلى سلسلة من الأعمال الانتقامية ضد القيسيين في دمشق، لكن مروان ما لبث أن دخل دمشق وأخمد فتنتها، لكنه لم يأمن على نفسه الإقامة فيها لكثرة اليمانية فانتقل إلى حرّان[1]، إلا أن انتصار مروان لم يحسم معضلة الصراع بين القيسية واليمانية، بل زادها اشتعالاً، وما لبث نارها أن امتدت إلى كافة أنحاء الدولة، فثارت اليمانية في حمص والغوطة وفلسطين، وتمكن مروان من إخماد هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى لكن بعد أن كلّفه ذلك غالياً. كما انتشرت الصراعات القبليّة في المغرب والأندلس، أما العراق فقد شهد الصراع نفسه بين الجماعتين لولا أن جدّ من استشرائه تفاقم أمر عدو مشترك هو الخوارج، وأما في خراسان فقد

---

(1) في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص: 60، 61.

استفحل الأمر بين الطرفين، وبلغ نقطة اللاعودة رغم بعض المحاولات التي سعت لوقف الانهيار وقد استمر هذا الصراع سنين عديدة، خندق كل من الطرفين إزاء الآخر دون أن يتمكن أحدهما من أن يطوي الآخر، الأمر الذي مكّن للدعوة العباسية من أن تثبّت نفوذها هناك وتتحفز للانقضاض على الخلافة الأموية، وقد بقي أبو مسلم الخراساني شهوراً لا يجرؤ على الاستيلاء على مرو قاعدة خراسان، لكنه أخذ يحتل المواقع المحيطة بها مستغلاً الصراع بين اليمنيين والقيسيين، وحاول نصر بن سيار مرة أخرى تحقيق الوفاق بين الطرفين دون جدوى، بينما كان أبو مسلم يذكي العداء بين نصر والكرماني، ونزل في خندق ثالث بين خندقيهما، واستطاع أبو مسلم من تحقيق هدفه المرتجى ودخل مرو سنة 130هـ، وكان ذلك البداية الحقيقية لنجاح الدعوة العباسية وانهيار الأمويين[1].

إن الإسلام يحرم العصبية التي تؤدي إلى التناحر والصراع وتتحكم في الأفراد والجماعات والأمم وتدفعهم إلى نحو القتال بدون وجه حق، فالعصبية مصادمة لنصوص القرآن الداعية إلى الوحدة والائتلاف[2] قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: 105].

وقال ﷺ: **«ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»**[3]. ودعوى الجاهلية ندب الميت، وتكون دعوى الجاهلية في العصبية[4].

إن قصة الدولة الأموية تملك دلالتها المعاصرة، فحين تكون الدولة حكراً على فئة معينة من مجتمعها فإنها تضع أساس عدم استقرارها السياسي وتهديد هويتها الفكرية وانقسام قاعدتها الاجتماعية والسياسية ثم زوالها[5].

ثامناً: الموالي:

إن القارئ للتاريخ الإسلامي سوف يلحظ أن الموالي كان لهم دورهم السياسي والعلمي في الدولة الأموية، فقد قاموا بأعمال الفتوحات الواسعة كقادة الجيش، كما قاموا بأعمال التنظيم الإداري كالقيام على أمر الدواوين وتعريبها، ثم كعلماء بزوا العرب في ذلك، ويمكن القول أن الموالي كانوا على ثلاث طبقات:

---

(1) في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص: 62.
(2) العصبية في ضوء الإسلام، ص: 31.
(3) البخاري رقم (1294).
(4) اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم (1/ 233).
(5) الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية، ص: 161.

1 - الطبقة الأولى:

موالي للعرب إما أعتقوا أو عقدوا حلفاً مع بعض القبائل العربية ذات النفوذ السياسي - أي تنتمي إلى قاعدة العصبية التي قامت عليها الدولة الأموية - وهؤلاء كانوا رِدئاً للدولة في القيام بكثير من الأعمال. ويحدثنا الجهشياري في كتابه «الوزراء والكتاب» أن «سرجون بن منصور» الرومي كان يكتب لمعاوية على ديوان الخراج، ويكتب لزياد مولاه مرداس، وعلى الخراج زاذان فروخ وكان ذلك في أيام معاوية بن يزيد بن معاوية، ويكتب على الديوان «سرجون بن منصور» النصراني - أي غير المسلم. ويكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل «أبو الزعيزعة» مولاه، وعلى ديوان الخاتم للوليد بن عبد الملك «شعيب الصابي» مولاه، ويكتب له على المستغلات بدمشق «يفيع بن ذؤيب» مولاه[1] وكان كبار الفاتحين المسلمين أمثال «طارق بن زياد» مولى من البربر، وكان عامة جيشه الذي فتح الأندلس من الموالي[2].

ومن الموالي الذين وصلوا الإمارة: موسى بن نصير وكان والده من سبي عين التمر[3]، وولي أبو المهاجر دينار مولى الأنصار إفريقيا 47هـ، وتولى يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ولاية إفريقية أيضاً، وكان من الموالي، ولما قتل ولوا محمد بن يزيد مولى الأنصار سنة 102هـ[4] وغيرهم، ولم يكن الموالي مجرد موظفين ولكن كان لهم دور سياسي كبير في توجيه الأمور، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتاب التاريخ من وجود دور للموالي في الأعمال السياسية أو القتالية أو الإدارية، وبالتالي فإن هؤلاء الموالي كانوا جزءاً حقيقياً من الطبقة الحاكمة بلا فرق بينهم وبين مواليهم، فكل طبقة حاكمة تنحى منحى عصبوياً، فإنها تكون بحاجة إلى توسيع قاعدة عصبيتها ليقوموا على الأعمال الهائلة والممتدة المنوطة بالدولة، وكان الموالي هم الطبقة التي اصطنعتها الدولة الأموية لتواجه المهام التي ينبغي للدولة أن تؤديها، خاصة وأن الموالي كانت لديهم قدرة كبيرة في الأعمال الإدارية والسياسية، والقتالية، لكن الذين اصطفتهم الدولة من الموالي لتوسيع قاعدة النخبة الحاكمة كانوا جزءاً ضئيلاً من فيضان الموالي الذين دخلوا الإسلام، وبالتالي فهؤلاء الطبقة من الموالي كانوا قليلين لو قورنوا بالأعداد الهائلة للموالي التي دخلت الإسلام والتي مثلت عبئاً على الدولة الأموية[5].

2 - الطبقة الثانية:

من الموالي: وهم العلماء الذين انخرطوا في طلب العلم واستطاعوا أن يحفظوا للأمة الإسلامية تراثها الفقهي والأدبي والحديثي وكل فروع العلم، ففي المدينة على سبيل المثال

---

(1) الوزراء والكتاب، نقلاً عن الأقليات والسياسة، ص: 151.
(2) الأقليات والسياسة، ص: 152.
(3) أثر أهل الكتاب في الحروب الأهلية، ص: 450.
(4) المصدر نفسه، ص: 450.
(5) الأقليات والسياسة، ص: 153.

كان من سادة العلماء فيها: «سلمان بن بشار» مولى ميمونة بنت الحارث توفي سنة 103هـ، ونافع مولى عمر، وربيعة الرأي وهو من شيوخ الإمام مالك، وفي مكة: مجاهد بن جبر، مولى قيس المخزومي توفي سنة 102هـ، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، وفي البصرة: الحسن البصري، وأبوه مولى زيد بن ثابت، وفي الشام: مكحول توفي سنة 118هـ وفي مصر: يزيد بن حبيب «بربري» وهو شيخ الليث بن سعد، وغيرهم كثير[1].

3 - الطبقات الثالثة من الموالي:

وهؤلاء هم عامة الموالي، وهؤلاء تحولوا إلى الإسلام بدون أن يعقدوا مع إحدى القبائل العربية عقد موالاة، فبقي ولاؤهم للأمة كلها أي ينتسبون للأمة دون أن يكون هناك مؤسسة اجتماعية يمكن أن تحميهم أو تهيئ لهم الارتقاء في المؤسسات السياسية، كما قد يكون هؤلاء موالي لبعض القوى الاجتماعية التي تتحيز الدولة ضدها، كأن يكونوا موالي القيسية بينما قاعدة الدولة العصبوية تعتمد على اليمانية، وهنا فإن الموالي يعاملون كما تعاملهم قبائلهم. . .

وبينما نعم العلماء بالاحترام فإن الطبقة الأولى من الموالي قد تعرضت لتقلبات السياسة بينما تعرضت الطبقة الأخيرة للمعاملة التمييزية التي تصل إلى حد الامتهان، وقد أدت العصبية العربية ضد الموالي إلى رد فعل لديهم يؤكد ذاتهم في مواجهة تعصب العرب لبني جنسهم[2]. وقد اتبع الموالي في خراسان الدعوة العباسية للتخلص من التميز الاجتماعي والسياسي الذي مارسته ضدهم الدولة الأموية[3].

وفي الحقيقة لم تكن هناك سياسات عامة للدولة الأموية لاضطهادهم أو التعصب ضدهم ولم يكن هناك مجال من مجالات العمل موصد أمامهم، فقد رأينا الأمراء وقادة الجيوش والعلماء من الموالي، والحق أن هذه النظرة المتعالية إلى الموالي، لم تكن نظرة كل العرب بل كانت نظرة بعض البدو الذين لم يفهموا الإسلام فهماً حقيقياً، وربما كانت نظرة بعض الولاة، الذين كان يستفزهم عداء الموالي للدولة الأموية فصدر منهم ظلم وجور للموالي وللعرب من أعداء الدولة، ومن الظلم أن يحمل ذلك على أنه السياسة العامة للدولة الأموية[4]، وكما كان في الموالي من ارتفع به إيمانه فوق العصبية والعنجهية القومية، فقد كان الكثير من العرب من فهم الإسلام جيداً، وآمن بأنه يسوى بين جميع المسلمين، من عرب وعجم، وأيقن أن الرجل يشرف بدينه وعمله وخلقه، وليس بجنسه وعرقه، فأكرم الناس عند الله أتقاهم، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فالحسن البصري - وهو مولى - كانت له منزلة كبيرة عند العرب وكلمة مسموعة حتى عند الدولة، بل كان ينتقد علانية خلفاء بني أمية

---

(1) الأقليات والسياسة، ص: 153.
(2) المصدر نفسه، ص: 154.
(3) المصدر نفسه، ص: 154.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموية، ص: 432.

وولاتهم، ويوم مات تبع الناس كلهم جنازته، حتى لم يبق في المسجد من يصلي العصر[1]، وعلى كثرة من قتل الحجاج بن يوسف الثقفي من العرب والموالي في الثورات والفتن العديدة التي شهدتها ولايته على العراق، لم يشتد استنكار الناس عليه في قتل أحد، كما اشتد عليه في قتله سعيد بن جبير وهو مولى، وذلك لمكانة سعيد عند الناس، مع أنه خرج ثائراً على الدولة مع ابن الأشعث[2].

إن الفكرة الشائعة عن بني أمية والتي أذاعها فون كريمر، وفان فلوتن، وبروان، ورددها كما هي جرجي زيدان وفيليب حتي ونقلها بعض المؤرخين المحدثين مثل حسن إبراهيم حسن، وعلي حسين الخربوطلي، وغيرهم وهي أن بني أمية كانوا متعصبين ضد الموالي وأنهم استغلوهم واضطهدوهم واحتقروهم، وأنه كان من نتائج ذلك سخط الموالي الذي تولد عنه سقوط الدولة الأموية[3]، وهذا ليس على إطلاقه، فقد تبين أن هناك مجموعات من الموالي مع الأمويين وإنما كانت أعداد كبيرة من الموالي مثلهم مثل بقية العرب المعارضين للحكم الأموي، استطاعت الدعوة العباسية أن توظف هذه الشريحة من المجتمع الإسلامي وتقنعها بمبادائها وأهدافها فانضوت تحت لواء الدعوة العباسية وساهمت في القضاء على الدولة الأموية، فقد استغلت الدعوة العباسية كل الظروف واستفادت من جميع العناصر الناقمة على الدولة الأموية.

تاسعاً: فشل الأمويين في إيجاد تيار حضاري:

كان عمر بن عبد العزيز قد حاول - بإيمان صادق، وذكاء متميز سبقه إليه جده عمر بن الخطاب - أن يوقف هذا الامتداد في الأرض حتى يواكبه امتداد في الدعوة، بحيث لا تطغى الأرض على الحضارة، ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم مبادئ الدين، فقد عمل على إيجاد تيار حضاري عقدي يملأ أركان الحياة، ومهما يكن من أمر فإن الدولة الأموية - في عمومها - لم تستوعب قانون الامتداد الحضاري، فبعد الامتداد (بالفتوحات) كان عليها أن تمتد «بالدعوة» وإلا فقدت بالداخل للبقاء والتقدم[4]. وفي عصري الانطلاق والازدهار أيام معاوية وعبد الملك والوليد وحتى هشام كان بريق الامتداد يبهر الأبصار ويوجه الطاقات ويقدم تبريرات البقاء، فلما أوشك هذان العصران على الانتهاء،

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 587).

(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 433.

(3) الإدارة في العصر الأموي، ص: 341، الشيعة والإسرائيليات، تاريخ العرب مطول، فليب حتي، تاريخ الإسلامي السياسي.

(4) بنو أمية بين السقوط والانتحار، ص: 81، 82، 83.

كان لا بد للأمويين من تبريرات جديدة يعيشون عليها وتندفع الجماهير خلفهم تحت رايتها، وافتقد أواخر العهد الأموي وجود أمثال عبد الملك والوليد من بناة الدول وصانعي الفتوحات العظيمة، ومن أمثال رجال الإصلاح والتجديد من رجال الدعوة والعدل الشامل وتقديم نموذج الدولة الراشدة لبقية الإنسانية، فبدلاً من هذا، قدم الأمويون رجالاً من طراز الوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد[1] الذين لم يستطيعوا أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم، لقد فشل خلفاء بني أمية المتأخرون في إيجاد تيار حضاري بعد أن اتسعت رقعة الأرض التي يقومون فوقها، ولم يستطيعوا تحويل المناوئين لهم إلى عاملين معهم في مجال الدعوة ونشر الإسلام ودعوة الأمم وتعليمها وتربيتها على الإسلام الصحيح وتعليم الشعوب دين الله سواء باللغة العربية، وبترجمة حقيقة الإسلام للغات الشعوب المسلمة فقد كان المطلوب منهم تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالة عظمى، لم يتقدم فيها الأمويون كما تقتضي الظروف والتحديات، وكما تقتضي الملائمة للتحدي وهذا هو الخطأ الحضاري الكبير[2]، فحقيقة الأمر أنهم لم ينبعثوا بتيار حضاري يتمم تيارات الفتوحات ويكمله، ويمتص كل حركات الخروج والفتن، فهكذا التاريخ الحضاري دائماً إما أن تتقدم أو تموت ولا سكون في تاريخ الإنسانية[3].

عاشراً: النزاع الداخلي بين الأسرة الحاكمة:

إن سنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم وزوال الدول الاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**» وفي رواية: «**فأهلكوا**»[4]. وعند ابن حبان عن ابن مسعود ﷺ: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**»[5]. إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة الأموية وهلاكها واندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأموي أسبابه منها: الوازع الديني عند بعض أمراء الأمويين، والأنانية وحب الذات، والتكالب على المصالح الدنيوية، والتناحر من أجلها، والحرص على السلطان والجاه والمناصب، وتحكيم بعض الخلفاء أهواءهم في الأمور، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي

(1) بنو أمية بين السقوط والانتحار، ص: 84.
(2) المصدر نفسه، ص: 96، 97.
(3) المصدر نفسه، ص: 98.
(4) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9/ 101، 102).
(5) المصدر نفسه (9/ 102).

وقعت بين أفراد البيت الأموي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها كما يؤدي إلى قسمتها ثم اضمحلالها[1]. لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الأموية مع تولي الوليد بن يزيد الخلافة، وخرجت بذلك من أبناء عبد الملك إلى أحفاده، فكان ذلك مما أثار الحسد بين أحفاد عبد الملك، وكان أكثرهم نخساً أبناء الوليد بن عبد الملك، فكان للوليد بن عبد الملك تسعة عشر ولداً، ذكراً وكان عمر بن الوليد يركب ويركب معه سبعون رجلاً لصلبه، ولذلك كان آل الوليد يكاثرون بعددهم بني مروان وكانوا يدلون بأبيهم أكبر أولاد عبد الملك[2]، فلما قام الوليد بن يزيد بالخلافة استعان بإخوانه وببعض بني عبد الملك بن مروان وببعض بني مروان في أمور وولايات الدولة، ولم يستعمل أحداً من آل الوليد بن عبد الملك وجفاهم واشتد عليهم وعلى بعض بني عمه، ثم جعل الخلافة من بعده في ولديه الحكم وعثمان، فقام آل الوليد بن عبد الملك بالعمل ضده، وكان رأسهم في هذا الوجه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ولما بلغ جمع يزيد عسكر الوليد دعوهم إلى الكتاب والسنة وجعل الأمر شورى، وأخذوا يستميلونهم بالمال والولايات وضعف أمر الوليد وقتل، وكان قيام يزيد بقتل ابن عمه الوليد وجلوسه مجلسه في الخلافة قد وضع سلطان بني أمية في قفص الاتهام، ورفع عنه أستار المهابة ودفع به إلى السقوط، وهو ما كان بنو مروان يخشونه، فقد حذر العباس بن الوليد أخاه يزيد فقد كان مصيباً في تحذيره، وقال له: أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا أراد أن يغري بيننا وتمثل مرة قائلاً:

لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم   إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم   فثم لا حسرة تغني ولا جزع[3]

وصار لسان حالهم:

وساد الناقص القَدري فينا   وألقى الحرب بين بني أبينا[4]

وبعد أن كانت الخلافة تؤخذ بعهد من الخليفة القائم، وبيعة الأمة أخذت هذه المرة بالقوة وتحركت في مروان بن محمد أمير الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان وقائد جيوش ثغورها أحاسيس الملك والسلطان وصار يرنوا بنظره إلى دمشق[5].

---

(1) العبر (1/ 517) الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، ص: 118.
(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 407.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 408.
(4) دراسة في تاريخ خلفاء الأمويين، ص: 409.
(5) المصدر نفسه، ص: 409.

إن مقتل الوليد بن يزيد كان نقطة البدء في تحدي فكرة الشرعية الأموية ومسماراً ضخماً في نعش الخلافة كمنصب له قدسيته وهيبته، وقد تناولت هذه الفتنة الأسس المكينة التي اعتمد عليها الحكم الأموي بشكل عام، إذ كان القائمون عليها من أهل الشام أولاً، ومن الأمويين ثانياً، وكلا العنصرين أساس في تثبيت السلطان الأموي[1]: إن هذا التمزق الداخلي هو أخطر ما أصاب بني أمية.. إن العصبية التي كانت تحفظ تماسك بني أمية - في وجه العصبيات الصغيرة والعواصف العامة - قد انشقت، وفقدت قوتها الذاتية[2]. وهكذا بدأت مسيرة الدم داخل البيت الأموي وفقدت الأمة إجلالها لهذا البيت المتآكل المتداعي، وكان عهد مروان بن محمد عهد اضطراب داخلي[3]. لقد أقدم الأمويون على عمل خطير، فهم قد انتحروا عندما تقاتلوا فيما بينهم وتبادلوا مواقع الموت.. وفي سبع سنوات كانوا قد أجهزوا على أنفسهم.. وقضوا على أسرتهم التي حملوا رايتها[4]. ووافق هذا الخلاف والنزاع بين البيت الأموي تنظيم عباسي محكم يخطط للوصول إلى الحكم وينتظر الفرصة المناسبة لذلك، حتى إذا ما حصلت استغل هذا الخلاف مما ساهم في الإطاحة ببني أمية.

الحادي عشر: فشل الأمويين في تكوين جيش نظامي مرتبط بالدولة وموالٍ لها ومدافع عن شرعيتها:

لم يحسن الخلفاء المتأخرون في الدولة الأموية في الموازنة بين القبائل الرئيسية في الدولة فقد مال الخليفة الوليد بن يزيد في خلافته للقبائل القيسية وأظهر جهلاً واضحاً في علاقته مع القبائل اليمانية التي قام عليها كيان الجند الشامي، فكان لموقف الوليد من خالد بن عبد الله القسري وهو أحد أشراف اليمانية الذي أساء معاملته وسلمه إلى يوسف بن عمر بن هبيرة والي العراق والذي عذبه حتى مات، سبب كاف لأن تظهر القبائل اليمانية استياءها وهي أكثر جند الشام، لأن مغزى هذا الإجراء إغراء قبائل قيس بقبائل اليمن وأصبحت الحكومة حزباً قيسياً، وأصبحت قبائل اليمن مهيأة لأن تستخدم كأداة للتغيير وهي عماد القوة العسكرية، وذلك بتغيير الحكومة خاصة وأن الوليد بن يزيد لم يلق التأييد الكامل من آل بيته لموقفه السيئ منهم مما سهل على القوى العسكرية إيجاد المرشح البديل، فالتفت حول يزيد بن الوليد، واستطاع يزيد من تحقيق طموحه للوصول إلى الخلافة مستغلاً تذمر الفئة العسكرية الغاضبة على مكانتها وضياع امتيازتها، ومغرياً فئات أخرى بالمال. وكان لتورط الجيش بالثورة على الخلافة وتقرير سياستها وفق ما تمليه عليه المصلحة والعصبية القبلية أن فقدت الخلافة الأموية هيبتها وشرعيتها لدى مؤيديها من القبائل التي تمثل قوتها العسكرية، وبالمقابل كان لفشل الخلافة

(1) بنو أمية بين السقوط والانتحار، ص: 86، 87.
(2) المصدر نفسه، ص: 87.
(3) المصدر نفسه، ص: 93.
(4) المصدر نفسه، ص: 97.

في تحقيق التوازن بين القبائل نتيجة لصراع البيت الأموي على السلطة أن فقدت الأداة التي قامت عليها واعتدت بها في إقرار سياستها وبسط شرعيتها على أقاليم الدولة، فكان أن أصبحت القبائل أداة بين الطامحين إلى السلطة، ذلك أن القبائل التي اعتمدها الأمويون كقوة عسكرية لم تستطع إدراك الأهداف السياسية للحكم المركزي، ولم تكن لها تقاليد سياسية تحدد علاقتها مع الحكومة، فاقتصرت هذه العلاقة على المصالح القبلية الضيقة، فإذا ما تعرضت هذه المصالح، فليس لها - وهي التي تملك الأداة العسكرية - سوى أسلوب التغيير المسلح، ونتيجة لتعارض المصالح القبلية التي احتوتها القوة العسكرية ودخولها في صراع على السلطة والامتيازات، فقد جرت الخلافة لأن تكون طرفاً في هذا الصراع خاصة بعد انقسام البيت الأموي وتنازع أفراده في الوصول إلى السلطة، فكان لميل الخليفة إلى إحدى كتل هذه القوى لتحقيق طموحه من خلالها أن تحول الخلفاء الأمويون من خلفاء تتجسد فيهم وحدة الأمة إلى رؤساء لتكتلات قبلية[1]، وأدى صراع القوة العسكرية على السلطة وانقسامها إلى كتلتين متنازعتين إلى حدوث فوضى سياسية وعسكرية في مركز الخلافة وزعزع كيانها، فعجزت عن ملاحقة الأحداث في أقاليمها فكان ذلك إيذاناً بأفول الحكم الأموي[2] وبهذا فقد الحكم الأموي مهابته وشرعيته بعد أن تفككت عرى الرابطة القبلية الذي قام عليها، ونتيجة للنظرة القبلية الضيقة لبعض خلفاء بني أمية المتأخرين، لذا لم يستطع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وهو الذي يمتلك القوة الوحيدة القادرة على إعادة الأمور إلى نصابها، أن يتجاوز هذه السياسة خاصة، وخاصة أنه قد وصل إلى السلطة بمساندة القبائل القيسية التي بايعته[3].

وكان لاعتماد مروان على القبائل التي ثارت بعد مقتل الوليد لاسترجاع سلطتها وامتيازاتها أن خلق حالة من العصيان والتمرد في صفوف قبائل اليمن أرغمت مروان بالدخول في حروب متعددة معها - كما مرّ معنا - إن القارئ الكريم لا يحتاج إلى الكثير من التفكير ليتبين له مدى تأثير القوة العسكرية للأمويين في سقوط حكمهم، فالقوة العسكرية التي قام على أكتافها الحكم وعلى موالاتها قد تفككت عراها وانحلت روابطها بعد أن أظهر الخلفاء سياسة قبلية ضيقة اختصت فئة معينة. وقد حاول مروان بن محمد إنشاء جيش نظامي خارج القوات القبلية، وتأليف فرق نظامية تكون صلب الجيش وتحل محل فرق القبائل وحل القواد المحترفون محل رؤساء القبائل، إلا أن هذه المحاولة التي استهدفت الاستغناء عن النظام القبلي في بناء القوة العسكرية قد جاءت متأخرة وفي وقت اضطربت فيه الأوضاع في أقاليم الدولة كافة، ولم يعد من الممكن تغيير شيء، فقد أصابت العصبية كيان الجيش الأموي وأدت

---

(1) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الأموية، ص: 130. (3) المصدر نفسه، ص: 131.
(2) المصدر نفسه، ص: 131.

إلى زعزعته وتخاذله حتى في أحلك الظروف، وقد استغل العباسيون هذا الضعف للفت في عضد الحكم الأموي، وتعطي وصية إبراهيم بن محمد العباسي لأبي مسلم الخراساني صورة صادقة للأوضاع القبلية بين العرب فقد أوصاه بقوله: «فانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم فإنهم العدو»[1].

وهكذا فعل أبو مسلم في خراسان، ومالت اليمانية إلى بني العباس بدافع العصبية ضد القيسية التي كانت بجانب مروان بن محمد[2]، وتجلت العصبية في معركة الزاب وكيف كانت ذات أثر كبير في هزيمة مروان بن محمد، وبعد هزيمته تخلى عنه جنده وكان: لا يمر بجند من أجناد الشام إلا انتهبوه[3]. وأدرك مروان نتيجة الاعتماد على القوة العسكرية للقبائل حيث قال: انفرجت عني قيس انفراج الرأس ما تبعني منهم أحد، وذلك أنا وضعنا الأمر في غير موضعه[4]. لذا فإن عدم قدرة الخلافة على تكوين جيش نظامي دائمي ومرتبط بالدولة وموال لها ومدافع عن شرعيتها، كان من أهم نقاط الضعف في الخلافة بحيث جعل السلطة المركزية عرضة لأهواء وميول شيوخ القبائل، والمتنفذين في أقاليم الدولة الواسعة، فلما ضعف المقاتلة وضعف تماسكهم من جراء العصبية أو المطامع الشخصية وفقدت رابطة الهدف المشترك الذي يربطها بالحكم تخلت عنه وأدت إلى انهياره[5].

الثاني عشر: فشل مروان بن محمد في إنقاذ الخلافة الأموية:

لم يستطع مروان بن محمد أن ينقذ الخلافة الأموية من سقوطها الكبير وذلك لأسباب كثيرة:

1 - عدم شرعية مروان بن محمد:

لم يكن لمروان بن محمد أي حق شرعي بالخلافة - بالعرف الأموي - فلم يذكر اسمه في تفويض ولاية العهد، كما أنه كان ابن أمة ولم يكن من عادة الأمويين تولية العهد لأولاد الإماء من الأمراء، فقد حرموا مسلمة بن عبد الملك من الخلافة بسبب ذلك، إلا أن مروان اغتصب الخلافة نتيجة الاضطرابات التي أعقبت مقتل الوليد الثاني، وقد رفض أهل الشام الاعتراف بخلافته أول الأمر، كما ثار ضده أمراء من البيت المرواني. إن هذا الانقسام في الشام وفي البيت الحاكم أضعف البلاد ودمر قوتها العسكرية[6].

---

(1) تاريخ الموصل، ص: 65، الجيش وتأثيراته، ص: 137.
(2) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص: 137.
(3) المصدر نفسه، ص: 139.
(4) المصدر نفسه، ص: 139.
(5) المصدر نفسه، ص: 139.
(6) الثورة العباسية، ص: 70.

2 - نقل عاصمة الدولة إلى حِرّان:

ارتكب مروان خطأً كبيراً عندما نقل عاصمة الدولة إلى حِرّان بالعراق، بحيث أخذت قلوب أهل الشام تنصرف عنه، وقد نقل كل الأعمال إلى العاصمة الجديدة مع بيت المال من دمشق، وآل به هذا إلى نتائج خطيرة، فقد شعرت الشام بأجمعها مع دمشق بأنها سُلبت الحكم يستثنى من ذلك قسمها الشمالي، وعمقت الخلافات الحزبية هذا الشعور أكثر فأكثر وتمنى الناس العودة إلى العهود السابقة[1]، وكان ذلك الفعل بداية النهاية لعاصمة الأمويين[2].

إن مروان عندما ابتعد عن دمشق فقد نصيراً قوياً انتبه إلى أهميته معاوية بن أبي سفيان، فأوصى ابنه يزيد بأن يجعل أهل الشام بطانته، وأن ينتصر بهم[3]، وبالفعل لقد ألف أهل الشام بني أمية، فأصبح هواهم في بني أمية وحب بني أمية قد رسخ في قلوبهم[4]. والواقع أن معاوية مُنذ أيام ولايته أدرك طباع أهل الشام، وأخلاقهم فماشاهم، وساسهم أحسن سياسة، فأخلصوا له أشد الإخلاص، وحفظوا له أطيب الذكرى، والتفوا حول بيته، حتى أصبح آل أمية وجه دمشق المشرق، إلا أنه لما فشت العصبية القبلية واشتدت، وأصبح الخليفة لفئة من الناس دون فئة، واضطره هذا في بعض الأحيان أن يعرض عن اليمانية، وهم معظم أهل الشام، بدأ هؤلاء يبتعدون عن الأسرة الأموية قليلاً، ولكن رغم كل ذلك بقي لبني أمية في قلوب أهل الشام محبة خاصة تجسدت في ثورتهم بعد زوال البيت الأموي مباشرة، وربما كان عذر مروان في نقل العاصمة إلى حِرّان أنها كانت مركز القيسية، وهؤلاء هم دعامته الكبرى في الوصول إلى الخلافة[5]، وبين ظهرانيهم عاش والده ونشأ هو، وفي هذه المنطقة كان يشعر أنه بين ذويه، ثم إن هؤلاء هم الذين بايعوه قبل غيرهم، ولا يمكن أن يبقى عند سواهم[6]. وهو من جهة أخرى لا يثق بالجيش الشامي واليمانيون فيه أكثرية، إن هذا العذر غير مقبول لأن مروان بما وصف به من بعد نظر، وتفكير طويل، كان يقدر أن يضم تحت جناحه اليمانية بأي أسلوب كان دون أن يغضب أصدقاءه القدامى من قيس، وبهذا تعود للشعب وحدته، ولقد جنى مروان ثمرة نقل العاصمة بنفسه إذا اضطره ذلك لخوض معارك متعددة على أرض الشام دامت فترة من الزمن، في وقت كانت فيه خراسان ترتجف بنصر بن سيار، وقد بدت سحائب

---

(1) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص: 154.
(2) الدولة العباسية في العصر العباسي، ص: 46.
(3) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص: 154.
(4) المصدر نفسه، ص: 154.
(5) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص: 155.
(6) المصدر نفسه، ص: 155.

دخان كثيف تدل على ثورة بركان يمكن أن يجتث الحكم الأموي بكامله[1]، فقد كان انتقال الخلافة من دمشق إلى الجزيرة انقلاب كبير ذو شأن، وانتقال الخلافة كان من منطقة إلى منطقة، ومن جوار إلى جوار، ومن عصبة إلى عصبة أخرى، وأخيراً من مجتمع إلى مجتمع، وكان للمجتمع القديم أن يدافع عن نفسه وعن حقه المغتصب، فحصلت تلك الهزة العنيفة في تاريخ الأمويين، ولئن كان مروان بن محمد قد تغلب على تلك الهزة وأخضعها بالسنان، فإن التفكك الذي حدث في الدولة الأموية والصدع الذي لم يُرْتَق، ولم يكن للجرح أن يلتئم في عهد مروان، إذ لم يُترك متسع من الوقت أمام الحكم الجديد ليوطد أركانه، فالدولة الأموية كانت قد نقضت بنيانها بغية أن تبني بنياناً جديداً مكانه، وإذ بالبنيان الجديد الذي لم يستقر بعد يتعرض للعاصفة، فيتساقط كأوراق الخريف[2].

3 - فشل مروان بن محمد في تنظيم حكومة مركزية قوية:

لم يستطع مروان بن محمد أن يوجد حكومة مركزية من خلال نظام إداري سياسي يدعم الحكومة في الأقاليم، وتساند الحكومة جيش نظامي قوي، مع مؤسسات أخرى كالشرطة والمخابرات والأمن، مما أدى إلى انتشار الإشاعات والدعايات والتنظيمات السرية التي لم تكن نشاطاتها كلها تصل إلى سمع الخليفة، فأنتجت في النهاية تلك الثورة العارمة، أين هذا العهد من عهد معاوية وعبد الملك وضبطهم لأمور الرعية وشدة تيقظهم ومتابعتهم للخصوم في الداخل والخارج، ولذلك لما أحيط بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية قال: يا لهفتاه[3] على دولة ما نصرت، وكف ما ظفرت، ونعمة ما شكرت. فقال له أحد خدامه: من أغفل الصغير حتى يكبر، والقليل حتى يكثر، والخفي حتى يظهر، وأخّر فعل اليوم لغد، حلَّ به أكثر من هذا. فقال مروان: هذا القول أشدُّ عليَّ من فقد الخلافة[4]، إن تنظيم الحكومة المركزية القوية يساعد على ضبط أمور الدولة ومتابعة أخبار الأقاليم والأمراء والرعية من خلال أجهزتها ومؤسساتها ولجانها، وخصوصاً فيما يتعلق بالأمن وجمع المعلومات، ولذلك لما سئل أحد أمراء بني أمية: ما سبب زوال ملككم؟ قال: قلة التيقّظ وشُغلنا بلذاتنا عن التفرغ لمهمّاتنا، ووثوقنا بكُفاتنا فآثروا موافقهم علينا، وظلم عمّالنا رعيّتنا ففسدت نياتهم لنا، وحُمل على أهل خراجنا فقلّ دخلنا، وبطل عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم علينا، وقصدنا بُغاتنا فعجزنا عن دفعهم لقلّة نصّارنا، وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنّا، فزال ملكنا عنّا بنا[5]. والحقيقة أن هذه الرواية جمعت معظم العوامل التي أدت

---

(1) المصدر نفسه، ص: 155.

(2) الدولة الأموية للعشي، ص: 337.

(3) يا لهفتاه: كلمة تحسر وتحزن على ما فات.

(4) البداية والنهاية (13/ 266).

(5) ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 118 المحاسن والمساوئ، ص: 155.

إلى سقوط الدولة الأموية، إلا أن راويها نصر بن مزاحم المنقري شيعي رافضي متروك الحديث[1]، لذلك لابد من التعامل مع هذه الرواية بحذر شديد[2].

4 - احتقاره للخصوم في خراسان:

كان مروان قائداً عسكرياً ، قبل كل شيء، والطبيعة العسكرية تغلب عليه وهي طبيعة خاصة من مميزاتها الاستهانة بالأخطار والاستهانة بالخصوم، وهذه النفسية هي التي كلفت مروان نهايته المحتومة، وبالتالي نهاية حكم أسرته في المشرق. اطلع مروان على حال خراسان وكيف أن واليه عليها نصر بن سيار يتعرض لخطر شديد، ومع ذلك يكتب لنصر: الحاضر يرى ما لا يرى الغائب فاحسم الثؤلول[3]. فكان جواب نصر: الثؤلول قد امتدت أغصانه وعظمت نكايته[4].

لقد بلغ به احتقار الثورة العباسية إلى حدود وصفها بالثؤول، إن الثقة بالنفس، إذا وصلت إلى حد احتقار العدو، فإنها تكون قاتلة[5]، كان قتيبة بن مسلم قد ألمت به أمور هامة، وأخذ يفكر في فئة خرجت عليه، كيف يقضي عليها، فقيل له: ما يهمك منهم، وجِّه إليهم وكيع بن أبي مسعود، فإنه يكفيهم. . فأبى وقال: لا . . إن وكيعاً رجل به كبر، يحتقر أعداءه ومن كان هكذا قلَّت مبالاته بعدوه، فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة[6]. وهكذا كان مروان[7].

5 - الاستبداد بالرأي:

لما ضعفت المشورة في نهاية عهد بني أمية ضاعت الخلافة، فإنه عندما سئل آخر خلفائهم مروان بن محمد عن ذلك قال: الاستبداد برأيي، لما كثرت كتب نصر بن سيار أن أمده بالأموال والرجال قلت في نفسي: هذا رجل يريد الاستكثار من الأموال بما يظهر فساد الدولة من قبله وهيهات أن ينتقص عليّ خراسان، فانتقضت دولته من خراسان[8].

6 - إبعاد الأولياء وتقريب الأعداء:

قال أبو مسلم الخراساني: كان أقوى الأسباب في خروج دولة بني أمية عنهم كونهم أبعدوا أولياءهم ثقة لهم، وأدنوا أعدائهم تألفاً لهم، فلم يصر العدو بالدنو صديقاً وصار الصديق بالبعد عدواً[9].

---

(1) ميزان الاعتدال (4/ 253 - 254).
(2) لسان الميزان (6/ 157).
(3) الكامل في التاريخ (3/ 459).
(4) العقد الفريد (4/ 201).
(5) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص: 152.
(6) المصدر نفسه، ص: 153.
(7) المصدر نفسه، ص: 153.
(8) سراج الملوك للطرطوشي، ص: 95، الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 286).
(9) الشهب اللامعة، ص: 625.

إن مروان بن محمد أضاع ثقة أهل الشام في الأمويين وذلك من الأخطاء التي قلبت دولتهم، فبنو أمية أقاموا حكمهم في الشام وعلى أهل الشام، وأهل الشام هم الذين كانوا يمسكون بقواعد الحكم الأموي ويثبتونها. ولقد ناصروا بني أمية في كل المواقع وكانوا السبب في كثير من انتصاراتهم ضد خصومهم، وكانوا إياهم يداً واحدة على نوائب الدهر، وأقوى أهل الشام قبائل بني كلب التي كانت تقطن هذه المنطقة وتكثر فيها. والحق أن معاوية ﷺ بنى حكمه على كلب وتزوج منها - مع استيعابه الكبير لفقه الموازنة بين القبائل - ومروان اعتمد عليها أيضاً، فكسب بها موقعة مرج راهط واستمر خلفاؤه على صلات حسنة بكلب وإن كانوا يشجعون قيساً في العراق وخراسان. والخطأ الأكبر لبني أمية في عصر يزيد بن عبد الملك أنهم قضوا قضاء مبرماً على المهالبة وهم من اليمن، وأساؤوا لكلب وهي من اليمن أيضاً، فأشعروها أنهم ضدها في الشام أيضاً، وجاء مروان بن محمد فنقل العاصمة إلى حِرّان بالجزيرة بين قيس، ففقد ثقة الشام بعد أن فقد كلب. وهذا هو الذي أودي به بالرغم من حسن قيادته وحيله الحربية وقدرته في تسيير الرجال، ولوبقي أهل الشام معه قلباً وقالباً وعلى رأسهم كلب، لقوى بهم ودفع كل المصائب التي جابهته بيسر، ولتمكن من العباسيين الذين أقبلوا عليه من خراسان[1]. وقد أدرك مروان ذلك فقال: انفرجت عني قيس انفراج الرأس ما تبعني منهم أحد وذلك أنا وضعنا الأمر في غير موضعه[2].

7 - لم يلجأ إلى استخدام المال والسياسة في تفتيت الخصوم:

لم يستفد مروان بن محمد من السياسة والمال في تفتيت الخصوم، فقد أخطأ حين ولّى ثابت بن نعيم فلسطين لأنه يعرف خطره، ولكن هذا الخطأ يمكن أن يخف كثيراً لو ترك إلى جانب ثابت رجلاً عيناً عليه لمروان من جهة، ومن جهة أخرى كي يحد من قيمة ثابت بين أصحابه، أو يتولى هذا الرجل معظم أعمال الوالي بحيث يكون الوالي مجرد رمز فقط، لأن مروان لم يكن يستطع عزله في ذلك الوقت حتى لا يثور الناس عليه، وأخطأ أيضاً عندما ترك سليمان بن هشام في الرصافة، فلو استبقاه لديه كمستشار مثلاً فترة أطول، ولم يدعه يذهب إلى الرصافة حيث كان والده هشام قد اتخذها مقراً له، لأمكن مروان أن يملك رأس الفئة المناوئة له.. ولو فعل لتجنّب فتناً داخلية شغلته عن خطر داهم تدفق من خراسان[3]، أخطأ كذلك عندما جنّد جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل، ووجّههم للعراق إلى قتال الخوارج رغم معرفته بأن هذا الجيش قد تمرد عليه قبلاً في دير أيوب... حتى إذا تحرك هذا الجيش نحو

---

(1) الدولة الأموية، للعشي، ص: 314.

(2) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية، ص: 139.

(3) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص: 156.

العراق مر بالرصافة فدعا سليمان بن هشام للتمرد، فاستجاب، وخلع مروان سنة 127هـ، ويتجلى هذا الخطأ حين نعرف أن فترة قصيرة جداً كانت تفصل بين تمرد هذا الجيش وتوجيهه إلى العراق، وأن هذا الجيش قد أرسل إلى العراق دون قيادة تميل إلى مروان، فهل يعقل أن ينقلب متمردون مسلحون من أعداء للخليفة إلى مدافعين عنه بين ليلة وضحاها ؟ بل ماذا ينتظر من هذا الجيش غير التمرد مجدداً كما تمرد من قبل وكان[1].

ولقد سبق لعبد الملك بن مروان أن واجه أخطاراً مما جابهت مروان بن محمد، فالروم من جهة، وعبد الله بن الزبير، والخوارج، وأهل قرقيسيا والقيسية من جهة أخرى، وحركة التوابين، ورجل من البيت الأموي يحتل دمشق ويعلن عزل عبد الملك ويتمرد عليه وهو عمرو ابن سعيد بن العاص، فاستخدم عبد الملك المال والسياسة حتى لا يتحركوا ضده في وقت واحد - وقد مرّ معنا تفصيل ذلك في حديثنا عن عهد عبد الملك - وقد قام عبد الملك بالتالي، فالروم لهم الجزية يؤديها عبد الملك، وعمرو بن سعيد له العودة السريعة إلى دمشق، والقتل بيد عبد الملك نفسه، وأمير قرقيسيا له الصلح والمال الوفير وأما الخوارج وابن الزبير فلهم الانتظار حتى ينتهي القتال الدائر بينهم، حتى إذا انتهى بظفر فريق بعد إنهاك قوته انقض عليه عبد الملك بجيش مستريح مستعد للقتال، كان عبد الملك يعرض الأمان لأعدائه ويستميل قوادهم بشتى الوسائل، كل هذه المواقف تدل على مدى مرونة شخصية عبد الملك ودهائه، وحسن سياسته ومراعاته للظروف، إذ لكل داء دواء، أين سياسة عبد الملك المرنة في مجابهة الأعداء من سياسة مروان؟ لقد كان حرياً بمروان أن يحتذي خطوات عبد الملك ولو فعل لفتت خصومه واحداً بعد الآخر، ولكنه لم يفعل، فاتحد هؤلاء، وتكاتفوا ووضعوا أمامهم هدفاً واحداً هو إبادة مروان والدولة الأموية، وقد وُفقوا وحققوا الهدف، وعذر مروان - فيما نرى - يعود إلى طبيعته، كقائد عسكري أكثر من سياسي يرأس دولة تعج بالفتن والأعداء، في كل الأخطاء التي ذكرناها نلمح شخصية مروان المعتدة بذاتها، وبقدراتها المستهينة بكل عدو، المستهينة بكل خطر، وكأن مروان يقول في نفسه: ماذا يصنع ثابت بن نعيم؟ وماذا يفعل سليمان بن هشام؟... أنا لهما بالمرصاد، وهما دوني بكثير، حركة واحدة مني تقضي عليهما، وماذا يصنع عشرة آلاف جندي كانوا تمردوا قبلاً إذا أرسلوا إلى حرب الخوارج؟ تلك هي نفسية مستعلية عنيفة[2] عيب مروان أنه يبدأ عدوه بالسيف، فإذا خرج متمرد في مكان جرد له جيشاً ربما قاده بنفسه، وكثيراً ما فعل مع أن هذا المتمرد في غالب الأحيان ليس بحاجة إلى السيف بل هو بحاجة إلى المال يقبضه، أو ولاية يولاها، أو وظيفة يشغلها، وما أرخص

(1) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص: 156.

(2) المصدر نفسه، ص: 158.

هذه الأشياء مهما كثرت، وما أغلى السيف إذا جُرِّد ولو أعيد إلى غمده بعد قليل[1]. وقد رأينا كيف فعل معاوية مع خصومه في بذل الأموال وحسن السياسة لكسبهم أو تحييدهم أو دفع أخطارهم عن دولته[2] وكان شعاره: ألا أضع لساني حيث يكفيني مالي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، فإذا لم أجد من السيف بداً ركبته[3]. عيب مروان كان في طبيعته كقائد حربي من الطراز الأول ولعله هنا يكمن عذره، رغم أن هذا العيب قد هدَّ أركان الدولة أخيراً، ولم تعدله العبقرية العسكرية الفذة[4].

8 - شؤم بدعة الجهمية على الدولة الأموية:

إن شؤم البدعة خطر على الأمة والشعوب والدول والأفراد والجماعات، ومن يدرس تاريخ هذه الأمة والاتجاهات البدعية التي ظهرت يجد أثرها السلبي على الدولة الإسلامية كلها، يقول ابن تيمية عن أسباب سقوط الدولة الأموية: إن دولة بني أمية كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل وغيره من الأسباب، التي أوجبت إدبارها، وفي آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان بخراسان[5]. وقال: وهذا الجعد إليه ينسب مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية، وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة، فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسول ﷺ انتقم الله ممن خالف الرسل، وانتصر لهم[6]. وهذا التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ الإسلامي يخالف ما درج عليه جملة من المؤرخين الذي لا يفسرون أحداث التاريخ إلا بأسباب مادية بحتة وهو من العمل الذي لا يفقهه إلا أهل الإيمان[7]. وقد وصف الدكتور يوسف العش المجتمع الجديد الذي نقل إليه مروان بن محمد العاصمة فقال: . . . ولم يقتصر التغير على إحداث هذا المجتمع وعلى تكوينه تكويناً جديداً، بل اتخذ هذا المجتمع كياناً خاصاً وأفكار جديدة، فأصبح يقول بمذهب الجعد بن درهم الذي نسب إليه مروان وتأدب على يديه[8].

9 - انحلال الضبط:

انهار الضبط في الجيش الأموي وفي الدولة، فلا الجنود ينفِّذون أوامر القائد، ولا الناس يخضعون للسلطة، ولعلّ من أسباب انحلال الضبط وانهياره حرب الاستنزاف بين جيش الدولة وبين أعداء الدولة التي طالت كثيراً، فأصبحت الحرب هي القاعدة والسّلام هو

(1) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، ص: 158.
(2) المصدر نفسه، ص: 158.
(3) المصدر نفسه، ص: 158.
(4) المصدر نفسه، ص: 159.
(5) أصول مذهب الشيعة الإمامية (3/ 1432).
(6) الفتاوى (13/ 96).
(7) الفتاوى (13/ 99).
(8) الدولة الأموية، ص: 335.

الاستثناء، وكلما طالت الحرب زاد التذمر وضعف الضبط، ولعل من أسبابه الدعوة السّرية للعباسيين التي استمالت إلى جانبها كثيراً من الناس، وأصبح معتنقو هذه الدعوة رَتَلاً خامساً بين صفوف جيش الحكومة ومكاتبها وبين أفراد الشعب، يثيرون الإشاعات، ويثبِّطون العزائم، وينشرون الفوضى والارتباك ومن مظاهره ما حدث من اقتتال بين جيش الدولة والخارجين عليها في الحجاز واليمن، مما أدى إلى ارتباك مواسم الحج ارتباكاً شديداً، وأما في خُراسان والمشرق الإسلامي، فقد كانت سلطة الدولة في إجازة طويلة، وكلّ هذا الانحلال أدى إلى ترديّ معنويات جيش الدولة وإلى انهيار الضبط فيه، وتجلى هذا الانحلال في الضبط، ما ظهر في معركة الزّاب الحاسمة، فما أصدر مروان أمراً إلى قوّاته المحاربة إلا ولم ينُفذّ أمره باستهتار عجيب وبلغ العصيان حدًّا في تلك المعركة الحاسمة لم يبلغه في معركة أخرى، فالقبائل رفضت تنفيذ أوامر مروان دون استثناء، حتى الرجل الذي كان على شرطته، عصى أوامره عصياناً فاضحاً، والمفروض أنَّ مثل هذا الرّجل من أقرب المقربين إلى الخليفة ومن أخلص المخلصين له، ولكنه آثر العافية على الخطر، كأنه كان واثقاً بأن الهزيمة النكراء ستحل بمروان وشيكاً والجيش الذي يصاب بانحلال الضبط وانهيار المعنويات لا ينتصر أبداً، والدولة التي تفقد هيبتها لا يمكن أن تبقى أبداً[1].

10 - تجاوز الاحتياط:

حشد مروان بن محمد جيشه في الزاب لخوض معركته الحاسمة، وكان من حقِّه وواجبه أن يحشد كلّ القادرين على حمل السلاح من أنصاره لخوض تلك المعركة الحاسمة ولكنه كان عليه أن يفكِّر في معارك أخرى، يقاوم بها بالعمق أنصار العباسيين، فإذا انهزم في معركة الزّاب، فينبغي أن يخوض معارك أخرى في حلب ودمشق وفلسطين وفي مصر، ويفكر بإعداد قوّات احتياطية، تدافع عن الدولة في معارك متعاقبة، وألّا ينتهي في معركة واحدة كما حدث ثم يصبح بعد هزيمته شريداً طريداً، ليست لديه قوات احتياطية تدافع عنه وعن الدولة كما ينبغي، والظاهر أنّ مروان لم يفكر بإعداد قوّات احتياطية، تقاتل في حالة هزيمته في لقائه الأول والأخير، ولهذا كانت معركة الزاب هي معركته الأولى والأخيرة، ثم انتهى أمره وأمر الدولة بعد الهزيمة، وأصبح همّه الحفاظ على حياته كأيِّ إنسان، يهرب من بلد إلى آخر، وقوّات العباسيين تطارده إلى أن استطاعت قتله في الصعيد من أرض مصر، فانتهى خليفة وانتهت دولة الأمويين. إنّ إهمال إعداد قوات احتياطية خطأ فاحش لا يُغتفر لمروان، دفع ثمنه حياته ومصير دولته[2].

---

(1) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 484. (2) المصدر نفسه، ص: 484، 485.

11 - ضعف الثقة بينه وبين رجاله وبغض الناس له:

لم يكن مروان بن محمد يتبادل الثقة الكاملة بينه وبين رجاله، ولا المحبة المتبادلة، لأنه كان «ظالماً»[1] «صارماً»[2]وكان يغري بين القبائل ويُغضب بين العشائر، واصطفى قيس عيلان وانحرف عن اليمن وباداها العداوة، فصارت عليه إلباً، وعليه حرباً[3]، لهذا تخلى عنه رجاله في أحرج الأوقات والظروف: في معركة الزّاب الحاسمة ولم يقاتل ولاته على المدن والأمصار كما ينبغي، بل استسلموا دون مقاومة تذكر لجيش بني العباس[4] - وربما كان هذا سبب الاختراق الكبير للدعوة العباسية للجيش الأموي من خلال خلايا التنظيم العباسي.

لقد كان الناس يهابون مروان ويخافونه خوفاً شديداً حين كان في السلطة قوياً، لأنه كان ظالماً لا يبالي بالقتل والصَّلْب، حتى لقد صَلَب الموتى والقتلى أيضاً، كما جرى في معركة حمص عندما نكث أهلها، فقد صلب خمسمائة من القتلى حول المدينة وهدم قسماً من سور المدينة[5]، انتقاماً من أهلها، وبالغ في القتل مبالغة جعلت القلوب التي حوله تتغير عليه سراً وتظهر له الولاء علناً، أما الذين كانوا مع الأعداء فقد قاتلوه بعنف وشدّة، لأنه صدع قلوبهم بالظلم والتعصّب والانتقام، ولكن حين أصبح ضعيفاً، وبدت بوادر انهيار سلطته، خلع الناس عنهم لباس الخوف، وكشفوا له ولأعوانه نياتهم، فهؤلاء الذين بقوا حول مروان مضطرين اضطراراً، ولم يستطيعوا التخلّي عنه نظراً لظروفهم الخاصة أو لأسباب قاهرة، وهم أهل الشام، أقرب المقربين إلى بني أمية وحماة دولتهم وقاعدتهم الأمينة، بذلوا قصارى جهدهم للتخلص من مروان، فقدم جنودهم إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان في جيش مروان فاتصلوا به سرًّا وحسّنوا له خلع مروان وشجعوه عليه وقالوا له: أنت أرضى عند الناس من مروان وأولى بالخلافة. فأجابهم إلى ذلك، فسار بإخوانه ومواليه معهم فعسكر بقنّسرين، وكاتب أهل الشام، فأتوه من كلِّ وجه[6]. وبلغت درجة بغض مروان من أبناء شعبه، أنّ قسماً من بني أمية لجأوا إلى أعدائه وقاتلوه إلى جانبهم، حتى أن قسماً منهم لم يتورّع إلى اللجوء للخوارج والصّلاة خلفهم والقتال إلى جانبهم، لا محبة بهم بل كرهاً لمروان، والقائد الذي لا يحبّه رجاله ولا يثقون به لا يمكن أن ينتصر أبداً، ولعلّ مروان وما حاق به يكون عبرة للمعتبرين[7].

---

(1) العبر (1/ 178).

(2) البداية والنهاية نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي، ص: 490.

(3) التنبيه والإشراف، ص: 328، البداية والنهاية (13/ 490).

(4) قادة الفتح الإسلامي، ص: 491.

(5) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص: 491.

(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي، ص: 491.

(7) المصدر نفسه.

12 - خذلان أهل الشام لمروان في معركة الزاب:

لو أن أهل الشام وقفوا كلهم متحدين متكاتفين إلى جانب مروان لاستطاع الانتصار على العباسيين بالرغم من المناداة بأبي العباس خليفة في الكوفة، ذلك أن الوضع كان لا يزال حرجاً بالنسبة إليهم، وكان خذلان أهل الشام - ولا سيما القبائل اليمانية والقضاعية - لمروان في معركة الزاب عاملاً هاماً من العوامل التي أدّت إلى هزيمته، إن ما مرّ بنا من روايات في معركة الزاب وغيرها، تُشير إلى أمر بالغ الأهمية وهو دور الشعب في دعم حكم أو خذلانه، فقد لعب أهل الشام الدور الأكبر في دعم حكم بني أمية وفي خذلانه، فهم الذين وقفوا إلى جانب معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، وهم الذين خذلوا مروان ابن محمد، ويعود ذلك إلى فهم معاوية ومعظم خلفاء بني أمية لنفسية أهل الشام، بينما كان مروان بعيداً عنهم وأقرب إلى أهل الجزيرة.

إن السياسي الحقيقي الماهر يستطيع أن يقيد الناس بسلاسل أقوى من الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم[1].

الثالث عشر: الدعوة العباسية:

أخذت الدعوة العباسية بأسباب النجاح المادية والمعنوية، من قيادة حكيمة، ووضوح المنهج، وإعداد الأفراد، ومحاربة أسباب الفرقة، والأخذ بأصول الاجتماع والاتحاد والوحدة، والتفرغ للمشروع العباسي، وتقسيم الأدوار، والتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، والتنظيم المحكم، والدعم الاقتصادي، والدعاية الإعلامية، والحيطة والحذر من الأعداء، وغير ذلك من الأسباب التي تمّ بيانها وشرحها، وظهرت هذه الدعوة في الوقت المناسب في وقت كان يجري فيه تفاعل في الدولة الأموية، تفاعل شديد قلبها رأساً على عقب، فأخذتها الثورة العباسية على حين غرّة، فلم تصمد أمام المفاجأة في ساعة كانت أحرج ساعة في تاريخها، فسقطت سقوطها المريع[2]. وكان يمكن أن تستمر دولة بني أمية لولا وجود الدعوة العباسية التي كانت تخطط للوصول إلى الحكم، واستغلت هذه الظروف للإطاحة ببني أمية[3].

هذه هي أهم أسباب سقوط الدولة الأموية وهي متداخلة ومتشابكة يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً فالسبب السياسي يؤثر في العامل الاقتصادي، ويتأثر به، وهكذا، ودراسة أسباب سقوط الدول وعوامل بنائها من الأمور المهمة التي تحتاجها الأمة في مشروعها الحضاري المنتظر لقيادة الإنسانية بالمنهج الرباني وتحقيق أستاذية العالم لهذه الأمة المجيدة.

---

(1) الشام في صدر الإسلام، ص: 194.

(2) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 337.

(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 411.

التحذير من بعض الكتب التي شوهت تاريخ صدر الإسلام:

1 - الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة:

من أخطر الكتب التي شوهت تاريخ صدر الإسلام كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب لابن قتيبة، ولقد ساق الدكتور عبد الله عسيلان في كتابه «الإمامة والسياسة في ميزان التحقيق العلمي» مجموعة من الأدلة تبرهن على أن الكتاب المذكور منسوب إلى الإمام ابن قتيبة كذباً وزوراً ومن هذه الأدلة:

● إن الذين ترجموا لابن قتيبة لم يذكر واحد منهم أنه ألف كتاباً في التاريخ يدعى الإمامة والسياسة» ولا نعرف من مؤلفاته التاريخية إلا كتاب «المعارف».

● إن المتصفح للكتاب يشعر أن ابن قتيبة أقام في دمشق والمغرب في حين أنه لم يخرج من بغداد إلّا إلى الدينور.

● إن المنهج والأسلوب الذي سار عليه مؤلف «الإمامة والسياسة» يختلف تماماً عن منهج وأسلوب ابن قتيبة في كتبه التي بين أيدينا، ففي منهج ابن قتيبة أن يقدم لمؤلفاته بمقدمات طويلة، بينما صاحب «الإمامة والسياسة» قدّم بمقدمة قصيرة جداً لا تزيد على ثلاثة أسطر، هذا إلى جانب الاختلاف في الأسلوب، ومثل هذا النهج لم نعهده في مؤلفات ابن قتيبة.

● يروي مؤلف الكتاب عن أبي ليلى بشكل يشعر بالتلقي عنه، وابن أبي ليلى هذا هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه قاضي الكوفة، توفي سنة 148 هـ، والمعروف أن ابن قتيبة لم يولد إلا سنة 213هـ أي بعد وفاة ابن أبي ليلى بخمسة وستين عاماً.

● إن الرواة والشيوخ الذين يروي عنهم ابن قتيبة عادة في كتبه لم يرد لهم ذكر في أي موضع من مواضع الكتاب.

● إن قسماً كبيراً من رواياته جاءت بصيغة التمريض، فكثيراً ما يجيء فيه: ذكروا عن بعض المصريين، وذكروا عن محمد بن سليمان في مشايخ أهل مصر، وحدثنا بعض مشايخ أهل المغرب، فذكروا عن بعض المشيخة، وحدثنا بعض المشيخة. ومثل هذه التراكيب بعيدة كل البعد عن أسلوب وعبارات ابن قتيبة، ولم ترد في كتاب من كتبه. إن مؤلف «الإمامة والسياسة» يروي عن اثنين من كبار علماء مصر، وابن قتيبة لم يدخل مصر ولا أخذ عن هذين العالمين[1].

● ابن قتيبة يحتل منزلة عالية لدى العلماء فهو عندهم من أهل السنة، وثقة في علمه ودينه، يقول السِّلفي: كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنَّة، ويقول ابن حزم: كان ثقة في دينه

(1) عقيدة الإمام ابن قتيبة، علي العلياني، ص: 90.

وعلمه، وتبعه في ذلك الخطيب البغدادي، ويقول عنه ابن تيمية: وإن ابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة[1]. ورجل هذه منزلته لدى رجال العلم المحققين، هل من المعقول أن يكون مؤلف كتاب «الإمامة والسياسة» الذي شوه التاريخ وألصق بالصحابة الكرام ما ليس فيهم[2].

يقول الدكتور علي نفيع العلياني في كتابه: عقيدة الإمام ابن قتيبة عن كتاب «الإمامة والسياسة»: بعد قراءتي لكتاب الإمامة والسياسة قراءة فاحصة ترجح عندي أن مؤلف الإمامة والسياسة رافضي خبيث أراد إدماج هذا الكتاب في كتب ابن قتيبة نظراً لكثرتها ونظراً لكونه معروفاً عند الناس انتصاره لأهل الحديث، وقد يكون من رافضة المغرب، فإن ابن قتيبة له سمعة حسنة في المغرب[3]، ومما يرجِّح أن مؤلف الإمامة والسياسة من الروافض ما يلي:

● أن مؤلف الإمامة والسياسة ذكر على لسان علي رضي الله عنه أنه قال للمهاجرين: الله الله يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم، ولا تدفعوا أهله في مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم... والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله[4]، ولا أحد يرى أن الخلافة وراثية لأهل البيت إلاَّ الشيعة.

● إن مؤلف الإمامة والسياسة قدح في صحابة رسول الله قدحاً عظيماً، فصور ابن عمر رضي الله عنه جباناً وسعد بن أبي وقاص حسوداً، وذكر أن محمد بن مسلمة غضب على علي بن أبي طالب لأنه قتل مرحباً اليهودي بخيبر، وإن عائشة رضي الله عنها أمرت بقتل عثمان[5]، والقدح في الصحابة من أظهر خصائص الرافضة وإن شاركهم الخوارج إلَّا أن الخوارج لا يقدحون في عموم الصحابة[6].

● إن مؤلف الإمامة والسياسة يذكر أن المختار بن أبي عبيد قتل من قبل مصعب بن الزبير لكونه دعا إلى آل رسول الله ﷺ ولم يذكر خرافاته وادعائه للوحي[7]، والرافضة هم الذين يحبون المختار بن أبي عبيد لكونه انتقم من قتلة الحسين، مع العلم أن ابن قتيبة رحمه الله ذكر المختار من الخارجين على السلطات وبيِّن أنه كان يدّعي أن جبريل يأتيه[8].

● إن مؤلف الإمامة والسياسة كتب عن خلافة الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان خمساً

---

(1) لسان الميزان (3/ 357)، تحقيق مواقف الصحابة (2/ 144).
(2) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 144).
(3) الفتاوى لابن تيمية (17/ 391).
(4) الإمامة والسياسة (1/ 12).
(5) المصدر نفسه (1/ 54 - 55).
(6) عقيدة الإمام ابن قتيبة، ص: 91 للعلياني.
(7) الإمامة والسياسة (2/ 20).
(8) المعارف، ص: 401.

وعشرين صفحة فقط، وكتب عن الفتنة التي وقعت بين الصحابة مائتي صفحة، فقام المؤلف باختصار التاريخ الناصع المشرق وسوّد الصحائف بتاريخ زائف لم يثبت منه إلا القليل وهذه من أخلاق الروافض المعهودة نعوذ بالله من الضلال والخذلان.

● يقول السيد محمود شكري الألوسي في مختصره للتحفة الاثنا عشرية: ومن مكايدهم - يعني الرافضة - أنهم ينظرون في أسماء الرجال المعتبرين عند أهل السنة فمن وجدوه موافقاً لأحد منهم في الاسم واللقب أسندوا رواية حديث ذلك الشيعي إليه، فمن لا وقوف له من أهل السنة يعتقد أنه إمام من أئمتهم فيعتبر بقوله ويعتد بروايته، كالسدي فإنهما رجلان أحدهما السدي الكبير والثاني السدي الصغير، فالكبير من ثقات أهل السنة والصغير من الوضاعين الكذابين وهو رافضي غال. وعبد الله بن قتيبة رافضي غال وعبد الله بن مسلم بن قتيبة من ثقات أهل السنة، وقد صنف كتاباً سماه بالمعارف فصنف ذلك الرافضي كتاباً سماه بالمعارف أيضاً قصداً للإضلال[1]. وهذا مما يرجح أن كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الرافضي وليس لابن قتيبة السني الثقة، وإنما خلط الناس بينهما لتشابه الأسماء[2] والله أعلم، وللأسف فإنه اغتر بهذا الكتاب كثير من الباحثين وبنوا على رواياته المكذوبة كثير من الأحكام الباطلة.

2 - نهج البلاغة:

ومن الكتب التي ساهمت في تشويه تاريخ الصحابة بالباطل كتاب نهج البلاغة، فهذا الكتاب مطعون في سنده ومتنه، فقد جُمع بعد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بثلاثة قرون ونصف بلا سند، وقد نسبت الشيعة تأليف نهج البلاغة إلى الشريف الرضي وهو غير مقبول عند المحدثين لو أسند خصوصاً فيما يوافق بدعته فكيف إذا لم يسند كما فعل في النهج؟ وأما المتهم - عند المحدثين - بوضع النهج فهو أخوه علي، فقد تحدث العلماء فيه فقالوا:

● قال ابن خلكان في ترجمة الشريف المرتضى: وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه هل جمعه؟ أم جمع أخيه الرضي؟. وقد قيل: إنه ليس من كلام عليّ، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه، والله أعلم[3].

● وقال الذهبي: من طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، ففيه السبّ الصُراح، والحط على السيدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممّن بعدهم من المتأخرين جزم بأنّ أكثره باطل[4].

---

(1) مختصر التحفة الاثنا عشرية للألوسي، ص: 32.
(2) عقيدة الإمام ابن قتيبة، ص: 93.
(3) الوفيات (3/ 313).
(4) ميزان الاعتدال (3/ 124).

● وقال ابن تيمية: وأهل العلم يعلمون أن أكثر خطب هذا الكتاب مفتراة على علي، ولهذا لا يوجد غالبها في كتاب متقدم ولا لها إسناد معروف[1].

● وأما ابن حجر، فيتّهم الشريف المرتضى بوضعه، ويقول: ومن طالعه جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين عليّ... وأكثره باطل[2].

واستناداً إلى هذه الأخبار وغيرها تناول عدد من الباحثين هذا الموضوع، فقالوا بعدم صحة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام علي رضي الله عنه [3].

ويمكن تلخيص أهّم ما لاحظه القدامى والمحدثون على نهج البلاغة للتشكيك بصحة نسبته للإمام علي بما يلي:

● خلوّه من الأسانيد التوثيقية التي تعزز نسبة الكلام إلى صاحبه - متناً ورواية وسنداً.

● كثرة الخطب وطولها، لأن هذه الكثرة وهذا التطويل ممّا يتعذر حفظه وضبطه قبل عصر التدوين، مع أن خطب الرسول ﷺ لم تصل إلينا سالمة وكاملة مع ما أتيح لها من العناية الشديدة والاهتمام.

● رصد العديد من الأقوال والخطب في مصادر وثيقة منسوبة لغير عليّ رضي الله عنه، وصاحب النهج يثبتها له.

● اشتمال هذا الكتاب على أقوال تتناول الخلفاء الراشدين قبله بما لا يليق به ولا بهم، وتنافي ما عُرف عنه من توقيره لهم، ومن أمثلة ذلك ما جاء بخطبته المعروفة بـ«الشقشقية» التي يظهر فيها حرصه الشديد على الخلافة، رغم ما شُهر عنه من التقشّف والزهد.

● شيوع السجع فيه، إذ رأى عدد من الأدباء أن هذه الكثرة لا تتّفق مع البعد عن التكلفّ الذي عُرف فيه عصر الإمام عليّ رضي الله عنه أن السجع العفوي الجميل لم يكن بعيداً عن روحه ومبناه.

● الكلام المنمّق الذي تظهر فيه الصناعة الأدبية التي هي من وَشْي العصر العباسي وزُخرفه، كما نجد في وصف الطاوس والخفاش، والنحل والمقالات الكلامية التي وردت في ثناياه، والتي لم تُعرف عند المسلمين إلّا في القرن الثالث الهجري، حين تُرجمت الكتب اليونانية والفارسية والهندية، وهي أشبه ما تكون بكلام المناطقة والمتكلمين منه بكلام الصحابة والراشدين[4].

إن هذا الكتاب يجب الحذر منه في الحديث عن الصحابة وما وقع بينهم وبين أمير المؤمنين

---

(1) منهاج السنة (4/ 24).

(2) لسان الميزان (4/ 223).

(3) الأدب والإسلام، نايف معروف، ص: 53.

(4) الأدب والإسلام، ص: 54، 55.

علي، وتعرض نصوصه على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة، فلا مانع من الاستئناس به وما خالف فلا يلتفت إليه.

3 - كتاب الأغاني للأصفهاني:

يعتبر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني كتاب أدب وسمر وغناء، وليس كتاب علم وتاريخ وفقه، وله طنين ورنين في آذان أهل الأدب والتاريخ، فليس معنى ذلك أن يُسكت عما ورد فيه من الشعوبية والدس، والكذب الفاضح والطعن والمعايب، وقد قام الشاعر العراقي والأستاذ الكريم وليد الأعظمي بتأليف كتابه القيم الذي سمّاه «السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني»، فقد شمّر - جزاه الله خيراً - عن ساعد الجد، ليميز الهزل من الجد، والسم من الشهد، ويكشف ما احتواه الكتاب من الأكاذيب ونيران الشعوبية والحقد، وهي تغلي في الصدور، كغلي القدور، وأخذ يرد على ترهات الأصفهاني فيما جمعه من أخبار وحكايات مكذوبة وغير موثقة تسيء إلى آل البيت النبوي الشريف، وتجرح سيرتهم، وتشوه سلوكهم، كما تناول مزاعم الأصفهاني تجاه معاوية بن أبي سفيان والخلفاء الأمويين بما هو مكذوب ومدسوس عليهم من الروايات، وتناول الأستاذ الكريم والشاعر الإسلامي القدير وليد الأعظمي في كتابه القيم الحكايات المتفرقة التي تضمنها الكتاب والتي تطعن في العقيدة الإسلامية والدين الإسلامي، وتفضل الجاهلية على الإسلام وغيرها من الأباطيل[1].

- قال ابن الخطيب البغدادي: كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس، كان يشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ثم تكون كل رواياته منها[2].

- قال ابن الجوزي: . . . ومثله لا يوثق بروايته، يصرّح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوّن شرب الخمر وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمّل كتاب الأغاني، رأى كل قبيح ومنكر[3].

- قال الذهبي: رأيت شيخنا تقيّ الدين ابن تيميّة يضعّفه، ويتّهمه في نقله، ويستهْوِل ما يأتي به[4].

4 - تاريخ اليعقوبي، توفي سنة 290هـ:

هو أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي من أهل بغداد، مؤرخ شيعي إمامي كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية حتى لقب بالكاتب

---

(1) السيف اليماني في نحر الأصفهاني للأعظمي، ص: 9 إلى 14.
(2) تاريخ بغداد (11/ 398).
(3) المنتظم (7/ 40، 41).
(4) ميزان الاعتدال (3/ 123).

العباسي، وقد عرض اليعقوبي تاريخ الدولة الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمامية، فهو لا يعترف بالخلافة إلا لعلي بن أبي طالب وأبنائه حسب تسلسل الأئمة عند الشيعة، ويسمي علي بالوصي، وعندما أرخ لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يُضْفِ عليهم لقب الخلافة وإنما قال: تولى الأمر فلان. ثم لم يترك واحداً منهم دون أن يطعن فيه، وكذلك كبار الصحابة، فقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها أخباراً سيئة[1]، وكذلك عن خالد بن الوليد[2]، وعمرو بن العاص[3]، ومعاوية بن أبي سفيان[4] وعرض خبر السقيفة عرضاً مشيناً[5] ادعى فيه أنه قد حصلت مؤامرة على سلب الخلافة من علي بن أبي طالب الذي هو الوصي في نظره، وطريقته في سياق الاتهامات - الباطلة - هي طريقة قومه من أهل التشيع والرفض وهي إما اختلاق الخبر بالكلية[6]، أو التزيد في الخبر[7] والإضافة عليه أو عرضه في غير سياقه ومحله حتى يتحرف معناه. ومن الملاحظ أنه عندما ذكر الخلفاء الأمويين وصفهم بالملوك وعندما ذكر خلفاء بني العباس وصفهم بالخلفاء، كما وصف دولتهم في كتابه البلدان باسم الدولة المباركة[8]، مما يعكس نفاقه وتستره وراء شعار التقية، وهذا الكتاب يمثل الانحراف والتشويه الحاصل في كتابة التاريخ الإسلامي وهو مرجع لكثير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا في التاريخ الإسلامي وسيرة رجاله، مع أنه لا قيمة له من الناحية العلمية، إذ يغلب على القسم الأول القصص والأساطير والخرافات والقسم الثاني كُتب من زاوية نظر حزبية كما أنه يفتقد من الناحية المنهجية لأبسط قواعد التوثيق العلمي[9].

5 - المسعودي: توفي سنة 345هـ: كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر:

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، من ولد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [10]، وقيل أنه كان رجلاً من أهل المغرب[11]، ولكن يُرد عليه بأن المسعودي صرح بنفسه أنه من أهل العراق وأنه انتقل إلى ديار مصر للسكن فيها[12]، وإن قصد ببلاد المغرب عكس المشرق فمصر من بلاد المغرب الإسلامي فلا إشكال[13]، والمسعودي رجل شيعي، فقد قال فيه ابن

(1) تاريخ اليعقوبي (2/ 180، 183).
(2) المصدر نفسه (2/ 131).
(3) المصدر نفسه (2/ 222).
(4) المصدر نفسه (2/ 232، 238)
(5) المصدر نفسه (2/ 123، 126).
(6) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 431.
(7) المصدر نفسه، ص: 431.
(8) كتاب البلدان لليعقوبي، ص: 432.
(9) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 432.
(10) الفهرست لابن النديم، ص: 171، سير أعلام النبلاء.
(11) الفهرست، ص: 117.
(12) معجم الأدباء (13/ 91، 93).
(13) منهج المسعودي في كتابة التاريخ، ص: 4، أثر التشيع، ص: 143.

حجر: كتبه طافحة بأنه كان شيعياً معتزلياً[1]. وقد ذكر أن الوصية جارية من عهد آدم تنقل من قرن إلى قرن حتى رسولنا ﷺ ثم أشار إلى اختلاف الناس بعد ذلك في النص والاختيار، فقدم رأي الشيعة الإمامية الذين يقولون بالنص[2]، وقد أولى الأحداث المتعلقة بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في كتابه مروج الذهب اهتماماً كبيراً أكثر من اهتمامه بحياة الرسول ﷺ في الكتاب المذكور[3]. وركز اهتمامه بالبيت العلوي وتتبع أخبارهم بشكل واضح في كتابه مروج الذهب[4]، وعمل بدون حياء ولا خجل على تشويه تاريخ صدر الإسلام.

هذه بعض الكتب القديمة التي نحذر منها والتي كان لها أثر في كتابات بعض المعاصرين، كطه حسين «الفتنة الكبرى: علي وبنوه»، والعقاد في عبقرياته، فقد تورطا في الروايات الموضوعة والضعيفة وقامت تحليلاتهم عليها وبالتالي لم يحالفهم الصواب، ووقعوا في أخطاء شنيعة في حق الصحابة رضي الله عنهم، وكذلك عبد الوهاب النجار في كتابه: الخلفاء الراشدون حيث نقل نصوصاً من روايات الرافضة من كتاب الإمامة والسياسة، وحسن إبراهيم حسن في كتابه: عمرو بن العاص حيث قرّر من خلال الروايات الرافضية الموضوعة بأن عمرو بن العاص رجل مصالح ومطامع ولا يدخل في شيء من الأمور إلا إذا رأى أن فيه مصلحة ومنفعة له في الدنيا[5]، وغير ذلك من الباحثين الذين ساروا على نفس المنوال، فدخلوا في الأنفاق المظلمة بسبب بعدهم عن منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع الركام الهائل من الروايات التاريخية.

ثامناً: الاستشراق والتاريخ الإسلامي:

إن من أعظم الفرق أثراً في تحريف التاريخ الإسلامي الشيعة الرافضة بمختلف طوائفها وفرقها، فهم من أقدم الفرق ظهوراً ولهم تنظيم سياسي وتصور عقائدي، ومنهج فكري - منحرف - وهم أكثر الطوائف كذباً على خصومهم، كما أنهم من أشد الناس خصومة للصحابة - فسب الصحابة وتكفيرهم من أساسيات معتقدهم وأركانه خاصة الشيخين أبي بكر وعمر ويسمونهما الجبت والطاغوت[6]، وقد كان للشيعة أكبر عدد من الرواة والإخباريين الذين تولوا نشر أكاذيبهم ومفترياتهم وتدوينها في كتب ورسائل عن أحداث التاريخ الإسلامي، خاصة الأحداث الداخلية، كما للشعوبية والعصبية أثر في وضع الأخبار التاريخية والحكايات

---

(1) لسان الميزان (4/ 225)، أثر التشيع، ص: 246.
(2) مروج الذهب ومعادن الجوهر (1/ 38).
(3) أثر التشيع على الروايات التاريخية، ص: 248.
(4) المصدر نفسه، ص: 248.
(5) تاريخ عمرو بن العاص، حسن إبراهيم، ص: 206، 207.
(6) الشيعة والسنة، ص: 32 إحسان إلهي ظهير.

والقصص الرامية إلى تشويه التاريخ الإسلامي وإلى إعلاء طائفة على طائفة أو أهل بلد على آخر، أو جنس على جنس، وإبعاد الميزان الشرعي في التفاصيل وهو ميزان التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

كما أن الفرق المنحرفة قد استغلت وضع القصاص وانتشارهم وجهل معظمهم وقلة علمهم بالسنة، وانحراف طائفة منهم تبتغي العيش والكسب، فنشروا بينهم أكاذيبهم وحكاياتهم وقصصهم الموضوعة، فتلقفها هؤلاء القصاص دون وعي وإدراك ونشروها بين العامة، لقد انتشر عن طريقهم مئات الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ وعدد لا يحصى من الأخبار والأقوال المكذوبة على الصحابة والتابعين وعلماء الإسلام، مما يسيء لهم ويشوه تاريخهم وسيرتهم، وقد كان من فضل الله وتوفيقه أن قيض مجموعة من العلماء النقاد الذين قاموا بجهد في نقد الرواة والمرويات فبينوا الزائف من الصحيح، ودافعوا عن عقيدة الأمة وتاريخها، وجهد علماء السنة في بيان الأحاديث المكذوبة بالنص عليها وبيان الرواة الضعاف والمتهمين وأصحاب الأهواء وفي رسم المنهج في نقد الروايات وقبولها، جهد كبير وموفق. ومن أبرز من تصدى لإيضاح المغالط التاريخية ورد زيوف الروايات المكذوبة القاضي ابن العربي في كتاب العواصم من القواصم، والإمام ابن تيمية في كثير من كتبه ورسائله، خاصة كتابه القيم منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، وكذلك الحافظ الناقد الذهبي في كثير من مؤلفاته التاريخية مثل كتاب: سير أعلام النبلاء، وتاريخ الإسلام، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، وكذلك الحافظ ابن كثير المفسر المؤرخ في كتابه البداية والنهاية، وأيضاً الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ولسان الميزان، وتهذيب التهذيب والإصابة في معرفة الصحابة.

أما الوسائل التي استخدمت لغرض تحريف الوقائع التاريخية وتشويه سير رجال الصدر الأول من الصحابة والتابعين فهي كثيرة ونذكر منها:

- الاختلاق والكذب.
- الإتيان لخبر أو حادثة صحيحة فيزيدون فيها وينقصون منها حتى تتشوه وتخرج عن أصلها.
- وضع الخبر في غير سياقه حتى ينحرف عن معناه ومقصده.
- التأويل والتفسير الباطل للأحداث.
- إبراز المثالب والأخطاء وإخفاء الحقائق والصور المستقيمة.
- صناعة الأشعار وانتحالها لتأييد حوادث تاريخية مدعاة، لأن الشعر العربي ينظر له كوثيقة تاريخية ومستند يساعد في توثيق الخبر وتأييده.

● وضع الكتب والرسائل المكذوبة ونحلها لعلماء وشخصيات مشهورة، كما وضعت الرافضة كتاب الإمامة والسياسة الذي نحلته أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري لشهرته عند أهل السنة وثقتهم به - كما مّر معنا - وقد تلقف هذه الأكاذيب والتحريفات في القرن الماضي علماء الغرب وكتابه من المستشرقين والمُنَصِّرين - إبان غزوهم واستعمارهم للبلدان الإسلامية - فوجدوا فيها ضالتهم، وأخذوا يعملون على إبرازها والتركيز عليها مع ما زادوه من عندهم - بدافع من عصبيتهم وكرههم للمسلمين - من الكذب مثل اختراع حوادث لا أصل لها أو التفسير المغرض للحوادث التاريخية بقصد التشويه أو التفسير الخاطئ تبعاً للتصور والاعتقاد الذي يدينون به، ثم شايع هؤلاء طائفة غير قليلة من العدد من تلاميذ المستشرقين في البلاد العربية والإسلامية، وأخذوا طرائقهم ومناهجهم في البحث، وأفكارهم وتصوراتهم في الفهم والتحليل وتفسير التاريخ، وحملوا الراية بعد رحليهم عن بلاد المسلمين، وكان ضررهم أشد وأنكى من ضرر أساتذتهم المستشرقين، ومن ضرر أسلافهم السابقين من فرق البدع والضلال، وذلك أنهم ادّعوا - كأساتذتهم - اتباع الروح العلمية المتجردة والمنهج العلمي في البحث، والحقيقة أن غالبتهم لم يتجرد إلا من عقيدته، أما التجرد بمعنى الإخلاص للحق وسلوك المنهج العلمي السليم في إثبات الواقعات التاريخية، كالمقارنة بين الروايات، ومعرفة قيمة المصادر التي يرجعون إليها، ومدى أمانة الناقلين، وضبطهم لما نقلوا، وقياس الأخبار واعتبارهم بأحوال العمران البشري وطبائعه[1]، قد أثر له عند القوم، فلم يتقنوا من المنهج العلمي إلا الأمور الشكلية مثل الحواشي وترتيب المراجع وما شابهها، وربما كان هذا مفهوم المنهج العلمي عندهم[2]، يقول محب الدين الخطيب: إن الذين تثقفوا بثقافة أجنبية عَنَّا قد غلب عليهم الوهم بأنهم غرباء عن هذا الماضي، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء نيابة من المتهمين، بل لقد أوغل بعضهم في الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر المتجرد عن كل آصرة بماضي العروبة والإسلام جرياً وراء المستشرقين في ارتيابهم حيث تحسن الطمأنينة وميلهم مع الهوى عندما يدعوهم الحق إلى التثبت، وفي إنشائهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون في أيديهم أشباه الدلائل عليه[3].

ومن أهم الوسائل التي اتبعها المستشرقون وتلاميذهم في تشويه وتحريف حقائق التاريخ الإسلامي.

● التدخل بالتفسير الخاطئ للأحداث التاريخية على وفق مقتضيات أحوال عصرهم الذي يعيشون هم فيه وحسبما يجول بخواطرهم، دون أن يحققوا أولاً الواقعة التاريخية حتى تثبت

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل، ص: 502.
(2) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 502.
(3) المصادر الأولى لتاريخنا، مجلة الأزهر، سنة 1372؟.

ودون أن يراعوا ظروف العصر الذي وقعت فيه الحادثة وأحوال الناس وتوجهاتهم في ذلك الوقت، والعقيدة التي تحكمهم ويدينون بها، فإنه قبل تفسير الحادثة لا بد من ثبوت وقوعها وليس وجودها في كتاب من الكتب كافياً لثبوتها[1]، لأن مرحلة الثبوت مرحلة سابقة على البحث في تفسير الواقعة التاريخية، كما ينبغي أن يكون التفسير متمشياً مع منطوق الخبر التاريخي موضوع البحث، ومع الطابع العام للمجتمع أو العصر والبيئة التي حدثت فيها الواقعة، كما يشترط أن لا يكون هذا التفسير متعارضاً مع واقعة أو جملة وقائع أخرى ثابتة، كما أنه لا ينبغي أن ينظر في التفسير إلى عامل واحد - كما هو ديدن كثير من المدارس التاريخية المعاصرة - وإنما ينظر فيه إلى جملة العوامل المؤثرة في الحدث وخاصة العوامل العقيدية والفكرية. .

ثم إن التفسير التاريخي للحوادث بعد هذا كله لا يعدو كونه اجتهاداً بشرياً يحتمل الصواب والخطأ، ولقد أبرز البعض تاريخ الفرق الضالة وعمد إلى تضخيم أدوارها وتصويرها بصورة المصلح المظلوم بأن المؤرخين المسلمين قد تحاملوا عليها، فالقرامطة والإسماعيلية، والرافضة الإمامية والفاطمية والزنج وإخوان الصفا، والخوارج كلهم في نظرهم واعتبارهم دعاة إصلاح وعدالة وحرية ومساواة، وثورتهم كانت ثورات إصلاح الظلم والجور، فهذا الشغب والإرجاف على التاريخ الإسلامي ومزاحمة سير رجاله ودعاته بسير قادة الفرق الضالة أمر لا يستغرب من قوم لا يدينون بالإسلام، فهم من واقع عقيدتهم يكيدون له بكل جهد مستطاع، ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ولا يتوقع من مطموس الإيمان وملل الكفر إلا مناصرة إخوانهم في الضلال.

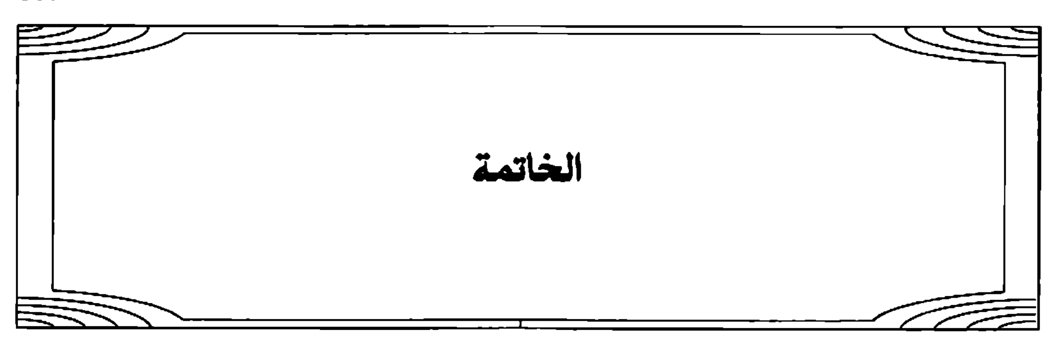
ولكن الأمر الذي قد يحدث استغراباً عند البعض أن يحمل راية التشويه والتحريف بعد سقوط دولة الاستشراق كتَّابٌ يحملون أسماء إسلامية ومن أبناء المسلمين، ويقومون بنشر مثل هذه السموم على بني جلدتهم ليصرفوا بها الأغرار عن الصراط المستقيم، ولقد عمد هؤلاء إلى التشبث بالروايات المشبوهة والضعيفة والساقطة يلتقطونها من كتب الأدب وقصص السمر والحكايات الشعبية والكتب المنحولة والضعيفة، فهذه الكتب هي مستنداتهم في الغالب مع ما يجدونه من الروايات المكذوبة في الطبري والمسعودي مع أنهم يعلمون أنها لا تعتبر مراجع علمية يعتمد عليها، لقد وقع الاعتداء على التاريخ الإسلامي - خاصة تاريخ الصدر الأول - بالتشويه عن طريق اختيار مواقف مختارة والتركيز عليها كالمعارك والحروب مع تصويرها على غير حقيقتها حتى تزول عنها صفة الجهاد في سبيل الله أو التركيز على الأحداث والفتن الداخلية بقصد إظهار خلافات الصحابة ﷺ وعرضها وكأنها نموذج للصراعات والمكائد

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 504.

السياسية في وقتنا الحاضر، وبالتجهيل وهو إهمال كل ما هو مدعاة للاقتداء والأسوة الحسنة، وبالتشكيك وهو توجيه السهام إلى التاريخ ورجاله وإلى المؤرخين المسلمين أنفسهم والتشكيك في معلوماتهم وصدقهم، وبالتجزئة وهي محاولة تجزئة التاريخ الإسلامي إلى أوصال وأشتات وكأنها لا رابط بينها، كالتوزيع الإقليمي والعرقي ونحوه، فكل هذه الوسائل والحملات تسعى إلى تدمير تاريخنا الإسلامي ومحو معالمه النيرة وإبعاده عن مجال القدوة الحسنة والتربية الصحيحة، لذا ينبغي على المؤرخ المسلم معرفة هذه الوسائل والتنبه لها ومعرفة الذين تابعوا المستشرقين في آرائهم ومناهجهم وعدم التلقي منهم إلا بحذر شديد، فإذا كان علماؤنا رحمهم الله قد نقدوا كثيراً من الرواة وضَعَّفُوا روايتهم بسبب أخذهم عن أهل الكتاب وروايتهم الإسرائيليات، فإنه ينبغي لنا التوقف في قبول أقوال وتفسيرات من يتلقى من المستشرقين بل إسقاطها وعدم اعتبارها إلا بدليل وبرهان واضح[1].



(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 507.



الخاتمة

وبعد، فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب الذي سميته: الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ فله الحمد حتى يرضى، وله الحمد عند الرضى، وله الحمد بعد الرضى، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً أن لا أقع في الخطأ، وعسى أن لا أحرم من الأجر، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرأه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: 10].

وأختم هذا الكتاب بقول الشاعر هاشم الرفاعي رحمه الله:

ملكنا هذه الدنيا قرُونا	وأخضعها جُدُودٌ خالدونا
وسطرنا صحائف من ضياء	فما نسي الزمان ولا نسينا
بنينا حقبةً في الأرض مُلْكاً	يُدَعِّمُهُ شباب طامحونا
شبابٌ ذَلَّلُوا سُبُل المعالي	وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تَعَهَّدَهم فأنبتهم نباتا	كريماً طاب في الدنيا غصونا
إذا شهدوا الوغى كانوا كُمَاة	يَدُكُّون المعاقل والحُصُونا
شباب لم تُحطِّمْهُ اللَّيالي	ولم يُسْلِمْ إلى الخصم العَرينا
وإن جَنَّ المساء فلا تراهم	من الإشفاق إلَّا ساجدينا
كذلك أخرج الإسلام قومي	شباباً مُخلصاً حُرًّا أمينا
وعلَّمه الكرامة كيف تُبْنى	فيأبى أن يُقَيَّدَ أو يهونا
وما فَتِئ الزمان يدور حتى	مضى بالمجد قومٌ آخرونا
وأصبح لا يُرى في الرَّكب قومي	وقد عاشوا أئمَّتَهُ سِنينا
وآلمني وآلم كُلَّ حُرٍّ	سؤال الدهر أين المسلمونا

تـرى هـل يَـرجـع الـمـاضـي فـإنـي أذوب لـذلـك الـمـاضـي حـنـيـنـا
دعــونـــي مـــن أمـــان كـــاذبـــات فـــلـــم أجـــدِ الـمُـنـى إلَّا ظـنــونـا
وهـاتـوا لـي مـن الإيـمـان نـوراً وقَـوُّوا بـيـن جَـنْـبَـيَّ الـيـقـيـنـا
أمـدّ يـدي فـأنـتـزع الـرّواسـي وأبـنـي الـمَـجـد مُـؤتَـلِـفـاً مَـكـيـنـا[1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(1) صلاح الأمة في علوّ الهمة (7/ 6، 7).

أهم المصادر والمراجع

1 - إباحة المدينة وحريق الكعبة، حمد بن محمد العرينان، مكتبة ابن تيمية، الكويت، الطبعة الأولى، 1403هـ - 1983م.

2 - أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم شعوط، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، 1403هـ.

3 - ابن خلدون إسلامياً، عماد الدين خليل، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1405هـ - 1985م.

4 - أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، دار المنارة، جدّة السعودية، الطبعة الثالثة، 1406هـ - 1986م.

5 - إتعاظ الحنفاء، للمقريزي، تحقيق محمد حلمي، لجنة إحياء التراث، الطبعة الأولى 1393هـ.

6 - اتهامات لا تثبت، سليمان بن صالح الخراشي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى 1425هـ - 2004م.

7 - أثر التشيع على الروايات التاريخية، د. عبد العزيز محمد نور ولي دار الخضيري، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م.

8 - أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، د. عبد الله بن عبد الرحمن بن زيد الخرعان، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى 1424هـ.

9 - أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري، د. جميل عبد الله المصري مكتبة الدار بالمدينة، الطبعة الأولى، 1410هـ - 1989م.

10 - إحداث أحاديث فتنة الهرج، د. عبد العزيز صغير دخان، دار الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى، 1424 هـ - 2003م.

11 - أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق محمد البيجاوي، دار المعرفة، بيروت.

12 - أخبار أبي حفص الآجري، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، الطبعة الثانية، 1412هـ.

13 - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، أحمد يوسف القرماني، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1412هـ - 1992م.
14 - أخبار الدولة العباسية، مجهول، من موالي العباسيين من رجال القرن الثالث، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، والدكتور عبد الجبار المطلبي، طبع دار الطليعة، بيروت.
15 - أخبار مدينة الرسول، محمد بن محمود النجار، تحقيق صالح محمد جمال، مكتبة الثقافة، مكة الطبعة الثالثة، 1401هـ.
16 - أخبار مكة للفاكهي، عبد الله بن محمد، تحقيق عبد الملك بن دهيش.
17 - آداب الشيخ الحسن البصري لابن الجوزي.
18 - إدارة العراق في صدر الإسلام، رمزية عبد الوهاب الخيرو، دار الحرية، بغداد، 1398هـ.
19 - إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، عبد اللطيف عبد الرزاق العاني، جامعة بغداد، رسالة ماجستير، عام 1968م.
20 - أدب الدنيا والدين للماوردي، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي.
21 - أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد الحافي، دار القلم، بيروت - لبنان.
22 - آراء المعتزلة الأصولية، د. علي بن سعد بن صالح الضويحي، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الثالثة، 1421هـ - 2000م.
23 - استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري دراسة نقدية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدّة، الطبعة الأولى.
24 - أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م.
25 - إسلام بلا مذاهب مصطفى الشكعة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه القاهرة، الطبعة الخامسة، 1392هـ.
26 - أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد منهم من العدد، تحقيق الأستاذ سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1412هـ.
27 - أسماء بنت أبي بكر الصديق، محمد بن لطفي الصّباغ، المكتب الإسلامي، المطبعة الثانية، 1408هـ - 1988م.
28 - أصول الحديث، محمد عجاج الخطيب.
29 - أصول الدين للبغدادي، لأبي منصور عبد القاهر التميمي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية 1400هـ - 1980م.
30 - أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، د. ناصر عبد الله علي القفاري، دار الرضا بمصر.

31 - أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، طبع دار التأليف بمصر، 1477هـ - 1958م.
32 - اعتبار المالات ومراعات نتائج التصرفات، د. عبد الرحمن بن معمر السنوسي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى رجب 1424هـ، السعودية.
33 - إعلام الموقعين، لابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، دار الفكر بيروت الطبعة الثانية، 1397م.
34 - أقباس من مناقب أبي هريرة، عبد المنعم صالح العلي.
35 - اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، دار العاصمة السعودية، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل.
36 - أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان، عبد العزيز عبد الله المبدل، دار التوحيد، الرياض، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
37 - آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ، نافع توفيق العبود، جامعة بغداد، 1976 رسالة دكتوراه.
38 - الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير، تحقيق عبد الرحمن الفريوائي، المطبعة السلفية الهند، الطبعة الأولى 1403هـ.
39 - الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة العكبري، تحقيق ودراسة رضا بن نعسان معطي، الطبعة الأولى، دار الراية الرياض.
40 - الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، حياة محمد جبريل، الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م
41 - الآثار والمشاهد وأثر تعظيمها على الأمة الإسلامية، د. عبد العزيز عبد الله الجفير، دار الهدي النبوي، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
42 - الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1988م.
43 - الآحاد والمثاني لابن عاصم، تحقيق د. باسم فيصل الجوابرة، دار الراية الرياض، الطبعة الأولى 1411هـ.
44 - الأحكام السلطانية لأبي يعلى.
45 - الأحكام السلطانية للماوردي.
46 - الأحكام السلطانية والولايات الدينية، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت 1397 - 1978م.
47 - الأخبار الطوال، لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، دار القلم، بيروت، لبنان.

48 - الأخلاق بين الطبع والتطبع، لأبي عبد الله فيصل بن عبدة قائد الحاشدي، دار الإيمان الإسكندرية.
49 - الإدارة الإسلامية في عز العرب، محمد علي كرد، الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة مصر 1352هـ - 1934م.
50 - الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، د. سليمان بن صالح آل كمال، جامعة أم القرى.
51 - الإدارة في الإسلام الفكر والتطبيق، د. عبد الرحمن إبراهيم الضحيان، دار الشروق 1407هـ.
52 - الإدارة في التراث الإسلامي، مع حكم وأمثال للمسئولين ورجال الأعمال، محمد عبد الله البرعي، د. عدنان عابدين، مكتبة الخدمات الحديثة، جدة.
53 - الإدارة في العصر الأموي، نجده خمّاش، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى 1400هـ - 1980م.
54 - الأدب الإسلامي وتاريخه، عابد الهاشمي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء عام 1421هـ - 2001م.
55 - الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، طبعة عام 1410هـ - 1990م.
56 - الأدب في الإسلام في عهد النبوة وخلافة الراشدين، د. نايف معروف، دار النّفاس، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م.
57 - الأدلة الباهرة على نفي البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، د. عمر عبد الله كامل، دار البيارق المكتبة المكية، الطبعة الأولى 1421هـ - 2001م.
58 - الأساس في السنة وفقهها والسِّيرة النَّبوية، سعيد حوى، دار السَّلام، الطبعة الأولى 1409هـ - 1989م.
59 - الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، د. علي نويهض، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
60 - الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار للمقدسي.
61 - الاستخراج لأحكام الخراج، ابن رجب الحنبلي، تحقيق السيد عبد الله صديق، دار المعرفة، بيروت.
62 - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الشيخ أبو العباس بن خالد الناصري، الدار البيضاء، 1954م.
63 - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر.

64 - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر بن عبد البر، دار الكتب العربية، بيروت.
65 - الإسلام والتعريب في الشمال الأفريقي، بوخالفة نور الهُدى، ماجستير، جامعة بغداد عام 1986م.
66 - الإسلام والحضارة الإسلامية، كرد علي.
67 - الإسلام والحضارة العربية، حسن أحمد محمود.
68 - الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة 1406هـ.
69 - الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة، أبي معاذ السيد بن أحمد الإسماعيلي.
70 - الأشباه والنظائر لابن نجيم.
71 - الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، د. لبيد إبراهيم أحمد، 1988م - 1409هـ، رسالة ماجستير.
72 - الاعتصام للشاطبي، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية عام 1411هـ - 1991م.
73 - الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة 1389هـ.
74 - الأعمال العربية الكاملة، أمين الريحاني، المؤسسة العربية، بيروت، الطبعة 1981م.
75 - الأعياد وأثرها على المسلمين، سليمان السحيمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة، الطبعة الثانية 1424هـ - 2003م.
76 - الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد الأموي، طبع دار الكتب المصرية.
77 - الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية، د. كمال السعدي حبيب، مكتبة مدبولي، مصر، طبعة 2002م.
78 - الأقوال الكافية في الفصول الشافية في الخيل، علي بن داود الرسولي، تحقيق د. يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ.
79 - الاكتفاء لما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع سليمان الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ - 1997م.
80 - الإمام الزهري وأثره في السنة، د. جارث سليمان الضاري، مكتبة بسام، الموصل بالعراق 1405هـ - 1985م.
81 - الإمام أيوب السختياني، د. سليمان عبد العزيز العريني، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى 1419هـ - 1998م.

82 - الإمام زيد المفترى عليه، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، طبعة عام 1404هـ - 1984م مكتبة الفيصلية.

83 - الإمامة العظمى عند أهل السنة، عبد الله بن عمر بن سليمان الرميحي، دار طيبة، الطبعة الثانية 1409هـ.

84 - الإمامة والسياسة، منسوب لابن قتيبة.

85 - الأموال لأبي عبيد، القاسم بن سلام، الطبعة الثانية، تحقيق وتعليق: محمد خليل هراس، بيروت، دار الفكر للطباعة، 1408هـ - 1988م.

86 - الأمويون بين المشرق والمغرب، دار القلم، دمشق، الدار الشَّامية، بيروت، محمد سيد الوكيل، الطبعة الأولى 1416هـ - 1995م.

87 - الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وإفريقية، د. عبد الله كامل عبده، دار الآفاق العربية، طبعة أولى 1423هـ - 2003م.

88 - الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم أحمد العدوي، 1414هـ - 1994م.

89 - الأمويون والفيء، فهمي عبد الجليل.

90 - الأنباء في تاريخ الخلفاء، محمد علي بن محمد الغمراني، تحقيق قاسم السامرائي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الثانية 1402هـ.

91 - الانتصار للصحب والآل من افتراءات السَّماوي الضَّال، د. إبراهيم الرحيلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

92 - الأنصار في العصر الراشدي (سياسياً، وعسكرياً وفكرياً) د. حامد محمد خليفة، رسالة دكتوراه من كلية الآداب في جامعة بغداد.

93 - الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، د. حامد محمد الخليفة، مطابع الواحة، المدينة الرياضية عمّان، الأردن، الطبعة الأولى.

94 - الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر أبي الطيب الباقلاني، تحقيق محمد زاهد الكوثري، مؤسسة الخانجي، الطبعة الثانية 1382هـ.

95 - الأوائل للعسكري.

96 - البحرين في صدر الإسلام، عبد الرحمن نجم، دار الحرية، بغداد 1973م.

97 - البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الرّيان، الطبعة الأولى 1408 هـ - 1988م.

98 - البدع والنهي عنها لابن وضاح الأندلسي، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الأصفهاني جدة.

99 - البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، عبد الله عبد العزيز الناصر، دار الناصر، القاهرة، الطبعة الأولى 1419هـ - 26/ 11/ 1998م.
100 - البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، أبو عبد الله محمد المرّاكشي ابن عِذَارى.
101 - البيان والتبيين للجاحظ، أبو عمر عثمان بن عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1395هـ.
102 - التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي، للشايجي، دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى: 2001م.
103 - التاريخ الإسلامي، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، دار الدعوة الإسكندرية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى 1419هـ - 1998م.
104 - التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة 1411هـ - 1991م.
105 - التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، إبراهيم العدوي، القاهرة، 1976م.
106 - التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة 1415هـ - 1994م.
107 - تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا، د. علي محمد الصلاّبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 2004م.
108 - التاريخ السياسي، عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، 1971م.
109 - التاريخ الصغير للبخاري، محمد إسماعيل البخاري، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 1406هـ.
110 - التاريخ الكبير للبخاري، مؤسسة الثقافة - بيروت.
111 - التاريخ والمؤرخون العرب، محمد السيد عبد العزيز، دار النهضة العربية، بيروت 1981م.
112 - التبرك أنواعه وأحكامه، د. ناصر عبد الرحمن الجديع، مكتبة الرشد، الرياض.
113 - التبيين في أنساب القرشيين، موفق الدين عبد الله بن أحمد المقدسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية 1408هـ - 1988م.
114 - التجديد في الفكر الإسلامي، د. عدنان محمد أسامة، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى رجب 1424هـ.
115 - التذكرة في أحوال الدنيا والآخرة لمحمد أحمد القرطبي، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية.
116 - التراتيب الإدارية للكتاني، عبد الحي الكتاني.

117 - التطور الاقتصادي، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي.
118 - التطور الاقتصادي في العصر الأموي، د. عصام هشام عيدروس الجفري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى السعودية.
119 - التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة السادسة.
120 - التعليم في العصر الأموي، انتصار لطيف حسن البستي، جامعة بغداد عام 1411هـ - 1990م، رسالة ماجستير.
121 - التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، دار العلم للملايين.
122 - التقريب تقريب التهذيب، لابن حجر، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، حلب الطبعة الأولى، 1406هـ.
123 - التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى بن أبي بكر المالقي الأندلسي، حققه د. محمد يوسف زايد، دار الثقافة الدوحة، الطبعة الأولى 1405هـ.
124 - التنبيه والإشراف، علي بن الحسين المسعودي، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت 1981م، مكتبة العصرية، بغداد 1938م.
125 - التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي، تحقيق يمان بن سعد الدين المياديني، الطبعة الأولى عام 1414هـ - 1994م.
126 - التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، للشيخ عبد الرحمن السعدي.
127 - الثقات لابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند 1979م.
128 - الثمر الداني في تقريب المعاني، شرح رسالة أبي زيد.
129 - الثورة العباسية، فاروق عمر فوزي، دار الشروق للنشر، عمان، الأردن، طبعة 2001م.
130 - الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، طبعة ثالثة، عن طبعة دار الكتب المصرية.
131 - الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب البغدادي.
132 - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، المكتبة البلدية بالإسكندرية.
133 - الجذور التاريخية للأسرة الأموية، د. إحسان صدقي العمد، المجلس العلمي لجامعة الكويت، عام 1996م.
134 - الجرح والتعديل لأبي حاتم، طبعة أولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، الهند، سنة 1372هـ - 1952م.
135 - الجمان في مختصر أخبار الزمان، للتلمساني.

136 - الجندية في عهد الدولة الأموية، وفيق الدقدوقي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1406هـ - 1985م.
137 - الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، الطبعة الأولى 1414هـ - 1993م.
138 - الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز، جامعة اليرموك الأردن، رسالة ماجستير.
139 - الجيش في العصر العباسي الأول، محمد عبد الحفيظ المناصير، دار مجدلاوي، عمّان، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م.
140 - الجيش والأسطول الإسلامي في العصر الأموي، الدكتور محمود أحمد محمد عّواد، الطبعة الأولى 1994م - 1415هـ.
141 - الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الأموية، د. نزار محمد قادر النعيمي، دار الكتاب الثقافي، الأردن، الطبعة الثانية 1424هـ - 2004م.
142 - الحجاج بن يوسف، هزاع الشمري.
143 - الحجاج بن يوسف الثقفي، إحسان صدقي العمد، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1973م.
144 - الحجاج بن يوسف المفترى عليه، محمود زيادة، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م.
145 - الحجاز والدولة الإسلامية، إبراهيم بيضون، المؤسسة الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ.
146 - الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لقوام السنة إسماعيل التيمي الأصبهاني، تحقيق محمد ربيع المدخلي ومحمد محمود أبو رحيم الطبعة، دار الراية، الطبعة الأولى 1411هـ.
147 - الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، فتحي عثمان، الدار القومية للطباعة والنشر.
148 - الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان.
149 - الحركات المناهضة لخلافة مروان بن محمد، مهند ماهر جاسم، جامعة بغداد قسم الآداب عام 1986م، رسالة ماجستير.
150 - الحرية أو الطوفان، د. حاكم المطيري.
151 - الحزب الزبيري في أدب العصر الأموي، د. ثريا عبد الفتاح ملحس، دار البشير، الطبعة الأولى، عمّان 2002م.

152 - الحسن البصري، مصطفى سعيد الخن، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1416هـ - 1995م.
153 - الحسن البصري إمام عصره وعلاّمة زمانه، مرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة، القاهرة.
154 - الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، محمد رضا، المكتبة العصرية، لبنان الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.
155 - الحسين بن علي بين الحقائق والأوهام، عبد الرحمن بن عبد الله جميعان.
156 - الحسين سيد شباب أهل الجنة، حسين محمد يوسف، دار الشعب، القاهرة.
157 - الحضارة الإسلامية، عبد المنعم ماجد.
158 - الحضارة الإسلامية، محمد عادل عبد العزيز، دار غريب.
159 - الحضارة الإسلامية العربية، محمد ضيف الله بطانية، الفرقان.
160 - الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، د. عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م.
161 - الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، د. محمد ضيف بطاينة، دار طارق، دار الكندي.
162 - الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، عبد الله محمد السيف، مؤسسة الرسالة 1403هـ - 1983م.
163 - الحياة السياسية والإدارية في الحجاز في العصر الأموي، ماجستير، د. خالد العسلي 1410هـ - 1989م.
164 - الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي، أحمد شوقي إبراهيم العمرجي، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 2000م.
165 - الحياة العلمية في الشام في القرن الأول والثاني الهجري، خليل داود الزرو، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1971م
166 - الحياة العلمية في العراق في العصر الأموي، انتصار لطيف حسين السبتي، جامعة بغداد، رسالة دكتوراه عام 1998م.
167 - الخراج لأبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان 1399هـ - 1979م.
168 - الخراج منُذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، د. غيداء خزنة كاتبي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت 1997م.
169 - الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، محمد ضياء الدين، الطبعة الخامسة، القاهرة، مكتبة دار التراث، 1985م.

170 - الخراج، يحيى ابن آدم القرشي، الطبعة الأولى، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، بيروت، دار الشروق 1987م.
171 - الخطط للمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية 1987م.
172 - الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م.
173 - الخلافة الأموية، د. عبد الأمير حسين دكسن، الطبعة الأولى 1973م، دار النهضة العربية، بيروت.
174 - الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري جمعاً وترتيباً، إعداد د. يحيى بن إبراهيم اليحيى، دار الهجرة، الطبعة الأولى 1417هـ - 1996، السعودية.
175 - الخلافة العباسية، عصر القوة والازدهار، فاروق عمر فوزي، دار الشروق، عمّان، الطبعة الأولى 1998م.
176 - الخلافة والخلفاء الراشدين بين الشورى والديمقراطية، سالم البهنساوي، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية 1418هـ - 1997م.
177 - الخلافة والملك للمودودي، لأبي الأعلى المودودي، تعريب أحمد إدريس، دار القلم، الطبعة الأولى سنة 1398هـ - 1978م.
178 - الخلفاء الراشدون، حسن أيوب، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
179 - الخلفاء الراشدين، عبد الوهاب النّجار، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م.
180 - الخوارج، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار القدس، الطبعة الثانية، 1417هـ.
181 - الخوارج، ناصر العقل، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى 1416هـ.
182 - الخوارج، دراسة ونقد لمذهبهم، ناصر السعدي، دار المعرفة الدولية، الطبعة الأولى، الرياض، 1996م.
183 - الخوارج في العصر الأموي، نايف معروف، دار الطليعة بيروت، الطبعة الرابعة.
184 - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام السُيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت - لبنان.
185 - الدعوة العباسية: تاريخ وتطوّر، الدكتور حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية 1415 - 1995م.
186 - الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، د. علي أحمد مشاعل، دار العاصمة، الطبعة الأولى السعودية عام 1414هـ.

187 - الدواوين في العصر الأموي، نجم المسعودي، جامعة بغداد، رسالة ماجستير، عام 1989م.
188 - الدوحة النبوية، د. فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م.
189 - الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، إسماعيل الجبوري، هاشم يحيى الملاح، جامعة الموصل، رسالة الماجستير عام 1407هـ - 1987م.
190 - الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، السيد عمر، الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
191 - الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، د. حمدي شاهين، دار القاهرة.
192 - الدولة الأموية: فرست مرعي الدهوكي، ألوان للطباعة، الجامعة الجديد، صنعاء عام 1421هـ -2000م.
193 - الدولة الأموية، يوسف العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة 1406هـ - 1985م.
194 - الدولة الأموية المفترى عليها، حمدي شاهين، دار القاهرة للكتاب، سنة 2001م طبعة أولى.
195 - الدولة الأموية دولة الفتوحات، نادية محمود مصطفى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
196 - الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الهدم، محمد الطيب النجار، الطبعة الثالثة 1397هـ - 1977م.
197 - الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، عبد الله بن حسين الشريف، دار القاهرة، الطبعة الأولى السنة 2005م.
198 - الدولة الأموية في كتابات المسعودي، إبراهيم يوسف الأقصم، دار المجتمع، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
199 - الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، طبعة عام 2004م.
200 - الدولة والمجتمع في العصر الأموي، د. حمدي شاهين دار الوفاء، مصر عام 2001م.
201 - ديوان جرير، دار صادر، بيروت، عام 1991م.
202 - الرد علي الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار اللواء، الطبعة الثانية عام 1402هـ - 1982م.
203 - الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد، لابن الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي.
204 - الرفق بالحيوان، د. سلامة الهرفي، مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.

205 - الرقة والبكاء، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت الطبعة الثانية 1422هـ - 2001م.

206 - الروح لابن القيم، دار الكتاب العربي، تحقيق ودراسة الدكتور السيد الجميلي، الطبعة الثالثة عام 1408هـ - 1988م بيروت لبنان.

207 - الروض المعطار، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي، الحميري، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1937م.

208 - الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير، تأليف القاضي شرف الدين الحسين بن أحمد الساغي، مكتبة المؤيد بالطائف 1488هـ - 1968م.

209 - الرياض النَّضرة في مناقب العشرة، لأبي جعفر أحمد الشهير بالمحبِّ الطبريِّ، المكتبة القسّمة، القاهرة.

210 - الزهد للحسن البصري، د. محمد عبد الرحيم، دار الحديث، مصر.

211 - الزيدية نشأتها ومعتقداتها، القاضي إسماعيل ابن الأكوع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1418هـ - 1997م.

212 - السراج الوهاج في كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج، صديق حسن خان، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

213 - السفارات في التاريخ الإسلامي، يونس السامرائي.

214 - السلسلة الصحيحة للألباني، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

215 - السلطان لابن قتيبة، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المكتبة الأزهرية للتراث.

216 - السلطة والمعارضة في الإسلام، زهير هوّاري، الطبعة الأولى 2003م، المؤسسة العربية للدراسات.

217 - السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، دار الكتب، بيروت، لبنان، طبعة عام 1414هـ - 1993م.

218 - السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق ودراسة د. أكرم محمد سعيد سالم القحطاني، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الثالثة عام 1416هـ - 1995م.

219 - السنة للخلّال، أبو بكر بن أحمد بن محمد الخلال، تحقيق عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى 1410هـ.

220 - السنة ومكانتها في التشريع، للدكتور مصطفى السباعي، طبعة أولى، مطبعة المدني بمصر 1380هـ - 1961م.

221 - السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ - 1993م.

222 - السنن للدارمي، لأبي محمد الدارمي، المتوفى 255هـ، دار المحاسن، القاهرة، 1386هـ - 1966م.
223 - السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، بشير كمال بشير عابدين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن.
224 - السياسة الشرعية، تحقيق بشير عون، تقي الدين أحمد بن تيمية، دار البيان، دمشق 1405هـ.
225 - السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التُراث.
226 - السيرة النبوية للصَّلاَّبي، د. علي الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 2004م.
227 - السيف اليماني في نحر الأصفهاني للأعظمي، وليد الأعظمي، دار الوفاء، مصر، الطبعة الثانية 1410هـ - 1989م.
228 - الشام في صدر الإسلام، نجدت خمّاش، دار خلاسي سوريا، الطبعة الأولى 1987م.
229 - الشامل في تاريخ المدينة، د. عبد الباسط بدر، الطبعة الأولى 1414هـ - 1993م.
230 - الشرطة في العصر الأموي، تأليف د. أرسن موسى رشيد، ترجمة د. أحمد مبارك البغدادي، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م.
231 - الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، د. علي الصَّلاَّبي، مكتبة الصحابة، الشارقة.
232 - الشريعة للآجري، للإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، و تحقيق عبد الله بن عمر بن سليمان الرميحي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
233 - الشعر والشعراء لابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، تحقيق أحمد شاكر، الطبعة الثانية 1418هـ - 1998م.
234 - الشهب اللامعة في السياسية النافعة، لعبد الله بن يوسف بن رضوان، تحقيق د. سليمان الرّفاعي، دار المدار الإسلامية، الطبعة الأولى.
235 - الشيعة العربية والزيدية، محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م.
236 - الشيعة والسنة، إحسان إلهي ظهير، القاهرة، دار الأنصار 1979م.
237 - الشيعة وأهل البيت، إحسان إلهي ظهير، القاهرة، دار الأنصار 1979م.
238 - الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري عند العرب والترك، د. حسين مجيد المصري، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.

239 - الصواعق المحرقة في الردّ على أهل البدع والزندقة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر الهيثمي، دار الكتب العلمية.
240 - الضرائب في السواد في العصر الأموي، عبد العزيز الدوري، في بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم محمود غرايبة بمناسبة بلوغه الخامسة والستين، عمان، 1988م.
241 - العالم الإسلامي في العصر الأموي، د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف، الطبعة الثالثة 1417هـ - 1996م دار الاتحاد التعاوني للطباعة بمصر.
242 - العالم الإسلامي في العصر العباسي، د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، القاهرة.
243 - العبر في خبر من غبر، للذهبي، نشر مطبعة حكومة الكويت.
244 - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لابن خلدون.
245 - العبرة مما جاء في الغزو والشهادة، صديق حسن القنوجي، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، 1405هـ.
246 - العدالة الاجتماعية، سيد قطب.
247 - العراق في العصر الأموي، ثابت الراوي، مكتبة الأندلس، بغداد، رسالة ماجستير.
248 - العراق في عهد الحجاج، طه عبد الواحد.
249 - العصبية في ضوء الإسلام، د. هاشم محمد علي المشهداني، الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م، دار الثقافة بالدوحة، قطر.
250 - العصر العباسي الأول، عبد العزيز الدوري، دار الطليعة، بيروت، 1945م 1988م.
251 - العصرانيون، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى 1996م.
252 - العقد الفريد، أحمد بن محمد ابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين.
253 - العقيدة الواسطية لابن تيمية مع شرحها، لمحمد خليل هرّاس.
254 - العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط، د. سليمان بن سالم بن رجاء السُّحيمي، مكتبة الإمام البخاري، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م.
255 - العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، د. سعيد عبد الله حارب المهيري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1416هـ - 1995م
256 - العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية، محمد النجرامي.
257 - العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، صالح حسن عيد عيسى الشمري، جامعة بغداد، رسالة ماجستير، عام 1408هـ - 1988م.

258 - العلل المتناهية لابن الجوزي، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1403هـ.

259 - العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، الدكتور عبد الله علي المسند، دار المنار، القاهرة، طبعة عام 1412 هـ - 1991م.

260 - العواصم من القواصم، القاضي أبو بكر بن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب، إعداد محمد سعيد مبيض، دار الثقافة، قطر، الدوحة، الطبعة الثانية 1989م.

261 - العيون والحدائق، مؤلف مجهول، من رجال القرن الرابع، طبع ليدن 1869م.

262 - الفتح الرباني للساعاتي، في ترتيب الإمام أحمد، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير «بالساعاتي»

263 - الفتن لأبي عمرو الداني.

264 - الفتن لنعيم بن حماد.

265 - الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز إبراهيم العُمري، مركز الدراسات والإعلام دار إشبيليا، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

266 - الفتوح لابن أعثم.

267 - الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين، جميل عبد الله المصري، دار القلم، دمشق، الدّار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى 1411هـ - 1994م.

268 - الفتوى: نشأتها وتطورها، حسين الملاح، المكتبة العصرية، لبنان، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.

269 - الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية.

270 - الفخري في الآداب السلطانية ابن طباطبا، المكتبة التجارية، مصر 1345هـ.

271 - الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي، د. محمد إبراهيم الفيومي، دار الشروق، الطبعة الأولى 1419هـ - 198م.

272 - الفرق بين الفرق، أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، طبع مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة.

273 - الفقهاء والخلفاء، سلطان حثلين، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى 1421هـ - 2000م.

274 - الفن العسكري الإسلامي، د. ياسين سويد، الطبعة الأولى 1988م - 1409هـ.

275 - الفهرست لابن النديم.

276 - القبورية في اليمن، أحمد بن حسين المعلم، مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات العلمية، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.

277 - القدرية جدلية الدين والسياسة في الإسلام حركة يزيد بن الوليد، نموذجاً، مضر عدنان طلفاح، مؤسسة حمادة للنشر والتوزيع، الأردن 2004م.
278 - القدرية والمرجئة، د. ناصر العقل، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
279 - القدرية والمرجئة للعقل، ناصر العقل.
280 - القرّاء ودورهم في الحياة العامة في صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادي حسين حمود د. خالد العسيلي، 1404هـ - 1984م.
281 - القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية 1418هـ - 1997م.
282 - القضاء والقدر لمحمد بن إبراهيم الحمد.
283 - القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، د. عبد الرحمن الحميضي، مكتبة التوبة، الرِّياض، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1986م.
284 - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ محمد الصالح العثيمين.
285 - القيامة الكبري للأشقر، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثالثة عام 1415هـ - 1995م.
286 - القيروان عبر العصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، د. الحبيب الجنحاني، الدار التونسية 1968م.
287 - الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشَّيباني المعروف، بابن الأثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1408هـ - 1989م.
288 - الكامل في الرجال، أحمد بن عبد الله ابن عدي، دار الفكر، بيروت الطبعة الثانية، 1405هـ.
289 - الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز، لأبي حفص عمر بن الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقي اليورنو، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1996م.
290 - اللحظات الأخيرة في حياة العظماء للغزالي، محمد محمد الغزالي، تحقيق محمد عبد الرحيم، مؤسسة عز الدين، الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م.
291 - المبسوط للسرخسي، شمس الدين محمد بن أبي سهل السرخسي، دار المعرفة، بيروت، 1409هـ - 1989م.
292 - المجتمع الإسلامي، دعائمه وآدابه، د. محمد أبو عجوة، الناشر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، نوفمبر 1999م

293 - المجددون في الإسلام، عبد المتعال الصعيدي، دار الحامي للطباعة، مصر.
294 - المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي، دار صادر، بيروت.
295 - المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للقاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى سنة 360هـ، تحقيق د. محمد عجاج الخطيب.
296 - المحلى، تأليف علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة 456هـ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة وهو أحد منشوراتها: بيروت.
297 - المحن لأبي العرب، محمد بن أحمد التميمي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الأولى 1404هـ.
298 - المدخل، ناجي معروف.
299 - المدخل لابن الحاج، لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري، الشهير بابن الحاج، دار الفكر 1402هـ.
300 - المدينة النبوية، فجر الإسلام والعصر الراشدي، محمد محمد حسن شُرَّاب، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ - 1994م.
301 - المدينة في العصر الأموي، محمد محمد حسن شرّاب، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت.
302 - المراسيل لأبي حاتم، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1397هـ.
303 - المستدرك على الصّحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ - 1990م.
304 - المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، الدكتور عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد، دار الضياء، الطبعة الأولى 1408هـ - 1987م الأردن، عمّان.
305 - المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
306 - المسلمون في الغرب والأندلس، محمد زيتون، دار الوفاء للطباعة والقاهرة 1404هـ 1984م.
307 - المعارف لابن قتيبة، تحقيق ثروة عكاشة، الطبعة الثالثة، دار المعارف - مصر.
308 - المعجم الكبير للطبراني، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية 1406هـ - 1985م.
309 - المعرفة والتاريخ للإمام يعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد.

310 - المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني البصري، المتوفى سنة 250هـ، تحقيق عبد المنعم عامر.

311 - المغني لابن قدامة، للإمام أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، متوفى سنة 620هـ، نشر مكتبة الجمهورية العربية بالقاهرة.

312 - المفهم للقرطبي، لأبي العباس القرطبي.

313 - المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق محيي الدين ديب مستو، يوسف بدوي، دار ابن كثير، بيروت، دمشق، دار الكلم الطيب - بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ.

314 - الملل والنحل للشهرستاني، محمد عبد الكريم، نشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة 1956م.

315 - المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب الطبعة الثانية، 1402هـ.

316 - المناهج الإسلامية لدراسة التاريخ وتفسيره، د. محمد رشاد خليل، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م.

317 - المنتخب والمختار في النوادر والأشعار، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق د. عبد الرزاق حسين، دار عمار، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى 1415هـ - 1994م.

318 - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

319 - المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، لأبي عبد الله محمد ابن عثمان الذهبي، علق عليه محب الدين الخطيب.

320 - المنهج المسلوك للشيرازي.

321 - المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، باب ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيى بن المرتضى، دار صادر، بيروت، مصورة عن طبعة 1316هـ.

322 - الموالي في العصر الأموي، محمد الطيب النجار، الطبعة الأولى 368هـ - 1949م.

323 - الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999م.

324 - الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت.

325 - الموضوعات لابن الجوزي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ.

326 - الموطأ للإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1405هـ - 1984م
327 - الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، تأليف عبد العزيز أحمد بن حامد، غراس للنشر، الكويت، الطبعة الأولى 1422هـ.
328 - النجوم الزاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
329 - النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وهاشم، تقي الدين أحمد علي المقريزي، تحقيق د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1988م.
330 - النسيج الإسلامي، سعاد ماهر.
331 - النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الريس، الطبعة السابعة، دار التراث 1979م.
332 - النظرية الإسلامية في الدولة الإسلامية، حازم الصعيدي، دار النهضة مصر، الطبعة الأولى 1397هـ.
333 - النظم الإسلامية، أنور الرفاعي، دار الفكر، عام 1973م.
334 - النظم الإسلامية للعدوي.
335 - النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، محمد بن مشيب بن سلمان القحطاني، منشورات جامعة أم القرى، طبعة عام 1418هـ.
336 - النهاية في الفتن والملاحم، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة بيروت، لبنان.
337 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق محمود محمد الطناجي، الطبعة الأولى عام 1393هـ - 1963م دار إحياء الكتب.
338 - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، محمد ماهر حماده، دار النفائس مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة 1403هـ - 1983م.
339 - الوزراء للجهشياري.
340 - الوزراء والكتاب، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي الجهشياري، طبع القاهرة 1938م.
341 - الوسطية في القرآن الكريم، د. علي محمد الصَّلاّبي دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 2005م.
342 - الوصية السياسية في العصر العباسي، الدكتور حقي إسماعيل إبراهيم، دار الفكر للطباعة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2002م - 1422 هـ.

343 - الوفادات على الخلفاء الأمويين، د. جاسم محمد البدراني، دار الكتاب، دار المتنبي، الطبعة الثانية 2004م - 1424هـ.
344 - الوفيات بالوفيات للصدفي.
345 - الولاة وكتاب القضاة للكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.
346 - الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد العزيز إبراهيم العمري، الطبعة الأولى 1409هـ.
347 - الوليد بن عبد الملك، للكاشف.
348 - الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.
349 - اليهود في السنة المطهرة، د. عبد الله الشقاري، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م.
350 - أمالي المرتضى، للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر 1954م.
351 - امتداد العرب في صدر الإسلام، صالح العلي.
352 - أمراء دمشق في الإسلام، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقي، دمشق 1955م.
353 - أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغندي، المتوفى سنة 312 هـ، خرج أحاديثه وعلق عليها محمد عوامه، نشر مؤسسة علوم القرآن.
354 - أمير المؤمنين معاوية لابن تيمية، محمد مال الله، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى 1410هـ - 1989م.
355 - أنباء نجباء الأبناء، لأبي عبد الله محمد بن أبي محمد بن ظفر المكي العقّلي، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980م.
356 - انتشار الإسلام في القرن الإفريقي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، محمود محمد هملان الجبارات، ماجستير، جامعة النيلين، 1998م - 1999م.
357 - أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، طبع بيروت، عام 1989م.
358 - أهل الحل والعقد، عبد الله الطريقي، دار الفضيلة، الطبعة الثانية 1425هـ - 2004م الرياض.
359 - أوليات الفاروق، د. غالب عبد الكافي القرشي، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة الأولى 1406هـ - 1983م.

360 - إيران في ظل الإسلام، عبد المنعم حسنين، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى 1408هـ.

361 - بدائع الزهور، محمد بن أحمد بن إياس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة الطبعة الثانية 1404هـ.

362 - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر بن مسعود الكاساني، المتوفى سنة 587 هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية سنة 1402هـ - 1982م.

363 - بر الوالدين، أم حفص عبير بنت محمد التويجي، دار طيبة، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.

364 - براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف في الاعتقاد، عدنان عبد القادر، دار الإيمان، الإسكندرية.

365 - بغية الطالب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.

366 - بماذا انتصر المسلمون، أنور الجندي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة 1407هـ - 1987م.

367 - بنو أمية بين السقوط والانتحار، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.

368 - بهجة المجالس، ابن عبد البر.

369 - بهجة المجالس، للقرطبي.

370 - تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، عبد اللطيف بن عبد القادر الحفظي، دار الأندلس، الطبعة الأولى 1421هـ - 2000م

371 - تاريخ أبي زرعة، تحقيق شكر الله نعمة الله القوجاني، مطبوعات اللغة العربية بدمشق.

372 - تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع، بيروت، 1957م.

373 - تاريخ إفريقية والمغرب، لابن الرقيق.

374 - تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي.

375 - تاريخ الإسلام في عهد معاوية للذهبي، محمد أحمد الذهبي.

376 - تاريخ الإسلام للذهبي، محمد أحمد الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1989م.

377 - تاريخ الإسلامي الثقافي والسياسي، صائب عبد الحميد، دار الغدير، بيروت، لبنان، الطبعة.

378 - تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات مصر، الكويت، الطبعة الأولى 1975م.

379 - تاريخ الجدل، أبو زهرة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

380 - تاريخ الخلفاء، لجلال الدين السُّيوطي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ - 1997م.
381 - تاريخ الدعوة الإسلامية لمحمد جميل، الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.
382 - تاريخ الدولة الأموية، طقوس، د. محمد سهيل طقوس، دار النفائس، لبنان.
383 - تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت 1961م.
384 - تاريخ الطبري، المسمى بتاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطبري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.
385 - تاريخ العالم الإسلامي الدولة الأموية في الشرق، د. محمد الطيب النجار، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة 1406هـ - 1985م.
386 - تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، د. علي حسن الخربوطلي، دار المعارف بمصر، طبعة 1959م.
387 - تاريخ العرب المطول، فيليب حتي، ترجمة الدكتور جبرائيل جبور، دار الكشاف، 1952م.
388 - تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، ليبيا، الطبعة الثالثة.
389 - تاريخ القدس، للعارف.
390 - تاريخ القضاء في الإسلام، د. أحمد عبد المنعم البهي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة 1965م.
391 - تاريخ القضاة في الإسلام، د. محمد الزحيلي، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م.
392 - تاريخ القضاعي، كتاب عيون المعارف، وفنون أخبار الخلائف، للإمام القاضي، محمد ابن سلام بن جعفر الشافعي، مطبوعات أم القرى.
393 - تاريخ المدينة، أبو زيد عمر بن شبّه النميري البصري، تحقيق د. محمود شلتوت، نشر السيد حبيب المدينة 1393هـ.
394- فتنة مقتل عُثمان د. محمد عبد الله الغُبان، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.
395 - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، بيروت، 1962م.
396 - تاريخ المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت 1981م.

397 - تاريخ الموصل، أبو زكريا، يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم، تحقيق الدكتور علي حبيبة، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة 1967 م.

398 - تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر، طبعة 1400هـ - 1980م.

399 - تاريخ اليمن، ابن عبد المجيد اليماني.

400 - تاريخ بخارى للنرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر، عرّبه عن الفارسية وحققه د. أمين بدوي نصر الله الطرازي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

401 - تاريخ بلاد الشام، أحمد إسماعيل علي، دار دمشق، الطبعة الثالثة 1994م، سوريا.

402 - تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدّور في العصور الإسلامية، إبراهيم بيضون، الطبعة الأولى 1417 هـ - 1997م، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.

403 - تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، عاطف رحال بيسان، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2000م.

404 - تاريخ خلافة بني أمية، نبيه عاقل، دار الفكر، الطبعة الثالثة 1394هـ - 1975م.

405 - تاريخ خليفة بن خيّاط، أبو عمر خليفة بن خيّاط بن أبي هبيرة الليثي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، مؤسسة الرّسالة، دار القلم، بيروت 1397هـ.

406 - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حتي، ترجمة كمال اليازجي، طبع دار الثقافة بيروت 1959م.

407 - تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى 1402 هـ - 1982م.

408 - تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، د. هاني أبو الرُب، منشورات بيت المقدس، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الأول 2002م.

409 - تاريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن النباهي 793هـ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

410 - تاريخ مكة، أحمد السباعي، طبعة عام 1419هـ - 1999.

411 - تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، تحت الطبع.

412 - تأويل مختلف الحديث، لعبد الله بن مسلم بني قتيبة الدينوري، مطبعة كردستان العلمية بمصر 1326هـ.

413 - تجديد الدولة الأموية، شهادة الناطور، دار الكندي، إربد، الطبعة الأولى 1996م - 1416 هـ.

414 - تحذير العبقري من محاضرات الخضري أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار، محمد العربي التباني، دار الكتب العلمية، بيروت.

415 - تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة في روايات الطبري والمحدِّثين، تأليف د. محمد أمحزون، دار طيبة، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى 1415هـ - 1994م.

416 - تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

417 - تذهيب التذهيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبع حيدر آباد، الدكن 1325هـ.

418 - ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، خلافة عمر، د. محمد صامل السُّلمي، دار الوطن، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

419 - تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، أحمد الكاتب، عمان الأردن، 1997م الطبعة الأولى.

420 - تطوير نظام ملكية الأراضي، محمد علي نصر الله، الطبعة الأولى، منشورات دار الحداثة بيروت، 1982م.

421 - تفسير ابن أبي حاتم.

422 - تفسير الألوسي، المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة بالهند، بدون ذكر سنة الطبع.

423 - تفسير التابعين، د. محمد بن عبد الله بن علي الخضري، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى 1420هـ - 1999م.

424 - تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

425 - تفسير السعدي، للشيخ عبد الرحمن السعدي، دار ابن الجوزي، السعودية.

426 - تفسير الطبري، المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1412هـ - 1992م.

427 - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير القرشيّ، دار الفكر، دار القلم، بيروت، لبنان.

428 - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

429 - تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية، الدار السلفية، الهند.

430 - تفسير مجاهد، لمجاهد بن جبر المكي، تحقيق عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي، الطبعة الأولى 1369هـ.

431 - تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مراجعة: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، المدينة المنورة 1384هـ، 1964م.

432 - تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة، د. عفاف بنت حسن بن محمد مختار، مكتبة الرشد، الرياض عام 2000م، الطبعة الأولى.
433 - تنزيه خال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان من الظلم والفسق في مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، لأبي يعلى محمد الفرّاء، دار النبلاء، عمّان 2001م.
434 - تنظيمات الجيش في العصر الأموي، خالد جاسم الجنابي، بغداد 1984م.
435 - تهذيب الأسماء واللغات، للإمام النووي.
436 - تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، حيدر آباد، الدكن، نشر دار صادر، بيروت سنة 1322هـ.
437 - تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لأبي الحجاج جمال الدين يوسف المزني، بيروت الطبعة الثانية، 1403هـ.
438 - ثمار القلوب للثعالبي.
439 - ثورة زيد بن علي، ناجي حسن، جامعة بغداد، عام 1964م - 1384هـ.
440 - ثورة زيد بن علي، ناجي حسن، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى 2000م - 1421هـ.
441 - جامع الأصول في أحاديث الرسول، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري.
442 - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي، د. يوسف البقاعي، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى عام 1995م.
443 - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، تصوير دار الكتب العلمية 1398هـ بيروت.
444 - جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1405هـ - 1985م.
445 - جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد الحميد قطامش، المؤسسة العربية، الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى 1384هـ.
446 - جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1382هـ - 1962م.
447 - جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهدة، لأحمد زكي صفوت، طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر 1933م.
448 - جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، وفاء المزروعي، دار القاهرة، الطبعة الأولى عام 2003م.
449 - جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية للشيخ محمد بن عبد الوهاب، صححه وعلق عليه: محمد رشيد رضا.

450 - جواهر الأدب، للهاشمي، السيد أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان.
451 - جواهر الإكليل شرح مختصر خليل في مذهب الإمام مالك، للشيخ صالح عبد السميع الآبي الأزهري، دار المعرفة، بيروت.
452 - جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، الطبعة الخامسة 1416هـ - 1995م.
453 - حاشية عابدين، مطابع مصطفى البابي وأولاده.
454 - حركة الخوارج، لطيفة البكّائي.
455 - حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، د. لطيفة البكاي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى 2001م.
456 - حركة الفتح الإسلامي، شكري فيصل، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة 1982م.
457 - حركة النفس الزكية، محمد العبده، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثانية 1406 هـ - 1986م.
458 - حسن البيان عما بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران، محمد النيفر، المطبعة التونسية 1353 هـ.
459 - حسن المحاضرة للسيوطي، المطبعة الشرقية.
460 - حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان الإسكندرية.
461 - حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى 1992م.
462 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتب العلمية بيروت.
463 - حياة الحسن البصري، د. روضة الحصري، دار الكلم الطيبة، دمشق، الطبعة الأولى 1422هـ - 2002م.
464 - حياة الحيوان للدميري، كمال الدين محمد بن عيسى الدميري، المطبعة الكستلية، سنة 1419هـ.
465 - خاص الخاص، للثعالبي.
466 - خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصَّلاَّبيّ، دار المعرفة، بيروت 2004م الطبعة الأولى.
467 - خلافة سليمان بن عبد الملك، علي إبراهيم عبابنة، مؤسسة حمادة للدراسة عام 2004م.
468 - خلافة عثمان، د. السلمي، محمد بن صامل السُلمي، مكتبة سالم العزيزية، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى 1419هـ.

469 - خلافة علي بن أبي طالب، دراسة نقدية للروايات، رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية 1412هـ.

470 - خلافة علي بن أبي طالب للسلمي، محمد صامل السّلمي.

471 - خلافة معاوية، د. عمر العقيلي، الرياض، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، الرياض، 1404هـ - 1984م.

472 - دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتناوي وإخوانه.

473 - داهية العرب أبو جعفر المنصور مؤسس دولة بني العباس، دار الطليعة، بيروت 1963م.

474 - درء الغاوية عن الوقيعة في خال المؤمنين معاوية، لأبي محمد زكريا علي القحطاني، مكتبة العلوم والحكم المدينة، الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م.

475 - دراسات في الأهواء والفرق والبدع، د. ناصر عبد الكريم العقل، مركز الدراسات والإعلام، دار أشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

476 - دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها، مركز الدراسات والإعلام، دار أشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

477 - دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، د. عبد الجبار ناجي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1954م.

478 - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادي.

479 - دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1403 هـ - 1983م.

480 - دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، عبد الرحمن الشجاع، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.

481 - دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، د. محمد بطاينة، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى 1420هـ - 1999م.

482 - دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، دار الوفاء الطبعة الثالثة 1410هـ - 1989م.

483 - دفاعاً عن السلفية، عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، الطبعة الرابعة 1420هـ - 1999م.

484 - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر محمد البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى 1405هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

485 - دموع القرّاء، محمد شومان، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى 1423هـ - 2003م.

486 – دور المرأة العربية في الحركة الفكرية منذُ صدر الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، نوال عباس حسين، جامعة بغداد، 1407هـ – 1987م.

487 – دول الإسلام للذهبي، لأبي عبد الله محمد الذهبي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1999م.

488 – دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي.

489 – دولة الأمويين، د. علي حبيبة، الناشر مكتبة الشباب بمصر.

490 – ديوان أبي الأسود الدؤلي، ظالم بن عمر بن سفيان بن جندي، تحقيق محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة 1964م.

491 – ديوان الجند، عبد العزيز عبد الله السّلومي، جامعة أم القرى، رسالة ماجستير عام 1405هـ – 1985م.

492 – ديوان الردة، د. علي العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمّان، الطبعة الأولى 1408هـ – 1987م.

493 – ديوان ذي الرمة.

494 – ديوان عبيد الله بن قيس، تحقيق محمد يوسف.

495 – ذم الدنيا لابن أبي الدنيا.

496 – ذو النورين عثمان بن عفان، محمد مال الله، مكتبة ابن تيميَّة، الطبعة الأولى 1410هـ – 1989م.

497 – رأس الحسين، لابن تيمية، مطبعة المدين، القاهرة 1397هـ.

498 – رجال الإدارة في الدولة الإسلامية، د. حسين محمد سليمان، دار الإصلاح، السعودية.

499 – رجال الفكر للندوي، أبو الحسن، الطبعة الأولى1420هـ – 1999م، دار ابن كثير، دمشق.

500 – رسائل العدل والتوحيد، للإمام يحيى بن الحسين، تحقيق محمد عمارة، دار الهلال.

501 – رسائل توحيد الألوهيةِ أساس الإسلام، للباحث حامد عبدِ القادرِ الأحمدي، مطبوع على الآلة الكاتبة.

502 – رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية.

503 – روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام محيي الدين بن شرف النووي، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية سنة 1405هـ – 1985م.

504 - رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، الطبعة الثانية 1406هـ - 1986م الإمارات العربية المتحدة.

505 - رياض النفوس للمالكي، أبو بكر عبد الله المالكي، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة.

506 - زاد المسير في علم التّفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي القرشي البغدادي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى 1384هـ - 1965م.

507 - زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبد الله بن القيم، حققه شعيب الأرناؤوط وعبد القادر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1399هـ.

508 - زهر الآداب للحصري.

509 - زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، صالح محمد الرواضية، مكتبة جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى 1994م.

510 - زيد بن علي، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي بمصر.

511 - سبل السلام شرح بلوغ المرام، محمد إسماعيل الضعالني تحقيق فواز مرلي، إبراهيم الجمل، دار الكتاب العربي.

512 - سراج الملوك للطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الأندلس، الطرطوشي، طبعة الإسكندرية، المطبعة الوطنية 1289هـ - 1872م.

513 - سرح العيون لابن نباتة، شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الأولى، مصر 1377هـ - 1957م.

514 - سعيد بن المسيب، سيد التابعين، د. وهبة الزحيلي، دار القلم، دمشق.

515 - سفراء النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م.

516 - سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، عبد العزيز الثعالبي، دار الغرب الإسلامية، بيروت 1995م.

517 - سكب العبرات للموت والقبر والسكرات، سيد حسين العفاني، مكتبة معاذ بن جبل، مصر، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م.

518 - سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي، المطبعة السلفية، مصر 1380هـ.

519 - سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت.

520 - سنن أبي داود، للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، مراجعة وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية.
521 - سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر 1398م.
522 - سنن سعيد بن منصور، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الثانية 1420هـ - 2000م.
523 - سياسة الإنفاق العام في الإسلام، عوف محمود الكفراوي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة 1409هـ -1989م.
524 - سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1402 هـ.
525 - سير الشهداء: دروس وعبر، عبد الحميد السحيباني، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.
526 - سيرة خليفة رسول الله أبي بكر الصديق، د. علي محمّد الصلاّبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م.
527 - سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ما له وما عليه، لأبي عبد الرحمن جمال بن محمد بن محمود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2004م - 1424هـ.
528 - سيرة الوليد بن يزيد، د. حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة.
529 - سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصَّلاَّبي دار المعرفة، بيروت، طبعة أولى 1425هـ - 2004م.
530 - سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال حمزة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ - 1998م.
531 - سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
532 - سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، أبو محمد عبد الله، دار العلم للملايين، بيروت 1387هـ - 1967م.
533 - سيرة عمر لابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، تحقيق محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد مصر، 1331هـ.
534 - شاعرات العرب، عبد البديع صقر.
535 - شجرة الإيمان، للسعدي.
536 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان.
537 - شخصيات إسلامية للعقاد، ضمن موسوعة العقاد، دار الفكر العربي، بيروت.
538 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي.

539 - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق د. أحمد سعد حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة 1994.

540 - شرح البلاغة لابن أبي الحديد، أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ابن أبي الحديد، تحقيق الأستاذ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ.

541 - شرح الصدور ببيان بدع الجنائز والقبور، لأبي عمر عبد الله بن محمد الحمادي، مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م.

542 - شرح العقيدة الطحاوية، محمد علي الأذرعي، خرّج أحاديثها: محمّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

543 - شرح صحيح مسلم للإمام النووي، نشر وتوزيع رئاسة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

544 - شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى عام 1410هـ - 1990م.

545 - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، طبعة دار التراث، القاهرة.

546 - شهيد الدار، عثمان بن عفان، أحمد الخروف، دار البيارق، دار عمّار، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

547 - صحيح الأدب المفرد للألباني، محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الجبيل الطبعة الأولى 1414هـ.

548 - صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى 1411هـ - 1991م.

549 - صحيح الجامع الصغير للألباني، المكتب الإسلامي.

550 - صحيح سنن ابن ماجه، للألباني، مكتبة التربية العربي لدول الخليج الرّياض، الطبعة الثالثة 1408هـ - 1988م.

551 - صحيح سنن الترمذي، للألباني، المكتب الإسلامي.

552 - صحيح سنن النسائي، للألباني، المكتب الإسلامي

553 - صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1992م.

554 - صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحي شعبان، الأهلية، بيروت 1987م.

555 - صفة الصفوة، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.

556 - صفحات مشرقة للتاريخ الإسلامي، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار الإيمان، الإسكندرية، الطبعة الأولى 2003م.

557 - صفحات من التاريخ الإسلامية، في الشمال الأفريقي، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار البيارق، عمّان، الطبعة الأولى، 1998م.

558 - صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1417هـ - 1997م.

559 - صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامة الهرفي، دار الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى.

560 - طبقات الفقهاء للشيرازي، إبراهيم علي الشيرازي، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت 1978م.

561 - طبقات، بن سعد، دار صادر، بيروت لبنان.

562 - طبيعة الدعوة العباسية، د. فاروق عمر فوزي، الطبعة الأولى، عام 1389 هـ - 1970م.

563 - عالم الحجاز والشام: الإمام الزهري، محمد محمد شرّاب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1413هـ - 1993م.

564 - عبادة بن الصامت: صحابي كبير، وفاتح مجاهد، الدكتور وهبة الزُّحيلي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة 1408هـ - 1998م.

565 - عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره في أحداث العصر الأموي، بديع محمد إبراهيم الدليمي، د. فاروق عباس وهيب، جامعة بغداد، 1998م.

566 - عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م

567 - عبد الله بن الزبير، د. شحادة الناطور، دار ابن رشد، عمّان.

568 - عبد الله بن الزبير فقيهاً، محمد عبد الرضا هادي، رسالة ماجستير، العراق، 1997م - 1418هـ.

569 - عبد الله بن الزبير للخراشي، عبد الله عثمان الخراشي، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، كلية الآداب 1408هـ.

570 - عبد الله بن الزبير، محمد بن عبد الرضا هادي.

571 - عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م.

572 - عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، سلمان بن حمد العودة، دار طيبة الرّياض، الطبعة الثالثة، 1412هـ.

573 - عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة 1407هـ - 1987م.
574 - عبد الملك بن مروان، محمد ضياء الريس.
575 - عبد الملك بن مروان وأسرته، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى 1419هـ - 1998م.
576 - عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، الدكتور محمد ضياء الدين الريس، الطبعة الثانية 1969م.
577 - عبقرية الإسلام في أصول الحكم، الدكتور منير العجلاني، دار النفائس، بيروت الطبعة الثانية 1409هـ - 1988م.
578 - عثمان بن عفان: الخليفة الشاكر الصابر، عبد السّتار الشيخ، الطبعة الأولى 1412هـ - 1991م.
579 - سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، علي محمّد الصّلاّبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 2004م.
580 - عصر الدولتين الأموية والعباسية، للصّلاّبي، مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.
581 - عصر هشام بن عبد الملك، عبد المجيد الكبيسي، جامعة بغداد، قسم الآداب، عام 1974م.
582 - عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى 1407هـ.
583 - عقيدة الإمام ابن قتيبة، علي العلياني، مكتبة الصديق، السعودية، الطبعة الأولى 1412هـ - 1991م.
584 - عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، د. ناصر بن علي عائض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى 1413هـ -1993م.
585 - علموا أولادكم محبة آل بيت النبي، د. محمد عبده يماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة، الطبعة الثانية 1418هـ - 1998م.
586 - علوم الحديث لابن الصلاح بشرح العراقي، مطبعة العاصمة الفلكي، القاهرة سنة 1389هـ - 1969م.
587 - عمر بن عبد العزيز، صالح العلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى 2000م
588 - عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق.

589 - عمر بن عبد العزيز، د.وهبة الزُّحيلي، دار قتيبة، الطبعة الثالثة 1419هـ - 1998م

590 - عمر بن عبد العزيز للشرقاوي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.

591 - عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم، ماجدة فيصل، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.

592 - عمر والحسين، علاء الدين المدرس، دار الأمل، إربد.

593 - عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رية الطبعة الأولى 1408هـ - 1988م.

594 - عمرو بن العاص، الأمير المجاهد، د. منير الغضبان، أم القرى، الطبّعة الأولى 1420هـ.

595 - عمرو بن العاص، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1969م.

596 - عمرو بن العاص للعقاد، محمود العقّاد، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1969م.

597 - عوامل ازدهار الحضارات الإنسانية وانهيارها، أسيد خليل صبحي القطو، رسالة دكتوراه، جامعة القرآن الكريم السودان، 1417هـ - 1997م.

598 - عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية 1407هـ - 1987م.

599 - عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحقّ العظيم آبادي، ضبط وتحقيق د. عبد الرحمن محمد عثمان، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

600 - عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1406 هـ - 1986م.

601 - عيون الأخبار لابن قتيبة.

602 - غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان 1979م.

603 - فاتح الأندلس طارق بن زياد، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، سوريا.

604 - فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

605 - فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر.

606 - فتنة السلطة الصراع ودوره في نشأة بعض غلاة الفرق الإسلامية من القرن الأوّل حتى القرن الرابع الهجري، عواطف العربي شنقارو، دار الكتاب الجديد.

607 - فتوح البلدان للبلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، بيروت، دار الكتب العلمية 1403هـ - 1983م.

608 - فتوح الشام للواقدي، محمد عمر الواقدي، دار ابن خلدون.

609 - فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، نسخة عن طبعة لندن (123هـ - 1920م) نشر مكتبة المثنى، بغداد.

610 - فجر الإسلام، أحمد أمين، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1929م.

611 - فجر الأندلس، د. حسين مؤنس، القاهرة، 1959م.

612 - فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، دار طويق، الرياض - 1419هـ - 1998م.

613 - فرسان من عصر النبوة، أحمد خليل جمعة، دار اليمامة، دمشق، الطبعة الأولى 1420هـ - 1999م.

614 - سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 1424هـ -2003م.

615 - فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، الشيخ محمد صالح أحمد الغرسي، دار السلام، مصر الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م.

616 - فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل، دار ابن الجوزي، السُّعودية، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999م.

617 - فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، للقاضي عبد الجبار أحمد الهمذاني، الدار التونسية للنشر 1974م، تونس.

618 - فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوي، دار الوفاء بالمنصورة، الطبعة الثانية 1412هـ - 1992م.

619 - فقه الفقهاء السبعة وأثره في فقه الإمام مالك المهدي الوافي، أضواء السلف، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.

620 - فقه عمر بن عبد العزيز، محمد شقير، دار الرشد، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م

621 - فوات الوفيات، لابن شاكر.

622 - في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر.

623 - في التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، سوريا، طبعة عام 1417هـ - 1996م.

624 - في التاريخ العباسي والفاطمي، أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

625 - في التأصيل الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى 1418 هـ - 1998م.
626 - في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى 1406هـ - 1985م.
627 - في الحرب الإسلامي للعسلي، بسام العسلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408هـ - 1998م.
628 - في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، محمد ضيف الله بطاينة، دار الفرقان.
629 - في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة التاسعة 1400هـ - 1980م.
630 - في قصور الأمويين، الدكتور محمد رجب، البيومي، الطبعة الأولى 1400هـ - 1980م مطبعة السعادة، مصر.
631 - فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان الطبعة الأولى 1994م.
632 - قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1419 هـ - 1998م.
633 - قادة الفتح الإسلامي في ما وراء النهر، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1418هـ - 1998م.
634 - قادة الفتح في بلاد ما وراء النهر، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء.
635 - قادة فتح السند وأفغانستان، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1418هـ - 1998م.
636 - قادة فتح الشام ومصر، محمود شيت خطاب، دار الفكر.
637 - قادة فتح المغرب، محمود شيت خطاب، دار الفكر.
638 - قتيبة بن مسلم الباهلي، غانم السلطاني، جامعة بغداد، د. عبد الرحمن عبد الكريم العاني، 1405هـ - 1985م.
639 - قدوة الحكام والمصلحين عمر بن عبد العزيز مجدداً ومصلحاً، د. محمد صدقي أحمد البّورنوا الغزي، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى 1413هـ - 1992م الرياض.
640 - قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي، دار النفائس، بيروت، لبنان الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م.
641 - قصائد الزهد لمحمد أحمد السيد، مكتبة السوادي الطبعة الثالثة، 1411هـ - 1991م.
642 - قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، مطابع الدجوي، القاهرة.

643 – قصص لا تثبت، سليمان بن صالح الخراشي، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى 1420هـ – 1999م.

644 – قضاة دمشق لابن طولون، مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق 1965م.

645 – قضية الثواب والعقاب، د. جابر زايد عبد السّميري، الدار السودانية، الخرطوم، الطبعة الأولى 1416هـ – 1995م.

646 – قيم المجتمع، أكرم ضياء العمري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية.

647 – كتاب الشكر لله، لابن أبي الدنيا.

648 – كتاب المتوارين، للأزدي.

649 – كتاب الورع، لابن أبي الدنيا.

650 – كتب حذر منها العلماء، لأبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار الصميعي، الطبعة الأولى 1415هـ – 1995م.

651 – كشف الأستار عن زوائد البزار، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1404هـ.

652 – كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟ محمد قطب، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى 1412هـ.

653 – لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور، دار صادر، بيروت.

654 – لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية 1331هـ – 1912م.

655 – لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة، للجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، تحقيق فوقية حسين محمود، الناشر، الدار المصرية.

656 – مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية طبعة الثانية 1417هـ – 1997م.

657 – مآثر الأنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، عالم الكتب، بيروت.

658 – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الرّيان، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت.

659 – مجموعة الفتاوى، لتقي الدين أحمد بن تيمية الحرّاني، دار الوفاء، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى 1418هـ – 1997م.

660 – مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق للنشر القاهرة، الطبعة الأولى 1423هـ – 2002م

661 - مختصر التحفة الاثنا عشرية للألوسي، للسيد محمود شكري الألوسي، مكتبة إيشيق - إستانبول، تركيا 1399هـ - 1979م.

662 - مدارج السالكين، بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لابن القيم الجوزيّة، تحقيق محمد حامد الفقي.

663 - مدرسة الحديث في القيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى 1411هـ.

664 - مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى 1996م.

665 - مرآة الزمان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، عفيف الدين اليافعي، تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984م.

666 - مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، سعيد أبو جيب، دار الفكر، دمشق، 1402 هـ - 1982م.

667 - مروج الذهب و معادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، طبعة 1402هـ - 1982م.

668 - مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، يحيى إبراهيم اليحيى، دار العاصمة، الرّياض الطبعة الأولى 1410هـ.

669 - مرويات خلافة معاوية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م جده.

670 - مستدرك الحاكم على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النّيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ.

671 - مسلمة بن عبد الملك فاتح شطر الأناضول ومحاصر القسطنطينية، محمود شيت خطاب، دار قتيبة دمشق، الطبعة الأولى 1985م.

672 - مسند أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت.

673 - مشاهير علماء الأمصار، تأليف محمد بن حبان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة 1379هـ.

674 - مصر في العصر الأموي، عدنان، أحمد الجنابي، جامعة بغداد.

675 - مصنف ابن أبي شيبة، للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، دار القرآن والعلوم الإنسانية، كراتشي، باكستان 1406هـ.

676 - مصنف عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، طبع: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 1403 هـ.

677 - مع المسلمين الأوائل، حلمي مصطفى، دار العلوم، جامعة القاهرة، الطبعة الثانية 1409هـ - 1989م.

678 - معاوية الرجل الذي أنشأ دولة، إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

679 - معاوية بن أبي سفيان، بسام العسلي، دار النفائس، بيروت الطبعة الثانية، 1400هـ.

680 - معاوية بن أبي سفيان، منير الغضبان، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة 1417هـ - 1996م.

681 - معجزة الإسلام، عمر بن عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1969.

682 - معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.

683 - معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري.

684 - معنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربيني، دار الفكر 1398هـ - 1978م.

685 - مفاتيح العلوم للخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، حققه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت 1984م.

686 - مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

687 - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، الطبعة الثانية 1389هـ، النهضة المصرية.

688 - مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء، أبو حامد الغزالي، تحقيق محمد جاسم الحديثي، الطبعة الأولى، الرياض.

689 - مقدمة ابن خلدون.

690 - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، عبد العزيز الدوري، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر 1978م.

691 - مقدمة في تاريخ صدر الإسلام و عبد العزيز الدوري، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الثانية 1961م.

692 - مكانة المعلم في التراث العربي الإسلامي، عبد الله خليف العمادي الزبيدي، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا.

693 - مكانة المعلم في التراث العربي للزبيدي.

694 - ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة 1405هـ - 1985م.

695 - ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت الطبعة الأول، 1979م.

696 - من أجل صحوة إسلامية راشدة تجدد وتنهض بالدنيا، يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولي 1998م.

697 - من تصلي عليهم الملائكة ومن تلعنهم، د. فضل إلهي، دار ابن حزم، الطبعة الثانية، 1421هـ -2000م بيروت، لبنان.

698 - من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، طبعة عام 1411هـ - 1991م.

699 - من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، محمد عبد الرحمن المغراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

700 - من قتل الحسين، عبد الله بن عبد العزيز، الطبعة الثانية، دار الأمل، القاهرة.

701 - مناقب أبي إسحاق الجبنياني، أبو القاسم اللبيدي، كلية الآداب، الجزائر.

702 - مناقب أبي حنيفة، حافظ اليني الكردي، دار الكتاب العربي، بيروت 1401هـ.

703 - مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة 1970م.

704 - منهاج السنة، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

705 - منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان علي حسن، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية 1413هـ - 1993م.

706 - منهج المسعودي في كتابة التاريخ، سليمان بن عبد الله السويكت، الطبعة الأولى 1986م.

707 - منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله، خالد عبد اللطيف بن محمد نور، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة الأولى عام 1416هـ - 1995م.

708 - منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل العلياني السُلمي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م.

709 - موارد الظمآن لزوائد ابن حبان، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، المكتبة السلفية، القاهرة.

710 - مواقف المعارضة في خلافة يزيد، محمد بن عبد الهادي بن رزّان الشيباني، المكتبة المكّية، دار البيارق، الطبعة الأولى.

711 - مواقف حاسمة، محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1952م.

712 - موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي أبو الأعلى، دار الفكر، بيروت، لبنان 1968م.

713 - موسوعة الآداب الإسلامية المرتبة على الحروف الهجائية، دار طيبة للنشر والتوزيع.
714 - موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة التاسعة 1996م.
715 - موقف الشعر من الحركة الزبيرية، محمد علي الهرفي، دار المعالم الثقافية، الطبعة الثانية 1418هـ.
716 - موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، الأمين الصادق الأمين، مكتبة الرشد، الرياض الطبعة الأولى، 1418هـ - 1998م.
717 - موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع، د. إبراهيم عامر الرحيلي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى لعام 1422هـ.
718 - ميزان الاعتدال البيجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1382هـ.
719 - نسب قريش، لأبي عبد الله مصعب عبد الله الزبيري، طبع دار المعارف مصر.
720 - نحو دستور إسلامي، محمد سيد أحمد.
721 - نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي: نظرات وتصويب، دار الوفاء، مكتبة وهبة، د. عبد العظيم الديب، الطبعة الثانية 1418هـ - 1997م.
722 - نساء لها تاريخ، أم أسماء بنت عرفة بيومي، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م.
723 - نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الأولى، 1970م.
724 - نساء من عصر التابعين، أحمد خليل جمعة، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة 1422هـ - 2002م.
725 - نشأة الحركات السياسية والدينية في الإسلام، د. فاروق فوزي.
726 - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف، الطبعة السابعة.
727 - نظام الإسلام، الحكم والدولة، محمد المبارك، بيروت، دار الفكر 1401هـ.
728 - نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق، د. أحمد عبد الله مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.
729 - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، دار النّفائس، بيروت، الطبعة الثالثة 1407هـ - 1987م.
730 - نظرات في التصوف الإسلامي، د. محمد القهوجي، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى 1424هـ -2004م.

731 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب للمقّري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1388هـ - 1968م.

732 - نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد عبد الوهاب النويري، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1395هـ.

733 - نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار، محمد علي الشوكاني.

734 - هجرة القبائل العربية على البلاد المفتوحة، صالح العلي.

735 - واسط في العصر الأموي، عبد القادر المعاضيدي.

736 - وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن السعدي، المعارف، الرياض، طبعة 1402هـ.

737 - وسطية أهل السنة بين الفرق، د. محمد باكريم، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى 1415هـ - 1994م.

738 - وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة، زهير محمود الحموي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1999م.

739 - وفاء الوفاء، علي أحمد السمهودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة 1404هـ.

740 - وفيات الأعيان وأبناء الزمان، لابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

741 - وقعة صفين: نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، الطبعة الثانية 1382هـ.

742 - ولاية الشرطة، د. نمر محمد الحميداني، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثانية 1414هـ - 1994م.

743 - يزيد بن معاوية: حياته وعصره، د. عمر سليمان العقيلي، الرياض 1408هـ - 1988م.



الفهرس

الفصل الثامن: الفتوحات الإسلامية في عهد عبد الملك والوليد وسليمان

الفصل التاسع: عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

الفصل العاشر: بنو عبد الملك يزيد وهشام

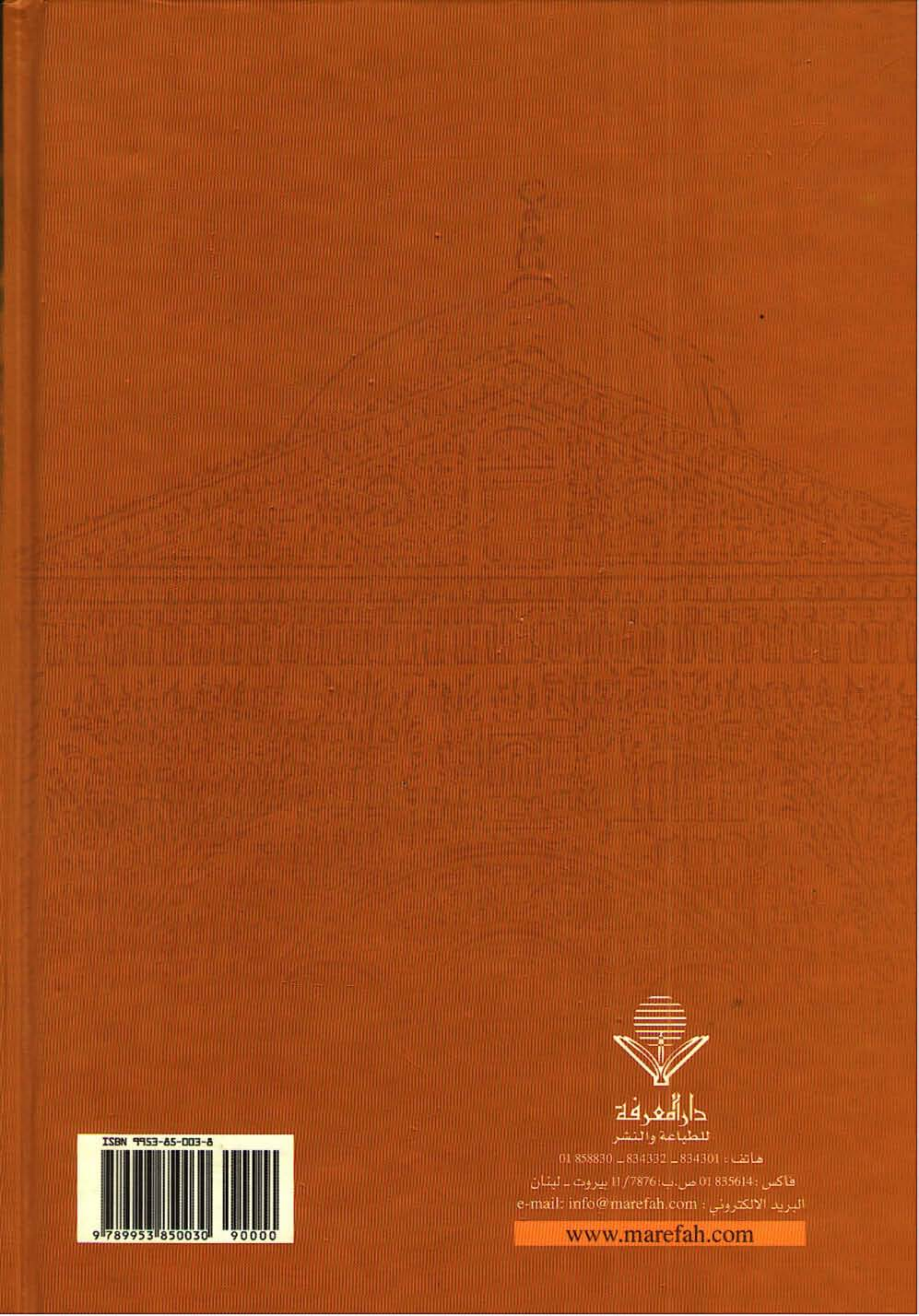
الفصل الحادي عشر: سقوط الدولة الأموية

المؤلف في سطور

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام (1383هـ\1963م) .
- حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز . وكان ترتيبه الأول على دفعته عام (1413هـ - 1414هـ \ 1992م - 1993م) .
- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية . كلية الأصول . قسم التفسير وعلوم القرآن . عام (1417هـ \ 1996م) .
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بجامعة أم درمان . وكانت الرسالة العلمية : فقه التمكين في القرآن الكريم .

كتب صدرت للمؤلف من إصداراتنا :

- السيرة النبوية : عرض وقائع وتحليل أحداث
- سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه . شخصيّته وعصره .
- سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه . شخصيّته وعصره .
- سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه . شخصيّته وعصره .
- سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه . شخصيّته وعصره .
- سيرة أمير المؤمنين الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه . شخصيّته وعصره .
- الدولة العثمانيّة: عوامل النهوض والسقوط .
- فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم .
- تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا .
- تاريخ دولتي المرابطين والموحدين .
- الوسطية في القرآن الكريم.


دار المعرفة
للطباعة والنشر
هاتف : 834301 _ 834332 _ 01 858830
فاكس : 01 835614 ص.ب: 11/7876 بيروت ـ لبنان
البريد الالكتروني : e-mail: info@marefah.com
www.marefah.com
ISBN 9953-85-003-8
9 789953 850030 90000